وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

فيكتور هوغو

الأعمال الروائية الكاملة
(١)

هان الإيسلندي

طبعة قدّمها وحققها، وعلّق عليها

برنار لويّو
أستاذ مساعد في جامعة ستراسبورغ

ترجمة: زياد العودة

علي مولا

فيكتور هوغو

(١٨٠٢/٢/٢٦ بيزانسون – ١٨٨٥/٥/٢٢ باريس)

– شاعر وكاتب وروائي ومسرحي فرنسي عظيم، وهو من أبرز أدباء فرنسة في الحقبة الرومانسية، وعضو الأكاديمية الفرنسية منذ عام ١٨٤١. وهو ابن ضابط خدم في عدم نابليون بونابرت ووصل إلى مرتبة جنرال.

– بدأ بكتابة الشعر والنثر منذ أن كان في الرابعة عشرة من العمر، وفاز بجوائز أدبية عديدة، وقد قال عن نفسه آنذاك: «أريد أن أكون شاتوبريان أو لا شيء».

– درس الأدب اللاتيني والحقوق. في العشرينات اقترب من الأوساط الليبرالية – الديموقراطية المعادية لأسرة بوربون الملكية الحاكمة، وأعلن الحرب على الكلاسيكية، وأصبح من أكبر أعلام الحركة الأدبية الرومانسية.

– مارس السياسة وأصبح نائباً عن باريس في البرلمان الفرنسي، ومن أكبر المدافعين عن الجمهورية. وبعد سقوط الجمهورية وعودة النظام الملكي، عاش في المنفى تسعة عشر عاماً (١٨٥٢ – ١٨٧١).

– من أهم مؤلفاته الشعرية «الشرقيات» (١٨٢٩)، و«أوراق الخريف» (١٨٣١)، و«أغاني الغسق» (١٨٣٥). ومن أعماله المسرحية دراما «كرمويل **Cromwell**» (١٨٢٧) التي كرسها لقائد الثورة الإنكليزية، وقدم هذه المسرحية بمقدمة هامة أصبحت بياناً أدبياً جمالياً للحركة الرومانسية في فرنسة، وأصبح حامل لواء التجديد في الأدب الفرنسي. غير أن هوغو اكتسب شهرته العالمية في النثر والرواية، وكانت سنوات المنفى هي الأكثر عطاءً وإبداعاً وإنتاجاً.

– من أهم أعماله الروائية رواية «البؤساء» (١٨٦٢) وصوّر فيها حياة مختلف طبقات المجتمع الفرنسي. بدءاً بسقوط نابليون بعد معركة واترلو، وانتهاء بقمع ثورة باريس على النظام الملكي، وقد ترجمت إلى جميع لغات العالم، وأخرجت إلى السينما عدة مرات؛ و«عمال البحر»(١٨٦٦)، و«نوتردام باريس» ١٨٣١وهي رواية تاريخية، يتحدث فيها عن باريس في القرن الخامس عشر، وهي ثاني رواية يكتبها هوغو.

وقد قال عنه الكاتب الروسي الكبير ليون تولستوي: «إن فيكتور هوغو هو من أقرب الكتاب إلى قلبي».

هـان الإيسلندي

الإشراف الفني والطباعي
أحمد عكيدي

فيكتور هوغو

الأعمال الروائية الكاملة

(١)

هـــان الإيسلندي

طبعة قدّمها وحققها، وعلّق عليها

برنـار لويـّو

أستاذ مساعد في جامعة ستراسبورغ

ترجمة : زياد العودة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٩

العنوان الأصلي للكتاب:

Victor Hugo

Han d'Islande

Édition présentée,
établie et annotée
Par Bernard Leuilliot
Maître - assistant
à l'Université de Strasbourg

هان الإيسلندي = Han d'Islande / فيكتور هوغو ؛ قدّمها وحققها وعلّق عليها برنار لويو؛ ترجمة زيادة العودة .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٨ .- ٧٤٤ ص ؛ ٢٤ سم.

(الأعمال الروائية الكاملة؛ ١)

١- ٨٤٣ ف هـ ي غ   هـ   ٢- العنوان   ٣- هوغو
٤- لويو   ٥- العودة   ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

الأعمال الكاملة

«١٤»

مقدّمة

لن يكون الهوسُي جنساً أدبيّاً أبداً، إذ أنّه

يكفي أن يخرجَ المرءُ عن كافةِ الأجناس الأدبيةِ

حتى يُصنَّفَ في نِطاقه.

(شارل نوديبه، مقدمة برترام)

في الثالث والعشرين من كانون الثاني للعام ١٨٢٣ ، تُعْلن لوريفي[١] ، – وهي دوريةٌ رجعيةٌ متطرِّفة ، وكان أوّل عددٍ قد صدر منها في آذار للعام ١٨٢٢ ، ولسوف يتصوَّر بالزاك أنه سيجعلُ لوسيان روبامبريه يعاونُه فيها – تعلنُ عن الصُّدور القريب لرواية «هان الإيسلندي» فتقولُ: «إن هذا التأليفَ الفريدَ هو أوّلُ كتابٍ نثريّ لفتى أصبح معروفاً من خلال نجاحاتٍ شعريةٍ لامعة . » .

(١) اليقظة .

ويصدرُ الكتاب – «وكأنه طفلٌ متروكٌ لأبٍ مجهول». في الرابع من شباط مُغفلاً من اسم مؤلّفه، أو، على الأصحّ، «بملابس زريّة» (مثلما يُروى عن لويس الثامن عشر أنه قال، وهو يتصفّح الطبّعة الأصلية لديوان القصائد الغنائية):

فقلّما كان مظهُر الكتاب جديراً بالاحترام، شأن رواياتِ الصّنف الثّاني التي كانت مكفهَّرةَ اللّون، وورقُها رماديّ خشن، وتحتوي أغلاطاً مطبعيةً عديدة. واعتباراً من ١٥ شباط، ترفع الكونستيتوسيونيل[1] – وهي دوريّةٌ ذاتُ ميولٍ ليبراليّة، وقد كان يسهم في إصدارها الأكاديميّان جوي وتيسّو اللذان كان هيغو يهزأ بهما في عهد مجلّة الكونسرفاتور[2] ليترير – ترفعُ الغُفليّة قائلةً: «تُنسبَ هذه الروايةُ إلى السّيد فيكتور هيغو، وهو مؤلّفُ ديوانٍ من القصائد الغنائية»، ولسوف يقودُ إفلاسُ أوّلِ ناشرٍ لها هيغو إلى أن يُصدرَ، في مكانٍ آخر، بتاريخ ٢٦ تموز «طبعة ثانية» من تلك الرّواية، وقد أُضيفت إليها مقدّمةٌ جديدة، وروجعت، وتخلّصت من أخطاءِ الطبّعة الأولى[3].

إن المؤلّف عينه إذن هو الذي يتكلّمُ، في قصائده الغنائية، بلغةٍ صارمةٍ، ومواسية، ودينيّةٍ يحتاجُ إليها مجتمعٌ هرمٌ خارجٌ لنوّه من فحشيّات الإلحادِ والفوضى، وهويترنّح أشدَّ التّرنحّ، وهو الذي لا يتردّد في روايته، كما كان يقرؤه شارل نوديييه على أيّة حال، في أن «يتقصّى بمشقةٍ كافة ضروب العجز الأخلاقيّ في الحياة، وكلَّ فظاعاتِ المجتمع، وقباحاته كلَّها، وكافة ضروبِ انحطاطه، وكلّ الاستثناءات المريعة، في الحالةِ الطبّيعية والحالةِ المتمدّنة». إن

(١) الدّستوري.

(٢) المحافظ الأدبي. (م:ز، ع)

(٣) انظر الملحق رقم/٤/.

حاجته «إلى البوح ببعض الأفكار (. . .) التي لا يستقبلها شعرُنا الفرنسي» قد جعلته يقتحمُ هذا «النّوعَ من الرّواية النثريّة».

إن نشوء الرّواية يرجع إلى ربيع عام ١٨٢١ ، إلى آذار ونيسان أو أيار؛ ففيكتور هيغو يُسرُّ إلى فينيي بأنه لم يصنع شيئاً في ذلك الشهر: «ومع ذلك ، كنت قد بدأتُ روايةً تُسليني ، بصرفِ النظر عن الضّجر الذي تسبّبُه لي كتابتُها» . ولسوف يحدّد هو نفسُه شهرَ أيّار تاريخاً لبداياتِ المشروع فيما بعد . وكان شهر آذار قد شَهدَ نهاية دوريةِ الكونسرفاتور ليترير التي كانت قد لاقت الترّحيب عند تأسيسها في عام ١٨١٩ ، باعتبارها صادرةً عن «التّحالف المقدّس الذي شكلّه بعضُ الشبان ضدَّ تلك الروّح المجدِّدة التي تجتاحُ البارناس لكي تشوّشَه» . وقد كان فيكتور وشقيقاه أكثر من مجرّد مساهمْين في تلك الدّورية ، بل كانوا المشرفين الحقيقيين على تحريرها؛ فلا بدَّ للروائي من تفرُّغ لا سبيل إلى مقارنته بالانكباب المتقطِّع الذي يرتضيه ، عند الاقتضاء ، تـأليفُ قصيدةٍ غزلية ، إن غياب الكونسرفاتور ليترير قد جعل هيغو قادراً على العمل في روايةٍ معينة ، في الوقت ذاته الذي يحسبُ فيه حساباً للدّفاع عن «المذاهب السّليمة» ، وإيضاحها ، من خلال اجتماعاتِ جمعيةِ بون ليتر[1]؛ فقد حرّره غيابُها من عملٍ مستمرّ كان يتعبه منذ فترةٍ طويلة .

إن هذه الحملةَ الأولى ، حملة التّأليف ، تنقطعُ في تشرين الأول لعام ١٨٢١ ، وهو التاريخ الذي سيحدّد هيغو فيما بعد أنه قد أنجز فيه «الفصل الخامس» ، وهذا الفصلُ لا يتوافقُ بالتأكيد مع الفصل الخامس عشر من النصّ النهائي؛ وما هو إلاّ كلامٌ لا ينبغي أن يُؤخذَ بحرفيته أن نجيز لأنفسنا تعرُّفَ

(١) أي الآداب الجيّدة (م: ز. ع)

«الفصولِ الأربعة عشر الأولى» لرواية هان، في «الكراسات» التي يوصِلُها فيكتور إلى أديل فوشّيه في آذار لعام١٨٢٢ . إن المعلومات التي يمكن أن نستمدَّها من المفكرّة التي يمسكُها هيغو أثناء تلك الفترة تتعلّقُ كلُّها بالنّصف الثاني من الرّواية: وهي تتدرّجُ من ٧نيسان حتى٣١ آب لعام١٨٢١ ، وترتبط على نحوٍ أدّق بالفصول: ٢٨و٣٦و٣٧و٤٤و٤٥ .[١]

هناك، في البداية، بعضُ الإشارات المتعلقة بالمشاهد الطبيعية؛ فرؤية «مروحةِ طاحونةٍ على الهضبة» موجودة في الفصل الثامن والعشرين، وهي تتعلّق بالمواقع التي يجتازها أوردينر، وهو في طريقه إلى فالدروغ. و«الصّخور المنضَّدةُ وكأنها دَرَجٌ للعمالقة» هي تلك الصخور التي يلمحها عمالُ الذين يتوجّه رتلُهم نحو معبر بيلييه – نوار (الفصل ٢٨) والردّ الذي يدقٌّ بوزنٍ اسكندري،[٢]

LE/ Fils/ du/ Vi/ CE/ -Roi/ , MA/ MÉ/ RE, EST/ biEN/ Heu/ Reux./

ابن نائب الملك، يا أميّ، سعيد فعلاً)، يستحضرُ الحوارَ الذي يجري بين

---

(١) إذا حاولنا أن نوجز حبكة هان الإيسلندي المركّبة إلى حدّ كبير فإننا نحصل على ما يلي: يجري الحدثُ في النّرويج، في القرن السّابع عشر: فارسٌ شابٌ اسمه أوردينر يقعُ في حبّ فتاة اسمها إيتيل، وهي محتجزةٌ في قصر مونكولم، مع والدها شوماكير الذي اتُّهِمَ باطلاً بجريمة ضدّ الدّولة، على يد خصمه المستشار دالفيلد. وينتظر السّجينان علبةً صغيرة تحتوي إثباتاتٍ على براءة شوماكير؛ غير أن العلبة يحتجزُها قاطعُ طريقٍ دمويّ هو هان، وهو كائنٌ بهيميّ يعيشُ بمفرده مع دبّ، ويغتذي بالدّم البشري. يمضي أوردينر للبحث عن هان، في الوقت الذي يُثيرُ فيه دالفيلد تمرُّداً بين عمال المناجم، مبتغياً من وراء ذلك أن يسبِّبُ هلاكَ شوماكير، إذ يتهّمه بأنه المحرّضُ على ذلك التمرّد. وبعدَ حوادثَ عديدة غير متوقّعة تجلبُ المتعة لهواة الرّواية السّوداء (رواية الرّعب)، يتمُّ العثورُ على العلبة الصغيرة، وتُبرَّأ ساحةُ شوماكير، ويسقط في يد دالفيلد، ويقضي هان في السّجن الذي يدعُ أعداءَه يحبسونه فيه فيضرمُ حريقاً فيه بنفسه.

(٢) أي باثني عشر تقطيعاً في الأوزان الشعرية الفرنسية. (م:ز.ع).

إيتيل والكونتيسّة دالفيلد في الفصل ٣٦ ، مع أننا لا نستطيع أن ننسبه ، تحت ذلك الشكل ، إلى شخصية الملازم فريدريك . وهناك جملةٌ أخرى بورنٍ اسكندري:

Je/ Veux/ qu'il/ Soit/ Un/ - DiEu/ PouR/ PouV/ OiR/ bLAS/ PHÉ/ MER

(أودّ أن يكون هناك إلهٌ ، لكي يستطيع المرء أن يجدّف) .

تقدّم في الرّواية جواباً حاضراً يردّ به هان على أسقف دورنتهايم . (الفصل: ٤٥) وأخيراً ، فهناك الجملة الثمانية التقطيع ، والتي يوردُها هيغو ، بتاريخ ٧ نيسان:

Je/ Veux/ Mou/ RiR/ dans/ MoN/ boN/ HEUR/

(أريد أن أموت وأنا سعيد) – والتي تُفهم على معنيين . ومن جهةٍ ، فهو يلخّصُ بصورةٍ حسنة الموقفَ الذي يلفى العاشقان فيه نفسيهما ، في الفصلِ الرابع والأربعين: فسيموتُ أوردينر ، وقد انضمّت إليه إيتيل أخيراً لتقترن به: «اصغ إلي ، يا حبيبي أوردينر ، أليس صحيحاً أننا سعيدان الآن بأن نموت . بما أن الحياةَ لم تستطع أن تجمعنا؟ . » غير أن العبارة تبطّنُها إحالةُ سيريّه . إذ أن كّل ما في الأمر هنا هو تمثيلٌ لحلم يُفصِحُ هيغو عن نفسه به ، في موضع آخر ، من أجل تلك التي تربطها به علاقاتٌ يُحبُّ أن يعتقد أنها لا تنفصم ، منذُ ٢٦ نيسان ١٨١٩: «قد نتزوّج غداً ، فأقتلُ نفسي بعد غد ، وأكون سعيداً . . . »؛ فبعد أن مُنِعَ فيكتور هيغو وأديل فوشيه منذ عام ، أي في ذلك الشهر ، شهر نيسان لعام ١٨١٢ من أن يلتقيا ، وحتى من أن يتراسلا ، حتى آذار ، بقرارٍ من أهلِ كلٍّ منهما ، وخصوصاً من الجنرالة هيغو التي كانت تعارضُ المخاطرةَ بما تعتبرُه زَواجاً غير متكافئ ، أخذ فيكتور وأديل يعيشان الأحداثَ الحالمةَ للغاية لحبٍّ معاكسٍ يمكنُ أن نقرأ ما يشبه

نقلاً له في قصة أوردينر وإيتيل: «إنما أنت، يا حبيبتي الغالية، من كنتُ أبتغي تصويرها، لكي أتعزّى تعزيةً كئيبة، من خلال رسم صورة تلك التي أضعتُها، ولم تعد تظهر في حياتي إلاّ في مستقبلٍ بعيد.». (١٦ شباط ١٨٢٢). وقد وجدت مغامرةُ أوردينر ضرباً من معادلٍ لها، في تموز ١٨١٢، في الرحلة التي قام بها سيراً على الأقدام، من باريس إلى درو، لكي يحاول أن يلتقي فيها أديل، وأن يحصل خصوصاً من بيير فوشيه على إذنٍ بالانتظار. كما أتاح له ذلك موتُ الجنرالة هيغو الحديثُ العهد، من جهة أخرى.

أما هو، فلن يفوته، خلال إعادة طبع الرّاوية في عام ١٨٣٣، أن «يؤنّب»، كما أمكن للبعض أن يقول، مؤلّفَ هان «ذلك الفتى الغرّ» لأنّه لم يعرفْ سوى أن «يحوّل موانعَ الحياة البورجوازية إلى عوائق هائلةٍ وشاعريّة»[1]. هل كان ذلك بفعلِ السّن؟ إنه على الأصّح علامةٌ على أن ما مات في ذلك التاريخ هو حبُّه الأوّل؛ فقد أخذ حينذاك يشاطر جولييت درويه بهجة الحبّ الكاملة، «بعد مرور أحد عشر عاماً على الفترة التي بيّن فيها لأديل التي ضمنّها مشروعَ هان الإيسلندي.» (ي. غوان). إن مؤلّفَ قصيدة: «نشيد إلى الرتل» لم يكن بوسعه إلاّ أن يترك في الخزانة سيفَ البارون أوردينر ومعطفه الأخضر، وقلنسوته المريّشة، كدليلٍ أيضاً على صفاءِ ذهنه تجاه «الرومنطيقية الارستقراطية»، رومنطيقية سنواتِه العشرين، رومنطيقية مرضِ العصر الذي تعلّم منذ ذلك الحين كيف يشخّصه: وذلك حين انزلق من الرومنطيقية اليمينية – ومن النزعة المتطرفة – إلى رومنطيقية يساريّة.

وفي تشرين الأول من العام ١٨٢١، يتوقف هيغو عن العمل في روايته،

(١) انظر: الملحق رقم:/٦/

ويتخيّل حينذاك «موضوعاً مأسويّاً عظيماً» نجهل عنه كلّ شيء، وسرعان ما يتخلّى عنه لكي يلبّي طلباً جديداً للأكاديمي فرانسوا دونوفشاتو. وكانت المسألةُ، كما في عام ١٨١٨، تدورُ على الردّ على «مطالبة» النقدُ الإسبانيّ مؤلّف «جيل بلا». وقد كان على فيكتور هيغو أن يفعل أكثر من المساعدة في إعداد التقرير الذي كان موضوعاً لإبلاغٍ موجّهٍ إلى الأكاديمية الفرنسية في ٨ كانون الثاني ١٨٢٢. بل كان بحثاً جديراً بالعلماء، ويذكر إظهارُ المعرفة فيه، وعلى نحوٍ كافٍ بطرائق سبياغودري[1]، بّواب سبلادجيست[2]، والتي تعكس سعةَ اطلاعه. ويقترح الكسندر سوميه على هيغو، في الفترة ذاتها، أن «يستمدّ ملهاةً» من رواية كينيلورث الرائعة، مشترطاً عليه أن يكتب فصولها الثلاثة الأولى. وكان في ذلك المشروع ما يثيرُ اهتمامَ هيغو؛ فقد كان يمكن أن يجلب له، كما سيؤكد لأديل بدقّة «بضعة آلاف من الفرنكات، ويجعَلَه قادراً على أن يثبت بذلك «أن الآداب تفيدُ في شيءٍ ما.»». ولكن المشروع سرعان ما اصطدم بانفصال المتعاونين وديّاً. وبعد خمسة أعوام من ذلك التاريخ، يتناول هيغو نصَّه مجدّداً ليستمدّ منه: آمي روبسار.

كان من شأن قراءته لسكوت أن تذكّره بروايته الخاصّة، والتي تركها منذ ستة أشهر. وفي ذلك الحين، إنّما يوصلُ الأقسامَ المكتوبة منها إلى أديل، والتي تحثّه حالاً على متابعتها: «أنت تحبني بما يكفي لأن تنهيها». (٢٢ آذار ١٨٢٢)، وترغمه إلى حدّ ما على أن يطلبَ من الجنرال هيغو أن يوافق على زواجهما. وتصلُ الموافقة في ١٣ آذار مترافقةً بشرطٍ هو التّالي: «قبل أن تفكّر بالزواج، ينبغي أن تكون لك مهنةٌ معيّنة أو عمل، وأنا لا أعدُّ المجالَ الأدبيّ

(١) هو إحدى شخصيات الرّواية. (م: ز.ع).

(٢) مشرحة علمية يقوم عليها سبياغودري. (م:ز.ع).

كذلك ، أيّاً كانت الصّورةُ الباهرةُ التي نبدأ بها فيه . »ولسوف يقوم منذ ذلك الحين بأعباء «أربعة مشاغل جدّيّة» هي «منْحتاه» و«ديوانه الشّعري» و «روايته» (٢٠ حزيران) . ويعلم في ٤ أيلول بقرار الهبة النّهائي لمنحة ملكية تتقلّصُ ، في الحقيقة ، من ١٢٠٠ فرنكاً إلى ١٠٠٠ فرنكاً؛ ولا تصلُ منحةُ وزارة الدّاخلية سريعاً . أما الدّيوان - وهو الطّبعة الثانية للقصائد الغنائية - فيْصدرُ في الأيام الأولى من كانون الثاني ، والرّواية في ٤ شباط ١٨٢٣ . وكان المؤلَف حينئذٍ يناهزُ الواحدة والعشرين من عمره . وكان قد تزوّج في ١٢ تشرين الأول السّابق تلك التي كرّس لها نفسه ضمنياً من قبل .

لقد كُتبت الرّواية إذن من خلال حركتين؛ وربما حسب أسلوبين إخباريين . فنفترض أن هيغو ثابر بصورةٍ رئيسة ، خلال الفترة الأولى ، على تصويرِ مسيرةِ البطل المتوحّدةِ بحثاً عن سعادته . أما الكتابُ فيبدو ، في ذلك التاريخ ، أنّه لم يكن له عنوان ، مع أنّه قد جهد ، منذ تلك اللحظة في «أن يُنضجَ تصوُّرِه له ، ويرتّب الكتلَ التي تشكلّه ، ويوفّق بين تفاصيله» .

«حين كتبتُ السّطَر الأول ، كنت أعرف مسبقاً آخرَ سطرٍ فيه . » (١٦ شباط ١٨٢٢) ، غير أن نبرته لا بدّ أنها قد تبدّلت أثناء استئنافِ العمل فيه ، في شهر آذار ١٨٢٢ . ولا بدّ أن مركزَ الاهتمام قد انتقل ربّما من شخصيّةِ أوردينر إلى شخصيةِ دور العنوان ، وهو «شيطان كليبستادور» ، وهكذا يتفق أن تختلط بهذه الرّوايةِ المثالية التي تنتمي إلى أسرة روايات «الطّاولة المستديرة» (سانت - بوف) تختلطُ الألعابُ الهمجية لخيالِ «مريض» (نودييه) والنتيجة ، بطبيعة الحال هي مسخٌ جميل إلى حدّ كافٍ ، وذلك لأن الأسلوب الرّومنسيّ لا يشبه شيئاً ، كما أمكن لشارل نودييه أن يقول .

ومع ذلك، فإن مؤلّف هان الإيسلندي، باعترافه الشخصيّ، كان قد اتّخذ من روايات فالترسكوت[1] نموذجاً له: «لقد كانت الرّواية مسرحيةً طويلة، مشاهدُها لوحات، وكانت مقاطعُ الوصف فيها تسدُّ النقصَ في التّزيينات والملابس. كانت كافةُ الشخصيات تصوّر نفسها بنفسها، على أيّة حال. كانت الرواية فكرةً قد أوحت لي بها مؤلّفاتُ فالتر سكوت، وكنت أودّ أن أجرّبها، لما فيها من منفعة لأدبنا». هذا ما يفسّر أن هيغو، بطبيعة الحال، سوف يكون، في نظر فينيي عام ١٨٢٣، هو الذي أرسى في فرنسا، فعلياً، ما يؤسّس لفالتر سكوت.

يجري الحدثُ في النّرويج - وليس في إيسلندا، كما يجعلُنا العنوان نظنّ، وكما لا تخشى أن تقول شخصية «الشاعر الرثائي»، من خلال ذلك النوع من «المقدمة الحواريّة» الذي يُستخدم كمدخلٍ إلى الطّبعة الثانية من قصّة «اليوم الأخير لمحكوم بالإعدام»[2]. إن اختيارَ الديكور ليس عديمَ الأهمية؛ فهو تحيةٌ إلى الرّوائي الشّمالي. وقد كانت تتضمن أيضاً استخدام اللون الأوسياني[3]، وهو خيارٌ ملائم لأسلوب «أنماط الشعر القديمة». إن المصدرَ الرئيسَ الذي يستقي منه فيكتور هيغو معلوماته هو بول - هنري مالّيه، مؤرّخ الدانمرك القديمة، في القرن السابع، ومترجم قصائد الإيدا[4]، وهو يعرّفُ ذلكَ الأسلوبَ بتعارضه مع «شعرِ لغاتنا الحديثة» على النحّو التالي:

(١) انظر الملحق رقم. /٥/.

(٢) قصة لفيكتور هيغو. (م:ز.ع).

(٣) نسبة إلى أوسيان، الشاعر الإيقوسي البطولي والغنائي، في القرن الثالث عشر وقد قلّده كثيرون ومنهم ماكفرسون. (م:ز.ع).

(٤) اسم يُطلق على ديوانين من الشّعر الاسكندنافي القديم. (م: ز.ع).

«إن أسلوبَ الأنماط الشعرية القديمة شديدُ التكلّف، وكثيرُ المجاز، وبعيدٌ جدّاً عن اللّغة العادية. ونجدُ فيه، انطلاقاً من تلك الأمور حتى، الكثيرَ من العظمة، والتفخيم، والسّموَّ والغموض. وإن كان طابعُ الشعر هو ألاّ يجمعه جامعٌ بالنّثر وإن كان لا بدّ للغةِ الآلهة أن تكون مختلفةً عن لغة بني البشر. إن كان كلُ شيء ينبغي أن يؤدّى فيها عن طريق الصوّر، والمجازات، والمبالغات والاستعارات؛ فقد كان اسكاندنافيونا شعراء دون ريب، وشعراء كباراً، ولن يكون في الأمر ما يفاجئنا في شيء. إن الشعرَ العظيم ينتمي إلى الشعّوب التي لا تزالُ متوّحشةً أكثر ما ينتمي إلى الشعوب المتمدّنة والمتعلّمة [. . .]. إن شعرَ لغاتنا الحديثة لم يعدْ أكثر من محاكمة مقفّاه، وهو يخاطبُ الفكر ولا يقولُ شيئاً تقريباً للقلب. إننا لا نبتغي إلاّ الوضوحَ والإحكام. ولم يكونوا يبتغون إلاّ الأشياء القويّة والمؤثّرة، والتي قد نجدها اليوم مبالغاً فيها وهائلة (تاريخ الدانمراك، المجلدّ الأوّل، الصفحة: ٣٤٣).

إن لهذا التّوازي ما يعادلُه في الميولِ المتعارضة، ميولِ إيتيل دو غريفنفلد وقصائد الإيدا، وميل الملازم والفيلد لكليليا و«الكتب المنشورة حديثاً»، والتي تصل من باريس إلى بلاط الدانمراك. وكان هيغو يعلن عن خياره الخاص في ذلك. إن أسلوب هان الإيسلندي سوف يكون أسلوبَ «الأشعار القديمة» الذي غدا تقريباً شائعاً في ذلك الحين، والذي كان شاتوبريان قد استثمر تأثيراته – من بين أوّل من فعلوا ذلك – في قصيدته «الشهداء»، مستمدّاً مادّةَ وأسلوبَ «قطّاع الطرق» الفرنكيين من قصائد رانيار التّاريخية خصوصاً.

إن شعوب الشّمال «السّكندنافية» والسّلتيين أو التوتون[1]، كانوا قد عُرفوا، من جهةٍ أخرى، بأنهم أصلٌ في كلّ الحرية الموجودة بين الناس تقريباً، منذ أن جعلهم مونتيسكيو حُماتها، في مقطعٍ شهير من كتابه «روح القوانين» (الفصل: ١٧، المقطع /٥/) وهو المقطع الذيّ يورده ماليّة:

«لقد سمّى القوطي جورنانديس شمالَ أوروبا مصنعَ الجنس البشري. ولسوف أسميّه، على الأصح، مصنع الأدوات التي تحطمُّ القيودَ المصنوعة في الجنوب؛ فهناك إنّما تُصَنُع الأمم الجسورة التي تخرج من بلادها لكي تدمرّ الطّاغية والعبيد، وتعلّم بني البشر أن الطبيّعة قد جعلتهم أحراراً، فما كان من العقل إلاّ أن جعلهم تابعين من أجل سعادتهم»؛ فالحريّةُ والمساواةُ لهما طبيعةٌ سياسية في جوهرهما، وتتضّمنان كما هي الحال عند مونتيسكيو، خضوعَ الجميع الطّوعي للقانون. إن التعـارضَ جغرافيٌّ وسّياسي بين الشمال والجنوب، وبينَ «الحرّية» و«الاستبداد» يتّفقُ أن يُتَقل نقلاً أدبيّاً، في رواية هان الإيسلندي، إذ صحّ التعبير إلى داخل مملكة الدانمرك. إن تمرُّد عمال المناجم، الآتي من الشمال، يمثّل فيها تمثيلاً حسناً «الأداةَ» المكرّسة لتحطيم الأغلال المصنوعة في الجنوب، في البلاطاتِ البعيدة، بلاطات برغن أو كوبنهاغن، وعلى غرار ملكية لويس الرابع عشر. ويُفضي هذا التمرّد، بواسطة النّعمة، وهذا من نافل القول، من العاهلِ إلى رفع الوصاية الاستبدادية في الواقع، وإلى إقامةِ دولةٍ معتدلة، يضمنُها الرجوعُ إلى النظام، وخضوعُ الجميع للقانون الجديد. إنه سيناريو مطمئن. في نهاية الأمر، ومن شأنه أن يتيح أيضاً إدماجاً خيالياً لثورةٍ أخرى في التاريخ

(١) يمكن أن نقول عموماً إن السّلتيين كانوا يحتلون الأقسام الغربية من أوروبا وإسبانيا والغال، والممالك الثلاث لبريطانيا العظمى، وجرمانيا، وممالك الشمال، بالإضافة إلى قسم من إيطاليا. (بيلوتييه – تاريخ السّليتين، ١٧٤٠، المجلّد الأول، الصفحة: /٢/).

الفرنسي، ثورةٍ تقليدٌ بقي حيّاً لزمنٍ طويل في القرن التاسع عشر، يعدُّها ظاهرةً ذات طبيعةٍ «سلتيّة» بحتة[1].

لقد استمّد هيغو من مآليه تاريخَ ارتقاء وسقوط العاميّ شوماكير الذي أصبح الكونت دو غريغنغلد، بعد أن عمل شخصيّاً – باعتباره مستشاراً لكريستيان الخامس – على إقامة طبقةٍ من النبلاء تحمل ألقاباً. وحين اتُّهم بالخيانة، وقع ضحيّة «عصبة مقتدرة كان يترأسُها غولدينليف، ودالفيلد، وكنوت، ودون بلووين». حُكِم عليه بالموت في ٢٦ أيار من العام ١٦٧٦، «ووُضعت عليه حراسةٌ مشدَّدة لأربعة أعوام». وبعد تنفيذِ إعدامٍ زائفٍ به، نُقل أخيراً إلى قلعة مونكولم، قريباً من درونتهايم، في النّرويج.

و«بعد أن تعب غريفنغلد من تعليل نفسه بالآمال الخائبة، والتي لم تكن تُفيد إلاّ في أن تُبقي لديه الطَموح الذي سبَّب له كلَّ شقائه، عكَف أخيراً على دراسة الأخلاق ونتيجة للمعرفة التي لقنه إياها أفضلُ أساتذة ذلك العلم، وبتأثيرِ العمر والمهنة، أُقنع نفسه بإخلاص ببطلانِ تلك الأمجاد التي كان متعطّشاً لها كثيراً فيما مضى، وأخذ يتلهّى بتعليمِ بعض الفتية، وبترجمةِ أمثالٍ سائرة، وحكم

(١) إن الثورة الفرنسية تحمل بصورةٍ جلية طابعاً سلتياً، بالنسبة لأيّ إنسان قد درس قليلاً تاريخ الأمم الحديثة. إن حبُّ الاستقلال غير المحدود، والمغامرة الجسورة، وروحَ التعصّب، والحميّة الحربية التي تطبَعُ تلك المرحلة هي سماتٌ خاصّة بسلالة الغائيلين: «فليس رومانُ الامبراطورية هم الذين نقلوا إلينا بدمهم الفاسد تلك الميولَ الجامحة والفتويّة [. .] وثورتنا الأدبيّة تقدّم السّمات نفسها» (ألفريد ميشيل، تاريخ الأفكار الدينية في فرنسا، في القرن التاسع عشر، باريس، وكوكبير، ٤٨١، المجلد الأول، الفصل الحادي عشر: «الطابع السّلتي للثورة الفرنسية، والأل السّلتي للرومانسيّة». إن لاتور دوفيرنيه، المختص في الأثريات السّلتية، و«أوّل رام» «للرمّانات في الجمهورية» يمكنه عن حقّ أن يعتبر نموذجاً للثّوري الغائيلي (انظر: المقالات التي خصّصها ليه ميشليه في دورية: فينومان في ٤ و ٦ تموز ١٥٨١، تحت عنوان «الأسطورة الذهبية» (المؤلفات الكاملة، فلاماريون، ٠٨٩١، المجلد: ٦١، الصفحات ١٣ – ١٤).

مـأثورة عن أفضلِ كتبِ الأخلاق الأجنبية؛ ففي تلك الاهتمامات الهادئة، إنّما أطال مسيرته حتى عام ١٦٩٩، ومات في ١١ آذار من تلك السّنة. أي قبل وقتٍ قصير من وفاة الملك الذي أطلق، منذ بضعة أسابيع، سراحه الذي لم يعد من شأنه أن يكون ذا قيمة بالنسبة إليه إلاّ قليلاً، بعد أن كان قد تركه ثلاثة وعشرين عاماً في سجنٍ ضيّق. ونُقل جثمانُه إلى كنيسة فير، وهي أرضٌ تعودُ إلى صهره في جوتلاند، وقد شيّدوا له قبراً تحتفظ الكتابةُ عليه بكلّ ألقابه». (تاريخ الدانمرك، المجلّد، ٩، الصفحات (٢١١ – ٢١٢).

سوف نتعرّف هنا إحدى الأفكار المبتذلة في التّاريخ السياسي لأوروبا، في القرن السّابع عشر، وبداية القرن الثامن عشر، أي: وصول رجلٍ من مرتبةٍ دنيـا إلى السُّلطة عن طريق الحظوة التي يوليه إياها العاهلُ – أو عن طريقِ نزوةٍ له – ويتلو ذلك سقوطُه المحتمل، الذي يُعرَض على الأغلب، على أنه نتيجة تآمرٍ ينظّمه ضدّه رجالُ البلاط المهانين. إن المقارنةَ مع حبكة روي بلا تقرضُ نفسها. غير أن اسم البطل في مسرحية عام ١٨٣٨ يعني انتماءَه المزدوج إلى العامَة وإلى النبلاء، وهو ازدواجٌ يتعذّرُ الدّفاعُ عنه، وهو انتحاريّ فعلاً. أما والد إيتيل فهو، على العكس من ذلك، لا يسعه إلاّ أن يكون عاميّاً أو سيّداً إقطاعيّاً كبيراً. أن يكون شوماكير، أوعزيفنغلد. إن الأدلّة على براءته، وطريقة إعادة اعتباره يحتويها صندوقٌ صغيرٌ ضائع، ثم يجري العثورُ عليه بأعجوبة، بسبب الحاجة إلى نهايةٍ سعيدة. إن هذا الابتكار مستمدٌّ من الوسائل الأكثر تقليدية، وسائل الملهاة، والرّواية الغرامية؛ ففي هذه الرّواية، تجري الأمور كما هي الحال بالنسبة لصندوق أورغون في ملهاة تارتوف[1] إنه أداةٌ لإنتقامٍ مخزٍ، ووسيلةٌ

(١) تارتوف: ملهاة لموليير، (م: ز.ع).

بالنسبة للعاهلِ خصوصاً، لكي يؤمن للمسرحية خاتمةً سعيدة عن طريقِ التّفاخر بتسامحه.

إننا نرى كيف يوفّق هيغو بين المعطيات المأخوذة من تاريخ الدّانمرك. إنه يستخدمُها بحرّية لكي يمنح شخصيّة هان وجوداً تاريخياً؛ فقد كان يكفي أن يجعل منه سليلاً لأنغولف الذي كان عام ٤٧٨ قائداً لبعثة أفضت إلى استعمار إيسلند على يدِ النّرويجيين. وكان قصدُ أفراد البعثة أن يفلتوا من سلطةِ هارالد ذي الشَّعر الجميل، وهي سلطة، كما يقول مالّيه، «لم تكن شعوب الشمال تعرفُ اسمها إلاّ قليلاً، وكانوا بعيدين حقاً عن الاستعدادِ للخضوع لها من دون مقاومة»:

«أن معظم السّادة النروجيين الذين روُّوا أنه لا فائدة من معارضة القوّة بالقوة قد اتّخذوا قراراً بأن يهجروا بلداً كانوا مجبرين على أن يعيشوا فيه كرعايا مغمورين، ومُذلّين، ومُفقَرين. وكان إنغولف واحداً من أوّل الذين اختاروا المنفى طوعاً.

ويُقال إن خشيته من أن يعاقبَ على جريمة قتلٍ ارتكبها جعلته يحزمُ أمره على الذّهاب إلى المنفى، بقدر ما جعله استبدادُ هارالد يفعلُ ذلك. غير أن الدّافعَ الأخير بالتأكيد هو الذي حثّ عدداً وافراً من العائلات النبيلة النرويجية على الانضمام إليه. إن كلّ أولئك الهاربين الذائعي الصّيت الذين أبحروا في ذلك الحين، والذين اتخذوا إنغولف قائداً لهم قد (اقتيدوا على يده، في عام ٨٧٤ إلى جزيرة إيسلندا». (تاريخ الدانمرك، المجلد الأول، الصفحات: ٢٢٩ - ٢٣٠).

إن تلك الشخصيّة البطولية إجمالاً، مع أنها إجرامية بعضَ الشّيء، شخصيةَ المنفيّ اختياريّاً - أو شخصيّة المهاجر - النبيل المحتد، ولكنها المتلهّفة على السّلطة الملكية، هي أساسٌ في شخصيّة إنغولف المدمّرة، في راوية هان الإيسلندي وهو الذي «استمرّ تواصلُ ذريّته منذ ذلك الحين، بخَلَف وحيد دائماً». كما يقول هيغو. أمّا هان، سليله، فقد التزم بالثأر على طريقته، لموت جيل ستادت، «خلفه»، وذلك لأنه قد أصبح مذ ذاك محروماً من الأمل في رؤيةِ استمرار ذرية «أبناء إيسلندا»، في شخص جيل، أي في رؤيةِ سلالة إنغولف. ولا يغدو قاتلاً إلاّ لأنه اكتشف أنه آخرُ المتّحدرين من سلالته، فتوّصل من ذلك إلى شكلٍ من الوعي - ومن الإنسانية - تقطعُ على نحوٍ مطلق مع الطّقوس القربانية التي كان يتمثّل فيها حتى ذلك الحين كلّ فظاعة جرائمه، وعلى هذا النّحو، إنما يأتي تخييلُ الحَدَث أو ذلك الجزء الذي يمكن أن يقالَ إنه غرائبيّ، ليزاحما بسرعة كافية، وعلى الدّوام، معطياتِ الحَدَث التاريخية، من غير أن يمحوا ملاءمتها محواً تاماً.

غير أن رواية هان الإيسلندي لا تشبُه بالضّبط روايةً من روايات سكوت، فإذا لم نحكمْ على الأمر، فضلاً عن ذلك، إلاّ من خلال «العبارات المقتبسة الغريبة والمكتنفة بالغموض، التي تضيف شيئاً للمغرى، وتُسبغ مظهراً مميّزاً أكبر على كلّ جزءٍ من أجزاء التأليف، فقد راق لهيغو أن يلعب على تناصّ أكثر تركيباً بصورةٍ تختلف عما يمكن أن يوحي به «الرجوعُ إلى جيديديا كليسبوتام» وحده. إن سكوت لم يجر التماسُه إلاّ في موضعين: من أجل شاهدٍ بطوليّ مُستمدّ من إيفانو (الفصل ٣٩)، ومن أجل مقتطفٍ من قصيدته هارولد غير الهيّاب، وهي «قصيدةٌ من ستة أناشيد» تتماشى مع الذّوق السّكندنافي، وقد

مُستمدّ من إيفانو (الفصل ٣٩)، ومن أجل مقتطف من قصيدته هارولد غير الهيّاب، وهي «قصيدةٌ من ستة أناشيد» تتماشى مع الذّوق السّكندنافي، وقد قدّمها منذ بعض الوقت أبيل هيغو لقراء الكونسرفاتور ليترير. ويدين هيغو لأخيه أبيل الذي كان جامعاً لروائع المسرح الإسباني في عصره، وللقصائد التاريخية المترجمة عن الإسبانيّة. وذلك لأنه تمكّن من إيرادِ لوب دوفيغا وكالديرون، كما أورد «القصائد» التي تُسهم في تنويع النبرة التي لا تخلو أحياناً من التنافر، نبرةِ عددٍ من الحوادث العرضية: وتتيحُ لعبةُ العباراتِ المقتبسة أيضاً توجيه تحياتٍ ضمنيّة لشقيقهما أوجين (الفصل: ٣٨ و٤٦)، الذي أُدخل إلى مصحّة فال - دوغراس، في نهاية كانون الأوّل ١٨٢٢ [1]، أو إلى الجنرال هيغو، وكذلك إلى بعضِ معاصريهما المشهورين (شاتوبريان والبارون ديكستين، وشارل نوديه، والكسندر سوميه، ومدام دوستال، وألفرد دو فينيي...). بيد أن شكسبير وليسنغ وماتوران هم الذين يشكّلون القوامَ الأساسيّ للمراجع.

إن برترام، أو قصر سانت - ألدوبران - تلك المأساة التي كتبها ماتوران، وترجمها «بتصّرف» البارون تيلور وشارل نوديه من الإنكليزية، كانت قد صدرت عام ١٨٢١، مسبوقة «بتنبيه من المترجمين» يمكن أن ننسبه من غير مجازفةٍ إلى نوديه وحده. ويُستَخدم فيه مجدّداً «نعتُ الهوسيّ» لكي يصفَ «الأحلام الهذيانّيه» لنوعٍ من النزعةِ الرومنسية. وقد استُخدم هذا النّعت للمرة الأولى في كانون الثاني للسنة نفسها، في مقالة صدرت في حوليات الأدب والفنون. غير أن المقصود هو إدانةُ مبالغاتِ تلك «الأحلام الحزينة» أقلّ مما هو طرحُ التساؤل حول قدرتها على التأثير والسحّر. إنه يعزوها بالتأكيد إلى حالِ

(١) انظر: الملحق رقم /١/.

باللّغز الذي لا يزال يمثلّه جمالُ الشرّ في نظره، وحقيقة أن المأساة التي يعتذر لأنه قد ترجمها هي «جميلة على نحوِ مرعب»، وأنها «أخلاقيةٌ بصورةٍ مرعبة»: ولا يسع المرء أن يشكو، في النتيجة، من أن «الجريمة لا تلقى عقابها»، فيها، أفليست هذه هي ميزةُ المشجاة (الميلودراما)؟

إن مأساة ماتوران لا تدينُ بعرضها في فرنسا، في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٢٢، إلاّ لملاءمتها لأعرافِ المشجاة، من خلال المغالاة، وخصوصاً من خلال ألوانِ العنف في تعبيرها، وتحوير اللّوحة النهائية: ففي اللّحظة التي يمضي برترام فيها ليلقى عقابه، تنفتحُ الأرضيّةُ جزئياً، وتفسحُ في المجالِ لقطّاعِ الطرّق الذين يتزعمهم برترام؛ فيحرقون القصر في خضمِّ معركةٍ عامة تنتهي بانتصارهم. أما برترام وإيموجين، العشيقان الآثمان، فيظهران حينئذ على درجٍ ملتهبٍ يبتلعُهما أثناء سقوطه. وتكون الخاتمةُ «الأخلاقيةُ على نحوِ مرعب»: أنّ ينتصرَ قطّاعُ الطُّرق. بيد أن الأخلاقَ تُنقَذُ، ويدخل حتى في الاعتبار أنّه ما من يدٍ سوف يكون بوسعها أن تفرّقَ أبداً بين المحبّين في الموت».

إن التقّريبات التي يمكن للمرء أن يجدها بين هذه المشجاة، ورواية هان الإيسلندي تُفضي إلى تحديدِ أصولِ هان أقلّ مما تفضي إلى الدّلالة على المنظور، أو «الأفق المنتظر» الذي كان هيغو وقراؤه يضعون أنفسهم بالنسبة إليه. وربما يكون الأمرُ الجوهريُّ هو في انتماء برترام المبعد إلى عصابةٍ من «الرّجال المجرمين الذين يتاجرون بالدّم»، وفي حقيقةِ مشاركته «لرجالٍ يائسين» في «مشاريع خطيرة»، وذلك على خلفيةِ الحربِ الأهلية. إن اشتراكَ أوردينر في تمرُّد عمال المناجم يجعلُ من إيتيل لفترةٍ من الزّمن، زوجةَ قاطع طريق، إلى أن يُفضي الحادثُ المفاجئُ النهائيُّ إلى قصاصِ الخائن، والمصالحةِ بين العاشقين

والمجتمع. ولا يحدثُ هذا أبداً إلاّ نتيجة للصّدفة. وكان نوديه يلاحظ أن «ما يتخيّله المسيحيّ نفسهُ إنَّما يخيبُ هنا، وقد فاجأه ذلك التطبيقُ المنصفُ والنّادُر إلى حدّ كبير للقصاص: «ما من شيء غير المصادفة تقريباً هو الذي يجلبُ مثل تلك الحوادث الرّهيبة في حياة المذنب؛ فلا تعودُ الأبدية حتميةً في نظر الإيمان، إذا كان لكلٍّ أفعال الإنسان ما يكملها بهذه الصّورة على الأرض.

إن حبكةَ هان الإيسلندي تتوافقُ مع التكوين النّموذجي للمشجاة؛ فقبل المأساة، تكونُ نقطةُ انطلاق الحدث هي التعاسةُ الماضية. وفي البداية، هناك الهدوءُ قبل العاصفة. إن غريفنغلد يعتمدُ على الصّندوق الصّغير، ويمكن أن يداعبَ الأملُ العاشقين. أما الشرّيرون الذين يجسّدون الشرّ المطلق، والميتافيزيقيّ، فينفلتون: وهناك من يغتالُ الملازم ديسبولسن الذي يحملُ «الصّندوقَ الحديديَّ» الثمين. إن أمثال دالفيليد يتآمرون، وتتدخّلُ عناصرُ الطّبيعة في الأمر (العاصفة. . .)، غير أن البطلَ ساهرٌ، ويندفعُ في بحثه؛ وهذه قاعدةٌ مطلقة: وينتهي الأمرُ بالخائن دوماً ليكشف عنه القناع، عن طريق أكثرِ المصادفاتِ حدوثاً بسبب العناية الإلهية، من غير أن يكون للبطل أيُّ دورٍ فيها.

وتتوافقُ مع هذا التكوين استخداماتٌ محدَّدةٌ تحديداً صارماً. أولاً، استخدام الشريّر ورُوحه المدانة، وشخصياتٌ من البلاط غالباً هي موضوعاتٌ فاعلةٌ حقاً لكي تدرس. ويتعارض معها البطلُ المتجرّد، والذّاهل بصورةٍ غامضة. إن رسائلَ هذه الشخصيات هي الفساد والخيانة: فدالفيلد يوكل إلى ابنه مهمةَ إغراءِ ابنة الأسير. ويدّبرُ المؤامرة الدنيئةَ المخصّصة لتعريضِ الوالد للشبهة. وفي مواجهةِ الخائن، يكون البطلُ والحالة هذه، متنكّراً؛ فيجهلُ شوماكير وابنته

أنهما يتعمدان في خلاصهما على ابن نائب الملك، ألدّ أعدائهم. إنه لا يتحرّكُ البتّة بمفرده، بل يعينُه دوماً رجلٌ أشبه ما يكون بمهرّج، ويتمثّل دورُه في إسنادِ جهودِ رفيقه البطل، وفي أن يرشدَه، والحالة هذه، إلى مقرٍّ هان، «معلّمه وسيّده». إنه خادمٌ لسيّدتين. ومؤتَمَنٌ على سّرٍ من أسرار الدّولة رغماً عنه. إنه بوابُ سبلادجيست، بينيبوس سبياغودري الذي تنسجمُ غباوته ونذالته حسناً مع سعةٍ للمعرفة مثيرةٍ للسّخرية.

يخضع تنظيمُ المكان لتقييداتٍ صارمة؛ فيتعارض سورُ مونكولم المحصّن مع فضاء التوحُّش والترحُّل، فضاءِ الخرائب، والمغائر، والمضائق الجبليّة المواتية لكـل الخيـانات. غير أن الطبّيعة في هذه الأماكِن تسمحُ بإدراكٍ مسبقٍ لأسمى ما فيها.

نقول بيسرٍ عن هذه الأشياء إنّها سامية، لأنها تعظّم طاقةَ الرّوح إلى أعلى من معدّلها المعتاد، وتجعلُنا نكتشفُ في أنفسنا استعداداً على المقاومة من نوعٍ آخر، يمنُحنا الشجاعةَ لكي نقارن أنفسنا بكليّةِ قدره الطبيّعة الظّاهرية.» (كانت، نقد العقل، الفصل: ٢٨).

ما هو سلطان «التفريقات الجسدية» في هذه الظروف، على «قلبين ارتبطا بالرغبة نفسها»؟ إن المحبيّن المفّرقين، في الواقع، لا يغيبُ أحدٌ منهما عن ناظري الآخر؛ فمن أعالي برج فيرمون، لا يُلقي أوردينر العزوم بالاً إلاّ إلى منارةِ مونكولم التي تعلمُ فتاتُه إيتيل جيداً كيف تميّز منها ضوءاً آتياً من بعيد، من جهة الشمّال، «والذي كان يبدو لها منطلقاً من جيلٍ ما». (٢٣ - ٢٤)، وذلك أيضاً لأن السّامي، حسب رأي كانت، «ليس في واقع الأمر موجوداً في أيّ شيء

من أشياء الطبيعة. ليس موجوداً إلاّ في فكرنا بقدر ما يكون بوسعنا أن نعي تفوّقنا عليها». هناك فضاءٌ نفسيّ أو رمزيّ «تُفلت المشجاة بواسطته جزيئاً من إغراءات المحاكاة، وهو فضاءٌ يمنعُها من أن تكون مجرّد أداةٍ وظيفيّة، بما أنه مجالُ الحلم الذي يجولُ القلق في مفترقاته الداخلية» (آنّي دوبرسفيلد).

تؤدي الخاتمة على نحوٍ لا يتغيّر إلى استعادة الماضي، وإلى طردِ الشرّير؛ فكلّ فردٍ يتعرّف ذويه، ويستعيد ماله، ويعود النّظامُ إلى نصابه على أسسٍ عائلية: «فمن اقتران أوردينر بإيتيل قد نشأت أسرة الكونتات (دانيّسكيولد). إن الوالد، على الخصوص ينتصر، ويجري إرجاعُ ألقابه وامتيازاته إليه، وهذا تجسيدٌ للماضي الذي ينتصرُ أخيراً، وللنظام القديم. ويمكن، والحالة هذه، أن نقولَ إن كلّ مشجاة «تُدرجُ في حبكتها الرّمزية تعويضاً عن الشرّ الاجتماعيّ وافتداءً له، وكذلك عن ضروبِ العنف التي تدلُّ عليه (آنيّ دوبرسفيلد).

إنه مخطَطٌ تقليديّ، في نهاية الأمر، غير أن هيغو قد أوصل المنطق إلى حدود السّخرية، من خلال وضعه لأوردينر الشجاع خصوصاً على الهامش، بدلاً من أن يضعه في مركز حدثٍ معقدّ حسب المراد. ومن خلال دفعه لشخصيته إلى بحثٍ يجعلها باستمرارٍ منصرفةً عن هدفها بسبب الجهل الذي يتخبّط فيه معظم صانعي الأحداث الرئيسيين منهم والثانويين، صانعي الحبكة الذين يجدون أنفسهم متدخّلين فيها رغماً عنهم. إن تفوّق أوردينر وهميٌّ تماماً؛ فهو لا يسيطرُ على شيء. أما مواجهتُه للوحش فستكون بلا نتيجة، بما أن الصّندوق الصّغير المطموع فيه موجودٌ في قعر بحيرة. أما أوردينر فلا يخرج حتى منتصراً من المعركة، خلافاً لأعرافِ البطولة الفروسية. وعلى أيّة حال، فهو لم يكن بوسعه أن يتعرّف ذلك الذي يبحث عنه، والذي كان في أغلب الأحيان

قريباً منه، منذ ما قبل انطلاقه من درونتهايم، (الفصل: ٨)، ثم لاتور موديت، حين كان متنكّراً كناسك (الفصل: ١٢) وفي قرية أويلميه (الفصل: ١٩)، وفي لاثور دورموند (الفصل: ٢٢)، فكيف كان يمكن له، فضلاً عن ذلك، أن يتعّرف هان البائس، ذلك المسخ الذي له مشية رجل مدني (بورجوازي)، تحت مظهر رجلٍ قصر القامة، ويرتدي قفازاً أسود، وكان يخدع المحيطين به أكثر مما كان يخدعُ ذلك الذي يتصوّره على صورة عمالقةِ الأساطير في مقامته؟

قد نكون تعرَّفنا، من خلال هذه التفاصيل، الموضوعَ الحقيقي للكتاب، وهو روايةُ الوهم، وعدم المعرفة اللذين تقع ضحيتّهما شخصيّاتُ مأساةٍ يُفلت معناها منها. وما من شيء يعطي فكرةً عنها أفضل من الحادثة التي نرى فيها المواجهة بين القوات الملكيّة وزمرة عمال المناجم المتمردّين. إنهم يصرخون من الجانبين: «الثأر!» و«عاش الملك!» أو «عاشت الحرّية!»، في حين أنه لم يعد هناك شيءٌ سوى الخيانة من هذه الجهة أو تلك (الفصل: ٣٩). ويجدُ المرءُ صعوبة في أن يميّز بين الحقيقيّ والزّائف في شخص كلٍّ من قاطعَيْ الطّريق، القصير (الحقيقي)، والطوّيل (الزائف)، هما توأمان لا ينفصلان، ولا يحكم الموتُ لأحدٍ من الخصمين تحت ستار الفصل فيما بينهما.

العالم، أو التاريخ – التاريخ «الواقعي» مثلما هو التاريخ الذي نتسلّى به في الأكواخ – أليس لهما معنى؟ إن اختلاف المعنى، مثله أيضاً مثل اختلاف الحقيقة والخطأ يتساوون في اللحظة الأخيرة مع اختلاف الخير والشرّ، ومع إحياءِ قيم الماضي الذي يُعتبر مصدراً وحيداً السّخرية، وانعدام المعنى. وهذا الإخفاء يُراد له أن يكون نهائياً. غير أن واقعية الشرّ – التي تتأتى قبلَ كلّ شيء من أن الناس «يموتون جوعاً وبرداً» على أبواب القصور، (الفصل: ٣٨ و٤٣)، والتي قد تكون

مبالغاتُ المشجاة قد أسهمت في تحديدها سلبيّاً باعتبارها واقعية حمقاء – تتعارض مع هذا الإصلاحِ الرديء الوهميّ. إننا هنا في منابع السُّخريْ كما يفهمه هيغو، وهو التأكيد على قدرةِ السّلبي ضدّ ادعاءاتِ كلّ ميتافيزيقا للاختلاف النّهائي بين الخير والشرّ. فالسُّخريّ، إن كان كذلك، هو صورةٌ مضلّلةٌ لحضورِ الشعبِ في التاريخ؛ وشخصية هان يجري تعرُّفها فعلاً من خلال سلطةِ ضحكها الذي لا يستثني شيئاً، ولا أحداً. وعلى الخصوص، في برج فيرموند، لا يستثني وجْدَ أوردينر الغراميّ الذي سَحَره التماعُ منارةِ مونكولم القصيّ.

إننا نلحظ في هذا السُّخريّ أيضاً إعلاناً عن نهايةِ نوعٍ أدبيّ، أو كلّ الأنواع، ونهايةَ النّجاح المقبل لفريدريك لوميتر في شخصيته روبير ماكير[1]، من خلال مشجاةٍ تقليدية محيّدة عن دلالتها، ومتحوّلة إلى مسرحيةٍ هزليّة، وذلك بانقلابٍ في شخصية الخائن. غير أن مؤلّف هان الإيسلندي كان قد أحسّ باندفاعةٍ واحدةٍ كيف يستثمر اعتباراً من عام ١٨٢٣ تقاليدَ المشجاة، وأن يقبلها، في الوقت نفسه، وذلك بأن يدفعها إلى أقصى حدودها. وغدا من المسموح أن نتعرّف فيه على فريدريك لوميتر، صاحب رواية الرّعب، وأن نتعرف في آخر سليلٍ لإنغولف الجزّار، الرَّسمَ الواعدَ لروبير ماكير وكواز يمودو.

روبير لويّو

(١) اسم إحدى شخصيات المسرحية الرومنسية: «نُزل ديزادريه» لفريدريك لوميتر. (م: ز.ع)

(مقدمة المؤلِّف: فيكتور هيغو)(١)

منذ اليوم الأول الذي كتب فيه مؤلِّفُ هذا الكتاب الصّفحةَ الأولى حتى اليوم الذي أمكنه أن يخطّ فيه الكلمة المفرحة: «النّهاية»، في أسفل الصّفحة الأخيرة، قد كان ألعوبةً لأكبر وهم إثارةً للسخرية: فبعد أن تصوّر أن مؤلَّفاً من أربعة مجلّدات يستحقّ عناءَ التفكّرّ فيه، أضاع وقته في التفتيش عن فكرةٍ أساسية، وفي التفصيل فيها بشكلٍ جيّد أو سّيء، من خلال مخطّطٍ حسنٍ أو رديء، وفي ترتيبِ المشاهد، والجمع بين التأثيرات، وفي دراسة الطّباعِ بأفضل ما يستطيع؛ وبكلمةٍ واحدة؛ فقد أخذ كتابه على محمل الجدّ.

وقبل قليلٍ فقط، وفي اللحظة التي أخذ يصوغ فيها - جرياً على عادة المؤلِّفين في الانتهاء من حيث يبدأ القارئ - مقدّمةً طويلةً هي أشبه ما تكون بترسٍ يدافع به عن عمله، وتحتوي، بالإضافة إلى عرضٍ للمبادئ الأخلاقية والأدبيّة التي يرتكز عليها مخطّطه، تحتوي موجزاً سريعاً تقريبياً لمختلف الحوادث التاريخية التي يشملها، ولوحةً كاملة إلى حدّ ما للبلد الذي يجوبه، فقبل قليل فقط، كما قلنا، إنّما لاحظ المؤلَّف غلَطَةُ وكلّ تفاهةِ النّوع الأدبي الذي صرف الكثير من

(١) عنوان يقترحُه المترجمُ للإيضاح في حين ورد هذا النّص من غير عنوان. (م:ز.ع).

الورق على موضوعه بكثير من الجدّية، وأحسّ كم أوهم نفسه، والحقّ يقال، بأن أقنعها بأن تلك الرواية يمكنها أن تكون إلى حدّ ما نتاجاً أدبياً، وأن تلك المجلّدات الأربعة تشكّل كتاباً.

وقد عزم، والحالة هذه، بكلّ تعقّل، وبعد أن أقرّ بذنبه، على ألاّ يقول شيئاً في هذا النّوع من المقدمات التي سيعنى السّيد الناشر حسب المقتضى بطبعها بحروف كبيرة، ولن يُعلم حتى القارئ بكنيته ولا بأسمائه الصغرى، ولا إن كان شاباً أو عجوزاً، متزوّجاً أو أعزب، ولا إن كان قد ألّف قصائد مؤثّرة أو حكايات، قصائد غزليّة أو هجائية، وإن كان ينوي أن يكتب مآسي، أو درامات أو مسرحيات هزلية، ولا إن كان يتمتّع بمشيخة أدبية، في مجمع معين، ولا إن كان له منبرٌ في صحيفة معينة، وكلّ الأمور التي تثير معرفتُها الاهتمامَ إلى حدّ كبيرٍ مع ذلك. سوف يكتفي فقط بأن يُلفتَ الانتباهُ إلى أن الجانبَ التّصويري من روايته قد كان موضعَ عناية خاصّة، وأن المرءَ سيجدُ فيها كثيراً من الحروف من مثل: k. y. w، مع أنه لم يستعمل قط تلك الحروف الرّومانسية إلاّ بأقصى ما يمكن من الاعتدال، و يشهدُ على ذلك الاسمُ التاريخيّ: guldenleu الذي يكتبُه عددٌ من مدوّني الوقائع Gulden loëwe، وهو مالم يجرؤ على أن يبيحه لنفسه، وأن القارئ سيجدُ كذلك مصوّتات مزدوجة عديدة ومتنوعةً فيها الكثير من الذّوق والأناقة، وأن كلَّ الفصول أخيراً، تكون مسبوقةً بعبارات مقتبسة غريبة، ويكتنفُها الغموضُ، وهي تزيد الفائدة زيادةً فريدة، وتمنح كلَّ قسمٍ من أقسام التأليف ملمحاً أكثر وضوحاً.

ملاحظة
تُضاف خصوصاً
إلى الطّبعة الحاليّة

لقد أكدّوا لمؤلّف هذا الكتاب أنه كان من الضّروري حتماً أن يُكرِّسَ بصورة خاصة بضعةَ أسطر كفاتحة ومقدّمة ومدخل لهذه الطبعة الثانية. وقد ذكرّ دون طائل بأن الصّفحات الأربعَ أو الخمس السّيئة الطّالع التي كانت تواكبُ الطبعةَ الأولى، والتي أصرّ الكتبيّ على أن يشوّهَ بها هذه الطّبعة، كانت قد سبّبت لها لعنات أحد كتّابنا الأكثر جدارة بالاحترام والأكثر تميّزاً[1]، والذي كان قد اتّهمها باتخاذ نبرةٍ مُبّطنةٍ، هي نبرة جيديديا كلايسيوتام، معلم المدرسة، وخادم كنيسة خورنية غاندر كلوغ[2]. ومهما تذرّع بأن ذلك النّاقد اللّامع والحصيف، والمتشدِّدة تجاه الخطأ، قد يصبحُ من دون رحمةٍ بلا ريب عند

---

(١) السّيد شارل نوديه، صحيفة كوتيديين (اليوميّة) بتاريخ ٢١ آذار.

(٢) المقصود هو فالترسكوت الذي أشار إليه هيغو في عرضه لإيفانو (الكونسوفاتور ليترير، ٢٠ أيار، ٠٢٨١): «إن جيديديا كليسبوتام قد استأذن قُرّاءه بالتأكيد، فمؤلّف: «حكايات ضيفي» قد غادر أخيراً حقول إيقوسيا (سكوتلندا)؛ ورمى جانباً معطفَ خادمِ كنيسة غاندر كلوغ». ولسوف يحذف هيغو عام ١٨٣٣ الملاحظة التي تُتيحُ تحديدَ هوية «أحد كتابنا الأكثر جدارة بالاحترام، والأكثر تميّزاً». أي شارل نوديه؛ ففي العرضِ الذي يقدّمه، يذكر هذا الأخير مقدّمة هان، «حيث قام المؤلّفُ بمحاكاةِ الطريقةَ المبطَنّة، طريقة فالترسكوت بمهارة، وهو يتحدّثُ عن زملائه». انظر الملحق رقم /٣/.

تكرار الخطأ، ومهما قدَّم، بكلمةٍ واحدة، جملةً من المبرّرات الأخرى ليست أقل جودة لكي يعفي نفسه من الوقوع فيه، فيبدو أنه قد جوبه بمبّرراتٍ أفضل. فها هو الآن يكتب مقدمةً جديدة – بعد أن أبدى الكثير من النّدم على كتابته للمقدّمة الأولى. وفي اللحظة التي نفّذ فيها ذلك القرار الجريء، خطرت له أوّلاً فكرةٌ مفادُها أن يضع في مقدّمة هذه الطبعة الثانية ما لم يكن يجرؤ على أن يحمّل به الطبّعة الأولى، أي: عدداً من النظرات العامّة والخاصة في الرّواية. وحين تفكَّرَ في تلك الدراسة الأدبية والتعليمية، كان لا يزال غارقاً في نشوة التأليف الغامضة، وهي لحظةٌ قصيرة جداً، ويكون فيها المؤلف مسحوراً ضمنياً بكتابه الذي يقوم بإعداده، فيظنّ أنه قد حقّق إتقاناً مثالياً لن يبلغه. لقد كان، كما نقول، غارقاً في ساعةِ الوجْد الداخلية التي يكون فيها العملُ متعةً، ويبدو فيها الامتلاكُ للوحي أكثر حلاوة من السّعي الصّاخب وراء المجد، حين أتى أحدُ أصدقائه الأكثر تعقّلاً لينتزعه فجأةً من ذلك الامتلاك، ومن ذلك الوجد، ومن تلك النّشوة، مؤكّداً أن عدداً من الأدباء الرفيعي المستوى من ذوي الشعبيّة الواسعة، والاقتدار الكبير قد وجدوا البحث الذي كان يعدُّه رديئاً تماماً، وغثّاً، ومضجراً؛ وأن رسالة النَقد التي تحمّلوا عبئها في مختلف الصّحف العامة، تفرضُ عليهم واجباً شاقّاً هو ملاحقةُ مسخ الرّومانسية والذّوق الرّديء بلا رحمة، وقد كانوا مشغولين في تلك اللحظة نفسها، بإعدادِ نقد وجدانيّ ومعلّل، ولاذع على الخصوص للبحثِ المقبل المذكور أعلاه، وعندما سمع المؤلّفُ المسكينَ هذا الرأي:

أُصيب بالذّهول، و انتصبَ شعرُ رأسه، واختنق صوتهُ في حنجرته[1]

(١) باللاتينيّة، في النصّ (م:ز.ع).

أي أنّه لم يجدْ وسيلةً أخرى سوى أن يترك ذلك البحث في مجاهلِ الفكر التي كان يتهّياً ليستمدّه منها، وهو: «العذراء التي لم تولدْ بعد»[1]، كما كان يتكلّم جان - باتيست روسّو، وهي التي كان يزمجرُ ضدّها نقدٌ علي درجة كبيرة من الإنصاف والقسوة. وقد نصحه صديقُه بأن يستبدل بها بكلِّ بساطة نوعاً من توطئة أعدَّها الناشرون، ويمكنه من خلالها أن يعبّر بكثيرٍ من اللياقة عن كلِّ ألوانِ الرّقة التي تداعب أذن مؤلِّف معين بكثيرٍ من المتعة، وذلك من خلال أولئك السّادة. وحتى أنه قد قدّم له بضعةَ نماذج مستمدّة من عدد من الكتب التي لاقت حظْوةً كبيرة. وبعض هذه النماذج تبدأ بهذه الكلماتِ: النجاحُ الهائل والشّعبي لهذا الكتاب. . .إلخ. وبعضُها الآخر يبدأ بما يلي: إن الشهرةَ الأوروبية التي اكتسبتها هذه الرّواية منذ قليل إلخ. . أو: من نافلِ القول أن نمتدح هذا الكتاب، بما أن الصّوت العالمي يعلن عن كلّ الثّناءات التي هي أدنى مما تستحقّه إلخ. . إلخ. ومع أن هذه العبارات المختلفة، حسب قول المستشار الرّصين، لم يكن تنقصُها ميزةُ التجريب[2]، فإن مؤلِّفَ هذا الكتاب لم يشعر بما يكفي من الاتضّاع، وعدم الاكتراث الأبويّ لكي يعرَض كتابه لخيبةِ أملِ ومتطلباتِ القارئ الذي كان يمكن أن يرى كلَّ تلك التقريضات الرائعة، كما لم يشعر بأنه على درجة كافية من السّفاهة لكي يحاكي مهرّجي المعارض أولئك الذين يعرضون تمساحاً مرسوماً على قماشة كطُعم لاجتذاب فضول الجمهور، وخلف هذه القماشة، لا يجد إلاّ عظاية، بعد أنْ يكون قد دفع نقوده. فنبذَ، والحالة هذه، فكرةَ إنشاء التقريطات الخاصّة على اللّسان المجامل لأولئك السّادة الناشرين. فأوحى إليه صديقه حينذاك بأن يعطي شخصية قاطع الطريق الشّرير الإيسلندي شيئاً يمكن أن يساير الدُّرْجة، ويجعلَه يتعاطفُ مع القرن، كأن

(١) يعني بذلك قصيدة: «قصيدة غنائية للأجيال المقبلة»

(٢) انظر الملحق رقم /٤/.

يكون ذلك مزاجاتٍ مرهفةٍ ضدَّ المركيزات، أو تهكّماتٍ مريرة ضدَّ الكهنة، أو إلماحاتٍ حاذقة ضدّ الراهبات، ومسوخ النّظام الاجتماعي الآخرين، وذلك لكي يعطي قاطع الطَّريق إجازةَ مرور. ولم يكن للمؤلِّف أن يطلب أفضل من ذلك. غير أنه منذ أن تعرّضَ المذكورون والمذكورات المركيزات والكهنة والرّاهبات، والكبوشيين للسّخرية من خلال المقاصل، والإعدامات بالرّصاص، والرّشاشات والقوارب البخارية(١)، والسخريات الأخرى المرهفة تماماً، غدا من الصّعب حقاً أن يجد المرءُ ضدّ هؤلاء المسوخ شيئاً يكون أشدّ دموية، وأكثر لذعاً، وأكثر قرصاً، أو أكثر حدّة من الدّعابات التي قرأنا للتوّ تعداداً موجزاً لها؛ فلا بدَّ من أجل ذلك، من جسارةٍ في الخيال، وقوّةٍ في الفكر، قلّما نجدُ أمثلةً عنها إلاّ عند جلاّدي اليابان المبتكرين، وربّما في بلدان أخرى. كان لا بدّ إذن من أن يتخلّى المؤلّف، بسبب عدم كفاءته، عن هذا النّوع من السّخريات المحبّبة، والتي سبق لنا أن امتلكنا مبدعين تقليديين لها لا يمكن تخطيّهما إلى حدّ كبير، والتي استخُلصت نتائجها بكثيرٍ من البأس والنجاح على يد السّادة: روبسبيير، وبارّير وكوتون وشركائهم، ومن جهةٍ أخرى، فلم يكن يبدو له، والحقّ يقال، أن المركيزات والكبّوشيين لهم علاقة مباشرة بالكتاب الذي ينشره. وكان يمكنه، في حقيقة الأمر، أن يستعير ألواناً أخرى من حاملة الألوان، وأن يرمي هنا بعضِ الصّفحات الطيّبة، المحبّبة للبشر حقاً، والتي يمكن أن يكون قد عَرَضَ، في الوقت نفسه الذي سار فيه مع ذلك بحذر على حافةِ جرفٍ خطر محجوبٍ

(١) إشارة إلى حكم الطاغية كاريه، وإلى إغراقات نانت (١٧٩٣ - ١٧٩٤)، إن فيكتور هيغو لا يزالُ يجهل أن أبا جدّه لأمه كان قاضياً في عهد كاريه، في محكمة نانت الثوريّة.

تحت بحار الفلسفة، والذي نسميّه جرف المحكمة التأديبيّة، أن يكون قد عرض بعضاً من تلك الحقائق التي اكتشفها حكماؤنا، من أجل مجد الإنسان، وتعزية المحتضر، أي أن: الإنسان ليس سوى حيوان، وأن النّفس ليست أكثر من غازٍ على درجةٍ معينة من الكثافة وأن اللّه ليس شيئاً، ولكنه رأى أن تلك الحقائق التي لا جدال عليها قد كانت معروفةً مسبقاً بابتذالها، وهي مستهلكة حقاً، وأنه لا يكاد يضيفُ قطرةً لهذا السّيل من الأخلاق العاقلة، والأديان الملحدة، والأمثالِ الحكمية، والمذاهب، والمبادئ التي تجتاحُنا منذ ثلاثين عاماً، من أجل سعادتنا[1] بصورة عجيبة إلى درجة قد يكون بوسع المرء (إن لم يتجاوز الاحترام) أن يطبّق عليها الأبياتَ التي كتبها رينييه عن وابل المطر:

من الغيومِ المحمّلة بالماء، كانت تهطلُ قذاراتٌ
يمكن للكلاب الظّمأى أن تشرَبَها وهي واقفة.

إن هذه الموضوعات العالية، فضلاً عن ذلك، لم تكن قد اتّصلت بعد بموضوع هذا الكتاب على نحوٍ شديد الجلاء، وكان يمكن له أن يكون جدّ مُخرجٍ في أن يجد علاقةً تقودُه إليها؛ مع أن فنَّ الانتقالات قد جرى تبسيطُه على نحوٍ فريد، منذ أن وجد العديدُ من الرّجال العظام سرَّ الانتقال من غير اهتزاز من حانوتٍ صغير إلى قصر، وتبادل قبعّة الشرطي مع التّاج المدني من غير تنافر. إن المؤلّف الذي يقرّ، والحالة هذه، بأنه لن يكون قادراً بموهبته، أو بعلمه، بأجنحته أو بمنقاره، كما يقول الشّعرُ العربيّ البارع، أن يجد مقدّمةً تثيرُ اهتمامُ

(١) بكلماتٍ أخرى، منذ حكومة الإرهاب في عام ٩٣، والتي ذكرّ هيغو منذ قليل «بألوان الغرابة» فيها.

القراء، إن مؤلف هذا الكتاب قد عَقَدَ العزمَ على ألاّ يقدّم لهم إلاّ قصةً رصينةً وساذجة(١) عن التحسينات التي أجراها على هذه الطّبعة الثانية.

سوف يخطرهم أوّلاً بأن هاتين الكلمتين: «الطبعة الثانية» غير ملائمتين هنا إلى حدّ كاف، وأن عنوان الطّبعة الأولى هو في الحقيقة العنوان المناسب لهذه الطبيعة الجديدة، علماً أن الرّزَم الأربع غير المتساوية الحجم من الورق الضّارب إلى الرّمادي، والمبقّع بالأسود والأبيض، والتي رضي الجمهورُ المتسامح أن يرى فيها حتى الآن المجلّداتِ الأربعةَ لروايةِ هان الإيسلنديّ قد تشوّهت إلى حدّ كبير بتنافراتٍ طباعية نفّذها عاملُ مطبعةٍ همجيّ بحيث أن المؤلِّف الذي يُرثى له قد كان عرضةً باستمرار، وهو يستعرضُ نتاجَه الضّائع المعالم، لعذابِ والدٍ أُعيدَ إليه ابنُه مشوَّهاً، وموشوماً بيدِ أحدِ هنودِ الإيروكوا، هنود بحيرة أونتاريو.

هنا كانت كلمةُ «عبودية» الانتحار تحلُّ محل «استعمال» الانتحار(٢). وفي موضع آخر، كان عاملُ الطبّاعة اليدويّ يعطي كلمة: صلة «lien» صوتاً يخصّ كلمة «أسد»، وفي موضع أبعد، كان ينزعُ من جبل دوفر – فيلد قممه: «pics» لكي ينسب لها أقداماً (pieds)، أو حين كان صيّادو السّمك الترويجيّون يتوقّعون أن يربطوا سفنهم في الـ CRiques (جون صغير)، فقد كانوا يدفعون قارباً على الـ (BRiques) (الآجر)، ولكي لا يُتعبَ المؤلِّفُ

(١) إنه يؤكد عمداً على هذه الكلمات، لأنه سيكون شديد الغمّ إذا ما خمنّا وجودَنيّة لديه للمزاح أثناء معالجته لشيء على تلك الدّرجة من الجدّية كتلك الرواية؛ فضلاً عن ذلك؛ فقد يكون متعذّراً عليه أن ينساق هنا إلى أشدّ المزاح خفّة؛ بعد أن حلّ به سوى الخطّ، ففقد كراسته التي كان من المعتاد أن يدوّن عليها خواطره وكلماته الطيّبة المقبلة في الأماكن المتاخمة لمنهل الوداع.

(٢) أي الخلط باللغة الفرنسية بين الكلمتين: Esclavage و , Usage

القارئ، فسوف يسكتُ عن كلّ ما تُذكّرُه به ذاكرتُه المحرّجةُ من إهاناتٍ من النّوع التّالي:

الجرحُ يبقى في أعماق قلبي[1].

ولسوف يكفيه أن يقول إنّه ما من صورةٍ سُخرية، ومعني باروكي[2]، وفكرةٍ منافيةٍ للعقل، ومجازٍ غير متماسك، وطلّسم، مضحك إلاّ وجعل الجهلُ الغبيَّ بصورة حاذقة، جهلُ ناظر المطبعة المعمّى الذهن، المؤلّفَ يعبّرُ عنه. ويا للأسف! فإن أيَّ إنسانٍ قد أرسل للطبع اثني عشر سطراً في حياته، حتى وإن كانت بطاقة زفافٍ أو دفنٍ، سوف يشعرُ بالمرارةِ العميقةِ لألمٍ مشابه.

وهكذا فقد روجعت تجاربُ تلك الطّبعة الجديدة بأكبر اهتمامٍ لتدقيقها. ويجرؤ المؤلّف الآن على الظّن، شأنه شأن صديقٍ له أو صديقين، بأن هذه الرّواية التي جُدِّدت جديرةٌ بأن تندرجَ بين تلك الكتاباتِ الرائعة التي تسجدُ أمامها النجومُ الإحدى عشرة، كما يسجد القمر والشمس[3].

ولئن كان السّادة الصّحفيون يتّهمونه بأنه لم يجرِ تصحيحات على روايته، فسوف يسمحُ لنفسه بأن يرسل إليهم التجاربَ التي اسودّت بالكتابات من خلال عملٍ دقيق، تجارب هذا الكتاب المجدّد، إذ أن هناك زعماً بأن أكثر من توما المرتاب موجودٌ بين أولئك السّادة.

إن القارئ الرضيء، فضلاً عن ذلك، سيكون بوسعه أن يلاحظ أنه قد جرى تصحيحٌ بضعة تواريخ، وإضافة بعض الملاحظات التاريخية، وتمَّ إغناءُ

---

(١) باللاّتينية في النّص.

(٢) أسلوبٌ فنيّ شديدُ الزّخرفة والصّنعة، خلافاً للاتّباعي: (م:ز.ع).

(٣) مستوحاة من القرآن الكريم.

فصلٍ أو اثنين خصوصاً بعباراتٍ جديدة مقتبسة. وبكلمة واحدة سوف يجد في كلِّ صفحة تغييراتٍ قيست أهميّتُها القصوى على أهمية الكتاب نفسه.

ثمة ناصحٌ وقح كان يرغب في أن توضعَ في أسفلِ الصّفحات ترجمةٌ لكافّة الجمل اللاّتينية التي ينثرها العلاّمة سبياغودري في ثنايا هذا الكتاب، من أجل أن يفهمها (كما كان يضيف هذا الناصّح) أولئك السّادة البنّائين، وصانعي القدور، ومزّيني الشَّعر الذين يحرّرون بعض الصحّف التي يمكن أن يُحكَم فيها مصادفةً على رواية هان الإيسلندي. ونتصوّر بأيّ غضب قد تلقيّ المؤلِّف ذلك الرأيَ المخاتل. وقد رجا بإلحاح هذا المزَّاج الثقيل بأن يعلمَ أن كلَّ الصّحفيين بلا تمييزهم شموسٌ في الكياسةِ وفي المعرفة، وحُسنِ النية، وألاّ يهينه بأن يجعلَه يظنّ أنه في عداد أولئك المواطنين الناكري الجميل، والمستعدّين دوماً ليوجّهوا إلى المتحكمين بالذّوقِ والعبقرية هذا البيت الشّعري اللاّذع الذي قاله شاعرٌ قديم:

تمالكوا أنفسكم، ولا تحاكموا أحداً؛

(ابقوا في جلودكم: حرفياً).

وأن يعلم، من جهته أخيراً، أنه لا يظن إلى حدّ بعيد أن «جلدَ الأسد» ليس الجلدَ الحقيقيَّ لهؤلاء السّادة الشّعبيين. وكان أحدهم يحثّه أيضاً (لأنه يتعين عليه أن يقول كلّ شيء لقرّائه) على أن يضع اسمه على عنوان هذه الرّواية التي لا تزال حتى الآن إبناً متروكاً مجهولَ الأب، وينبغي الإقرارُ بأنّه فضلاً عن السّرور الذي تجلبه روايةُ الحروف السّبعة أو الثمانية الرّومانية، والتي تشكل ما ندعوه اسمه، أثناء بروزها بحروفٍ جميلةٍ سوداء على ورقٍ جميلٍ أبيض، فهناك حقاً بعضُ السحّر في أن نجعل ذلك العنوانَ يلتمعُ بمفرده على ظهر الغلاف

المطبوع. وكأنَّ الكتاب الذي يوقِّعُ عليه، وبعيداً عن أن يكون الرائعةَ الوحيدة للمؤلِّف، لم يكن سوى أحدِ أعمدةِ المعبد الهائل الذي ينبغي أن يرتفع ذات يوم خلودُه فيه، وسوى عيّنة بسيطةٍ من موهبته المخفيّة، ومجده غير المعلن. وهذا يثبتُ أن المرءَ، على أية حال، ينوي أن يصبح ذات يوم كاتباً شهيراً ومهمّاً. وكان لا بدَّ. للانتصار في هذا الإغراء الجديد، من كلِّ الخشيةِ التي يُحسُّ بها المؤلِّف من ألاّ يكون بوسعه أن يخترقَ الجمهور، بما يسوّده من ورق، تسويداً يحافظُ دوماً على التنكرّ، حتى وهو يخرقُ الغفليّة.

أما الملاحظةُ التي أوردها عليه بعضَ الهواة من ذوي الأُذن الحسّاسة، والتي تتعلّقُ بخشونةِ أسمائه النرويجيّة الوحشّية؛ فهو يجدُها مسّوغة تماماً. وهكذا فهو ينوي، ما إنَ يُعيَّن عضواً في الجمعية الملكية في ستوكهولم، أو في أكاديميّة يرغن، إن يدعو هؤلاء السّادة النّرويجيين إلى تغيير لغتهم، نظراً لأن الرّطانة الشنّيعة التي تجعلهم غرابةُ أطوارهم يستعملونها تجرحُ طبلةَ أُذن باريسيّاتنا، وأن أسماءَهم المشوّهة، والوعرة شأن صخورهم، تُحدثُ على اللسان الحسّاس الذي يلفظ هذه الأسماء الأثَرَ الذي يحدثُه بلا شكْ زيتُهم، زيتُ الدبّ، وخبزُ قشرِ اللّحاء على الحليمات العصبيّة والحسّاسة في قصرنا.

يبقى عليه أن يشكر الأشخاصَ الثّمانية أو العشرةَ الذين تلطّفوا بقراءة كتابه كاملاً، كما يبيّن ذلك النجاحُ الهائلُ الذي أحرزه حقاً. وهو يعبّر أيضاً عن امتنانه التّام لأولئك اللّواتي من بين قارئاته الجميلات، رضين، كما يتأكدّ له، بأن يكوّن صورةً مثاليّة عن مؤلِّف هان الإيسلندي، انطلاقاً من كتابه؛ فهو يحسُّ للغاية بالإطراء إذ قبلن أن ينسبن إليه شعراً أحمر، ولحيةً قصيرةً جعداء، وعينين زائغتي النّظرة. وهو مرتبكٌ لأنهّن يتنازلن بتشريفه باعتقادهنّ أنه لا يقصُّ

أظافره البتّة؛ غير أنه يتوسّلُ إليهن جاثياً بأن يكنّ مقتنعات تماماً بأنه لم يصلْ بعد في ضراوته إلى التهام الأطفال الصّغار وهم أحياء. فضلاً عن ذلك؛ فكلّ هذه الوقائع سوف تترسّخُ حين ترتفعُ شهرتُه إلى مستوى شهرة مؤلفي: لولوت وفانفان، أو السّيد بوت، وهما رجلان رفيعا الشأن، وتوأما العبقرية والذّوق، وكلاهما من أركاديا[1]، وحين توضع صورتُه في مقدمة أعماله: وجوه مرعبة المنظر[1]؛ وتوضع سيرته تحت عنوان: «مآثر منزلية».

كان المؤلِّف على وشك أن يختم هذه الملاحظةَ الطويّلة، حين أتى بائعُ كتبه، في اللحظة التي أرسل فيها الكتاب إلى الصحف، ليطلب إليه إعدادَ بعضِ المقالات الصغيرة، المفعمة بالكياسة حول كتابه، وأن يوجّهها إلى هذه الصحّف، ويضيف، لكي يبدِّدَ وساوس المؤلِّف كلّها بأن «كتابته لن تتعرض للشبّهة»، لأنه سيعيدُ نسخها بنفسه، وبدا له هذا التفصيلُ الأخيرُ مؤثّراً، وبما أن كلّ واحد، كما يبدو في هذا القرن النيّر تماماً، يعتبر أن من واجبه أن يوضح لقريبه مزايا وألوان الإتقان الشّخصي لديه، وهي أمورٌ لا يعرف عنها أحدٌ أفضل مما يعرفه مالكها، وبما أن هذا الإغراء الأخير قويٌّ إلى حدّ كاف، من ناحية أخرى، فإن الكاتبَ يظنّ، في الحالة التي يستسلمُ فيها لهذا الإغراء، أنه يتعيّنُ عليه إخطارُ الجمهور بألاّ يصدّق إلاّ جزئياً كلّ ما ستقوله له الصّحفُ عن كتابه.

(١) باللاتينية في النصّ.

هان الإيسلندي
الفصل الأوّل

كان الملك كورنو يقول: أنا لا أُميِّز جيداً
أيُّ شيطان يمكن لهذا أن يكون؛ فعلينا إذن أن نتنظر؛
لأنه لم يأتِنا شيء قطّ من هذه الناحية.

الجنرال هيغو (هـ): تمرّد الجحيم[1].

هل رأيتموه؟ من الذي رآه؟ ليس أنا. من إذن؟ لا أعلم من الأمر شيئاً.

سيترن، تريستان شاندي

---

(١) المقصودُ هنا هو القصيدةُ البطوليةُ الهزلية الإسكندرية الأبيات (١٢ تقطيعاً)، والتي كان الجنرال هيغو قد سلّم مخطوطتها لابنه في مطلع آب ١٨٢٢. إنها قصّةُ «حربٍ معلنة بين السّماء والجحيم». وتنتهي بترقية لوسّيفر إلى مرتبةِ رئيس ملائكة. وقد راق لجان ماسّان أن يتعرّفَ في هذه القصيدة «تقطيبَ الوجه عند آلِ هيغو» و «هذا الجذل، هذا التهريج، وهذا التّقارب، على طريقة رابليه، والذي أسهمَ ضحكُ الوالد المعدي في إيقاظه في قلب ابنه الجدّي». وقد نشرت القصيدة للمرّة الأولى في المجلّد الأول من الطبعة المتسلسلة تاريخياً للمؤلفات الكاملة في عام ١٩٦٧. ويورد هيغو الأبياتِ الأولى من النشيّد الثاني (الطبعة المذكورة، الصفحة ١٢٧٤ -) وقد حُذفت هذه المقدمة المقتبسة في عام ١٨٣٣.

– انظرْ إلى أين يقودُ الحبّ، أيها الجارُ نييلز. إنه ما كان لهذه المسكينة غوت ستيرن أن تكون هناك ممدّدة على ذلك الحجر الأسود، مثل نجمةِ بحرٍ نسيها المدُّ، لو لم تفكرْ قطّ إلاّ في تسميرِ القارب ثانية، أو إصلاح شباكِ والدِها، رفيقنا القديم. فليعزّه القدّيس أوسوف الصيّادُ في فاجعته!

وتابع صوتٌ حادٌ ومرتعشٌ قائلاً:

– وخطيبُها جيل ستادت، هذا الفتى الوسيم الذي تراه إلى جانبها، لم يكن له أن يكون هناك، لو أنه أمضى شبابه في هزّ سريرِ شقيقه الصّغير، في أخشابِ كوخه الدّاخنة، بدلاً من معاشرةِ غوت، والبحثِ عن الثروة، في تلك المناجم، مناجم ريراس الملعونة.

فقال: الجارُ نييلس الذي كان المتحدّثُ الأوّلُ يتوجه إليه بالكلام، قال مقاطعاً:

– إن ذاكرتك تشيخُ معك، أيتها الأمّ أولي؛ فجيل لم يكن له شقيق قطْ، وهذا ما ينبغي أن يجعلَ ألَمَ الأَرملة المسكينة ستادت أكثر مرارة؛ لأن كوخها البائس قد غدا الآن مقفراً تماماً؛ وإذا ما أرادت أن تنظر إلى السّماء لتتعزّي، ترى ما بين عينيها والسّماء سقفَها القديمَ الذي لا يزالُ سريرُ طفلها الخالي معلّقاً فيه، والذي أُصبح فتىً كبيراً، ومات.

فتابعت العجوزُ أوليّ:

– يا للأمّ المسكينة! إن الفتى هو المخطئ. فلماذا صار عاملَ منجمٍ في ريراس؟

– انظرْ إلى أين يقودُ الحبّ، أيها الجارُ نييلز. إنه ما كان لهذه المسكينة غوت ستيرن أن تكون هناك ممدّدة على ذلك الحجر الأسود، مثل نجمةِ بحرٍ نسيها المدُّ، لو لم تفكرْ قطُّ إلاّ في تسميرِ القارب ثانية، أو إصلاح شباكِ والدها، رفيقنا القديم. فليعزّه القديُس أوسوف الصيّادُ في فاجعته!

وتابع صوتٌ حادٌ ومرتعشٌ قائلاً:

– وخطيبُها جيل ستادت، هذا الفتى الوسيم الذي تراه إلى جانبها، لم يكن له أن يكون هناك، لو أنه أمضى شبابه في هزّ سريرِ شقيقه الصّغير، في أخشابِ كوخه الدّاخنة، بدلاً من معاشرةِ غوت، والبحثِ عن الثروة، في تلك المناجم، مناجم ريراس الملعونة.

فقال: الجارُ نييلس الذي كان المتحدّثُ الأوّلُ يتوجه إليه بالكلام، قال مقاطعاً:

– إن ذاكرتك تشيخُ معك، أيتها الأمّ أولي؛ فجيل لم يكن له شقيق قطْ، وهذا ما ينبغي أن يجعلَ ألمَ الأرملة المسكينة ستادت أكثر مرارة؛ لأن كوخها البائس قد غدا الآن مقفراً تماماً؛ وإذا ما أرادت أن تنظر إلى السّماء لتتعزّي، ترى ما بين عينيها والسّماء سقفَها القديمَ الذي لا يزالُ سريرُ طفلها الخالي معلّقاً فيه، والذي أصبح فتىً كبيراً، ومات.

فتابعت العجوزُ أولي:

– يا للأمّ المسكينة! إن الفتى هو المخطئ. فلماذا صار عاملَ منجمٍ في ريراس؟

فقال نييلس:

– في الحقيقة، أظنُّ أن هذه المناجمَ الجهنميّةَ تأخذُ منا رجلاً مقابل كلّ إسكالان[1] نحاسيّ تعطينا إياه. ما رأيُك في هذا، أيها العرّابُ برال؟

فأجاب الصيّاد بسرعة:

– إن عمالَ المناجم مجانين؛ فلكي يعيشَ السّمك، عليه ألاّ يخرجَ من الماء. والإنسان لا ينبغي أن يدخلَ إلى باطنِ الأرض.

فسأل أحدُ الفتيان من بين الجمهور:

– ولكن إذا كان العملُ في المناجم ضرورياً لجيل ستادت لكي يحَصلَ على خطيبته...؟

فقاطعته أوليّ:

– لا ينبغي للمرء أن يعرِّضَ حياته للخطر في سبيل أمورٍ عاطفيةٍ هي أبعد ما تكون عن أن تعادل هذه الحياة، وأن تملأها. فياله من سريرِ عرسٍ جميل ذلك السّريرُ الذي فاز به جيل لمحبوبته غوت في النتيجة!

وسأل فضوليٌّ آخر:

– هذه المرأةُ الشابّة قد غرقت إذن لفقدانها الأمل، بعدَ موتِ ذلك الشابّ؟

فهتف بصوتٍ قويّ جنديٌّ كان قد اخترقَ الحشدَ للتوّ:

(١) شكل روماني للكلمة الجرمانية شيلينغ.

– إن هذه الفتاة التي أعرفها جيداً قد كانت في الحقيقة خطيبةَ عاملٍ منجم شـاب سحقته مؤخراً شظيّةٌ من صخرةٍ في الدّهاليز الجوفيّة في ستورفادسغروبَ قريباً من ريراس. غير أنّها كانت عشيقةَ أحد رفاقي. وإذْ أرادت قبل أمس أن تلجَ إلى مونكولم خلسةً لكي تحتفلَ فيها مع عشيقها بموتِ خطيبها؛ فإن القاربَ الذي كان يقلّها قد انقلبَ على صخرةٍ بحريةٍ فغرقت.(١)

تعالت همهمةٌ مبهمةٌ، وكانت العجائزُ يصرخن: مستحيل، أيها السّيد الجندي؛ وكان الشبّان صامتين. أما الجارُ نيبلس فقد أخذ بلهجةٍ خبيثةٍ يذكرّ الصّياد برال بجملته الرّصينة:

«انظروا، إلى أين يقودُ الحب؟».

كان العسكريُّ على وشك أن يغضب جدّياً من معارضيه الإناث. وكان قد أسماهنّ مسبقاً بـ «ساحراتِ مغارة كيراغوت العجائز»، ولم يكنّ مستعدّات ليتحملن بصبرٍ إهانةً على تلك الدّرجة من الخطورة، عندما أتى صوتٌ حادٌّ وآمرٌ ليضع حدّاً للنّزاع، وهو يصرخ: صه! صه! أيتها المهذارات! فسكت الجميع، مثلما يحدثُ، حين يرتفعُ صياحُ الديك بين نباح الدجاجات.

---

(١) انظر في الفصل /١٦/ القصة الحقيقية للأرملة ستادت وابنها. إن الموضوع المركزي للكتاب يتكرر إذن في خلفية اللّوحة: «إن قصة الثنائيين: كارول ستادت ولوسي بيلنير، وجيل ستادت وغوت ستيرسن تشبهُ في عددٍ من النّقاط قصةَ أوردينر وإيتيل، وقصة فيكتور وأديل. غير أنه فيما يجد أوردينر الحبَّ الكامل؛ فإن الثنائيين الآخرين يقعان ضحيةَ عنفِ الرّغبة والشقاء الذي يهدّد كلَّ حب؛ فلوسي يغتصبُها هان، وتحمل منه ابناً هو (جيل ستادت) وكارول تنتحر، وجيل يُسحَقُ في المنجم الذي كان يكدحُ فيه بلا طائل، لأن خطيبته كانت تخونُه، وهي تفرح لموته». (إيف غوان). ولم يتبقّ لهان إلاّ الثأر لابنه: «من أجل جنديّ في حامية مونكولم، إنّما خانته، ولسوف يقضي الفوجُ بكامله على يديّ» (الفصل:٦١)، وتكون الضحيةُ الأولى هي القائد ديسبولسن المبعوث لإطلاق سراحِ شوماكير. ويلفى هان نفسه متورّطاً في الوقت نفسه، دون أن يرغب في ذلك، في الدّسائسِ التي يشكّلُ سجنُ مونكولم مركزاً لها.

وقبل أن نروي بقية المشهد، قد لا يكون من غير المفيد أن نصفَ المكان الذي كان يجري فيه. كان ذلك (ولا ريبَ في أن القارئ قد خمنّ هذا) في إحدى تلك المباني الكئيبة التي تكرّسُها الرأفة العامّةُ، والبصيرةُ الاجتماعية للجثث المجهولة الهويّة، وهي الملجأ الأخير للموتى الذين عاش معظمُهم حياةً شقية، والمكان الذي يحتشدُ فيه الفضوليٌّ غير المكترث، والملاحظُ العكرُ المزاج أو العطوف، وغالباً ما يكون هناك أصدقاءٌ، وأهلٌ محزونون لم يعدْ يتركُ لهم قلقٌ طويل وغيرُ محتملَ سوى رجاءٍ يثير الشّفقة. ففي عصرٍ بعيدٍ عن عصرنا، وفي بلادٍ قليلة التحضّر نَقَلتُ إليها قارئي، لم يكن أحدٌ قد تصوّر بعد، كما في مُدننا، مدن الطيّن والذهب، وأن يصنع من تلك الأمكنة، أمكنةَ التّرسُّب، أوابدَ مشؤومةً على نحوٍ بارع، وجنائزية بأناقة[1] لم يكن الضّوء ينحدر منها، من خلال فتحة رمسّية الشكل، على طول قبة منحوتةٍ بصورةٍ فنية، على ضروبٍ من المراقد التي يبدو أنَّه قد كانت هناك رغبةٌ في أن يترك للموتى فيها بعضَ رفاهيّات الحياة، وترتسمُ فيها معالمُ وسادةٍ وكأنها للنوم. وإذا ما كان بابُ الحارس ينفتح جزئياً. فإن العينَ التي تعبت من رؤيةِ الجثث العارية والشنيعة لم يكن يسرّها،

(١) في الجهة الجنوبية من رصيف مارشيه نوف، وعلى مقربةٍ من جسر سان - ميشيل، ان مسلخُ مارشيه يقع في بروزٍ على السّين، منذ عام ١٥٦٦. وفي ذلك المبنى المعدّ للمناسبات، على شكل قبل إغريقي، إنما جرى عام ١٨٠٤ نقلُ لا موزع (المشرحة) التي كانت قائمةً حتى ذلك الحين، في غران شاتليه. وقد هُدمَ هذا المبنى عام ١٨٣٠، ثم أُعيدَ بناؤه. وكانت هناك بوّابةٌ تُفضي إلى ممرّ تطلُّ عليه قائمةُ المعرض، وتفصلُها عنه أقسامٌ مزجّجة، وقاعةُ تشريح، ومستودع، ومكاتب، ومساكن (جاك هيليريه، معجم شوارع باريس، «رصيف مارشيه نوف») انظر، حول المشرحة: آدولف دولاهي، ١٨٦٠، أدولف غيو: باريس التي تتألّم، وروكيت ١٨٨١، مع مكتبة: ثبت بالمراجع للوحات عن الطباع مكرّسةَ للامورغ (صفحة ٣٣٧ - ٣٤١) ويرد فيها خصوصاً: لجول جانين: الحمارُ الميت والمرأة التي أُعدِمت على المقصلة: ١٨٢٩) ولليون غوزلان: كتاب المئة وواحد ١٨٣٨)، وشارل نوديه: باريس التّاريخية: ١٨٢٨، وشانفلوري: لامورغ (المشرحة)، في كتابه: حكايات وموشحات غنائية.

كمـا هي الحالُ اليوم، أن تستقرّ على أثاثٍ أنيق، وأطفالٍ فرحين؛ فقد كان الموتُ ماثلاً هناك، بكلّ قباحته، وبكلّ فظاعته، ولم يكن أحدٌ قد حاول بعد أن يزيّن هيكله العظميّ المتجرّد من اللحّم بالشّراباتِ والأشرطة.

كانت القاعةُ التي يمكث فيها محدّثونا فسيحةً ومعتمة، وهذا ما كان يجعلُها تبدو أكثرَ اتساعاً أيضاً، ولم تكن تتلقّى الضّوءَ إلاّ من خلال الباب المربّع والمنخفض الذي كان ينفتحُ على ميناء درونتهايم، وكانت هناك فتحة قد أُحدثت بلا إتقان في السّقف، وكان يسقطُ منها ضوءٌ أبيض وباهت، مع المطر، والبَردِ والثلّج، حسب الطقس، على الجثثِ المسجّاة تحتها مباشرة. كانت تلك القاعة مقسّمةً عرضيّاً، بحاجزٍ حديديّ، على ارتفاعٍ يكفي للاستناد عـليه. و كان الجمهورُ يلجُ إلى القسم الأوّل عن طريقِ الباب المربّع الشّكل. وفي القسم الثاني، كانت تُرى ستُّ بلاطاتٍ من الغرانيت الأسود، مرتبةً بصورةٍ متقابلة ومتوازية. وكان هناك بابٌ جانبيٌ يُستخدم في كلّ قسم مدخلاً للحارس ومساعده، والذي كان مسكنهُ يشغلُ خلفيّاتِ المبنى المستندِ إلى البحر. كان عـاملُ المنـجم وخطيبتهُ يشغلات سريرين من الغرانيت: كان التحلُّلُ يبين في جسدِ الفتاة، من خلال البُقع العريضة الزّرقاء والأرجوانية التي تسري على طول أطرافها، في موضع العروق الدّموية. وكانت قسماتُ جيل تبدو قاسيةً وداكنة، غير أن جثتّه كانت مشوّهةً بصورةٍ مرعبة بحيث أصبح من المتعذّر أن يحكم المرءُ إن كانت وسامتُه حقيقيةً كما كانت العجوز أوليّ تقول.

أمام هذه البقايا المشوّهة إنما بدأ الحديثُ الذي جرى في وسط ذلك الحشد الصّامت، وقد نقلناه بأمانة.

كان هناك رجلٌ طويُل القامة، ضامرٌ وعجوز، وكان يجلسُ مكتوفَ اليدين، وقد أحنى رأسه على حطامِ مرقاةٍ في الزّاوية الأشدّ عتمة في القاعة، وكأنّما لم يكن قد أعار أيةَ انتباهٍ للحديث، حتى اللّحظة التي نهض فيها فجأة، وهو يصرخ: صه!صه! أيتها المهذارات! وأتى ليمسك بيد الجنديّ.

سكت الجميعُ، فاستدار الجنديّ، وانطلق يقهقه على نحوٍ مفاجئ لمرأى الرّجل الغريب الذي قاطعه، والذي كان وجههُ هزيلاً، وشعرهُ قليلاً ومتسخاً. وكانت أصابُعه الطوّيلةُ وزيُّه الكاملُ المصنوعُ من جلدِ الرّنة تسوّغُ تسويغاً واسعاً الاستقبالَ الذي لقيه من الجنديّ، على تلك الدّرجة من البشاشة. ومع ذلك، فقد أخذ يتعالى همسٌ بين جمهرةِ النسّاء المنذهلات للحظةٍ من الزّمن:

– إنه حارس سبلادجيست[1]

– بوّاب الموتى الجهنميّ هذا!

– سبياغودري، هذا الشيّطاني!

– هذا السّاحرُ اللّعين . . .

– صه! أيّتها الثّرثارات، صه! إن كان اليوم هو محفلُ السّبت[2]، فأسرعن لجلبِ مكانسكنّ وإلاّ طارت بمفردها. واتركنَ بسلامٍ سليلَ الإله تور[3] الموقّر هذا.

---

(١) اسمُ مشرحة درونتهايم

(٢) الاحتفال الليلي الذي تقوم به السّاحرات برئاسة الشيطان (م:ز.غ).

(٣) إله البرق والرّعد في الميثولوجيا السّكندنافية. (م:ز، ع).

ثم توجه سبياغودري بالكلام إلى الجنديّ، وهو يجهدُ في رسمِ تكشيرةٍ ظريفةٍ على وجهه:

– كنت تعول، أيّها الشهمّ، إن هذه المرأة البائسةَ.

فهمست أوّلي:

– يا للعجوز المضحك! أجل، نحن بالنسبة إليه «نساءٌ بائسات» لأن أجسامنَا، إن وقعت تحت مخالبه، لا تجلبُ له إلاّ ثلاثين أسكالينا كضريبة، فيما يتلقّى أربعين أسكالينا مقابل هيكلٍ خبيثٍ لرجل.

فردهد سبياغودري:

– الصّمت، أيتها العجائز! إن بنات الشّيطان هؤلاء أشبه ما يكنّ بالمراجل، في الحقيقة؛ فحين يسخنُ لا بدَّ أَن ينشَّ. قلْ لي، يا ملك السّيف الجسور. من المؤكدّ أن رفيقك الذي كانت غوت عشيقته سوف ينتحرُ يأساً من فقدانها...؟

هنا انطلق الانفجارُ الذي كان محتبساً لفترةٍ طويلة، وصرخ عشرون صوتاً حادّاً ومتنافراً:

– اسمعوا هذا الكافر الوثنيّ العجوز؟ إنه يريدُ أن يقلَّ عددُ الأحياء واحداً بسبب الأربعين أسكالينا التي يجلبُها له شخصٌ ميت.

فتابع بوّاب سبلادجيست:

- ومتى قد يكون ذلك؟ ألم يعلن ملكنُا اللّطيف وسيّدنا كريستيان الخامس الذي يباركُه القدّيس أوسبيس ، ألم يعلنْ نفسهَ حامياً بالولادة لكلّ عمالِ المناجم ، لكي يُغني كنزه الملكيّ بجثثهم الهزيلة ، حين يموتون؟

فردّ صّيادُ الأسماك برال؟

- إنه تكريمُ كبيرٌ للملك أن تقارن الخزينةَ الملكيّةَ بخزنةِ رُكامِ الجثث التي لديك ، وأن تقارنهَ بك ، أيها الجارُ سبياغودري .

فقال البّواب ، وقد صدمه كلامُ الصّياد المفرطُ في رفعِ الكلفة معه:

- أيها الجار. أنت تقول جارك! فقلْ على الأصحّ مضيفك ، لأنه من الممكن فعلاً ، ذات يوم ، يا عزيزي المواطن ، مواطن القارب ، أن أُعيرك لثمانيةِ أيّام أَحَدَ أسرَّتي الحجرّية السّتَة .

وأضاف ضاحكاً:

- فضلاً عن ذلك ، فلئن كنتُ أتكلمّ عن موتِ ذلك الجنديّ ، فذلك ببساطةِ لكي أرى استمرارَ استخدام الانتحار في الأهواءِ العظيمة والمأسوية التي اعتادتّ تلك السّيدات أن توحي بها .

فقال العسكريّ:

- حسناً ، أيّها الجثّةُ الكبيرةُ التي تحرسُ الجثث . إلى أين تريدُ أن تصلَ إذن بتكشيرتك المحببّة التي تشبه كثيراً آخر قهقهةٍ لمشنوق؟

فأجاب سبياغودري:

– هذا ممتاز ، أيها المقدام! طالما فكّرتُ أن هناك قدراتٍ فكريةٍ تحت خوذة الشّرطي تورن الذي قهر الشيطان بحُسامه ولسانه أكبر من القدرات الموجودة تحت تاج المطران إيسليف الذي كتب تاريخ إيسلندا ، أو تحت القبّعة المربّعة للأستاذ شونينع الذي وصف كاتدرائيتنا[1]

– في هذه الحالة ، إن تأخذْ بنصيحتي ، أيها الكيسُ الجلديّ العتيق،تخلَّ عن عائداتك من مستودع الجثث ، وامضِ لتبيع نفسك إلى مكتب الطّرائف ، لدى نائب الملك في برغن ، وأنا أقسمُ لكَ ، بالقديس بيلفيغور[2] ، أنهم يدفعون ثمناً للحيواناتِ النّادرة يعادلُ وزنَها ذهباً . ولكن قلْ لي ، ماذا تريدُ مني؟

– حين يتمُّ العثورُ في الماء على الأجساد التي يأتوننا بها ، نكون مجبرين على التخليّ عن نصفِ الضّريبة لصيّادي الأسماك . وكنت أودّ أن أرجوك ، أيها الوريثُ الذائع الصّيتَ للشرطي تورن ، أن تحثّ رفيقك المنكود على ألاّ يغرق ، وأن يختارَ نوعاً آخر من الموت . ولا بدّ أن الأمر بالنسبة إليه عديمُ الأهميّة ، وهو لا يريد الإضرار أثناء موته بالمسيحيّ العاثر الحظّ الذي سيقدّم الضّيافةَ لجثته . هذا إذا كان فقدُه لغوت قد دفعه إلى هذا العمل اليائس .

– هذا ما تخطىء فيه ، أيها البّوابُ الرحيمُ والمضياف؛ فإن رفيقي لن يكون مرتاحاً إذا ما استقبُل في نزلك الشهيّ ذي الأسرّة السّتة . ألا تظنُّ أنه قد وَجَد تعزيةً مع إمرأة أخرى قويّة البنية WALKYRIE [3]عن تلك المرأة الأولى؟ فهو ، قسماً بلحيتي ، قد ضجر من غوت التي تتحدّثُ عنها ، منذ زمنٍ طويل .

---

(١) انظر فيما بعد رقم: ١٧ .

(٢) شكل إغريقي لاسم معبود عند المؤابيين . (م:ز.ع) .

(٣) في الأساطير الاسكندنافية ، آلهة نسائية تقود المحاربين إلى الجنّة (م: ز.ع) .

عند هذه الكلمات، رجعت العاصفة التي كان سبياغودري يبعدُها عن ذهنه لتنقضّ على الجنديّ السيء الخط على نحوٍ أعنف من أيّ وقتٍ مضى.

أخذت العجائزُ يصرخن:

- كيف أيها المضحكُ البائس. أتنسانا إذن على هذا النّحو! فلتحبّ الآن هؤلاء التّافهين!

كانت الفتياتُ لا يزلن يلتزمن الصّمت؛ وحتى أن بعضاً منهن، رغماً عنهن، كن يجدن أنّ هذا الموضوع الرّديء يثيرُ الضحّك بما فيه الكفاية.

وقال الجندي:

- أوه! أوه! هل هذا إذن إعادةٌ لمحفلِ السّبت. إن عذاب بعلزيبوت[1] رهيبٌ حقاً، إذ حكم عليه أن يسمع ألحاناً جماعية مشابهةَ مرّة في الأسبوع!

لا ندري كيف أمكن لتلك الزوبعة الجديدة أن تمرّ، لو لم يكن الاهتمامُ العام منشغلاً بالضجة الآتية من الخارج. وتزايدت الضّوضاءُ تدريجياً. وفي الحال، دخلت إلى السّبلادجيست ثلّةٌ من الصبيّان الصّغار دخولاً صاخباً، وهم نصفُ عراة، وأخذوا يصرخون ويركضون حول محفّةٍ مغطاةٍ بنقاب، ويحملُها رجلان.

فسأل البّواب حاملي المحفّة:

- من أين يأتي هذا.

---

(١) معبود فينيقي أصبح في التّوارة: أمير الشيّاطين. (م.ع).

– من سواحل أورشتال الرّملية.

فصرخ سبياغودري:

– أوغليبيغلاب!

وانفتح أحدُ البابين الجانبيّن، فتقدّمَ رجلٌ قصيرُ القامة من أصلٍ لايوني[1] يرتدي ثياباً جلدية. وأشار إلى حاملي المحفّة أن يتبعوه؛ فرافقهم سبياغودري وانغلق البابُ من جديد قبل أن يُتاح للحشدِ الفضوليّ الوقتُ ليخمنّ إن كان المحمولُ رجلاً أم إمرأة، بناءً على طول الجسَم الموضوع على المحفّة.

كان هذا الموضوع لا يزالُ هو الشغلُ الشاغل لكلِّ التخمينات، حين ظهر سبياغودري ومساعدُه في القاعة الثانية وهما يحملان جثّةَ رجلٍ وضعاها على إحدى طبقات الغرانيت.

فقال أوغليبيغلاب:

– ألم ألمسْ منذ زمن بعيدٍ ملابسَ جميلةً كهذه. ثم علّق فوق الميت زيَّ نقيبٍ أنيقاً، وهو يهزّ رأسه، ويرتفع على رأس قدميه. كان رأسُ الجثّة مشوَّهاً، وكانت أعضاؤه الأخرى مغطاةً بالدّم؛ فرشَّ البوّابُ عليه الماء عدداً من المرّات بواسطةِ سطلٍ قديم محطّمٍ جزئيّاً.

فصرخ الجنديّ:

– وحقّ القديس بعلزبوت! إنّه ضابطٌ من فيلقي. هيّا: أيكونُ النّقيبُ بولار... من جراء الألم الذي سببّه له فقدانُ عمه؟ عجباً! إنه قد صار

(١) من لايونيا، المنطقة الشمّالية الأبعد في أوربا، بعد الدائرة القطبية. (م: ز.غ).

وارثاً – أهو البارون راندمير؟ فقد خاطَرَ بأرضه في القمارِ بالأمس. ولكنه سوف يستعيدُها غداً، بالإضافة إلى قصر خصمه. – هل يكون النقيبَ لوري الذي غرق كلبُه؟ أو أمين الخزانة ستونك الذي تخونُهَ إمرأتُه؟ – ولكني فعلاً لا أرى في كلٍّ ذلك دافعاً لكي يفجرّ المرءُ دماغه.

كان الجمهورُ يتزايدُ في كلِّ وقت، فنزل في تلك اللحظة عن جواده فتىً كان مارّاً بالميناء، ورأى تدفُّقَ الشعّب، وسلّم المقود إلى خادم كان يتبعه، ودخل إلى السبلادجيست. وكان يرتدي لباسَ سفرٍ بسيطٍ، ويتسلّح بحسام، ويلتفّ بمعطفٍ عريضٍ واسع. وكانت ثمة ريشة سوداء مربوطة إلى قبعته بدبّوس ماسيّ، تميلُ على وجهه النبيل، وتهتزُّ على جبينه المرفوع الذي يظلّله، شعرٌ طويلٌ كستنائي. وكان حذاؤه النصفيّ ومهما زاه الملوّثان بالطيّن تدلُّ على أنّه آتٍ من بعيد.

حين دخل، كان هناك رجلٌ قصيرُ القامةِ وسمين، وملتفٌّ بمعطفٍ مثله، وهو يخفي يديه في قفّازيه الضخمين، ويردّ على الجندي قائلاً:

– ومن قال لك إنه قد قتل نفسه؟ ليس أمراً محتملاً أن يكونَ هذا الرجّل قد انتحر أكثر مما تكون كاتدرائيتك قد احترقت من تلقاء نفسها، إني أضمن لك ذلك. فاستدعت هذه الجملة جوابين، مثلما يُحدِثُ منقار النجار[1] شقيّن.

فقال نييلس:

– كاتدرائيتنا! إنهم يسقفونها الآن بالنحاس. فإن ذلك الحقير هان، كما

---

(١) آله حادّة يستعملها النّجار، وهي تقطع من جانبيها، ولها شكل مقراض في أُحدهما، وعلى شكل إزميل في الجانب الآخر (ليتريه).

يُقال ، هو الذي أضرمَ فيها الناس لكي يجعل عمالَ المناجم يشتغلون؛ فقد كان محميُّه جيل ستادت الذي ترونه هنا من بينهم .

فهتف الجنديُّ من جهته:

– ياللشيّطان! وكيف يجرؤ أحدٌ على أن يؤكدّ لي ، وأنا حامل القربينة[1] الثاني في موقع مونكولم أن ذلك الرّجل لم يطلق النّار على رأسه!

فردّ الرّجلُ القصيرُ القامة ببرود:

– لقد مات ذلك الرّجل مقتولاً .

– اصغوا إذن إلى وسيط الوحي! هيا ، إن عينيك الصّغيرتين الرّماديتين لا تريان أوضح مما ترى يداك داخل قفازك الضّخم الذي تغطيهما به في عز الصّيف .

التمع وميض في عينيّ الرجل القصير ، وقال:

– ستجعلك هاتان اليدان تتعرّفُ الباروDَ الذي تجهلُ تأثيراته تمام الجهل .

فصرخ الجنديُّ وقد استشاط غضباً:

– هو! لنخرجْ!

ثم توقّف فجأة وقال:

– لا ، لأنه لا ينبغي الكلامُ عن النَزال أمام الموتى .

---

(١) بندقية قديمة الطراز . (م:ز . ع)

فدمدم الرّجلُ القصيرُ ببعضِ الكلمات بلغةٍ أجنبيةٍ واختفى.

فتعالى صوتٌ قائلاً:

– إنما عُثرِ عليه في موضعِ السّواحل الرّملية في أورشتال.

فقال الجنديّ:

– في سواحل أورشتال الرّملية؟ كان من المفروض أن يرسوِ النقيب ديسبولسن هذا الصّباح فيها، آتياً من كوبنهاغن.

فقال صوتٌ آخر:

– لم يصل النقيبُ ديسبولسن حتى الآن إلى مونكولم.

فردّد صوتٌ رابع:

– يُقال إن هان الإيسلندي يجولُ حالياً في تلك الشّواطئ الرّمليّة.

فقال الجنديّ:

– في هذه الحالة، من الممكن أن يكون هذا الرّجلُ هو النقيب. إن كان هان هو القاتل. لأن كلَّ إنسانٍ يعلم أن الإيسلندي يقتلُ بطريقةٍ شيطانية بحيث تبدو ضحاياه غالباً وكأنّها انتحرت.

فسأل أحدهم:

– فأيّ رجلٍ يكون هذا الهان إذن؟

فقال أحدهم:

– إنه عملاق .

وقال الآخر:

– إنه قزم .

فردّد أحد الأصوات:

– أفلم يره أحدٌ إذن؟

– أولئك الذين يرونه للمرّة الأولى ، يرونه أيضاً للمرّة الأخيرة .

فقالت العجوز أوليّ:

– صه! يُقال إنّه لم يتبادلْ معه كلاماً بشريّاً قط إلاّ ثلاثةُ أشخاص؛ هذا الهالك سبياغودري ، والأرملة ستادت و . . . (ولكنْ هذا عاش حياةً شقية ، ومات ميتةً تعيسة) وهذا المسكين جيل الذي ترونه هنا ، صه!

فردّد الجميعُ من كلّ جانب:[1]

– صه!

---

(١) يجهل الجميع حضور هان الذي لم يكن إلاّ «الرجّلَ القصيرَ والسّمين» والذي تمَّ وصفه أعلاه . ويمكن لمشهدِ العرض الحواريّ هذا أن يُعتبرَ بجملته ، مميّزاً لطريقة فالترسكوت . إذا ما اكتفينا بحكمنا على الأمر بالنصائح التي أَسداها أرتيز للوسيان دو رومامبريه: «إذا شئت ألاّ تكون مقلّداً أعمى لفالترسكوت ، فينبغي أن تبدع طريقةً مختلفة ، فتكون قد حاكيت طريقته؛ فتبدأ ، شأنه ، بأحاديث طويلة لكي ترسي شخصياتك . وبعد أن تتحدّث هذه الشّخصيات ، تأتي بالوصف والحدَثَ . فتنقلب حدود المشكلة ، وتحلّ محلّ هذه الأحاديثَ المسهبة والرائعة عند سكوت ، والتي لا لون لها عندك ، لتحلّ محلّها ضروباً من الوصف تتوافق لغتنا معها توافقاً جيداً ، وليكن الحوار عندك نتيجةً متوقّعة تتوّج تحضيراتك» . (أوهام ضائعة: «رجل عظيم من ريف باريس» ، فوليو ٢٧٩١ ، الصفحات: ٧٢٢ – ٨٢٢) – وهذا الكتاب رواية لبلزاك (م.ع) .

وهتف الجتدي فجأة:

- الآن، أنا متأكدٌ من أنّه النقيب ديسبولسن، في الواقع؛ فأنا أتعرّفُ السّلسلةَ الفولاذية التي أعطاها إياها العجوزُ شوماكير كهديّةٍ لسفره.

فقطع الشابُّ ذو الريشة السّوداء الصمتَ باندفاعٍ وقال:

- أنت متأكدٌ من أنه النقيب ديسبولسن؟

فقال الجندي:

- متأكدّ، وحقّ فضائل القديس بعلزبوت.

فخرج الشابّ على نحوٍ مفاجئ، وقال لخادمه:

- أنزل قارباً لنتوجّه إلى مونكولم.

- ولكن يا سيدّي، والجنرالُ... ؟

- تأتيه بالخيول؛ فلسوف أذهبُ غداً؛ فهل أنا سيّدُ نفسي أم لا؟ هيّا، إن النّهار ينقضي، وأنا على عجلةٍ من أمري، إليّ بقارب.

فأطاع الخادمُ الأمر، ولبعضِ الوقت، لاحق بعينيه سيّده الذي كان يبتعدُ عن الشاطئ.

الفصل الثّاني

سأجلسُ بقربك، فيما تروي قصة ممتعة لتمضية الوقت

الموقر مانوران، برترام

يعلمُ القارئ الآن أننا في درونتهايم، إحدى المدن الأربعة الرّئيسية في النرويج، مع أنها لم تكن مقرّاً لإقامة نائب الملك. ففي العصر الذي تجري فيه هذه القصة (عام ١٦٩٩)، كانت مملكة النّرويج لاتزال موحّدة مع الدانمرك، ويحكمها نوّاب للملك الذي كان يقيم في برغن. وهي مدينة أكبر، وأقرب إلى الجنوب، وأجمل من درونتهايم، برغم التسمية المستعارة التي كان يطلقُها عليها الأميرال الشهير ترون وهي رداءة الذّوق[1].

حين نصل إلى درونتهايم، عن طريق الخليج الذي تعطيه هذه المدينة اسمها،

١ - «في العاشر من آب لعام ١٦٥٣، تعرّض الرجل الذي كسب ثلاث وثلاثين معركة، وهو الأميرال العجوز مارثان هوبيرتس ترون، والذي كان يوصف بجدّ البحّارة وقد قهر الأسطول الإسبانيّ. تعرّض للتدمير على يد الأسطول الانكليزي. (انظر: ڤيكتور هيغو، الفصل: ٢- القسم ١- ٣- حيث لايجري الحديث عن تسمية برداءة الذوق «تُطلق على مدينة برغن».

يبدو منظرها مستحبّاً؛ فالميناء الواسع إلى حدٍّ كافٍ لم يكن مع هذا يشبه في منظره حينذاك إلا قناةً طويلةً تحيط بها من اليمين بواخر دانمركية ونرويجية. ومن اليسار بواخر أجنبية هي سفنٌ حربية تتقيّد بالاوامر، من أن المراكب لم تكن تدخل إلى هذا الميناء بيُسرٍ في كلّ وقت. إن المرءَ يرى المدينة، في العمق، وهي مستقرّة على سهلٍ مزروع جيداً، وتعلوها أسهم قباب كاتدرائيتها. إن هذه الكنيسة، التي هي أجمل القطع الفنية، قطع العمارة القوطيّة، كما يمكن للمرء أن يحكم على ذلك، بناء على كتاب الأستاذ شيننغ، (وكثيراً ما كان يورده سبياغودري عن علم). الذي وضعه قبل أن تدمّرها حرائق متكرّرة، هذه الكنيسة كانت تحمل الصليب الأسقفيّ على سهمها الرّئيس، وهو علامة مميّزة لكاتدرائية الأسقفية اللّوثرية في درونتهايم. وفوق المدينة، يلحظُ المرءُ في مكانٍ بعيد مائل للزّرقة، القممَ البيضاء والدقيقة، قممَ مرتفعات كول التي تشبه الزّخارف الزهرية الحادة لتاج قديم(١).

(١) إن الكاتدرائية تحفة فنية من تحف العمارة القوطيّة. ومع أن حرائق مختلفة قد أتلفتها، فإن هذه الكنيسة لاتزال تُظهر من خلال خرائبها الامتداد الواسع الذي كان عليه سورها، وخصوصاً الذوقُ والغنى في زخرفاتها التي كانت مزيّنة بها. ويُبدي المرءُ إعجابه بأعمال النحت التي أوصل إلينا الأستاذ شيننغ وصفاً كاملاً لها، والذي يفيد في الدّفاع عنها، اضافة إلى الماء الذي يحيطُ بها من كلّ جانبٍ تقريباً. ومع ذلك، ليس بمقدور المرء أن ينظر إليها على أنها مدينةٌ منيعةٌ جداً؛ فثمة بضعة مرتفعات شديدة القرب منها تهيمنُ عليها. ودفاعُها الوحيد يتمثّل في قصرين: أحدهما يسمى كريستيانسن، ويقعُ على هضبةٍ قريباً من المدينة، والآخر يسمى مونكولم، ويقع على صخرة، وسط الميناء، على مرمى المدفعية من الأرض. وتُستخدم مونكولم سجناً للدّولة. وبما أنها تقع في وسط المياه، فإن موقعها ينتزعُ من المعتقلين أيّة إمكانية للهرب. وهذه المدينة هي مرفأ لتصدير كلّ أنواع النّحاس التي تردُ من مناجم ريراس وميلدالن. إن المناطق المجاورة لدرونتهايم مستحبّة وجذّابة المنظر. وفيها أجمل إطلالة على الجبل الذي تتكئ إليه المدينة. ومنها نكتشفُ المدينة، وميناءها وقلعتيها: مونكولم وكريستيانسن (جوهان- كريستيان فابريسيوس: رحلةٌ في النرويج- الصّفحات: ٥٢٢-٧٢٢و ٥٤٢)، ويمكن لهذا الوصف لموقع درونتهايم أن يكون أساساً في المشهد المتخيَّل، في الفصول ٣٢و ٤٢- وخلافاً لفابريسيوس ومالتّيه، فإن الناس، في القرن الثامن عشر، قلّما كانوا معجبين بالعمارة القوطيّة، إن أولئك الذين كانوا، من بين الاسكندنافيين، قد استقروا في//

وفي وسط المرفأ، وعلى مدى مدفع السّاحل، ترتفع قلعة مونكولم الوحيدة على كتلةٍ من الصخور التي صقلتها الأمواج، وهذه القلعة سجنٌ معتمٌ كان يضمّ حينذاك سجيناً شهيراً بتألّقِ سنوات عزّه الطويلة، وسرعة النكبات التي حلّت به.

إن شوماكير الذي ولد في رتبة اجتماعية مغمورة، كان قد تلقّى امتيازات الحظوة التي أغدقها عليه سيّده، ثم هوى من كرسيّ مستشار الدانمرك والنرويج الكبير إلى مقعد الخونة، وسيق إلى المشنقة، وأُلقي به، من هناك، بعفوٍ شمله، إلى زنزانةٍ منفردةٍ بعيداً عن المملكتين.

إن صنائعه قد أطاحوا به، من غير أن يكون له الحقُّ في أن يحتجّ على نكرانهم للجميل. فهل كان بوسعه أن يشكو من رؤية الدّرجات تتحطمّ تحت قدميه، وهي الدّرجات التي وضعها عالياً جداً لكي يرفع هو نفسه مرتبته.

كان ذلك الذي أسّس طبقة نبلاء الدانمرك يرى، من أعماق منفاه، الكبار الذين صنعهم يتقاسمون مناصبه الخاصّة. الكونت دالفيلد، عدوُّه اللّدود قد أُصبح خلفاً له كمستشار أكبر. وغدا الجنرال أرينسدورف، كماريشال

// البلدان الأكثر غنى، قد تبنّوا سريعاً الترف الذي يعيش يه مواطنوهم الجدد، وأرادوا أن يتميزوا مثلهم بمبانيهم الباذخة. غير أن البساطة الجميلة والرفيعة، بساطة التناسبات القديمة قد أفلتت منهم؛ فقد شوّهوها بالتكلّف في الزينة المفرطة. ومن هنا وُلد ذلك الذّوق المعماريّ المسمى قوطيّاً حسب تسميتهم. وهو ذوقٌ قد ساد بصورةٍ شاملة في أوروبا، ولم توحِ أعماله بالإعجاب إلا من خلال الصّبر الذي لا يكلّ، والعمل الهائل. (تاريخ الدانمرك: المجلد الأول– الصفحة: ٢١٣) ويبدو أن هيغو يُسلّم فيما بعد (الفصل: ٢٢، الصفحة: ٣٤٢، الرقم: ٤٧) بأطروحة الأصل الشرقي للفن القوطيّ (انظر أيضاً: نوتردام باريس الفصل ٣– رقم /١/)، ولإكمال الفصل، انظر المقدمة.

كبير، حائزاً على الرتب العسكرية، وأخذ الأسقف سبوليسون يمارسُ وظيفة مفتشٍ للجامعات؛ والوحيد الذي لم يكن يدين له بارتقائه كان الكونت أولريك فريدريك غولدينليف، الابن غير الشرعي للملك فريدريك الثالث، نائب ملك النرويج. وكان أكثر الجميع نبلاً.

كان قاربُ الشاب ذي الرّيشة السّوداء يتقدّمُ ببطءٍ إلى حدٍّ ما باتجاه صخرة مونكولم الكئيبة. وكانت الشمسُ تميل بسرعة خلف القصر– الحصين المنعزل، والذي كان كتلتهُ تعترض أشعّتها التي غدت أفقية بحيث صار فلاحُ الهضاب البعيدة والشّرقية، هضاب لارسين، صار يرى الظلَّ غير الواضح للحارسِ المتمركزِ على البرج الأعلى في مونكولم، يراه متجوّلاً على شجيرات الخَليج قريباً منه.

الفصل الثّالث

لو أتوصل إلى أن أجعلها تفهم لغة عيني ،
لو أنها حين تعبّر عيناي عن الحنان ،
تكفُّ عن أن تنظر إليّ نظرة . . .
كيف أقول؟ أقلّ غباء ، وأقلّ
جموداً ، ولو أنّها تخفض عينيها أمامي
أكون قد ربحتُ قضيتي

كوتزيبو، أديلاييد دوڤولفبنغن[1]،

آه! لم يكن ممكناً أن يُجرح قلبي جرحاً
أشدّ إيلاماً . . ! إنه فتى لاأخلاق له . .
وقد تجرأ على النّظر إليها! إن نظراته

---

(١) عبارة مقتبسة ، حذفت عام ١٨٣٣ .

تلوّث طهارتها. ياكلوديا!

إن هذه الفكرة وحدها تجعلني أستشيطُ غضباً

لبسنغ

– ياأندرو، امضِ وقل إنه بعد بعد نصف ساعة، سوف نعلن منع التجوّل، ولسوف يتبادل سورسيل الحراسة مع دوكنيس عند الباب المحرّب. ويصعدُ مالديفيوس إلى مصطبة البرج الكبير. ولنراقب مراقبةً دقيقة من ناحية البرج الرئيسيّ، برج ليون دوسليسفيغ. ولاتنسَ أن تطلق المدفع في السّاعة السّابعة لكي نرفع سلسلة المرفأ؛ بل لاتفعلوا ذلك، فنحن لانزال ننتظر النّقيب ديسبولسن. وينبغي على العكس أن تُضاء المنارة، ونرى إن كانت منارة فالدروع مُضاءة، كما أعطي الأمر بذلك هذا اليوم. ولتحضّر خصوصاً بعض المرطبّات من أجل النقيب.

وكدت أنسى– ليسجّل على القرينيّ الثاني في الفوج: توريك– بلفاست يومان في الزّنزانة؛ فقد كان غائباً أثناء النهار.

هكذا كان يتكلّم رقيب الحرس تحت القبّة السّوداء الداخنة لمركز حراسة مونكولم، والذي يقع في البرج الأسفل المشرف على الباب الأوّل للقصر.

ترك الجنود الذين كان يتوجّه إليهم بالكلام اللعب أو السّرير لينفّذوا الأوامر. ثم هيمن الصّمت.

في تلك اللحظة، سُمع صوت المجاذيف المتناوب والموّقع في الخارج– فقال الرّقيب وهو يفتح النّافذة الصّغيرة المشبكة التي تطلّ على الخليج:

– هذا هو، دون شك، النقيب ديسبولسن أخيراً!

كان هناك، في الحقيقة، قاربٌ يرسو عند أسفل الباب الحديدي.

فصرخ الرّقيب بصوت مبحوح:

– من هناك؟

فأجابوه:

– افتحوا؛ سلامٌ وأمن.

– لاتدخلْ؛ هل لديك كلمة السّر؟

– أجل.

– هذا ما سأتحقق منه، وإذا كنت تكذبُ، فإنّي أُقسم بمكرماتِ القدّيس شفيعي، بأن أجعلك تذوق ماءَ الخليج!

ثم أضاف، وهو يغلق الكوَّة من جديد، ويستدير:

– ليس هذا هو النقيب بعد!

والتمع ضوءٌ خلف الباب الحديدي؛ وصرّت الأقفال الصّدئة، وارتفعت الحواجز؛ فانفتح الباب، وعاين الرّقيب الرّقَّ الذي كان القادم الجديد يقدّمه إليه.

فقال:

– مرّ، توقّف مع ذلك.

واستأنف فجأة:

- دعْ في الخارج دبّوس قبعتك؛ فلايدخل النّاس إلى سجوّن الدّولة بمجوهراتهم. والنظام يقتضي أن «الملك، وأعضاء أسرة الملك، ونائب الملك، والأسقف، وقادة الحامية مستثنون من هذا وحدهم». فليس لديك أيّة صفةٍ من هذه الصّفات، أليس كذلك؟

فكّ الشابُّ من غير أن يجيب، الدبّوس المحظور، وألقى به إلى صيّاد الأسماك الذي أوصله كأجرٍ له[1].

أما هذا الأخير الذي خشي أن يتراجع الشّابُّ عن كرمه، فسارع إلى إحداث مسافةٍ بحريةٍ واسعة بين المفضِل والفضل.

وفيما كان الرقيب يُعيد العوارض الثقيلة إلى مكانها، ويُسمع الصوت البطيء لجزمته الثقيلة[2] وهو يدقّ على درجات السلّم الدّوار لمركز الحراسة، في الوقت الذي يدمدم فيه متذمّراً من تهوّر المستشارية التي تُغدق كلمات السرّ على ذلك النحو، أخذ الشاب يجتاز سريعاً القبّة السّوداء في البرج السّفلي، بعد أن ألقى معطفه على كتفيه من جديد، واجتاز بعد ذلك ساحة الأسلحة الطويلة، ثم عنبر المدفعية الذي تربضُ فيه بعض المدافع القديمة المفككة والتي يمكن اليوم أن نراها في متحف كوبنهاغن، والتي تحذّره صرخة الحارس الآمرة بأن يبتعد عنها. وبلغ الباب المحرَّب الكبير الذي رُفع للتفتيش على رقّهِ. وهناك، اجتاز،

---

(١) انظر فيما بعد، الملاحظة رقم:

(٢) كان الجنود يحتذون في الحرب، خلال القرن السابع عشر «جزمة ضخمة» ذات ساق عالية تصل حتى الركبة، حيث تتسع إلى قمع عريض تؤدي المبالغة فيه إلى مايسمى «جزمة ذات قِدْر» وهي التي نراها في لوحات «فان ديرمولين» (بيير لاروس)، وفي عام ١٨٣٣، تصبح جزمة أوردنير: جزمة فحسب.

يتبعه جنديّ، وعلى خطٍّ منحرف، من غير أن يتردّد، وكأنه معتادٌ على تلك الأمكنة، اجتاز إحدى تلك الباحات المربّعة التي تحيط كالحصون بالباحة الدائرية الكبيرة، والتي تخرج من وسطها الصّخرة الواسعة الدائرية التي كان يرتفع فيها البرجُ الرئيسُ حينذاك والذي يسمّى: شاتو دوليون دوسليسفيغ، بسبب الاعتقال الذي نفذّه رولف- لورنان بحقّ شقيقه جوتام لوليون دوق سليسفيغ أو سليسفيك.

لا نقصد هنا إلى تقديم وصف لبرج مونكولم الرئيس؛ لا سيّما، وأن القارىء الذي يُسجنُ في أحدِ سجون الدّولة ربما يخشى ألا يتمكن من الهرب، بالعبور من أحد جانبيّ الحديقة إلى الجانب الآخر. وسيكون ذلك تقديراً خاطئاً، لأن قصر ليون دوسليسفيغ المخصّص للسجناء المميزين، كان يقدّم لهم، فيما يقدّم من وسائل الراحة، أن يتنزّهوا في ما يشبه حديقة برّية، على درجة كافية من الاتساع، حيث تنمو بين الصّخور، وحول السّجن العالي، وفي أرض مسوّرة بجدران عالية، وأبراج ضخمة باقاتٌ من البهشية، وبعض أشجار الطّقسوس القديمة(١)، وبعض أشجار الصّنوبر السّوداء.

حين وصل الشابّ إلى أسفل الصّخرة الدائرية، ارتقى الدّرجات المنحوتة على نحوٍ غير متقن، والتي تصعدُ بصورة متعرّجة حتى أسفل أحد أبراج الأرض المسوّرة. وهو برجٌ شُقَّ فيه بابٌ سريٌّ للنّجاة، في جزئه السّفلي، ويُستخدمُ كمدخلٍ إلى البرج الرّئيس. وهناك، نَقَر بقوةٍ في البوقِ النّحاسيّ، الذي كان قد سلّمه إياه حارسُ الباب المحرّب الكبير.

---

(١) البهشية نوع من الجنبيات الحرجية، والطقّسوس شجرة مخروطية ذات أوراق خضراء عاتمة، وزهور حمراء تزيينية. (م: ز. ع).

فصرخ صوت من الداخل بقوة:

– افتحوا! افتحوا! إنه دون شك ذلك النقيب اللّعين . . . !

فأظهر باب السِّر الذي انفتح للقادم الجديد، في داخل قاعة قوطية منارة بضوء ضعيف، أظهر له ضابطاً شابّاً راقداً بلا اكتراث على كومة من المعاطف وجلود الرّنة، قريباً من تلك المصابيح ذات الثلاثة رؤوس، والتي كان أسلافنا يدلّونها من نجميّات سقوفهم. والتي كانت موضوعةً في تلك الآونة على الأرض، وكانت تتباينُ أبّهة ملابسه الأنيقة، وحتى نيقتُها المفرطةُ مع عُري القاعة. وخشونةِ أثاثها. كان الضّابطُ يمسكُ كتاباً بين يديه، فاستدار جزئياً نحو القادم الجديد، وقال:

– هذا هو النّقيب؟ مرحباً أيّها النقيب! ألم تكن تبالي بعض الشيء بأن تجعل رجلاً لاترضيه معرفتك ينتظر. غير أن تعارُفنا سوف يجري حالاً، أليس هذا صحيحاً؟ ولتتقبّل في البداية كلّ مجاملاتي بتعزيتك لمناسبة رجوعك إلى هذا القصر الجليل. ومهما كانت إقامتي لاتزال قصيرة منه، فلسوف أصبح فرحاً مثل بومةٍ يسمّرونها على الأبراج لكي يستخدموها كفزّاعة، وحين أعود إلى كوبنهاغن لحضور احتفالات زواج شقيقتي، هيهات أن تتعرَّفني أربع نساء من أصل مئة! قل لي! ألا تزال عقد الشرائط الوردية في أسفل الدثار المخضّر تُماشي الدُّرجة؟ وهل تمّت ترجمة بعض الرّوايات الأخرى لتلك الفرنسيّة، الآنسة سكوديري؟ إن بين يديّ كليليا بالتّحديد، وأفترض أنهم لايزالون يقرؤونها في كوبنهاغن. إنها دليلي في الغزل، الآن وأنا أتحسَّرُ بعيداً عن العديد من العيون الجميلة. – لأن عينيّ سجينتنا الشابّة، وأنت تعلم عمّن أتكلّم، مهما كانتا

جميلتين، لاتقولان لي شيئاً البتّة. آه! من غير أوامر والدي.. ينبغي أن أقول لك، وهذا ســـرٌّ فيما بيننا، أيّها النقـــيب، بأن والدي، ولاتتكلّم عن ذلك، قد كلّفني.. أنت تفهمني، بشـــيء لدى ابنه شوماكير، ولكن جهـــودي تضيعُ جميعُها؛ فـهذا التمـثالُ الجميل ليس امرأةً، إنها تبكي دائماً، ولاتنظر إليّ البتة.

أما الشّاب الذي لم يكن بمقدوره بعد أن يقاطع ذلاقة لسانِ الضّابط، فقد صاحَ بدهشة:

– كيف! ماذا تقول؟ أن تُكلّف بإغواء ابنةِ ذلك المنكود شوماكير...!

– أن أغوي، حسناً، فليكن! إن كان هذا يسمّى كذلك الآن في كوبنهاغن[1].

غير أنّي أتحدّى الشيطان في ذلك؛ فأول أمس، كنت في الحراسة، وقد ارتديت ياقةً فرنسيةً مجعّدة رائعة كانت قد أُرسلت إليّ من باريس نفسها. فهل تصدّق بأنها لم ترفع عينيها على الأقل نحوي، مع أنني قد اجتزتُ شقّتها ثلاث أو أربع مرّات، جاعلاً مهمازيّ الجديدين يرنّان، وشوكتهما أوسع من دوقية[2] لومبارديّة؟ هذا هو الشكل الأحدث، أليس كذلك؟

فقال الشابُّ وهو يضرب جبينه:

– ياالله! يا الله! ولكن هذا الأمر يدهشني.

---

(١) حسب معجم ليتريه: أوّل مثالٍ على استخدام كلمة SEDUiRE: «أغوى» بهذا المعنى هو لبومارشيه، المسرحي الفرنسي.

(٢) دوقية أو «دوكا»: هي نقد ذهبيٌّ قديم. (م:ز.ع).

فكرَّر الضّابط مبدياً سوء ظنّه بمعنى هذا التعجّب.

– أليس كذلك؟ إنها لا تعيرُني أقلَّ اهتمام! إن هذا لا يُصدَّق ، ومع ذلك ، فهذا حقيقيّ.

أخذ الشابُّ يذرع المكان في كلِّ اتجاهٍ بخطواتٍ عريضة، وقد اضطرب اضطراباً شديداً .

فصاح به الضّابط:

– أتريد تناول المرطبّات ، أيّها النقيب ديسبولسن؟

فصحا الشاب وقال:

– لستُ النقيب ديسبولسن على الإطلاق.

فقال الضّابطُ بلهجةٍ حادّةٍ ، وهو يعتدلُ في جلسته:

– كيف! ومن تكون أنت إذن لكي تتجرأ على الدّخول إلى هنا، وفي هذه السّاعة؟

فبسط الشابُّ لافتته[1] ، وقال:

– أريد أن أرى الكونت عزيفنفلد. . أعني سجينك.

فدمدم الضابط بلهجةٍ تنمُّ عن الاستياء:

---

(١) إن كلمة «لافتة» Pancarte تستعمل هنا بدلاً من كلمة: Passeport (جواز سفر) من باب الدّعابة ، فليتريه يورد مثلاً عن فولتير حيث يقول: «كان قد التمس أن يرسل إليك جواز سفر . . . وربما تكون قد استلمت تلك اللافتة».

- الكونت! الكونت!- إنما، في الحقيقة، هذه الوثيقة قانونيةٌ. وهذا هو فعلاً توقيع نائب المستشار غريمون دوكنود: «يمكن لحامله أن يزور، في كلّ ساعةٍ وفي كلّ وقت، كافة السّجون الملكية». إن غريمون دوكنود هو شقيق الجنرال العجوز لوفان دوكنود الذي يحكمُ في دروتنهايم، وأنت تعلم أن هذا الجنرال قد قام بتنشئة صهري المقبل.

- شكراً على التفاصيل العائلية التي تقدمها، أيها الملازم. ألا تظنُّ أنك لم ترو منها حتى الآن بما فيه الكفاية؟

فقال الملازم وهو يعضّ شفتيه:

- إن هذا الوقح على حقّ.

- أين أنت! أيها الحاجب! يا حاجب البرج! رافق هذا الغريب إلى شوماكير، ولاتتذمّر من أنني قد نزعت مصباحك ذا الرؤوس الثلاثة، والفتيل الواحد، فأنا لم أكن مستاءً من معاينة قطعةٍ يعود تاريخها بلا شكّ إلى سيولد-لوبايّان أو إلى هافار لو- بورفاندو. زدْ على ذلك، أن الناس لم يعودوا يعلّقون في السّقوف إلا مصابيح من الكريستال.

قال ذلك، وفيما كان الشابّ ومن يقتاده يجتازان حديقة البرج الخالية، استأنف لكونه ضحيّة الدُّرْجة، متابعة خيط المغامرات الغراميّة، مغامراتِ المرأة المسترجلة كليليا وهو راسيوس لوبورينو(١).

(١) أي هوراس الأعور (م: ز.غ).

الفصل الرّابع

بينفوليو

يا للشّيطان، أين يمكن لروميو هذا أن يكون؟

إنه لم يرجعْ إلى منزله هذه الليلة

ميركوسيو

إنه لم يرجعْ إلى منزل والده، فقد

تكلّمت مع خادمه.

شكسبير، روميو وجولييت

في هذه الأثناء، كان رجلٌ وجوادان قد دخلوا إلى باحة قصر حاكم درونتهايم. كان الخيّال قد نزل عن السّرج، وهو يهزّ رأسه باستياء. فقد كان يتهيأ لاقتياد المطيّتين إلى الإسطبل، حين شعر بأن أحداً يمسك بذراعه فجأة، وأنّ صوتاً يصيحُ به:

– كيف؟ ها أنت وحدك ، يابوال! وسيّدُك؟ أين هو سيّدُك؟

كان ذلك هو الجنرال العجوز لوفان دوكنود الذي نزل بسرعة ، بعد أن رأى من نافذته خادمَ الشابّ والسّرج الخالي ، وأخذ يحدّقُ بالخادم بنظرةٍ تنمّ عن قلقٍ أكبر أيضاً مما ينمُّ عنه سؤاله:فقال بوال ، وهو ينحني انحناءً شديداً:

– لم يعدْ سيّدي في درونتهايم .

– ماذا! هل كان فيها إذن؟ لقد رحل ثانيةً من غير أن يرى جنراله ، ومن غير أن يعانق صديقه العجوز ، ومنذ متى؟

لقد وصل هذا المساء ، ورحل ثانية هذا المساء .

– هذا المساء! هذا المساء! ولكن أين توقّف؟ وأين ذهب؟

– لقد نزل في السّبلادجيست ، وأبحر إلى مونكولم .

– آه! كنتت أظنّ أنه في المتقاطرات ولكن ماذا سيفعل في ذلك القصر؟ وماذا كان ينوي أن يفعل في السّبلادجيست؟ هذا هو حقاً فارسيّ الجوّال! وهذا هو خطئي أيضاً[1] بعض الشّيء ، فلماذا أنشأته على هذا النحو؟ لقد أردتُ أن يكون حرّاً برغم منزلته .

(١) أي: الأماكن البعيدة من الكرة الأرضية . (م:ز . ع) .

فقال بوال:

– لذلك هو ليس عبداً لآداب التصرُّف كذلك.

– كلا ولكنه عبدٌ لنزواته التي تفضلها قليلاً في الحقيقة، هيّا، إنه سيعودُ بلا شكّ فتذكر أن تتناول المرطبّات، قلْ لي.

وأخذ وجه الجنرال تعبيراً يدل على الاهتمام.

– قلْ لي، يابوال، عل عدوتما كثيراً على اليمين، وعلى الشّمال؟

– ياسيّدي الجنرال، لقد أتينا علي خطٍّ مستقيم من برغن، وكان سيّدي حزيناً.

– حزين! ماذا حدث إذن بينه وبين والده؟ هل الزّواج لا يروقُه؟

– أجهل هذا، ولكن يقال إن صاحب السمّو يطلب ذلك.

– يطلبهُ، أنت تقول، يا بوال، إن نائب الملك يطلبه، ولكن بما أنه يطلبه، فلابدّ أن أوردينر يرفضُه؟

– أجهل هذا، ياصاحب السّعادة، إنه يبدو حزيناً.

– حزين! هل تعرف كيف استقبله والده؟

– في المرة الأولى، كان ذلك في المخيّم، قريباً من بيرغن. وقد قال

صاحبُ السّمو: أنا لاأرى ابني غالباً. فأجاب سيّدي: هذا أفضل لي، ياسيّدي ووالدي، إن كنت تلاحظ ذلك. ثم أعطى سموّه تفاصيل عن جولاته في الشمال. فقال سموُّه: هذا جيّد. وفي اليوم التالي، رجع سيّدي إلى القصر، وقال: يريدون تزويجي، ولكن ينبغي أن أرى والدي الثاني[1] الجنرال لوفان– وقد أُسرجتُ الخيول، وها نحن هنا.

فقال الجنرال بصوتٍ مفعمٍ بالتأثُّر:

– هل دعاني والده الثاني؟

– أجل، ياصاحب السّعادة.

– ويلٌ لي اذا كان هذا الزّواج يزعجهُ، لأنّه من الأسهل عليّ أن أتعرّض لزوال حظوتي عند الملك من أن أرتضيه له. ولكنّها، مع ذلك، ابنةُ المستشار الكبير للمملكتين. . . ! بالمناسبة، يابوال، هل يعلم أوردينر أن حماته المقبلة.

(١) إنه موضوع حاسم في التخييل الهيغولي: أي موضوع تفوق الأبّوة الرّوحية على روابط الدّم. ونتيجته هي قطع سلسلة البنوّة الطبيعية (المثلث الأوربي)، مثلما هو الأمر بالنسبة لكوزيت التي يتبنهاها جان فالجان «وفاء بالوعد الذي قطعه للميتة»، وفي رواية: ثلاثة وتسعون: إن تبنيّ الأطفال فليشار علي يد كتيبة بونّيه روج (القبعة الحمراء) يجعل تأسيس الأبوّة الوحيدة الشرعية لمصلحة الجمهورية. والمعركة التي يخوضها هيغو في ذلك التاريخ (١٨٧٤) ستكون كما نعلم، معركة التربية العامة والعلمانية، والمجانيّة والإجبارية. وشأن الفيكونت غوفان دولانتوناك، ابن سيموردان «بالفكر وليس بالجسد» فإن أوردينر يدين لوالده الثاني «الجنرال لوفان بأن يعرف كيف يكون «حرّاً، برغم منزلته»أو «دمه» فلاشيء أكثر مجانبةً للصّواب، في رأي هيغو، من القول المأثور، «لايمكن لرابط الدم أن يكذب»، وخصوصاً اذا تعلّق الأمر بدم الأشراف، وآل دالفيلد.

الكونتيسة دالفيلد موجودة هنا خفيةً ، منذ أول أمس ، وأنه يُتوقَّع مجيء الكونت إلى هنا .

– أجهلُ ذلك ، ياسيّدي الجنرال .

فقال الحاكم العجوز في نفسه:

– أوه! أجل ، إنه يعلم ذلك . فلماذا يعدلُ عن بعض مواقفه ، منذ وصوله؟

وهنا ، دخل الجنرال قلقاً إلى الفندق الذي خرج منه للتوّ وهو قلق ، بعد أن أبدى بإشارةٍ منه ترحيباً ببوال ، وحيّا الحارس الذي كان يقدّم له السّلاح .

الفصل الخامس

جثوتُ منذ قليل ، وأخذت أرفع
روحي إلى الرّب ، وورائي ، وقريباً مني
أتى أحدهم ليأخذ مكاناً... فسمعتُ في الحال
تنهيدة عميقة ، ثم سمعتُ اسماً يُنطق به
من مسافةٍ أقرب إلى أذني... ولم يكن
اسمَ قدَيسة... بل كان اسمي... وأخيراً ، حان
الوقتُ لكي أنسحب: فقد انتهى القدّاس: و كنت
مرتعداً من أن أرفع رأسي . . وها أنا أستديرُ و...
أتعرّفه

ليسنغ[1]

(١) عبارة مقتبسة ، حذفت عام ١٨٣٣ .

يخيّل للمرء أن كلَّ الأهواء قد هزَّت قلبه
وأنها جميعاً قد هجرته، ولم يبق له شيء إلاّ
نظرةٌ حزينة وثاقبة لرجلٍ محنكٍ في
معرفةِ البشر، وهو يُبصِرُ بنظرةٍ
ينزعُ إليها كلُّ شيء.

شيلر، الرؤى

عندما فتح الحاجبُ أخيراً بابَ الشقّة التي يقبعُ فيها الرَجل الذي يبحثُ عنه الغريبُ، بعد أن جعله يعبر الأدراجَ اللّولبيّة، والقاعاتِ العليا لبرج ليون دوسليسفيغ، كانت أوَّلُ كلمةٍ قرعت أسماعَ الشّاب هي التالَية:

كان ذلك الذي يطرح هذا السؤال عجوزاً جالساً، وظهره يستند إلى الباب، ومرفقاه يتكئان إلى منضدةِ عمل، وجبينُه مستندٌ إلى يديه. كان يرتدي ثوباً فضفاضاً من الصّوف الأسودَ، وكان يلاحَظُ فوق سريرٍ موضوعٍ في أحد أطراف الغرفة درعٌ شعاريٌ محطّمٌ كانت تعلّقُ حوله قلائدٌ مقطوعةٌ من دَرَجةِ «إليفان»[1] ودانبروغ. وكان تاجٌ كونتيٌ مقلوبٌ مثبتاً تحت الدّرع الشّعاري. وكانت قطعتان من مطرقة القضاء مربوطتان على شكل صليب تكملان جملةَ هذه الزّينات الغريبة - وكان العجوز هو شوماكير.

فأجاب الحاجب:

- لا، يا سيّدي.

(١) أي: الفيل، وهي على ما يبدو ضربٌ من الأوسمة التي تعطى لمراتب معينة (م:ز.ع).

ثم قال للغريب:

– هذا هو السّجين .

وإذا تركهما معاً ، أعاد إغلاقَ الباب ، قبل أن يتمكّن من سماع صوتِ العجوز الحّاد ، والذي كان يقول:

– إن لم يكن هذا هو النقيب ، فأنا لا أريد رؤيةَ أحد .

عند هذه الكلمات ، بقي الغريبُ واقفاً بقرب الباب . وما إن ظنّ السّجين أنّه وحده (فهو لم يستدر للحظةٍ واحدة) حتى غرق ثانية في أحلامه الصامتة .

هتف فجأة:

– لقد تركني النقيبُ بالتّأكيد وخانني . إن الناسَ... الناس يشبهون قطعةَ الثلج التي يظنُّ امرؤٌ أنها ماسة ، فيخبئّها في حقيبة باهتمامٍ بالغ ، وعندما يبحثُ عنها ، لا يجد حتى قليلاً من الماء .

فقال الغريب:

– أنا لستُ من هؤلاء النّاس .

فنهض شوماكير فجأة وقال:

– من هنا؟ من يصغي إلي؟ هل هو ذلك التّابع الحقيرُ غولدينليف...؟

– لا تتكلّم البتة كلاماً سيئاً على نائب الملك ، أيها السّيد الكونت .

– السّيد الكونت! هل تدعوني هكذا لكي تتملّقني؟ إنك تضيع عناءَك عبثاً ، لم أعدْ مقتدراً .

– إن ذلك الذي يكلّمك لم يعرفْك قطّ ، وأنت مقتدر ، ولم تنقص صداقتُه لك من جرّاء ذلك .

– هذا لأنه لا يزالُ يأملُ في شيء منّي . إن الذكرياتِ التي نحتفظُ بها عن التُعساء تقاسُ دوماً بما تبقى من أشياء نأملها منهم .

– أنا من ينبغي أن يشكو أيها الكونت النبيل ، لأنني تذكّرتُك ، وقد نسيتَني –أنا أوردينر .

فالتمعت بارقةٌ من الفرح في عيني العجوز الحزينتين ، وانفرجت لحيتُه البيضاء بسبب ابتسامةٍ لم يستطع كبحها . مثل شعاعٍ يخترق غيمة .

– مرحباً بك ، يا أوردينر ، أيها المسافر أوردينر ، وألف أمنيةٍ بالسّعادة للمسافر الذي يتذكّرُ السّجين .

وسأل أوردينر:

– ولكنك كنت قد نسيتني إذن؟

وقال شوماكير:

– كنتُ قد نسيتك .

وعاد إلى هيئته المغتّمة وقال:

– مثلما ينسى المرء ريحَ الشمال التي تنعشُنا والتي تعبر ، ومثلما يغدو المرء سعيداً حين لا تصيرُ إعصاراً يقلبُ كياننا .

فاستأنف الشابُ قائلاً:

– أيها الكونت غزيفنفلد، ألم تكن إذن تعتمدُ على عودتي؟

– العجوز شوماكير لم يكن يعتمد عليها، غير أنه ثمة فتاة هنا كانت تَلفتُ انتباهي هذا اليوم بالذات إلى أنه قد مرّ منذ الثامن من أيار الماضي عامٌ كامل على غيابك. (١)

فارتعش أوردينر:

– ماذا، أيها الرّبُّ العظيم، هل تكون هي ابنتك إيتيل. أيها الكونت النبيل؟

– ومن تكون إذن؟

– ابنتُك، يا سيدي، قد تنازلت لتعدَّ الأشهر منذ رحيلي! أوه! كم قضيت أياماً كئيبة لقد زرتُ النرويج كلّها، من كريستيانا حتى فاردهاوس. ولكن جولاتي كانت تعيدني إلى درونتهايم على الدّوام.

– استخدمْ حريتك، أيها الشاب، بقدر ما تستمتعُ بها. ولكن قلْ لي من تكون إذن. في نهاية الأمر؟ أريد، يا أوردينر، أن أعرفك باسمٍ آخر. إن ابن أحد أعدائي الألداء يُدعى أوردينر.

---

(١) خلال أكثر من عام، اعتباراً من ٢٦ نيسان ١٨٢٠، كان فيكتور هيغو قد جرى تفريقُه عن أديل فوشيه: «اليوم الذي تقرّر فيه أنني لن أراك بعده، بكيت كما لم أبكِ من بعد بالتأكيد. (٢٦نيسان ١٨٢١)، «هل تعلمين أنه خلال ثمانية عشر شهراً لم أرك فيها، لم تمضِ عليّ دقيقةٌ واحدة لا أفكّر فيها بك؟». ٢٧تشرين الأول ١٨٢١، انظرْ: الفصل السادس عشر.

- ربما يكون، يا سيدي الكونت، لدى هذا العدو اللدود من التّسامح نحوك أكثر مما لديك نحوه.

- أنت تتملّص من سؤالي! إنما احتفظ بسرّك؛ فقد أعلم أنّ الفاكهةَ التي تروي ظمئي هي سمٌّ يقتلني. فقال أوردينر بصوتٍ حانق:

- أيها الكونت!

ثم ردّ بلهجةٍ تنمُ عن العتاب والرأفة:

- أيها الكونت...

فأجاب شوماكير:

- هل أنا مجبرٌ على الثقة بك. أنت يا من تنحاز في حضوري دوماً إلى الشرّس غولدينليف...؟

فقاطعه الشاب برصانة:

- إن نائبَ الملك قد أصدر للتوّ أمراً بأن تكون طليقاً في المستقبل. ومن غير حراسةٍ داخل برجٍ ليون دو سليفيغ بأكمله. وهذا خبرٌ قد التقطته في برغن، ولسوف تتلقاه فوراً بلَا شك.

- إنها خطوةٌ لم أكن أجرؤ على ترجّيها. وكنت أظنّ أنني لم أتكلّم عن رغبتي إلّا لك وحدك. ثم أنهم يخفّفون من ثقلِ أصفادي بقدر ما يتزايدُ ثقلُ سنواتِ عمري. وعندما تجعلني عاهاتي عاجزاً، سوف يقولون لي بلا شكَ: أنت طليق.

عند هذه الكلمات ، ابتسم العجوز بمرارة ، وتابع قائلاً:

– وأنت ، أيها الشاب ، أما زالت لديك تلك الأفكار الجنونية ، أفكار الاستقلال؟

– لو لم تكن لدّي تلك الأفكار الجنونية ، لما كنتُ هنا .

– كيف أتيت إلى درونتهايم؟

– حسناً! على الجواد .

– وكيف أتيت إلى مونكولم .

– في قارب .

– أيها الأحمق المسكين! والذي تظنُّ أنك حرّ ، وتنتقل من جوادٍ إلى قارب ، ليست أعضاءُ جسمك هي التي تنفّذ رغباتك ، بل الحيوان ، إنه المادّة ، وتسميَ ذلك رغبات!

– إني أجبرُ الكائنات على الامتثال لي .

– أن تفرضَ على بعضِ الكائنات الحقَّ في الامتثال لك معناه أن تعطي كائناتٍ أخرى الحقَّ في أن تتحكّم بك ، فما من استقلالٍ إلاّ في العزلة .

– ألا تحبَ الناسَ ، أيها الكونت النبيل؟

فأخذ الكونت يضحكُ بحزنٍ ويقول:

– إني أبكي لكوني إنساناً ، وأضحك من ذلك الذي يعّزيني –ولسوف

تعلمُ هذا إن كنت لا تزال تجهلهُ، إن التعاسةَ تجعل المرءَ مرتاباً، والازدهارُ يجعلُه ناكراً للجميل. اسمعْ، بما أنك تأتي من بيرغن، فأعلمني أيةَ ريح مؤاتية قد هبتَ على النقيب ديسبولن. لابَّد أن يكون قد حصل له شيٌّ سعيد، بما أنّه قد نسيني.

فغدا أوردينر مكتئباً ومحرجاً، وقال:

– ديسبولن، يا سيدي الكونت؟ إنّما أتيتُ اليوم لكي أحدّثك عنه –فأنا أعلم أنه يتمتّعُ بكامل ثقتك...

فقاطعه السّجين بقلق:

– أنت تعلم ذلك؟ إنّك مخطئ. مامن أحد في العالم يحوزُ على ثقتي – صحيح أن ديسبولن يمتلكُ أوراقي بين يديه، وحتّى أنّها أوراقٌ شديدة الأهمية؛ فلقد ذهب لمقابلة الملك في كوبنهاغن من أجلي. ولسوف أقرَ حتى بأنني كنتُ أعتمدُ عليه أكثر من اعتمادي على أيّ إنسانٍ آخر. وعندما كنتُ مقتدراً، لم أكن قد قدّمتُ له أية خدمة قط.

– حسناً! أيها الكونت النبيل، لقد رأيتهُ هذا اليوم...

– إن اضطرابَك يحكي لي عن الباقي؛ إنّه خائن.

– لقد مات.

– مات!

فتكتّف السّجينُ، وخَفَض رأسه، ثم رفع من جديد عينه التي تحدّقُ بالشاب، وقال:

– وعندما كنتُ أقول لك إن شيئاً مفرحاً قد حدث له...؟

ثم استدار بنظرته إلى السّور الذي عَلّقت عليه دلالاتُ رفعته المحطّمة، وقام بحركةٍ ما من يده، وكأنه يريدُ أن يُبعد الشاهد على الألم الذي كان يجهدُ للتغلّب عليه.

– ليس هو من أرثي له؛ فما هو إلّا رجلٌ قد نقص من عداد البشر –وليس أنا. . . . . ! فما الذي لدّي لأخسره، بل ابنتي! ابنتي المنكودة الحظ... سأكون أنّا ضحيةً لتلك المؤامرة الدنيئة؛ فما هي الحال التي ستصبح عليها، حين ينتزعون منها والدها؟

واستدار نحو أوردينر باندفاع، وقال:

– وكيف مات؟ وهل رأيتَه؟

– رأيته في السبلادجيست، ولا أحد يعلم إن كان قد مات انتحاراً أم غيلةً.

– هذا هو المهمُ الآن، فإذا كان قد اغتيل، فأنا أعرف من أين تأتي الضّربة، وحينها يكون كلُّ شيء قد ضاع؛ فقد كان يحمل لي الإثباتاتِ التي كان يمكن لها أن تنقذَني وتُهلِكَهُم... وقد عرفوا كيف يُتلفونها...! فيا لإيتيل السّيئة الحظ...!

فقال أوردينر:

– يا سيدي الكونت، سأقول لك غداً، إن كان قد اغتيل أم لا.

وتبع شوماكير ، من غير أن يجيب ، أوردينر الذي كان خارجاً من علائم نظرةً يرتسمُ فيها الهدوءُ والقنوط ، نظرةٍ أكثر رعباً من سكون الموت .

كان أوردينر في غرفة السّجين الأمامية المنفردة ، من غير أن يعلم إلى أيّةِ جهةٍ يتّجه . وكانت السّهرةُ قد تقدّمت ، والقاعةُ مظلمةً؛ ففتح أحدَ الأبواب مصادفةً ، فألفى نفسه في ممّر واسع ينيرهُ ضوءُ القمر الذي كان يركضُ بسرعة ، عبر الغيوم الشّاحبة . وكانت أنوارُه الضبابيّة تهبطُ على الزَجاجيات الضيقة والعالية ، على فترات ، وترسمُ على السّور المقابل ما يشبهُ موكباً طويلاً من الأشباح التي كانت تظهرُ وتختفي . في الوقت نفسه ، في أعماق الروّاق . فرسم الشابّ النروّيجي إشارةَ الصَليب ببطء ، وسار نحو ضوءٍ مائلٍ إلى الحمرة كان يسطعُ سطوعاً خفيفاً ، في آخر الممّر .

كان البابُ منفرجاً ، وكانت هناك فتاةٌ جاثيةٌ ، في مصلّى قوطيّ الطّراز ، في أسفل هيكلٍ بسيط ، وتتلو همساً صلواتِ طُلبةٍ للعذراء . إنها صلاةٌ بسيطةٌ وسامية لا تصلّي فيها الرّوح التي ترتفع إلى والدة الآلام السبعة إلّا لكي تشفع لها .

كانت تلك الفتاة ترتدي قماشاً جعداً(١) ، أسود ، وستراً شفافاً أبيض ، وكأنما لتجعل المرء يستشفُّ بصورةٍ ما ، في أوّل ما يتراءى له ، أن أيامها قد انقضت حتى ذلك الحين ، في الحزن ، وفي البراءة . فحتّى في ذلك الموقف المتواضع ، كانت تحملُ في كيانها كلّه ، سمةً طبيعيّة فريدة . كانت عيناها وشعرها الطّويل سوداء ، وهذا جمالٌ جدٌّ نادرٍ في الشّمال . وكانت نظرتُها

(١) هو القماش المعروف عموماً بـ (الكريب) (م:ز.ع) .

المرفوعة إلى القبة تبدو كأنها متّقدة بالوجد أكثر مما هي خامدةٌ بالتأمّل. وأخيراً، فهي أشبه ما تكون بعذراء من شواطئ قبرص وأرياف تيبور[1]. ترتدي براقع أوسيان العجيبة، وتجثو أمام الصّليب الخشبي، ومذبح يسوع الحجريّ.

ارتعش أوردينر، وكان على وشك أن تخور قواه، لأنه تعرَّف تلك التي كانت تصلّي.

كانت تصلّي من أجل والدها، من أجل المقتدر الذي هوى، والأسيرِ العجوز المتروك، وتلت بصوتٍ عالٍ مزمورَ الخلاص.

كانت تصلّي من أجل شخصٍ آخر. غير أن أوردينر لم يسمع اسم ذلك الذي كانت تصلّي من أجله؛ فهو لم يسمعها، لأنها لم تكن تتلفّظ به، بل تلت مزمور السُّلاميّة، الزوجة التي تنتظر زوجها، ورجوع المحبوب.

ابتعد أوردينر إلى الرّواق، واحترم تلك العذراء التي كانت تتحادث مع السّماء. إن الصّلاة سرٌّ كبير؛ فقد امتلأ قلبه، رغماً عنه، بنشوةٍ خفيّة، ولكنها دنيوية.

انغلق بابُ المصلى بهدوء، فجاء نورٌ وامرأةٌ بيضاء عبر الظلمات من الجهة التي يقبع فيها. فتوقّف، لأنه كان يشعرُ بانفعال هو من أعنفِ انفعالات الحياة، واستند إلى السّور المعتم. لقد كان جسدُه ضعيفاً، وكانت عظامُ أطرافه تتصادم في مفاصلها، وضرباتُ قلبه ترنّ في أذنه، في الصّمتِ الذي يهيمنُ على كيانه.

---

(١) تيبور: مدينة إيطالية قديمة، جميلة المناظر، كان يؤمها أغنياءُ الرّومان، وقد غناها أوراس، وسمّيت لاحقاً: تيفولي. (م:ز.ع).

حين مرّت الفتاة، سمعت حفيفَ معطفٍ، ونَفَساً متسرِّعاً ولاهثاً، فصرخت:

– يا ألله!

فاندفع أوردينر، وأسندها بإحدى ذراعيه، وحاول عبثاً، بالذّراع الأخرى، أن يمسك بالمصباح الذي تركته يُفلت من يدها، فانطفأ.

وقال بهدوء:

– هذا أنا.

فقالت الفتاة:

– هذا أوردينر.

إذ كانت لا تزال تتردّد في أذنها آخرُ رنّةٍ لذلك الصّوت الذي لم تكن قد سمعته منذ عام.

وأضاء القمرُ الذي كان يمرُّ فَرِحَ وجهها السّاحر، فردّدت بحياءٍ واضطراب، وهي تتملّص من ذراعيّ الشاب:

– هذا هو السّيد أوردينر.

– إنه هو، أيتها الكونتيسّة إيتيل...

– لماذا تدعوني كونتيسّة؟

– لماذا تدعينني سيّدي؟

سكتت الفتاة، وابتسمت: فسكت الشابُّ وتنهّد، وكانت هي أوّلَ من قَطَع الصّمت.

- ولم أنت هنا إذن؟

- سامحيني. إن كان وجودي يكدّرك، فقد أتيتُ لأتكلّم مع الكونت والدك.

فقالت إيتيل بصوتٍ متغيّر النّبرة:

- إنّك لم تأتِ إلّا من أجل والدي.

فخفض الشاب رأسَه، لأن هذه الكلمات قد بدت له غيرَ منصفةٍ فعلاً.

فتابعت الفتاة بلهجةٍ معاتبة:

- لا شكّ أنك في درونتهايم منذ فترة طويلة، وما كان لغيابك عن هذا القصر أن يبدو لك طويلاً؟

ولكن أوردينر الذي أحسّ بأنّه قد جُرح بعمق، لم يُجب.

فقالت السّجينةُ بصوتٍ مرتعشٍ من الألم والغضب:

- إني أؤيّدك في رأيك.

ثم أضافت باعتداد:

- آمل، أيها السّيد أوردينر، ألّا تكون قد سمعتني وأنا أصلّي.

فأجاب الشابّ أخيراً:

– لقد سمعتُك ، أيتها الكونتيسّة .

– آه! أيها السّيد الغريب ، ليس من اللّباقة أن يصغي المرءُ على هذا النّحو .

فقال أوردينر بصوتٍ ضعيف:

– لم أصغِ إليك ، أيتها الكونتيسّة النبيلة ، بل سمعتُك .

فاستأنفت الفتاة وهي تحدّق به ، وكأنها تنتظر جواباً على ذلك الكلام البسيط فعلاً:

– لقد صلّيت من أجل والدي .

فلزم أوردينر الصّمت .

وتابعت بقلق ، وكأنها تنتظرُ التأثيرَ الذي تحدثُه كلماتُها عليه:

– لقد صلّيتُ أيضاً من أجل شخصٍ آخر يحملِ اسمك نفسه ، أي من أجلِ ابن نائب الملك ، الكونت غولدينليف ، لأنه ينبغي أن نصلّي من أجل الجميع ، وحتى من أجل مضطهِدينا...

واحمَّر وجهُ الفتاة خجلاً ، لأنها تصوَّرت أنها تكذبُ ، ولكنّها كانت حانقةً على الشابّ ، وتظنّ أنها قد ذكرت اسمه في صلاتها: وهي لم تذكر اسمه إلّا في قلبها .

– إن أوردينر غولدينليف تعسٌّ حقاً . أيتها السَّيدة النّبيلة ، إذا كنت تضعينه في عداد مضطَهّديك ، وهو ، مع ذلك ، سعيدٌ جداً بأن يكون قد شَغَل مكاناً في صلواتك .

فقالَت إيتيل باضطراب، وقد أرعبها البرودُ الذي ظهر على الشاب:

- أوه، كلّا، كلّا، لم أكن أصلّي من أجله. إني أجهلُ ماذا فعلتُ وما أفعلُ. أمّا ابن نائب الملك، فأنا أمقتُه، ولا أعرفُه؛ فلا تنظرْ إليّ هذه النظرةَ القاسية؛ فهل أهنتُكَ؛ ألا يمكنُك أن تغفرَ شيئاً لسجينةٍ مسكينةٍ. أنتَ من تُمضي أيّامك بقربِ سيدةٍ جميلةٍ ونبيلةٍ وطليقة، وسعيدة مثلك...!

فهتفَ أوردينر:

- أنا، أيتها الكونتيسّة...!

فأخذت إيتيل تذرفُ سيلاً من الدّموع، وارتمى الشّابُ على قدميها.

فتابعت وهي تبتسمُ من خلال دّموعها:

- ألم تقلْ لي إن غيابك قد بدا لك قصيراً؟

- من؟ أنا، أيتّها الكونتيسّة؟ فقالت برقّة:

- لا تدعُني هكذا، فأنا لستُ كونتيسّةً بالنسبة لأحد، وخصوصاً بالنسبة إليك... فنهض الشّابُ بقوة ولم يستطعْ أن يتمالك نفسه من ضمّها إلى صدره بنشوةٍ مرتعشة.

- حسناً، يا معبودتي إيتيل، ادعني حبيبك أوردينر... وقولي لي.

وحدّد نظرةً ملتهبةً في عينيها المبللتين بالدّموع.

- قولي لي، هل تحبينني إذن...؟

لم يُسمع ما قالته الفتاة، لأن أوردينر الذي خَرجَ عنٍ طوره، كان قد اختلس على شفتيها، بالإضافة إلى جوابها، تلك الخطوة الأولى، تلك القبلةَ المقدَّسة التي تكفي في نظر الرّبِّ لتغيرُّ عاشقين إلى زوجين.

مكث كلاهما من غير كلام، لأنّهما كانا في إحدى تلك اللّحظات الاحتفالية النّادرة جداً، والقصيرة جداً على الأرض، والتي تبدو فيها الرّوحُ وكأنها تَحسُّ شيئاً من غبطةِ السّماوات. إنّها لحظاتٌ يتعذّرُ تحديدُها مثل تلك اللّحظات التي تتخاطبُ فيها روحان على هذه الصّورة، في لغةٍ لا يمكن أن تفهمها إلّا هاتان الرّوحان، فيما يسكت كلُّ ما هو بشريّ، والكائنات اللّاجسميان يتّحدان على نحوٍ خفيّ في حياةِ هذا العالم، وأبديّةِ العالم الآخر.

كانت إيتيل قد تملّصت بهدوءٍ من بين ذراعيّ أوردينر، وفي أنوار القمر. كان كلٌّ منهما ينظرُ إلى الآخر بنشوة، عدا عن أن عينَ الفتى الملتهبة كانت تتنسّم زهراً ذكوريّاً، وشجاعةً مقتحمة؛ فيما كانت نظرةُ الفتاة الكدرة جزئياً مصطبغةً بذلك الاحتشام الذي هو حياءٌ ملائكيّ يمتزج، في قلبِ عذراء، بكلّ المسرّات.

وقالت أخيراً:

– قبل قليلٍ كنت تتحاشاني إذن في هذا الممّر، يا حبيبي أوردينر؟،

– لم أكن أتحاشاك، بل كنت مثل ذلك الضّرير التّعس الذي يُعيدونه إلى النّور بعد سنواتٍ طويلة، فيُشيح بنظره عن الضّوء للحظةٍ من الزّمن.

– هذه المقارنة إنّما تنطبق عليّ بالأحرى، لأنه لم يكن لديّ سعادةٌ

أخرى ، طيلةَ غيابك إلّا وجود ذلك المنكود الحظّ ، والدي . وكنت أُقضي أيّامي في مواساتِه .

وأضافت وهي تُخفض عينيها:

– وفي الأمل برجوعك وكنت أقرأ لوالدي حكايات الإيدا[1] ، وحين كنت أسمعُه يرتابُ بالنّاس ، كنت أقرأ له الإنجيل ، لكي لا يشكّ بالسّماء على الأقل . ثم كنت أحدّثه عنك ، وكان يصمتُ وهذا يُثبت أنه يحبّك . إلّا أنه حين كنت أمضي سهراتي من غير طائل في النّظر إلى البعيد على طرقاتِ المسافرين الذين يصلون ، وإلى مرفأ المراكب التي ترسو ، كان يهزّ رأسه ، ويبتسمُ ابتسامةً مريرة . وكنت أبكي . إن هذا السّجن الذي انقضت فيه حتى الآن حياتي كلُّها قد غدا بغيضاً عى نفسي . ومع ذلك ، فإن والدي الذي كان يملؤه عليّ دوماً قبل ظهورك ، كان لا يزالُ قابعاً فيه ، فيما لم تعدْ أنت موجوداً هنا . وكنت أرغب في تلك الحرية التي لم أعرفها .

كان في عينّي الفتاة ، وفي سذاجةِ حنانها ، وفي تردُّد بوحها الرَقيق ، كان هناك سحرٌ لا تعبّرُ عنه الكلماتُ البشريّة . وكان أوردينر يصغي إليها بذلك الفرحِ الحالمِ لكائنٍ قد انخطَفَ من العالم الواقعيّ ، ليحضر إلى العالم المثاليّ . . .

فقال:

– وأنا لم أعدْ أرغبُ في هذه الحريّة التي لا تشاطرينني إيّاها .

فردّدت إيتيل باندفاع:

---

(١) انظر الملاحظة رقم: ١٣ في المقدمة .

– ماذا ، يا أوردينر! ألن تتركنا إذن بعد الآن؟

وذكرّت هذه العبارةُ الشابّ بكل ما كان قد نسيه:

– يا حبيبتي إيتيل! ينبغي أن أتركك هذا المساء، وسوف أراك غداً. وغداً سوف أتركك أيضاً، إلى أن أرجع لكي لا أتركك من بعد إطلاقاً.

فقاطعته الفتاة بألمٍ وهي تقول:

– وا أسفاه! أتغيبُ أيضاً...!

– أكرّر لك، يا حبيبتي إيتيل، بأني سأعود قريباً لكي أنتزعك من هذا السّجن، أو أُدفَن فيه معك.

فقال برقّة:

– أن أكون سجينةً معه. آه! لا تخدعني. أينبغي أن أترجّى هذا القدر من السّعادة فهتف أوردينر:

– إلى أيّ قَسَم تحتاجين مني؟ وماذا تريدين مني؟ قولي لي يا حبيبتي إيتيل، ألستِ زوجتي...؟ ثم أخذه اندفاعُ الحب، فجعل يضمُّها بشدّةٍ إلى صدره.

فهمست بصوتٍ ضعيف:

– إني لك.

كان هذان القلبان النبيلان والطّاهران يدقّان بلذّة وكلٌّ منهما ملتصقٌ بالآخر. وما انفكّا يكونان بعد ذلك أكثر نبلاً وأكثر طهراً.

في تلك اللّحظة، سُمعت قهقهةٌ عنيفة بقربهما، فكشف رجلٌ متلفّعٌ بمعطفٍ عن مصباحٍ لا صوتَ له كان قد خبأه في المعطف، فأضاء نورُه بغتةً وجهَ إيتيل التي اعتراها الرُّعبُ والاضطرابُ، ووجْهَ أوردينر الذي ظهرت عليه الدَهشة والاعتداد.

– الثّبات، أيّها الثنائي الجميل، الثّبات! ولكن يبدو لي أنكما بعد أن سرتما لوقتٍ قصيرٍ جداً في بلدِ الرقّة، لم تتبعا كلَّ تعرُّجاتِ ساقيه المشاعر، وأنّه يتعيّن عليكما أن تسلكا درباً مستعرضاً للوصول بسرعةٍ كبيرة إلى ضيعةِ القبلة.

لقد تعرّف قراؤنا بلا ريب الملازم المعجب بالآنسة دوسكوديري؛ فقد انتزعه من قراءته لرواية كليليا جَرَسُ منتصفِ الليل الذي لم يسمعه العاشقان، وكان قد أتى ليقوم بجولته الليليّة في البرجِ الرئيس. وحين مرّ بطرفِ الممّر الشرقي، التقط بعض الكلمات ورأى ما يشبه شبحين يتّحركان في الرُّواق، في ضوء القمر، حينذاك، وبما أنّه بطبعه فضوليّ وجسور؛ فقد خبّأ مصباحَه تحت معطفه، وتقدّم على رأسِ قدميه، قريباً من الشّبحين اللذين انتزعتهما من نشوتهما قهقهتُه المباغتة انتزاعاً مزعجاً.

قامت إيتيل بحركةٍ ما كي تهرب من أوردينر، ثم رجعت إليه كما بالغريزة لتسأله الحماية، وخبّأت رأسَها المضطرم في صدر الشّاب.

فرفع هذا الأخير رأسَه بكبرياء ملكيّ وقال:

– الويل لمن يأتي يخيفك أو يكدّرك، يا حبيبتي إيتيل.

فقال الملازم:

– أجل ، حقاً ، الويلُ لي إذا بلغ بي الحزَق أن أرعبَ ماندان[1] الرّقيقة .

فقال أوردينر بتعالٍ:

– أيها السّيد الملازم ، إني أدعوك إلى السّكوت .

فردَّ الملازم:

– أيها السّيد الوقح ، إني أدعوك إلى السّكوت .

فردّد أوردينر . بصوتٍ راعد:

– هل تسمعُني . اشترِ المغفرةَ بالسّكوت .

فأجاب الملازمُ:

– Tibi Tua[2] . احتفظ بآرائك لنفسك ، واشترِ المغفرةَ بالسّكوت .

فهتف أوردينر بصوتٍ جعل الزّجاجيات تهتز ، وهو يجلسُ الفتاةَ المرتعشةَ على أحدِ مقاعد الممّر ، وهزَّ ساعِدَ الضّابط بعنف:

– اسكت!

فقال الملازم بين الضّاحك والغاضب:

– حذار ، أيها الفلّاح . ألا تلاحظ أن الصّديري الذي تدعكهُ بهذه الفظاظة مصنوع من أجملِ مخاملِ أبينغدون؟

(١) ماندان هي بطلة رواية سيروس العظيم (لوغران سيروس) من تأليف مد موازيل دوسكوديري التي ألفّت كذلك كليليا التي دار الحديثُ عليها عدداً من المرّات من قبل.

(٢) قلْ ذلك لنفسك (باللاتينية في النّص).

فحدّق أوردينر في عينيه ، وقال:

– أيها الملازمُ ، إن صبري أقصرُ من سيفك .

فقال الملازم بابتسامةٍ ساخرة:

– إنني أسمعك ، أيّها النّبيل الغرّ[1] . إنّك تودُّ أن أوليكَ شَرفَ منازلتي؛ ولكن هل تعرفُ من أكون؟ كلّا ، كلّا ، من فضلك؛ فالأميرُ ضدّ الأمير ، والراعي ضدّ الراعي . كما كان يقول لياندر الوسيم[2] .

فأكمل أوردينر:

– إذا كان لابدَّ من القول: جبانٌ ضدّ جبان؛ فلن يكون الشَّرفُ العظيمُ بالتّأكيد أن أقارنَ نفسي بك .

– سوف أكون مستاءً ، أيُّها الراعي المبجَّل جدّاً ، لو كنت ترتدي زيّه فحسب .

– ليس لدّي شاراته وشرّاباته ، أيها الملازم ، ولكني أحملُ حسامه .

كان الشابُّ الأنوفُ قد وضع قبعته على رأسه ، بعد أن ردّ معطفه إلى الخلف ، وأمسك بمقبض سيفه ، حين هرعت إيتيل إلى ساعده ، بعد أن أيقظها ذلك الخطرُ المحدقُ ، وتَعلقت بعنقه ، وهي تُطلقُ صرخةَ رعبٍ ورجاء .

فقال الملازمُ الذي اتّخذ وضعيّةَ الاستعداد . من غير انفعال ، لدى سماعه لتهديدات أوردينر:

---

(١) ترجمة لكلمة: DAMOISEL ، وهي تعني: النبيل الذي لم يصبح فارساً بعد ، إذا كُتبت DAMOISEAU ، ولكن الملازم يلفظها داموازيل عمداً لإهانة أوردينر وتشبيهه بفتاة (م: ز.ع) .

(٢) شخصية العاشق في الملهاة الإيطالية . (م: ز.ع) .

- إنّك تتصرّفين بحكمةٍ، أيتها الآنسة الجميلة المرموقة، فأنت لا تريدين أن يُعاقبَ هذا الفتى الغرّ على تجاسره، لأن سيروس[1] سوف يختصمُ مع كامبيز، شريطة أنّه يكون هذا الخصامُ مشرّفاً أكثر من اللّازم لهذا التابع بحيث يمكن مقارنتُه بكامبيز. وكانت إيتيل تقول:

- أناشدك بالسّماء، أيها السّيد أوردينر، ألّا تجعلني أكون سبباً وشاهدةً على مصيبة كهذه...

ثم رفعت عينيها الجميلتين نحوه، وأضافت:

- أوردينر، إني أتوسّل إليك...!

فأعاد أوردينر بهدوء النصّل الذي كان مجرّداً جزئياً إلى غمده.

وهتف الملازم:

- الواقع أيها الفارس، أنّي أجهلُ إن كنت كذلك، غير أني أُعطيك لقَبَ الفارس لأنه يبدو لي أنك تستحقّه، فأنا وأنت نتصرّفُ حسبَ قواعد الشّجاعةَ، ولكن ليس حسب قواعد التظرُّف مع النساء؛ فالآنسةُ على حق؛ فالالتزاماتُ التي هي من شاكلة الالتزامَ الذي أظنّ أنك جديرٌ بعقده معي لا ينبغي أن تكون السّيدات شاهدةً عليها، مع أنه يمكنُ أن تكون السّيداتُ سبباً لها، حتى ولو يرضٍ ذلك هذه السّيدة الفاتنة؛ فلا يسعنا، والحالة هذه، أن نتكلّم بصورة مناسبة هنا إلّا عن مبارزة مؤجّلة[2]، وكما هو شأنُ المهان، فإنكم إذا أردتم أنَ تحدّدوا زمانَ ومكانَ أسلحةِ المبارزة، فإن سيفي الطّليطليّ، أو خنجري المصنوع

---

(١) سيروس وكامبيز شخصيتان من روايةِ سيروس العظيم للروائية مدموازيل دوسكوديري، والتي يقرؤها الملازم في ذلك الوقت. (م: ز.ع).

(٢) باللاتينية في النص. (م:ز.ع).

في ميريدا[1] هما تحت تصرُّفِ سكّينِ الفرمِ الذي تحملُه. والمصنوعِ في مسابك أشكروت، أو سكّين الصّيد الذي تحَملُه والَمسقى في بحيرة سباريو.

كانت المبارزة المؤجَّلةَ التي اقترحها الضّابطُ على أوردينر متّبعةً في الشّمال، ويزعمُ العلماء أن تقليدَ المبارزةَ قد خرج منه. وكان أشجع النبلاء يعرضون المبارزة المؤجّلة ويقبلونها؛ فكانت تؤجَّل إلى بضعة أشهر، وأحياناً إلى بضع سنوات، وخلال هذه الفترة الفاصلة، لا ينبغي للخصوم أن ينشغلوا بالكلامَ أو بالأعمال، بالمشكلة التي أدّت إلى التّحدي. وعلى ذلك، فإن المتخاصمْين كانا يمتنعان، في الحبِّ، عن رؤية عشيقتيهما، لكي تبقى الأشياءُ في الحالة نفسها؛ وكانوا يعتمدون بهذا الصّدد على استقامة الفرسان. وكما في النِّزالات القديمة، فإذا ظنَّ محكّمو الميدان أن قانون الفروسيّة قد جرى خرقُه، كانوا يُلقون بعصاهم في الحلبة؛ فيتوقَف كلُّ المتقاتلين في الحال. غير أن عنق المهزوم كانت تظلّ على المسافة نفسها من سيفِ المنتصر، حتى جلاء الشّك.

فقال أوردينر، بعد لحظةٍ من التفكير:

– بعد شهر... يخبرك رسولٌ عن المكان.

فأجاب الملازم:

– فليكن. لا سيّما وأن ذلك سوف يعطيني الوقتَ لأحضرَ احتفالاتِ زواج شقيقتي. فأنت ستعلمُ أنّه سيكون لك شرفُ مبارزةِ النّسيب المقبل لسيّدٍ رفيع الشّأن، هو ابن نائبِ ملك النرويج، البارون أوردينر غولدينليف والذي يصبح بمناسبة هذا الزّفاف الشهير، كما تقول أرثامين، كونتاً لدانيسّكيولد،

---

(١) مدينة إسبانية، فيها آثار، وصناعة أسلحة (م:ز.ع).

وعقيداً، وفارساً للفيل. أما أنا، شخصّياً، فأكون ابن المستشار الأكبر للمملكتين، ولسوف أُرقّى بلا شكٍّ إلى رتبةِ نقيب...

فقال أوردينر بفراغ صبر:

– حسناً، حسناً، أيها الملازم دالفيلد؛ فأنت لم تصبحْ بعدُ نقيباً، ولا ابناً لنائب الملك العقيد...، والسّيوف تظلُّ سيوفاً على الدّوام.

فقال الضابط بصورة مبهمة:

– والأفظاظُ يظلّون أفظاظاً على الدّوام؛ مهما نفعل من أجل أن نرفعهم إلى مرتبتنا. فتابع أوردينر قائلاً:

– أيها الضّابط، أنت تعرفُ قانونَ الفروسيةَ، فعليك ألّا تدخلَ بعد الآن إلى هذا البرجِ، وأن تلزمَ الصّمت في هذه القضية.

– بالنسبة للصّمت، اعتمدْ عليّ، فسوف أكون صامتاً مثل ميسيوس سيفولا[1] حين وضع قبضته على المجمر. ولن أدخلَ بعد الآن إلى البرج، لا أنا، ولا أيّ رقيبٍ من الحامية، لأني قد تلقيت أمراً بأن أتركَ فيه شوماكير من غيرِ حرس. وهذا أمرٌ قد كنتَ مكلّفاً بإيصاله إليه هذا المساء. وهذا ما كان يمكنُ أنَ أفعله، لو لم أكن قد أمضيتُ قسماً من السّهرة وأنا أجرّب جزمةً جديدةً كراكوفية –وأقول فيما بيننا إن هذا الأمرَ غيرُ حصيف فعلاً– هل تريدُ أن أريكَ جزمتي؟

(١) ميسيوس سيفولا أسكابيفولا: فتى روماني حاول اغتيال ملك إترروريّ، خلال حصار روما، وعندما اقتيد أمام الملك، وضع يده فوق المجمر، وكأنه يعاقبها على قتل ضابط الملك خطأً. (م:ز.ع).

أثناء هذا الحديث ، كانت إيتل قد توارت ، بعد أن رأتهما قد هدأا . ولم تفهمْ معنى المبارزة المؤجَّلة . وذلك بعد أن همست في أذن أوردينر بصوت خفيض .

– إلى الغد .

– أودّ ، أيها الملازم دالفيلد أن تساعدني على الخروج من القلعة .

فقال الضّابط:

– بكلّ سرور . مع أن الوقتَ قد تأخَّر قليلاً . أو ، على الأصّح ، أنه مبكّرٌ جداً . ولكن كيف ستجدُ قارباً؟

فقال أوردينر:

– هذا يعنيني .

حينئذ ، اجتازا وهما يتحادثان بصورة وديّة ، الحديقةَ ، ثم الباحةَ الدّائرية ، فالباحةُ المربَّعة ، من غير أن يصطدم أوردينر بأيٍّ حاجز ، واخترقا البابَ المحدّب الكبير ، وعنبرَ المدفعية ، وساحةَ الأسلحة . ووصلا إلى البرجِ السّفلي الذي انفتح بابُه الحديديّ أمام صوتِ الملازم .

فقال أوردينر:

– إلى اللّقاء ، أيّها الملازم دالفيلد .

فأجابَ الملازم:

– إلى اللّقاء. أُعلِن أنّك بطلٌ مقدام. مع أني أجهلُ من تكون، وإن كان. من بين أعيانك الذين ستأتي بهم إلى لقائنا من يكونون مؤهلين ليحملوا لقب: عرّابين، و ألّا يتعين عليهم الاكتفاءُ بالاسم المتواضع: اسم الحاضرين.

تصافحا، وانغلق البابُ الحديدي؛ فرجعَ الملازم وهو يدندنُ لحناً من ألحان لولّي[1]، ولكي يبدي إعجابه بجزمته البولونية، وبالرّواية الفرنسية.

أما أوردينر الذي بقي على العتبة وحده، فقد تخلّى عن ملابسه التي لفّها بمعطفه، وربطها فوق رأسه بنطاقِ سيفه. ثم اندفع في مياهِ الخليج الباردة والهادئة، مطبّقاً عملياً مبادئ تحرير شوماكير. وأخذ يسبحُ في وسط العتمة، نحو الشاطئ، متّجهاً من ناحية السبلادجيست. وهي وجهةٌ كان متأكداً على الدّوام تقريباً من الوصولِ إليها حيّاً أو ميتاً.

كانت مشقّاتُ النّهار قد أرهقته، فلم يدنُ من الشاطئ إلّا بعناءٍ كبير؛ فارتدى ملابسه بسرعة، وسار نحو السّبلادجيست الذي كان يرتسمُ في ساحةِ المرفأ و كأنه كتلةٌ سوداء، لأنّ القمر كان قد احتجبَ احتجاجاً تاماً منذ بعض الوقت.

سمع وهو يقتربُ من المبنى ما يشبه أصواتاً تُحدثُ ضجيجاً. وكان نورٌ ضعيفٌ يخرج من الفتحة العليا. فدقَّ على البابِ المربّع دقّاً عنيفاً، وقد اعترته الدهشةُ. فجعله النّورُ الذي عاد إلى الظّهور يرى شيئاً أسودَ خارجاً من الفتحة العليا، ويتكوّرُ على سطح المبنى المستوي؛ فدّق أوردينر للمرّة الثالثة برمّانةِ سيفه، وصاح:

(١) لولّي: مؤلّف موسيقي، وعازف كمانٍ فرنسي من أصل إيطالي (١٦٣٢–١٦٨٧) (م:ز.ع).

– افتحوا، بأمر جلالة الملك! افتحوا بأمرِ سموّ نائب الملك!

انفتح البابُ أخيراً ببطء، وألفى أوردينر نفسه قبالةَ السّحنة الطّويلة والشاحبة والنّحيلة، سحنة سبياغودري، الذي كان يرتدي ثياباً غير مرتّبة، زائغَ العينين، منفوشَ الشعر، مضّرج اليدين بالدّم، ويحملُ مصباحاً ضريحيّاً ترتعشُ شعلتهُ بصورةٍ جليّة، أقلّ مما يرتعشُ جسدهُ أيضاً.

الفصل السّادس

بيرو

أبداً. . . !

أنجيلو

ماذا! أظنُّ أنّك تريدُ أن تجعلَ من نفسك رجلاً صالحاً.

أيها الشقيّ! إذا قلتَ كلمةً واحدة...

بيرّو

ولكنني يا أنجلو، أتوسَّلُ إليك، من أجل محبّةِ الرّب...

أنجيلو

دع ما لايمكنُك أن تمنَعه يحدثُ

بيرّو

آه! حين يمسكُ الشّيطان بشِعرةٍ منك

ينبغي أن تتركَ له رأسَكَ كلّه... يالي من تعس...!

إيميليا غالوتيّ (١)

كان الظلامُ قد حلّ تماماً، بعد ساعةٍ من خروج المسافر الشابّ ذي الرّيشة السّوداء من السبلاد جيست. وانسحُب الجمعُ بكامله. وكان أوغليبيغلاب قد أغلَقَ البابَ الخارجي للمبنى المآتمي، فيما كان معلّمه سبياغودري يرشُّ بالماء الجثثَ المودعة فيه، للمرّة الأخيرة، ثم أن كليهما قد انسحبا إلى حدٍّ كبير، فيما كان أوغليبيغلاب ينامُ في سريره الحقير الصغير. وكأنه إحدى تلك الجثث التي عُهد إليه أمرُ حراستها. وكان الموقّر سبياغوزري الجالسُ أمام المنضدةِ الحجرية المغطاة بالكتب القديمة، والنباتات المجفّفة، والعظام المجرّدة من اللحم، كان غارقاً في الدراسات الجدّية التي لم تكن قد أسهمت، مع أنها بريئة حقاً، في أن تنشر له في أوساط الشعب سمعةً في مجالِ السحرِ أو الشعّوذة الشّيطانية واللذين هما إرثٌ مزعجٌ موقوفٌ على علمِ ذلك العصر.

كان مستغرقاً في تأمُّلاته منذُ بضعِ ساعات، ويتهيأ أخيراً ليترك كتبه، ويذهب إلى سريره. وكان قد توقف عند هذا المقطع الكئيب الذي كتبه تورمودوس تورفيوس:

«حين يشغلُ الإنسانُ مصباحَه، يكون الموتُ في منزله قبل أن ينطفئ...».

فقال بينه وبين نفسه بصوتٍ هامس

– مهما كان رأيُ الدّكتور العالم، فلن يكونَ الأمرُ في منزلي كذلك، هذا المساء.

---

(١) إحالة أكملها الرّوائي في عام ١٨٣٣، على النّحو التالي: ليسنغ، إيميليا غالوتّي.

وأمسك بمصباحه لكي يطفئه.

فصاح صوتُ آت من قاعةِ الجثث...

- سبياغودري!

فارتعد البَوابُ العجوزُ بكلّ فرائصه، وليس ذلك لأنه ظنَّ، مثل أيَ إنسانٍ آخر في مكانه، أن زائري السبلادجيست الكئيبين قد ثاروا على حارسهم. فقد كان على درجةٍ كافيةٍ من العلم بحيث لا يعاني من مثلِ تلك المخاوف الوهمية. أما خوفُه فلم يكن واقعياً إلى حدٍّ كبير، إلا لأنه كان يعرفُ حقَّ المعرفة، وأكثر مما ينبغي صوتَ الذي كان يناديه.

فردّد الصوتُ بعنف:

- سبياغودري! هل ينبغي، لكي أجعلك تسمع، أن أذهب لاقتلاع أذنيك.

فقال العجوز المرتعب:

فلترأفْ، أيها القديس أو سبيس، ليس بروحي، بل بجسدي!

واتجه بخطىً يسرّعُها الخوف ويبطئُها في آن، إلى الباب الثاني الجانبي ففتحه، ولم ينس قرّاؤنا أن هذا الباب يتّصل بقاعة الموتى.

أضاء المصباحُ الذي كان يحملُه حينذاك صورةً غريبة وشنيعة. فمن جهةٍ، هناك الجسمُ النحيلُ، والطّويلُ، والمنحني قليلاً، جسم سبياغودري. ومن الجهة الأخرى، هناك رجلٌ قصيرُ القامة، ثخين وسمين، ويرتدي، من رأسه إلى قدميه، جلوداً لحيواناتٍ من كلِّ نوع، ولا تزال مصطبغةً بالدَّم المتيبس. وهو واقفٌ عند

قدميّ جثةِ جيل ستادت التي كانت تشغل، مع جثّة الفتاة والنقيب، مؤخَّر المشهد. وكان هؤلاء الشهودُ الثلاثةُ الصّامتون، المتوارون في ضربٍ من الغبش هم الوحيدين الذين يمكنهم أن يروا الرّجلين الحيين اللذين بدأا حديثهما، من غير أن يهربوا من الذّعر.

كان في سماتِ الرّجل القصير، والتي يبرزُها الضوءُ بصورةٍ ساطعة، شيءٌ وحشيٌّ على نحوٍ غير عاديّ؛ فقد كانت لحيتُه صهباء وكثة، وجبهتُه، المخفيّة تحت قبعة من جلد العلند، تبدو منتفشة بشعرٍ من اللّون ذاته. أما فمُه، فكان واسعاً وشفتاه ثخينتين، وأسنانُه بيضاءَ، وحادّةً، ومتباعدةً، وأنفه معقوفاً مثل منقارِ النسر، وعينه الرّماديةُ الزّرقاء، والشّديدةُ الحركةِ للغاية ترمي سبياغودري بنظرةٍ منحرفة لا يخفّف من شراسة النمرّ فيها إلا مكرُ القرود، كانت هذه الشخصيةُ الفريدة مسلّحة بسيفٍ عريض، ، بخنجرٍ بلا غمد، ببلطةٍ حدّاها حجريّان. وكان يستند إلى مقبضها الطويل. وكانت يداه مغطّاتين بقفازين. . . ضخمين من جلد الثعلب الأزرق.

وقال وهو يحدّث نفسه، ويطلق نوعاً من الزئير وكأنه أحد حيوانات الغابة:

– هذا الشبحُ العجوز قد جعلني انتظر طويلاً بالفعل. وكان يمكنُ لسبياغودري بالتّأكيد أن يشحب لونُه من الهلع، لو كان يمكن لوجهه أن يشحب.

وتابع الرّجلُ القصيرُ، وهو يتوجّه إليه مباشرة:

– هل تعلم أنني آتٍ من سواحلِ أورشتال الرملية؟ فهل لديك رغبةٌ، بتأخيرك لي، في أن تستبدل بمرقدك المصنوع من القش، أحَد هذه المراقد الحجرية؟

تضاعفَ ارتعادُ سبياغودري، وكانت السِّنان الوحيدتان اللتان تبقيّتا له تصطكان بشدّة.

فقال وهو يحني قوس جسمه الطّويل إلى مستوى الرّجل القصير القامة:

- اعذرني، يا سيّدي، فقد كنت نائماً نوماً عميقاً.

- وهل تريد أن أجعلك تعرف نوماً أعمق أيضاً؟

فقطّب وجهَه من الرّعب تقطيباً يمكنه وحده أن يكون ظريفاً أكثر من تقطيب الفرح لديه.

وتابع الرّجل القصير:

- حسناً! ما هذا؟ ماذا بك؟ هل وجودي ليس مستحبّاً لديك؟

فأجاب البوّاب العجوز:

- أوه! يا معلّمي وسيّدي، ما من سعادةٍ بالنسبة لي أكبر بالتأكيد من رؤية معاليك.

أما الجُهد الذي كان يبذله ليعطي سحنتَه المذعورة تعبيراً ضاحكاً، فكان يمكن أن يبسطُ أساريرَ أيَّ شخصٍ آخر غير الموتى.

- أيها الثّعلبُ العجوز الذي لا ذيل له. إن معاليَّ تأمرك بأن تسلَمني ملابس جيل ستادت.

وغدا الوجه المخيف والسّاخر للرجل القصير مغتّماً وحزيناً، حين تلفّظَ بهذا الاسم فقال سبياغودري:

- أوه! يا سيّدي، اعذرني. لم تعدْ هذه الملابس بحوزتي. وسمّوك تعلمُ بأننا

مجبرون على تسليم ما نغتنمُه من عمالِ المناجم الذين يرثُهم الملكُ بصفتِه وصيّهم بالولادة، أن نسلّمها إلى الخزانة الملكية.

استدار الرجلُ القصيرُ إلى الجثّة، وتكتّف، ثم قال بصوتٍ مكتوم:

– إنه على حقّ؛ فعمالُ المناجم التّعساء أولئك هم كالإيدر [1] يصنعون له عشّه، ويأخذون منه زغبَه.

وإذْ رفعَ الجثةَ بين ساعديه، وضّمها بقوة، أخذ يطلقُ صرخاتٍ وحشيةً، صرخات حبٍّ وألم شبيهةً بزمجرة الدّبّ الذي يداعبُ صغيره. وكانت تختلطُ بتلك الأَصواتِ المجّمجمةِ، وعلى فواصلَ زمنية، بعضُ الكلمات من أُرغةٍ غريبةٍ لم يكن سبياغودري يفهمُها.

وترك الجثّةَ تسقطُ على الحجر من جديد، واستدار إلى الحارس وقال له:

– أتعرفُ، أيّها السّاحرُ اللعين اسمَ الجنديَّ السّيء الطالع الذي أدّى به النّحسُ إلى أن تؤثِرُهُ هذه الفتاة على جيل؟

ودفع بقدمه الرُفاتِ الباردةَ لغوت ستيرسن.

فنفى سبياغودري معرفته بالإسم، بإشارة منه.

– حسناً! إني أقسمُ ببلطةِ إنغولف، زعيم سُلالتي، بأن أُبيدَ كلّ الذين يرتدون هذا الزّي.

وكان يشيرُ إلى ملابس الضّابط.

---

(١) هو طائر يعطي الزغب، والفلاحون النرويجيون يبنون له الأعشاش، حيث يمسكون به من جديد، وينتفون ريشه.

– وذلك الذي أريدُ الانتقامَ منه سيكونُ في عدادهم. ولسوف أُشعِلُ الغابةَ لكي أحرقَ الشجيرةَ السّامة التي تحتويها. لقد أقسمتُ على ذلك في اليوم الذي مات فيه جيل. ولقد أعطيتُه من قبل رفيقاً لابّد أن يبهج جثّته– آه، يا جيل! ها أنت هنا إذن، بلا قوّة ولا حياة، أنت يامن كنت تدركُ الفقمةَ في السبّاحة، والشّاموا في العدو. أنت يامن كنت تخنقُ دبَّ مرتفعاتِ كول في الصّراع. ها أنت بلا حراك، أنت، يامن كنت تجوبُ درونتهيموس، من أوركيل حتى بحيرة سميازين في يوم واحد. وأنت يامن كنت تتسلّقُ قمم دوفر– فيلد كما يتسلّقُ السّنجابُ شجرةَ السنديان.

ها أنت صامتٌ، يا جيل، يا من كنت تغني بصوتٍ أعلى من الرّعد، واقفاً على قمم كونسبرغ العاصفة. آه، يا جيل! فمن غير طائلٍ إذن إنما ردمتُ من أجلك مناجمَ فاروير، ومن غير طائلٍ أشعلتُ كنيسة درونتهايم الكاتدرائية. لقد ذهبت كلُّ جهودي سدىً، ولن أرى من خلالك استمرارَ سلالةِ أبناء إيسلندا، خَلَفِ إنغولف الجزّار: ولن ترثَ عنيّ بلطتي الحجرية. وأنت، على العكس من هذا، من تتركُ لي جمجمتك لكي أشربَ فيها من الآن ماءَ البحار، ودمَ الرّجال.

عند هذه الكلمات، قال وهو يمسكُ رأسَ الجثّة:

– يا سبياغودري، ساعدني.

ونزع قفازيه، وكشف يديه العريضتين المسلّحتين بأظفارٍ طويلة، قاسيةٍ، ومعقوفة، مثل مخالب حيوانٍ متوحّش.

أما سبياغودري الذي رآه مستعداً لنزع جمجمةِ الجثة بسيفه، فقد هتَفَ بلهجةٍ تنمّ عن الرّعب الذي لم يستطع كبحه:

– أيّها الإلهُ الصّالح، يا سيّدي!... إنه ميت!

فردّ الرجل القصير بهدوء:

– حسناً، هل تفضّل أن يُشَحذَ هذا النَّصلُ هنا على رجلٍ حيّ؟

– أوه! اسمح لي يا سيّدي أن أتوسّل إلى لُطفك... فكيف يمكن لمعاليك أن تدنّس؟...– إن معاليك... – ياسيدي، إن سمُّوك لا ينبغي...

– هل ستنهي كلامك؟وهل أنا بحاجةٍ لهذه الألقاب جميعاً، أيّها الهيكلُ العظمي الحيّ، لكي أُصدّق احترامك العميق لسيفي؟

– وحق فالديمار، وحقّ القديس أوسوف، وباسم القدّيس أوسبيس، إعفُ عن ميت!..

– ساعدني، ولا تتحدثْ عن القدّيسين البعيدين.

فتابع المتوسّلُ سبياغودري:

– يا سيّدي، بحق سلفِك الشّهير، القديس إنغولف!...

– إنغولف الجزّار كان هالكاً مثلي.

فقال العجوز وهو يجثو:

– وحقّ السّماء. إنّ هذا الهلاك هو الذي أريدُ أن أُجنّبك إياه.

أثار نفاذُ الصبر الرّجل القصير، فالتمعت عيناه الرّماديتان، والكامدتان مثل جمرتين، فردّد وهو يلوّحُ بسيفه:

– ساعدْني:

لقد تلفظ بهاتين الكلمتين بصوتٍ يشبه صوتَ الأسد، لو كان يتكلّم. أما البوّابُ المرتعدُ، والذي كان كالمائت الحيّ؛ فقد جلس على الحجر الأسود، وأسند بيديه رأسَ جيل البارد والرطب، فيما كان الرّجل القصيرُ القامة ينتزعُ جمجمته بمهارةٍ فريدة، مستخدماً لذلك خنجره وسيفه.

عندما انتهت هذه العمليةُ، تأمل لبعضِ الوقت الجمجمةَ الدّامية، وهو يتلفظُ بكلماتٍ غريبة. ثم سلّمها إلى سبياغودري لكي يجرِّدها، ويغسلها، وقال، وهو يُطلق نوعاً من العويل:

– وأنا، لن أجدَ حين أموتُ ما يواسيني بالظنِ أن وارثاً لروح إنغولف سوف يشربُ في جمجمتي دمَ الرّجال، وماءَ البحار.

وتابع بعد تأمّلٍ كئيب:

– إن الإعصار يتلوه الإعصار، والجرفُ الثلجيّ يجرُّ الجرفَ الثلجي. وسأكون أنا الأخيرَ من سلالتي. فلماذا لم يكره جيل مثلي كلَّ ما يحملُه الوجهُ البشريّ؛ فأيُّ شيطانٍ عدوٌّ لشيطان إنغولف قد دفعه إلى باطنِ تلك المناجم بحثاً عن قليلٍ من الذّهب.

أما سبياغودري الذي كان يأتيَه بجمجمة جيل، فقد قاطعه قائلاً:

– إن معاليه على حق: فالذهبُ نفسُه غالباً ما يُشتري بسعر غالٍ أكثر من اللازم، كما يقول سنورو ستورليسون.

فقال الرّجل القصير:

– إنك تذكّرني بمهمّةٍ ينبغي أن أكلّفك بها: فهذه علبةٌ حديدية، وجدتُها مع هذا الضّابط الذي لا تمتلك، كما ترى، كلَّ مخلّفاته. إنها مغلقةٌ إغلاقاً محكماً بحيث ينبغي أن تحتوي على الذّهب، وهو الشيء الوحيدُ الثمينُ في نظرِ البشر؛ ولسوف تعيدُها إلى الأرملةِ ستادت في ضيعةِ توكتري ثمناً لابنها.

حينذاك، سحب من حقيبة الظّهرِ المصنوعةِ من جلد الرّنة صندوقاً صغيراً جدّاً من الحديد. [1] فاستلمه سبياغودري، وانحنى.

فقال الرّجلُ القصيرُ، وهو يرميه بنظرةٍ ثاقبة:

– نفَذْ أمري هذا تنفيذاً أميناً، وتذكّر أنه لا شيءَ يمنع شيطانين من التلاقي. وأنا أظن أنك جبانٌ أكثر مما أنت بخيل، ولسوف تضمن لي هذا الصندوق..

– أوه! يا سيدي! أُقسم بروحي...

– كلا! أقسمْ بعظامك ولحمك.

في تلك اللحظة، دوّت على البابِ الخارجيّ للسبلادجيست طرقةٌ عنيفة، فدهشَ الرجلُ القصيرُ، وترنّح سبياغودري، وغطّى مصباحه بيده.

فهتف الرَّجل القصير متذمراً...:

– وأنت، أيها التعسُ العجوز. كيف سترتعد إذن حين تسمعُ نفيرَ يومِ الحساب؟

(١) علبةُ الحديد، كما هي الحالُ آنفاً (الفصل الثالث، وانظر أيضاً الفصول: ٣٧ و ٤٣) ودبّوسُ قبعة أُوردينر هي ملحقاتٌ للمشجاة. وهي علاماتُ تعرُّفٍ، ومصادر كشف، وحوادثُ مفاجئة. والأمرُ كذلك، بالنسبة لعلبة هان، وللزّجاجةِ الملقاة في البحر، في رواية: «الرجل الضاحك».

فسمعت طرقةٌ ثانية أكثر قوّة:

فقال الرجل القصير:

- هذا ميتٌ متعجلٌ للدّخول.

فهمس سبياغودري:

- كلا، يا سيّدي، لا يحضرون لي موتى بعد منتصف الليل.

- إنه يطردُني، سواء كان ميتاً أم حيّاً- أما أنت، يا سبياغودري؛ فكنْ أميناً ومتكتّماً. وأنا أقسمُ لك، بروح إنغولف، وجمجمةِ جيل، بأنك ستعرضُ في نزلك، نُزلِ الجثث، فيلق مونكولم بكامله.

وهكذا، فما إن علّق الرجل القصير جمجمةَ جيل إلى حزامه، وما إن لبس قفازية حتى وثب بخفة الشاموا، وبمساعدة كتفيّ سبياغودري، من خلال الفتحة العليا، حيث اختفى وهزت طرقةٌ ثالثة البلاد جيست، وأتى صوتٌ من الخارج ليأمرَ بفتح الباب، باسمِ الملك، ونائب الملك.

حينذاك، توجَّه البوابُ العجوز الذي أُصابه الاضطرابُ بسبب ذعرين مختلفين، يمكن أن يسمّى أحدهما ذعراً استرجاعياً، والآخر ذعراً يحملُ الرجاء، توجّه إلى الباب المربّع وفتحه.

الفصل السابع

لقد تعبتُ من الجري وراء هذا الفرح الذي

تؤولُ إليه الغبطةُ الزمنيّة، عبَر الشّعاب

الوعرةِ والأليمة، من غير أن تتوصَل إلى بلوغه أبداً.

اعترافات القديس أوغسطين (١)

بعد أن غادر حاكمُ درونتهايم مدينة بوال، دخل إلى مكتبه، وغرق في مقعده العريض، وأمر أحد أمناء سرّه، بغية التّسلية، بأن يقدِّم له كشفاً بالعرائض المقدَّمة إلى الحكومة.

فبدأ هذا الأخير يعرضُها، بعد أن انحنى، فقال:

أً-يطلب الدكتور الموقّر أنغليفيوس أن يعيّن بدلاً من الدكتور الموقّر فوكسييتب،

(١) هذا الاستشهاد بالقديس أوغسطين يحل، اعتباراً من الطبعة الثانية محل عبارة مقتبسة عن ليسنغ وهي: «أينبغي أن ننظر إلى الأمر عن كثب إذن؟ إن كونتاً زائداً أو ناقصاً في العالم، هل يُعتبر حدثاً كبيراً؟... إن بضعة نقاط من الدم ليست مسألة هامّة. ولكن ينبغي أن يُهرق هذا الدّم في الخفاء وأن يفيد أولئك الذين أهرقوه.» (ليسنغ).

مدير المكتبة الأسقفية، بسبب عدم الأهلية، ويجهل مقدَم العريضة (المستدعي) من يمكنه أن يحل محل الدكتور المتّصِف بعدم الأهلية، بل يُحيطُنا علماً بأنه هو «الدكتور أنغليفيوس، قد مارس مهام قيّم مكتبـ. . . ».

فقاطعه الجنرال قائلاً:

– أرسل هذا الطريفَ إلى الأسقف.

٢ً– إن أتاناز موندر، الكاهن، ووزير السّجون، يطلبُ العفو لاثني عشر محكوماً تائباً؛ بمناسبةِ الزّفاف المجيد لصاحب اللّطف، أوردينر غولدينليف، بارون تورفيك، وفارس دابّنروغ، ابن نائب الملك، والسّيدة النبيلة أولريك دالفيلد، ابنة سموّ الكونت، المستشار الأكبر للمملكتين.

فقال الجنرال:

– تؤجّل. إني أرثي للمحكومين.

٣ً– إن فوست– برودنس ديسترمبيديس، من الرّعايا النّروجيين، يطلبُ أن يعدَّ قصيدةً الزَّفاف للزّوجين النّبيلين.

– آه! آه! لابدّ أن يكون هذا الرَّجلُ الطيّبُ عجوزاً، لأنه الشَّخصُ نفسُه الذي كان قد هيأ عام ١٦٧٤ قصيدةَ زفافٍ للزّواج المقترح إقامتُه بين شوماكير، الذي كان حينذاك كونت غريفنفلد، والأميرة لويز– شارلوت دوهولستين أوغسطينبورغ، وهو الزّواج الذي لم يحدث.

فأضاف الحاكمُ بصوتٍ هامس:

– وأخشى أن يكون فاوست برودنس هو شاعرُ الزّيجاتِ الملغاة؛ فأجِّل الطّلب، وتابعْ فلسوف نستعلمُ بصددِ الشّاعر المعني عند الحاجة. إن كان ثمة سرير شاغر في مشفى درونتهايم.

٤ً– إن عمال مناجم غولد برانشال، من جزر الفاروير، وسوندموير، وهو بفالو، ورروراس، وكونغسبرغ، يطالبون بأن يتحرّرروا من أعباءِ الوصاية الملكية[1].

– إن عمالَ المناجم هؤلاء مهتاجون، ويُقال حتّى إنهم بدؤوا منذ فترة يتذمّرون من الصمت الطويل الذي يُلتزم حول عريضتهم، فلتحفظ لبحثٍ متأنّ.

٥ً– إن براآل الصياد، يُعلن، بمقتضى الأوديلستيرشت،[2] بأنه مستمرٌّ في عزمه على شراء ميراثه مجدّداً.

٦ً– إن وكلاءَ الدائنين في نوس وليفيغ، وإندال، وسكوبجن وستود وسباربو، في دساكر وقرى أخرى في درنتهايموس الشّمالية، يطالبون بأن تُخصَّصَ جائزةٌ لقاءَ

(١) عموماً، يُفسّر الاستخدام الذي يقومُ به هيغو هنا لملاحظةِ لغابريسيوس، على أنّه تفسيرٌ معكوسٌ، وهذه الملاحظة هي: «يعلن الملك نفسَه وصياً بالولادة على جميع عمال المناجم في النرويج، وهو يأخذ، بصفته هذه، كلّ المال الذين يعود إليهم، ويدفع لهم منه أربعة بالمئة». (رحلة إلى النرويج الصّفحة: ٣٧٨)، والمسألة تدورُ على الأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد: «Mineurs»، كما يتحدّد هذا بدقة في لائحة المحتويات. من جهة أخرى، فالملك يُعتَبر وصياً على الـ«Mineurs» (عمال المناجم)، فإن الملك وصيّ بالولادة عليهم. غير أن هيغو يبدي قدراً كافياً من الدعابة، من خلال طريقته في استخدام المصادر، مخاطراً بهذا التفسير المعكوس الذي يوحي، في حاصل الأمر، بأن عمال المناجم: «Mineurs» يتصرّفون كما يتصرف الأطفال، أو البريئون.

(٢) أوديلستريشت: هو تشريع فريد من نوعه كان ينصُّ، فيما بين الفلاحين النّرويجيين على وجودِ أنواع من إقطاعيّات البكر؛ فكلُّ رجلٍ كان مجبراً على أن يتخلّى عن ميراثه، يمكنه أن يمنعَ متملّكها من أن يتنازل عنها، وذلك بأن يصرّح كلَّ عشرةِ أعوام إلى السّلطات بأنّه ينوي شراءَها مجدّداً.

رأسِ اللّص، والقاتل، ومشعلِ الحرائق هان، المولود، كما يُقال، في كليبستادور، في إيلسلندا– ويعترضُ على هذه العريضة نيكول أردجيكس، جلاد درونتهايموس، الذي يزعمُ أن ملكيّة هان تعودُ إليه ويساندُ العريضةَ بينينيوس سبياغودري، حارسُ السبلادجيست الذي ينبغي أن تعودَ الجثةُ إليه.

فقال الجنرال:

– إن هذا اللَّصَّ خطرٌ جداً، خصوصاً حين نخشى حدوث اضطراباتٍ في أواسطِ عمالِ المناجم؛ فلتعلنْ جائزةٌ عن رأسه قيمتُها ألفُ ريالٍ ملكي.

٧ً– إن بينينوس سبياغودري، الطّبيبَ، والعالمَ الأثريّ، والنحّاتَ، وعالمَ المعادن، والطبيعة، والنبات، والمشرِّعَ، والكيميائيّ، وصانعَ الآلات، والفيزيائي، والفلكيّ، واللاهوتيّ، والنحْويّ...

فقاطع الجنرالُ قائلاً:

– أليس هذا هو سبياغودري، حارسُ السبلادجيست نفسه؟

فأجابه أمين السّر:

– بلى، حقاً، يا صاحب المعالي.

«... والبواب لدى جلالته، للمبنى المسمّى سبلادجيست، في مدينة درونتهايم الملكية، يعرضُ أنّه، هو، بينينوس سبياغودري الذي اكتشف أن النجومَ المسمّاة ثابتة، لا ينيرُها الكوكبُ المسمّى الشمس، كذلك فإن الاسمَ الحقيقيّ لأودان هو فريغج بن فريدولف، كذلك، فإن دودةُ الأرض البحرية تغتذي بالرَمل. وكذلك فإن

ضجّة السّكان تُبعد الأسماك عن سواحل النرويج، بحيث أن مواردَ القوت تتناقصُ طرداً مع ازدياد الشّعب وكذلك فإن الخليجَ المسمى أوت- سوند كان يسمّى فيما سبق ليمفييورد. ولم يأخذ اسم أوت- سوند إلا بعد أن ألقى فيه أوتون لورو رمحه. وكذلك فإنه (أي سبياغودري)، يعرضُ أنه، عملاً بنصائحه، وتحت إدارته، قد صُنع من تمثال فريا القديم، تمثالُ العدالة الذي يزين ساحة درونتهايم الكبرى. كما جرى تحويلُ السَّبع الذي كان موجوداً تحت قدميّ المعبود إلى شيطان؛ وكذلك...

– آه! إعفنا من هذه الخدمات السّامية، ولنرَ ماذا يطلب؟

فقلب أمينُ السّرّ بضعَ وريقات، وتابع:

«... يظنّ صاحبُ العريضة الجمّ التّواضع أنه يستطيعُ، مكافأةً له على العديد من الأعمال الشهيرة المفيدة للعلوم، وعلوم الأدب، أن يلتمس من سعادته ضريبةً كلَّ جثةٍ لذكرٍ أو لأنثى تعادل عشرةَ أسكالينات، وهذا ليس من شأنه إلا أن يكون مستحبّاً بالنسبة للموتى، إذ يثبتُ لهم الأهميةَ التي تُولى أشخاصَهم...».

وهنا، انفتح بابُ المكتب، وأعلن الحاجبُ بصوتٍ عالٍ: السّيدة النبيلة الكونتيسّة دالفيلد.

وفي الوقت نفسه، دخلت سيّدة طويلة القامة، وتضع على رأسها تاجاً صغيراً، تاجَ كونتيسّة، وترتدي بأبّهةٍ فستاناً من السّاتان القرمزيّ المطرّز بفرو القاقم. وسجف ذهبية، دخلت وقبّلت اليد التي كان الجنرال يمدُّها إليها، وأتت لتجلس قريباً من مقعده.

كان يمكنُ للكونتيسّة أن تكون في الخمسين من عمرها، وكلّ ما صنعه العمر

لم يكن يتعدّى، إذا صحّ القول، أن يبرّر التجاعيد التي كانت قد حفرتها في وجهها هواجسُ العجرفة والطمع منذ زمن بعيد. فثبَّتت على الحاكم العجوز نظرتَها المتعالية، وابتسامتها الزّائفة، وقالت:

– حسناً، أيها السّيد الجنرال، إن تلميذك قد تأخر، وكان من المفروض أن يكون هنا قبل مغيب الشمس.

– سوف يكون هنا، في ذلك الوقت، أيتها السّيدة الكونتيسّة، إذا لم يكن قد ذهب إلى مونكولم، حين وصوله.

– كيف، إلى مونكولم! آمل ألاّ يكون شوماكير هو الشّخصُ الذي يبحثُ عنه...؟

– ولكن هذا أمرٌ محتمل.

– أوّل زيارةٍ للبارون دوتورفيك ستكون لشوماكير؟

– ولمَ لا، ياكونتيسّة، فشوماكير تَعِس.

– وكيف، أيّها الجنرال! ابن نائب الملك يرتبط بسجين الدّولة هذا!

– لقد رجاني فريدريك غولدينيلف، حين كفّلني بابنه، أيتها السّيدة النبيلة، بأن أنشئه كما كان يمكن أن أُنشئ ابني. وخطر لي أن معرفة شوماكير ستكونُ مفيدةً لأوردينر المهيّأ ليكون رجلاً مقتدراً ذات يوم. وبناءً على تفويضٍ من نائب الملك، طلبت من أخي غريمون دوكنود سماحاً بالدخول إلى كافةِ السّجون، وأعطيته لأوردينر– وهو يستخدمُه.

– ومنذ متى أجرى البارون أوردينر هذا التّعارف؟

– منذ أكثر من عام بقليل ، أيتها السّيدة الكونتيسّة ، ويبدو أن معاشرةَ شوماكير قد راقت له ، لأنّها تُبقيه في درونتهايم وقتاً طويلاً إلى حدٍّ كاف . ولم يذهب منها في السّنة الأخيرة ليزورَ النّرويج إلا على مضضٍ ، وبناءً على دعوةٍ عاجلةٍ مني .

– وشوماكير ، هل يعلمُ أن مواسيهِ هو ابنُ أحدِ أكبرِ أعدائه؟

– إنه يعلمُ أنّه صديقٌ له ، وهذا يكفيه ، كما يكفينا ،

فقالت الكونتيسّة وهي تنظرُ نظرةً نافذة:

– ولكن أنت ، أيها السيد الجنرال هل كنت تعلم ، حين سمحتَ بهذه العلاقة ، بل حين صنعتَها حتّى ، بأن شوماكير له ابنة؟

– كننت أعلمُ ذلك ، أيتها الكونتيسّة النبيلة .

– وبدت لك هذه الحالةُ عديمةَ الأهمية بالنسبة لتلميذك؟

– إن تلميذ لوفان دوكنود ، وابن فريدريك غولدينليف رجلٌ مستقيم؛ فأوردينر يعرفُ الحاجزَ الذي يفصله عن ابنة شوماكير ، وهو ليس قادراً على إغواء فتاةٍ من غير هدفٍ مشروع ، وخصوصاً ابنة رجلٍ منكودِ الحظّ .

فاحمرّ وجهُ الكونتيسة النبيلة دالفيد ، وشحب ، وأدارت رأسها ، ساعيةً لتحاشي نظرةِ العجوزِ الهادئة التي تشبه نظرة من يوجّهُ اتهاماً .

فدمدمت:

– وأخيراً، تبدو لي هذه العلاقة، أيها الجنرال، واسمح لي أن أقول لك ذلك، غريبةً ومتهوّرة فيقال إن عمال المناجم، وأقوامَ المنطقة الشّمالية يهدّدون بالتمرّد، وأن اسم شوماكير مشبوهٌ في هذه المسأة.

فهتف الحاكم:

– أيتها السّيدة النبيلة، إنكِ تدهشينني؛ فقد احتمل شوماكير حتى الآن شقاءه بهدوء. ولا ريب أن الإشاعةَ ضعيفةُ الأساس.

انفتح البابُ في تلك اللحظة، وأعلن الحاجبُ بأن رسولاً من سموِّه، المستشارِ الأكبر يطلبُ التحدّثَ إلى الكونتيسّة النبيلة.

نهضت الكونتيسة على عجلٍ، وحيّت الحاكم؛ وفيما كان يواصلُ تفحُّصَ العرائض، مضت بالسّرعة الكليّة إلى شققها الواقعة في أحد أجنحة القصر، وأمرت بأن يُرسَل الرسولُ إليها.

كانت جالسةً منذ لحظاتٍ معدودة على أريكة فخمة، في وسط وصيفاتها، عندما دخل[1] هذا الأخير.

حين لاحظته الكونتيسّة، صدرت عنها حركةُ نفور، أخفتها فوراً تحت ابتسامةٍ مرحبة. ولم يكن منظرُ الرّسول الخارجي يبدو مع ذلك منفرّاً للوهلة الأولى؛ فقد كان رجلاً أقرب إلى القصر منه إلى الطول؛ فتنبئُ بدانتُه بشيءٍ آخر غير أنه رسول. ومع ذلك، فإذا ماعاينه المرءُ، فإن وجهَه يبدو له منفتحاً حتى الصّفاقة. أما المرحُ في نظرته

(١) أي: دخول توريات أوروجيكس المعروف بموسديمون وبأكيت، وهو النفس المتفانية للمستشار الكونت دالفيلد، حيواني (فأرة = MUS) وشيطانيّ. أما سبياغودري، فهو الظبّ والحفث (حية غير سامّة). الفصل /٢١/، أما دالفيد فضبع (الفصل:٥٢)، أما نيكول أوروجيكس فهو النّسر الأصلع.

فقد كان فيه شيء شيطانيّ ومشؤوم؛ فانحنى بشدّة أمام الكونتيسّة، وقدّم إليها علبةً مربوطة بخيطان حريرية، وقال:

– أيتها السّيدة النبيلة، تكرَّمي بأن تسمحي لي بالتجرؤ على أن أضع عند قدميك هذه الرّسالة الثمينة المرسلة من سموِّه، زوجك الشهير، وسيّدي المبجّل.

– ألن يأتي بنفسه؟ وكيف اتّخذك رسولاً له؛

– إن مشاغلَ هامّة تؤجِّل وصول سموِّه، وهذه الرسالةُ مخصصةٌ لإعلامك، أيتها الكونتيسة البهيّة، بذلك الوصول. أما أنا، فيتعين علي، بناءً على أمرِ سيّدي النبيل، أن أستمتع بالسّعادة العظيمة، سعادةِ حديثٍ خاصّ معك.

شحبَ وجهُ الكونتيسّة، وهتفت بصوتٍ مرتجف:

– أنا، حديث خاصَ معك، يا موسديمون؟

– إذا كان هذا يكدّر في شيء السّيدة النبيلة، فإن خادمها غير الجدير بها سيكونُ في أسىً شديد. فردّدت الكونتيسّة، وهي تبذل جهَدها لتبتسم:

– أن تكدِّرني! كلا، من غير شكّ، ولكن هل هذا الحديثُ ضروريّ؟

فانحنى الرّسول حتى الأرض.

– ضروريّ حتماً! إن الرّسالة التي تكرَّمت الكونتيسة الشهيرة بتلقيّها من يديّ لابدّ أن تحتوي أمراً صريحاً بذلك.

لقد كان أمراً نادراً أن يرى المرءُ الكونتيسّةَ المتكبِّرةَ دالفيد ترتجفُ، ويشحبُ لونُها أمام خادم يقدم لها أعمق آيات الإجلال؛ ففتحت العلبة ببطء، وقرأت محتواها، وبعد أن أعادت قراءتها، قالت لوصيفاتها بصوتٍ خفيض:

– هيا! فلنُترك وحدنا.

فقال الرّسول وهو يثني ركبته:

– فلتتكرمْ السّيدةُ النبيلةُ بأن تسامحني على الصّراحة التي أتجاسرُ على أن أسمحَ بها لنفسي، وعلى الغمّ الذي يبدو أنني أسبّبه لها!

فسارعت الكونتيسّة إلى الردّ، وهم تبتسمُ ابتسامةً مغتصبة:

– كن على ثقةٍ، على العكس، بأنه يسرّني كثيراً أن أراك.

فانسحبت الوصيفات.

– هل نسيتِ يا إلفيج إذن أن لقاءاتنا الثنائيّة لم تكن تنفرُك في وقتٍ من الأوقات؟

كان هذا الذي يتكلم مع الكونتيسّة النبيلة هو الرّسول، وكانت تلك الكلمات مترافقةً بضحكةٍ تشبه ضحكةَ الشيطان حين يقبض على الروح التي استسلمت له في اللحظة التي انقضت فيها مدّةُ الميثاق.

فخفضت السّيدة المقتدرةُ رأسَها بمهانة، وهمست:

– يا ليتي نسيتها فعلاً.

– أيتها المجنونة المسكينة! كيف يمكن لكِ أن تخجلي من أشياء لم ترها عينٌ بشريّة.

– مالا يراه الناسُ، يراه الله.

– الله ، أيتها المرأة الضعيفة! أنتِ لست جديرةً بأن تخدعي زوجك ، لأنّه أقلّ سذاجة منك .

– أنت تحقّر ندامتي تحقيراً قليل الشّهامة ، يا موسديمون .

– حسناً! إن كانت لديك ندامة ، يا إلفيج؛ فلماذا تحقّرين نفسك كلَّ يوم بجرائم جديدة .

فأخفت الكونتيسّة دالفيلد رأسها بين يديها ، وتابع الرسول:

– يا إلفيج ، لابدّ أن تختاري ، فإمّا الندامة ، فلا ترتكبين الجرائم بعدها ، وإما الجريمة ولاتندمي بعد ذلك ، اصنعي مثلي . اختاري القرار الثاني . إنّه الأفضل ، والأكثر بهجةً على الأقل .

فقالت الكونتيسّة بصوتٍ خفيض:

– لعلّه يكون بمقدورك ألاّ تلقى جزاءَ هذه الكلمات في الأبدية!

– هيا يا عزيزتي ، لندعْ المزاح . أو أنه إذا كنتِ تؤمنين بالأبديّة؛ فلتفكّري أيضاً بأنّ شهادتك للدّخول إلى الجحيم قد تمَّ اكتسابُها على نحوٍ لا يُردُّ؛ فما فائدةُ بضعِ سنواتٍ إذن من التوبة على الأرض؟ إن الأبديّة لا تُختزل حينذاك ، جلس موسديمون إلى جانب الكونتيسّة ، وطوّق عنقها بذراعيه ، وقال:

– يا إلفيج ، حاولي أن تبقي ، إن لم يكن جسمياً ، فعلى الأقلّ أخلاقياً ، على ما كنتِ عليه منذ عشرين عاماً .

أما الكونتيسّةُ ، المنكودةُ الحظّ ، والمستعبدةُ لشريكها في الجريمة ، فقد حاولت

أن تردّ على مداعبته الكريهة؛ فقد كان في ذلك العناق الزَناويّ لكائنين يحتقر كلٌّ منهما الآخر، ويتباغضان شيءٌ مفرطٌ في إثارته للغضب، حتى بالنسبة لهاتين النفسين المنحطّتين. إنّ المداعباتِ غير المشروعة التي كانت تفرحُهما، والتي لا أدري أيُّ توافقٍ فظيع يجبرهما على إغداقها على نفسيهما أيضاً، هذه المداعبات أصبحت تشكّلُ الآن تعذيباً لهما. إنه تبدُّل غريبٌ وعادلٌ للأهواء الآثمة! لقد غدت جريمتهما عذاباً لهما.

أما الكونتيسّة، فلكي تختزل ذلك العذاب الزّناوي، فقد سألت أخيراً عشيقها المقيتَ وهي تتملّصُ من بين ذراعيه، عن الرّسالةِ الشفوية التي كلّفه بها زوجها.

فقال موسديمون:

– إن دالفيد، في اللّحظة التي رأى فيها سلطته تترسّخُ عن طريقِ زواجِ أوردينر غولدينديليف، بابنتنا...

فهتفت الكونتيسّةُ المتعالية، وقد اتخذت نظرتُها المثبتةُ على موسديمون تعبيراً مفعماً بالعجرفة والاحتقار:

– ابنتنا!

فقال الرسول ببرود:

– حسناً! أظنّ أن أولريك يمكن أن تنتمي إليَّ، على الأقل، بقدر ما تنتمي إليه. وكُنت أقولُ، والحالةُ هذه، إن هذا الزواجَ لا يُرضي زوجك بصورةٍ تامّة. إن لم تجرِ، في الوقت نفسه، الإطاحةُ الكاملة بشوماكير. إن هذا العجوزَ المقرَّب لا يزالُ من أعماق سجنه مرهوباً تقريباً، مثلما كان في قصره. إن لديه في البلاط

أصدقاءَ مجهولين ، ولكنهم مقتدرون وذلك لأنهم مغمورون ربّما . والملكُ الذي علم منذ شهر أن المباحثاتِ بين المستشار الأكبر ودوق هولستين بلين لاتسيرُ على ما يُرام ، هتف بنفادِ صبر : إن عزيفنفلد وحده كان على إطلاعٍ بالأمور أكثر منهم جميعاً . وثمة متآمرٌ اسمه ديسبولسن ، وقد قَدِمَ من مونكولم إلى كوبنهاغن ، استطاع الحصول على بضع مقابلاتٍ سرّية مع الملك . وعلى إثرها ، أمر الملك عن طريق المستشاريّة بإحضار صكوكِ نبالةٍ وملكية شوماكير . ونجهل إلى أيّ شيء يتطلع شوماكير .

بيد أن إذا لم يكن يطمعُ إلاّ إلى إطلاقِ سراحه؛ فمعنى ذلك ، بالنسبة لسجين حكوميّ أن يطمحَ إلى السّلطة– يجب أن يموت إذن ، وأن يموت قضائياً ، ونحن نعمل على اختلاق جريمةٍ له . وزوجك ، يا إلفيج ، وبحجّة أنه يقومُ بالتفتيش خفيةً على مقاطعاتِ الشمال ، سوف يتأكد بنفسه من النتيجة التي أدّت إليها مكائدُنا في صفوف عمال المناجم الذين نرغب في إحداثِ تمرُّدٍ بينهم ، باسم شوماكير ، وسيكونُ من السَّهلِ إخمادها فيما بعد . إن ما يقلُقنا هو فقدانُ بضعِ أوراقٍ هامّة ، تتّصلُ بهذه الخطّة . ولدينا كلّ ما يدعو للظنّ أنّها بحوزة ديسبولسن . وحين علمنا ، والحالة هذه ، أنّه قد عاد من كوبنهاغن إلى مونكولم ، حاملاً إلى شوماكير أوراق نسبه وشهاداته ، وربما تلك الوثائق التي يمكن أن تدّمرنا ، أو أن تعرضنا للشبهة على الأقلّ ، استربطنا في مضائق كول الصّخرية أربعةَ رجالٍ مخلصين مكلّفين بالتخلّص منه ، بعد أن يجرّدوه من أوراقه . غير أنه إذا كان ديسبولسن قد أتى من برغن عن طريق البحر ، كما يؤكّد البعض ، فإن جهودنا تكون قد ضاعت سدىً ، من تلك الناحية– ومع ذلك ، فقد تلقّفتُ عند وصولي ، شائعاتٍ محدّدة عن مقتلِ نقيبٍ يُدعى ديسبولسن– ولسوف نرى ذلك– وبانتظار هذا ، فنحن نلاحقُ لصّاً شهيراً ، اسمه هان ، والمكنّى بالإيسلنديّ ، ونبتغي أن نضعه قائداً لتمرُّدِ عمالِ المناجم . وأنتِ ، يا عزيزتي ، أية أخبارٍ ستعطيني إياها عما يجري هنا؟ والعصفور الجميل ، عصفور مونكولم ، هل

قُبض عليه في عشّه؟ وابنةُ الوزيرِ العجوز هل أصبحت أخيراً ضحيّةَ صقرِنا الأصهب، [1] ابنِنا فريدريك...؟

وما إن استعادت الكونتيسّة تعاليها، حتى هتفت ثانية:

– ابننا...!

– في الواقع، ماذا يمكن أن يكون عمرُه؟ أربعة وعشرين عاماً؛ فكلٌّ منا يعرفُ الآخر منذ ستة وعشرين عاماً، يا إلفيج.

فهتفت إلفيج:

– الله يعلم ذلك. إن ابني فريدريك هو الوريثُ الشرعيّ للمستشار الأكبر.

فردّ الرّسولُ ضاحكاً:

– إن كان اللّه يعلمُ ذلك، فإن الشيطانَ يمكن أن يجهله. وابنُك فريدريك، فضلاً عن هذا، ليس سوى فتىً طائشٍ لا يليقُ بي. ولا حاجةَ بنا لنتخاصمَ من أجلِ أمرٍ ضئيللِ الأهمية كهذا. إنه لا يصلحُ إلا لإغواء فتاة. فهل توصّل إلى ذلك على الأقل؟

– ليس بعد، حسب معرفتي.

– ولكن، يا إلفيج، حاولي أن تلعبي دوراً أقلَّ سلبية في قضايانا. إن دورَ الكونت ودوري، كما ترين، على درجةٍ كافية من الفعاليّة، ولسوف أرجعُ، اعتباراً من الغد، إلى زوجك، أما أنتِ فتكرّمي بألاتكتفي بالصلاة من أجلِ خطايانا،

(١) باللاتينية في النص: Falco Fulvus. (م:ز.ع)

مثل السّيدة العذراء التي يبتهلُ إليها الطّليانُ وهم يمارسون القتلَ– ولا بدَّ أن يفكرّ دالفيلد في مكافأتي بطريقةٍ أرفع قليلاً مما فعله حتى الآن. إن حظيّ مرتبطٌ بحظكم، ولكني ضجرت من أن أكون خادماً للزّوج، فيما أنا عشيقُ الزّوجة، ومن أن أكون االحاكمَ والمؤدِّب والمربي فحسب، فيما أنا الوالدُ تقريباً.

أعلنت السّاعةُ انتصافَ اللّيل، في تلك اللحظة، ودخلت إحدى الوصيفات، فذكّرت الكونتيسّة بأن كافّة الأنوار ينبغي أن تُطفأ في تلك السّاعة، حسب نظامِ القصر. أمّا الكونتيسّة التي كانت مسرورةً لإنهاءِ ذلك الحديثِ المكدِّر، فقد استدعت وصيفاتها. فقال موسديمون وهو ينسحب:

– فلتسمحْ لي الكونتيسّة اللّطيفة بأن أحافِظَ على الأملِ برؤيتها في الغد مرةً ثانية، وأن أضَعَ تحت قدميها ولائي المفعمَ بالاحترام العميق.

الفصل الثّامن

لابدّ أن تكون قد ذبحته، لأن نظرتَكَ
هي نظرة قاتل، وهيئتُك عابسةٌ ومخيفة.

شكسبير، حلم الصّيف

قال أوردينر لسبياغودري:

– وشرفي، أيّها العجوز، أني بدأتُ أظنّ أن الجثثَ في هذا المبنى هي التي كانت مكلّفةً بأن تفتح الباب لي.

فأجاب البوّاب الذي لما يزل يسمع اسمي الملك ونائب الملك يطنّان في أذنه، وهو يكرّر اعتذاره المبتذل:

– كنت... كنت أنامُ بعمق.

في هذه الحالة، يبدو أن موتاك لم يكونوا نائمين، لأنهم هم دون ريب من كنت أسمعهم للتوّ يتحدّثون بوضوح.

فاضطرب سبياغودري، وقال:

– لقد سمعتَ ، أيها السّيدُ الغريبُ ، لقد سمعتَ...؟

– إيه! يا إلهي ، أجل. ولكن هذا لا يهمني. فلم آتِ إلى هنا لكي أهتم بأعمالك ، بل لكي تهتمّ بأعمالي ، فلندخلْ.

قلّما كان سبياغودري مشغولَ البال ، حين أدخل الوافدَ الجديدَ ليصبحَ على مقربةٍ من جثّةِ جيل ، غير أن تلك الكلمات الأخيرة قد طمأَنته قليلاً. ومن ناحيةٍ أخرى ، فهل كان بوسعه أن يقاومه؟

فترك الشابّ يمرُّ إذن ، وأغلق الباب مجدّداً ، وقال:

– أنا بينينيوس سبياغودري في خدمتك لكلِّ ما يتعلقُ بالعلوم الإنسانية. ومع ذلك ، فإذا كنت تظنّ أنك تتحدّثُ مع ساحر ، حسبما تنبئ زيارتُك الليلية ، على ما يبدو ، فأنت مخطئٌ في ذلك. فلا تركنْ إلى الشائعة العامة [1]؛ فما أنا إلا عالم– ولندخلْ ، أيها السيّد الغريب إلى مخبري.

فقال أوردينر:

– كلا ، إنما ينبغي أن نتوقّف عند هذه الجثث.

فهتف سبياغودري الذي عاد إلى الارتجاف:

– ولكنك يا سيّدي لا تستطيعُ أن تراها.

– كيف لا يمكنني أن أرى جثثاً لم توضع هنا إلا لكي تُرى! أكرّر لك أن لدي استعلامات أطلبها منك حول إحداها ، وواجبُك هو في أن تقدِّمها لي. فلتمتثلْ لذلك طوعاً ، أيّها العجوز ، أو تمتثل له كرهاً.

(١) باللاتينية في النصّ: NE FAMAM CREDAS (م:ز.ع)

كان سبياغودري يكنّ احتراماً عميقاً للسيّوف ، وكان يرى أحدها يلتمعُ على جنبِ أوردينر . فهمس: مامن شيء لا يُطالب به بالسّلاح [1] وأخذ يبحثُ في حزمةِ مفاتيحه ، ففتح الشبكة ذات الارتفاع الاستناديّ ، وأدخل الغريب إلى القسم الثاني من القاعة .

فقال هذا الأخير:

– أرني ملابس النقيب .

في تلك اللحظة ، سَقَطَ شعاعٌ من المصباح على رأسِ جيل ستادت المضرّج بالدّماء .

فهتف أوردينر:

– أيّها الإلهُ العادل! أيُّ تدنيسٍ مُنكَر!

فقال البّواب العجوز بصوتٍ خفيض:

– أيها القدّيس العظيم أوسبيس! ار أف بي .

فتابع أوردينر بصوتٍ متوعّد:

– أيها العجوز ، هل أنت بعيدٌ جدّاً عن القبر لكي تنتهكَ الإكرامَ المكرَّس له ، أو لاتخشى أن يُعلّمكَ الأحياءُ ، أيها التّعس ، ما يتوجَّبُ على المرء تجاه الموتى؟

فهتف البّواب المسكين:

– أوه! العفو ، فلستُ أنا... لو كنتَ تعلمُ...!

---

(١) باللاتينية في النص Nihil Arrogat Armis (م:ز . ع) .

ثم توقّف، لأنه تذكّر تلك الكلمات، كلماتِ الرّجلِ القصيرِ القامة: كن أميناً ومتكتّماً. وسأله بصوتٍ مخنوق:

– هل رأيت أحداً يخرجُ من هذه الفتحة؟

– أجل، هل هو شريكُك!

– كلاّ، إنه المذنبُ، المذنبُ الوحيد! أُقسُم على ذلك بالإدانات الجهنميّة كلِّها، والبركات السّماوية كلّها، بهذا الجسد نفسه المدنّس تدنيساً مُشيناً.

كان سبياغودري قد جثا على الحجر أمام أوردينر. ومهما كانت هيئتُه تبدو منفّرةً، فقد كان في يأسِه واحتجاجاتِه مع ذلك لهجةٌ صادقةٌ أقنعت الشّاب.

فقال له:

– أيّها العجوز، انهضْ، فإذا كنت لم توجّهِ الإهانات للموت، فلا تُذِلّ الشّيخوخةَ على الأقل. فنهض العجوز، وتابع أوردينر قائلاً:

– من هو المذنبُ؟

– أوه! الصّمت يا سيّدي النبيل، فأنت تجهلُ عمن تتحدّث. الصّمت!

وأخذ سبياغودري يردّد في نفسه داخلياً: كن أميناً ومتكتّماً.

فكرّر أوردينر:

– من هو هذا الكائنُ المرعبُ والغامض؟ أريدُ معرفته.

– وحقّ السّماء، يا سيّدي! لا تتكلّمْ على هذا النحو. اسكتْ، خوفاً...

– الخوف لن يجعلني أسكتُ، وسوف يجعلُك تتكلّم.

فقال سبياغودري المحزون:

– اعذرني يا سيّدي الشابّ، واغفرْ لي، ليس بمقدوري...

– هذا باستطاعتك، لأني أريد ذلك. سوف تسمّي لي المدنّسَ!

فأخذ سبياغودري يسعى إلى المراوغة:

– حسناً، يا سيدي النبيل. إن مدنِّسَ هذه الجثّة هو قاتلُ هذا الضّابط.

فسأل أوردينر وقد أرجعه هذا التحوّل إلى هدفِ تحرّياته:

– لقد مات هذا الضابط مقتولاً إذن؟

– أجل، بلا شكّ، يا سيدي.

– وعلى يدِ من؟ على يد من؟

– وحقّ القدّيسة التي كانت تبتهلُ إليها أُمُّك حين ولدتك، لا تسعَ إلى معرفةِ هذا الاسم، يا سيّدي الشاب، ولا تجبرني على كشفه.

– إذا كان الاهتمامُ الذي لديّ لمعرفةِ ذلك يحتاج إلى أن يُزاد، فلسوف تضيفُ إليه أيها العجوز، اهتمامي بحبّ المعرفة. وأنا آمرك بأن تسمّي لي هذا القاتل.

فقال سبياغودري:

– حسناً، لاحظْ هذه التمزُّقاتِ العميقةَ التي أحدثتها أظفارٌ طويلةٌ وقاطعة على جسدِ هذا التّعس، وهي تسمّي لك القاتل.

وأخذ العجوز يُرى أوردينر الخدوشَ الطّويلةَ والشّديدة على الجثّةِ العاريةِ والمغسولة.

فقال أوردينر:

– كيف؟ هل هو حيوانٌ متوحش؟ دبٌ، أو...

– كلا، يا سيّدي الشّاب.

– ولكن، إلاّ أن يكون هو الشّيطان...

– صه! حاذرْ من أن تخمن ذلك جيداً إلى حدٍّ مفرط، ألم تسمعْ قطّ... وتابع البوّاب بصوتٍ خفيض:

– ألم تسمعْ قط من يتحدثون عن رجلٍ، أو مسخ ذي رأسٍ بشري، وذي أظفارٍ طويلة كأظفار أستاروت الذي أهلكنا، وعن المسيح الدجّال الذي سيهلكُنا...؟

– تكلّم بصورةٍ أوضح.

– الويل! قال سفرُ الرؤيا.

– إن اسم القاتل هو الذي أطلبه منك.

– القاتل... الاسم... يا سيّدي، ارأف بي، ارأف بنفسك.

– إن ثاني هذه الرّجاءات قد يقوّضُ الرّجاءَ الأول، فحتى لو أن بعضَ الدّواعي الخطيرة لا تجبرني على أن أنتزعَ منك هذا الاسم، فلا تسئ استخدامَ هذا الأمرِ لفترةٍ أطول... فقال سبياغودري وهو ينتصبُ، وبصوتٍ عال:

– حسناً، أنت تريدُ ذلك، أيها الشّاب. إن هذا القاتل، هذا المدنّس هو هان الإيسلندي.

لم يكن هذا الاسمُ المخيف مجهولاً لدى أوردينر، فردّد:

– كيف؟ هان! هذا اللصّ المقيت! (١)

– لا تسمّه لصاً، فهو يحيا بمفرده دوماً.

– وإذن، أيّها التّعس، كيف تعرفُه؟ وأيةُ جرائم مشتركة قد قرّبت بينكما إذن؟

– أوه! أيها السّيدُ النبيل، تكرَّم بألا تثق بالمظاهر؛ فهل يكون جذعُ الشجرة ساماً لأن حيةً تختبئ فيه؟

– لا تقلْ كلاماً لا جدوى منه! فلا يمكن أن يكونَ للآثمِ صديقٌ إلا إذا كان متواطئاً معه.

– لستُ صديقه البتّة، وبدرجة أقلّ أيضاً، لست متواطئاً معه. وإن لم تقنعْك أيماني، يا سيّدي، فلتتفضّلْ، تكرُّماً، بأن تلاحظَ بأن هذا التّدنيسَ المقيتَ يعرّضُني، بعد أربع وعشرين ساعة، حين يأتون ليرفعوا جثة جيل ستادت، لمحنة تحلُّ بالمدنِّسين، وتُلقي بي في خضمّ قلقٍ مرعبٍ هو أشدُّ ما يمكن لبريءٍ أن يكون قد تعرَّضَ له يوماً.

تركت هذه الاعتباراتُ، اعتباراتُ المصلحةِ الشّخصية تأثيراً أكبر على أوردينر مما تركه لديه صوتُ الحارسِ المسكين المتوسِّل. وهي الاعتباراتُ التي ربّما كانت قد

(١) الواقع أن سبياغودري يجهلُ اشتقاق الكلمة، ويخلط بين كلمتي: Bandit= قاطع طريق، لصّ و Banni: = مُبَعد، منفي، بعيداً عن كلمة = عصابة التي تبدو متسلسلةً عنها.

أوحت له بتصدّيه المؤثّر للتدنيس للحظةٍ من الزمن كان سبياغودري يسعى خلالها إلى أن يقرأ على وجهه فيما إذا كان توقّفُه هذا سيقرّر الهدوءَ أم سيجلب العاصفة.

وأخيراً، قال بلهجةٍ صارمةٍ، ولكنها هادئة:

– أيها العجوز، كن صريحاً، هل وجدت أوراقاً مع هذا الضّابط؟

– ولا ورقة، أقسمُ بشرفي.

– هل تعرفُ إن كان هان الإيسلندي قد وجد بعضاً منها.

– أقسم لك بالقدّيس أوسبيس أني أجهلُ ذلك.

– أنت تجهلُ ذلك؟ وهل تعلم أين يختبئُ هان الإيسلنديّ هذا؟

– إنه لا يختبئ إطلاقاً، بل يهيمُ على وجهه دوماً.

– فليكن! ولكن ماهي أماكنُ اعتزاله أخيراً.

فأجابَ العجوزُ بصوتٍ خفيض:

– إن لهذا الوثني أماكنُ اعتزالٍ بقدر ما لجزيرةِ إيتيرين من صخورٍ بحريةٍ، وبقدرما لنجمة سيريوس من أشعّة...

فقاطعه أوردينر:

– أدعوك من جديد للكلام بعبارات إيجابية؛ وسأعطيك مثالاً على ذلك؛ فأنت مرتبطٌ ارتباطاً غامضاً مع هذا اللّص الذي تؤكد أنك لست متواطئاً معه؛ فإذا كنت

تعرفُه، فلابدّ أنك تعرفُ المكان الذي اعتزل فيه الآن- لا تقاطعْني- وإذا لم تكن شريكه، فلن تتردَّد في أن تقودني إلى البحث عنه.

فلم يستطيع سبياغودري أن يكبح هلعه.

- أنت، أيها السّيد النبيل أنت، أيها الربّ العظيم! أنت المفعمُ بالشّباب والحياة، تريدُ أن تستفزّ هذا الشّيطاني، وتبحث عنه. وحين قاتَلَ انجيالد ذو الأذرع الأربعة العملاقَ نيكتولم، كانت له أربعةُ أذرع على الأقل...

فقال أوردينر مبتسماً...

- إن كان لابدّ من أربعة أذرع، أفلا تكونُ مرشدي؟

- أنا! مرشدُك؟ كيف يمكن أن تسخَرَ على هذا النّحو من عجوزٍ مسكينٍ أصبح يحتاجُ الآن تقريباً إلى من يرشدُه؟

فكرّر أوردينر:

- اسمعْ، لا تحاولْ أنت بالذات أن تتلاعب بي. فإذا كان هذا التّدنيس الذي أودّ أن أصدّق أنك بريئ منه يعرّضُك لقصاصِ المدنِّسين، فأنت لا تستطيعُ البقاءَ هنا. ولابدّ لك أن تهرب. وإني أعرضُ عليك حمايتي، ولكن بشرط أن تقودني إلى مكانِ اعتزالِ اللّص. فكنْ مرشدي، أكن حاميك. وأقول أكثر من ذلك؛ فإذا وصلتُ إلى هان الإيسلندي، فلسوف آتي به ميتاً أو حيّاً. ويمكنك أن تُثبت براءتك، وأعدُك بأن أجعلك ترجعُ إلى عملك- وإليك بانتظار ذلك، مبلغاً من الرّيالات الملكيّة، أكثر مما يدرّه عليك عملُك في عام.

كان أوردينر يراعي في الحجج التي يقدّمها التدرُّجَ المتعمَّد لقواعد المنطق السّليمة، من خلال احتفاظِه بكيسِ النّقود حتى النهاية، ومع ذلك، فقد كانت الرّيالاتُ بحدّ ذاتها قويّةً إلى حدٍّ كافٍ بحيث تجعلُ سبياغودري يفكّرُ في الأمر، فبدأ بأخذ النقود.

وقال بعد ذلك، وعينُه التي كانت متردّدةً حتى ذلك الوقت، ارتفعت نحو أوردينر!

– يا سيّدي النبيل، إذا تبعتُك، وعرّضتُ نفسي في يومٍ ما إلى انتقام هان الرهيب، وإذا بقيت، وقعت غداً بين يديّ الجلاّد أوروجيكس: فما هو الآنَ إذن عقابُ المدّنسين...؟

لا أهمية كذلك؛ ففي الحالين، حياتي المسكينةُ في خطر. ولكن إذا كان لابدَّ للمرء أن يختار بين خطرين، هما على الدّرجةِ نفسها من الخطورة، فينبغي له أن يختار الأقلَّ إلحاحاً فيما بينهما [1]، حسب الملاحظة الصحيحة لسيموند سيغفوسون، الذي يلقبّونه بالحكيم أيضاً – فإني أتبعُك– أجل يا سيدي، سأكون مرشداً لك: فتكرَّم بألا تنسى مع ذلك بأني فعلتُ كلّ ما بوسعي لكي أثنيك عن مشروعك المحفوف بالمخاطر [2].

فقال أوردينر:

– فليكن! ستكون إذن مرشدي، أيّها العجوز.

---

(١) باللاتينية في النّص.

(٢) إنه مرشد فريد لا يفكر إلا في تحاشي اللّقاء مع هان الإيسلندي. وهو يحمل معه «العلبة الحديدية» التي سيبحث عنها أوردينر فيما بعد. «لقد كانت تتبعه فيما كان يبحث عنها.». (الفصل: ٨١).

وأضاف بنظرةٍ معبّرة:

- إني أعتمد على استقامتك.

فردّ البواب:

- آه! يا سيّدي. إن ولاء سبياغودري صافٍ كالذّهب الذي وهبتني إياه للتوّ تكرُّماً منك.

- عسى ألا يكون الأمرُ خلاف ذلك، لأني سوف أثبتُ لك أن الحديدَ الذي أحملُه ليس حجّةً أقلّ إقناعاً من ذهبي- فأين تظنُّ هان الإيسلنديّ موجوداً؟

- ولكن بما أن جنوبَ درونتهايم يعجّ بالجنود الذين أرسلوا إليه، بناءً على استدعاءٍ من المستشار الأكبر لاندري ماهو؛ فلا بدَّ أن هان قد توجّه إلى مغارةِ فالدروغ، أو إلى بحيرة سميازين، فطريقُنا ستكون إلى هناك مروراً بسكونجن.

- متى يمكنك أن تتبعني؟

- عند بداية النّهار، وحين يتبدّدُ الظلامُ، يُغلقُ السبلادجيست؛ فإن خادمَك المسكين سوف يبدأ لديك مهامَّه كمرشد. وهي المهامُ التي سيحرمُ الموتى لأجلها من عنايته بهم. إننا سنبحثُ عن وسيلةٍ لنُخفي أثناء النّهار بأكمله التّشويه الذي حلَّ بعاملِ المنجم عن عيون الشّعب.

- أين ألتقيك هذا المساء؟

- في ساحة درونتهايم الكبرى، وإذا كان مناسباً للسّيد، بقربِ تمثال العدالة الذي كان يسمّى فريّا قديماً، ولسوف يحميني بظلاله بلا ريب، إقراراً منه بالجميل على تمثال الصبي الجميل الذي أوصيتُ بنحته عند قدميه.

ربما كان سبياغودري يهمّ بأن يردّد على مسمع أوردينر شفويّاً حيثيّات عريضتِه المقدّمةِ إلى الحكومة، لو لم يقاطعْه هذا الأخيرُ قائلاً:

– هذا يكفي، أيها العجوز، لقد عقدنا الاتفاق.

فردّد البواب:

– عقدناه.

ما كاد ينتهي من التلفّظ بهذه الكلمة، حتى سُمِعت زمجرةٌ بدت آتيةً من فوقهم، فارتعَدَ البوّابُ، وقال:

– ما هذا؟

وقال أوردينر، وقد أصابتهُ الدَّهشةُ أيضاً:

– أما من ساكنٍ آخر حيّ غيرك هنا؟

فاستأنف سبياغودري كلامه وقد طمأنته الفكرةُ التّالية:

– إنك تذكّرني بكاهني أوغليبيغلاب؛ فهو الذي ينامُ محدِثاً ضجّةً بالتأكيد. إن فنلدياً نائماً يحدثُ من الضّجةِ ما تُحدِثُه امرأةٌ ساهرة، حسب رأي الأسقف أرنغريم.

كانا قد اقتربا من باب السبلادجيست، وهما يتحدّثان على هذا النّحو، ففتحه سبياغودري بهدوء.

وقال لأوردينر:

– وداعاً، يا سيّدي الشّاب؛ فلتسعدْك السّماء. فإلى اللّقاء هذا المساء. وإذا قادتك طريقُك إلى أمام صليبِ القدّيس أوسبيس، فتكرّم بأن تصلّي من أجل خادمك البائس: بينينوس سبياغودري. حينئذ، رجع إلى جثّة جيل، وهو يغلقُ الباب مجدّداً على عجل، لأنه يخشى أن يلمحه أحدٌ بالقدر نفسه الذي يريدُ فيه وقايةً مصباحه من نسائم الصّباح الأولى، واهتمّ بأن يديرَ رأسَ الجثّة بحيث يُخفي جراحَها.

كان لابدّ من مسوّغاتٍ كثيرة تجعل البوّاب الوجل يقرّر قبولَ العرضِ المحفوفِ بالمخاطر، عرضِ الرّجل الغريب، وكان يدخل ضمن دواعي عزمِهِ المتهوّر مايلي: ١– الخوف من أوردينر الحاضر. ٢– الخوف من جلاّد أورجيكس. ٣– كراهية قديمة لهان الإيسلندي. وهي كراهيةٌ لم يكد يجرؤ على الاعتراف بها لنفسه، لشدّة ما كان الذّعرُ يضغطُ عليه. ٤– شغفه بالعلوم التي يمكن لرحلته أن تكون نافعةً لها. ٥– الثّقة بدهائه لكي يتهرّب من رؤية هان له. ٦– انجذابٌ تخمينيٌّ تماماً لمعدنٍ معيّن كان يحتويه كيسُ نقودِ الشابّ المغامر. ويبدو أن العلبة المعدنية المسلوبة من النّقيب والمخصّصة للأرملة ستادت مملوءة به. وهذه الرّسالةُ تمرُّ الآن بخطرٍ كبير، وهو أن تبقى مُلازمةً أبداً لرسولها.

وأخيراً، فهناك مسوّغ أخير، وهو الأملُ المبنيّ على أساسٍ جيّد أوسيء في الرجوع عاجلاً أو آجلاً إلى المكان يتهيّأ لمغادرته. فما الذي كان يهمُّه، من جهةٍ أخرى، أن يقتل اللّصُّ المسافر، أو المسافر اللّص؟

ولم يتمالك نفسه، عند ذلك الحدّ من تفكّره، أن يقولَ بصوتٍ عالٍ: «سوف يقدّم لي ذلك جثّة دائماً.».

وسُمعت دمدمة جديدةٌ أيضاً؛ فارتعد البوّاب التّعس، وقال في نفسه:

– ليس هذا شخير أوغليبيغلاب ، في الحقيقة . إن هذه الضجّة تأتي من الخارج– ثم قال في نفسه بعد لحظةٍ من التفكير : – إني ساذجٌ حقّاً ، إذا أرتعبُ هكذا . هذا بلا شكّ هو الكلبُ الشرس ، كلبُ المرفأ الذي يستيقظُ وينبح .

حينذاك ، انتهى من ترتيبِ الأطرافِ المشوّهة لجيل ، ثم أتى ، بعد أن أغلق كافة الأبواب ، ليستريح على سريره الحقير من متاعبِ الليل الذي يشارفُ على نهايته ، وليستعيد قواه من أجلِ الليل الذي يجري الاستعداد له .

الفصل التّاسع

القاتِل السّيفُ في جسمِ القتيلِ به   وللسّيوفِ كما للنّاس آجالُ
تُغيرُ عنه على الغاراتِ هيبتُه   وماله بأقاصي الأرضِ أهمالُ
له من الوحش ما اختارت أسنّتُه   عيرٌ وهيقٌ وخنساءٌ وذيّالُ
تُمسي الضّيوفُ مشّهاةً بعقوتهِ   كأنّ أوقاتها في الطيّبِ آصالُ

. . . . . .

تُقري صوارمُه السّاعات عبطَ دمٍ   كأنما السّاع نزّالٌ وقفّالُ

أبو الطيب. شاعر عربي(1)

جولييت

آه! هل تظنّ أننا سنلتقي يوماً؟

روميو

---

(١) استهلالٌ مقتبس عن أبي الطّيب المتنبي، وقد حُذف عام ١٨٣٣، ولقد جرت المطابقةُ مع النّص العربي بجهد مشكور للشّاعر. ثائر زين الدين، بالرجوع إلى ديوان المتنبي، وإلى القصيدة التي تبدأ بـ :

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالُ   فليسعدُ النُّطقُ إن لم تُسعدِ الحالُ

أمّا العيرُ والهيق والخنساء والذّيال فهي على التوالي: الجمال، والنّعام، والأبقار، والثيران الوحشيّة. (م: ز. ع).

لا شك في ذلك، وكلُّ هذا الغّم سيصبح حديثاً حلواً في أيامنا الآتية.

شكسبير، روميو وجولييت

انطفأت منارة قصر مونكولم للتّو، وكان البحّار الذي يهمُّ بالدخول إلى خليج درونتهايم يرى، في مكانها، خوذةَ جنديّ الحراسة، وهي تلتمع من بعيد، مثل نجمةٍ متحرّكةٍ، في أشعة الشّمس المشرقة عندما نزل شوماكير، كالعادة، إلى الحديقة الدائرية التي تحيطُ بسجنه، مستنداً إلى ذراع ابنته. كان كلاهما قد أمضيا ليلةً مضطربة، العجوز بسبب الأرق، والفتاة بسبب أحلامٍ يقظةٍ لذيذة. كانا يتنزهان منذ بعضِ الوقت بصمت، عندما وجّه السّجين العجوز إلى الفتاة الجميلة نظرةً حزينة ورصينة، وقال:

– إن وجهكَ يصطبغُ بالحمرة، وتبتسمين بمفردك يا إيتيل. فأنت سعيدة، لأنك لا تخجلين من الماضي، وتبتسمين للمستقبل.

فاحمرّ وجهُ إيتيل بشكلٍ أكبر، وكفّت عن الابتسام، وقالت محرجةً ومضطربة:

– يا سيّدي ووالدي، لقد أتيت بكتاب الإيدا[1].

فقال شوماكير:

– حسناً! اقرئي يا ابنتي.

ثم غرق ثانية في تفكّره الحالم.

---

(١) انظر: الملاحظة رقم (٣) في المقدّمة.

حينذاك، أصغى السّجينُ الكئيب، وهو جالسٌ على صخرةٍ ضاربةٍ إلى الأسود، ومظلّلة بسروةٍ سوداء، أصغى إلى صوتِ ابنته الرّقيق، من دون أن يسمع قراءتها، مثلما يستمتعُ مسافرٌ ظمآن بخريرِ النّبع الذي يغترف منه الحياة.

قرأت له إيتيل قصة الراعية ألاّنغا التي رفضت ملكاً حتى يثبتَ أنه محارب. فلم يحصل الأمير رينيه لودبردغ على الرّاعية، إلا حين رجع منتصراً على قاطع الطّريق كليبستادور الذي هو إنغولف الجزّار(١).

فجأة أتى وقعُ أقدام وحفيفُ أوراقٍ ليقطع قراءتها، وينتزع شوماكير من تأمّلاته. فخرج الملازمُ دالفيلد من خلف الصّخرة التي كانا جالسين عليها؛ فخفضت إيتيل رأسها، إذ تعرّفت المُقاطِعَ الدّائم، فهتف الضّابط:

– وحقّي، أيتها الآنسة الجميلة، إن اسم إنغولف الجزّار قد نطق به فمكُ السّاحر، وقد سمعته، وأفترض أنك إنما رجعتِ إليه زمنيّاً، حين تكلّمتِ على حفيده هان الإيسلندي. إن الآنساتِ يحببن كثيراً أن يتكلمن على اللصوص. ومن هذه الناحية، فإن أشياء تمتعّ الأسماع وتبعث على الرعب، على نحو فريد، تُروى عن إنغولف وخلفه فلم يكن لإنغولف الجزّار إلاّ ابنٌ واحد، مولودٌ من السّاحرة تواركا. وهذا الابنُ لم يكن له أيضاً إلاّ ابنٌ واحد، مولود كذلك من ساحرة. ومنذ أربعة قرون، استمرَّ بقاءُ هذه السّلالة على هذا النّحو المدمّرِ لإيسلندا، عن طريقِ سليلٍ واحد دوماً لا يُنتج إلاّ فرعاً واحداً. ومن خلال تلك السّلسلة من الوَرَثةِ الوحيدين، إنما وصلت الرّوح الجهنمية لإنغولف حتى أيامنا

(١) يستوحي هيغو قصة «الراعية أغلوغا والملك رينيه» (ماليّه، الجزء الأول، الصفحة ٢٨١، وما يليها)، غير أن إيتيل تقرأ على الخصوص في كتابها، كما تقرأ المستقبل.

هذه سليمةً وتامة، إلى هان الإيسلنديّ، الذائع الصّيت. وقد حظيت هذه الروّحُ بلا شكّ في هذه اللحظة بأن تشغل الأفكارَ العذريّة للآنسة.

توقف الضّابط للحظةٍ من الزّمن، وكانت إيتيل صامتةً بسبب الإحراج. أما شوماكير فصامتٌ من جراء الضجر. فاستخفّ الفرحُ الضّابطَ لأنّه رآهما مستعدّين، إن لم يكن للردِّ عليه، فعلى الأقل للإصغاء له، فتابع:

– إن قاطعَ طريقِ كيبستادور ليس له من هوىً آخر غير كراهيةِ البشرومن همٍّ آخر غير الإضرار بهم.

فقاطعه العجوز بغتة:

– إنّه حكيم.

فتابع الضّابط:

– إنه يحيا بمفرده دوماً:

وقال شوماكير:

– إنه مغتبط.

ابتهج الملازمُ بهذه المقاطعة المزدوجة والتي كان يبدو أنّها تمهرُ اتّفاقاً بإجراءِ الحديث.

فهتف:

– فليحفظْنا الإلهُ ميترا من هؤلاء الحكماء، هؤلاء المغتبطين! واللّعنةُ على النّسيم العليلِ السّيء القصدِ الذي جَلَب إلى النرويج آخرَ شياطين إيسلندا. إني

على خطأ إذ أقول سيء القصد، لأننا، كما يؤكّد البعضُ، ندينُ لأسقف بكوننا قد حظينا بامتلاك هان كليبستادور. وإذا ما أخذنا بما يقولهُ التقليدُ؛ فإن بعضَ الفلّاحين الإيسلنديّين الذين أخذوا من جبال بيسيستيد هان الصغير الذي لمّا يزل طفلاً، أرادوا قتله، كما قتل أستياج شبلَ باكتريان. غير أن أسقفَ سكالولت اعترضَ على ذلك، وأخذ الدّبُ الصغير تحت حمايته، آملاً أن يصنع من الشّيطان مسيحيّاً. وقد استخدم الأسقفُ الطّيب ألفَ وسيلةٍ لتطويرِ ذلك العقلِ الجهنّميّ، ناسياً أن الشّوكران[1] لم يتّحول إلى زنبقة في دفيئات بابل الحارّة. وهكذا، فإن اليافعَ الشّيطاني قد كافأه على عنايته به، بأن هرب ذات ليلة على جذع شجرة، وعبر البحار، وذلك بأن أضاء هروبَه بالحريق الذي أضرمه بالقصير الأسقفيّ. تلك هي الكيفيّة التي تحوّل بها، في النّرويج، ذلك الأيسلنديّ الذي بفضل تربيته، يقدّم اليوم صورة المسخ في كلّ كمالها، واللّص بتمام صفاته، حسب حكايةِ غزّالات البلاد العجائز. ومنذ ذلك الحين، طُمرت مناجمُ فاروير، وسُحق ثلاثمئة عاملٍ تحت أنقاضها، وأسقطت صخرةُ غولين المتدليّة على القرية التي كانت تهيمنُ عليها أثناء اللّيل، وانهار جسرُ هاف – بروين من أعالي الصّخور على معبر المسافرين؛ وأُحرقت كاتدرائيةُ درونتهايم، وأُطفئت المناراتُ السّاحلية طيلة الأيام العاصفة، وجملةٌ من الجرائم وأعمال القتل دُفنت في بحيرتي سباربو وسميازين، أو أُخفيت في مغائر فالديروغ وريلاس، وفي مضائق دوفرفيلد الصّخرية. وقد شهدت هذه الجرائمُ على وجود هذا المدعو أريمان المتجسّد في درونتهايموس. إن العجائز يزعمن أن وبرة تنبت له في لحيته. عند كلّ جريمة. وفي هذه الحال، لابدَّ أن تكون لحيتُه كثّة مثل لحية مجوسيّ

(١) عشبة طبيّة شديدة السّميّة. (م:ز.ع).

آشوريّ موقّر. ولسوف تعلم الآنسة الجميلة مع ذلك بأن الحكومة قد حاولت غير مرّة أن توقف النّمو غير العادي لتلك اللّحية...

قطع شوماكير الصّمت أخيراً، وقال وهو ينظرُ نظرةَ انتصارٍ، ويبتسم بسخرية:

– وكلُّ الجهود التي بُذلت للقبض على هذا الرجل كانت فاشلة؟ إني أهنئُ المستشاريةَ الكبرى على ذلك.

فلم يفهم الضّابطُ تهكّمَ المستشار الكبير السّابق.

– لا يزال القبضُ على هان متعذّراً حتى الآن، شأن أوراتيوس الملقّب بكلوكيس. فالجنودُ القدامى، وفتيانُ الجيش الشّعبي، والقرويّون، كلهُّم يموتون أو يهربون أمامه. إنه شيطانٌ لا يمكن تجنُّبه أو الوصولُ إليه، والحظّ الأوفرُ الذي يمكن أن يلاقيه أولئك الذين يبحثون عنه، هو ألّا يجدوه.

وتابع وهو يجلسُ بلا تكلّفٍ إلى جانب إيتيل التي اقتربت من والدها:

– ربّما تكون الآنسة اللطيفةُ مدهوشة من كلِّ ما أعرفه من أمور تثيرُ الفضول حول هذا الكائنِ الخارق للطبيعة؛ فأنا لم ألتقطْ عن غير قصدٍ هذه الرّوايات الغريبة، ويبدو لي، وأكون سعيداً إذا شاركتْني رأيي مستمعتيّ السّاحرة، أن مغامرات هان يمكن أن تقدّم روايةً لذيذةً من نمط الكتابات العظيمة، كتاب مدموازيل دوسكوديري، من مثل أرتامين أوكليليا، والتي لم أقرأ منها بعد إلّا ستة مجلّدات، ولكنها، في نظري، رائعةٌ فنيةٌ مع ذلك؛ فلا بدّ، على سبيل المثال، أن نلطّفْ مناخنا، وأن نزخرف تقاليدنا، وأن نحوّر أسماءنا الأعجمية؛ وهكذا، فإن درونتهايم التي قد تغدو دورتينيانوم سوف تشهدُ تغيّر غاباتها،

تحت عصاي السّحرية، إلى أحراش للنزهات ترويها ألفُ ساقية صغيرة أكثر شاعريةً بكثير من سيولنا القبيحة. وتخلي كهوفُنا السّوداءُ والعميقةُ المكانَ لمغائر ساحرة، مفروشة بزخارف الحصى المذهّبة، والقواقع اللازورديّة. ففي إحدى هذه المغائر، يمكن أن يسكنَ السّاحرُ الشهير: هانوس دوتوليه... (لأنك ستوافقين على أن اسم هان الإيسلندي لا يشنّفُ الأذن). إنّ هذا العملاق... (أنت تشعرين بأنه قد يكون منافياً للعقل أن يكون بطلُ كتاب كهذا عملاقاً). إن هذا العملاق يتحدّرُ رأساً من الإله مارس... (إن إنغولف الجزّار لا يقدِّم شيئاً للخيال)، ومن السّاحرة تيون... (أفلا ترين أن اسم تواركا قد حوَّر تحويراً موفّقاً؟) التي هي ابنةُ الكاهنةِ الوثنية، كاهنة كوم، وهي هانَوس. وبعد أن تربَّتْ على يدِ المجوسيِّ الأكبر، مجوسّي تولية، ربما تكون قد هربت أخيراً من قصرِ الزّعيم الأكبر، على عربةٍ مربوطةٍ إلى تنّينين... (فلا بدَّ للمرء أن يكون ضحلَ الفكر لكي يحتّفظ بالرّواية الركيكة، رواية جذع الشّجرة) وبما أنه قد وصل إلى تحت سماء دورتينيانوم، وأغراه هذا البلدُ السّاحر؛ فلا بدّ أنه قد جعل منه مكاناً لإقامته ومسرحاً لجرائمه. وقد لا يكونُ أمراً يسيراً أن يصنع المرء صورةً مستحبّةً لأعمال هان اللّصوصية. بل يمكن أن نلطّف فظاعتها بحبٍّ يجري تخيّلُه بمهارة؛ فالراعيةُ ألسيب، وهي تنزّهُ حَملَها في حرشٍ مليء بالآس، وأشجارِ الزّيتون، يلمحها العملاقُ الذي يستسلم فجأة لسلطان عينيها، ولكن ألسيب تحبُّ ليسيداس الوسيم، وهو ضابطٌ في الجيش الشعبي، ويعسكر مع حاميته في ضيعتها الصغيرة. ويغضبُ العملاقُ من سعادة قائد المئة، وقائد المئة من ملاطفات العملاق. أنت تتصّورين، أيتها الآنسة اللّطيفة ما يمكن لمخيلةٍ كهذه أن تشيعه من السّحر في مغامرات هانّوس. وأراهنُ بجزمتي الكراكوفية مقابل

خفٍّ قماشيّ بأن موضوعاً كهذا تعالجه مدموازيل دوسكوديري ربّما يثيرُ شغفَ سيّداتِ كوبنهاغن كلّهن.

انتزعت هذه الكلمةُ شوماكير من أحلامِ يقظته الكئيبة والتي ظلَّ متوارياً فيها أثناء الوقت غير المجدي الّذي أضاعه الملازمُ منذ قليلٍ في عرضِ ظِرفِه الأدبيّ.

فقال فجأة:

– كوبنهاغن؟ أيها السّيدُ الضّابط. ماذا حدث مجدّداً في كوبنهاغن؟

فأجاب الملازم:

– لا شيء في الواقع، على حدّ علمي، اللّهم إلّا الموافقة التي أعطاها الملك للزّواج الهامّ الذي يشغلُ المملكتين في هذه الآونة.

فتابع شوماكير:

– وكيف؟ أيّ زواج؟

إن ظهورَ محدّثٍ رابعٍ قد أوقف الرّد على شفتّي الملازم.

رفع ثلاثتهم عيونهم، وانفرج وجهُ السّجين القاتم. أما سحنةُ الملازم العابثة فقد اتّخذت تعبيراً رصيناً، ودبّت الحياة والفرحُ في وجه إيتيل الشّاحب والمضطرب، خلال المناجاة الطّويلة التي قدّمها الضّابط، فتنهّدت بعمق، وكأن قلبها قد تخفّفَ من عبءٍ لا يحتمل، واندفعت ابتسامتها الحزينة والخفيّة لملاقاة القادم الجديد –إنّه أوردينر.

كان العجوزُ والفتاةُ والضّابط أمام أوردينر في موقفٍ فريد؛ وكان لكلٍّ

منهم سرٌّ مشتركٌ معه؛ لذا، فقد كان متضايقاً من الآخر بصورة متبادلة. إن عودة أوردينر إلى البرج لم تفاجئ شوماكير وإيتيل اللذين كانا ينتظرانه، ولكنها أدهشت الملازمَ بقدر ما فاجأ وجودُ الملازم أوردينر؛ فقد كان يمكن لهذا الأخير أن يخشى أن يفشي الضّابطُ أموراً من ذلك اللّقاء الذي دار بينهما في اليوم الفائت. لو لم يطمئنه الصّمتُ الذي يُمليه التّقليدُ الفروسيّ فلم يكن بإمكانه، والحالة هذه، إلّا أن يدهشَ من رؤيته جالساً بهدوء إلى جانب السّجينين.

لم يكن باستطاعة هذه الشّخصيات الأربع أن تتحادث بشيء وهي مجتمعة. لأنه كان لديها بالتحديد الكثير به متفرّقةً. وهكذا، فإذا ما وضعنا جانباً نظراتِ التفاهم والإحراج، فإن استقبال أوردينر الذي لقيه كان صامتاً تماماً.

انفجر الملازم ضاحكاً، وقال:

– قسماً بذيلِ المعطف الملكي، يا عزيزيَ القادم الجديد، هذا صمتٌ ليس بعيدَ الشّبه عن صمت الأعيان الغاليين، عندما كان الرّوماني برينّوس. . . . لم أعدْ أدري الآن حقاً من كان رومانياً أو غالياً، الأعيانُ أم الجنرال، فهذا غير مهمٌّ! بما أنك هنا، ساعدني على إخبار هذا الشّيخ المحترم بالجديد الذي يحدث. وقد كنت أهمُّ، قبل دخولك المفاجئ إلى المسرح، بأن أحدّثه عن الزّواج الشهير الذي يشغلُ في هذه اللحظة الميدّين والفرس.

فقال أوردينر وشوماكير في الوقت نفسه:

– أيّ زواج؟

فهتف الملازم وهو يصفق يداً بيد:

– بناءً على تفصيلِ ملابسك ، أيها السّيدُ الغريب ، كنت قد حدستُ بأنّك آتٍ من مجتمعٍ مختلف . وهذه مسألةٌ تبدل شكيّ يقيناً . فأنت قد رسوت بالأمس بلاً شكّ على ضفاف النّيدر ، فيعربةِ جنّيات مقطورةٍ إلى غرفينين[1] مجنّحين . لأنه لم يكن بإمكانكَ أن تجوبَ النّرويج دونَ أن تسمعَ حديثاً عن الزّواج الشّهير بين ابنِ نائب الملك ، وابنة المستشار الكبير .

فاستدار شوماكير نحو الملازم وقال:

– ماذا؟ أوردينر غولدينليف يتزّوجُ أولريك دالفيلد؟

فردّ الضّابط:

– كما تقول ، ولسوف يُنجَزُ ذلك قبل أن تنقضي في كوبنهاغن درجةُ الفساتين المنفوخة ، على طريقة ليوبولدين .

لابدّ أن يكون ابن فريدريك قد أصبح تقريباً في الثّانية والعشرين ، لأنني كنت في قلعةِ كوبنهاغن قبل ذلك بسنة ، عندما تناهت إلي شائعةُ ولادته .

وتابع شوماكير بابتسامةٍ مريرة:

– إذ ما تزوّج وهو فتىً ، وفي فترةِ زوالِ الحظوة ، فلن يأخذوا عليه ، على الأقلّ ، بأنّه يطمعُ في قبعة الكادينال .

كان محظيّ الملك العجوز يلمّحُ إلى مصائبه الشّخصية ، والتي لا يدركُها الملازم الذي قال مقهقهاً:

– كلّا ، بالتّأكيد ، فالبارون أوردينر سيتلقّى لقب الكونت ، وقلادةَ الفيل ، وزخارفَ العقيد والتي قلّما تنسجمُ حقاً مع قلنسوةِ الكاردينال .

(١) العزفين: هو كائنٌ خرافيّ نصفُه نسرٌ ، ونصفُه أسد . (م:ز.ع) .

فأجاب شوماكير:

- نعماً حَدَث.

ثم أضاف، بعد لحظةِ توقُّف، وهو يهزّ رأسه، كأنّه قد شهدَ انتقامه أمامه:

- بعد بضعةِ أيام، ربَّما يصنعون له غلَّ طوقٍ نبيل، ويحطّمون على جبينه تاجَ الكونتيّة، ويصفعون وجنتيهِ بزخارفِ العقيد.

فأمسك أوردينر بيد العجوز، وقال:

لمصلحة كراهيّتك، يا سيّدي، لا تلعنْ سعادةَ عدوٍّ قبل أن تعلم إن كانت هذه السّعادة سعادةً بالنسبة إليه.

فقال الملازم:

- حسناً! ولكن ماذا تهمّ بالنسبة للبارون تورفيك لعناتُ رجلٍ عجوز...؟

فهتف أوردينر:

- توقّف، أيها الملازم، إنها تهمُّه أكثر مما تتصوَّر... فربّما -

وتابع بعد لحظةٍ من الصّمت:

- وزواجك الشّهير أقلُ تأكيداً ممّا تظنّ.

فسارع الملازم إلى الرّد وهو يحييّ تحيّةً تهكميّة:

– فليكن حسب ما تتمنّى[1]. الحقّ أن الملك، ونائبَ الملك، والمستشارَ الكبير قد رتّبوا كلَّ شيء من أجل هذا القران: إنّهم يرغبون فيه، ويريدونه، ولكن بما أنّه لا يروق للسيّد الأجنبي، ما أهميّةَ المستشارِ الكبير، ونائبِ الملك، والملك.

فقال أوردينر بلهجةٍ جادّة:

– أنت على حقٍ ربّما.

– أوه! في الحقيقة.

وانقلبَ الملازم على ظهره، وهو يقهقه:

– إن هذا مفرطُ الطّرافة. أودُّ مقابلَ الكثير أن يكون البارون تورفيك هنا لكي يسمع عرّافاً كثيرَ الاطّلاع على أمورِ هذا العالم ليقرِّر مصيرهَ. أيها النّبي العالمُ، صدّقني أنه ليس لديك لحيةٌ تكفي لكي تكون ساحراً جيّداً.

فأجاب أوردينر ببرود:

– أيها السّيد الملازم، لا أظنّ أن أوردينر غولدينليف يتزوّجُ امرأةً من غير أن يحبَّها.

– إيه! إيه! هذا هو كتابُ الأقوال المأثورة، ومن قال لك، أيّها السّيد ذو المعطف الأخضر أن البارون لا يحبُّ أولريك دالفيلد؟

– وأنت، من فضلك، من قال لك بدورك إنّه يحبُّها؟

---

(١) باللاتينية، في النّص.

هنا، أنجرّ الملازم، كما يحدثُ غالباً عند احتدام الحديث إلى تأكيدِ واقعةٍ ليس متأكّداً منها.

– من يقولُ لي إنه يحبُّها؟ إن السؤالَ ممتعٌ! وأنا مستاءٌ من أجل عرافتك؛ غير أن كلَّ النّاس يعلمون أن هذا الزوّاج ليست زواجَ حبٍّ أقّل مما هو زواجُ منفعة.

فقال أوردينر بلهجةٍ جادّة:

– باستثنائي أنا، على الأقلّ.

– باستثنائك أنت، فليكنْ! ولكن ما أهميّةُ هذا! أنت لن تمنعَ ابنَ نائبِ الملك من أن يكون مغرماً بابنةِ نائب الملك.

– مغرم!

– مغرم بجنون!

– لابدَّ، في الحقيقة، أن يكون مجنوناً لكي يكون مغرماً بها.

– مهلاً! لا تنسَ عمن تتكلّم ومع من. ألا يُقالُ أن ابن الكونت، نائب الملك، لا يمكنه أن يغرم بسيّدةٍ من غير أن يستشيرَ هذا الفظّ.

كان الملازمُ قد نهض، وهو يتكلّم على هذا النّحو. أمَّا إيتيل التي رأت نظرةَ أوردينر تضطرمُ غضباً، فقد هرعت إليه، وقالت:

– أوه! تكرُّماً، هدّئ نفسك، ولا تُصغ إلى هذه الإهانات، فبمَ يهمُّنا أن يكون ابنُ نائب الملك يحبُّ ابنةَ المستشار، أم لا؟

هدَّأت تلك اليد الرّقيقة التي وُضعت على قلبِ الشّاب، ثورتَه، فحطّت نظرتُه المسحورةُ على فتاته إيتيل، ولم يسمع الملازم الذي، ما إن استعاد مرحه، حتّى هتف:

– إن السّيدة تؤدّي بلطافة متناهية دورَ السّيدات السّابينيّات، بين والديهن وأزواجهن. وتابع وهو يتوجّه إلى أوردينر:

– لقد كانت كلماتي غير موزونة تماماً، وكدتُ أنسى أن رابطةَ أخّوةٍ موجودةً فيما بيننا، وأنه لا يمكنُ لأحدٍ منّا أن يستّفز الآخر –أيها الفارسُ، أعطني يدك، ولنتّفقْ؛ فأنت قد نسيت أيضّاً أنك كنت تتكلّمُ عن ابنِ نائب الملك مع حميِّه المقبل، الملازم دالفيلد.

عندما سمع شوماكير هذا الاسم، وكان حتى تلك اللحظة، يلاحظ كلَّ شيء بعدمِ اكتراث، أو بنفاذِ صبر، اندفع من مقعده الحجري، وهو يطلقُ صرخةً رهيبة:

– دالفيلد! واحدٌ من آل دالفيلد أمامي! أيّها الثعّبان! كيف لم أتعرّف في الابن أباه المقيت! دعني مستريحاً في هذه الزّنزانة. إنهم لم يحكموا عليّ برؤيتك عقاباً لي.

لم يعد ينقصني، كما كان يجرؤ على أن يتمنى ذلك للتو، إلا أن أرى ابن غولدينليف إلى جانب ابن دالفيلد... أيّها الخونة! أيّها الأنذال! لماذا يأتون بأنفسهم ليستمتعوا بدموع جنوني وغضبي! أيتها السّلالة! أيتها السّلالة المقيتة! يا ابن دالفيلد، دعني!

أمّا الضّابط الذي أذهله في البداية عنفُ هذه اللّعنات ، فقد استعاد حالاً غضبه ، وكلامه:

– صمتاً ، أيّها العجوزُ الفاقدُ الرّشد! هل ستنتهي من ترديدِ لازماتك الشّيطانية؟

– دعْ ، دعني ، واحملِ لعنتك ، لك ولسلالة غولدينليف الحقيرة والتي ستقترن بسلالتك فهتف الضّابطُ محنقاً:

– تبّاً! إنك تهينُني إهانةً مضاعفة...!

فأوقف أوردينر الملازم الذي خرج عن طوره.

– احترمْ في شخصِ عدوِّك رجلاً عجوزاً ، أيها الملازم؛ فلدينا تسوياتٌ من قبل لابّد من تأديتها. وأنا أتحمّل مسؤوليةَ إهاناتِ هذا الرّجل التّعس الحظ.

فقال الملازم:

فليكنْ! إنك تحملُ ديناً مضاعفاً ، وستكون المعركةُ حتى النّهاية ، لأنه سيكون عليّ أن أثارُ لصهري ولنفسي؛ فلتتصوّرْ أنك تلتقط مع قفازي قفاز أوردينر غولدينليف.

فأجاب أوردينر:

– أيها الملازم ، دالفيلد ، إنك تتحزّب للغائبين بحرارة تدلُّ على المروءة. أفليس في هذه المروءة ما يجعلك ترأفُ بعجوزٍ عاثرِ الحظّ تعطيه الضرّاء بعضَ الحقَ في أن يكون متعسّفاً؟

كان دالفيلد من تلك النفوس التي نوقظَ فيها الفضيلةَ بالمديح؛ فصافحَ أوردينر واقتربَ من شوماكير الذي قد هوى على الصّخرة بين يدي إيتيل المحزونة، وقد أرهقه تصّرفه نفسهُ، وقال الضّابط:

– يا سيّدي شوماكير، لقد أسأتَ استخدام شيخوختك، وربّما كنت أهمُّ بإساءة استخدامِ فتوّتي. لو لم تجدْ مدافعاً عنك. كنتُ قد دخلتُ هذا الصّباح للمرّة الأخيرةَ إلى سجنك، وكان ذلك لكي أقول لك إنك تستطيعُ منذ الآن أن تبقى طليقاً، ومن غير حرّاسٍ في البرج، فقال السّجين العجوز بصوتٍ مكتوم:

– انسحبْ من هنا.

انحنى الضّابط، وامتثل، وهو راضٍ ضمنياً لأنه حصل على تأييدٍ لتصُّرفه من خلال نظرةِ أوردينر.

مكث شوماكير بعضَ الوقت مكتوفَ اليدين، محنّي الرأس، غارقاً في تفكيره، وفجأةً، رفع نظرته نحو أوردينر الذي كان يقفُ بصمتٍ أمامه، وقال:

– حسناً!

– يا سيّدي الكونت، لقد مات ديسبولسن مقتولاً.

فهبط رأسُ العجوز ثانيةً على صدره، وتابع أوردينر:

– إن قاتله هو لصٌّ شهير. هو هان الإيسلندي.

فقال شوماكير:

- هان الإيسلندي!

فتابع أوردينر:

- لقد قام بسلبِ النقيب.

وقال العجوز:

- وهكذا، فأنت لم تسمع قطّ حديثاً عن علبةٍ صغيرةٍ معدنية، مختومةٍ بشعاراتِ غريفنفلد؟

- كلّا، يا سيّدي.

فترك شوماكير جبهته تسقطُ بين يديه.

- سوف أجلبُها لك، يا سيّدي الكونت، فثقْ بي. لقد ارتُكبتْ الجريمةُ البارحة صباحاً، وهرب هان نحو الشّمال، ولديَّ مرشدٌ يعرفُ أماكن اختبائه؛ فَغالباً ما جبتُ مرتفعاتِ درونتهايموس، ولسوف أصلُ إلى اللّص.

شحب وجه إيتيل، ونهض شوماكير، وكان في نظرته شيءٌ يشعُّ بالفرح، وكأنه لا يزال يدركُ وجودَ الفضيلة بين البشر.

فقال وهو يرفعُ إحدى يديه نحو السّماء:

- أيها النّبيل أوردينر، وداعاً.

واختفى خلف أشواك الغابة.

حين استدار أوردينر رأى على الصّخرة التي صقلها الزّبدُ إيتيل التي شحبَ وجهُها مثل تمثال من المرمر على قاعدةٍ سوداء.

فقال، وهو يهرعُ إليها، ويسنُدها بساعديه:

- أيها الإلهُ العادل! يا حبيبتي إيتيل، ماذا بك؟

فأجابت الفتاةُ المرتجفةُ بصوتٍ لا يكادُ يكون مسموعاً:

- أوه! إن كان عندكَ، ليس الحبّ، بل شيءٌ من الرأفة، يا سيدي، وإن لم تكن تتكلّم معي بالأمس لكي تخدعني خداعاً تاماً. وإن لم تكن قد تكرّمت لتأتي إلى هذا السجن لكي تسبّب موتي، يا سيّدي أوردينر، يا حبيبي أوردينر. فلتتخلّ، وحقُ الملائكة، لتتخلَّ عن مشروعك الجنونيّ!

وتابعت ودموعُها تنسكبُ بغزارةٍ من عينيها، ورأسُها مائلٌ على صدر الشابّ:

- يا أوردينر، يا حبيبي أوردينر. قدّم لي هذه التضحية. ولا تلاحقْ هذا اللّص، هذا الشيطانُ الفظيع الذي تريدُ قتاله. فما هي مصلحتُك في المضيّ في ذلك الأمر، يا أوردينر؟

قلْ لي؟ أيةُ مصلحةٍ يمكن أن تكون أثمنَ من مصلحةِ سيئةِ الحظّ التي كنت تسمّيها بالأمس زوجتك المحبوبة...؟

وتوقّفت، والعبرات تخنُقها. وكانت ذراعاها معلقتين بيديها المضمومتين إلى عنقِ أوردينر الذي كانت تحدّق بعينيها المتوسّلتين بعينيه:

– يا معبودتي إيتيل . إنك مخطئةٌ في قلقك؛ فالرّبُّ يساندُ المقاصد الحسنة ، والمصلحةُ التي أعرضُ نفسي للخطر من أجلها ليست شيئاً آخر سوى مصلحتك . إن تلك العلبةَ الحديدية تحتوي...

فقاطعته إيتيل قائلة:

– مصلحتي! هل لي مصلحة أخرى غير حياتك؟ فإذا متَّ ، يا أوردينر؛ فماذا تريدُ أن يحدثَ لي؟

– ولماذا تتصوّرين بأنّي سأموت ، يا إيتيل...؟

– آه! أنت! لا تعرفُ إذن هان هذا ،

هذا اللّص الجهنّمي؟ هل تدري إلى أيّ مسخ أنتَ تجري؟ هل تدري أنّه يسيطرُ على كلِّ قوى الظّلام ، وأنه يقلبُ الجبالَ على المدن؟ وأن خطوته تجعلَ الكهوفَ الواقعةَ تحت الأرض تتداعى؟ وأن نَفَسه يُطفئ المنارات على الصّخور؟ وهل تظنّ ، يا أوردينر أنك يمكن أن تقاوم هذا العملاق الذي يساعدهُ الشيطانُ بساعديك الأبيضين ، وسيفك السَريع العطب؟

– وصلواتك ، يا إيتيل . والتفكيرُ بأنني أحاربُ لأجلك! كوني متأكّدة ، يا إيتيل ، يا حبيبتي بأنه قد جرت المبالغةُ كثيراً بقوّةِ هذا اللّص المتسكّعِ وسطوتِه . إنّه إنسانٌ مثلنا ، وهو يميتُ الآخرين إلى أن يتجرَّع الموت .

– أنت لا تريدُ إذن أن تصغي إليّ ، وكلماتي لا تساوي شيئاً بالنسبة إليك؟ فقلْ لي ، ماذا تريدُ أن يحدث لي ، إذا ذهبتَ ، وإذا كنت ستنتقلُ من

خطرٍ إلى خطر، وتعرِّض أيامَك التي هي لي للخطر، وتسلمها إلى مسخ، وذلك من أجلِ مصلحةٍ لا أدري ما هي على هذه الأرض...؟

وهنا، خطرت من جديدٍ في ذهن إيتيل حكاياتُ الملازم، وتضخّمت بمحبّتها كلِّها، وبذعرها كلِّه، فتابعت بصوتٍ تقطعُه العبرات:

- أؤكدّ لك، يا حبيبي أوردينر، أن أولئك الذين قالوا لك إنّه ليس أكثر من رجلٍ قد خدعوك، وعليك أن تصدقني أكثر مما تصّدقهم، يا أوردينر، وأنت تعلم أنني لا أبتغي أن أخدعك. وقد جرت ألفُ محاولةٍ لقتاله، فدمّر كتائبَ كاملة -وأريدُ فقط أن يقولَ لك ذلك آخرون، فتصّدقُهم ولا تذهب.

كان يمكن بلا شكّ لرجاءاتِ المسكينة إيتيل أن تهزّ عزمَ أوردينر المغامر، لو لم يكن قد تقدَّم في عزمه هذا إلى حدّ كبير. فرجعتُ الكلماتُ التي أفلتت في اليوم السّابق من شوماكير، في يأسه، إلى ذاكرةِ أوردينر، فرسّخته في عزمه، فقال:

- يمكنني، يا عزيزتي إيتيل أن أقول لك إنني لن أذهب، ولن أنفِّذ مشروعي كذلك، غير أني لن أخدعك أبداً. حتى وإن كان ذلك لطمأنتك، فلا يتعيّن عليّ وأنا أكرّر ذلك، أن أترجَح بين دموعك ومصالحك؛ فالأمر يتعلقُ بمصيرك، وبسعادتك، وبحياتك ربّما، بحياتك، يا حبيبتي إيتيل... وكان يضمُّها برقةٍ بين ذراعيه، فسارعت إلي القول بصوتٍ باك:

- يا صديقي أوردينر، ماذا يفيدُني كلُّ هذا. أما فرحي كلُّه، فلا تبيّن لي تعاسةً فظيعةً وأكيدة على أنها مشقاتٌ خفيفة وغيرُ مؤكدة، فما فائدةُ مصيري وحياتي...؟

– إن الأمر يتعلّق ، يا إيتيل ، بحياةِ والدك أيضا .

فتملّصت من بين ذراعيه ، وردّدت بصوتٍ خفيض ، والشحوبُ يعلو وجهها:

– أجل يا إيتيل ، هذا اللّصُّ المتسكّعُ الذي يساندهُ بلا شكّ أعداء الكونت غريفيفلد يمتلكُ أوراقاً تهدِّد حياة والدك التي أصبح يمقتها ، وأريد أن أستعيد هذه الأوراق مع حياته .

مكثت إيتيل لبضع لحظاتٍ شاحبةٍ وصامتة ، وكانت دموعُها قد نضبت ، وصدرُها المنتفخ يتنفّس بصعوبة ، وهي تنظر إلى الأرض بعينٍ كامدةٍ وغير مكترثة ، بتلك العين التي ينظرُ بها المحكوم بالإعدام في اللحظةِ التي ترتفعُ فيها البلطة ، خلفه ، فوق رأسه .

فهمست:

– حياة والدي!

ثم أدارت ببطء عينيها نحو أوردينر ، وقالت:

– إن ما تفعله لا فائدة منه ، ولكن افعلْه .

فجذبها أوردينر إلى صدره .

– أوه! أيتها الفتاة النبيلة ، دعي قلبك يدقُّ على قلبي . أيّتها الصّديقةُ النبيلة! فلسوف أعود بعد قليل . هيا ، سوف تكونين لي ، وأريدُ أن أكون منقذَ والدك ، لكي استحقّ أن أكون ابناً له ، يا إيتيل ، يا محبوبتي إيتيل...!

من يمكنهُ أن يقول لنا ماذا يحدث في قلبٍ نبيلٍ يحسُّ بأن قلباً آخر يفهمه؟ وإذا كان الحبُّ يجمعُ بين روحين كهاتين الرّوحين برباطٍ لا ينفصم. من يمكنه أن يصوّر تلك المباهج التي لا يمكنُ التعبير عنها. يبدو حينئذٍ ومن خلال الالتقاء للحظةٍ قصيرة، أن هناك شعوراً بكلّ سعادةِ الحياة، وكلّ مجدها، والتي يجمّلها سحرُ التضّحيات النبيلة.

- أوه، يا عزيزي أوردينر. اذهبْ، وإذا لم ترجعْ، فإن الألمَ من غير أملٍ يقتلُ، ولسوف تكون هذه هي مواساتي البطيئة.

نهضا كلاهما، ووضع أوردينر فوق ذراعه. ذراعَ إيتيل، ووضع في يده تلك اليدَ المعشوقة، واجتازا بصمتٍ الممرات المتعرّجة للحديقة المعتمة، ووصلا على مضضٍ إلى باب البرج الذي يُستخدم كمخرج، وهناك سحبت إيتيل من صدرها مقصّاً صغيراً ذهبياً، وقطعت خصلة من شعرها الجميل الأسود[1].

- تقبّل هذه الخصلة. يا أوردينر، ولترافقْك، ولتكنْ سعيدةً أكثرَ مني.

ضمّ أوردير إلى شفتيه بورع تلك الهديّة، هديّة المحبوبة.

فتابعت قائلة:

---

(١) «أرسل إليك خصلةً من شعر زوجتك، لظنّي أن ذلك سوف يسُرك» (من أديل فوشيه إلى فيكتور هيغو). «إنها قطعةٌ منك وهي التي أمتلكها من قبل» (فيكتور إلى أديل في ٢٩ أيار ١٨٢١) ولسوف يكون ردُّ فعل فيكتور عنيفاً على التدّنيس الذي يقومُ به شقيقه أوجين، في تشرين الثاني التالي، للذّخيرة الثمينة: «إن ضوءاً قبيحاً قد ألقي على طبيعة كائن كان يمكن لي، في اليوم السّابق أن أكون مخلصاً له... وحتى ذلك الوقت، كنت قد غفرتُ له كلّ شيء، فلم أكن أرى في رغبته الخسيسة، وفي خبثه النّذل غير الغرابةِ المزعجة لطبيعة سوداويّة.». (٣٠ تشرين الثاني ١٨٢١) وحول أوجين هيغو، انظر، في آخر الكتاب، الملحق رقم (١).

– يا أوردينر ، فكّر بي ، ولسوف أصلّي من أجلك ، فربّما تكون صلاتي مؤثّرةً عند الرّبّ ، مثل أسلحتك أمام الشيطان .

انحنى أوردينر أمام ذلك الملاك ، وكانت روحُه شديدةُ التأثّر بحيث لم يكن بإمكان فمه أن يتكلّم ، ومكثا بعض الوقت هكذا ، وقلبُ كلٍّ منهما على قلبِ الآخر . وفي اللّحظة التي كان عليه أن يتركها ربّما إلى الأبد ، كان أوردينر يستمتعُ ، وهو في نشوةٍ كئيبة بسعادةٍ أن يُمسك مرّة أخرى أيضاً بحبيبته إيتيل بكليّتها بين ذراعيه . وأخيراً ، فما إن طبع قبلةً عفيفةً وطويلةً على جبين الفتاة الرّقيقة الأكمد ، حتى اندفع بقوةٍ تحت القبّة المعتمةِ للدّرج الحلزوني ، والذي حمل إليه بعد لحظةٍ من الزّمن الكلمةَ الشّديدة الكآبة والشّديدة الرّقة: وداعاً...!

الفصل العاشر

قد لا تظنُّ أنها تعسة ، فكلُّ ما يحيط بها
يدلُّ على السّعادة؛ إنها تلبسُ قلائد ذهبيّة
وفساتينَ أرجوانية ، وحين تخرجُ ، تسجدُ
جمهرةُ تابعيها عند مرورها ، ويبسطُ غلمانٌ مطيعون
السّجاجيدَ تحت قدميها ، غير أنّها لا تُرى البتّة
في عزلتها العزيزة عليها . لأنها تبكي حينذاك ، وزوجُها
لا يسمعُها... أنا تلك التّعسة ، زوجة الرّجل
المحترم ، والكونت النبيل ، وأمّ طفلٍ تطعنُني ابتسامتُه .

لو./. ماتوران: برترام
(الموقّر)

أنت تعلم ذلك؛ فقلبُ الأم
معينٌ لا ينضبُ من الألم

ألكس سوميه.

ما كادت الكونتيسةُ دالفيلد تفرغُ من أرق اللّيل، حتى دخلت أرَقَ النّهار. كانت تتفكّرُ، وهي مضطجعةٌ جزئياً على أريكة، بالذّكريات المريرة للملذّات الدّنسة، وبالجريمة التي تستهلكُ الحياةَ بمسّراتٍ لا سعـادةَ فـيها، وبالآلام التي لا عزاءَ لها. كان تفكر بذلك الرّجل موسديمون الذي كانت أوهامٌ آثمةٌ قد صوّرته لها شديدَ الجاذبية، فيما مضى والذي يبدو كريهاً، الآن وقد نفذت إلى روحه من خلال جسده ورأتها. كانت التّعسة تبكي، ليس لأنها قد خُدعت، بل لأنه لم يعدْ باستطاعتها أن تُخدَع، تبكي حسرةً وليس توبةً: وهكذا، فإن دموعها لم تعدْ تواسيها؛ فانفتح بابُها في تلك اللحظة، فمسحت عينيها على عجل، واستدارت مُغضبةً بسبب المفاجأة، لأنها كانت قد أُمرت بأن تُترك وحدها. لقد تحوّل غضبُها لمرأى موسديمون إلى ذعرٍ هدّأت من شدّته مع ذلك، حين رأته بصحبة ابنها فريدريك.

هتف الملازم:

– كيف حدث إذن أنّك هنا، يا والدتي؟ كنت أظنُّ أنّك في بيرغن؛ فهل رجعتْ سيداتُنا الجميلات إلى دُرْجَةِ الطّوافِ في الحقول؟

استقبلت الكونتيسّة فريدريك بعناقاتٍ ردَّ عليها ببرودٍ واضح، شأن كلِّ الأبناء المدلّلين. وكان ذلك هو أكثر ضروبِ العقاب إثارةً لإحساس تلك المرأة المنكودة؛ فقد كان فريدريك هو ابنّها الحبيب، والكائنَ الوحيدَ الذي كانت تحتفظ له بمحبّة. لأنه غالباً ما يبقى شيء من الأمّ في المرأة التي ينحطُّ شأنها، وحتى عندما تكون الزّوجةُ قد غابت في شخصها.

– أرى، يا بنيّ، أنك قد هرعت حالاً لرؤيتي، حين علمتَ بوجودي في درونتهايم.

- كلّا ، وحقّ الربّ! فقد أصابني الضّجرُ في القلعة ، فأتيت إلى المدينة التي التقيت فيها موسديمون الذي قادني إلى هنا .

فتنهدّت المرأةُ المسكينة بعمق:

وتابع فريدريك يقول:

- بالمناسبة ، يا أميّ ، أنا مسرورٌ جدّاً لرؤيتك ، ولسوف تقولين لي إن كانت عُقَدُ الشّريط الورديّ في أسفل الدّثار المخصّر لا زالت «دُرْجةً سائدة» في كوبنهاغن . فهل خطر لكِ أن تجلبي لي قارورةً من ذلك الزّيت ، زيت الجوفانس الذي يبيّضُ الجلد؟ وأنتِ ، لم تنسي الروّايةَ الأخيرةَ المترجمة ، أليس كذلك؟ ولا الشرائطَ الذهبيّةَ الصّرفة التي طلبتها منك ، لأجل سترةِ الفروسية النّارية اللّون ، ولا تلك الأمشاط التي يضعونها اليوم على تجعيداتِ الشّعر لكي تسند الخصلات .

لم تكن الكونتيسّة التّعسة قد جلبت شيئاً لابنها سوى الحبِّ الوحيد الذي تمتلكه في هذا العالم .

- يا ولدي العزيز ، لو كنتُ مريضة ، وقد منعتني آلامي من أن أفكّر بمسّراتك .

- كنتِ مريضةً ، يا والدتي؟ حسناً! والآن هل تشعرين بالتحسُّن...؟ وبالمناسبة ، كَيف حالُ رهطُ كلابي النورماندية؟ أراهنُ أنه قد جرى إهمالٌ في غسلِ قردتي كلَّ مساءٍ بماء الورد ، ولسوف ترين أني سأجدُ ببغائي الذي أتى من بلباو ميتاً عند عودتي... فحين أكون غائباً ، لا يهتّم أحدٌ بحيواناتي .

فقالت الوالدةُ بصوت متغيّر:

– إن والدتك، على الأقّل، تفكرّ بك، يا بنّي.

ربما كانت تلك هي السّاعةَ التي لا رحمةَ فيها، والتي يُلقي الملاكُ المدمِّر فيها بالنفوسِ الخاطئة في القصاص الأبديّ، والتي يرأفُ فيها بالالآم التي يرزح تحتها في تلك اللحظة، قلبُ الكونتيسة العاثرة الحظّ – أما موسديمون فقد كان يضحكُ في إحدى زوايا الشقّة.

فقال:

– أيّها السّيد فريدريك، أرى أن السّيفَ الفولاذيّ لا يُريدُ أن يصدأ في الغمدِ الحديدي، وأنت لا تهتم بأن تفقد في أبراج مونكولم التّقاليدَ السّليمة، تقاليد صالونات كوبنهاغن. ولكن، تكرّم بأن تقول لي ما فائدةُ هذا الزيت، زيت الفتوّة (جوفانس)، وتلك الشرائط الورديَّة، وتلك الأمشاط الصّغيرة. ما فائدةُ تحضيراتِ الحصارِ هذه، إذا كانت القلعةُ النسّائية الوحيدة التي تحبُسها مونكولم منيعة؟

فأجاب فريدريك ضاحكاً:

– الحقيقة أنها كذلك. ومن المؤكّد أنني قد أخفقت؛ فالجنرال شاك يمكن أن يفشَلَ في ذلك. ولكن، كيف يباغتُ المرءُ قلعةً لا شيءَ فيها مكشوف، وكلُّ شيء فيها تحت الحراسة بلا انقطاع؟ ماذا يصنعُ بوشاحاتِ الرّاهبات التي لا تتركُ شيئاً يظهر منها غير العنق، والأكمام التي تخفي السّاعد بكامله، بحيث لا يكون هناك شيّ غير الوجه واليدين ليثبت أن الآنسة الشابّة ليست سوداء مثل امبراطور

موريتانيا؟ يا عزيزي المربّي، قد يتحوَّل المرءُ إلى تلميذ مبتدئ. ولتصدّقني بأن القلعة لا يمكن الاستيلاء عليها، حين يعسكرُ فيها الحياءُ والحشمةُ.

فقال موسديمون:

– حقاً! ولكن ألا يمكن أن يُرغَم الحياءُ على الاستسلام، إذا ما هاجمه الحبُّ، بدلاً من الاكتفاء بحصار الاهتمامات الصغيرة؟

– إنه جهدٌ ضائعٌ يا عزيزي، فقد تسلّل الحبُّ إلى السّاحة فعلاً، غير أنه يُستخدمُ فيها كتعزيزٍ للحشمة.

– آه! أيها السّيد فريدريك، هذا جديد، فمن خلال الحبِّ الذي يحملونه لك...

– ومن يقول لك، يا موسديمون، إنه يُحمَلُ لي...؟

فهتف في آنٍ واحد موسديمون والكونتيسّة التي كان حتى ذلك الوقت تصغي بصمت، والّتي أخذ كلامُ الملازم يذكّرها بأوردينر.

كان فريدريك يهتمُّ بالجواب، وقد هيأ مسبقاً قصّةً مثيرة عن ذلك اللّقاءِ الليليّ الذي حدث في اليوم السّابق، حين خطر في ذهنه الصَّمتُ الذي يفرضُه قانونُ الفروسيّة؛ فتبدّل فرحُه إحراجاً، وقال:

– الحقيقةُ أني لا أعرفُ لمن هذا الحبّ... ولكنّ... رجلاً فظاً ما... وربّما... تابعاً ما...

فقال موسديمون مقهقهاً:

– لجنديٍّ من الحامية؟

فهتفت الكونتيسّة من جهتها:

– ماذا ، يا بني ، أنت متأكدٌ من أنّها تحبُّ فلاحّاً ، تابعاً...؟ يالها من سعادة ، إذا كنتَ متأكدّاً من ذلك!

فقال الملازم بلهجةٍ مُستثارة:

– إيه! بلا شكّ ، إني متأكدٌ من هذا . إنه ليس جنديّاً من الحامية ، غير أني متأكدٌ إلى حدّ كاف مما أقوله ، يا والدتي ، لكي أرجوك أن تقصّري منفاي الذي لا فائدة منه في هذا القصر اللّعين .

كان وجهُ الكونتيسّة قد صفا ، عندما علمت بسقوط الفتاة ، وخطر في ذهنها حينئذ تعجُّلُ أوردينر غولدينليف في الذهاب إلى مونكولم تحت ستاراتٍ مختلفة تماماً الاختلاف ، وجعلت منه انتصاراً لابنها .

– سوف تعطينا ، يا فريدريك بعد قليل تفاصيلَ عن غراميات إيتيل شوماكير . إنها لا تدهشني؛ فابنةُ الفظّ لا يمكن أن تحبّ إلّا فظاً . وبالانتظار ، لا تلعنْ هذا القصر الذي شرفّك البارحة بأن ترى شخصيةً معينة تقوم بالخطواتِ الأولى للتعّرف إليك .

فقال الملازمُ وهو يفتح عينيه:

– وكيف ، يا والدتي؟... أية شخصية؟

– دعْ المزاح ، يا بنيّ . ألم يزرْك البارحة أحد . أنت ترى أني مطّلعة على الأمر .

– الحقيقة أنك مطلّعة أكثر مني، يا والدتي. لم أر البارحة وجهاً آخر غير الأقنعة السّاخرة الموضوعة تحت أفاريز هذه الأبراج القديمة.

– كيف، يا فريدريك، لم ترَ أحداً؟

– لا أحد، يا والدتي، في الحقيقة!

حين استبعد فريدريك خصمه الذي كان في البرج، كان يمتثلَ لقاعدةِ الصّمت. زدْ على ذلك، هل يمكن لذلك القرويّ أن يُعدَّ أحداً ما.

فقالت الأم:

– ماذا؟ ألم يذهبْ ابنُ نائبِ الملك مساءً إلى مونكولم؟

فقهقه الملازم:

– ابنُ نائبِ الملك، في الحقيقة، يا أميّ، أنك تحلُمين أو تسخرين.

– لا هذا ولا ذاك، يا بنيّ، فمن الذي كان في الحراسة بالأمس؟

– أنا بالذّات يا أمي.

– ولم ترَ البارون أوردينر قطّ؟

فردّد الملازم:

– كلّا.

– ولكن تصوَّرْ، يا بنيّ، أنه قد تمكّن من الدّخول سرّاً، فأنت لم تكن قد

رأيتَه قطّ من قبل، فقد نشأتَ في كوبنهاغن، فيما نشأ هو في درونتهايم: وفكّر بما يقولونه عن نزواته، وعن شرود أفكاره.

فهل أنت متأكدٌ، يا بنيّ، أنك لم ترَ أحداً؟

فتردّد فريدريك للحظةٍ، وقال:

- كلّا، لا أحد. ولا يمكنني أن أقولَ خلافَ ذلك.

فسارعت الكونتيسّة إلى القول:

- في هذه الحالة، لا شكّ في أنّ البارون لم يذهب إلى مونكولم؟

أما موسديمون الذي اعترته الدهشةُ، في البداية، فكان قد أصغى بانتباهٍ إلى كلّ شيء، فقاطع الكونتيسّة قائلاً:

- أيتها السّيدة النبيلة، اسمحي لي... يا سيّد فريدريك، تكرَّم بأن تقول لي اسم التّابع الذي تحبّه ابنة شوماكير؟

وكـرّر سؤالـه، لأن فريدريك الذي أصبح متفكّراً منذ لحظاتٍ لـم يسمعه.

- أجهلُ ذلك... أو على الأصحّ... أجل، أنا أجهل ذلك.

- وكيف، يا سيدي، تعلم أنها تحبُّ تابعاً؟

- هل قلتُ ذلك؟ تابعاً؟ حسناً! أجل، تابعاً...

أخذ إحراجُ موقفِ الملازم يتزايدُ؛ فهذا الاستجوابُ، والأفكار التي جعلها

تتولّد لديه، والتزام السّكوت، كانت تضعُه في حالة اضطراب كان يخشى ألّا يعود بإمكانه السّيطرة عليها...

– الواقع، يا سيد موسديمون. وأنتِ، يا سيّدتي النبيلة أنه إذا كان هوسُ الاستجواب يساير الدُّرْجة: فتسلّيا بأن يستجوبَ كلٌّ منكما الآخر. أما أنا، فلم يعدْ لدي شيء أقوله لكما.

ما إن فَتَح الباب فجأةً، حتى توارى، تاركاً إياهما غارقين في هوّةٍ من التكهّنات. ونزل إلى الباحة مسرعاً، لأنه كان يسمعُ صوتَ موسديمون الذي يناديه.

امتطى الجواد، وتوجّه نحو المرفأ الذي كان يودّ أن يبحر منه إلى مونكولم، وفي ظنّه أنه ربما يجدُ فيها الغريب الذي أغرق في التفكيرِ العميق أحدَ الأدمغة الأكثر طيشاً في إحدى العواصم الأكثر تفاهة.

كان يقول في نفسه:

– إن كان ذلك هو أوردينر غولدينليف، تكون شقيقتي أولريك المسكينة... ولكن لا؛ فمن غير الممكن أن يكون المرءُ على درجةٍ من الجنون بحيث يؤثِرُ الابنةَ المعوزة لسجينٍ من سجناء الدّولة على الفتاة الثريّة لوزيرٍ كلّيّ القدرة. وعلى أيةِ حال، فإنّ ابنة شوماكير يمكن ألا تكون أكثر من نزوةٍ عابرة. ولا شيء يمنع، حين يكون للرّجل امرأة، من أن يتّخذ له عشيقة في الوقت نفسه. وحتى أن ذلك يتّفق مع الذّوق الحسن – ولكن لا، فهو ليس أوردينر. إن ابنَ نائب الملك لا يرتدي دثاراً مخضَّراً ومهترئاً. وتلك الرّيشة السّوداء العتيقة التي لا حلقة فيها، والتي تصطفقُ في الهواء والمطر! والمعطف

الواسع الذي يمكن للمرء أن يصنع منه خيمة! وشعرُه المشعّثُ الذي لا أمشاط فيه، ولا تجعيد! وجزمته ذات المهمازين الحديديين، والملوَّثين بالطّين والغبار!

حقاً، لا يمكن أن يكون هو. إن البارون دوتورفيك هو فارس دانّبروغ. وهذا الغريب لا يحمل أيَّ وسامٍ تشريفيّ؛ فلو كنت فارسَ دانبروغ، لنمتُ مع قلادة الوسام، كما يبدو لي. آوه!

كلّا! إنه لا يعرفُ حتى رواية كليليا. كلّا، إنه ليس ابنَ نائب الملك.

الفصل الحادي عشر

لو كان بإمكانِ الإنسان أن يبقى محتفظاً بحرارةِ
الروّح ، حتى تنيرها التجربة ، لو كان يتلقى الزّمن
من غير أن ينحني تحت وطأته ، لما حقّر أبداً الفضائل
الممجّدة والتي تُعتَبر أوَّلُ نصيحةٍ منها هي التّضحيةُ بالنفس .

البارونة دوستال[1]: في ألمانيا

– حسناً! ما هذا؟ هذا أنت يا بوال! من الذي جعلك تصعد؟

– أنت تنسى يا صاحب المعالي أنك قد أمرتني بذلك توّاً .

فقال الجنرال:

– أجل؟... آه! كان ذلك لكي تعطيني هذه الخريطة .

سلّم بوال الجنرالَ الخريطةَ التي كان يمكنه أن يأخذها بنفسه ، لو مدَّ ذراعه

(١) في عام ١٨٣٣ ، أصبحت «البارونة دوستال» ، مدام دوستال .

قليلاً. وأعاد صاحبُ المعالي الخريطةَ بصورةٍ آليّةٍ إلى مكانها من غير أن يفتحها، ثم تصفّح بعضَ الأوراق وهو شارد.

– يا بوال، كنت أريد أن أسألك أيضاً... كم السّاعة؟

فردّ الخادم على الجنرال الذي كانت ساعةُ الجدار تحت نظره.

– السّادسة صباحاً، يا سيّدي

– كنتُ أريد أن أقول لك، يا بوال.... ما الجديدُ في القصر؟

وتابع الجنرال مراجعته للأوراق، وهو يكتب بعض الكلمات على كلٍّ واحدة منها، وقد بدا عليه انشغالُ البال.

– لا شيء، يا صاحبَ المعالي، اللّهم إلّا أنهم لا يزالون ينتظرون سيدي النبيل الذي أرى الجنرالَ قلقاً بشأنه.

نهض الجنرالُ عن مكتبه الكبير، ونظر إلى بوال نظرةً متبّرمةً، وقال:

– أنت لا تُحسِنُ الرّؤيةَ جيداً، يا بوال، فهل أكونُ أنا قلقاً على البارون؟ إني أعرف مبرِّر غيابه، وأنا لا أنتظرُه في هذا الوقت.

كان الجنرال لوفان دوكنود يحرصُ على سلطته أشدَّ الحرص، فتبدو له معرضةً للخطر إذا ما كان باستطاعةِ مرؤوس أن يخمّن أفكاره الخفيّة، وظنّ أن أوردينر قد تصرَّفَ تصرُّفاً خارجاً عَن أمره، فتابع قائلاً:

– يا بوال، انسحبْ من هنا.

فخرج الخادم.

وهتف الجنرال حين بقي بمفرده:

- في الحقيقة، إن أوردينر يستخدمُ حقوقاً، ويُفرطُ في استخدامها؛ فإذا ما لوينا النّصل كثيراً، انكسر أيجعلُني أبيتُ ليلتي مؤرَّقاً ومتلهّفاً! ويعرِّضُ الجنرال لوفان لتهكّم زوجة المستشار، وتكهّنات خادم. وكلُّ ذلك. لكي يحصلَ عدوٌ عجوزٌ على العناقات الأولى التي يدينَ بها إلى صديقٍ عجوز. أوردينر! أوردينر! إن النّزواتِ تقتلُ الحريّة. فليأتِ، فليصلْ الآن. وأقسم أني لن أستقبله إلّا كما يستقبل البارودُ النّار! أيعّرض حاكمَ درونتهايم لتكهّناتِ خادم، ولتهكُّم زوجةِ المستشار؟ فليأتِ...!

كان الجنرال يواصلُ تذييلَ الأوراق، من غير أن يقرأها، لشدّة ما كان سوءُ مزاجهِ يشغلُ ذهنه.

فهتف صوتٌ معروف...

- سيّدي الجنرال، والدي النّبيل.

كان أوردينر يضمُّ بين ذراعيه العجوز الذي لم يفكّر حتى في أن يكبحَ صيحةَ فرح.

- أوردينر، يا أوردينر الشّهم! بالتأكيد، كما أنا مرتاح...! - وأتته فكرةٌ في منتصفِ هذه الجملة - فقال:

- أنا مرتاح، أيّها السّيد البارون من أنك تُحسِنُ السّيطرةَ على مشاعرك،

وتبدو مسروراً لرؤيتي مجدّداً. ولا شكّ في أنك قد فرضت على نفسك الحرمانَ منذ أربع وعشرين ساعة قضيتها هنا، من أجل إماتةِ نفسك.

– يا والدي، غالباً ما قلت لي إن عدواً منكود الحظ ينبغي أن يقدَّم على صديقٍ سعيد. وأنا آتٍ من مونكولم، فقال الجنرال:

– من غير شكّ، حين يكون شقاءُ العدوّ داهماً، غير أن مستقبَلَ شوماكير...

– منذرٌ بالخطر أكثر من أيّ وقت مضى، أيّها الجنرال النبيل. إن مؤامرةً دنيئةً قد حيكت ضدّ هذا المنكود الحظّ. وثمة رجالٌ هم أصدقاء له بالولادة يريدون هلاكه، ورجلٌ عدوٌّ له بالولادة سوف يعرفُ كيف ينقذُه.

أما الجنرال، الذي أخذت تعابيرُ وجهه تتلطّفُ تدريجيّاً إلى أن أصبحت هادئةً تماماً، فقد قاطع أوردينر وهو يقول:

– حسناً، يا عزيزي أوردينر. ولكن، ماذا تقولُ؟ إن شوماكير تحت حمايتي، فأيُّ رجالٍ، وأيةُ مؤامرات...؟

كان يمكن لأوردينر حقاً أن يمتنعَ عن الإجابة بوضوحٍ على هذا السّؤال؛ فلم يكن لديه سوى خيوطٍ من النّور شديدة الإبهام، وتخميناتٍ غير محقّقة إلى حدٍّ كبير حول وضع الإنسان الذي كان يعرّض حياته لأجله. إن العديدَ من النّاس سيجدون أنه يتصرّفُ بجنون؛ غير أن النفوسَ الشّابة تصنعُ ما تظنّه عادلاً وحسناً بغريزتها، وليس بالحسابات. زدْ على ذلك أنّ في هذا العالم الذي ترى فيه

الصحافةَ عقيمةً، والحكمةَ جدّ مثيرة للسّخرية، من يُنكرُ أنَّ المروءةَ جنون؟ إن كلَّ شيء نسبيّ على الأرض التي يتّصف فيها كلُّ شيء بالمحدوديّة، ولسوف تكونُ الفضيلةُ اختلالاً عقلياً كبيراً، إن لم يكن اللّهُ موجوداً وراء البشر. كان أوردينر في ذلك العمر الذي يصدّقُ فيه المرءُ ويصدّقه الآخرون. ولقد كان يخاطرُ بأيامه المفعمة بالثّقة والاطمئنان. وقد قبل الجنرال كذلك تلك المسوّغاتِ التي لم يكن لها أن تصمدَ أمام نقاشٍ بارد.

– أية مؤامرات! وأيّ رجال؟ يا أبي العزيز – بعد بضعة أيام، سأكون قد أوضحت كلَّ شيء. وحينذاك، ستعرف كلّ ما سأعرفُه؛ فَلسوف أذهب ثانية هذا المساء.

فهتف العجوز:

– وكيف! أنت لن تعطيني إلّا بضع ساعاتٍ أيضاً؟ ولكن، إلى أين تذهب؟ ولماذا تذهب؟ يا ابني العزيز؟

– لقد سمحتَ لي أحياناً بأن أقوم سرّاً بعملٍ حميد، يا أبي النبيل.

– أجل، يا أوردينر الشّهم؛ ولكنك تذهب من غير أن تعرف أبداً إلى أين، وأنت تعلم أيّة قضية كبرى تستدعيك...

– لقد ترك لي والدي شهراً للتفكير، وأنا أكرّسُه لمصالحِ شخصٍ آخر. إن العمل الجيّد يهدينا.

فردّ الجنرال سريعاً بلهجةٍ تنمّ عن الاهتمام:

– ماذا! هل هذا الزّواجُ يزعجُك؟ يُقال إن أولريك دالفيلد حسناء! قل لي، هل رأيتها؟

فقال أوردينر:

– أجل، أظنُّها كذلك، ويبدو لي أنّها جميلة، في الحقيقة.

فتابع الحاكم قائلاً:

– وإذن!

فقال أوردينر:

– وإذن! لن تكونَ زوجةً لي.

لقد أثّرت هذه الكلمةُ الباردةُ والحاسمةُ في الجنرال، وكأنّها ضربةٌ عنيفة، ورجعت إلى ذهنه شكوكُ الكونتيسّة المتعالية.

وقال وهو يهزّ رأسه:

– يا أوردينر، لابّد لي من التعقّل، لأنني كنتُ خاطئاً. وإذن، فأنا عجوز مجنون! يا أوردينر، للسّجين ابنة...

فهتف الشاب:

– أوه! أيها الجنرال، كنت أودّ أن أحدِّثك بالأمر، وأنا أسألُك، يا أبي، الحمايةَ لتلك الفتاة الضّعيفةِ والمضطهدة.

فقال الحاكمُ بلهجةٍ جادّة:

– في الحقيقة، إن مرافعاتك مفعمةٌ بالحماسة.

فهدأ أوردينر قليلاً، وقال:

– وكيف لا تكون كذلك، من أجل سجينة منكودةِ الحظّ، ويُرادُ أن تُنتزَعَ منها الحياةُ. وما هو أثمنُ حقاً، وهو الشّرفُ؟...

– الحياة! الشّرف! ولكنَّ الذي يحكمُ هنا هو أنا، مع ذلك، وأنا أجهلُ كلَّ هذه الفظاعات! أوضح لي الأمر.

– يا والدي النّبيل، إن حياةَ السّجين، وحياةَ ابنته التي لا دفاعَ لديها مهدّدتان بمؤامرةٍ جهنميّة...

– ولكن ما تقدِّمه خطير، فأيّة إثباتاتٍ لديك؟

– إن الابن البكر لعائلةٍ ذات نفوذ هو في هذه اللحظة في مونكولم. وهو هناك لكي يُغوي الكونتيسّة إيتيل... ولقد قال لي ذلك بنفسه.

فتراجع الجنرال ثلاث خطوات.

– يا اللّه! يا اللّه! يا للفتاةِ المسكينة المخذولة!

أوردينر، اسمع يا أوردينر! إن إيتيل وشوماكير تحت حمايتي. فمن هو هذا الحقيرُ، ومن هي عائلته؟

اقترب أوردينر من الجنرال، وشدَّ على يده، وقال:

– عائلة دالفيلد.

فقال الحاكم العجوز:

– دالفيلد، أجل. إن الأمرَ واضح، والملازم فريدريك لا يزالُ موجوداً

في مونكولم، في هذه اللّحظة. أيّها الشّهم أوردينر، إنهم يريدون أن يقرنوك بهذه السُّلالة. وأتصوّرُ نفورَك أيها النبيل أوردينر!

بقي العجوز للحظاتٍ متفكّراً، وهو مكتوفُ اليدين، ثم رجع إلى أوردينر، وضمّه إلى صدره.

– أيّها الشابَ، يمكنُك أن تذهب. ولن تكون حمايتُك غائبةٌ عن محميّيك. فأنا من يبقى لحمايتها. أجل، امضِ، فأنت تُحسِنُ عملك، على أيّة حال. وتلك الكونتيسّة الجهنميّة دالفيلد موجودة هنا. وربما أنت تعرف ذلَك...؟

فقال صوتُ الحاجب الذي كان يفتحُ الباب:

– السّيدة النبيلة الكونتيسّة دالفيلد.

عند سماع هذا الاسم، تراجع أوردينر بصورةٍ آليّةٍ إلى داخل الغرفة، وهتفت الكونتيسّة من دون أن تلمحه:

– أيها السّيد الجنرال، إن تلميذكَ يتلاعبُ بك؛ فهو لم يذهبْ قطّ إلى مونكولم.

فقال الجنرال:

– أحقّاً!

– أجل، وحقّ الربّ! إن ابني فريدريك الذي خرج من القصر كان بالأمس يقوم بحراسة البرج، ولم يرَ أحداً.

فردّد الجنرال:

– حقّاً، أيتها السّيدة النبيلة؟

فتابعت الكونتيسّةُ وهي تبتسم بهيئةٍ ظافرة:

– وهكذا، فلا تنتظرْ بارونك بعد الآن.

فظلّ الحاكمُ وقوراً وبارداً، وقال:

– أنا لم أعدْ أنتظرهُ في الواقع، أيتها السّيدة الكونتيسّة.

فقالت الكونتيسّة وهي تستديرُ:

– أيّها الجنرال، كنت أظنّ أننا وحدنا... فمن هو...

وحدّقت الكونتيسّة بأوردينر بنظرةٍ متفحصّة، فانحنى أمام السّيدة.

فتابعت:

– حقاً، إني لم أره سوى مرّةٍ واحدة – ولكن – بدون هذه البدلة، فقد يكون... أيّها السّيد الجنرال، هذا هو ابنُ نائبِ الملك؟

فقال أوردينر، وهو ينحني من جديد:

– هو بنفسه، أيتها السّيدةُ النبيلة.

فابتسمت الكونتيسّة وقالت:

– في هذه الحالة، هل تسمح لسّيدةٍ ستكون عما قليل أكثر من ذلك أيضاً بالنسبة إليك، أن تسألك أين كنتَ بالأمسِ، أيها السَّيدُ الكونت...

- أيها السّيد الكونت! لا أظنّ أنني قد أصُبت بفقدِ والدي النبيل، أيتها السّيدة الكونتيسّة.

- من المؤكد أن هذا ليس ما أفكرُ به. فمن الأفضلِ للمرء أن يصبح كونتاً بأن يتخّذ لنفسه زوجة من أن يفقد والداً.

- إن أوّل هذين الأمرين قلّما يفضلُ الآخر، أيتها السّيدة الكونتيسّة.

أما الكونتيسّة التي أصابها الذّهول قليلاً؛ فقد قرّرت مع ذلك أن تنفجر ضاحكة:

- هيا، إن ما كانوا يقولونه لي صحيح، فتأدُّبُه وحشيٌّ بعض الشّيء، غير أنه سوف يتدجّنُ مع عطايا السّيدات، حين تضع له أولريك دالفيلد في عنقه سلسلةَ وسامِ الفيل فقال أوردينر:

- سلسلة حقيقيّة، في الواقع.

فسارعت الكونتيسّة التي أخذ ضحكُها يغدو مرتبكاً إلى القول:

- سوف ترى، أيها الجنرال لوفان أن تلميذَك الشّرسَ لن يقبل كذلك أن يأخُذَ من سيدةٍ رتبته كعقيد.

فردّ أوردينر:

- إنّك على حقّ، أيّتها السّيدة الكونتيسّة؛ فالرَّجل الذي يحملُ السّيفَ لا ينبغي له أن يدينَ بزخارفه لامرأة.

فتكدّرت سحنةُ السّيدةِ الكبيرة تماماً.

– هو! هو! فمن أين إذن يأتي السّيد البارون؟ هل صحيحٌ حقاً أن صاحبَ اللّطف لم يذهب إلى مونكولم بالأمس؟

– أيتها السّيدة النبيلة، أنا لا أُلبّي دائماً كلَّ الأسئلة. سيّدي الجنرال، سوف نلتقي...

ثم خرج، بعد أن صافح الجنرال، وحيّا الكونتيسّة، تاركاً السّيدة مذهولة من كلِّ ما كانت تجهلُه، وبمفردها مع الحاكم الذي تملّكه الغضبُ من كلِّ ما أصبح يعرفه.

الفصل الثّاني عشر

الكاهن الأوّل

أية ليلة هذه ، يارحمة السّماء! أيّها الرّبّ العظيم!

هل سمعت قصفة الرّعدِ هذه؟

الكاهن الثاني

لابدّ أن الموتى أنفسهم قد سمعوها .

الموقر . ماتوران، برترام[1]

ماهو إذن هذا الكائن الغامض؟ . . فهذا الرأس ، وهذا القلب ، هل صُنعا مثل رؤوسنا وقلوبنا؟ ألا يتضمنان شيئاً خاصًّاً وغريباً عن طبيعتنا؟ . . . فما إن عينت السَّلطات مكان سكناه ، وما إن استولت عليه ، حتى تراجعت المساكن

(١) تقديم مقتبس ، حذف عام ١٨٣٣ .

الأخرى إلى موضع لم تعد ترى منه مسكنه؛ ففي وسط تلك الوحدة، وهذا النوع من الفراغ الذي تشكّل حوله، إنما عاش بمفرده مع أنثاه وصغاره الذين جعلوه يعـرف صـوت الإنـسان، ومن غيرهم، ما كان لـه أن يعـرف إلا الأنين . .

الكونت دوميستر: أمسيات سان بترسبورغ[1]

إنّ الإنسان الجالس في هذه اللحظة إلى جانبه، والذي يقتسم معه خبزه، ويـشربُ على صحّته القدح الذي اشـتركوا فيه معاً، سـوف يكون أوّل من يغتاله .

شكسبير، تيمون الأثيني

لينتقل القارىء الآن إلى الطّريق التي تذهب من درونتهايم إلى سكونجن، وهي طريق ضيقةٌ ومحجرّةٌ تحاذي خليج درونتهايم وصولاً إلى ضيعة فيغلا، ولن يطول به الأمر حتى يسمع خطوات مسافرين اثنين كانا قد خرجا من الباب المدعوّ باب سكونجن، عند انقضاء النّهار، وهما يصعدان بسرعةٍ كافية الهضاب المتدرّجة والتي يجعلهما طريق فيغلا يتعرّجان عليها .

كان كلاهما متلفعّين بمعطف، يسير أحدهما بخطىً شابّة وثابتة، منتصب الجسم، ومرفوع الرأس، ويتخطّى طرفُ سيفه حافَّةَ معطفه. وبرغم عتمة الظلام، يمكن للمرء أن يرى ريشةً تهتزُّ حين تهبُّ الرّيحُ على قلنسوته. أمَا الآخر، فهو أطول قامة من رفيقه بقليل، إلا أنه محنيٌّ الظّهر بعض الشيء،

(١) تقديم مقتبس، حذف عام ٣٣٨١ .

ونرى عليه حدبةٌ يصنعها دون شك خرجٌ يخفيه معطفٌ كبير أسود، حوافّه مسنّنة بعمق تدلُّ على الخدمات الجيّدة والمخلصة التي أدّاها. وما لهذا الرّجل من سلاحِ آخر غير عصى طويلةٍ يستعينُ بها على مشيته غير الموزونة والمعجّلة.

لئن كان الليّل يمنعُ القارىء من تمييز سماتِ المسافرين، فلسوف يتعرّفهما من خلال الحديث الذي يشرعُ به أحدهما، بعد مضيّ ساعةٍ من المسير الصّامت، والمضجر بالنتيجة.

– سيّدي، ياسيّدي الشّاب! نحنُ في منطقةٍ يمكنُ أن نرى منها برج فيغلا، وقبابَ أجراس درونتهايم في آن. وأمامنا، في الأفق، هناك تلك الكتلة السّوداء التي هي البرج، أما وراءنا، فتلك هي الكاتدرائية التي ترتسمُ أنصافُ قناطرها الأكثر عتمة في السّماء، مثل أضلاع الهيكل العظميّ لماموت.

وسأل الماشي الآخر:

– هل تبعدُ فيغلا كثيراً عن سكونجن؟

– علينا، ياسيّدي، أن نجتاز أوردالز، ولن نكون في سكونجن، قبل الثّالثة صباحاً.

– ماهي السَّاعة التي تدقُّ في هذه اللحظة؟

– أيّها الإله العادل، ياسيّدي، إنك تجعلني أرتجف، أجل. إنه جرسُ درونتهايم الذي تحملُ إلينا الرّيحُ دقّاته. وهو ينذر بالعاصفة. إن هبوب الرّيح الشمالية الغربية يحملُ الغيوم.

– لقد غابت النجومُ كلُّها وراءنا في الحقيقة.

– لنضاعف خطانا ، ياسيّدي النبيل ، تكرُّماً منك؛ فالعاصفةُ تصل ، ولربما يكون الناسُ قد لاحظوا في المدينة تشويه جثّةِ جيل وهروبي . لنضاعفْ خطانا .

– بكلِّ سرور ، أيّها العجوز . إن حملك يبدو ثقيلاً؛ فتخلَّ عنه لي ، فأنا شابّ ، وأشدُّ بأساً منك .

– كلا ، في الحقيقة ، ياسيّدي النبيل . فليس على النّسر أن يحمل درعَ السُّلحفاة ، فأنا لستُ أهلاً اطلاقاً لأن تحملَ خرجي .

– ولكن ، أيّها العجوز ، اذا كانت تتعبُك . . . ؟ إنها تبدو ثقيلةً . فما تحتوي إذن؟ منذ قليل . تحركت ، فحدث صوتٌ كرنين الحديد .

فابتعد العجوزُ فجأة عن الشابّ .

– هل أحدث هذا رنيناً ، ياسيّدي ، أوه! كلا! لقد أخطأت التقدير– إنه لايحتوي شيئاً . . . غير الأطعمة ، والملابس . . . كلا . . . إنه لايُتعبني ياسيّدي .

كان يبدو أن العرض العطوف ، عرضَ الشّاب قد سبَب لرفيقه العجوز رعباً كان يبذلُ شيئاً . . لإخفائه . .

فأجاب الشابّ من غير أن يلاحظ ذلك:

– حسناً! إن كان هذا الحملُ لايتعبُك ، فاحتفظ به .

أما العجوز الذي اطمأنّ ، فقد سارع إلى تغيير الحديث وقال:

– يبدو أمراً محزناً أن نسلك ، ونحن هاربان ، طريقاً أثناء الليل ، في حين أن

عبورنا لها ، كمشاهدين متفحّصين ، قد يكون ، ياسيدي أمراً مستحبّاً ، أثناء النهار . إننا نجد على شطآن الخليج ، وعلى شمالنا ، وفرةً من الحجارة الرّونيّة (تحملُ كتاباتٍ اسكندنافية: م: ز . ع) التي يمكن أن ندرس عليها حروفاً خطتها الآلهةُ والعمالقةُ ، كما تروي التقاليد . وعلى يميننا ، خلف الصّخور التي تحاذي الطّريق ، يمتدُّ مستنقعُ سيولْد المالح الذي يتصل دون شكٍّ بالبحر ، عن طريق قناة تحت الأرض ، إذ يصطادون فيها الخرطون البحريّ ، ذلك النّوع الفريد من الأسماك الذي يأكل الرَّمل ، بناءً على اكتشافات خادمك ومرشدك . وفي برج فيفلا الذي نقترب منه ، إنّما أمر الملكُ الوثنيُّ برنود بشيٍّ ثدييّ القدّيسة إيتيلديرا ، تلك الشهيدة المجيدة ، باستخدام خشب الصّليب الحقيقيّ ، والذي جلبه من كوبنهاغن أولاووس الثالث ، وكان قد استولى عليه ملك النّرويج ويُقال أنه قد جرت محاولاتٌ لاطائل منها ، منذ ذلك الوقت لبناء مُصلّى من ذلك البرج الملعون ، ولكن كلَّ الصّلبان التي وضعت عليه بالتعاقب قد التهمتها نارُ السّماء . . . (١)

في تلك اللّحظة ، غطّى برقٌ هائلٌ الخليجَ ، والهضبة ، والصّخور ،

(١) هذا هو أوّل «الأبراج الملعونة» في أعمال فيكتور هيغو ، ولسوف يجري التشبيهُ بين لاتورغ ، في رواية «عام ثلاثة وتسعين» الذي تختمُ الحلقة التي كان قد بدأها المؤلّف مع قلعة فينال في «إيمان القديس فابريس» (أسطورة القرون ١٨٩٥ ، القسم السّابع ، القصيدة: ٣) «وصخرة غوفان» . أما أصلُها فهو في السّابقة التي يُعاد استخدامها على الدّوام في اسم توركيمادا . وفي ربيع عام ١٨١١ ، يتوقّف الشّقيقان هيغو في طريقهما إلى مدريد ، وهما عائدان من مسرحية إيرناني ، يتوقّفان في توركيمادا: « وكان الجنرال لاسال قد سوّغ استخدام الاسم ، اسم البرج المحترق (تورّيكميادا) وذلك بأن أحرقه . (فيكتور هيغو كما رواه شـاهد . . . الفصل: ٨١) والانتقال يجري من هذا الحريق إلى المحارق التي أشعلها توركيمادا الذي غدا شخصية هيغولية في المسرحية التي تحمل الاسم نفسه (المؤلّفة عام ٩٦٨١ ، والمنشورة عام ٢٨٨١) ، وبصورة معكوسة من توركيمادا إلى وزيره ، جلاد أوروجيكس . ولسوف يجري التقريب أيضاً بين وجود «جثث الأطفال الثلاثة» (في الطابق العلويّ من برج فيفلا ، فوق قاعة التعذيب) ، التي يجعلُ الذعرُ فيها سبياغودري يستشفُّ وجودها ، في حادثة الأطفال الذين يحتجزهم الحريقُ في مكتبة لاتورغ . ولايكون برجُ فيفلا بمنجىً من النار: «كلُّ الصّلبان التي وضعت فيه بالتعاقب قد التهمتها نارُ السّماء» .

والبرجَ، واختفى قبل أن تتمكّن عيونُ المسافرين من أن تميّز أيّاً من هذه الأشياء؛ فتوقّفا تلقائياً، وتبع البرق، في الحال تقريباً، قصفةُ رعدٍ عنيفةٌ امتدّ صداها من غيمةٍ إلى غيمة، ومن صخرةٍ إلى صخرةٍ على الأرض.

رفعا عيونهما، فكانت كلُّ النجوم محجوبة[1] وكانت غماماتٌ ضخمةٌ تسيرُ كلٌّ منها على الأخرى، وتتجمّعُ العاصفةُ مثل ركامٍ جرفيٍّ فوق رأسيهما. أما الرّيحُ العظيمةُ التي تجري الكتلُ تحتها؛ فلم تكن قد نزلت بعد إلى الأشجار التي لا تحرّكها أيةُ هبّةِ ريح، ولم تكن تدقُّ عليها بعد أيةِ قطرة، من المطر. كان يُسمع في الأعالي ما يشبهُ الضّوضاء العاصفة التي، باقترانها بضجيج المرفأ، كانت الضجّة الوحيدة التي تعلو في ظلمة الليل التي تضاعفُها عتماتُ العاصفة.

قوطعَ ذلك الصّمت الضّاجّ فجأة، وقريباً من المسافرين، بنوعٍ من الزّمجرةِ التي جعلت العجوز يرتعدُ.

فهتف وهو يشدُّ يدَ الشابّ:

– أيها الرّبُّ الكلّي القدرة! إنه ضحكُ الشّيطان في قلبِ العاصفة، أو صوتُ الـ..

فقطع كلامه برقٌ جديد، وقصفة رعدٍ جديدة، وبدأت العاصفة حينئذ تندفعُ اندفاعاً، وكأنّها تنتظر تلك الإشارة، فشدَّ المسافران معطفيهما لكي

---

(١) استدلالٌ لاينفكّ فن الكتابة عند هيغو يُضفي قيمة عليه: ففي «البؤساء» يرافق احتجابُ النجوم أحلام يقظةِ جان فالجان، وحركاته الحاسمة: ليلة بوتي- جيرفيه (١، ٣١، ٢) ليل مونترويّ (٣، ٧، ١) و ليل كوزيت: (II–٥، ٣)، وموت جان فالجان.

يتّقيا، في آن واحد، المطر الذي كان يُفلت من الغيوم سيولاً، والغبار الكثيف الذي كانت تنتزعهُ ريحٌ مسعورةٌ زوابعَ من الأرض التي لاتزال جافّة.

فقال الشّابّ:

– أيّها العجوز. إن برقاً قد أراني برجَ فيغلا على يميننا. فلنترك الطّريق، ولنفتش في البرج عن ملجأ.

فهتف العجوز:

– ملجأ في البرج الملعون! فليحمكَ القدّيس أو سبيس!

فتصوّر أيها الشّاب أن هذا البرج مهجورٌ.

– أفضل، أيها العجوز، فلا يكون علينا أن ننتظر على الباب.

– تخيّل أيَّ رجسٍ قد دنّسه...!

– حسناً، فليتطهّر بأن يلجئنا إليه. هيا، أيّها العجوز. اتبعْني. وإني أعلنُ لك أنه في ليلةٍ كهذه، قد أحاول أن أنزل ضيفاً على مغارة للصوص.

حينذاك، وبرغم تحذيرات العجوز الذي كان قد أمسك بذراعه. توجّه الشّابُّ نحو المبنى الذي كانت أَضواءُ البروقِ المتواترة تُظهره على مسافةٍ قريبة. وحين اقتربا، لمحا نوراً في إحدى كوى رمي البرج.

فقال الشّاب:

– أترى! إن هذا البرجَ ليس مهجوراً. وها أنت قد اطمأننت بلا شكّ.

فهتف العجوز:

– يا اللّه! أيها الإله الطيّب! إلى أين تأخذني، أيّها المعلم؟ حاشا للقدّيس أوسبيس أن أدخلَ إلى مصلى الشيطان هذا.

كانا في أسفل البرج. فدقَّ الشابُّ بقوةٍ على الباب الجديد لذلك البناءِ المخيف المهدَّم.

– هدّئ من روعك، أيّها العجوز؛ فإن ناسكاً تقيّاً سوف يأتي ليقدِّس هذا المقرّ المرجّس وذلك بأن يسكنه.

فقال رفيقه:

– كلا، إني لن أدخل. وأجيبُك أنه لايمكن لأيّ ناسكٍ أن يعيش هنا، إلا إذا كانت سبحتُه هي إحدى سلاسل بعلزبوت السّبع.

ومع ذلك، فقد كان هناك ضوءٌ ينزل من كوّةِ رَمي إلى كوّةٍ أخرى، وأتى ليلتمع من خلال قفل الباب.

وصاح صوتٌ حادّ:

– إنّك تصلُ متأخّراً فعلاً يانيكول! فالمشنقةُ سوف تُنصَبُ عند الظهيرة؛ ولايلزمُ سوى ستّ ساعات للوصول من سكونجن إلى فيغلا. فهل هناك عملٌ زائد؟

وقع هذا السّؤال في اللحظةِ التي كان البابُ ينفتحُ فيها. وما إن لاحظت تلك التي كانت تفتحهُ وجهين غريبين بدلاً من الوجه الذي كانت تنتظره، حتى أطلقت صرخةَ ذعرٍ ووعيد، وتقهقرت ثلاث خطوات.

أما مظهرُ تلك المرأة بحدٍّ ذاته فلم يكن مطمئناً جدّاً. لقد كانت طويلة القامة. وكان ساعدها يرفع فوق رأسها مصباحاً حديديّاً كان وجهُها يستنير به استنارةً قوية. وكان في قسماتها الدّاكنة، ووجهها الجاف والبارز التقاطيع شيء جيفيّ. وكانت تنطلق من عينيها الغائرتين إشعاعاتٌ مخيفة شبيهةٌ بأضواء مشعلٍ جنائزي. كانت ترتدي اعتباراً من الخصر تنّورة من الصّرج(1) القرمزيّ الذي لم يكن يُظهرُ إلا قدميها الحافيتين، ويبدو ملطّخاً ببقع ذات لونٍ أحمر مختلف. وكان صدرها الشّديد النحول مغطىً جزئياً بسترةٍ رجّالية من اللّون نفسه. وكمّاه مقطوعان من المرفق. أما الرّيح التي كانت تدخل من الباب المفتوح، فكانت تهزّ من فوق رأسها شعرها الطّويل الشّائب الذي يربطه بصعوبةٍ خيطٌ من لحاء الشجر، ويجعلُ تعبير سحنتها المخيفة أكثر وحشية أيضاً.

وقال أكثر القادمين الجديدين شباباً:

– أيتها السـيّدة الطيّبة. إن المطر يهطل بغـزارة، ولديك سـقف، ولدينا ذهب.

كان رفيقه العجوز يشدُّه من معطفه، ويهتفُ بصوتٍ خفيض:

– أو، ياسيّدي! ماذا تقول! إن لم يكن هذا هو بيتُ الشيطان، فهو منزلُ أحد اللصوص. ولسوف يهلكُنا ذهبُنا، بدلاً من أن يحمينا.

فقال الشابّ:

– صمتاً!

(1) نسيج صوفيّ متين (م: ز.ع).

وســـحب من ســترته صرّةً، وجعلها تلتمعُ أمام ناظريّ المضيفة، وهو يكرّر طلبه:

أمّا هذه السّيدة، فبعد أن صحت قليلاً من دهشتها، أخذت تتأمّلهما بعينٍ محدّقة وزائغة بصورة متناوبة، وهتفت أخيراً، وكأنّها لم تسمعْ أصواتهما:

- أيها الغريبان! هل هجرتكما ملائكتكما الحارسة؟ عمّ أتيتما تبحثان بين السّكان الملعونين، سكان البرج الملعون؟ أيها الغريبان، ليسوا من أبناء البشر أولئك الذين دلّوكما على هذه الخرائب كملجأ لكما. وكان يفترض بالجميع أن يقولوا لكما إنه: «حبّذا برق العاصفة على موقد برج فيغلا». إن الحيَّ الوحيد الذي يمكن أن يدخل هنا، لايدخلُ إلى أيّ منزلٍ من منازل الأحياء الآخرين. إنه لايغادر الوحدة إلا من أجل العامّة، ولايحيا إلاّ من أجل الموت. وليس له من مكانٍ إلا في لعناتِ بني البشر، ولايصلح إلا لانتقاماتهم ولايكون موجوداً إلا من خلال جرائمهم. والأثيم الأكثر خسّة يُحيُل عن نفسه الازدراء الشّامل في ساعة القصاص، ويظنّ أنه لايزال يحق له أن يضيف إليه ازدراءه. أيها الغريبان! أنتما مثل ذلك الحيّ، لأن قدمكما لم تنبذْ برعبٍ عتبة هذا البرج؛ فلاتُزعجا الذئبة وجراميزها فترة أطول، عودا إلى الطريق التي يسيرُ عليها النّاس الآخرون جميعاً. وإذا كنتما لاتريدان أن يهرب منكما اخوتكما، لاتقولالهم إن وجهكما قد أضاءه مصباحُ مُضيفيّ برج فيغلا.

عندما قالت المرأةُ هذه الكلمات، وهي تشيرُ إلى الباب بحركة من يدها، تقدَّمت نحو المسافرين؛ فكان العجوز بينهما يرتعد بكلِّ فرائصه، وينظر نظرة توسُّلٍ إلى الشابّ الذي لم يفهم شيئاً من كلمات المرأة الطويلة القامة، بسبب

ذلاقة لسانها القصوى، وسرعة كلامها. فظنّ أنها مجنونة. ولم يكن يشعرُ على الإطلاق، من ناحية أخرى، أنه مستعدٌّ للرّجوع تحت المطر الذي كان يواصلُ الهطول بصخبٍ كبير.

– الحقيقة، يامضيفتنا الطيّبة، أنك تصفين لنا شخصيّةً فريدة لا أودُّ أن أضيّع الفرصة لتعرُّفِه.

– إنّ تعرُّفه، أيّها الشابّ، قد تمّ، وانتهى للتوّ. فاذا كان شيطانك يدفعك إلى ذلك، فاذهبْ لاغتيال أحدِ الأحياء، أو تدنيس أحد الموتى.

فردّد العجوز بصوتٍ مرتجفٍ، وهو يختبىء في ظلٍّ رفيقه:

– تدنيس أحد الموتى!

وقال هذا الأخير:

– قلّما أفهم أساليبك الشديدة الالتواء، على أيّة حال؛ فمن الأنسب أن نبقى هنا، ولابدّ أن يكون المرءُ مجنوناً ليواصل طريقه في طقس كهذا.

فهمس العجوز:

– غير أنّــه يكون أكثر جنوناً أيضاً اذا ما لجأ إلى مكانٍ كهذا هرباً من طقسٍ كهذا.

فهتفت المرأة:

– أيّها التعيسان! لاتدقّا على عتبةِ ذلك الذي لايُحسن أن يفتح باباً آخر غير باب القبر.

– حتى وإن كان لابدَّ أن ينفتح بابُ القبر، بالنسبة لي، في النتيجة، مع انفتاح بابك، فلن يُقال إني تراجعتُ أمام كلام مخيف. إن سيفي يتكفّلُ بكلّ شيء. هيا، اغلقي البرج، لأن الرّيحَ باردة، وخذي هذا الذّهب.

فسارعت المضيفة إلى الرّدّ قائلةً:

– إيه! وبماذا يفيدني ذهبُك؟ لئن كان ثميناً بين يديك، فهو يغدو بين يدي بخساً أكثر من القصدير. حسناً، فلتبقيا إذن مقابل الذهب، فبإمكانه أن يقي من عواصف السّماء، وهو لا ينقذُ النّاس من الازدراء. ابقيا، فأنتما تدفعان أجرة الضيافة بثمنٍ أغلى مما يدفعه المرءُ ثمن جريمةِ قتل. انتظراني لحظةً هنا، وأعطياني ذهبكماً. أجل، إنها المرّة الأولى التي تدخل فيها يد إنسان إلى هنا، وهما محمّلتان بالذّهب، من غير أن تكونا ملطّختين بالدَّم.

حينذاك، وبعد أن وضعت المصباح، وأرتجت الباب، توارت تحت قبّةِ درج أسود مشقوق في صدر القاعة.

وفيما كان العجوز يرتعش، ويتضرَّع إلى القدّيس أوسبيس الظّافر، وتحت كلِّ الأسماء، ويلعنُ من أعماق قلبه، ولكن بصوتٍ خفيض، تهوَّر رفيقه الشابّ. أخذ هذا الأخير الضّوء وشرع يطوقُ في الغرفة الكبيرة الدائريّة التي كانا فيها، وجعله ما رآه وهو يقتربُ من السّور يرتعدُ.

هتف العجوز الذي كان يتبعه بنظره:

– أيّها الإله العظيم! ياسيدي! إنّها مشنقة!

كانت هناك مشنقةٌ كبيرة مسندةٌ إلى الجدار، في الحقيقة، وتصلُ حتى قوس القبة العالية والرّطبة. وقال الشابّ:

– أجل، وهذه هي المناشرُ الخشبيّة والحديدية، والسّلاسل، والأغلال، والملاقط المعلّقة في أعلاها.

فهتف العجوز:

– يا قدّيسي الفردوس العظام؟ أين نحنُ؟

وتابع الشابّ معاينته ببرود:

– هذه بكرةٌ من حبالِ القنّب، وهذه مواقدُ ومراجل، وهذا الجزء من السّور مغطىً بالكلابات والمباضع. وهذه أسواطٌ جلديّة مزخرفةٌ بمسامير فولاذيّة، وبلطة ودبوس..

فقاطعه العجوز، وقد أصابه الذُّعر من ذلك التّعداد الرّهيب:

– ههنا إذن مستودعُ أثاثِ الجحيم.

فتابع الآخر قائلاً:

– هذه مَصّاتٌ نحاسيةٌ، وعجلاتٌ ذات أسنان برونزية، وصندوقٌ مليءٌ بالمسامير الكبيرة، ورافعةٌ صغيرة.. في الحقيقة، إنّه تأثيثٌ مخيفٌ أيها العجوز، ويؤسفني أن يكون عدم تبصُّري قد قادك إلى هنا معي.

– حقاً! لقد آن الأوان فعلاً.

كان العجوز ميتاً أكثر مما هو حيّ.

– لا ترتعبْ؛ لا يهمُّ المكان الذي أنت فيه، فأنا فيه معك.

فدمدم العجوزُ الذي كان الرُّعبُ الكبير يُضعفُ لديه الخشية من رفيقه الشّاب واحترامه له:

- ياله من دفاعٍ رائع! سيفٌ طوله ثلاثون بوصةً مقابل مشنقةٍ ارتفاعها ثلاثون ذراعاً!.

عادت المرأة الحمراء إلى الظّهور مجدّداً، وأمسكت ثانية بالمصباح الحديدي، وأومأت إلى المسافرين بأن يتبعاها. فصعدا بحذرٍ درجاً ضيقاً. ومهدَّماً جرى إحداثه في سماكةِ جدارِ البرج. وكان هبَّةُ ريحٍ ومطر تأتي، من خلال كلِّ كوّةِ رمل لتهدِّد بالانطفاء الشّعلة المرتعشة للمصباح، فتغطيّها المضيفة بيديها الطويلتين والشّفافتين. ولم تجر الأمور من غير أن يعثر العجوز غير مرّةٍ بأحجارٍ متدحرجة كانت مخيّلته المرتعبة تظنّها عظاماً بشرية مبعثرة على الدرجات، حتى وصلوا، في الطّابق الأوّل من المبنى، إلى قاعة دائرية، شبيهة بالقاعة السّفلى. وفي الوسط، وطبقاً للتقليد القوطي، كان يلتمع موقدٌ عريضٌ، يتصاعد دخانُه من فتحة مثقوبةٍ في السّقف. وهذا ما أدّى إلى تعتيم جوّ القاعة على نحوٍ محسوس. أمّا ضوء القاعة الذي انضاف إليه نور المصباح الحديديّ، فقد لمحه المسافران في طريقهما. وكان ثمة سيخ محمّلٌ باللحم الذي لايزال طريّاً، وهو يدور أمام النّار، فأشاح العجوز بنظره مرعوباً، وقال لرفيقه:

- في هذا الموقد المقيت، إنّما التهم جمرُ الصّليب الحقيقي أطراف قدّيسة.

كانت هناك منضدةٌ غير متقنة الصّنع موضوعةٌ على مسافةٍ معيّنة من الموقد؛ فدعت المرأة المسافرين للجلوس إليها، وقالت، وهي تضع المصباح أمامهما:

– أيّها الغريبان ، إن العشاء سيكون جاهزاً بعد قليل ، وسرعان مايصلُ زوجي ، بلاشكّ ، خوفاً من أن يقضي عليه روحُ منتصف الليل ، حين يمرُّ بقرب البرج الملعون .

حينذاك ، تمكّن أوردينر (لأن القارئ قد خمّن بلا شكّ أن الكلام يدور عليه ، وعلى مرشده سبياغودري) تمكّن من أن يعاين بحرّية لباس التخفيّ الغريب الذي كان هذا الأخير قد استنفد فيه كلَّ قدراته التخيّليّة ، والتي أخصبها الخوف من أن يجري تعرُّفه ، والقبض عليه مجدّداً . كان البواب المسكين الهارب قد بادل ملابسه المصنوعة من جلد الرّنة مقابل لباسٍ أسودٍ كامل ، كان قد تركه في السّبلادجيست قديماً نحويٌّ شهيرٌ من درونتهايم ، وهذا النّحويّ قد انتحر غرقاً من جراء يأسه من عدم القدرة ، على ايجاد السّبب الذي من أجله تعطي كلمةُ جوبيتر jupiter كلمة جوفيس jovis في حالة المضاف إليه(١) .

وكان قبقابه المصنوع من خشب البندق قد استُبدلت به جزمةٌ متينة لحوذيّ سحقته خيوله ، وكانت رجلاه النّحيفتان مرتاحتين فيها إلى حدٍّ كبير ، بحيث لم يكن قادراً على السّير من دون الاستعانة بنصف حزمة من العلف . وكان الشّعر العريضُ لمسافرٍ فرنسيّ شابٍّ وأنيق ، ومقتولٍ على أيدي اللّصوص في درونتهايم يغطيّ صلعته ، ويتطاير على كتفيه المدبّبتين ، وغير المتماثلتين . وكانت إحدى عينيه مغطّاة بلصقة ، وبفضلِ إناءٍ يحتوي مسحوق تجميلٍ كان قد عثر عليه في جيوب عانسٍ ماتت حبّاً ، أخذت وجنتاه الشّاحبتان والغائرتان تكتسيان لوناً متورّداً غير مألوف . وهو تجميلٌ كان المطر قد جعل حتى الذّقنَ تشارك فيه . وقبل

---

(١) في اللاتينية تصبح كلمة jupiter (جوبيتير) jovis (جوفيس) في حالة المضاف إليه (م: ز . ع) .

أن يجلس، وضع تحته بعناية العلبة التي كان يحملها على ظهره، وتلفّع بمعطفه العتيق. وفيما كان يستأثر بكلّ اهتمام رفيقه، كان اهتمامه يبدو مركزاً بكامله على الشّواء الذي تراقبه المضيفة، والذي كان يرشقه من وقت لآخر بنظرات قلقة ومرتعبة. وكانت تُفلت من فمه على فترات كلماتٌ متقطعّة من مثل:

– لحمٌ بشريّ!..[1] مأدبةٌ مرعبة! أكلة لحوم البشر..! – عشاء عظاية..! – على ميديا ألا تخنق أبناءها أمام الجمهور[2].

– أين نحن؟ ياأتريه... – كاهنةٌ غاليّةٌ.. –

يا إيرمانسول.. لقد صعق الشيطان ليكاوون..

وهتف أخيراً:

– أيتها السّماء العادلة! شكراً يارب! إني ألمح ذيلاً!.

إن أوردينر الذي كان يتفحّصه، ويصغي إليه بانتباه، ويتابع على وجه التقريب خطَّ أفكاره، لم يتمالك نفسه من الابتسام، فقال:

– ليس في هذا الذّيل شيءٌ مطمئن، فلعله يكون شقّة شيطان.

---

(١) بعض هذه العبارات وردت باللاتينية، وأتريه هو ملك ميسّينا الشّهير بكراهيته لأخيه تييست..

أمام الجمهور (أو على المسرح) كما يقول أوراس في فنّ الشّعر: ١٨٥/. إن سبياغودري يبدو أنه يتوجّه إلى هيغو، في الوقت نفسه، لكي يأخذ عليه ضروبَ الشّطط في أسلوبه وخياله والتي يندفع فيها، في روايته: «فما كان لأوراس أن يحبَّ هان الإيسلندي! أما مولوك؛ فقد كانوا يضحّون له بالأطفال، ويصوّرونه على شكل إنسانٍ، له وجه ثور، وكانوا يشعلون تحت تلك الصّورة الخيالية ناراً يلتهمُ أُوراها الضّحايا الصّغيرة الموضوعة بين يديّ المسخ فما إن حلّ أوس يوماً ضيفاً على ليكاوون، حتى قدّم له هذا طفلاً على الطّعام. أما زوس، فلكي يعاقبه، فقد أحال قصره إلى رماد، وحوّله إلى ذئب.

لم يسمع سبياغودري هذه المزاحة، وكانت نظرته معلّقة بصدر القاعة، فارتعش، وانحنى على أذن أوردينر وقال:

– ياسيّدي، انظر، هناك، في مؤخّر القاعة، وعلى كومةٍ من القشّ، في الظلّ. .

فقال أوردينر:

– وإذن؟

– ثلاثة أجسادٍ عارية، ولاحراك فيها. . . ثلاث جثثِ أطفال. . . !

فهتفت المرأةُ الحمراء، والتي تجلسُ القرفصاء بقرب الموقد:

– إنهم يدقّون بابَ البرج.

وفي الواقع، فقد سمعت دقةٌ تبعتها دقّتان أخريان أقوى منها، في خضمّ صخبِ العاصفة المتزايد باستمرار.

– إنّه هو أخيراً، إنّه نيكول!

ونزلت المضيفةُ على عجل، وهي تُمسكُ بالمصباح.

لم يكن المسافران قد استأنفا حديثهما بعد، حين سمعا في القاعةِ السّفلى ضجيج أصواتٍ مشوّش، تعالت فيه أخيراً كلماتٌ جرى التلفُّظ بها بنبرةٍ جعلت سبياغودري يرتعشُ ويرتعد:

– أيتها المـــرأة، اصمتـــي، سوف نبقى؛ فالرّعدُ يدخل من غير أن نفتح له الباب.

فالتصق سبياغودري بأوردنير، وقال بصوت ضعيف:

– ياسيّدي! ياسيّدي! الويلُ لنا!. . .

سُمع دبيبُ خطوات على الدرج، ثم دخل القاعة رجلان يرتديان ملابس كنسيّة، وتتبعهما المضيفة المذعورة.

كان أحد هذين الرجلين طويل القامة إلى حدٍّ كاف، ويلبس الرّداء الأسود الذي يرتديه الوزراء اللّوثريون، ويضع أجمة الشعر التي يضعونها على رؤوسهم. أما الآخر فقصيرُ القامة، ويرتدي ثوبَ ناسكٍ معقودٍ بحزام من الحبال. أما غطاء الرأس المنسدل على وجهه فلم يكن يُظهر إلا لحيته السّوداء، وكانت يداه مخفيّتين في كميّ ردائه العريضين.

شعر سبياغودري، عند مرأى هذين الكاهنين بأن الرُّعب الذي كان قد سبّبه له الصَّوت الغريبُ لأحدهما قد تلاشى.

كان الوزير يقول للمضيفة:

– لاتقلقي، أيتها السّيدة العزيزة؛ فإن الكهنة المسيحيين ينفعون من يضُرُّ بهم؛ فهل يبتغون الإضرار بمن ينفعهم؟ إننا نلتمسُ ملجأً لنا بكلِّ تواضع. ولئن كلمَّها الدكتور الموقّر الذي يرافقني كلاماً قاسياً؛ فقد كان على خطأ، لأنه نسيَ ذلك الاعتدال في الصَّوت والذي توصي به نذورُنا. ويمكن لأقدس النّاس أن يزلّوا للأسف! لقد كنت تائهاً على الطريق من سكونجن إلى درونتهايم، من غير مرشدٍ، في الليل، ومن غير ملجأ في العاصفة. وهذا الأبُ الموقَر الذي صادفته، وكان مُبعداً مثلي عن منزله، قد تكرّم بالسّماح لي، بأن آتي معه إلى

منزلكم. وكان قد امتدح لي طيبة ضيافتكم، أيتها السّيدة العزيزة. ولا شكّ في أنه لم يخطىء في ذلك. فلا تقولي لنا، كما يقول الراعي السّيء: أيها الغريب، ماذا أتيت تفعل هنا؟[1] فاستقبلينا، أيتها المضيفة الفاضلة، ولسوف ينقذ الرّبُّ حصادك من العاصفة، ولسوف يمنحُ قطعانك ملجأ في الإعصار، كما تعطين الملجأ للمسافرين التّائهين.

فقاطعته المرأة بصوتٍ مخيف:

– أيّها العجوز، ليس لديّ حصادٌ ولا قطعان.

– حسناً! وإذا كنتِ فقيرةً؛ فإن الرّبَّ يباركُ الفقير قبل الغنيّ. ولسوف تشيخين مع زوجك، متمتّعين بالإحترام، وليس ذلك بسبب ممتلكاتك، بل بسبب فضائلك. ولسوف يترعرعُ أطفالك، محاطين بتقدير الناس، ويصبحون على ماسيكون عليه والدُهم.. فهتفت المضيفة:

– اسكت: ببقائنا على مانحن عليه إنّما سيشيخُ أطفالنا مثلنا، وهم يزدرون النّاس، ذلك الازدراء الذي انتقل إلى نسلنا من جيل إلى جيل. اسكتْ، أيّها، العجوز! إن البركة تتحوّل إلى لعنة على رؤوسنا.

فسارع الوزير إلى القول:

– أيّتها السّماء! ومن تكونين إذن؟ وفي أيّة جرائم تقضين حياتك؟

– ما الذي تسميه جرائم؟ وما الذي تسميه فضائل. إننّا هنا نتمتعُ بامتيازٍ هو أنّه لايمكن أن تكون لنا فضائل، ولايمكن أن تكون لنا جرائم[2].

(١) باللاتينيّة في النّص.

(٢) إنه ليس مجرماً، ومع ذلك، فلا ترضى أيّةُ لغةٍ بأن تقول إنه فاضل، وإنّه نزيهٌ، ومحترم إلخ.. وما من مديحٍ أخلاقيّ يمكن أن يناسبه، وبما أن الجميع يفترضون وجود علاقاتٍ مع النّاس؛ فهو ليس لديه مثل هذه//

فقال الوزيرُ وهو يستدير نحو النّاسكِ القصير القامة الذي كان يجفّف ثوبه الخشن (مِسْحَه) أمام الموقد:

- إن عقل هذه المرأة مختلّ.

فردّت المرأة قائلة:

- كلا، أيّها الكاهن! ولتعلم أين أنت فأنا أفضّل أن أخيفَ الآخرين من أن أُثير الشفقةَ لديهم. وأنا لستُ فاقدةً للرّشد، ولكنني امرأةٌ الـ. .

وحال الدّوي المتواصل لبابِ البرج الذي سبّبه هزٌّ عنيف، حال دون سماع بقية الكلام؛ مما جعل سبياغودري وأوردينر يُحسّان بخيبة أملٍ كبيرة، لأنهما كانا يوليان ذلك الحوار اهتماماً صامتاً.

وقالت المرأةُ الحمراء بصوتٍ غير مفهوم:

- اللّعنة على مأمور القضاء الأعلى في سكونجن الذي عيّن لنا هذا البرج المجاور كمكانٍ للإقامة. وربّما لايكونُ هذا أيضاً هو نيكول.

ومع ذلك، فقد أمسكت بالمصباح، وقالت:

- على أيّة حال، إن كان مسافراً آخر؛ فماذا يهمُّ! إن السّاقية يمكن أن تسيل في المكان الذي مرَّ فيه السّيل.

// العلاقات البتّة (جوزيف دوميستر، أُمسيات سان بترسبورغ، الأعمال الكاملة، المجلد: الرابع، الصّفحة: ٠٢٣، وقد أُوردها م. لارويتس في L.H.R، ٢٦٩١ ص: ٢٧٥) إن عزلة الجلاد هي أيضاً عزلةُ لصّ كليبستادور» والذي بفضله يعيش مستقلاً، ومتعقلاً، وسعيداً (ف: ٥. القسم: ٩) حسب طريقة شوماكير التي تمثّل هذه فلسفته بكاملها».

كان المسّافرون الأربعة الذين ظلّوا وحدهم ، ينظر كلّ منهم إلى الآخر ، على أضواء الموقد. أما سبياغودري الذي أرعبه صوت النّاسك في البداية ، والذي طمأنته بعد ذلك لحيته السّوداء؛ فكان يمكن له أن يأخذ بالارتجاف من جديد ، لو رأى العين الثّاقبة ، عين ذلك الذي كان يراقبُه من تحت برنُسِه .

وفي هذا الصمتِ العام ، خاطر الوزيرُ بطرح السّؤال التالي:

– أيّها الأخ النّاسك (وأفترض أنك أحدُ الكهنة الكاثوليك الذين نجوا من الاضطهاد الأخير ، وأنك كنت عائداً إلى معتزلك ، حين صادفتك ، لحسن حظّي) .

فانفتح من جديد الباب المهلهل ، باب الدرجِ المتهدّم ، قبل أن يجيب الأخ النّاسك .

– أيتها المرأة ، إن العاصفة مقبلة ، وسيكون هناك حشدٌ يجلسُ إلى مائدتنا المقيتة ، ويستظلُّ بسقفنا اللّعين .

فأجابت المرأة:

– يانيكول ، لم أتمكن من منع . . .

– ومايهمني كلُّ هؤلاء الضيوف ، شريطة أن يدفعوا! فالذّهب يُكتسب بذبح لصّ .

كان ذلك الذي يتكلّم على هذا النّحو قد توقف أمام الباب بحيث يمكن للغرباء الأربعة أن يتأمّلوه بسهولة . لقد كان رجلاً ذا بُنية جبّارة ، ويرتدي ، شأنه شأن المضيفة ، رداءً صوفياً أحمر . وكان رأسُه الضّخم يبدو وكأنه قد وُضِع

مباشرة على كتفيه العريضتين . وهذا مايتباين مع العنق الطويلة العظيمة لزوجته النحيلة . كانت جبهته منخفضة ، وأنفه أفطس ، وحاجباه سميكين . وفوق أنفه ، كانت عيناه المحاطتان بخطٍّ قرمزيٍّ تلتمعان وكأنهما نار تضطرم في الدّم . أما أسفلُ وجهه الذي كان حليقاً تماماً فيُظهرُ للعيان فمه الكبير والعميق الذي يفتح ضحكٌ مقزّزٌ شفتيه السّوداوين جزئياً ، وكأنهما حافتي جرح لايشفى . وكانت خصلتان من لحيته الجعدة ، ومتدليّتان من خدّيه على عنقه ، تعطيان وجهه شكلاً مربّعاً ، إذا نُظر إليه مواجهةً . وكان ذلك الرجل يعتمر طاقيّة من اللّباد الرّمادي ، يقطرُ المطر منها ، ولم تتنازل يده حتى على لمسِ حافّتها ، عند مرأى المسافرين الأربعة .

أطلق بينينيوس سبياغودري صرخة ذعر حين لمحه ، وأشاحَ الوزير اللّوثريُّ بوجهه وقد اعترته الدّهشةُ والرّعبُ ، فيما كان سيّد المنزل يوجّه إليه الكلام ، بعد أن تعرّفه .

– كيف أنت هنا! ياسيّدي الوزير! في الحقيقة ، لم أكن أظنُّ أني سأتسلّى اليوم برؤيةِ منظرك البائس ، وسحنتك المرتعبة مرّة ثانية .

كبح الكاهنُ أوَّل حركةِ نفوز أحسّ بها ، وغدت ملامحهُ رصينةً وصافية .

– وأنا ، يابني ، قد تهلّلتُ للمصادفة التي أتت بالكاهنِ (الراعي) إلى الخرافِ الضّالة ، ولأن الخراف قد رجعت إلى راعيها أخيراً .

فسارع الآخر إلى القول ، وهو يقهقه:

– آه! أقسم بمشنقةِ أمان ، هذه هي المرَّةُ الأولى التي أسمع فيها أنّهم

يقارنوني بخروف. هل تصدّقني، ياأبتِ، أنك إذا أردت أن تتملّق نسراً، فلا تدعهُ حمامة.

– إن ذلك الذي يغدو النّسر بواسطته حمامةً يواسي، يابنيّ، ولا يتملّق.

– لابدّ، في الحقيقة، ياسيّد أن تكون لديك مؤونة طيبة من الرّحمة. وكان يمكن لي أن أظنّ أنك قد استنفدتها كلّها على هذا الرجل المسكين الذي تُريه اليوم صليبَك لكي تخفي عني مشنقتي.

فأجاب الكاهن:

– لقد كان هذا الكاهن العاثر الحظّ يستحقُّ الرّثاء أقلّ مما تستحق، لأنه كان يبكي. وكنت تضحك، فطوبى لمن يُقرُّ في لحظةِ التكفير، بأن يدَ الإنسان أقلُّ اقتداراً إلى حدٍّ كبير من كلمةِ الرّب!

فسارع المضيف إلى القول بمرحٍ مرعبٍ وتهكّمي:

– أحسنت قولاً، ياأبتِ، فطوبى لمن يبكي. ومن ناحيةٍ أخرى، فإن رجلنا لهذا اليوم لم تكن له جريمة أخرى غير محبّة الملك، إلى حدٍّ لم يستطع معه أن يحيا من غير أن ينقشَ صورة جلالته على ميداليات صغيرة نحاسيّة كان بعد ذلك يطليها بالذّهب على نحوٍ فنيّ لكي يجعلها جديرة بالصورة الملكية.. إن عاهلنا الظريف لم يكن ناكراً للجميل، وقد أعطاه، مكافأة له على محبته الكبيرة، حبلاً جميلاً من القنّب، ولكي يكون ضيوفي الأفاضل على اطّلاعٍ بالأمر، فقد مُنح له الحبل هذا اليوم بالذات، على السّاحة العامة في سكونجن، على يديّ، أنا المستشار الكبير من مرتبةِ المشنقة، ويساعدني السّيد الحاضر هنا، المرشدُ الكبير للمرتبة المعنية.

فقاطعه الكاهنُ قائلاً:

– أيّها المنكود! توقف. فكيف ينسى القصاصَ من يقتصُّ! اسمعِ الرّعد..

– حسناً! ما هو الرّعد؟ إنّه قهقهةُ الشيطان.

– أيها الرّبّ العظيم! لقد كان حاضراً على الموت منذ قليل، وهو يجدّف!..

فصاح المضيف بصوتٍ راعدٍ وساخطٍ إلى حدٍّ ما:

– دعْ المواعظ جانباً، أيّها العجوز الأحمق، وإلا فإنك تلعنُ ملاكَ الظلمات الذي جمعنا مرّتين في غضون اثنتي عشرة ساعة، في العربة نفسها، وتحت السقف ذاته – فاقتدِ برفيقك النّاسك الذي يسكتُ، لأنّ لديه رغبة جيدة في أن يرجع إلى مغارته في ليزاس. وإني أشكرك، أيها الأخ الناسك، على البركة التي أراك تمنحها البرج اللعين، أثناء مرورك على الهضبة. بيد أنك كنت تبدو لي، في الحقيقة، ذا قامة طويلة حتى الان، وتلك اللّحية الشّديدة السّواد كانت تبدو لي بيضاء[1]. - ومع ذلك، فأنت حقّاً ناسك لينراس، والناسك الوحيد في درونتهايموس؟..

فقال الناسك بصوت مكتوم:

– أنا الوحيدُ، في حقيقة الأمر.

---

(١) انظر: نهاية الفصل: /٥١/.

فسارع المضيف إلى القول:

- نحن، والحالة هذه. المتوحّدان الإثنان في الريف - هيا! يا بيشلي، استعجل قليلاً شقّة الخروف هذه، فأنا جائعٌ، وقد أحزّني، في قرية بورلوك، ذلك الدكتور اللّعين مانريل الذي لم يكن يريد أن يعطيني أربعة عشر أسكالياً عن الجثّة؛ إنّهم يعطون ذلك الحارس الجهنميّ، حارس سبلادجيست، أربعين أسكالياً في درونتهايم - هيه، أيّها السّيد ذو الشعر المستعار، ماذا بك إذن؟ إنك ستسقط على قفاك - بالمناسبة، يابيشلي، هل أنهيت هيكل أورجيفيوس صانع السّموم، هذا السّاحر الشّهير؟ فربّما يكون الوقت قد حان لإرساله إلى قائمة الغرائب، في بيرعن. وهل أرسلت واحداً من خنازيرك الوحشيّة الصّغيرة إلى مأمور الدّيون في لوفيغ للمطالبة بما يدين به لي؟ إنها أربعة ريالات مزدوجة، مقابل القيام بسلقِ ساحرة وخيميائيين اثنين، واقتلاع بضع مصفوفات من الجسور الخشبية من قاعة محكمية كانت تشوّه منظرها؛ وعشرون أسكالياً لإنجاز إنزال المشنوق اسماعيل تيفين اليهوديّ الذي كان قد شكا منه المطران الموقّر، وريالاً واحداً مقابل وضع مسندٍ من الخشب الجديد للمشنقة الحجرية في البلدة.

فأجابت المرأة بصوت حادّ:

- لقد ظلَّ الأجرُ بيد مأمور الديون، لأنّ ابنك قد نسي الملعقة الخشبية لكي يستلمه، ولأن أيّ خادم من خدمِ القاضي لم يشأ أن يسلّمه إياه باليد.

فقطب الزّوج حاجبه وقال:

- فلتقع رقبتُهم بين يدي، فيروا إن كنت أحتاج إلى ملعقةٍ خشبية لأصيبهم. ومع ذلك، فينبغي مراعاة هذا المأمور؛ فقد أرسلت إليه عريضة

السّارق إيفار الذي يشكو من أن السّؤال لم يوجّهه إليه جلاد التعذيب، بل أنا، متذرّعاً بأنه لم يكن قد اعتبُر سافلاً بعد، ولم تجر بعد محاكمته - بالمناسبة، امنعي، أيتها المرأة، الصّغار إذن من أن يلعبوا بالملاقط والكلابات؛ فقد بعثروا أدواتي كلّها بحيث لم أستطع استخدامها اليوم.

وتابع المضيف، وهو يقترب من كومةِ القشّ التي كان سبياغودري يظنّ أنه يرى فيها ثلاث جثث، وقال:

- أين هم، أولئك الوحوش الصّغار؟ ها هم نائمون هنا. إنهم ينامون، برغم الضجّة، مثل ثلاثة مشنوقين نازلين من المشنقة.

عند هذه الكلمات التي يتعارض فيها الرُّعب مع الهدوء المخيف، والمرح الفظيع لذلك الذي كان يتلفّظ بها، ربّما يكون القارئ قد حزر من هو ساكن برج فيغلا. أما سبياغودري الذي تعرّفه، خلال ظهوره، لأنّه كان قد رآه يحضر في أغلب الأحيان إلى حفلات مخيفة، في ساحة درونتهايم؛ فقد شعر بأنه على وشك أن ينهار من الرُّعب، خصوصاً حين تخيَّل الواقع الشخصيّ الذي كان لديه، منذ العشيّة، لكي يخشى ذلك الموظف المخيف؛ فانحنى على أوردينر، وقال له بصوت مجمجم تقريباً:

- إنه نيكول أوروجيكس، جلاد درونتهايموس!.

أمّا أوردنير، الذي أصيب بالرّعب في البداية، فقد ارتعش، وندم على الطّريق التي قطعها، والعاصفة التي عانى منها. ولكن لا أدري أيّ إحساس بالفضول لايوصف قد استولى عليه في الحال. وفي الوقت الذي أخذ فيه يرثي لمأزق مرشده العجوز ولذعره، راح يولي اهتمامه الكامل كلام الكائن الغريب

الماثل أمام عينيه، وعادات حياته، مثلما يصغي المرء إلى زمجرة ضبع، أو إلى زئير نمرٍ جُلب من الصحراء إلى مدننا. كان سبياغودري المسكين بعيداً عن أن يكون لديه مايكفي من الصّفاء الذّهني بحيث يكوّن، من ناحيته، مشاهدات فيزيولوجية. وإذا اختبأ خلف أوردينر، فقد أخذ يتجمّع داخل معطفه، ويرفع يداً قلقة إلى لصقته، ويجذب نحو وجهه مؤخرة الشعر المستعار المتطاير، ولا يتنفس إلا من خلال تنهُّدات عميقة.

ومع ذلك، كانت المضيفة قد قدَّمت، على طبقٍ كبير من الغضار الشقَّة المشويّة للخروف المزوَّد بذيله المطمئن. وأتى الجلاد ليجلس قبالة أوردينر وسبياغودري، بين الكاهنين. أما زوجته، فبعد أن جهزّت المائدة بجرّةٍ من البيرة المحلاة بالعسل، وبقطعة من خبز ريندييور[1] وخمسة صحون خشبية، جلست أمام النّار، وانشغلت بسنِّ الكلاّباتِ المثلّمةِ لزوجها. قال أوروجيكس ضاحكاً:

– والآن، أيّها الموقّر، تقدّم الشّاة لك لحم الخروف، وأنت، يا سيّد الشّعر المستعار، هل الرّيحُ هي التي أنزلت تسريحتك على وجهك، بهذا الشّكل.

فدمدم المرتجفُ سبياغودري:

– الرّيح... يا سيّدي، العاصفة...

– هيّا، تشجّع، ياصديقي القديم، فأنت ترى أنّنا صبيانٌ لطفاء، والسَّادَةُ الكهنة وأنا. فقل لنا من أنت، ومن هو رفيقُك الشّابّ الصّموت؟ وتكلّم قليلاً،

(١) خبزٌ يؤكل مع قشره، وتغتذي به الطّبقة المعوزة في النرويج.

لنتعارفْ. فإذا كانت أحاديثُك تتضمّنُ كلّ ما يعد به مرآك؛ فلا بدَّ أن تكون ممتعاً حقاً. فقال البوّاب، وهو يقلّص شفتيه، ويُظهِرُ أسنانه، ويغمزُ بعينه لكي يبدو ضاحكاً:

– إن صاحب المنزل يمزح؛ فأنا لست سوى عجوز مسكين..

فقاطعه الجلاد المرح قائلاً:

– أجل، عجوز عالم ما، وساحرٌ عجوز ما..

– أوه! ياسيّدي صاحب المنزل، عالمٌ أجل، أما ساحر فلا.

– هذا أسوأ. فيمكن للسّاحر أن يكمل مجلسنا الأعلى. فلنشربْ. أيها السّادة ضيوفي، لكي نُعيد الكلام إلى هذا العالم العجوز الذي سيُفرح عشاءنا. على صحّـة مشـنوق اليوم، يا أخي المبشر! وإذن! أيها الأب النّاسك، فأن ترفض بيرتي؟

كان الناسك، في الحقيقة، قد سحب من تحت ردائه مطرةً كبيرة ملأى بماءٍ شديد الصّفاء عبًّأ كأسه فيه، فهتف الجلاد:

– تبّاً! أيّها النّاسك لينكراس، إذا لم تتذوقْ بيرتي، فإنّي سأتذوق هذا الماء الذي تفضّلُه عليها.

فأجاب النّاسك:

– فليكن.

فردّ الجلاد:

– انـزع قفّازك أولاً ، أيها الأخ الموقّر؛ فلا يُسكب الشـرّاب إلا باليد المجرّدة .

فصدرت عن النّاسك حركة رفضٍ ، وقال:

– إن هذا نذر .

فقال الجلاد:

– فلتسكب ، على كلّ حال .

وما إن رفع أوروجيكس كأسه إلى شفتيه حتى أبعده فجأة ، فيما كان النّاسك يفرغه دفعة واحدة .

– وحق كأس يسوع ، أيّها الناسك الموقّر ، ما هو هذا السّائل الجهنميّ؟ لم أشربْ مثيلاً له من قبل ، منذ ذلك اليوم الذي أوشكت فيه على الغرق ، أثناء إبحاري من كوبنهاغن إلى درونتهايم . في الحقيقة ، أيّها النّاسك . إنه ليس من مياه نبع لينكراس . إنه من ماء البحر . .

فردّد سبياغودري برعب كان يزداد شدّة لمرأى قفّاز النّاسك:

– من ماء البحر!

فقال الجلاد ، وهو يستدير نحوه مقهقهاً:

– أكلُّ شيء يخيفك هنا إذن ، يا صديقي أبسالون ، حتى شراب ناسكٍ قدّيس يمارس إماتة النّفس؟

– للأسف، لا، أيّها السّيد.. ولكن ماء البحر!.. ليس هناك إلا رجل واحد..

– هيّا، إنك لاتعرف ماذا تقول، أيها السّيد الدكتور، واضطرابك بيننا يصدر عن شعورٍ بالخطأ، أو عن احتقار..

وأعادت هذه الكلمات التي جرى التلفُّظ بها بلهجة حاقدة، أعادت سبياغودري إلى ضرورة إخفاء ذعره. ولكي يلاطف مضيفه المرعب، فقد استنجد بذاكرته الواسعة، واسترجع القليل من حضور الذّهن الذي تبقى لديه.

– احتقار، أنا، احتقار لك، ياسيدي صاحب المنزل! لك أنت، يامن يعطي وجودك في أية مقاطعة حقَّ الدّم لها![1] احتقار لك، ياسيّدي الجلاد، يامنفِّذ العقاب الدنيوي، وسيف العدالة، وترسَ البراءة! لك، يا من يصنِّفك أرسطو بين القضاة، في الكتاب السّادس، والفصل الأخير من كتابه: «السّياسيّون». ويا من يحدّد باريس دو بوتيو أجره بخمسة ريالات ذهبيّة، في بحثه: «في المأمور». كما يؤكّد هذا المقطع:

quin que AUREOS Manivolto لك ياسيدي! أنت، يا من حصل زملاؤه في كرونشتات على ألقاب النّبالة، بعد ثلاثمئة رأسٍ قطعوها! لك، يا من وظائفه المخيفة، ولكن المشرِّفة، مفعمة بالكبرياء، في فرانكونيا، بأكثر العرسان حداثةً، وفي روتلينغ، بأصغر المستشارين سنّاً. وفي ستيديين، بآخر بورجوازيّ مستقرٌّ في المدينة! أو لست أعلم أيضاً، ياسيّدي الطيب، بأن زملاءك

(١) الحقّ في أن يكون لها جلاد.

يمتلكون في فرنسا حقّ الـ Havadium على كل مريض في سان – لادر، وعلى صغار الخنازير، وعلى حلويات سهرة عيد الغطاس. كيف لا أكنُّ احتراماً عميقاً لك، عندما يعطيك رئيس دير سان – جيرمان دي بري كلَّ سنة، في عيد سان فانسان، رأس خنزير، ويجعلك تسير في مقدمة الزّياح(1).

وهنا قوطعت القريحة العالمة للبواب بصورة مفاجئة على يد الجلاد:

– الحقّ أن هذه هي المرّة الأولى التي أحاط علماً بهذا الأمر!

إن رئيس الدّير العالم الذي تتحدّث عنه، أيها الموقّر، قد اختلس منّي حتى الآن كافة الحقوق التي تصفها بصورة جدّ جذابة. وتابع أوروجيكس قائلاً:

– أيّها السّادة الغرباء، وبصرف النظر عن كلِّ المبالغات التي سردها هذا العجوز المجنون، لقد فقدت حقاًمهنة حياتي، لست اليوم أكثر من جلاد مسكين لمقاطعة فقيرة. وإذن، فقد كان يتعيّن عليّ بالتأكيد أن أسلك طريقاً أخرى أجمل من طريق سيتليزون ديكوا، ذلك الجلاد الذّائع الصّيت، جلاّد موسكوفيا؛ فهل تظنون أني لا أزال الشخص ذاته الذي تمَّ تعيينه منذأربعة وعشرين عاماً، لإعدام شوماكير؟

فهتف أوردنير:

– شوماكير، الكونت دوغريفنغلد!

– هذا يدهشك، أيها السّيد الصّامت، حسناً، أجل، لهذا الشوماكير

---

(1) أي الطواف (م: ز.ع). إن مصدر فيكتور هيغو هنا هو الموسوعة، في مادة: منفِّذ الحكم: (٦٥٧١، المجلد السادس – ص: ٩٢٢ – ١٣٢. وقد أورده سيرفيه إيتيين في: المصادر. ص: /٥٤١/.

نفسه والذي تضعه مصادفةٌ فريدةٌ ثانية تحت يدي، في الحالة التي يروقُ فيها للملك أن يرفع وقف التّنفيذ. فلنفرغ هذه الجرّة، أيها السّادة، ولسوف أروي لكم، كيف حدث أن انتهيت إلى هذه الحال البائسة، بعد أن كانت لي بداية جدُّ لامعة.

– كنت في العام ١٦٧٦، خادماً لروم ستوالد، جلاد كوبنهاغن الملكيّ. وبما أنّ سيدي قد ألمّ به المرض أثناء الحكم على الكونت دوغريفنغلد؛ فقد تمَّ اختياري، بفضل الحمايات التي كنت أتمتّع بها، لكي أحلّ محله في ذلك الإعدام المشرّف. وفي ٥ حزيران، (وقد لا أنسى أبداً ذلك اليوم)، ومنذ الساعة الخامسة صباحاً، وبمساعدة مُعدّ منصّة الإعدام[1] نصبت في ساحة القلعة منصة إعدام كبيرة مغلّفة بالأسود، احتراماً لمرتبةِ المحكوم. وفي السّاعة الثامنة، أحاط الحرس النبيل بالمنصّة. أمّا فرسان سليسفيغ فقد كبحوا الحشد الذي كان يتدافع على السّاحة. إن أيّ إنسان آخر كان يمكن له أن تأخذه النشوةُ! فقد كنت واقفاً، والسّيف بيدي، وكنت أنتظر على المنصّة، وكانت كلُّ النّظرات تحدّق بي؛ ففي تلك اللحظة، كنت الشخصيّة الأكثر أهمية في المملكتين. وكنت أقول إن حظي قد أقبل. فماذا يستطيع كلُّ هؤلاء السّادة الكبار الذين أقسموا على هلاك المستشار. ماذا يستطيعون أن يفعلوا بدوني؟ كنت أرى نفسي وقد غدوت منفِّذاً ملكيّاً للإعدام، وحاصلاً على اللقب من العاصمة. كان لديّ خدم، وامتيازات . . . اسمعوا! إن ساعة القلعة تعلن العاشرة. وها هو السّجين يخرج من سجنه، ويجتاز السّاحة، ويصعد إلى منصة الإعدام بخطىً ثابتة، ومظهر هادىء. وأريد أن أربط له شعره، فيدفعني، ويؤدّي هذه الخدمة الأخيرة لنفسه. ويقول وهو يبتسم لرئيس دير سانت – أندريه: «لم أسرّح

(١) نجّار منصّة الإعدام.

شعري بنفسي منذ زمن طويل». وأقدّم له العصابة السّوداء، فيبعدها عن عينيه باحتقار، ولكن من غير أن يُبدي ازدراء نحوي. وقد قال لي: - «ياصديقي، ربّما تكون هذه هي المرّة الأولى التي تجمع على مسافة بضعة أقدام بين الضّابطين الأقصيين في النظام القضائي، المستشار والجلاد». وقد ظلّت هذه الكلمات محفورة في رأسي.

إنه يرفض أيضاً الوسادة السّوداء التي كنت أريد أن أضعها تحت ركبتيه، ويعانق الكاهن ويجثو، بعد أن قال بصوت عالٍ إنه يموتُ بريئاً. حينذاك، حطّمت بضربة دبّوس درع شعاراته. وأنا أصيح تبعاً للتقليد: «لايتمُّ هذا من غير سبب عادل؛ فهزّت هذه الإهانة صلابة الكونت، فشحب لونه. بيد أنه سارع إلى القول: لقد منحني إياها الملك؛ والملك يمكنه أن ينتزعها مني. وأسند رأسه إلى خشبة الإعدام، وقد أدار عينيه نحو الشَّرق. أمَّا أنا، فقد رفعت سيفي بيديّ الاثنتين.. فأصغوا جيداً! - في تلك اللحظة، تصل إليّ صرخة تقول - العفو، باسم الملك! العفو لشوماكير! فأستدير لأرى مرافقاً عسكريّاً يخبُّ على جواده باتّجاه منصّة الإعدام، وهو يلوّحُ برقّ؛ فينهض الكونت بهيئة ليست فرحة، بل تنمُّ عن الرّضى فحسب، ويُسلّم الرّقّ إليه، فيهتف: أيّها الإله العادل! السّجن المؤبّد! إن عفوهم أشدُّ قسوةً من الموت». وها هو ينزل خائر العزم، مثل لصٍّ من فوق منصّة الإعدام التي كان قد صعد إليها بصفاء(١).

---

(١) «لقد تهيّأ للموت بامتثال وورع، وفي يوم الإعدام، مضى إلى ساحة القلعة التي كانت منصّة الإعدام منصوبةً فيها برباطة جأش وثبات. فربط شعره بنفسه، ورمى بازدراء العصابة التي كانوا يريدون أن يغطّوا عينيه بها. وبعد أن احتجّ بكلماتٍ قليلة قائلاً إنه يموت بريئاً. جثا على ركبتيه، لكي يتلقى الضربة المميتة. وبعد أن حطّم منفذ الإعدام شعارات نبالته وهو يتلفظ، حسب التقليد بأن «ذلك لايجري من غير سبب، عادل» بدا متأثراً بهذه الإهانة أكثر من الموت ذاته، وتغيّر لون وجهه. ومع ذلك، فقد اكتفى بالقول: «إن الملك قد منحني إياها، ويمكنه أن ينتزعها مني. وفي اللحظة التي كان منفّذ الإعدام يرفع سيفه فيها. هتف //

أما أنا فقد كان ذلك عندي سيّان، وقلّما كان قلبي يحدّثني بأن خلاص ذلك الرَّجل معناه خسارتي؛ فبعد أن تمَّ تفكيك منصّة الإعدام، دخلت على سيّدي، وأنا لا أزال مفعماً بالآمال، مع أنني أشعر ببعض الإخفاق لأنني قد خسرت الرّيال الذّهبيّ، وهو سعر قطع الرأس. ولم يكن ذلك كلَّ شيء؛ ففي اليوم التالي، تلقّيت أمراً بالرّحيل، وشهادة منفّذ الإعدام لمنطقة درونتهايموس، وهي شهادة جلاد ريفيّ، وجلاد لآخر مقاطعة ريفية في النرويج. وهكذا، فلتعرفوا، أيها السّادة! كيف أن الأسباب الصغيرة تجلب النّتائج الكبيرة. إن أعداء الكونت، لكي يظهروا بمظهر المتسامحين، كانوا قد رتبوا كلَّ شيء لكي يصل العفو بعد تنفيذ الإعدام بلحظة. ولم يكن الأمرُ يحتاج إلا لدقيقة واحدة. وألقوا بالمسؤولية على بطئي، وكأنه من اللائق أن نمنع شخصية شهيرة من أن تلهو لبضع لحظات قبل آخر لحظةٍ من حياتها! وكأنّ منفّذ ملكياً للإعدام يقطع رأس مستشار كبير يمكنه أن يفعل من غير كرامة واعتدال يفوقان ما يفعله جلاد ريفيّ، حين يقوم بشنق يهوديّ! وقد أضيف إلى ذلك نيّة الإيذاء. فقد كان لديّ شقيق أظنُّ أنه لايزال شقيقي أيضاً، كان قد توصّل، عن طريق تغيير اسمه، إلى منزل المستشار الجديد، الكونت دالفيلد. وقد ضايق وجودي في كوبنهاغن ذلك التّعس؛ فشقيقي يحتقرني لأنه ربّما يكون أنا من سيشنقه ذات يوم(١).

وهنا يتوقف الراوي البليغ لكي يمرِّر فكاهته، ويتابع:

// أحد مرافقي الملك: عفو من جهة جلالة الملك عن شوماكير. وسلّمه ورقة تحتوي على شروط العفو. أمّا غريفنفلد، الذي كان قد نهض بهيئة راضية، فما إن قرأ أنه قد حكم عليه بالسجن المؤبّد حتى غرق ثانية في حالة من الوهن الشديد، وهتف بألم بأن هذا العفو أشدُّ قسوة من الموت نفسه». (تاريخ الدّانمرك، المجلد التاسع، الصّفحات: ٢٠٩ - ٢١٠).

(١) إعلان عن الحادثة المفاجئة في الفصل /٠٥/ الذي نعلم فيه أن موسديمون هو شقيق أوروجيكس، ومن هنا نعرف التواطؤالجوهريّ بين المجرم والجلاد.

- أنتم ترون، أيها الضيوف الأعزاء، بأني قد اتخذت قراري؛ فليذهب الطّمع إلى الشيطان حقاً! إني أزاول مهنتي هنا بنزاهة، فأبيع جثثي، أو يصنع منها بيشلي هياكل عظميّة تشتريها مني غرفة التشريح في بيرغن. إني أضحك من كلِّ شيء، وحتى من تلك الأنثى التي كانت غجرية، والتي جعلتها العزلة مجنونةً. إن ورثتي الثلاثة يترعرعون في خشية الشيطان والمشنقة. إن اسمي هو فزاعة الأطفال الصّغار، أطفال درونتهايموس، والمأمورون يقدِّمون لي عجل نقل، وملابس حمراء. ويقيني البرجُ الملعون من المطر مثل قصر المطران، والكهنة الشيوخ الذين تدفعهم العاصفة إلى منزلي يعظونني، والعلماء يتملقونني. وأنا، إجمالاً، سعيد مثل أيّ إنسان آخر، أشرب، وآكل، وأشنق وأنام.

ولم يوصل الجلاد هذا الحديث الطويل إلى نهايته من غير أن يخلطه بالبيرة، وبانفجارات الضَّحك الضاجّة، فهمس الوزير:

-إنه يقتل، وينام، وياله من منكود!فهتف النّاسك:

- كم هو سعيد هذا الشقيّ!

فقال الجلاد:

- أجل، أيّها الأخ النّاسك، إني شقيٌّ مثلك، ولكنني، بالتأكيد أكثر سعادة؛ فمن العجيب أن المهنة تكون جيدة، إذا لم يستحسن أحد أن يجد لذّة في تدمير منافعها. فهل يمكن أن تصدِّق أني لاأعرف أية أفراح عظيمة قد قُدّمت لمرشد الملك الذين عُيِّن حديثاً في درونتهايم. وقد قدّمت له الفرصة لكي يطلب العفو عن اثني عشرمحكوماً يخصّونني. . . ؟

فهتف الوزير:

– يخصّونك!

– أجل، بالتأكيد، يا أبتِ، وسبعة منهم كان من المفروض أن يُجلدوا، واثنان أن يُدمغا على الخدّ الأيسر، وثلاثة منهم أن يشنقوا، وهذا مايساوي اثني عشر إجمالاً.. أجل اثني عشر ريالاً وثلاثين أسكالينا أخسرها، إذا مامُنح العفو. فكيف تجدون، أيّها السّادة الغرباء، هذا المرشد الملكيّ الذي يتصرف على هذا النحو بأملاكي! إن هذا الكاهن اللعين يُسمّى أتاناز موندر. أوه! لو أمسكت به..!.

نهض الوزير، وقال بصوت معتدل وهدوء:

– يابنيّ، أنا أتاناز موندر.

لدى سماع هذا الاسم، اشتعل الغضبُ في كلِّ قسمات وجه أوروجيكس، فاندفع بغتةً من مقعده، ثم لاقت نظرته الغاضبة نظرة مرشد الملك الهادئة والمتسامحة، وأتى ليجلس ثانيةً بهدوء، صامتاً ومرتبكاً.

هيمنت لحظةٌ من الصمت. أما أوردنير الذي كان قد نهض عن المائدة. وتهيأ للدّفاع عن الكاهن، فقد كان أوّل من قطع تلك اللحظة، وقال:

– يانيكول أوروجيكس، هذه ثلاثة عشر ريالاً لتعوِّضك عن العفو الذي صدر عن المحكومين..

فقاطعه الوزير قائلاً:

– واأسفاه! من يدري إن كنت سأحصل على هذا العفو. سوف يتعيّن علي أن أتمكّن من التّحدث مع ابن نائب الملك، لأن ذلك يتعلّق بزواجك من ابنةِ المستشار.

فأجاب الشابُّ بصوتٍ حازم:

– أيها السيد المرشد، سوف تحصل عليه؛ فإن أوردنير غولدينليف لن يتلقّى خاتم الزواج، إذا لم تقطع أصفاد محميّيك.

– أيها الفتى الغريب، إنك لاتستطيع أن تفعل في هذا الأمر شيئاً. ولكن، عسى أن يسمعك الربّ، ويكافئك!.

ومع ذلك، فإن الرّيالات الثلاثة عشر، ريالات أوردنير، كانت قد أنجزت ما كانت نظرة الكاهن قد بدأته. أما نيكول الذي هدأ بصورةٍ تامّة؛ فقد استعاد مرحه:

– عجباً، أيها المرشد الموقّر، إنك رجلٌ كريم، وجدير بأن تخدم مصلى سانت – إيلاريون. كنت أقول عنك أشياء أكثر مما كان رأيي فيك. إنك تسير باستقامةٍ في طريقك. وليس الذّنب ذنبك إن كان يتقاطع مع طريقي. بيد أن ذلك الذي أحقد عليه هو حارس الموتى، وبوّاب السّبلادجيست.. ماذا كان اسمه؟ سبليوغري؟... سبادوغري؟. قل لي، أيها العلامة العجوز، أنت يا بابل العلوم، أنت الذي تعلم كلَّ شيء، ألا يمكنك أن تساعدني في ايجاد اسم ذلك السّاحر زميلك..؟ فلابدَّ أنك قد صادفته أحياناً، في أيام محفل السبت[1] وهو يمتطي مكنسةً في الهواء؟

(١) أي الاحتفالات الليلية التي يقيمها السّحرة برئاسة الشيطان. (م: ز.غ).

من المؤكّد أنه لو كان بمقدور بينينيوس أن يهرب في تلك اللحظة على مطيَّةٍ هوائية من ذلك النوع، فلن يبالي راوي هذه الحكاية بأن يسلّمه بكثيرٍ من الفرح آلته الخفيفة المذعورة. فلم يكن حبُّ الحياة قد تطوّر قطّ لديه إلى تلك الدرجة من القوة، إلا منذ أن أدرك بكلّ أعضائه الخطر المحدق به. لقد كان كلُّ ما يراه يرعبه؛ ذكريات البرج الملعون، وعين المرأة الحمراء الزائغة، وصوت النّاسك الغامض، وقفّازاه وشرابه، والجسارةُ المغامرة لرفيقه الشاب، وفوق كلّ شيء، الجلاد. ذلك الجلاد الذي وقع هو في عرينه متَّهماً بجريمة قتل أثناء هروبه. لقد كان يرتجفُ بشدّة بحيث شُلَّت كلّ حركة إرادية لديه. خصوصاً حين شهد أن الحديث يدور عليه، وحين سمع تعنيفاً أوروجيكس الرّهيب. وبما أنّه قلّما كان يهمُّه أن يحاكي بطولة الكاهن؛ فقد أبى لسانه المتردِّد لفترةٍ ليست قصيرة أن يجيب.

فسارع الجلاد إلى القول:

– لابدَّ أنك تعرف اسم ذلك البواب، بواب السبلادجيست؟ فهل يجعلك شعرك المستعار أصمّاً؟

– بعض الشيء، ياسيّدي..

وقال أخيراً:

– أنا لاأعرف هذا الاسم، أقسم لك.

فقال صوت النّاسك المرعب:

– إنّه لايعرفه. إن ذلك الرّجل يدعى بينينيوس سبياغودري.

فهتف العجوز برعب:

– أنا! أنا! أيها الرّبُّ العظيم!

فقهقه الجلاد:

– ومن يقول إنّه أنت؛ فعن ذلك الوثنيّ إنّما نتكلّم. إن مربي الأطفال هذا يرتعب، في الحقيقة، من لاشيء. فماذا قد يكون الأمر، لو كان لهذه التكشيرات المضحكة سبب جدّي؟ إن هذا العجوز المجنون سيكون شنقه أمراً مسلّياً.

وتابع الجلاد الذي كانت ارتعادات سبياغودري تفرحه:

– وهكذا، أيّها العلامة الموقّر. ألا تعرف بينينيوس سبياغودري؟

فقال البوّاب وقد اطمأن قليلاً على تخفيّه. إني لاأعرفه. أؤكد لك. وبما أنّ التعاسة قد حلّت به لأنه لم يرقْ لك، فلسوف أكون، ياسيدي، جدَّ مستاء حقاً، لو عرفت ذلك الرّجل.

فسارع أوروجيكس للقول:

– وأنت، أيها السيد الناسك، يبدو أنك تعرفه؟

فردّ الناسك:

– أجل، في الحقيقة، إنه رجلٌ طويل القامة وعجوز، ونحيل وأصلع..

أما سبياغودري ، الذي تملكه الخوف تماماً من هذا الوصف التشخيصي[1] ، فقد سارع إلى تثبيت شعره المستعار .

وتابع الناسك قائلاً:

- إن يديه طويلتان مثل يديّ سارق لم يصادف مسافراً منذ ثمانية أيّام ، وظهره محنيّ . . فاستقام سبياغودري بقدرإمكانه .

- على أية حال ، فيمكن للمرء أن يظنه إحدى تلك الجثث التي يحرسُها ، لو لم تكن عيناه ثاقبتين . فرفع سبياغودري يده إلى لصيقته الواقية .

فقال الجلاد للنّاسك:

- شكراً ، يا أبتِ ، في أيِّ مكان ألتقيه فيه ، سوف أتعرف اليهوديَّ العجوز . .

أما سبياغودري الذي كان مسيحياً مؤمناً جدّاً ، فقد اغتاظ من تلك الإهانة التي لا تُطاق ، ولم يستطع أن يكبح هذا التعجب:

- يهوديّ ، ياسيّدي! . .

ثم توقّف بلا زيادة ، وهو يرتجف لأنه قد تكلّم أكثر مما ينبغي .

- حسناً ، يهودياً كان أم وثنياً . ما أهمية ذلك ، إن كانت له علاقات مع الشيطان ، كما يقال .

---

(١) ضربٌ من الوصف الذي يتجلّى موضوعه في التّعريف بصورة أو هيئة إنسان أو حيوان . (ليتّريه) .

فسارع الناسك إلى القول ، وهو يبتسم ابتسامةً تهكميةً لم يكن يُخفيها برنُسه إخفاء تامًّا:

– إني أصدق ذلك بكلِّ سهولة. هذا إذا لم يكن شديد الجبن . ولكن كيف يمكنه أن يتعاهد مع الشيطان . إنّه جبان مثلما هو شرّير ، وحين يتملكه الخوف ، لايعود يعرف نفسه .

كان الناسك يتكلم بهدوء، وكأنّه يركّب صوته تركيباً . وكان بطء كلماته نفسه يضفي عليها تعبيراً غريباً .

فردّد سبياغودري في دخيلة نفسه:

– إنّه لم يعدْ يعرف نفسه!

فقال الجلاد:

– يغضبني أن يكون رجل شرير جباناً ، فهو لايستأهل أن يكون مكروهاً يجب أن يقاتل المرء ثعباناً ، أما العظاية فلا يسعه إلا أن يسحقها سحقاً . وقد خاطر سبياغودري ببضع كلماتٍ ليدافع عن نفسه ، فقال:

– ولكن ، أيّها السّادة ، هل أنتم متأكدون من أن المأمور العموميَّ الذي تتحدّثون عنه هو كما تقولون؟ فهل لديه سمعة معينة . .

فسارع الناسك إلى القول:

– سمعة معينة! أكثر سمعة مقيتة في المنطقة!

فاستدار سبياغودري الذي أحسّ بالخيبة نحو الجلاد، وقال:

- أيها السيد، صاحب المنزل. أية إساءات تأخذونها عليه. لأنّي لا أشكُّ في أن كراهيتكم له ليست مشروعة.

- أنت على حق، أيّها العجوز، في ألا تشكّ في ذلك؟ فبما أن تجارته تشبه تجارتي، فإن سبياغودري يقوم بكلّ ما يضرُّ بي.

- أوه! أيها السّيد، لاتصدّق ذلك!. . . - أو إذا كان الأمر كذلك، فهذا لأن ذلك الرّجل لم يرك مثلما أراك، محاطاً بزوجتك اللّطيفة، وأبنائك السّاحرين، ومستقبلاً الغرباء في هناءة مقرّك المنزليّ. لو أنه تمتّع، مثلنا، بضيافتك المحبّبة، أيها السَّيد، لما كان يمكن لذلك المنكود أن يكون عدّواً لك.

ما كاد سبياغودري ينهي هذه الخطبة الموجزة الحاذقة، حتى نهضت المرأة الطويلة القامة، والتي كانت حتى ذلك الحين صامتة، وقالت بصوت احتفاليٍّ حادّ:

- لايكون لسان الأفعى أشدّ سميّة إلا حين يكون مدهوناً بالعسل.

ثم عادت إلى الجلوس، وتابعت صقل كلاباتها، من خلال عملٍ يُحدث صوتاً مبحوحاً وصارخاً ويملأ الفواصل ما بين الأحداث، ويشكّل، على حساب آذان المسافرين الأربعة، التلاوة التي تقوم بها الجوقات في المأساة الإغريقية.

وقال البوّاب لنفسه، بصوتٍ خفيضٍ جداً، إنّه لم يكن يستطيع أن يجد تفسيراً آخر للأثر السّيّء الذي تركه الإطراء الذي قدّمه:

– هذه المرأة مجنونة حقاً.

فهتف الجلاد:

– إن بيشلي على حقّ، أيّها العلامة الأشقر الشّعر؛ فأنا أعتبرك لسان أفعى، إذا ما تابعت فترة أطول تقديم التّبريرات لهذا السّبياغودري . . .

فهتف هذا الأخير:

– معاذ الله، ياسيّدي، إنّي لا أقدّم له التبرير إطلاقاً.

– الحمد لله؛ فأنت تجهلُ، من جهة أخرى، إلى أيّ حدٍّ تصل به الوقاحة. وهل تصدّق أن السّفيه قد وصل به التّهوّر إلى منازعتي ملكية هان الإيسلندي؟

فقال الناسك فجأة:

– هان الإيسلنديّ . .

– أجل، هو، هل تعرف هذا اللّصّ الشّهير . . . ؟

فقال النّاسك:

– أجل.

– وإذن، فكلُّ لصٍّ يرجع إلى الجلاد، أليس هذا صحيحاً؟ فماذا يفعل هذا السّبياغودري الجهنّمي؟ إنه يطلب أن توضع جائزةٌ مقابل رأس هان . .

فقاطعه النّاسك:

– يطلب أن توضع جائزةٌ مقابل رأس هان!

– إنه يتجزأ على ذلك ، وهذا فقط لكي يعود الجسد إليه ، ولكي أحرم من ملكيتي له .

– إنّه لأمرٌ دنيء ، أيها السّيد الجلاد أوروجيكس ، أن يتجزأ على منازعتك ملكاً يخصُّك ، على هذه الصورة الجلية!

كانت هذه الكلمات مترافقةً بابتسامةٍ خبيثةٍ كانت تُرعب سبياغودري . إن الصندوق معتم ، أيّها النّاسك ، بحيث يلزمني إعدامٌ مثل إعدام هان الإيسلندي لكي أخرج من عتمتي ، وأصنع لنفسي ثروة لم يصنعها لي إعدام شوماكير .

أهذه حقيقة أيها الجلاد نيكول؟

– أجل ، أيّها الأخ النّاسك . وفي اليوم الذي يُعتقل فيه هان ، تعال لرؤيتي ، وسوف نذبحُ خنزيراً سميناً على شرف ترفيعي المقبل .

– بكلِّ سرور ، ولكن هل تدري إن كنت في ذلك اليوم غير مرتبط . زدْ على ذلك ، أنك قد تخلّيت عن طموحاتك للتوّ .

– وهذا لا شكّ فيه ، ياأبتِ ، فحين أرى أنه من أجل القضاء على آمالي المبنية على أفضل الأسُس ، يكفي أن يكون هناك شخصٌ اسمه سبياغودري ، ومطالبة بتحديد جائزة .

كان ذلك الصّوت بالنسبة للحارس المسكين مثل نظرة الضّفدع للعصفور .

فقال:

– لماذا نحكم حكماً متهوّراً؟ إن هذا غير مؤكّدٍ، وربما يكون إشاعةً كاذبة. .

فهتف أوروجيكس:

– إشاعة كاذبة. إن الأمر جدٌّ مؤكّد. إن الطلب الذي تقدّم به المأمورون قد وصل إلى درونتهايم في هذه اللحظة، ويسانده توقيع بوّاب السّبلادجيست. ونحن لا ننتظر إلا قرار سعادة الجنرال الحاكم.

كان الجلاد على اطلاع جيدٍ بالأمور بحيث أن سبياغودري لم يتجرأ على مواصلة تسويغه، فاكتفى بأن يلعن في دخيلته، وللمرّة المئة، رفيقه الشّاب. ولكن ماذا حدث له حينما سمع النّاسك، والذي كان يبدو غارقاً في التأمُّل منذ بضع لحظات، سمعه يهتفُ فجأة بلهجةٍ هازئة:

– أيّها السّيد الجلاد نيكول، ما هو عقاب المدنِّسين إذن؟

أحدثت هذه الكلمات على سبياغودري التأثير نفسه الذي يمكن أن يُحدثه نزع لصيقته وشعره المستعار. وانظر بقلقٍ ردَّ أوروجيكس الذي انتهى أوّلاً من شرب كأسه.

فأجاب النّاسك:

– هذا يتعلّق بنوعِ التّدنيس.

– إذا كان التدنيس هو انتهاك حرمةِ ميت؟

هذه المرّة، توقّع سبياغودري المرتجف أن يسمع اسمه خارجاً بين لحظةٍ وأخرى من فمِ الناسك الغامض.

فقال أوروجيكس ببرود:

– قديماً، كان يُدفن حيّاً مع الجثّةِ التي انتهكت حرمتُها.

– والآن؟

– الآن، هناك رأفةٌ أكبر.

فقال سبياغودري وهو يتنفس بصعوبة:

– هناك رأفةٌ أكبر.

فسارع الجلاد ليقول بلهجةٍ راضيةٍ وغير مكترثة، لهجة فنّان يتكلّم على فنّه. إنهم يطبعون أوّلاً حرف «S» على ربلة ساقيه..

فقاطعه البواب العجوز الذي كان من الصّعب ربما أن يُنفَّذ هذا الجزء من العقاب بحقّه:

– وبعد ذلك؟

فقال الجلاد:

– بعد ذلك، يكتفون بشنقه!

– وإذن، ماذا به؟ إنه ينظر إليّ مثلما ينظر المحكوم بالإعدام إلى المشنقة.

– الرحمة! بشنقه!

– وإذن! ماذا به؟ إنّه ينظر إليّ مثلما ينظر المحكوم إلى المشنقة.

وكان النّاسك يقول:

– أرى بسرور أننا قد رجعنا إلى مبادئ الشفقة.

في تلك اللحظة، أتاحت العاصفة التي كانت قد توقفت سماع الصوت الواضح والمتقطع لبوق.

فقالت المرأة:

– يانيكول، إننا نطارد شقيّاً. وهذا هو بوق رماةِ السّهام.

فردّد كلٌّ من المتحادثين بلهجةٍ مختلفة، غير أن سبياغودري ردّد بلهجة تنمُّ عن رعبٍ شديد:

– بوق رماة السّهام!

وما كادوا ينهون تعجُّبهم حتى سُمع صوت قرع على باب البرج.

الفصل الثالث عشر

لا يلزمُ إلا رجلٌ واحد، وإشارةٌ واحدة، فعناصرُ
قيام الثّورة معدَّة تماماً. فمن سيبدأ...
ما إن تكون هناك نقطةُ استنادٍ حتى يتزعزعَ كلُّ شيء.

بيونابارت (١)

أتريدُ أن تقول إن موتَ الكونت يُسعدُني أكبرَ سعادةٍ يمكن
أن تحدث لي... وإذا كان الأمرُ كذلك، هل ينبغي أن ننظرَ
في الأمر عن كثب؟ فهل يعتبرُ حادثاً كبيراً في العالم أن يكون
هناك كونتٌ زائدٌ أو ناقص؟ أليس هذا ما تودُّ قوله،
يا مارينليّ؟ حسناً فليكن. إن بضعَ قطراتٍ من الدّم ليست
مشكلة؛ إنما ينبغي أن يُفيدَ هذا الدَّمُ... أولئك الذين أراقوه.

ليسنغ، إميليا غالوتّي

---

(١) أينبغي أن نرى في هذه الإحالة علامة على تغيّر موقف هيغو تجاه «بيونابرت»، وهو تغيّر يوازي على المستوى السّيري تطوّر علاقات فيكتور مع والده.

لوفيغ بلدةٌ ضخمة تقعُ على السّاحل الشّمالي لخليج درونتهايم، وتستندُ إلى سلسلة منخفضةٍ من الهضاب الجرداء، والمبرقشة بصورةٍ غريبة، بمختلف أنواع الزراعات، مثل رقع فسيفساء كبيرة تتكئ إلى الأفق. إن منظر البلدة كئيب؛ فالكوخُ الخشبي والأَسَليّ[1]، كوخ الصيّاد، والخصّ[2] المخروطيّ المبني من الطّين والحصى الذي يقضي فيه عاملُ المنجم العاجزُ القليلَ من أيام شيخوخته التي تُتيح له مدّخراتُه أن يخصّصها للشمس والراحَة. والصَّقالة الهزيلةُ المَهجورة التي يغطيها صيّادُ الشاموا عند عودته بسقفٍ من القشّ، وبجدران من جلودِ الحيوانات، تحاذي شوارع أطول من البلدة، لأنهاً شوارعُ ضيقةٌ ومتعرجة، وعلى ساحةٍ لم يعدْ المرء يرى اليوم فيها إلا آثار برج ضخم، كانت تعلو حينذاك القلعة القديمة التي بناها هوردار لو فان-أرشيه، سيّدَ لوفيغ الإقطاعي، ورفيقَ سلاح الملك الوثنيّ هالفدان، وهي القلعةُ التي شغلها عام ١٦٩٨ مأمورُ البلدة، والتي كان ساكنُها الأوفرُ حظّاً في سكناه، باستثناء اللّقلق الفضيّ الذي كان يأتي كلَّ صيف ليجثم في الجانب البعيد من برجِ الجرسِ المستدقّ الرأس والذي يشبه اللؤلؤةَ البيضاء في أعلى قلنسوةِ رجلٍ متنفّذ.

في الصّباح نفسه الذي كان أوردينر قد وصل فيه إلى درونتهايم. كانت هناك شخصٌ قد نزل من المركب إلى لوفيغ، خفية كذلك. أما محمله المذهّب، الذي كان عارياً من الشّعارات مع ذلك، وخدمُه الأربعة الطوالُ القامة المدجّجون بالسّلاح؛ فقد غدوا فجأة موضوعاً لكافة الأحاديث ولكلِّ ضروب الفضول. بيد أن صاحب نزل لامويت- دور. وهو فندق صغير، كان الشّخصُ المهمّ قد نزل فيه، قد اتّخذ هو نفسه هيئة يكتنفُها الغموضُ. وكان يردّ على كلّ الأسئلة بـ «لا أعلم»، بلهجةٍ من يريدُ أن يقول: أعرفُ كلَّ شيء، ولكن لن تعلموا شيئاً.

(١) الأسل: نوعٌ من القشّ تُصنعُ منه السّلال (م:ز.ع)
(٢) كوخ طيني. (م: ز.ع).

أما الخدمُ الأربعةُ الطّوال القامة فقد كانوا أكثر تكتماً من الأسماك ، وأكثر كآبةً من مداخلِ منجم. كان المأمور قد حبس نفسه في برجه أوّلاً ، وهو ينتظر في مقرّ منصبه زيارة الغريب الأولى ، غير أن السُّكان كانوا للتوّ قد رأوه بدهشة وهو يحضر إلى نزل لامورويت– دور مرّتين حضوراً لا طائل منه ، ويرقب في المساء تحيّةَ المسافر الذي يستندُ إلى نافذته المفتوحة جزئياً. وكانت النساء الثرثارات يستنتجن من ذلك أن الشخصيّة الهامة قد عرّفت السّيد المأمور بمرتبتها العالية. وكنّ مخطئات في ذلك؛ فإن مبعوثاً مرسلاً من الغريب كان قد حضر إلى المأمور. لكي يؤشّر له على جواز مروره. وكان المأمور قد لاحظ على دمغةِ الشمع الخضراء للعلبة التي كان يحملها نقشَ يدين متصالبتين تسندان معطفاً من فروِ القاقُم ، يعلوه تاجٌ كونتيّ موضوعٌ على شعارٍ تتدلىّ حوله قلائدُ الفيل (إيليفان) ودانبروغ. وكانت تلك الملاحظةُ كافية بالنسبة للمأمور الذي كان يرغب رغبةً شديدة في أن يحصل من المستشارية العليا على مأموريّة درونتهايموس العليا. غير أنه قد خسر التمهيدَ لذلك ، لأن النبيلَ المجهولَ لم يكن يريدُ رؤية أحد.

شارفَ اليومُ الثاني لوصولِ ذلك المسافر إلى لوفيغ على نهايته ، حين دخل صاحب النّزل إلى غرفته وهو يقول ، بعد انحناءٍ كبيرة ، إن المبعوثَ الذي تنتظره يا صاحب اللّطف قد وصل للتوّ.

فقال صاحبُ اللّطف:

– حسناً ، فليصعدْ.

دخل المبعوثُ ، بعد لحظةٍ من الزّمنِ ، وأغلق الباب بعناية ، ثمّ حيًّا حتى الأرض ، الغريب الذي كان قد استدار نحوه نصفَ استدارة ، وانتظر بصمتٍ مفعمٍ بالاحترام أن يوجّه إليه الكلام ، فقال هذا الأخير:

– كنت أتوقّع حضورك هذا الصباح؛ فما الذي احتجزك إذن؟

– مصالحُ سموّك ، يا سيدي الكونت؛ فهل لديّ اهتمامٌ آخر؟

– ماذا تفعل إلفيج؟ وماذا يفعل فريدريك؟

– إنّهما بصحّة جيدة...

فقاطعه السيّد:

– هذا جيّد ، هذا حسن ، أليس لديك شيء أكثر إثارةً للاهتمام لتعلمني إيّاه؟ فما هو الجديد في درونتهايم؟

– لا شيء ، سوى أن البارون تورفيك قد وصل إليها بالأمس .

– نعم ، أعلم أنه قد أراد استشارةَ ذلك العجوز لوفان الذي هو من ميكلامبور حول الزّواج المقترح . فهل تعلمُ ما كانت نتيجةُ ذلك اللّقاء مع الحاكم؟

– اليوم ، عند الظهيرة ، وفي ساعة رحيلي ، لم يكن قد رأى الجنرالَ بعد .

– كيف! لقد وصل بالأمس! إنك تدهِشُني يا موسديمون؛ وهل رأى الكونتيسّة؟

– ولا هي أيضاً ، يا سيّدي .

– إذن ، فأنت من رآه؟

– كلاّ ، يا سيّدي النبيل ، زدْ على ذلك أنني لا أعرفُه .

– وكيف تعلمُ أنه في درونتهايم، إن كان لم يره أحد.

– من خلال خادمه الذي نزل بالأمس في قصرِ الحاكم.

– ولكن هو، هل نزل في مكان آخر؟

– إن خادمه يؤكدَ أنه ما إن وصل، حتى أبحر إلى مونكولم، بعد أن دخل إلى السّبلادجيست فاتّقدت نظرةُ الكونت، وقال:

– إلى مونكولم! إلى سجن شوماكير! هل أنت متأكّدٌ من ذلك؟ طالما فكّرتُ بأن هذا الرّجل لوفان هو خائن. فإلىمونكولم! من الذي يجتذبه إلى هناك؟ هل سيطلبُ أيضاً نصائح من شوماكير؟ هل سـ...؟».

فقاطعه موسديمون قائلاً:

– يا سيّدي النبيل، ليس من المؤكّد أنه قد ذهب إلى هناك؟

– ماذا؟ ماذا كنت تقولُ لي إذن؟ هل تتلاعبُ بي؟

عذراً، يا صاحبَ السموّ، كنت أردّدُ لسيدي الكونت ما كان يقولُه خادمُ سيّدي البارون. غير أن سيّدي فريدريك الذي كان يقوم بالحراسة في البرج بالأمس، لم يرفيه البارون أوردينر.

– ياله من تبريرٍ مقنع! إن ابني لا يعرفُ ابنَ نائب الملك. فقد أمكن لأوردينر أن يدخل إلى القلعة سرّاً.

– أجل، يا سيّدي، ولكن السّيد فريدريك يؤكّد أنه لم ير أحداً.

فظهر الهدوء على وجه الكونت.

– هذا مختلف. فهل يؤكدَ ابني ذلك، في الواقع؟

– لقد أكدّ لي ذلك لمرّاتٍ ثلاث. ومصلحة السّيد فريدريك هنا هي مصلحةُ سموِّه ذاتها. فطمأنت هذه الملاحظةُ التي أبداها المبعوثُ الكونتَ بصورةٍ نهائية، وقال:

– آه! أنا أفهم. لابدّ أن البارون قد أراد حين وصوله أن يتنزّه قليلاً على الخليج. ولا بدّ أن الخادم قد اقتنع بأنه سيذهب إلى مونكولم. فما الذي قد يفعله هناك، في الحقيقة؟ لقد كنت أحمق فعلاً، إذ تخوّفتُ من ذلك. إن عدمَ الاكتراثِ هذا من جانب صهري برؤية لوفان العجوز يُثبت على العكس أن محبّته له ليست كبيرةً بالقدرِ الذي كنت أخشاه، وتابع الكونت وهو يبتسم:

– لن يصل بك الظّنُّ، يا عزيزي موسديمون بأنني كنتُ أتصوّرُ مسبقاً بأن أوردينر مغرمٌ بإيتيل شوماكير، وأنني كنت أبني رواية وحبكة على تلك الرّحلة إلى مونكولم، بيد أن أوردينر، وأشكر الربَّ على ذلك، أقلّ مني جنوناً– بالمناسبة، يا عزيزي، ماذا حدث لتلك الصّبية دانابيه، بين يديّ فريدريك؟

كان موسديمون قد تخيّل المخاوفَ المقلقة كلّها التي تخيّلها سيدُه بخصوصِ إيتيل شوماكير. وقد كافحاها من غير أن يتمكنّا من التغلّب عليها بالسّهولة نفسها. ومع ذلك؛ فقد احترس جيّداً من أن يعكّر شعور سيّده بالاطمئنان. إذ سرّته رؤيتُه مبتسماً، وأخذ يسعى على العكس من ذلك ليزيد من ذلك الشعور، لكي يزيد من ذلك الصّفاء الثمين جداً عند الكبار كما هو عند محظيّيهم.

– أيها الكونت النبيل. إن السّيد ابنك قد أخفق في مسعاه لدى ابنة شوماكير. ولكن يبدو أن شخصاً آخر قد كان أوفر حظاً منه. فقاطعه الكونت بحدّه:

– شخصٌ آخر! أي شخصٍ آخر؟

– إيه! ولكنني لا أعلم أيَّ قنٍّ أو فلاح أو تابع . .

فهتف الكونت الذي غدت سحنتُه القاسيةُ والمتجهّمةُ مشرقةً:

– أصحيح ما تقول؟

– لقد أكد لي ذلك السيد فريدريك ، كما أكدّه للسّيدة الكونتيسّة .

نهض الكونت ، وأخذ يذرعُ الغرفة وهو يفركُ يديه:

– يا موسديمون ، يا عزيزي موسديمون . قمْ بجهدٍ آخر أيضاً ، فنصل إلى الهدف ، لأن فرعَ الشجرة ذاوٍ ، ولم يبق لنا إلاّ أن نقتلع الجذع . هل لا يزال لديك خبرٌ جيد جديد .

– لقد اغتيل ديسبولسن .

فانفرجت أساريرُ وجهِ الكونت انفراجاً تاماً .

– آه! سوف ترى أننا سنسير من ظفر إلى ظفر . فهل حصلوا على أوراقه؟ وهل حصلوا خصوصاً على ذلك الصندوق الحديدي؟

– أُعلنَ لسموّك بألم أن جريمةَ القتل هذه لم يرتكبْها أنصارُنا؛ فقد قُتل وسُلِب في سواحلِ أورشتال الرمليّة ، وتُنسَبُ هذه المأثرةُ لهان الإيسلندي .

فسارع السّيد إلى الرّد وقد ظهر الغمُّ على وجهه:

– هان الإيسلندي! ماذا! هذا اللّصُّ الشهيرُ الذي نريدُ أن نضعه على رأس متمرِّدينا؟

– هو ذاته، أيها الكونت النبيل. وأخشى، بناءً على ما تناهى إلى سمعي أن نلاقي عناءً في العثور عليه. وعلى كلّ حال، فقد ضَمنتُ قائداً يأخذ اسمه، ويمكنه أن يحلّ مكانه. إنه رجلٌ جبليٌّ مخيف، طويلُ القامة، وصلبٌ مثل سنديانة، ضارٍ وجسور، مثل ذئبٍ في صحراءٍ ثلجية. ومن المستحيل ألاّ يشبه هذا العملاقَ الرّهيب هان الإيسلندي

فسأل الكونت:

– إن هان الإيسلنديّ هذا طويلُ القامةِ إذن؟

– هذه هي الإشاعة الأكثر شعبيةً، يا صاحبَ السمو.

– أنا معجبٌ دوماً، يا عزيزي موسديمون، بالفنّ الذي ترتبّ فيه خططَك؛ فمتى يندلعُ التمرّد؟

– أوه! في وقت عاجلٍ جداً، يا صاحبَ السّمو، وربما في هذه اللحظة. إن الوصاية الملكية تُنيخُ بثقلها على عمال المناجم منذ زمنٍ طويل. وهم يتمسّكون جميعاً بفكرة الانتفاض بسرور. ولسوف يبدأ الحريقُ بغولد برانشال، ويمتدُّ إلى سوند–موير، ويصل إلى كونغسبرغ. إن ألفي عامل منجم يمكن أن يكونوا على أهبةِ الاستعداد في غضونِ ثلاثة أيام، ولسوف يجري التمرّدُ باسمِ شوماكير. وتحت هذا الاسم، إنما سوف يخاطبهم مرسلونا. ولسوف يتزعزعُ احتياطيّو الجنوب، وحامية درونتهايم وسكونجن. ولسوف تكونون هنا بالضّبط لكي تخفقوا التمرّد، وسيكون ذلك خدمةً جديدة وملحوظةً في نظر الملك، ولسوف تخلّصه من شوماكير هذا الذي يُقلق عرشه كثيراً. تلك هي القواعدُ الدائمة الرّسوخ التي سيرتفع عليها البُنيان الذي سوف يتوِّجه زواج السّيدة أُولريك النبيلة والبارون دوتورفيك.

إن الحديث بين آثمين لا يكون البتّة طويلاً، لأنّ ما في شخصهما من بشريّ يرتعبُ سريعاً مما فيه من جهنّمي. وحين تَعرُضُ نفسان منحرفتان، كلّ منهما على الأخرى، عُريَها الفاجرَ، وعلى نحوٍ متبادل، فإن قباحاتهما المتقابلة تُغيظهما. إن الجريمةَ تُرعبُ الجريمةَ نفسها. وإذا كان هناك شرّيران يتحدّثان، بكلّ ما في الحديث الثّنائي من وقاحة، عن أهوائهما، ولذا ذاتهما، ومصالحهما؛ فإن كلاً منهما يشكّلُ بالنسبة للآخر ما يشبهُ مرآةً مرعبة. إن خساستهما الذّاتية تذلّهما في عيون الآخرين، وتعاليهما الخاص بهما يُخزيهما، وعدمهما الخاص يرعبهما. ولا يمكن لأحدهما أن يهرب من الآخر، وأن ينكر كلٌّ منهما نفسَه أمام قرينهما، لأن كلّ علاقةٍ شنيعة، وكلّ مصادفةٍ فظيعة، وكلّ تكافؤ قبيح يجدُ فيهما صوتاً لا يتعبُ أبداً. وهو يشي بهما لأذنهما التي تتعبُ باستمرار. ومهما يكن حديثهما سرّيّاً، فإنّ عليه شاهدين لا يمكن احتمالهما على الدّوام: اللّه الذي لا يريانه، والضّمير الذي يشعران به.

كانت أحاديثُ موسديمون الحميمةُ متعبةً للكونت، لا سيّما وأنه كان يُشرِكُ سيّدَهُ مناصفةً في الجرائم التي يباشرُ بتنفيذها، أو التي يهمُّ بذلك، من غير مراعاةٍ له. إنّ كثيراً من رجالِ البلاط يظنّون أن إنقاذَ مظهرِ الأعمال السّيئة التي يقوم بها المتنفذّون هو أمرٌ فيه براعة، ويحمّلون أنفسهم عنهم مسؤولية الشرّ، وحتى أنهم غالباً ما يتركون لرصانةِ معلّمهم العزاءَ في أنه قد بدا متصدّياً لجريمةٍ ذات نفع. إن موسديمون، من خلال تفنُّنٍ في المهارة، كان يتبعُ السَّير المعاكس. وكان يوَدّ نادراً أن يظهر مستشاراً ومُطيعاً دائماً. لقد كان يعرفُ دخيلةَ سيدّه، كما كان سيّده يعرف دخيلته. وهكذا، فلم يكن يعرِّض نفسه للشَبهة إلاّ حين يعرِّضُ الكونتَ لها. أما الرأسُ التي كان الكونت يودّ بطيبة خاطر أن يقطعها من بين الرؤوس كافة، بعد

رأس شوماكير، فقد كانت رأسه، وكان يمكن أن يقول له ذلك، وكان سيّده يعلمُ أنه يعلمُ ذلك.

كان الكونت قد عرف ما كان يودّ أن يعرفه. وكان راضياً عن ذلك، ولم يعدْ يبقى عليه الآن إلا أن يطردَ موسديمون.

فقال له بابتسامةٍ لطيفة:

- يـا موسديمون، أنت أكثر خدمي أمانةً وحماسةً. وكلُّ شيء يجري على ما يُرام. وإني أدين لك بذلك، وأجعلك أمينَ سرّ خاص للمستشارية العليا.

فانحنى موسديمون انحناءةً كبيرة.

وتابع الكونت قائلاً:

- ليس هذا كلَّ شيء. ولسوف أطلبُ لك للمرّة الثالثة وسام دانبروغ. غير أنّني أخشى على الدَّوام أن يكون منبتك، ونسبُك غير اللائق...

فاحمّر وجهُ موسديمون خجلاً، وشحُب لونُه، وأخفى تبدلاتِ ملامح وجهه، بانحنائه من جديد.

فقال الكونتُ وهو يقدّم إليه يده ليقبّلها:

- هيّا، هيّا، أيّها السيدُ أمين السّر الخاص، قمْ بصياغة استرحامك[1] فلربّما نصلُ إلى الملك في لحظةٍ يكون فيها رائق المزاج

- سواء وافق الملك على منحي ذلك أم لا، فأنا مرتبكٌ من أفضالُ سموّك، وأنا فخورٌ بها.

(١) في النّص، معناها: عريضة استرحام تقدَّم لمحكمة.

– هيّا، أسرعْ، يا عزيزي، لأني متعجّلٌ على الذّهاب، فلا بدَّ أن نحاولَ أيضاً الحصولَ على معلوماتٍ دقيقةٍ حول هان هذا.

فتح موسديمون الباب جزئياً، بعد أن انحنى انحناءةَ تبجيلٍ ثالثة.

فقال الكونت:

– آه! آه! لقد كدتُ أنسى. بصفتك الجديدة كأمينِ سرّ خصوصيّ. سوف تكتبُ إلى المستشاريةَ لكي ترسل إلى ذلك المأمور، مأمور لوفيك إقالتَه؛ فهو يعرّض للشبهةِ منصبَه في المقاطعة، من خلال طائفةٍ من الدّناءات تجاه غرباء لا يعرفُهم.

الفصل الرّابع عشر

رجلُ الدّين الذي يزورُ المذخَر ليلاً ،
والفارسُ الذي يروّض فرسَ قتال محارب
وذلك الذي يموتُ عند صوتِ النفير المخيف ،
وذلك الذي يموتُ عند صوت التضرُّعات الهادئ ،
هي موضعُ عنايتك التي تبذلها أيضاً .
على الإنسان المؤمن الذي يعتمر القلنسوة أو يكلّل رأسه (١)

ترتيلة إلى القدّيس أنسيلم.

– أجل ، يا سيدّي ، علينا ، في الحقيقة ، أن نقومَ بزيارةِ مغارة ليزاس . فهل كان يمكن الظّن بأنّ ذلك النّاسك– الذي كنت ألعنُه ، وكأنه روحٌ جهنمي ، سوف يصبحُ ملاكنا الحارسَ المخلص ، وأن الرّمحَ الذي كان يبدو في كلِّ لحظةٍ مهدِّداً لنا سوف يفيدُنا كجسرٍ لاجتياز الهوّة؟

(١) أي: رجل الدّين الذي يحلقُ شعر رأسه على شكلٍ إكليل ، لدى بعض الطوائف المسيحية (م:ز.ع)

بهذه العبارات الهزيلة إلى حدٍّ كافٍ بمجازيّتها، إنّما جعل بينيينوس سبياغودري الفرحَ والإعجابَ بالنّاسك الغامض، والإقرار بجميله، جعلها تتفجّر في أذني أوردينر. إننا نخمن أن مسافرينا قد خرجا من البرج الملعون. وفي اللحظة التي نلتقيهما فيها، يكونان قد خلّفا وراءهما، وعلى بعد كافٍ، ضيعةَ فيغلا، ويسلكان بمشقة طريقاً جبلية، تقطعُها المستنقعاتُ الصّغيرة، أو تعرقلُها الأحجارُ الكبيرة التي حملتها السّيولُ العابرة، سيولُ العاصفة على الأرض الرّطبة واللّزجة. لم يكن الصبح قد طلع بعد، إلا أن الجنبيّات التي تتوّجُ الصخور، على جانبي الطّريق، كانت تبرز على السّماء التي أصبحت ضاربةً إلى البياض، وكأن تلك الجنبيّات فجوات سوداء، والعينُ ترى الأشياء التي لا تزالُ من غير لون، وهي تستعيدُ تدريجياً أشكالها، في ذلك الضوء الذي لا يزال باهتاً وكثيفاً إلى حدٍ ما، والذي يسكبه غسقُ الشّمال، من خلال ضباب الصّباح البارد.

كان أردينر صامتاً، لأنه، منذ لحظات، قد استسلم بهدوء لتهويم تتيحُهُ الحركةُ الآلية للسّير أحياناً. لم يكن قد نام منذ اليوم السّابق الذي قد خصص فيه للرّاحة ذلك العدد القليل من السّاعات التي تفصِلُ بين خروجه من السبلادجيست عن رجوعه إلى مونكولم، وذلك في قارب صيدٍ مبحرٍ إلى ميناء درونتهايم. وهكذا، ففيما كان جسدُه يتقدّم نحو سكوبجن، كان فكرُه قد حلّقَ فوق خليج درونتهايم، إلى ذلك السجن المعتِم، وتحت أبراجه الكئيبة التي تضمُّ الكائن الوحيد الذي يمكنه في هذا العالم أن يعلقّ عليه فكرة الرّجاء والسعادة.

حين كان يستيقظ، كانت ذكرى فتاته إيتيل تسيطر على كلِّ أفكاره. وحين كان ينامُ، كانت تلك الذكرى تغدو مثل صورةٍ خياليّة تُنير أحلامه. وفي تلك الحياة الثانية، حياةِ الحلم، والتي تكون الرُّوح فيها موجودة بمفردها للحظةٍ من الزمن، والتي

يبدو أن الكائن المادي قد تلاشى فيها، مع كلِّ آلامه المادية، كان يرى تلك العذراءَ المحبوبة، ليست أجمل، وليست أنقى مما هي عليه، بل أكثر حرّيةً، وأكثر سعادةً، وأكثر ارتباطاً به. غير أن نسيانَ جسده، وخَدَر قواه، على طريق سكونجن، لم يكن ممكناً أن يكونا تامّين، فقد كان يُعيدُه من المثاليّ إلى الواقعيّ منقعٌ موجلٌ، أو حجرٌ أو غصنُ شجرةٍ يصطدم بقدميه؛ فيرفع رأسه حينئذٍ، ويفتح عينيه المتعبتين جزئياً، ويأسفُ لأنه قد وقع من رحلته السماوية الجميلة إلى رحلته الأرضيّة الشّاقة التي لا يعوّضُه شيء فيها عن أوهامه الهاربة غير الفكرة التي تجعلُه يحسُّ بتلك الخصلة من الشَّعر الذي يخصّه، بانتظار أن تصبح إيتيل بكاملها. ثم أن تلك الذكرى كانت تعيدُ إلى خياله تلك الصورة السّاحرة الخيالية، ولا ترتقي بفتورٍ إلى حلمه، بل إلى أحلام يقظته، غير الواضحة، والعنيدة.

ردّد سبياغودري بصوتٍ أقوى، فأيقظ أوردينر حين ترافقَ بارتدادهِ عن جذعِ شجرة:

– يا سيّدي، لا تخشَ شيئاً. لقد انعطفَ رماةُ السّهام إلى اليمين برفقةِ الناسك، حين خرجوا من البرج. ونحن بعيدان عنهم بما يكفي لكي نتمكّن من الكلام. والصحيحُ أن الصّمتَ قد كان حذراً حتى ذاك الحين.

قال أوردينر وهو يتثاءب:

– حقاً! إنك توصل الحذَر إلى حدٍّ بعيد بعضَ الشيء؛ فمنذ ثلاث ساعات، على الأقل، إنما غادرنا برجَ رُماة الأقواس.

– هذا صحيحٌ، يا سيدي؛ ولكن الحذر لا يضرُّ البتّة. فلاحظْ أنني لو أعلنت عن اسمي في اللحظة التي سأل زعيم تلك الزُّمرة الجهنمية عن بينينيوس سبياغودري

بصوتٍ شبيهٍ بالصوت الذي سأل به زُحل ، عن ابنه المولودِ حديثاً لكي يلتهمه ، لو أنني في تلك اللحظة الرهيبة ، لم ألجأ إلى صمتٍ حذر ، لكنتَ أين ، يا سيدي النبيل؟

– الحقّ ، أيها العجوز ، أني أظنّ أنه لم يكن بإمكانِ أحدٍ في تلك اللحظة أن يحصل على اسمك ، حتى لو استخدم الكلاّبات لينتزعه منك .

– هل كنت مخطئاً ، يا سيّدي ، لو كنتُ قد تكلّمتُ ، لما توفّر للناسك (ولتحلّ عليه بركةُ القديس أوسبيس ، والقديس أوسبالد (المتوحّد) لما توفرّ له الوقتُ ليسأل قائدَ رماةِ السّهام إن كانت زمرتُه مشكّلةً من جنودِ حاميةِ مونكولم ، وهو سؤالٌ لا معنى له . وقد طرحه لكي يكسبَ الوقتَ فحسب . فهل لاحظت ، يا سيدي الشّاب ، بعد الردّ الإيجابي لذلك الرامي الغبي ، بأيةِ ابتسامةٍ غريبةٍ دعاه ليتبعه ، وهو يقولُ له إن يعرفُ منزل الهارب بينينيوس سبياغودري .

هنا ، توقّف البوّاب للحظةٍ من الزمن ، وكأنه يتهيّأ للاندفاع ، لأنه تابع فجأةً بصوتٍ حماسيّ متباك:

– يا للكاهن الطيّب ، والزّاهد الورع والفاصل ، والذي يمارسُ مبادئَ الإنسانية المسيحيّة ، والمحبّة الإنجيلية! وأنا ، من كنتُ مرتعباً من مظهره الخارجي المثير للمخاوف ، في الحقيقة ، ولكنه مظهرٌ يُخفي نفساً عظيمة النّبل! فهل لاحظت كذلك؟ يا سيّدي النبيل ، أن ثمّةَ شيئاً غريباً في لهجته ، حين قال لي: «إلى اللقاء!» وهو يمضي برماةِ السّهام؟ وفي لحظةٍ أخرى ، كان يمكن لتلك النبرة أن تخيفيني ، ولكن الذّنبَ ليس ذنب النّاسك الورع والفاصل . إن التوحدُّ يضفي على الصّوتِ بلا ريب ذلك الطابع الغريب ، لأني أعرف ، يا سيّدي ، (وهنا غدا صوتُ بينينيوس أخفض) ، أعرف متوحّداً آخر ، ذلك المرح المخيف... ولكن لا ، احتراماً لناسكِ

لينراس المبجّل؛ فلن أقوم بهذا التقريبِ القبيح ، ليس في قفّازيه شيء خارقٌ للمألوف كذلك؛ فالطقسُ على درجة كافية من البرودة بحيث يمكنُ للمرء أن يلبس مثلهما ، وشرابُه المالحُ لا يُدهشُني أكثر. فغالباً ما يكون للزّاهدين الكاثوليك أنظمةٌ فريدة ، وذلك النّظامُ ذاته ، يا سيّدي ، نجده موصىً به ، في ذلك البيتِ الشّعري ، بيت أورينسيوس ، وهو رجلُ دينٍ من القوقاز:

اشمأزَّ من ماء السّواقي ، فشربَ ماءَ البحر الأجاج .(١)

كيف لم أتذكّر هذا البيت في ذلك الطلّل اللّعين ، فيغلا! كان يمكن لذاكرةٍ أقوى بقليل أن تجنّبني الكثير من الهمومِ الجنونية. صحيحٌ أنه من الصّعب ، يا سيّدي ، أن يكونَ للمرء أفكارٌ صافية ، في مثلَ تلك المغارة اللّصوصية ، وهو جالسٌ إلى مائدةِ جلاد! ما ئدة جلادٍ محكوم عليه بالازدراء ، والبغض الشّامل ، ولا يختلفُ عن القاتل إلا بتواتر أعمالِ القتل التي يرتكبها ، ولا يُعاقب عليها ، ويجمع قلبه إلى كلّ فظاعة اللّصوص الأكثر شناعة الجبنَ الذي الذي لا تسمحُ لهم به جرائمهم المحفوفة بالمخاطر ، على أية حال! إنه كائنٌ يقدّم الطعام ، ويسكب الشّرابَ باليد ذاتها التي حرّك بها أدواتِ التعذيب ، ويجعلُ عظامَ ألف منكود تصرخُ بين الأخشاب التي يجري تقريبُها في منصّة التعذيب. فما أشقّ أن يتنفَّسَ المرءُ الهواء ذاتَه الذي يتنفّسُه جلّاد! فإذا ما تلوَّث بهذا التماس النّجس أكثر المتسوّلين خساسةً ، تخلّى برعبٍ عن آخر أسماله التي كانت تقيه شتاءً ضروبَ أمراضه ، وألوانَ عُريه! أما المستشارُ ، فبعد أن يختم رسائله الرّسمية ، يُلقي بها تحتَ منضدة الأختام ، دلالةً على التقزُّز واللّعنة! وفي فرنسا ، حين يموتُ الجلادُ بدوره ، يفضّلُ رقباءُ الشرطة أن يدفعوا غرامةً قيمتُها أربعون ألف ليرة على أن يخلفوه! وقد آثر المحكومُ شورشيل ، في بيست ،

(١) باللاتينية ، في النّص: (م:ز.ع).

أن يأخذ دورَ متلقّي التعذيب على مهنة الجلاد، حين عرضوا عليه العفوَ مرفقاً بأوامر لتنفيذِ الأحكام! أليس أمراً معلوماً أيضاً، يا سيّدي الشّاب النبيل، أن يكون مطرانُ ما يستريخت قد أمر بتطهير كنيسةٍ كان الجلاّد قد دخل إليها؟ وأن تغسل القيصرةُ بيتروفنا وجهها، في كلِّ مرّةٍ ترجعَ فيها من تنفيذ إعدام؟ وأنت تعلم كذلك بأن ملوكَ فرنسا، لكي يكرّموا رجال الحرب، يرغبون في أن يعاقبوا على يد رفاقهم، لكي لا يصيرَ هؤلاء الرّجال النبلاء مسربلين بالعار، بسبب ملامستهم للجلاد، حتى وأن كانوا مجرمين. وأخيراً؛ فما هو حاسمٌ في نزولِ القديس جاورجيوس إلى الجحيم. «للعالم ميلاسيوس إيتورهام» هو أن كارون يقدِّم اللّص روبن هود على الجلاد فليبكراس، أليس كذلك؟ - حقاً، يا سيّدي، أنني إذا ما أصبحتُ يوماً رجلاً مقتدراً (وهذا ما يمكن للرّب وحده أن يعلمه)، فلسوف ألغي الجلاّدين، وأعيدُ العملَ بالتقليدِ القديم، والتّعرفاتِ القديمة. فلقاء قتلِ أمير، يُدفع، مثلما كان الأمر في عام ١١٥٠ ألف وأربعمئة وأربعون ريالاً مضاعفاً ملكياً. ولقاء قتلِ كونت، ألف وأربعمائة وأربعون ريالاً مفرداً، ولقتل بارون، ألف وأربعمئة وأربعون ريالاً مخفّضاً. أمّا قتلُ نبيلٍ عاديّ، فيعزَّم مرتكبُه بألف وأربعمئة وأربعين أسكاليناً، وقتل رجلٍ مدني (بورجوازي)...

فقاطعه أوردينر قائلاً:

- ألا أسمع خطا حصانٍ يأتي باتجاهنا؟

واستدارا برأسيهما، وبما أن النّهار كان قد طلع، أثناء المناجاةِ العلميّة التي قدّمها سبياغودري، فقد أمكنهما تمييزُ رجلٍ ذي ملابس سوداء، على بعدِ مئةِ خطوةٍ إلى الوراء، وهو يلوّح نحوهما بإحدى يديه، ويحثُّ بالأخرى أحد تلك الخيول

القصيرة القامة البيضاء والباهتة، والتي غالباً ما نصادفها، مروَضةً كانت أم برّية، في جبالِ النرويج المنخفضة. فقال البوّاب الخوَّف:

– تكرُّماً يا سيدي. لنحثَّ الخطى. إن ذلك الرّجلَ الأسودَ يبدو لي تماماً وكأنه من رماةِ السّهام.

– وكيف، أيها العجوز. نحن اثنان، ونهربُ أمامَ رجلٍ واحد!

– واحسرتاه! إن عشرين بازيّاً تهربُ أمام بومة. وأيّ مجدٌ هناك من انتظارِ مأمورٍ قضائيّ؟

فاستأنف أوردينر الذي لم يشوّش الخوفُ ناظريه، وقال:

– ومن قال لك إنّه واحدٌ منهم. اطمئن، يامرشدي المقدام، إني أتعرَّفُ هذا المسافر– ولنتوقفْ.

كان لا بدَّ من الرُّضوخ؛ فقد دنا منه الخيَّالُ، بعد لحظةٍ من الزّمن. وكفَّ سبياغودري عن الارتجاف، حين تعرَّفَ الوجهَ الرزين والصّافي، وجه أتاناز موندر، مرشد الملك.

حيّاهما هذا الأخير، وهو يبتسمُ، وأوقفَ راحلته، وهو يقولُ بصوتٍ يقطْعه انبهارُ نَفسه:

– إنــني أعــودُ على أعقابي من أجلكما، يا ولديّ العزيزين، فلن يسمعَ الرّبُّ، بالتأكيد أن يكون غيابي الذي سيطول لغايةٍ من غاياتِ البرّ مضرّاً بأولئك الذين ينفعهم حضوري.

فأجابه أوردينر:

– يا سيّدي الوزير، سنكون سعيدين، إذا كان باستطاعتنا أن نخدمك في شيء.

– أنا من يريد، على العكس من ذلك، أن يخدمك، أيّها الشّاب النبيل، فهل تتكرّم بأن تقول لي ما هو الهدفُ من رحلتك؟

– أيّها المرشدُ الموقّر، لا يمكنني ذلك.

– أرغبُ، في الحقيقة، أن تكون المسألةُ مسألة عدم قدرةٍ من جانبك يا بنيّ، وليست ارتياباً. فالويلُ لي، في هذه الحالة! الويل لذلك الذي يرتابُ به الإنسان الخيّر، حتى لو لم يره إلا مرّةً واحدة!

فأثّر تواضعُ الكاهنِ وعذوبةُ كلامه تأثيراً شديداً في نفسِ أوردينر، وقال:

– كلُّ ما يمكنني أن أقوله لك، يا أبتِ، هو أننا نزورُ جبال الشّمال.

– هذا ما كنت أظنُّه يا بنيّ، وهذا هو السّببُ في مجيئي إليك؛ ففي تلك الجبال، عصاباتٌ من عمالِ المناجم والصّيادين الذين غالباً ما يرعبون المسافرين.

فقال أوردينر:

– وإذن؟

– وإذن! أعلمُ أنّه لا ينبغي أن نحاول إبعادَ شابٍّ نبيلٍ يبحثُ عن الخطر عن طريقه، غير أن التقديرَ الذي حملته لك قد أوحى لي بطريقةٍ أخرى أُفيدُك بها، إنّ مزيّفَ النّقود المنكود الحظّ، والذي حملت إليه بالأمس آخرَ تعزياتِ ربّي، قد كان

عاملَ منجم. وفي لحظةِ موته، أعطاني هذا الرّقَّ الذي كتبَ عليه اسمه، وقال إنّ إذنَ المرور هذا سوف يحفظني من كلّ خطر. وإذا ما سافرتُ يوماً في هذه الجبال، واحسرتاه! ماذا لهذا أن يفيدَ كاهناً عجوزاً يعيشُ ويموتُ مع السّجناء، ولا يتعيّنُ عليه، من ناحيةٍ أخرى، أن يبحث عن دفاعٍ في معسكر اللصّوص [1]، إلا من خلالِ الصّبر والصلاة. وهي أسلحةُ الرّبِّ الوحيدةُ. ولئن كنت لم أرفض إذن المرور هذا، فذلك لأنه لا ينبغي، برفضٍ منّا، أن يُخزِنَ البتّة قلب ذلك الذي لن يكون له ما يتلقّاه، أو ما يعطيه على الأرض، بعد بضعَ لحظات. لقد تنازل الرّبُّ الرحيم ليمنحني الإلهام؛ فقد أصبح بوسعي اليوم أن آتيك بهذا الرّق، ولكي يرافقك في مخاطراتِ طريقك. ولكي تصبح أُعطيةُ المحتضر عملاً حسناً لأجل الرّحلة.

تلقّى أوردينر هديّةَ الكاهن العجوز بحنانٍ، وقال:

– يا سيّدي المرشد. يشاءُ الرّبُّ أن تتحقق رغبتُك! فشكراً!

وأضاف، وهو يضعُ يده على سيفه:

– ومع ذلك، فقد كنت أحملُ إذناً بالمرور، إلى جانبي.

فقال الكاهنُ:

– أيها الشابّ، ربّما يحميك هذا الرّقُّ الهزيلُ أفضَلَ مما يحميك سيفُك الحديدي. إن نظرةَ تائبٍ أكثر اقتداراً من حسام رئيسِ الملائكة ذاته. فوداعاً. إن سجنائي ينتظرونني. فلتتكرّم بالصلاة من أجلهم أحياناً، ومن أجلي.

فاستأنف أوردينر، وهو يبتسم:

---

(١) باللاتينيّة، في النّص.

– أيها الكاهنُ القديس، قلت لك إن محكوميك سيحصلون على العفو، ولسوف يحصلون عليه.

– أوه! لا تتكلّمْ بهذا التّأكيد، يا بنيّ. ولا تجرّب الرَّب. إن إنساناً لا يعلمُ ما يجري في طويّة إنسانٍ آخر. وأنت لا تزال تجهلُ ما سيقرّره ابنُ نائبِ الملك؛ فربما لا يتنازلُ أبداً ليستقبلَ مثولَ مرشدٍ متواضعٍ أمامه، للأسف. فوداعاً، يا بني. ولتكن رحلتُك مباركة، وليصدر عن نفسك الطيّبة أحياناً تذكرٌ للكاهنِ المسكين، وصلاةٌ من أجلِ السّجناء المساكين.

الفصل الخامس عشر

أهلاً وسهلاً يا هيغو؛ قلْ لي، أنت... هل رأيتَ قطّ عاصفةً مرعبة إلى هذه الدرجة؟

الموقّر ماتوران، برتوام

كيف ارتكبَ كلٌّ منكم بحقِّ الآخر جرائمَ القتلِ المرعبةِ هذه؟

شكسبير، روميو وجولييت. (١)

في قاعةٍ مجاورةٍ لشقةِ حاكم درونتهايم، كان ثلاثةُ أمناء سرّ لمعاليه قد جلسوا للتوّ أمام منضدةٍ كبيرةٍ سوداء، تتكدسُ عليها رقاقٌ وأوراقٌ وأختام، ومحابر، وقريباً منها، كانت هناك منضدةٌ خفيضةٌ رابعةٌ ظلّت فارغة. وهي تُنبئ بأن أحدَ الكتبة كان متأخراً. لقد كان هؤلاء الأمناء منذ بعض الوقت، يفكرّون ويكتبون، كلٌّ من ناحيته، حين هتف أحدهم:

– هل تعلمُ يا فافيرني، أن قيمّ المكتبة المسكين فوكستيب، كما يقال، سوف يطردُه الأسقفُ، بفضلِ رسالةِ التوصية التي دعمتَ بها عريضةَ الدكتور أنغليفيوس؟

---

(١) عبارات مقتبسة حذفت عام: ١٨٣٣

فقال أحد أمينيّ السرّ الآخرين، والذي لا يتوجّه إليه بالكلام، قال بحماسة:

- ماهذا الذي ترويه لنا، يا ريشار؟ لم يكن بإمكان فافيرني أن يكتبَ لمصلحة أنغليفيوس، لأن عريضةَ ذلك الرّجل قد أغضبت الجنرال، حين قرأتها له.

فاستأنف فافيرني قائلاً:

- لقد قلتُ لي ذلك، في الحقيقة، غير أني وجدتُ في العريضة كلمةَ Tribatur[1] المكتوبة بيدِ سموّه.

فهتف الآخر:

- في الحقيقة!

- أجل، يا عزيزي. وهناك بضعةُ قراراتٍ لسموّه كنتَ قد كلّمتني عنها، قد جرى تبديلُها في الملاحق.

وهكذا، فإن الجنرال قد كتب Negatur = مرفوض، على عريضةِ عمال المناجم...

- كيف! ولكني لا أفهمُ من الأمر شيئاً؛ فلقد كان الجنرالُ يخشى روحَ الشّغبَ عند عمال المناجم.

- ربّما أراد أن يخيفهم بتشدُّده. وما يجعلني أظنُّ ذلك، هو أن عريضةَ المرشد موندر من أجل المحكومين الإثني عشر قد أُلغيت أيضاً...

وهنا، نهض فجأة أمين السرّ الذي كان فافيرني يكلّمه، وقال:

---

(١) كلمة لاتينية معناها: مقبول؛ فيما نجد كلمة Negatur = مرفوض، فيما بعد.

– أوه! لا يمكنني أن أصدّقك مباشرة؛ فالحاكم شديدُ الطيّبة، وقد أبدى لي رحمةً فائقةً تجاه هؤلاء المحكومين بسبب...

فاستأنف فافيرني قائلاً:

– حسناً! يا أرتور، اقرأ بنفسك.

أمسك أرتور بالعريضة، ورأى إشارةَ الرّفض القاتلة، فقال:

– حقاً، لا أكاد أصدِّق عينيّ، وأريد أن أُقدّم العريضة إلى الجنرال ثانيةً؛ ففي أيِّ يومٍ ذيِّل سموُّه هذه الوثائق، فأجاب فافيرني:

– منذ ثلاثة أيّام، كما أظنّ.

فتابع ريشار بصوتٍ خفيض:

– لقد حدث ذلك في صبيحةِ اليوم الذي سبق ظهورَ البارون أوردينر القصير جدّاً، واختفاءَه المفاجئ على نحوٍ غامض.

فهتف فافيرني بقوّة، قبل أن يُتاحَ لأرتور الوقتُ لكي يجيب:

– عجباً، أليس هذا أيضاً رفضاً لعريضة بينينيوس سبياغودري المضحكة...!

فانفجر ريشار ضاحكاً:

– أليس هذا هو ذلك الحارس العجوز للجثث، والذي اختفى أيضاً بصورة شديدة الغرابة؟ فتابع أرتور قائلاً:

– أجل، لقد وجدوا في مستودع جُثَثه جثّةً مشوَّهة بحيث أن القضاءَ يعملُ على ملاحقته باعتباره مدنِّساً. غير أن لابونيّاً[1] قصير القامة كان يخدمُه، وبقي في السبلادجيست، يظنّ، كما يظنّ كلُّ الشّعب، بأن الشيطانَ قد اختطفه باعتباره ساحراً.

فقال فافيرني ضاحكاً:

– هاكم شخصية تتركُ سمعةً حسنة!

ما كاد يُنهي قهقهته، حتى دخل أمينُ السرّ الرابع:

– الحقّ، يا غوستاف، أنك تصلُ هذا الصّباح متأخّراً فعلا. فهل تكون قد تزوجت أمس بالمصادفة؟

فتابع فافيرني:

– كلا! فذلك لأنه ربّما سلك الطريق الأطول لكي يمرَّ، بمعطفه الجديد، تحت نوافذِ روزيلي المحبوبة.

فقال القادمُ الجديد:

– يا فافيرني. أودّ لو تكون قد خمنّت الأمر. غير أن سبب تأخري بالتأكيد مستحبٌ بدرجةٍ أقلّ، وأشكّ في أن يكون معطفي قد أحدث بعضَ التأثير على الشخصيّات التي زرتُها منذ قليل، فسأل أرتور:

– فمن أين تأتي إذن؟

---

(١) لابّونيّ: من لابونيا، وهي الجزء الشمالي من أوروبا، النرويج

– من السّبلادجيست .

فهتف فافيرني ، وهو يُفلت ريشته من يده:

– يشهدُ الرّبُّ عليّ بأننا كنا نتحدّث عنه قبل قليل! ولكن إذا كان ممكناً أن نتكلّم عليه للتسلية ، فليس لديّ تصوُّرٌ عن كيفيةِ الدّخول إليه .

فقال ريشار:

– بل أقلّ من ذلك أيضاً. كيف يمكن التوقُّفُ فيه؟ ولكن ، يا عزيزي غوستاف ، ما الذي رأيته فيه إذن؟

فقال غوستاف:

– أجل ، إنّك متلهّفٌ ، على الأقلّ لتسمع ، إن لم يكن لترى . ولسوف تتلقّى عقاباً شديداً ، إذا ما رفضتُ أن أصفَ لك الفظاعاتِ التي سترتعدُ من مشاهدتها .

كان إلحاحُ أمناءُ السّر الثلاثة شديداً على غوستاف الذي تمنّع بعضَ الشيء ، مع أن رغبته الضمنيّة في أن يروي لهم ما كان قد رآه لم تكن أقلّ شدّةً من رغبتهم في معرفته .

– هيا ، يا فافيرني ، يمكنُك أن تنقل قصّتي إلى أختك الشابّة التي تحبُّ كثيراً الأشياء المرعبة . لقد اجتذبني إلى السبلادجيست الجمهورُ الذي كان يحتشدُ فيها . وكان الناسُ قد أتوا للتوّ بجثثِ ثلاثة جنود من كتيبة مونكولم ، وجثتي راميّ سهام عُثِر عليهما في اليوم السّابق ، على بعدِ أربعةِ فراسخ ، في المضائق الجبلية ، وفي أعماقِ هوّةِ كاسكاديتمور . ويؤكد بعضُ المشاهدين أن هؤلاء المنكودين كانوا يشكّلون الزُّمرة المرسلةَ منذ ثلاثة أيّام باتجاه سكونجن . فإذا كان ذلك صحيحاً ، فلا يمكنُنا أن

نـتصوّر كيـف أن عـدداً كبـيراً من الرّجـال المسـلّحين قد أمكنَ اغتيالُه. ويبدو أن تشويهَ الأجسـادِ قد دلَّ على أنهم قد دُفعوا من أعلى الصّخور دفعاً. ن هذا أمرٌ يثيرُ الرُّعب.

فسأل فافيرني بحماسة:

– ماذا يا غوستاف؟ هل رأيتهم؟

– لازالتُ أراهم أمام ناظريّ.

– وهل يخمنّنون من هم صانعو هذا الاعتداء؟

– كان بعضُ الأشخاص يظنّون بأنهم يمكن أن يكونوا عصابةً من عمال المناجم، ويؤكّـدون أنـهم قد سمعوا بالأمس، في الجبال، أصواتَ بوقٍ يتنادون به.

فقال أرتور: – حقاً!

– أجل، ولكنّ فلاحاً عجوزاً قد قوَّضَ هذه الفرضيّةَ حين لفتَ الانتباه إلى أنّه ليس هناك مناجم، أو عمال مناجم في جهةِ كاسكاديتمور.

– ومن يكون إذن؟

– لا نعلم؛ فلو لم تكن الأجساد كاملةً لظنّنا أن الفاعلَ هو بعضُ الحيوانات المفترسة، لأنّ هذه الأجساد تحملُ على أطرافها خدوشاً طويلةً وعميقة. وهذا هو الأمر بالنسبة لجثّةِ رجلٍ عجوز ذي لحيةٍ بيضاء، والتي قاموا بجلبها أوّل أمس صباحاً،

على إثر تلك العاصفة المرعبة التي منعتك ، يا عزيزي لياندر فافيرني من الذّهاب لزيارةِ بطلك فوق هضبة لارسين ، على السّاحل الآخر للخليج .

فقال فافيرني ضاحكاً:

– حسناً! حسناً! يا غوستاف . ولكن من هو ذلك العجوز؟

– بناءً على قامتِه المديدة ، ولحيته الطويلة البيضاء ، وعلى سُبْحةٍ لا يزالُ يمسكُ بها مشدودةً بقوّةٍ بين يديه . ومع أنّه قد عُثِر عليه مسلوباً من كلّ شيءٍ إضافةً لذلك ، فقد تعرّفوا فيه ، كما يُقال ، ناسكاً من المناطق المجاورة ، وأظنّ أنّهم يدعونه النّاسك لينراس . ومن الواضح أن الرَّجلَ المسكين قد اغتيل أيضاً ، ولكن لأيّ غرض؟ فلم يعدْ يُذبَح أحدٌ الآن بسبب رأيه الديني ، ولم يعد الناسكُ العجوز يمتلك في هذا العالم سوى مِسْحِه ، والعطفَ العام عليه .

فتابع ريشار:

– وأنت تقول إن هذا الجَسَد ممزَّقٌ شأنَ أجسادِ الجنود ، وكأنّما بأظلافِ حيوانٍ مفترس؟

– أجل ، يا عزيزي . فقد كان أحدُ صيّادي الأسماك يؤكّد أنه قد لاحظ علاماتٍ مشابهةً على جسدِ ضابطٍ تمَّ العثورُ عليه مقتولاً ، منذ بضعةِ أيام قريباً من سواحلِ أورشتال الرملية .

فقال أرتور:

– إن ذلك أمرٌ غريب .

فقال ريشار:

– ذلك مرعب.

فتابع فافيرني:

– هيّا، فلنسكت ونعمل؛ فأنا أظنُّ أن الجنرال سوف يأتي قليل – يا عزيزي غوستاف، وأنا متلهفٌ حقاً لرؤيةِ تلك الأجساد. ولسوف ندخلُ، إذا شئت، إلى السّبلادجيست، للحظةٍ من الزّمن، هذا المساء، عند خروجنا من هنا.

الفصل السّادس عشر

إن تلك التي كانت تحملُه في حضنها... والدته
كانت ترتدّ إلى الوراء في حضوره، ولا تتعرّفُ
سحنةَ ابنها الغريبة.

الموقّر ماتوران، برترام.[1]

أجل، فلتلعنْ، ولتُتِمّ مصيرَ حياتي المحتوم الرّهيب،
لأني اقترنتُ به، وأنا مثقلةٌ بالقنوطِ والنُّذرِ المرعبة.
لقد استغلّني روحٌ شريرٌ من خلال سحرٍ قاتم. إن طقوس
اليأس قدمورست في هذا القران... فكن كريماً، ولتطعْني!

اعطني زوجي! اعطني ولدي! أعطني نفسي! يُقال إنني مجنونة. ومع ذلك، فأنا أعرفُك جيّداً. انظر إلي... أنا

---

(١) اقتباسٌ حذف عام ١٨٣٣

لا أطلبُ إلا الموت...! الموت بيدك، هذه اليدّ التي تحسنُ إعطاءه، الموت، ومع ذلك، فأنت لا تريد إعطائي إياه.

المصدر السّابق.(1)

كان يمكن لها أن تكون سعيدةً بسهولة، كوخٌ بسيط في أحد وديان جبال الألب، وبعضُ المشاغل المنزلية كان يمكن أن تكون كافيةً لكي تُرضي رغباتٍ محدودةٍ، وتملأ حياتها العذبة، أما أنا، عدوّ الرّب، فلم أحصل على الراحة إلا عندما حطمّتُ قلبها، ودمّرتُ مصيرَها... فلا بدَّ أن تكون ضحيّةً للجحيم.

غوته «فاوست».

في عام ١٦٧٥، أي، للأسف! قبل الفترةِ التي تجري فيها هذه القصّة بأربع وعشرين سنة، كان زواجُ الفتاةِ الرّقيقة لوسي بيلنير، والشابُّ الوسيم ذي القامة المديدة، والرجلُ الفاضل كارول ستادت احتفالاً آسراً، بالنسبة لضيعة توكتري كلّها. الحقّ يقال إنهما كانا متحابيّن منذ زمن طويل؛ فكيف يمكن لكلِّ القلوب ألا تهتّم بالحبيبين الشابيّن، في ذلك اليوم الذي سيتحوّل فيه الكثير من الرّغباتِ الحارّة، ومن الآمالِ القلقة أخيراً إلى سعادة! كانا قد ولدا في القرية ذاتها، وتربيّا في الحقول نفسها، وغالباً جداً ما كان كارول، في مرحلة طفولتهما، يغفو في حضن لوسي، بعد ألعابهما. وغالباً جدّاً ما كانت لوسي، في يفاعتهما، تستندُ إلى ذراعِ كارول، بعد الأشغال التي يقومان بها. كانت لوسي هي الأكثر خجلاً، والأجمَل بين بناتِ الضّيعة. وكان كارول هو الأكثر بسالةً ونبلاً بدأا فيه حبَّهما على نحوٍ أفضلَ مما يتذكران اليومَ الذي بدأا فيه حياتهما.

غير أن زواجهما لم يأتِ مثلما أتى حبّهما برقّةٍ، ومن تلقاءِ نفسه؛ فقد كانت

(١) اقتباسٌ حُذف عام ١٨٣٣.

هناك مصالح منزلية ، وأحقاد عائلية ، وأهلٌ وعوائق . وكان قد جرى التفريقُ بينهما لسنةٍ كاملة . وكان كارول قد عانى الكثير بعيداً عن فتاته لوسي . وكانت لوسي قد بكت كثيراً بعيداً عن فتاها كارول ، قبل اليوم المفرح الذي جمعهما لكي لا يتعذّبا منذ ذلك الحين ويبكيا إلا معاً . (١)

لقد حصل كارول أخيراً على فتاته من خلال إنقاذها من خطرٍ كبير؛ فذاتَ يوم قد سمعَ صرخاتٍ في الغابة . وكانت تلك هي صرخاتُ فتاته لوسي التي باغتها لصٌّ مرعبٌ يخشاه الجِبليون جميعاً ، ويبدو أنه كان يريدُ اختطافَها . فهاجمَ كارول بجسارةٍ ذلك الوحشَ ذا الوجه البشريّ ، والذي جعل النّاس يطلقون عليه اسم هان ، بسبب الزّمجرةِ الغريبة التي يطلقها ، وكأنه حيوانٌ مفترس . أجل ، لقد هاجم ذلك الذي لم يكن أَحدٌ يجرؤ على مهاجمته . غير أن الحبَّ كان يعطيه قوّةَ أسد؛ فخلّص محبوبته لوسي ، وأعادها إلى والدها . فأعطاه الوالدُ إياها .

لقد كانت القريةُ ، والحال هذه ، مسرورةٌ في اليوم الذي تمَّ فيه تزويجُ هذين الخطيبين . أما لوسي ، فقد كان وحدها تبدو مكتئبةً . ومع ذلك؛ فلم تكن قطْ قد حدّقت إلى حبيبها كارول بنظرةٍ أكثر حنوّاً من ذلك اليوم . ولكن تلك النظرةَ قد كانت حزينةً مثلما هي رقيقة . كان ذلك أمراً يُثيرُ الدّهشة ، في ذلك الجوّ الشّامل من الفرح؛ وبقدر ما كان يبدو أن سعادة حبيبها تتزايد ، كانت عيناها تعبّران ، بصورة منتظمةٍ عن الألم والحبّ وقد قال لها كارول ، بعدَ الطقوس الدّينية: يا حبيبتي لوسي ، لعلّ حضورَ ذلك اللص الذي هو مصيبةٌ بالنسبة للمنطقة بكاملها ، قد كان إذن سعادةً بالنسبة لي! وقد لاحظ النّاسُ أنها قد هزّت رأسها ، ولم تجبْ بشيء .

(١) انظر الملاحظتين رقم: (٣ و ٣٠) في هذا النّص العربي (الترجمة) .

حلَّ المساء، فترُكا وحدهما في الكوخ الجديد، وتضاعفت الرّقصاتُ والألعابُ في ساحة القرية، للاحتفالِ بسعادة الزّوجين.

وفي صباحِ اليوم التالي، كان كارول ستادت قد اختفى، وسُلِّمت بضعُ كلماتٍ كُتبت بيده إلى والد لوسي بيلنير بواسطة صيّادي مرتفعاتِ كول، والذي كان قد التقى، قبل الفجر، كارول الهائم على وجهه، على سواحل الخليج الرَّملية، وقد عرض العجوزُ فيل بيلنير هذه الورقة على القسّ والمأمور، ولم يتبقّ من احتفالِ اليومِ الفائت إلا وهنُ لوسي العميق، وقنوطُها الكئيب.

لقد أصابت هذه الكارثة الغامضةُ القرية كلّها بالذهول، وبُذلت جهودٌ لتفسيرها من غير طائل. وتُليت صلواتٌ من أجلِ نفسِ كارول في الكنيسة ذاتها التي كان كارول نفسه، قبل بضعةِ أيام قد رُتّل فيها مدائحَ لنعم الله وفضائله على سعادته ولا أحَدَ يعلمُ ما الذي أبقى الأرملة ستادت على قيدِ الحياة. وبعد تسعةِ أشهر من العزلة والحداد، وَلدت ابناً. وفي اليوم ذاته، سُحِقَت قريةُ غولين بسببِ سقوطِ صخرةٍ معلّقة كانت تشرفُ علها.

لم تبدّد ولادةُ ذلك الطفّل قطّ ألمَ والدته القاتم؛ فلم يكن جيل ستادت ينبئ في شيء عن شَبَهٍ ممكن بكارول؛ فكانت تبدو طفولتُه المخيفةُ واعدةً «بحياة» أكثر شراسة أيضاً. وفي بعضِ الأحيان، كان يأتي رجلٌ متوحّشٌ قصيرُ القامة والجبليون الذين كانوا قد رؤوه من بعيد، يؤكدون أنهم قد تعرّفوا فيه هان الايسلندي الشهير.) كان يأتي إلى الكوخ المهجور الذي تسكنُه أرملةُ كارول، والذين كانوا يمرّون حينذاك قريباً من ذلك المكان، كانوا يسمعون عويلَ امرأة، وزمجرةَ نمرٍ تخرجُ منه. وقد اصطحب الرّجل الفتى جيل معه. وانقضت أشهر، فردَّه بعدها إلى والدته، وهو أكثر كآبةً، وأكثر إثارة للرّعب.

كانت الأرملةُ ستادت تحملُ لذلك الطِّفلِ مزيجاً من الكرة والحنان. فتحتضُنه أحياناً بين ذراعيها كأمٍّ له، وكأنّه الشيءُ الجيّد الوحيدُ الذي لا يزالُ يربُطها بالحياة، وأحياناً أخرى ترفضُه بذعر، وهي تنادي كارول، عزيزها كارول. وما من كائنٍ في العالم، كان يعلمُ ما الذي يبلبلُ كيانها.

كان جيل قد أنهى عامه الثالث والعشرين حين رأى غوت ستيرسن، فأحبَّها بجنون. وكانت غوت ستيرسن غنيّةً، أما هو، فكان فقيراً. فمضى حينذاك إلى رايراس لكي يصنعَ من نفسه عاملَ منجم، ويكسبَ الذّهب. ومنذ ذلك الحين، لم تعدْ والدتُه تسمعُ أخباراً عنه.

وذات ليلة، وهي جالسةٌ إلى دولابِ المغزل الذي تعتاشُ منه، وتسهرُ مع مصباحها المطفأ جزئياً في كوخها الحقير، وتحت جدرانه التي تشيخُ مثلها في العزلةِ والحداد، كشاهدين صامتين على ليلةِ عرسها الغامضة، كانت قلقةً، وتفكر بابنها الذي ترغبُ في حضوره رغبةً شديدة، مع أنه يذكرّها بالكثير من الآلام التي قد يجلبُها إليها. لقد كانت تلك المرأةُ المسكينة تحبُّ ابنها، مهما كان عاقاً. وكيف لا يمكن لها أن تحبّه؟ وهي التي تألمت كثيراً لأجله.

نهضت، وذهبت لتأخذ من داخل خزانة قديمةٍ صليباً أصابه الصّدأ في الغبار. وتأمّلته للحظةِ من الزمن بعينٍ متوسّلة، ثم فجأة، دفعته عنها بذعر، وصرخت: — الصلاة! هل يمكنني أن أصلّي...؟ لم يعدْ لديك إلاّ أن تصلّي للجحيم، يا منكودة الحظّ، فأنتِ، إنما تنتمين إلى الجحيم.

وعادت لتغرق في أحلام يقظتها القاتمة، حين سمعت دقّاً على الباب. وكان ذلك حادثاً نادراً في منزل الأرملَة ستادت؛ لأن قرية توكتري بكاملها كانت تظنُّ أنها تتعاملُ مع الأرواحِ الجهنميّة، منذ سنواتٍ طويلة، بسبب ما كانت حياتها تظهُره

من أشياء خارجة عن المألوف. وهكذا، فلم يكن أحدٌ يقترب من كوخها. إنها اعتقادات باطلةٌ غريبة، في ذلك القرن، وفي ذلك البلدِ الغارق في الجهل! لقد كانت تدينُ بشقائها لشهرتها في السّحر والتي يدينُ بها نفسها للعلم بوابُ السبلادجيست.

وهتفت وهي تندفع نحو الباب:

- لعلّه يكون ابني، لعلّه يكون جيل!

لم يكن هو ابنها للأسف! بل كان ناسكاً قصير القامة، يرتدي مسحاً، ولا يُبرزُ غطاءُ رأسِه المخفضِ إلا لحيتَه السّوداء.

فقالت الأرملة:

- أيّها الرّجلُ المبارك، ماذا تطلبُ؟ أنت لا تعرفُ إلى أيِّ منزلٍ تتوجّه.

فردّ الناسكُ بصوتٍ مبحوح، ومعروفٍ للغاية لدى المرأة:

- بلى، في الحقيقة.

وما إن نزع قفازيه، ولحيتَه السّوداء، وغطاءَ رأسه، حتى كشف عن وجهٍ شنيع، ولحيةٍ صهباء، ويدين مجهزّتين بأظافر قبيحة.

فصرخت الأرملة:

- أوه!...

وخبأت رأسها بين يديها.

فقال الرَّجلُ القصيرُ القامة:

– حسناً! ألم تعتادي بعد على رؤيةِ الزّوجِ الذي ينبغي لك أن تتأمليه طيلةَ الحياة الأبدية بكاملها، بعد مرورِ أربعة وعشرين عاماً.

فهمست بذعر:

– الأبديّة...!

– اصغي، يا لوسي بيلنير، إلي أحملُ لك أخباراً عن ولدك.

– عن ابني! أين هو؟ ولماذا لا يأتي...؟

– لا يمكنُه ذلك.

فتابعت:

– ولكن، قلْ لي... إني أقدّم لك الشكر، واحسرتاه! يمكنك إذن أن تجلبَ لي السّعادة! فقال الرّجل بصوتٍ مكتوم:

– إن السّعادةَ هي التي أجلبُها إليك في الحقيقة، لأنك امرأةٌ ضعيفة. والدَّهشةُ تعتريني من أن يكون بطنُك قد تمكن من حمل ابنٍ كهذا. فلتبتهجي إذن. كنت تخشين أن يحذو ابنك حذوي، فلا تخشي شيئاً بعد اليوم.

فهتفت المرأة بحماسة:

– ماذا؟ إن ابني جيل، حبيبي، قد تغيّر إذن؟

وكان النّاسك ينظر إلى فرحها، وهو يضحك ضحكاً مشؤوماً، وقال

– أوه! لقد تغيّر حقاً.

– ولماذا لم يهرعْ إلى حضني لمعانقتي؟ أين رأيته؟ وماذا كان يفعل؟

– كان نائماً.

أما الأرملة، فلم تكن تلاحظ، بسببِ فرحها المفرطِ، نظرةَ الرّجلِ القصيرِ المشؤومة، ولا ملامحه الفظيعة في سخريتها.

– لماذا لم توقظْه، ولم تقلْ له: تعال يا جيل لترى والدتَك؟

– كان نومُه عميقاً

– أوه! متى يأتي؟ قلْ لي، أتوسّلُ إليك، إن كنتُ سأراه قريباً.

سحب الناسكُ المزيّف من تحت ردائه نوعاً من كأسٍ ذات شكل غريب، وقال:

– حسناً أيتها الأرملة، اشربي نخبَ رجوعِ ابنك المقبل!

فأطلقت الأرملةُ صرخة رعب؛ فقد كانت تلك جمجمةً بشرية، وصدرت عنها حركةٌ مذعورة، ولم تتمكّن من أن تنطقَ بكلمة.

فصرخ الرّجل فجأة بصوتٍ مرعبٍ:

– كلاّ، كلاّ، لا تشيحي بعينيك، أيتها المرأة، انظري. إنك تطلبين أن تري ابنك ثانية...؟ فانظري، كما أقول لك! لأن هذا كلَّ ما تبقّى منه.

وكان يقدّمُ لشفتي الأمّ الشاحبتين، جمجمة ابنها المجرّدة والمتيبّسة، تحت أضواء المصباح المحمّر.

إن مزيداً من المصائب كان قد مرَّ على تلك الرّوح بحيث أن مصيبةً إضافيةً قد حطمتّها؛ فرفعت نحو النّاسك المخيف نظرةً ثابتةً وبليدةً، وقالت بوهن:

– أوه! الموت...! الموت! دعني أموت.

– موتي، إذا شئتِ!... ولكن تذكّري، يا لوسي بيلنير حرشَ توكتري، تذكّري اليوم الذي أعطى الشيطانُ روحك للجحيم فيه، حين سيطر على جسدك! أنا الشيطان، يا لوسي، وأنتِ زوجتي الأبدية! والآن، موتي إذا شئت.

كان ذلك اعتقاداً منتشراً في تلك الأقطارِ المؤمنةِ بالخرافات، ومفادّه أن أرواحاً جهنمية تظهرُ أحياناً بين الناس لتعيش فيهم حيواتِ جريمةٍ ونكبات. وكان لهان الإيسلندي هذه الشهرة المرعبة، من جملةِ آثمين آخرين ذائعي الصّيت مثله. وكانوا يعتقدون أيضاً أن المرأة التي تكونُ ضحيةَ أحد هؤلاء الشياطين ذوي الشكل البشري، بسبب الإغواء أو العنف، تغدو، من جرّاءِ هذه المصيبةَ وحدها، رفيقَتَه في الإدانة على نحوٍ لا رجعة عنه.

بدت الأحداثُ التي ذكّر الناسكُ بها الأرملةَ وكأنها توقظُ في نفسها هذه الأفكار. وقد قالت بألم:

– واحسرتاه! ليس بوسعي إذن أن أهربَ من الوجود...!

فماذا صنعت؟ لأنك تعلم، يا حبيبي كارول، بأنني بريئةٌ وساعدُ المرأة لا يكون البتة بقوة ساعد الشيطان.

واصلت كلامها، وكانت نظراتُها غارقةً في الهذيان. أما كلماتُها غيرُ المترابطة فكانت تبدو وكأنها نابعةٌ من ارتعاشِ شفتيها التشنّجي

– أجل ، يا كارول ، لقد أصبحت منذ ذلك اليوم نجسةً وبريئةً ، والشيطانُ يسألني إن كنت أتذكّر ذلك اليومَ المرعبَ! – يا حبيبي كارول ، أنا لم أخنْك قطّ – لقد أتيتَ متأخّراً أكثر مما ينبغي. وكنتُ قد أصبحتُ له قبل أن أصبحَ لك. فواحسرتاه! – واحسرتاه! لأني سوف أعاقبُ عقاباً أبديّاً. كلا ، لن أنضمَّ إليك ، أنتَ يا من أبكيه ، فما فائدةُ الموت؟ سوف أمضي ، مع هذا الوحش ، إلى عالم يشبُهه ، إلى عالمِ المدانين! فما الذي صنعتُه إذن؟ إن مصائبي في الحياة سوف تكونُ جرائمي في الأبديَة

كان النّاسكُ القصيرُ يحدّقُ إليها بنظرةٍ ظافرةٍ ومتسلّطة...

فهتفت فجأة ، وهي تستديرُ نحوه...

– آه! قلْ لي! أليس ما يجلبُه لي حضورُك هنا حلماً فظيعاً؟ لأنك تعلمُ ، للأسف ، أنّه منذ ذلك اليوم الذي حدث فيه هلاكي ، وكانت كلُّ الليالي المشؤومة التي زارني فيها روحُك قد انطبعت بالنسبة لي بتجليّاتٍ بخسةٍ ، وأحلامٍ مرعبة ، ورؤى مريعة.

– أيتها المرأة ، أيتها المرأة ، ارجعي إلى العقل ، فالحقيقةُ أنّك قد صحوْتِ مثلما هي الحقيقة أن جيل قد مات.

كانت صروف الدّهر القديمة التي مرّت بها تلك الأمُّ وكأنّما قد محت ذكرى مصيبتها الجديدة؛ ولكن تلك الكلماتِ قد أرجعتها إليها ، فقالت:

– آه! يا بني! يا بني!.

وكان يمكن لنبرة صوتها أن تؤثّر في أيٍّ كائن عدا ذلك الكائن الذي كان يصغي إليها.

- كلاّ ، سوف يعود؛ إنّه لم يمت؛ لا يمكنني أن أصدِّق بأنه قد مات .

- حسناً! اذهبي لتسألي عن ذلك صخورَ ريراس التي سحقته ، وخليج درونتهايم الذي واراه .

سقطت الأرملةُ على ركبتيها ، وصرخت بمشقّة:

- يا ربيّ! أيّها الرّب العظيم!

- اسكتي ، يا خادمةَ الجحيم!

فسكتت المنكودةُ ، بينما تابع قائلاً:

- لا تشكّي بموتِ ابنك؛ فلقد عوقب على الزَّلل الذي وقع فيه والدُه ، وسمح لقلبه المتحجّر بأن يلين بسبب نظرةِ امرأة . أما أنا ، فقد امتلكتُك ، ولكنّي لم أحبّك قط . وقد نزلت مصيبةُ زوجك كارول عليه- إن ابني وابنك قد خدعته خطيئتُه ، تلك التي مات من أجلها .

فتابعت تقول:

- ميت! ميت! هذا صحيحٌ إذن- آه ، يا جيل ، لقد وُلِدتَ من مصيبتي ، وحملتُ بك وأنا مرتاعةٌ ، وولدتُك ، وأنا في حداد . وكان فمك يمزّق صدري ، وحين كنتَ طفلاً ، لم تكن مداعباتُك تستجيبُ لمداعباتي قط ، ولا معانقاتُك لمعانقاتي . فطالما كنت تهربُ من والدتك وترفضُها . والدتُك الوحيدة إلى حدٍّ بعيد ، والمتروكة! ولم تكن تسعى إلى أن تجعلني أنسى آلامي الماضية ، إلا بأن تخلق لي آلاماً جديدة ، كنت تهجرُني من أجل ذلك الشيطان الذي صنع وجودَك وترمُّلي . ولم يأتني قطّ فرحٌ من ناحيتك ، خلال سنواتٍ طويلة ، يا جيل . ومع ذلك ، فإن

موتك، يا بنيّ، اليوم، يبدو لي أكثر البلايا التي لا أطيقُ احتمالها. إن ذكراك تبدو ذكرى ابتهاجٍ وتعزية، واحسرتاه!

لم تستطع الاستمرار؛ فخبأت رأسَها في مسحها الأسود، وأخذ صوتُ نحيبها المرير يصبحُ مسموعاً، فهمس الناسك قائلاً:

– يا للمرأة الضعيفة!

ثم تابع بصوتٍ قوي:

– سيطري على ألمك؛ فلقد تغلّبتُ على ألمي. فاصغي، يا لوسي بيلنير. فيما كنتِ لا تزالين تبكين ابنك، بدأتُ أثأرُ له؛ فقد خانته خطيبتُه مع جنديٍّ من حامية مونكولم. إن الفوجَ بكامله سوف يقضي على يدي– فانظري، يا لوسي بيلنير.

كان قد رفع كميّ ردائه، وأخذ يُري الأرملة ذراعيه المشوّهتين المصطبغتين بالدّم.

وقال، وهو يطلقُ نوعاً من الزَئير:

– أجل، إنِ روحَ جيل ينبغي أن تتنزّه بفرحٍ في سواحلِ أورشتال الرّمليّة، وفي مضائقِ كاسكاد تيمور– هيّا، أيتها المرأة، ألا ترين هذا الدّم؟ فلتتعزّيْ إذن.

ثم قطع حديثَه فجأة، وكأنَّ ذكرى معينة قد قفزت إلى ذهنه:

– أيتها الأرملة، ألم يسلّموك من قبلي صندوقاً صغيراً من الحديد؟ ماذا؟

لقد أرسلت لك الذّهب، وأنا أجلبُ لك الدّم، ولا تزالين تبكين! ألستِ من سلالةِ البشر إذن؟

أما الأرملةُ التي كانت غارقةً في يأسها؛ فقد كانت تلتزمُ الصّمت، فقال وهو يضحكُ ضحكةً مخيفة:

– هيا! إنّك صامتة، ولا تُبدين حراكاً! ألستِ من سلالة النّساء أيضاً، يا لوسي بيلنير!

وأخذ يهزّ ذراعه لكي تُصغي إليه، وقال:

– ألم يجلب لك رسولٌ صندوقاً حديديّاً مختوماً؟

وإذْ كانت الأرملةُ توليه اهتماماً عابراً، فقد أشارت إشارة نفيٍ برأسها، وعادت لتغرقَ في أحلامِ يقظتها الكئيبة.

فصاح الرّجلُ القصيرُ القامة:

– آه! أيها الحقير! أيّها الحقيرُ الخؤون! يا سبياغودري. إن هذا الذّهب سوف يكلّفك غالياً! وما إن تجرّد من ردائه، رداءِ النّاسكِ حتى اندفع إلى خارج الكوخ، وهو يزمجر كالضبع الذي يبحث عن جثة.

الفصل السَّابع عشر

إذ كانت وحيدةً على الدّوام؛ فإن أملاً ضعيفاً كان
لا يزالُ يسندُها. وكانت تنتظرُ، من يومٍ إلى يوم
رسالةً تواسيها! ولكن، واحسرتاه...!
بسبب إفراطك في السَّهر وحيدة في البرج
الصّغير (البُريج) الذي يطلُّ على البحر، فقد أطلقتِ
العنان لفكرك لكي يتيه في أحلام يقظةٍ كئيبةٍ،
أحلامِ الخوفِ والوحدة.

لوبريور[1]

يا سيّدي، إني أصبغُ شعري، أصبغُه وأنا أبكي، لأنَّك
تتركني وحيدةً، ولأنك تمضي إلى الجبال.

سيّدةُ الكونت، أغنية عاطفية.

---

(١) مقتبسة عن: برترام، ولسوف يُحذفُ هذا الجواب، جواب لوبريور، في عام ١٨٣٣.

ومع ذلك، فإن إيتيل قد أمضت، بالعدد، أربعةَ أيّام طويلة ورتيبة، منذ أن أخذت تهيمُ وحدها في حديقة برج سليفيغ المظلمة. لقد كانت وحيدة في المصلى الذي يشهدُ على الكثيرِ من الدّموع، والمؤتَمن على الكثير من النّذور. وحيدةً، في الرّواقِ الطّويل الذي لم تسمع فيه لمرّة واحدة دقّات ساعة منتصف الليل. كان والدُها يرافقها أحياناً، غير أنها لم تكن أقلَّ وحدةً بسبب ذلك، لأن الرفيقَ الحقيقيّ لحياتها كان غائباً.

يا للفتاة المنكودة الحظّ...! ماذا فَعَلت تلك الرّوحُ الشّابةُ والنقيّة لكي تُسلم إلى الكثير من سوء الطّالع؟ لقد اختُطفت من العالم، ومن الأمجاد، والثّروات، ومن أفراحِ الشّباب، ومن انتصاراتِ الجمالِ الباهرة. لقد كانت لا تزالُ في المهد، حين أصبحت في سجن. كانت أسيرةً إلى جانب أسير. فترعرعت وهي تراه يتلفُ. وزيادةً في الآلام، ولكي لا يفوتها اختبارُ كلِّ عبودية، فقد أتى الحبُّ ليلتقيها في سجنها.

لو كان بإمكانها أيضاً أن تحصل على فتاها أوردينر بقربها، لما كان لحرّيتها نفعٌ لها؟ لو كان يمكن لها أن تعرفَ على الأقل بوجود عالم يفرّقونها عنه؟ وفضلاً عن ذلك؛ ألم يكن ممكناً أن يكون عالمُها وسماؤها معها في هذا البرجِ الضّيق، وتحت هذه الأبراجِ المزروعة بالجنود، والتي يمكن لعابرِ السّبيل أن يلقي عليها نظرة أقلَّ إشفاقاً؟

ولكن، واحسرتاه! فقد كان أوردينر ذاك غائباً للمرّة الثانية، وبدلاً من أن تقضي معه بهناءةٍ ساعاتٍ قصيرةً حقاً، ولكنها متجدِّدة، من خلال مداعباتٍ طاهرةٍ، وعناقاتٍ محتشمة؛ فقد كانت تمضي الليالي والأيّام في البكاءِ لغيابه،

وفي الصّلاة من أجل الأخطار التي يتعرَّض لها، لأنه ليس للفتاة العذراء إلّا صلاتُها ودموعُها.

كانت أحياناً تحسدُ جناحيّ السّنونو الطليقة التي تأتي إليها لتطلب طعاماً من خلال عوارض سجنها، وتترك أحياناً أفكارها تهربُ مع الغيم الذي تدفعه الرّيحُ السّريعةُ إلى شمال السّماء. ثم تشيحُ برأسها فجأة، وتحجبُ عينيها، وكأنها تخشى أن ترى ظهورَ اللّصّ العملاق؛ فتبدأ معركةٌ غير متكافئة، على أحدِ الجبال البعيدة والذي تزحفُ قمتُه المزرقة نحو الأفق، وكأنّه سحابةٌ ثابتة.

أوه! كم هو قاسٍ أن يحبَّ المرء في الوقتِ الذي فُصل فيه عن الكائن الذي يحبّه! قليلةٌ حقاً هي تلك القلوبُ التي عرفت هذا الألم بكلّ اتساعه. لأنها قليلةٌ فعلاً هي تلك القلوب التي عرفت الحبّ بكل عمقه. إنّ المرء حينذاك، إذْ يصبحُ غريباً عن وجوده الشّخصي إلى حدّ ما، يخلق لنفسه عزلةً كئيبةً، وفراغاً هائلاً. أما بالنسبة للكائن الغائب؛ فلا أدري أيّ عالم مرعب بمخاطره، ووحوشه، وخيباته يخلقه! إن القدراتِ المختلفة الذي كانت تشكّل طبيعتَنا تتبدّل، وتتلاشى في رغبةٍ لا متناهيةٍ للكائن الذي ينقصُنا: إن كلَّ ما يحيطُ بنا يغدو خارج حياتنا. ومع ذلك، فنحن نتنفّس، ونمشي، ونتصرّف، ولكن من غيرِ تفكير. وشأن كوكبٍ تائهٍ قد أضاع شمسه، يتحرَّكُ الجسدُ بلا قصد، لأن الروُّحَ في مكانٍ آخر.

الفصل الثّامن عشر

هؤلاء القادةُ العديمو الشفقة

يرعبون الجحيم بالقَسَم الرّهيب الذي يقسمونه

على درعٍ هائل، وبقربِ ثورٍ أسود قد ذبحوه للتّو

يقسمون جميعاً بأن يثأروا، غامسين أيديهم في الدّم.

القادة السّبعة أمام طيبة.

تزخرُ شواطئُ التّرويج بالخلجانِ الصّغيرةِ الضّيقة، والأجوان[1]، والصّخور الرّصيفية، والبحيراتِ الشّاطئية، والرؤوسِ الصّغيرة المتكاثرة إلى حدٍّ بعيد، بحيث تتعبُ ذاكرةَ المسافر، وصبرَ الطبوغرافي. وإذا ما أخذنا بالأحاديث الشّعبية، فقد كان لكلِّ برزخٍ قديماً شيطانُه الذي يتردّد إليه، ولكلِّ جوين جنيتّهُ التي تسكنه، ولكلّ رعْنٍ[2] قدّيسُه الذي يحميه. لأن الاعتقاداتِ الباطلة تمزج بين كلِّ المعتقدات لتصنعَ منها ضروباً من الرّعب. وعلى ساحلَ كيلفيل

(١) جمع: جون، وهو الخليج الصّغير جدّاً. (م: ز.ع).

(٢) قسمٌ من جبلٍ داخلٍ في البحر. (م: ز.ع).

الرّملي، وعلى بعد بضعة أميال، شمالي مغارة فالدروغ، ثمّة موضعٌ واحد، كما يُقال، متحرّرٌ من كَلِّ سلطةٍ للأرواحِ الجهنميّة، الوسيطة أو السّماوية. إنها الفسحةُ الشّاطئية التي تطلُّ عليها الصّخرَة التي لا يزالُ المرءُ يلاحظ في قمتها بعضَ المهدّمات العتيقة لقُصيرِ رالف أو رودولف - لو - جيان (العملاق). إن ذلك المرج البرّيَّ الصّغير الذي يحدُّه البحرُ من جهة الغرب، والمحصورُ بصورةٍ ضيقة ضمن صخورٍ مغطّاة بشجيرات الخلنج[1] يدين بهذا الامتياز لاسم السّيد النّرويجي القديم وحده، وهو أوّلُ مالك له. لأن أيّة جنيّة، وأيَّ شيطانَ، وأيَّ ملاك كان يمكنه أن يتجاسَرَ على أن يعدَّ نفسه مضيفاً أو شَفيعاً لتلك الأملاك التي كان يشغلها قديماً، ويحميها رالف - لو -جيان؟

حقاً، إن اسم رالف المخيف وحده كان كافياً ليطبعَ هذه الأماكن التي كانت بريّةً سابقاً بطابعٍ مرعب. ولكن، إذا اعتبرنا كلّ شيء؛ فإن ذكرى معيّنةً لا تكون مخيفةً مثل روحٍ معينة؛ فما من صيّادٍ أخّره الطّقسُ العاصفُ، وهو يربطُ قاربَه إلى جون رالفَ، قد شهد قطّ الضّحك الماجنَ والرقصَ الذي تقوم به الأرواحُ، في أعلى إحدى الصّخور، ولا الجنيّةَ التي تتجوَّل بين شُجيراتِ الخَلَنج، في عربتها الفوسفورية التي تجرّها دودتان لامعتان، ولا القدّيس الذيَ يصعد مجدّداً إلى القمر، بعد صلاته.

ومع ذلك، فلو سمحت الليلةُ التي أعقبت العاصفة الكبرى، وأمواجُ البحر الصّاخبة، وعنفُ الرّيح، لو سمحت لبحار تائه أن يرسو في ذلك الخليج المضياف، لأصابه ربّما ذلك الذُّعرُ المتطيّر، وهو يتأمّل الرّجالَ الثلاثةَ الذين كانوا جالسين، في تلك الليلة، حول نارٍ عظيمة قد أشعلوها في وسط الفسحة. كان

(١) الخلنج: جنيبة تعيش في الأرض الرّملية، وهي ذاتُ زهرٍ بنفسجيّ (م:ز.ع).

اثنان منهم يعتمران قبعتين كبيرتين من اللباد، وسروالين عريضين من سراويل عمال المناجم الملكيّين. وكانت سواعُدهم عاريةً حتى الكتف، وأقدامُهم مخبأةً في جزماتٍ صهباء اللّون. وكان حزامٌ من القماش الأحمر يسند سيفيهما المعقوفين، ومسدّساتهما الطّويلة. كان كلٌّ منهما يحملُ بوقاً مصنوعاً من القرون، معلّقاً في عنقه. كان أحدُهما عجوزاً، والثاني فتيّاً جداً. وكانت كثافةُ لحيةِ العجوز، وطولُ شعرِ الفتى يضيفان بعضَ الوحشية على سحنتيهما الخشنتين والقاسيتين.

كان أمراً سهلاً أن يتعرّف المرءُ في رفيقِ عاملَيْ المناجم، رجلاً جبليّاً من شمال النّرويج. وذلك من خلال طاقيتّه المصنوعة من جلد الدّبّ، ومن خلال سترةِ الفارسِ المصنوعة من الجلد المزيّت، ومن بندقية الفتيلة، المثبّتة على ظهره كالوشاح، ومن سرواله القصير والضيّق، وركبتيه العاريتين، وخُفّه (صندله) المصنوعِ من اللّحاء، ومن بلطتِه اللاّمعةِ التي كان يحملُها بيده.

من المؤكّد أن ذلك الذي أمكنه أن يرى من بعيدٍ تلك الوجوه الثلاثَة الغريبة والتي كان الموقدُ المختلجُ، بفعلِ نسائمِ البحر، يُلقي عليها أضواءَ حمراءَ ومتبدّلة، يمكنه أن يشعرَ عن حقّ بالذّعر، مَن غير أن يكون مؤمناً بالأشباح، وبالعفاريت؛ فكان يمكن أن يكفيه الإيمانُ بوجود اللّصوص، وأن يكون أغنى بقليلٍ من شاعر.

كان هؤلاءُ الرّجالُ الثلاثةُ غالباً ما يديرون رؤوسَهم باتجاه المعبرِ الضّائع في الحرس والذي يُفضي إلى فسحةِ رالف، وبناءً على تلك الكلمات التي لم تذهبْ بها الرّيحُ من أحاديثهم، كان يبدو أنهم ينتظرون شخصاً رابعاً.

- قلْ لنا إذن، يا كينيبول، هل تعلم أننا في هذه الساعة، قد لا ننتظرُ بالاطمئنانِ نفسه ذلك المبعوثَ، مبعوثَ الكونت غريفنفلند، في المرج المجاور، مرجِ صبيٍّ الشّيطان تولبيتيلبيت، أو هناك، في جون سان غوتبير...؟

فردّ الرجلُ الجبليُّ على عاملِ المنجمِ العجوزِ قائلاً:

- لا تتكلّم بصوتٍ عالٍ إلى هذا الحدّ، فليكن مباركاً رالف - لو -جيان الذي يحمينا! فلتقني السّماء من أن أضع قدمي ثانية في فسحة تولبيتيلبيت! ففي ذلك اليوم، كنت أظنّ أنني أقطف الزّعرور، فقطفتُ فيه اللفّاح[1] الذي أخذ ينزفُ ويصرخُ. وهذا ما كاد يجعلني مجنوناً.

فأخذ عاملُ المنجم الشّاب يضحك، ويقول:

- أهذا صحيح، يا كينيبول! أنا أظنّ أن صرخةَ اللّفاح قد أحدثت كلَّ تأثيرها على عقلك المسكين.

فقال الجبليّ بتبرُّم:

- أنت ذو عقلٍ مسكين! فانظر يا جوناس. إنه يضحكُ من اللّفاح، إنه يضحكُ مثل أحمق يلعبُ برأسِ ميت.

فتابع جوناس قائلاً:

- إحم! فليذهبْ إذن إلى مغارة فالديروغ التي ترجعُ فيها رؤوسُ أولئك

---

(١) نبات عشبيّ من الفصيلة الباذنجيّة، وتُشبه جذورُه القامةَ البشرية، وكان يُستخدمُ في أعمال السّحر. (م: ز.ع).

الذين قتلهم هان الإيسلندي، ترجعُ كلَّ ليلة لترقصَ حول سريرهِ المصنوعِ من الأوراق الجافة، وتصطكُّ أسنانُها بعضُها بالبعضِ الآخر، لكي تجعله ينام.

فقال الجبليّ:

– هذا صحيح.

فتابع الفتى:

– ولكن، ألم يعدْنا السّيد أكيت الذي ننتظرُه بأن هان الإيسلندي سوف يتزعّم انتفاضَتَنا؟

فأجاب كينيبول:

– لقد وعد بذلك، وبمساعدةِ هذا العفريت، سنكون متأكّدين من التغلُّب على كلِّ الفرسان من ذوي الملابس الخضر، فرسان درونتهايم وكوبنهاغن.

فهتف عاملُ المنجم العجوز:

– ولكن، ليس أنا من سيقومُ بالحراسة بقربه، في اللّيل. . . .

في تلك اللحظة، أيقظت طقطقةُ أوراقِ الخليج اليابسة تحت أقدامٍ بشرية، انتباهَ المتحادثين، فاستداروا، وجعلهم شعاعٌ من أشعة الموقد يتعّرفونَ القادم الجديد.

– إنّه هو! هذا هو السّيد أكيت! مرحباً يا سيّد أكيت! لقد جعلتنا ننتظرُكَ – ها قد مرّت أكثر من ثلاثة أرباع السّاعة، ونحن على الموعد...

كان ذلك السّيد أكيت رجلاً قصيرَ القامة وسميناً، ويرتدي ملابس سوداء، وكانت سحنتُه المرحة تعطي تعبيراً مخيفاً[1] فقال:

– حسناً، يا أصدقائي. لقد أخّرني جهلي بالطّريق، والاحتياطات التي تعيّن عليّ اتخاذُها لقد تركت الكونت شوماكير هذا الصّباح. وهذه ثلاث صُررٍ من الذّهب قد كلّفني بتسليمكم إياها.

انقضَّ العجوزان على الذّهب بالجشع المشترك بين فلّاحي بلاد النّرويج الفقيرة تلك. أما الشابُّ فقد رفض الصُّرة التي كان أكيت يمدُّها إليه.

– احتفظ بمالك، أيها السّيد الرّسول؛ فلسوف أكون كاذباً، إذا ما قلت إنني أقوم بالثّورةِ من أجل كونتك شوماكير: إنني أثورُ لكي أحرّر عمال المناجم من الوصاية الملكية. أثورُ كيلا يعودُ لسرير أمي غطاءٌ مشرَّم مثل سواحل بلادنا الطيّبة: النّرويج.

فردّ السّيد أكيت مبتسماً، من غير أن يظهر في حيرةٍ من أمره.

– إذن، أرسلُ هذه النقود إلى والدتك المسكينة، يا عزيزي نوربيت، لكي يصبح لديها غطاءان جديدان من أجل رياحِ الشّتاء الباردة.

فامتثل الشّاب للأمر بإيماءةٍ من رأسه. أما الرّسول فقد سارع ليضيف كخطيبٍ ماهر:

– ولكن، احترس ألا تردّد ما قلته للتوِّ بلا رويّةٍ من أنك لا تحملُ السّلاحَ من أجل شوماكير، الكونت دوغريفنفلد.

---

(١) لعّل المرء يتعرّف فيه موسديمون.

– ومع ذلك... مع ذلك، فنحن نعلمُ جيداً بأنّهم يضطهدون عمالَ المناجم، غير أننا نعرف هذا الكونت، هذا السّجين عند الدّولة...

فتابع الرّسولُ بحماسة:

– كيف يمكنكم أن تكونوا ناكرين للجميل إلى هذا الحدّ. إنكم تئنّون في أقبيتكم، وأنتم محرومون من الهواء والضّوء، ومسلوبون من كلّ ملكية، وعبيدٌ لأكثرِ الوصاياتِ إبهاظاً! فمن الذي أتى لمساعدتكم؟ ومن الذي أعطاكم الذَّهبَ والأسلحة؟ أليس سيّدي الذّائعُ الصّيت؟ الكونت النبيل دوغريفنفلد الذي يرسف في العبودية، ويعاني من الحظّ المنكود أكثر منكم أيضاً؟ أما الآن، وبعد أن أصبحتم مغمورين بأفضالهِ ترفضون أن تفيدوا منها لكي تحصلوا على حرّيته، وعلى حرّيتكم في الوقتِ عينه...؟

فقاطعه الشّاب:

– إنك على حقّ، ولسوف يكونُ ذلك سلوكاً سيّئاً.

فقال العجوزان:

– أجل، سوف نقاتلُ من أجلِ الكونت شوماكير.

– تشجّعوا، يا أصدقائي، انهضوا باسمه، واحملوا اسم وليّ نعمتكم من أحدِ أطرافِ النّرويج إلى الطّرفِ الآخر. اسمعوا، إن كلَّ شيء يساندُ مشروعكم العادل، ولسوف تتخلّصون من عدوٍ رهيبٍ هو الجنرال لوفان دوكنود الذي يحكمُ المنطقة. إن القوّة الخفيّة لسّيدي النبيلِ الكونت دوغريفنفلد سوف تعملُ

على إعادته مؤقّتاً إلى بيرغن – هيا قلْ لي، يا كينيبول، ويا جوناس، وأنتَ، ياعزيزي، نوربيت، هل كافّةُ رفاقك جاهزون؟

فقال نوربيت:

– إن إخوتي في غولد برانشتال لا ينتظرون سوى إشارةٍ منّي، فغداً، إذا أردتِ...

– غداً، فليكنْ. فلا بدَّ لعمالِ المناجم الشبّان والذين تقودُهم أن يرفعوا الرّايةَ قبل الجميع وأنت، يا جوناس المقدام؟

– إن ستمائة رجلٍ مقدام من جزر فاروير، ويعيشون منذ ثلاثة أيّام من لحم الشّاموا، وزيت الدِّب، في غابة بينالّاغ، لا يطلبون سوى نداء من بوق قائدِهم العجوز جوناس، من بلدةِ لوفيغ.

– هذا حسن. وأنت أيّها الجريء كينيبول؟

– كلُّ أولئك الذين يحملون بلطةً في مضائق كول الصّخرية، يتسلّقون الصّخور من غير واقيات الركبة، مستعدّون للانضمام إلى إخوتهم عمال المناجم، حين يكونون بحاجةٍ إليهم. وأضافَ الرّسولُ وهو يرفعُ صوته:

– هذا يكفي. اعلنوا إلى رفاقكم لكي لا يشكّوا بالنّصر بأن هان الإيسلندي سيكون القائد...

فسأل الثلاثةُ كلُّهم معاً، وبصوتٍ كان يختلطُ فيه التّعبيرُ عن الرُّعب بالتعبيرِ عن الأمل:

– هل هذا مؤكّد؟

فأجاب الرّسول:

– سوف أنتظرُكم، أنتم الثلاثة جميعاً، بعد أربعة أيام، في مثل هذه السّاعة، مع أرتالكم المتّجمعة في منجم أبسي – كور، بقرب بحيرة سميازين، تحت سهل ليتوال – بول، وسوف يرافقُني هان الإيسلنديّ.

فقال القادةُ الثلاثة:

– سوف نكون هناك، ونسأل الرّبَّ ألا يتخلّى عن أولئك الذين سيعينهم الشيطان. فقال أكيت، وهو يضحك هازئاً:

– لا تخشوا شيئاً من جهة الرّبْ – اسمعوا، سوف تجدون في خرائب كراغ شعاراتٍ من أجل قطعاتكم، فلا تنسوا الصّيحة: عاش شوماكير! لننقذْ شوماكير! – ينبغي أن نفترق؟ فلن يتأخّر الفجر عن البزوغ. ولكن قبلاً، أقسموا على أن ما يجري بيننا هو سرٌّ لا يُسمحُ لأحدٍ بإفشائه.

ومن غير أن يقول القادةُ الثلاثةُ أيَّة كلمة، فقد شقّوا وريدَ السَّاعدِ الأيسرِ برأسِ سيف، ثم أمسكوا بيدِ الرّسول، وترك كلٌّ منهم بضعَ نقاطٍ من الدّم تسيلُ عليها.

وقالوا له:

– لديك الآن دمُنا.

وهتف الأكثرُ شباباً فيما بينهم:

– ليهرقْ دمي مثل هذا الدّم الذي أُريقُه في هذه اللحظة، وليتلاعب روحٌ شريرٌ، بمشاريعي، كما تتلاعبُ الزَّوبعةُ بقشّة، ولتكن ساعدي ثقيلةً كالرصاص حين أثأر لإهانة، ولتسكن الخفافيش في قبري، وليتسلّط عليَّ الموتى، وأنا حيّ، وحين أموت، ليدنّسني الأحياء، ولتذرفْ عيناي الدَّمعَ غزيراً مثل عيني امرأة، إذا ما تكلّمتُ عما حدث في هذه السَّاعة، في فسحةِ رالف – لو – جيان، وليتكرّمْ الطّوباويّون القدّيسون بأن يسمعوني.

فردّد العجوزان:

– آمين.

حينذاك، تفرّقوا، ولم يبقَ في الفسحةِ إلّا الموقدُ المطفأُ جزئياً، والذي كانت أضواؤه المحتضرة تصعدُ، على فواصلَ زمنيّة، حتى قمة الأبراج المهدّمة والمنعزلة، أبراجِ رالف – لو – جيان.

الفصل التّاسع عشر

اللّصّ الأوّل

اهربْ... إن هذه البقعةَ، مع أنّها فسيحةٌ،

لن يكون فيها موضعٌ واحدٌ يخبّئك، فالموتُ

ماثلٌ في كلِّ مكانٍ فيها.

اللّصّ الثاني

إن السّيد ألدوبران مكلَّفٌ بصورةٍ خاصّة

من سيّدة، بملاحقةِ حياتك التي أصدروا الحكم

بنفيها عن صقلية بكاملها

برترام،[1]

تيودور

---

(١) اقتباس حُذف عام: ١٨٣٣.

يا تريستان، لنهربْ من هنا

تريستان

إنه زوالٌ غريبٌ للحظوة

تيودور

هل يمكنُ لهم أن يتعرّفونا؟

تريستان

أجهلُ هذا، وأنا خائفٌ من ذلك.

لوب دوفيغا: كلبُ الحدائقي.

كان بينينيوس سبياغوردي يدركُ بصعوبة الدَّوافعَ التي من شأنها أن تدفعَ شابّاً متينَ البنية، ويظهر أنه لا يزالُ أمامه سنواتٌ طويلة يعيشها، شأن رفيق سفره، ليجعل من نفسه مهاجماً طوعيّاً للرّهيب هان الإيسلنديّ.

لقد كان غالباً جداً ما يعرضُ بمهارةٍ لهذه المسألة، ومنذ أن بدأا طريقهما. ولكن الفتى المغامرَ كان يلتزمُ الصّمتَ العنيدَ حول سببِ رحلتهما. ولم يكن الرَّجلُ المسكينُ أكثر سعادةً يوماً بالأشياء الأخرى المثيرة للفضول والتي أمكن لرفيقه الغريب أن يوحي إليه بها. وذات مرّة، خاطر بسؤال حول عائلة واسم سيّده الشاب، فأجابه هذا الأخير: «ادعني أوردينر». ولقد جرى التلفّظُ بهذا الجواب الذي قلّما كان مُرضياً، بنبرةٍ تمنع كلَّ جوابٍ عليه؛ فكان لابدّ له من أن يمتثلَ للأمرِ الواقع؛ فلكلِّ فردٍ أسراره. وسبياغودري نفسه. ألم يكن يخفي

بعنايةٍ، داخل خُرْجه، وتحت معطفه، علبةً غامضة، كان يمكن لكلّ بحثٍ عنها أن يبدو له في غير محلّه، ومزعجاً إلى حدٍّ كبير.

كانا قد غادرا درونتهايم منذ أربعة أيّام، من غير أن يكونا قد سارا مسافةً كبيرة. سواء بسبب الأضرار التي أحدثتها العاصفةُ في الطّرق، أو بسبب كثرةِ الدُّروبِ المعترضة والانعطافاتِ التي كان البّوابُ الهاربُ يظنّ أنّ عليه سلوكها لكي يتحاشى الأماكنَ المأهولةَ أكثر من اللّازم. وقد وصلا إلى ضفّة بحيرةِ سباربو، بعد أن تركا سكونجن إلى يمينهما، وذلك في السّاعة الرابعة مساءً.

كانت تلك الطبقةُ المائية التي تعكس آخر أضواء النهّار، ونجوم الليل الأولى ضمن إطار من الصّخور العالية، وأشجار السّرو السّوداء، وأشجار السّنديان الضخمة، كانت لوحةً عاتمةً ورائعة.

إن منظر بحيرةٍ، في المساء، يُحدِثُ أحياناً، وعلى مسافةٍ معينة، خداعاً بصريّاً فريداً. إنه يشبه هوّةً هائلة، تخترق الكوكبَ من جهةٍ إلى أخرى، فتُري السّماء من خلال الأرض.

توقف أوردينر، وهو يتأمل تلك الغابات الدرويديّة[1] التي تغطّي ضفافَ البحيرة غير المتساوية، وكأنّها جمّة شعر، والأكواخ الحواريّة، أكواخ سباربو، والمنتشرة على أحد المنحنيات وكأنها قطيعٌ متفرّق من الماعز الأبيض. كان يصغي إلى ضوضاء محلّاتِ الحدادة البعيدة[2] المختلطة بهديرِ الأحراشِ العظيمة

(١) ما يتعلّق بدين الغاليّين القدماء. (م: ز.ع).

(٢) كانت مياه بحيرة سباريو ذائعة الصّيت في سقايةِ الفولاذ.

السّحريّة، وبصيحات الطّيور البريّة المتقطّعة، وبنتاغم الأمواج الخفيض. وفي الشّمال، كانت ترتفعُ صخرةٌ صوّانيةٌ هائلة لا تزال تُنيرَها الشّمس، ترتفع بمهابةٍ فوق ضيعةِ أويلمو الصّغيرة، ثم تتقوّس تحت ركامٍ من الأبراج المهدّمة. وكأنها عملاقٌ قد تعبَ من أحماله.

حين تكون النّفسُ حزينةً، تروقُها المشاهدُ الباعثةُ على الكآبة. إنّها تزيدُها كآبةً بكلّ ما فيها من حزن. فإذا ما أُلقيَ بمنكودٍ في جبالٍ وحشيةٍ وعالية، قريباً من بحيرةٍ قاتمة، وغابةٍ سوداء، في الوقت الذي يتلاشى فيه النّهار، فلسوف يرى ذلك المشهد الوقور، وتلك الطّبيعة الرّصيفية من خلال نقابٍ جنائزيّ، إلى حدٍ ما، ولسوف يبدو له أنّ الشمسَ تغيبُ، بل تموت.

كان أوردينر يحلمُ صامتاً، وبلا حراك، حين هتف رفيقُه:

- هذا رائع، يا سيّدي الشّاب. جميلٌ أن يتأمّل المرء على هذا النحو، أمام بحيرةِ النّرويج التي تحتوي أكبرَ عددٍ من الأسماك المفلطحة![1]

- ومع ذلك، اسمح لي بأن أنتزعك من تأمُّلك العلمي، لكي أُلفتَ نظرك إلى أن النّهار يميل إلى الزّوال، وأنه ينبغي أن نسرع، إذا أردنا أن نصلَ إلى قريةِ أويلمو قبل الغسق.

كانت الملاحظةُ صحيحة، فاستأنف أوردينر المسير، وتبعه سبياغوردي وهو يواصلُ تأمّلاته التي قلّما كان أوردينر يصغي إليها، حول الظّواهرِ النّباتية والفيزيولوجية التي تقدّمها بحيرةُ سباربو لعلماء الطّبيعة.

---

(١) إنها أسماكٌ بحرية معروفة باسم «سمك موسى الصّخري»، وسبياغودري يقتبس سعة اطلاعه من فابريسيوس.

وكان يقول:

– أيّها السّيد أوردينر. إن تأخذْ برأي مرشدك المخلص، تتخلّ عن مشروعك المشؤوم – أجل يا سيّدي، إذا ما استقريتَ هنا، على صفافِ هذه البحيرة المثيرة للفضول حيث يمكننا أن نعكف معاً على جملةٍ من الأبحاث العلمية، مثلاً، على البحث في STELLA CANORA PALUSTRIS وهي نباتٌ فريد، يظنّ العديدُ من العلماء أنها خرافية، والتي يؤكد الأسقف أنغريم أنه قد رآها وسمعها على ضفاف ساربو. أضف إلى ذلك، الارتياح الذي سنشعر به إذا سكنّا أرضَ أوروبا التي تحتوي أكبر كميّةٍ من الجصّ، والتي يتوغّل فيها قتلةُ التيميس المأجورون قتلةُ درونتهايم بأقلِّ عددٍ ممكن – ألا يعجبّك هذا، يا سيّدي الشاب؟ هيّا تخلَّ عن رحلتك الحمقاء، لأنّ مشروعك – ولا أقول هذا لإهانتك – مليء بالمخاطر من غير فائدة: PERICULUM SINE PECUNIA، أي أنّه مشروعٌ منافٍ للرّشاد، وقد تصوّرته في لحظةٍ كان من الأفضل فيها لوفكرت بشيء آخر.

أما أوردينر، الذي لم يكن يعيرُ كلماتِ الرّجل المسكين أيَّ اهتمام؛ فلم يكن يتبادلُ الحديث إلّا بكلماتٍ ذات مقطعٍ واحد. لا معنى لها، ومن غير انتباه، والتي يعتبرُها كبارُ المتكلّمين ردوداً.

لقد وصلا إلى ضيعةِ أويلمو، على ذلك النّحو، وكانت تُلاحَظُ في ساحتها حركةٌ نادرةُ الحدوث في تلك اللحظة.

كان السّكان، الصّيادون منهم، وصّيادو الأسماك، والحدادون يخرجون من كافة الأكواخِ الخشبية، ويسارعون إلى التجمع حول ربوةٍ دائريةٍ

يشغلها بعض الرّجال الذين يدّق أحدهم النّفير، وهو يلوّح من فوقِ رأسه ببيرق صغير وأسود.

فقال سبياغودري:

– هذا بلا ريب أحدُ المشعوذين في جمعية عازفات الناي والصّيادلة[1]. وهو شقيّ يحوّل الذهبَ إلى رصاص، والجروحَ إلى قروح. فلنرَ، أيّ اختراع من جهنّم سوف يبيعُ أولئك الريفيين الفقراء؟ فليت هؤلاء الدّجالين كانوا يكتفون بالملوك، وليتهم كانوا يحاكون جميعاً الدانمركي بورش، والميلاني بورّي هؤلاء الخيميائيين الذين كانوا يستخفّون استخفافاً تامّاً بملكنا فريدريك الثالث[2]. ولكن لم يكن يلزمُهم آخرُ درهمٍ عند الفقير أقلّ مما يلزمُهم مليونُ الأمير.

كان سبياغودري على خطأ؛ فما إن اقتربا من الأكمة، حتى تعرَّفا مأموراً محاطاً بعددٍ من رماة السّهام، وذلك من خلال ردائه الأسود، وقلنسوته المستديرة والحادّة. وكان الرّجلُ الذي ينقرُ في البوق هو المنادي على المنشورات.

– فهمس الحارسُ الهاربُ، وقد اعتراهُ الاضطرابُ بصوتٍ خفيض:

– في الحقيقة، يا سيّد أوردينر، إنني حين دخلت إلى هذه البلدة الصّغيرة، ألم أكن أتوقعُ إلاّ قليلاً أن ألتقي مأموراً؛ فليحفظني القدّيس أوسبيس العظيم! فماذا سيقول؟

---

(١) باللاّتينية، في النّص.

(٢) كان فريدريك الثالث ضحية بورش أوبوريشيوس، وهو كيميائيّ دانمركي. كما كان خصوصاً ضحيةَ بوري المشعوذ الميلاني الذي يدّعي أنّه محظيّ رئيسِ الملائكة ميخائيل. وهذا الدّجال، بعد أن أدهشَ، بخوارقه المزعومة ستراسبورغ وأمستردام، وسّع نطاق طموحه، وتهوّر أكاذيبه، وبعدَ أن خدع الشعب، تجرّأ على خداع الملوك؛ فبدأ بالملكة كريستينا في هامبورغ، وانتهى بالملك فريدريك في كوبنهاغن.

ولم يطلْ تشكّكهُ، لأن صوتَ منادي الأوامر المعلنة الثّاقب قد ارتفع فجأة، وكان الحشدُ الصّغيرُ من سكان أويلمو يصغي إليه بخشوع:

- «باسم جلالته، وبأمرٍ من معالي الجنرال لوفان دو كنود، الحاكم. فإن المأمورَ الأعلى لدرونهايموس يُعلم سكانَ المدن، والضّيع، والضّيع الصّغيرة في المنطقة جميعاً بأن: ١ً- رأس هان الإيسلنديّ، المولود في كليبستادور، في إيسلندا، والقاتل، ومُشعل الحرائق، مطلوبٌ مقابل جائزةٍ قدرُها ألف ريالٍ ملكي.

انفجرت جلبةٌ بين الحضور؛ فتابع المنادي:

٢ً- وُضعت جائزةٌ قدرُها أربعةُ ريالات ملكية مقابل رأس بينينيوس سبياغودري مناجي الأرواح، والمدنّس، والحارسِ السّابق لسبلادجيست درونتهايم.

٣ً- سوف يُعمَّم هذا المنشورُ في المنطقة كلّها، على يدِ مأموري المدن، والبلداتِ، والبلداتِ الصّغيرة، والذين سوف يسهّلون تنفيذه».

أخذ المأمورُ المنشورَ من بين يدي المنادي، وأضافَ بصوتٍ حدادّي واحتفالي:

«إن حياة هذين الرّجلين معروضةٌ على من يريدُ أخذها. [1]

سوف يقتنع القارئ بسهولة بأن هذه القراءة لم يصغِ إليها صديقُنا المسكين وسيء الطّالع سبياغودري من غير شيء من الانفعال. فلا شكّ حتى من أن

(١) انظر إلى مشهد مماثل في رواية: عام ثلاثة وتسعين، الباب الرابع، القسم الثاني، «الموت يتكلّم».

الدّلالات غير العادية على الرّعب التي صدرت عنه في تلك اللحظة لم تثر انتباهَ الجماعة التي كانت تحيطُ به. لو لم يكن هذا الانتباه قد استغرقه استغراقاً تاماً الجزءُ الأول من المنشور المأموري.

هتف صّيادُ السّمكِ العجوز الذي كان قد أتى ساحباً شباكه الرّطبة:

- جائزة على رأس هان! ربّما يحسنون أيضاً إذا ما وضعوا جائزة على رأسِ بعلزبوت كذلك، وحقّ القدّيس أوسولف.

وقال صيادٌ يمكنُ تعرُّفه من خلال سترته المصنوعةِ من جلدِ الشّاموا:

- لكي يحافظوا على التّناسب بين هان وبعلزبوت، ربّما ينبغي أن يعرضوا ألف وخمسمائة ريال مقابل رأسِ الزّعيم المقرَّن لآخرِ عفريت.

- فأضافت عجوزٌ يهتزُ جبينُها الأصلع، وهي تجعلُ مغزلها يدور:

- المجد لوالدةِ الإله القدّيسة! فأنا أودُّ أن أرى رأس هان هذا لكي أتأكد من أن عينيه فحمتان مستعرتان، كما يُقال:

وتابعت عجوزٌ أخرى:

- أجل، بالتأكيد، لقد أحرق كاتدرائيةَ درونتهايم بالنّظر إليها فحسب. أمّا أنا، فأودُّ رؤيةَ الوحشِ بكامله، والذي له ذيلٌ حيّة، وقدمٌ متشعبةٌ. وجناحا خفّاشٍ كبيران.

فقاطعها الصّياد بلهجةٍ تنمُّ عن العجب:

– ومن روى لك هذه الحكايات؟ فلقد رأيتُ أنا، هان الإيسلندي هذا في مضائق ميدسيات. إنه رجلٌ مخلوق مثلنا. إلّا أن طولَه يصلُ إلى طولِ شجرةِ حورٍ عمرها أربعون عاماً.

فقال صوتٌ خرج من الحشد بتعبيرٍ فريد:

– أحقّاً!

كان ذلك الصّوت الذي جعل سبياغودري يرتعدُ، هو صوتُ رجلٍ قصير القامة، ويخفي وجهه تحت قبعّة عامل منجمٍ لبّاديّة. وكان جسدُه مغطىً بحصيرٍ من الأسل، وبوبرِ عجلٍ بحريّ.

وتابَعَ حدّادٌ يتوشّح بمطرقته الضخمة، وهو يضحكُ ضحكاً متلعثماً:

– الحقيقة أنّه، سواء عرضوا ثمناً لرأسه ألف أو عشرة آلاف ريالٍ ملكيّ، أو كان طولُه أربعة أو أربعين ذراعاً مضاعفاً، فلستُ أنا من سيتعهّدُ بالذّهابِ لرؤية ذلك.

وقال صيّاد السّمك:

– ولا أنا.

وردّدت الأصوات جميعاً:

– ولا أنا، ولا أنا.

وتابع الرّجلُ القصيرُ قائلاً:

– ومع هذا ، فذلك الرّجل الذي تسوّلُ له نفسُه أن يفعل ، سيجد هان الإيسلندي غداً في خرائب أربار ، قريباً من سمياسين ، وبعد غدٍ ، في مغارةِ فالديروغ .

– أيّها الرَّجل الباسلُ ، هل أنت متأكّد من ذلك؟

لقد طرح هذا السّؤال في آنٍ واحد أوردينر الذي كان حاضراً على ذلك المشهد ، وباهتمامٍ يسهل فهمه على أيّ إنسان آخر سوى سبياغودري ، كما طرحه رجلٌ قصيرُ القامة ، وممتلئ إلى حدٍّ كاف ، ويرتدي ملابسَ سوداء ، طلقُ المحيّا ، وكان قد خرج عند سماعه لأولى نقراتِ البوق التي أطلقها المنادي ، من النّزل الوحيد الذي تحتويه البلدةُ الصّغيرة .

بدا أن الرّجل القصيرَ القامة الذي يعتمرُ قبّعةً كبيرة يتأملهما كليهما ، للحظةٍ من الزّمن ، فردَّ بصوتٍ مكتوم:

– أجل .

وسأله أوردينر:

– وكيف تعرف ذلك لكي تؤكّده؟

– أعرف أين هان الإيسلندي ، كما أعرفُ أين هو بينينيوس سبياغودري ، فلا الأوَّلُ منهما ولا الثاني بعيد عن هذا المكان ، في هذه اللحظة .

استيقظت كلُّ ألوان الرَّعب في نفسِ البوّاب المسكين الذي لا يكادُ

يجرؤ على النّظر إلى الرّجل الغامض القصير القامة. وإذْ ظنّ أن شعره المستعار الفرنسي لا يُخفيه جيداً، فقد أخذ يسحبُ معطف أوردينر، وهو يقول بصوتٍ خفيض:

– أيّها المعلّم، يا سيّدي، بحقّ السّماء، وتكرّماً منك، ورأفةً بي، لنمضِ من هنا. لنخرج من هذه الضّاحية اللّعينة، ضاحيةِ الجحيم...

أما أوردينر، الذي فوجئ مثله، فقد أخذ يتفحّصُ باهتمام الرَّجلَ القصيرَ القامة الذي أدار ظهره للضوء، وبدا كأنّه معنيٌّ بإخفاءِ ملامحه.

وهتف صيّاد السَّمك:

– إن بينينيوس سبياغودري هذا، قد رأيتُه في السّبلادجيست، في درونتهايم – إنه طويلُ القامة – إنه ذلك الذي يعرضون مقابله جائزةً قدرها أربعة ريالات.

– أربعة ريالات! ليس أنا من سيطارد ذلك الرّجل. فمقابل جلد الثعلب الأزرق، يدفعون سعراً أغلى.

إن هذه المقارنةَ التي كان يمكن لها في أيّ وقتٍ متأخّرٍ أن تكدِّر البّوابَ العالم، قد طمأنته هذه المرّة، وكان يهمُّ بأن يوجّه مع ذلك رجاءً جديداً لأوردينر ليحثّه على مواصلةِ طريقهما، حين سبقه هذا الأخير بالخروج من التجمع الذي بدأت تتضّحُ غايتهُ، بعد أن علم ما يهمّه أن يعرفه.

ومع أنهما كانا ينويان قضاءَ اللّيل في ضيعة أويلمو، حين وصلا إليها،

فقد غادراها كلاهما ، و كأنما باتفاقٍ ضمنيّ بينهما ، من غير أن يتساءلا حتّى عن دوافع رحيلهما المتعجّل عنها .

أما دافعُ أوردينر فقد كان الأملَ بالتقاء اللّص في وقتٍ أبكر . وكان دافعُ سبياغودري هو الرَّغبة في الابتعاد عن رُماة السّهام بأسرع ما يمكن .

كان تفكيرُ أوردينر شديدَ الجدّية بحيث لم يكن ممكناً أن يضحك من الحوادثِ المزعجة التي حصلت لرفيقه ، بل كان أوَّلَ من قطع الصّمت بصوتٍ ودّيّ قائلاً:

- أيّها العجوز ، ماذا كانت إذن تلك الخرائب التي يمكننا أن نلتقي فيها هان الإيسلندي غداً؟ كما يؤكّد ذلك الرّجل القصير القامة ، والذي يبدو عارفاً بكلّ شيء؟

فقال سبياغودري الذي لم يكن يكذبُ في الحقيقة:

- أجهلُ ذلك... فأنا لم أسْمعه جيّداً ، يا سيّدي النبيل .

فتابع الشابُّ قائلاً:

- لابدَّ ، والحالة هذه ، أن نقبلَ بعدمِ التقائِه إلّا بعدَ غدٍ ، في تلك المغارةِ ، مغارةِ فالديروغ .

- مغارة فالديروغ! أيّها الرّب! إنها فعلاً مقرُّ هان الإيسلنديّ المفضّل .

فقال أوردينر:

- فلنسلكْ الطّريق إليها .

– فلننعطفْ إلى الشمال ، خلف صخرة أويلمو؛ فيلزمُنا أقل من نهارين لكي نصل إلى مغارة فالديروغ .

فتابع أوردينر مراعياً:

– هل تعرفُ ، أيّها العجوزُ ذلك الرّجل الغريب الذي يبدو أنّه يعرفك حقَّ المعرفة؟

أيقظ هذا السّؤال في نفسِ سبياغودري المخاوفَ التي كانت قد بدأت تتضاءل ، بقدر ما كانا يبتعدان عن بلدة أويلمو .

فأجاب بصوتٍ مرتجفٍ تقريباً:

– كلّا ، في الحقيقة ، يا سيّدي . سوى أن له صوتاً غريباً حقّاً .

فسعى أوردينر إلى طمأنته:

– لا تخشَ شيئاً ، أيّها العجوز ، واخدمْني جيّداً ، فأحمكَ بالقدر نفسه . فإذا ما رجعتُ منتصراً على هان ، لا أعدُك بالعفوِ عنك فحسب ، بل بالتخليَ أيضاً عن الألف ريال ملكي التي تقدُّمها سلطةُ القضاء .

كان بينينوس النّزيهُ يحبُّ الحياة حبّاً فائقاً ، ولكنه كان يحبُّ الذّهبَ حبّاً عجيباً؛ فكانت وعودُ أوردينر له مثل كلماتٍ سحرية ، وهي لم تطرد كلَّ مخاوفه فقط ، بل أيقظت في نفسه كذلك ، ذلكَ النّوعَ من المرح الصّاخب الذي يُثيرُ الضّحك ، والذي أخذ يتدفّقُ من خلالِ خطاباتٍ طويلة ، وحركاتٍ إيمائيةٍ غريبة ، وشواهد علمية .

وقال:

– يا سيّدي أوردينر، حين يتوجّب عليّ أن أحتمل في هذا الموضوع مجادلةً مع أوفر – بيلسوت والذي يُقال له بشكل آخر: الثّرثّار. كلّا، لن يمنعني من أن أؤكد أنك شابٌ رصينٌ ومبجّل. فأيُّ شيء أكثر تعبيراً عن الكرامة والمجد، في الحقيقة، «فأيُّ شيء أكثر تميُّزاً من القيثارة: البوقُ أم الجرس»(١) من أن يعْرض المرءُ حياتَه للخطر بنبلٍ لكي يخلّص بلَدَه من وحش، ومن لصّ، ومن شيطان يبدو أن كلَّ الشياطين واللّصوص قد تجمّعت في شخصه...؟ فلا يقولنّ لي أحدٌ بأن مصلحةً دنيئةً تقودك؟ إن السّيد النبيلَ أوردينر يتخلّى عن أجرةِ حربه إلى رفيقِ سفره، إلى العجوز الذي يُفترض أن يقوده إلى مسافةِ ميلٍ فقط من مغارة فالديروغ. أفليس صحيحاً، أيها السّيدُ الشّاب أنّك تسمحُ لي بانتظارِ نتيجةِ مشروعك الشّهير في ضيعةِ سورب التي تقعُ على بعدِ ميلٍ من ضفّة فالديروغ في الغابة؟ ومتى يُعرَفُ انتصارُك المبين، يا سيّدي، يُقام في التّرويج بكاملها فرحٌ شبيهٌ بفرح فيرموند المنفيّ، حين لمح من قمّةِ هذه الصّخرة عينها، صخرة أويلمو التي نحن الآن بحذائها، لمح النّار العظيمة التي كان أخوه هولفدان قد أشعلها إشارةً على التحرُّر، فوق برج مونكولم...

عندما سمع أوردينر هذا الاسم، قاطع سبياغودري بحماسة:

– ماذا، من أعلى هذه الصّخرة يمكنُنا أن نلمحَ برجَ مونكولم؟

– أجل، يا سيّدي، على بعدِ خمسة وعشرين ميلاً، إلى الجنوب، بين

(١) باللاتينية في النّص.

الجبال التي كان آباؤنا يسمّونها مدرّجاتِ فريغج. وفي مثل هذه السّاعة، لابدَّ أن نرى منارةَ البرج بصورةٍ تامّة.

فهتف أوردينر الذي تحمّس مندفعاً نحو الفكرة التي تجعله يرى من جديد، ومرّة أخرى أيضاً المكان الذي تكمن فيه سعادتُه كلُّها.

– حقاً، أيها العجوز! ثمة، دون شكّ، شِعبٌ يؤدي إلى قمةِ تلك الصّخرة؟

– أجل، بلا شك، إنه شعبٌ ينطلقَ من الحرش الذي سندخلُ إليه، ويرتفع بانعطافٍ خفيف إلى حدٍّ كاف، وصولاً إلى رأسِ الصّخرة الأجرد والذي يتواصلُ منه بمدرّجاتٍ نحتها في الصّخر رفاقُ فيرموند المبعد. فيُفضي أخيراً إلى قصره – وهو تلك الخرائب التي يمكنُك رؤيتها في ضوء القمر.

– لابدَّ إذن، أيّها العجوز، أن تدلّني على الشِّعب. إنّه في هذه الخرائب التي سنقطعُها ليلاً، في تلك الخرائب التي نرى منها برجُ مونكولم.

فقال بينينيوس:

– هل ترجو ذلك، يا سيّدي؟ إن تعبَ النّهار...

– أيّها العجوز، سوف أعينك في مسيرك؛ فلم تكن خطوتي أشدّ ثباتاً مما هي عليه الآن قط.

– يا سيّدي، إن الأشواكَ التي تسدُّ هذا الشِّعب المهجور، منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً، والحجارة المتدرّجة، واللّيل...

– سأسيرُ في المقدمة.

– لعلَّ دابّةً مؤذيةً، أو حيواناً نجساً، أو وحشاً مقززّاً...

– أنا لم أقْم بهذه الرّحلة لأتحاشى الوحوش.

كانت فكرةُ التوقّف قريباً من أويلمو تزعجُ سبياغودري كثيراً. أمّا فكرةُ رؤيةِ منارةِ مونكولم وربّما ضوءُ نافذةِ إيتيل، فكانت تبهجُ أوردينر وتجتذبه.

قال سبياغودري:

– يا سيّدي الشّاب، تخلَّ عن هذا المشروع، وصدّقني؛ فلديّ شعورٌ مسبقٌ بأنه سيحمل لنا الشقاء.

كان ذلك الرّجاء لا يساوي شيئاً أمام ما كان أوردينر يرغب فيه. فقال بنفاذِ صبر:

– هيّا! وتذكّر أنك قد تعهّدت بخدمتي بشكلٍ جيد. وأودّ أن تدلّني على هذا الشِّعب. فأين هو؟

فقال البّوابُ الذي أُجبر على الطّاعة:

– سوف نصلُ إليه توّاً.

وفي الواقع، ظهر الشِّعب لهما بعد قليل؛ فولجا إليه، غير أن سبياغودري لاحظَ بدهشة مختلطة بالرّعب، بأن الأعشابَ الطّويلةَ قد كانت مائلةً ومتكسّرة، وأن الشِّعبَّ القديمَ، شعبَ فيرموند المبعد كان يبدو أنّه قد وطئته الأقدامُ حديثاً.

الفصل العشرون

ليونارد

... الملك يطلُبك

هنريك

وكيف ذلك؟

لوب دوفيغا، القوة البائسة.

يبدو الجنرال لوفان دوكنود غارقاً في التّفكير بعمق، أمام بعض الأوراق المبعثرة على مكتبه، والتي يميّز المرءُ بينها رسائلَ قد جرى فتحُها حديثاً. ويبدو أن أميناً لسّره ينتظرُ أوامره، واقفاً بقربه.

فتارةً يضربُ الجنرال بمهمازية البساطَ الفخمَ الذي ينبسطُ تحت قدميه، وتارةً يلعبُ شارداً بوسام الفيل المعلّق في عنقه بقلادة المرتبة. ومن وقتٍ لآخر، يفتحُ فمه، كما ليتكلّم، ثم يتوقف، ويفرك جبينه، ويلقي نظرة من جديد على الرسائل الرّسمية التي فُضّت، وهي تغطّي المنضدة.

وهتف أخيراً:

– يا للشّيطان، وكيف ذلك...!

أعقبت هذا التعجّبُ القاطعُ لحظةٌ من الصّمت. فتابع قائلاً:

– ومن كان يمكنه أن يتّصورَ يوماً أن هؤلاء العفاريت، عمالَ المناجم، يمكن أن يصلوا إلى ذلك الحدّ...؟ لابدّ أن تكون هناك تحريضاتٌ سرّية قد دفعتهم بالضّرورة إلى ذلك التّمرد – ولكن، هل تعلم، يا فافيرني، أن الأمرَ جدّيّ؟ هل تعلم أنّ خمسمائة إلى ستمائة نذلٍ من جزيرة فاروير يقودُهم لصٌّ عجوز، اسمه جوناس، قد فرّوا حتى الآن من المناجم؟ وأن شابّاً متعصّباً اسمه نوربيت قد قاد أيضاً عدداً من السّاخطين من غولد برانشال؟ وأن ذوي الطبّاع السّيئة قي سوند – موير، وهو بفالو، وكونسبيرغ، والذين لم يكونوا ينتظرون إلّا إشارة، ربّما يكونون الآن قد تمرّدوا؟ هل تعلم بأن الجبليين يتدخلون في ذلك، وأن أحد أكثر الثّعالب جسارةً في كول، وهو العجوز كينيبول يقودُهم؟ هل تعلم أخيراً، أنه، بناءً على الشّائعة العامّة المنتشرة في شمالي درونتهايموس، إذا كان لابّد لنا أن نصدّق المأمورينَ الذين يكتبون لي، بأن ذلك الأثيمَ الذي وضعنا جائزةً لرأسه، وهو هان المخيف، يديرُ التمرُّد باعتباره قائداً عاماً؟ ماذا تقولُ بهذا الخصوص، يا عزيزي فافيرني؟ ما قولك!

فقال فافيرني:

– إن معاليك تعلمُ أيّةَ تدابير...

– إن في هذه القضية المؤسفة أيضاً طرفاً لا يمكنني تفسيرُه وهو أن يكون سجينُنا شوماكير هو صانعَ هذا التّمرد، كما يُزعَم. وهذا أمرٌ يبدو أنه لا يُدهش أحداً، وهو ما يدهشُني أكثر من غيره أخيراً. يبدو لي من الصّعب أن رجلاً

تروق صحبتُه لعزيزي المخلص أوردينر أن يكون خائناً. ومع ذلك، فعمالُ المناجم، كما يجري التأكيد، ينتفضون باسمه. إن اسمه هو شعارُهم، ونداءُ تجمُّعهم. وحتى أنهم يعطونَه الألقاب التي حرمه الملك منها... -كلُّ هذا يبدو مؤكداً...- و لكن كيف يتّفقُ أن تكون الكونتّيسة قد عرفت من قبل كلّ هذه التفاصيل منذ ستة أيام، في اللّحظةِ التي كانت علاماتُ التمرُّدِ الواقعية قد بدأت بالظّهور منذ وقت قليل في المناجم؟ - إن هذا غريب - ولكن ماذا يهمّ، فينبغي تدبُّرُ كل شيء. أعطني ختمي، يا فافيرني.

كتب الجنرال ثلاث رسائل، وختمها، وسلّمها إلى أمين السّر:

- سلّم هذه الرّسائلَ إلى البارون فوتاون، العقيد في سلاح القربينات[1]، والمتمركز حاليّاً في حامية مونكولم، وذلك لكي يتقدّم فوجُهُ بسرعة باتّجاه المتمردين. وبالنسبة لمقدَّم مونكولم، هذا أمرٌ بحراسة المستشار الأكبر السّابق حراسةً مشدَّدة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. فينبغي أن أَرى بنفسي هذا الشّخصَ المدعو شوماكير، وأن أستجوبَه - وأخيراً، ابعثْ هذه الرّسالة إلى سكونجن، إلى الرائد فولم الذي يتولّى القيادةَ هناك، لكي يوجّه قسماً من حاميته. باتجاه مركز التمرُّد - هيا، يا فافيرني، ولتنفّذْ هذا الأمر سريعاً.

خرج أمين السّر، تاركاً الحاكم غارقاً في أفكاره.

فأخذ يفكّر:

- إن كلَّ هذه الأمور مثيرةٌ للقلق حقاً؛ فهناك عمالُ المناجم المتمرّدون أولئك وهنا تلك المستشارةُ التي تُحيكَ الدّسائسَ. وهذا المجنونُ أوردينر...

(١) هي بنادق قديمة. (م: ز.ع).

الذي لا نعرفُ أين هو! - فلعلّهُ مسافرٌ في وسط أولئك اللّصوص، تاركاً هنا، تحت حمايتي، شوماكير هذا الذي يتآمرُ ضدَّ الدَّولة. وابنتَه التي تلطّفتُ، من أجل سلامتها، بإبعادِ السّريّةِ التي يخدم فيها فريدريك دالفيلد هذا، والذي يتّهمه أوردينر... - ولكن، يبدو لي أن هذه الجماعةَ يمكنها أن توقف الأرتالَ الأولى للمتمرّدين. فهي في موقع جيّد يمكّنُها من أن تفعل ذلك. إن فالستروم التي تتمركزُ فيها هذه الجماعة تقعُ قريباً من بحيرة سميازين، ومن خرائبِ أربار. وهذه إحدى النّقاط التي سيصلُ إليها التمرُّد بالضّرورة...

- عند هذا الموضعِ من أحلام يقظته، قاطعت الجنرال ضجةٌ على الباب الذي كان ينفتح:

- حسناً، ماذا تريد يا غوستاف؟

- يا سيدي الجنرال، إنه مراسلٌ يطلبُ معاليك.

- هيا، ماذا هناك أيضاً؟ أيّةُ مصيبة!... أدخلْ هذا المراسل.

فسلّم المراسلُ الذي أُدخل، الحاكمَ مغلّفاً، وقال:

- هذه، يا صاحب المعالي، من قبل صاحبِ السّعادة نائبِ الملك.

ففتح الجنرالُ الرّسالة على عجل، وهتف بحركةٍ تدلُّ على المفاجأة:

- أظنُّ أنّهم مجانين جميعاً! هاهو نائبُ الملك الذي يدعوني للذّهاب إليه، في برغن.

وهذا، كما يقول، من أجل مسألةٍ ملّحة، وبناءً على أمرٍ من

الملك... - تلك هي مسألةٌ عاجلة تختارُ حقاً اللّحظة المناسبة - «إن المستشار الكبير الذي يقوم حالياً بزيارة درونتهايموس، سيسدُّ غيابك... - إنه بديلٌ قلّما أثقُ به-«ولسوف يساعُده المطران.... - «إن فريدريك يختارُ حكّاماً مناسبين لبلدٍ متّمرد؛ رجلان من رجال القضاء، ومستشار، ومطران! - هيّا، مع ذلك. فإن الدّعوةَ عاجلةٌ، إنّها أمرٌ من الملك... وينبغي تلبيتها، ولكن، قبل ذهابي. أريدُ أن أرى شوماكير، وأن أسأله - أشعر أنهم يريدون إغراقي في ركامٍ من الدّسائس، غير أن لدّي بوصلة تقودني، ولن تخطئ أبداً...- إنّها ضميري.

الفصل الحادي والعشرون

يبدو أن كلَّ شيء يصرخُ بصوتٍ يتّهمه

بجريمته

قايين، مأساة.

من أين يأتي هذا الرُّعبُ الذي يعكّر صفوَ أيّامِ

ازدهارِ آثم...؟ لماذا هناك صوتٌ في الدّمِ

و كلمةٌ في الحجر...؟

شاتوبريان، عبقرية المسيحيّة.(1)

– أجل، يا سيّدي الكونت، في هذا اليوم بالذّات، وفي خرائبِ أربار، إنّما يمكنُنا أن نلتقيه. إن جملةً من الظّروف تجعلُني مؤمناً بصّحة هذا الإخبار الثمين الذي التقطتُه بالأمس مصادفةً، كما رويتُ لك، في قرية أَويلمو.

(1) إن هذا الاقتباسَ عن شاتوبران الذي أُدخله هيغو في «الطّبعة الثانية» سوف يحذفُه في عام ١٨٣٣، ولن يحتفظَ إلّا بالعبارة المقتبسة من مأساة قايين التي نرى فيها بسهولةٍ إشارةً إلى مشروع كان يعدُّه أُوجين هيغو. إلّا إذا كان الأمرُ يتعلّق بـ «المشروع المأسوي الكبير» الذي تخيّله هيغو في تشرين الأول عام ١٨٢١، فإن الاستشهاد غير موجود في كل الحالات، في مسرحية قايين للوّرد بايرون.

– هل نحن بعيدون عن خرائب أربار؟

– إنها على مقربة من سميازين. وقد أكّد لي المرشدُ بأنّه يمكنُنا أن نصل إليها، قبل أن ينتصفَ النّهار.

هكذا كان يتحادثُ شخصان يمتطيان جواديهما، ويتلفّعان بمعطف بنّي اللّون، ويسلكان منذ الصّباح الباكر أحَدَ تلك الطّرقِ العديدةِ المتعرّجة والضّيقة والتي تجتازُ في كلٍّ اتجاه الغابةَ الواقعةَ بين بحيرات سيميازين وسباربو. كان هناك مرشدٌ من مرشدي الجبال. مزوّد ببوقه، ومسلّحٌ ببلطته يتقدّمهما على جوادٍ رماديّ قصير القامة. وكان يسيرُ خلفهما أربعةُ خيالة مدججّون بالسّلاح. وكانَ هذان الشّخصان يديران رأسيهما نحوهم، من وقتٍ لآخر.

كان أحدُ هذين المتحادثين يُبقي مطيّته إلى الوراء بعض الشيء احتراماً للآخر، وكان يقول:

– إذا كان ذلك اللّصُ الإيسلنديّ موجوداً فعلاً في خرائبِ أربار؛ فهذه نقطةٌ كبيرةٌ نكسبُها عليه، لأن الأمرَ الصّعبَ هو العثور على ذلكَ الكائن الذي يتعذّر إمساكُه.

– أتظنُّ ذلك، يا موسديمون؟ وإذا حَدَث أن رفضَ عروضَنا...؟

– غير ممكن، يا صاحبَ السّمو! فهناك الذّهب، وعدم العقاب، وأيُّ لصٍّ يقاومُ ذلك؟

– ولكنك تعلمُ أن هذا اللّصّ ليس أثيماً عاديّاً؛ فلا تحكمْ عليه إذن من خلال معيارك؛ فإذا رفَضَ، كيف يمكنك أن تفي بوعدك الذي قطعته ليلةَ أمس الأوّل لقادةِ التمرُّد؟

– حسناً، أيّها الكونت النبيل. في هذه الحالة التي أنظر إليها باعتبارها مستحيلة، وإذا ما حالفنا الحظُّ بالعثور على ذلك الرّجل. هل نسيت، يا صاحب السّموّ أن هناك «هان إيسلنديّ» زائفاً ينتظرني بعد يومين، في السّاعة المحدّدة، في مكانِ اللّقاءِ المعيّنْ للقادة الثّلاثة، في ليتوال بلو، وهو، ردْ على ذلَك، مكَانٌ قريبٌ إلَى حدٍّ كافٍ من خَرائبِ أربار...؟

فقال الكونت النبيل:

– إنّك على حقّ، وعلى حقّ دائماً، يا عزيزي موسديمون. ثم عاد كلاهما إلى الغرقِ في الدائرة الخاصّة، دائرة تأمّلاتهما.

أما موسديمون الذي كان من مصلحته أن يُبقي سيّده في مزاجٍ حسن؛ فقد طرح سؤالاً على المرشد لكي يصرفَ سيّدَه عن تفكيره:

– أيّها الرّجلُ المقدامُ، ما هو هذا النّوع من الصّليب الحجريّ المتداعي الذي يرتفعُ في الأعلى، وراء هذه السّنديانات الفتيّة؟

أما المرشدُ، وهو رجلٌ ذو نظرةٍ جامدة، وسحنةٍ غبيّة، فقد أدارَ رأسه، وهزّه عدداً من المرّات، ثم قال:

– أوه! أيها السّيد المحذوم، إنّها أقدمُ مشنقةٍ في النّرويج، وقد أمر الملكُ القدّيسُ أولاووس بإقامتها من أجل قاضٍ كان قد تعاهد مع ذلك اللّص.

لاحظ موسديمون على وجه معلّمه انطباعاً معاكساً تماماً لما كان يأمُله من كلماتِ المرشدِ البسيطة.

وتابع هذا الأخيرُ:

– كانت تلك قصةً فريدةً حقاً، وقدروتها لي الأمُّ الطيبةُ أوزي؛ فاللّصَّ قد كُلِّفَ بشنقِ القاضي...

لم يكن المرشدُ المسكينُ يلاحظ، لسذاجته، بأن المغامرةَ التي يريدُ أن يُفرح بها مسافريه قد كانت إهانةً لهما تقريباً.

فأوقفه موسديمون، وقال له:

– كفى، كفى، إننا نعرفُ هذه القصّة.

وتمتم الكونت:

– الوقح! إنه يعرفُ هذه القصّة! آه! سوف تدفعُ لي، يا موسديمون ثمناً غالياً لقاء سفاهاتك.

وقال موسديمون بلهجةٍ مفرطةٍ في المجاملة:

– ألا تتكلّمُ، يا صاحبَ السّموّ؟

– كنت أفكّر بالوسائل التي تجعلك تحصل أخيراً على وسام دانبروغ. إن زواج ابنتي أولريك والبارون أوردينر سيكون مناسبةً جيدة.

فأخذ موسديمون يغالي في الاحتجاجات والشّكر.

فردّد صاحبُ السّمو:

– بالمناسبة، لنتكلّم عن قضايانا. هل تظنُّ أن أمرَ الاستدعاء المؤقّت الذي نوجّهُهُ إليه قد وصل إلى ساكن ماكلينبور؟

ربما يتذكّر القارئُ أن الكونت قد اعتاد أن يطلق هذه التسمية على الجنرال لوفان دوكنود. فقد كان الجنرالُ، في الحقيقة، مولوداً في ماكلينبور.

وقال موسديمون في نفسه، وقد أحسّ بالصّدمة:

– لنتكلمْ عن قضايانا. يبدو أن قضاياي ليست «قضايانا».

وأجابَ بصوتٍ عالٍ:

– يا سيّدي الكونت، أظنُّ أن مراسلَ نائبِ الملك لابدَّ أن يكون في درونتهايم، في هذه اللحظةِ. وعلى هذا الأساس، فإن الجنرال لوفان ليس بعيداً عن الرّحيل.

فاتّخذَ الكونت صوتاً ودّياً:

– إن هذا الاستدعاء، يا عزيزي، هو أحدُ أعمالك الرّائعة. إنّه واحدةٌ من دسائسك التي تمَّ إعدادُها على أفضلِ وجه، والتي نفّذت بأكبر مهارةٍ ممكنة.

فأجاب موسديمون الذي كان يعنى، كما قلت سابقاً، بأن يُدخل الكونت في كلّ مؤامراته:

– إن الشّرف في ذلك يرجعُ إلى سموِّك بقدرِ ما يرجع لي.

كان السّيد يعرفُ تلك الأفكار الخفيّة لدى كاتمِ أسراره، غير أنّه كان يُريد أن يظهرُ جاهلاً لها؛ فأخذ يبتسم:

– يا عزيزي، أمين السّر الخاص، إنّك متواضعٌ على الدّوام. غير أنه لن يجعلَني شيٌ أُنكِرُ خدماتِك السّامية! إن حضورَ إلفيج، وغيابَ ساكنِ ماكلينبور

يؤكّدان انتصاري في درونتهايم. ها أنذا زعيمُ المنطقة. فإذا ما قبل هان الإيسلندي قيادةَ المتمردين التي أعرضُها عليه بنفسي، فإن المجدَ سيعودُ لي، في نظرِ الملك، بأنني هدأت ذلك التمرّدَ المقلق، وقبضت على ذلك اللّصّ المخيف.

كانا يتّحدّثان بصوتٍ خفيضٍ على ذلك النّحو، حين استدارَ المرشدُ وقال:

- يا سيّديَّ المخدومين، ها أتنما تريان على شمالكما الأكمةَ التي قطع عليها بيورد العادلُ رأسَ «فيلّون ذي اللّسانِ المزدوج»، أمام نَظَرِ جيشه. وهذا الخائنُ هو الذي كان قد أقصى المدافعين الحَقيقيّين عن الملك، ونادى العَدوّ إلى موقعِ الجيش، لكي يبدو أنّه الوحيدُ الذي حمى حياةَ بيورد...

لم تكن كلُّ تلك الذكريات عن النّرويج القديمة تبدو منسجمةً مع ذوقِ موسديمون، لأنّه قد قاطَعَ المرشدَ فجأةً، وقال:

- هيّا، هيّا، أيها الرّجلُ الطيّبُ، اسكتْ، وواصلْ طريقَك، من غير أن تستدير، فماذا يهمّنا أن تذكرك الأكواخُ المهدّمةُ، أو الأشجارُ الميتةُ بمغامراتٍ حمقاء! إنك تزعجُ سيّدي بحكاياتِ العجائز التي ترويها.

وكان في ذلك يقولُ الحقيقة.

الفصل الثّاني والعشرون

هاهي السّاعةُ التي يزأرُ فيها الأسدُ

والتي يُطلق فيها الذئبُ عواءَه باتجاه القمر

فيما يشخَر الحارث

منهكاً من عملِهِ الشّاق .

أمّا الآن ، فالجمراتُ المستنفدةُ في الموقد

والبومة التي تطلِقُ صرختَها المشؤومة

تُرجِعُ للأشقياء الرّاقدين في الآلام

ذكرى بساطِ الرّحمة المأتميّ .

هذا هو زمنُ اللّيل

الذي تتركُ فيه القبور التي انفتحت جميعها جزئيّاً

تتركُ شبحَ كلُّ قبرٍ يهربُ .

ويمضي ليهيمَ في شعابِ المقابر .

شكسبير، الحلم الصّيفي

ما إن وصلوا إلى حرشِ الصّنوبر على الطّريق ، حتى استشاروا

النّبوءات ، فكانت النبوءات مشؤومة .

«لا نمضيّن أبعدَ من ذلك؛ فلدينا فألٌ سيء؛ فقد حمل نسرٌ

بين مخالبه بومةً كانت تطلقُ صرخاتٍ عظيمة .

«إن الغربان تنعقُ نعيقاً نائحاً

فلا نمضينّ أبعدَ من ذلك . »

أبناء لارا السّبعة»[1]

لنعدْ أدراجنا؛ فقد تركنا أوردينر وسبياغوردي وهما يتسلّقان بعناء غير قليل ، وعند طلوعِ الفجر ، أسفلَ صخرةِ أويلمو الملتوية . إن هذه الصّخرةَ الجرداءَ عند بداية التوائها ، كان الفلّاحون النرويجيّون يسمّونها آنذاك: عنق النّسر:(COU DE VAUTOUR) ، وهي تسميةٌ تمثّل إلى حدّ كافٍ في الحقيقة ، الشكلَ الذي تظهرُ عليه تلك الكتلةُ الهائلة من الصّوان .

بقدر ما كان مسافرانا يصعدان باتجاه الجزء الأجرد من الصّخرة ، بقدر

---

(١) تقديم مقتبس ، حذف عام ١٨٣٣ .

ما كانت الغابةُ تتحوّل إلى أشجارِ الخلنج؛ فقد أخذت الطّحالبُ تحلُّ محلّ الأعشاب، ويحلُّ النّسرينُ البرّي، والوزّالُ، والبهشيّةُ، محلّ السّنديان، والسّندر. إنه افتقارٌ نباتي يدلُّ دوماً على اقترابِ القمّة، على الجبال العالية، وذلك لأنه ينمّ عن الترقُّقِ التدّريجي لطبقةِ التراب التي يتغطّى بها مايمكن تسميته بـ «عظام الجبل» أما سبياغودري الذي كان ذهنُه المتحرّكُ منجرفاً على الدّوام في دوّامةٍ من الأفكار المختلفة، فقد كان يقول:

– يا سيّدي أوردينر. إن هذا المنعطفَ متعبٌ جداً. ولكي يمكن للمرء أن يتبعك فيه لابدَّ من إخلاصٍ كلّي... – ولكن يبدو لي بأنني أرى هناك، على اليمين، شجرةَ لبلابٍ رائعة. وأودّ حقاً أن أتمكّن من معاينتها. فلماذا ليس هناك ضوءٌ كافٍ؟

هل تعلمُ أنّه لأمرٌ سفيهٌ حقاً أن نثمّن عالماً مثلي بأربعة ريالاتٍ رديئة؟ فالحقيقةُ أن فيدر الشّهير قد كان عبداً، وأن إيسوب، حسب روايةِ بلانود العالم، قد بيعَ في معرضٍ مثلَ حيوان، أو شيءٍ جامد. فمن لا يكون فخوراً بأن لَه علاقةً ما بالعظيم إيسوب...؟

فأضاف أوردينر وهو يبتسم:

– وبهان الشّهير؟

فأجاب البّواب:

– أستحلفك بالقديس أوسبيس ألا تتلفّظ بهذا الاسم على هذا النّحو؛

فإنّي مستغنٍ فعلاً، يا سيّدي، عن هذه المطابقة الأخيرة. و أقسم لك على ذلك. ولكن، أليس أمراً غريباً أن تكون الجائزةُ على رأسه من نصيب بينينيوس سبياغودري، رفيقِه في سوء الحظّ؟ - يا سيّدي أوردينر- يا سيّدي أوردينر، إنك أكثرُ شهامةً من جازون الذي لم يعطِ الجزّة الذهبيّة إلى ملّاح أرغو، ومن المؤكد أن مشروعك الذي لا أتكهّن بغرضِهَ على نحوٍ إيجابي، ليس محفوفاً بالمخاطر أقلّ من مشروع جازون.

فقال أوردينر:

- ولكن، بما أنك تعرف هان الإيسلندي، أعطني بعضَ التّفاصيل عنه؛ فقد أخبرتني سابقاً بأنه ليس عملاقاً كما يظنُّ الناسُ عموماً إلى حدٍّ كبير.

فقاطعه سبياغودري قائلاً:

- توقّف، يا سيّدي! ألا تسمعُ البتّة ضجةً وراءنا؟

فقال الشابُّ بهدوء:

- بلى، لا تجزعْ! إنه حيوانٌ وحشي يخيفُه اقترابُنا منه، وهو ينسحبُ محدِثاً طقطقةً في دعكِهِ للنبّاتات اليابسة.

- أنت على صواب، يا قيصري الشّاب؛ فهذه الأحراشُ لم تشهدْ كائناتٍ بشريةً منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً! وإذا ما حكمنا على الأمر، من خلالِ ثقل الخطوات، فلا بدَّ أن يكون الحيوانُ ضخماً. إنه علند أورنة؛ فهذا الجزءُ من النّرويج موطنٌ لها. وإننا نجدُ فيه أيضاً هررة بريّة. فقد رأيت واحداً منها، من جملةِ ما رأيت.

كانوا قد أحضروه من كوبنهاغن. وكان هائلاً في ضخامته. وينبغي أن أقدِّمَ لك وصفاً لذلك الحيوان المفترس...

فقال أوردينر:

- يا مرشدي العزيز. أفضّل أن تُقدّم لي وصفاً لوحشٍ آخر ليس أقلّ شراسةً، لذلك الهان الرهيب...

- اخفضْ صوتك، يا سيّدي. بأيُ قدرٍ من الهدوء يتلفّظ السّيدُ الشابّ باسمٍ كهذا! إنّك لا تعلمُ...

- أيها الربُّ، يا سيّدي، اسمع!

اقترب سبياغودري، وهو يقولُ هذه الكلمات، مَن أوردينر الذي أخذ يسمع فعلاً، وبصورةٍ واضحة، صرخةً أشبهُ ما تكون بنوعٍ من الزّئير الذي كان قد أرعب البوّاب رعباً شديداً في تلك الأمسية العاصفة التي غادرا فيها درونتهايم، ولعلّ القارئ يتذكر ذلك، وهمس هذا الأخيرُ، وهو يلهثُ من الخوف:

- هل سمعت...؟

فقال أوردينر:

- بلا شك. ولست أدري لماذا ترتجفُ! إنه عواءُ حيواناتٍ متوحّشة. ولربّما يكون بكلٍّ بساطةٍ صرخة أحد تلك الهررة البريّة التي كنت تتحدَّث عنها منذ قليل. فهل كنت تحسبُ أن تجتاز في مثل هذه السّاعة مكاناً كهذا من غير

أن ينبّهك إطلاقاً وجودُ حيواناتِ هذا المكان الذين تزعجُهم؟ أؤكّد لك أيها العجوز، بأنهم مرتعبون أكثر منك أيضاً.

أما سبياغودري الذي رأى هدوءَ رفيقه الشابّ، فقد اطمأنّ بعضَ الشيء.

- هيّا! من الممكن حقاً، يا سيّدي، أن تكون أيضاً على حق. بيد أن صرخةَ الحيوان تلك تشبه صوتاً بشريّاً إلى حدٍّ مخيف... ولقد كان هناك ما ألهمك بصورةٍ تدعو إلى الاستياء، يا سيّدي، بأن ترغبَ في الصّعود إلى قصر فيرموند ذاك. واسمح لي بأن أقول لك ذلك. وأخشى أن يقع لنا مكروهٌ في كو - دو - فوتوز.

فأجاب أوردينر:

- لا تخشَ شيئاً طالما أنت معي.

- أوه! لا شيء يقلقك. ولكن، يا سيّدي. مامن أحدٍ غير الطّوباوي القدّيس بولص يمكنه أن يمسك الثّعابين من غير أن يجرح. ألم تلاحظْ حتى، عندما دخلنا إلى هذا الشّعبِ اللّعين بأنه كان يبدو مطروقاً منذ قليل، وأنّ الأعشابَ التي وُطئت فيه لم يتوفّر لها الوقتُ حتى لكي تستقيم من جديد، منذ أن تمَّ المرورُ عليها.

- أعترف بأن كلَّ هذا يدهشُني قليلاً. وأن هدوء نفسي لا يرتبط تقريباً بانحناءةِ قشّةٍ من العشب. ها نحن سوف نغادرُ شجيراتِ الخلنج. ولن نسمع

خطئً وأصوات حيوانات، ولن أقول لك إذن، يا مرشدي الباسل، أن تستجمع شجاعتك، بل أن تلملم قواك، لأن الشِّعب المنحوت في الصّخر سوف يكون أكثرَ صعوبةً من هذا الشِّعب.

– ليس ذلك يا سيّدي، لأنّه أكثر وعورةً. ولكن الرَّحالةَ العالم جاكسون يروي أنه غالباً ما تعترضُه شظايا صخريّةٌ، أو حجارةٌ ثقيلة لا يمكن رفعُها. وليس من اليسير اجتيازها. وثمة، من جملة كتلٍ أخرى، وفيما وراء باب مالايير السّري بقليل، والتي نقتربُ منها، كتلةٌ هائلة مثلّثة الشّكل من الصوّان، طالما رغبت رغبةً شديدة في زيارتها.

ويؤكد شويننغ بأنه قد وجد فيها الحروف السّكندنافية البدائيّة الثلاثة...

كان المسافران قد تسلّقا الصّخرة الجرداء منذ بعض الوقت، فوصلا إلى برجٍ صغيرٍ متداعٍ، وكان لابدَّ من المرور من خلاله. فجعل سبياغودري أوردينر يلاحظُه، وهو يقول:

– هذا هو بابُ مالايير السّريّ، يا سيّدي؛ فهذه الطّريقُ المحفورةُ في قلبِ الصّخر تعرُضُ بضعةَ مبانٍ أخرى تثيرُ الفضول، وتبين كيف كانت التحّصيناتُ القديمةُ لقصيراتنا الريفية النرويجية. إن هذا البابَ السّري الذي كان على الدّوام تحت حراسةِ أربعةِ رجالٍ مسلّحين، كان أوَّلَ حصنٍ متقدّم لقلعة فيرمرند. وبصددِ كلمة باب، أو باب سرّي: (POTERME OU PORTE)، فإن الراهبَ أورنسيوس يُبدي ملاحظةً فريدةً من نوعها، فكلمة Janua التي تأتي من: «JANUS» الذي كان لمعبده أبوابٌ عظيمة الشهرة، ألم تولّد

كلمة انكشاريّ Janissaire الذي هو حارسُ باب السّلطان؟ وقد يكون غريباً إلى حدٍّ كافٍ اسمُ الأمير الأكثر رقّةً في التاريخ قد انتقلَ إلى الجنود الأكثر شراسةً في الأرض.

وفي وسط كلّ هذا الحشوِ الكلاميّ العلمي، كلام البواب، كانا يتقدّمان بعناء ليس بالقليل على حجارةٍ متدحرجة وحصى قاطعة، مختلطة بالعشب الأرضيّ القصير والزّلق، والذي ينمو أحياناً على الصخور. كان أوردينر ينسى التعبَ وهو يحلمُ بسعادته في رؤيةِ مونكولم تلك للمرةِ الثانية، مع أنها جدٌّ بعيدة، وهتف سبياغودري فجأة:

– أه! إني ألحظها! إن هذا المشهد وحده يعوّضني عن تعبي كلّه. إني أراها، يا سيّدي، إني أراها...!

فقال أوردينر، الذي كان يفكّر في تلك اللحظة بفتاته إيتيل:

– هيه! يا سيّدي. إنه الهرمُ المثلّث الشّكل الذي يتحدَّث عنه شونينغ! ولسوف أكون مع الأستاذ شونينغ والأسقف إيسليف، العالم الثالث الذي سيحظى بمعاينته إلّا أنه سيكونُ من المؤسف أن يتّم ذلك في ضوء القمر.

أطلق سبياغودري صرخةَ ألم ورعب في آن، وهو يقتربُ من الكتلة الشّهيرة. أما أوردينر الذي فوجئَ، فقد استعلم باهتمام عن موضوعِ انفعاله الجديد. غير أن البواب، عالم الآثار، استغرق بعض الوقت لكي يتمكّنَ من الرّد:

وكان أوردينر يقول:

– كنت تظنّ أن هذا الحجر يسدُّ الطريق. ولابدَّ لك من الإقرار، على العكس من ذلك، وبسرور أنه يدعُه سالكاً تماماً.

فقال بينينيوس بصوتٍ يدعو إلى الرّثاء:

– وهذا بالضبط ما يشعُرني بالقنوط.

– وكيف؟

فتابع البّواب:

– ماذا، يا سيّدي. ألا ترى أن ذلك الهرم قد أزيح من موقعه، وأن القاعدةَ التي كانت قائمةً على الشّعب قد غدت الآن معرّضةً للهواء، فيما تستندُ الكتلةُ على الأرضِ بالضّبط، أي على الوجه الذي كان شونينغ قد اكتشف عليه الحروفَ الرّونيّة البدئية...؟ إنني حقاً سيء الحظّ!

فقال الشّاب:

– إن هذا إخفاقٌ في الحقيقة.

فتابع سبياغودري بحماسة:

– أضف إلى ذلك أن إزاحةَ هذه الكتلةِ يدلُّ هنا على وجودِ كائن متفوّقٍ على البشر. وباستثناء أن يكونَ ذاك هو الشيطان؛ فليس في النّرويج سوى رجلٍ واحد يمكنُ لساعده...

– يا مرشدي المسكين، إنك تعود أيضاً إلى مخاوفك المثيرة للذّعر. فمن يدري إن لم يكن هذا الحجر على هذه الصّورة، منذ أكثر من قرن.

فقال سبياغودري بصوتٍ أكثر هدوءاً:

– لقد دَرَسَه آخرُ مشاهد له، منذ مئة وخمسين عاماً، في الحقيقة، ولكن يبدو لي أنه قد حُرّكَ حديثاً، وأن المكانَ الذي كان يشغله لا يزالُ رطباً، فانظرْ، يا سيّدي...

أما أوردينر الذي كان متلهفّاً على الوصول إلى الخرائب، فقد انتزعَ مرشدَه من جانب الهرم العجيب، وتوصّل، من خلال كلماتٍ عاقلة، أن يبدّد المخاوف الجديدة التي كان قد أوحت إزاحةُ الحجر للعالم العجوز.

– أصغ، أيّها العجوز. يمكنك أن تستقرّ على ضفّة هذه البحيرة، وأن تنكبَّ على دراساتك الهّامة بكلّ حرية، حين تحصلُ على الألفِ ريالٍ ملكي التي سيجلبُها لك رأسُ هان.

– أنت على حق، يا سيّدي النبيل، ولكن لا تتكلّم بهذه الدّرجة من الخفّة عن نصرٍ غير مؤكّد فعلاً، ينبغي أن أُسدي إليك نصيحةً لكي تصبح مسيطراً بصورةٍ أفضل على الوحش... فاقترب أوردينر من سبياغودري اقتراباً شديداً، وقال:

– نصيحة! وما هي؟

فقال هذا الأخيرُ بصوتٍ خفيضٍ، وهو يتطلعّ حوله بنظراتٍ قلقة:

– إن اللّص يحملُ في حزامه جمجمةً اعتاد أن يشربَ فيها. إن هذه الجمجمة هي جمجمة ابنه الذي يلاحقونني بسبب تدنيس جثّته...

– أرفع صوتك قليلاً، ولا تخشَ شيئاً. فأنا لا أكادُ أسمعك. وإذن! فهذه الجمجمة.

فقال سبياغودري، وهو ينحني على أذن الشّاب:

– إنّما ينبغي لك أن تحاول الاستيلاءَ على هذه الجمجمة؛ فالوحشُ يربطُ بها أفكاراً وهميةً باطلة لا أدري ماهي. وحين تصبحُ جمجمة ابنهِ في حوزتك، تصنع بهِ ما تشاء.

– هذا جيّد، أيها الرّجل الشّهم؛ ولكن كيف نسيطرُ على هذه الجمجمة؟

– بالحيلة، يا سيّدي، أثناءَ نومِ الوحش، ربّما...

فقاطعه أوردينر قائلاً:

– هذا يكفي! إن نصيحتك الطّيبة لا يمكن أن تُفيدني، فلا يتعيّنُ عليّ أن أعرف إن كان عدوّي نائماً. لا أعرفُ إلّا سيفي في القتال.

– يا سيّدي، يا سيّدي، ليس مُثبتاً إن كان رئيسُ الملائكة ميخائيل لم يستخدمْ الحيلةَ لكي يصرعَ الشّيطان...

هنا، توقّف سبياغودري فجأة، وبسطَ يديه أمامه، وهو يهتفُ بصوتٍ خامدٍ تقريباً:

– أيتها السّماء! أيتها السّماء! ماذا أرى هناك؟ انظرْ يا سيّدي، أليس هذا رجلاً قصير القامة، وهو يسيرُ على هذا الشّعب ذاتِه، أمامنا...؟

فقال أوردينر، وهو يرفعُ عينيه:

– الحقيقة أنني لا أرى شيئاً.

– لا شيء يا سيّدي؟ – فعلاً إن الشِّعبَ ينعطفُ، وقد اختفى وراءَ تلك الصّخرة – فلا نمضيّنّ بعيداً، يا سيّدي، إني أتوسّل إليك.

– في الحقيقة، إذا كان هذا الشّخصُ المزعومُ قد اختفى بمثلِ هذه السّرعة؛ فذلك لا ينبئ بأنه ينوي انتظارَنا، وإذا ما هربَ، فليس هذا مبّرراً لنا لكي نهرب.

فقال سبياغودري، الذي كان يتذكّر شفيعَه المفضّل في كافةِ المناسبات المحفوفةِ بالمخاطر:

– احفظّنا، أيها القدّيس أوسبيس.

وأضاف أوردينر:

– لقد ظننتَ الظلَّ المتحّركَ لبومةٍ مذعورةٍ رجلاً.

– لقد ظننتُ، مع ذلك حقاً أني أرى رجلاً قصيرَ القامة. صحيحٌ أن ضوءَ القمر يُحدِثُ أحياناً خداعاً غريباً؛ فمن خلالِ هذا الضّوء، ظنَّ بالدان، حاكمُ ميرنوغ السّتارةَ البيضاءَ شبحَ والدته. وهذا ما جعله يعزمُ في اليوم التّالي على أن يذهب ليُعلنَ قتلَهُ لوالده أمام قُضاةِ كريستيانا الذين كانوا يهمّون بالحكم على الغلام البريء، غلامِ المرحومة. وهكذا، يمكنُ القولُ إن ضوءَ القمر قد أنقَذَ حياةَ ذلك الغلام.

لم يكن أحدٌ ينسى الحاضر في الماضي أفضل مما ينسى سبياغودري؛ فقد

كانت إحدى ذكريات ذاكرته الواسعة تكفي لاستبعاد انطباعات اللّحظة الآنيّة كلها. وهكذا، فإن قصةَ بالدان قد بدّدت ذعرَه، فتابع بصوتٍ هادئ قائلاً:

– من الممكن أن يكون ضوءُ القمرِ قد خدعني على النّحو نفسه، ومع ذلك؛ فقد وصلا إلى قمة كو – دو – فوتور، وأخذا يريان مجدّداً قمّة الخرائب التي كان التواءُ الصّخرة قد أخفاه عنهما، فيما كانا يصعدان.

لا يدهشنّ القارئ، إذا ما صادفنا غالباً بعضَ الخرائب، في قمة مرتفعات النّرويج فأيُّ إنسانٍ قد طافَ في جبال أوروبا لا يمكن أن يكون قد فاته أن يلاحظَ مراراً بقايا حصونٍ وقصورٍ معلّقة على ذروةِ القمم الأكثر ارتفاعاً، وكأنها أعشاشٌ قديمة لنسورٍ، أو لأوكارِ عقبان ميتة. وفي النّرويج خصوصاً، وفي القرن الذي انتقلنا إليه، كانت هذه المباني الهوائية تُثيرُ الدَّهشةَ بتنوّعها كما بعددها؛ فقد كانت تارةً أسواراً طويلةً مهدّمةً تتلوّى كالحزام حول صخرة، وتارةً بُريجاتٍ نحيلة، وحادّة تعلو فوق رأس إحدى الشّعاف، وكأنها تاجٌ، أو كانت على الرأس الأبيض لجبلٍ عالٍ، أبراجاً ضخمةً مصطفةً حول برج كبير رئيسي، وتتّخذ من بعيد مظهرَ تاجٍ فارسيّ قديم. وكانت تُرى، قريباً من القناطر القوطيّة النّحيلة لرهبانيّةٍ كاثوليكيةٍ، الدّعائمُ المصريةُ الثقيلةُ لمعبدِ درويديّ[1] قريباً من القلعةِ ذات الأبراجِ المربّعة لزعيمٍ وثنيّ، والمعقل ذي مرامي السّهام لحاكمٍ مسيحيّ، وقريباً من قصرٍ شديد التهدّم بفعل الزمن، وديرٍ دمّرته الحرب.

إن كلَّ هذه المباني التي هي مزيجٌ من أنماط العمارةِ الفريدة والتي نجهلُها اليوم، والمبنيةِ بجسارة في أمكنةٍ منيعةٍ ظاهرياً لم تترك فيها من بعد سوى الركام،

(١) في طبعة راندويل ١٨٣٣، كانت، ترى، بقرب القناطرِ القوطيةِ الأقواس لرهبانيةٍ قوطيةٍ، الدّعائمُ الثقيلةُ المصرية لكنيسةٍ ساكسونية. (انظر، أعلاه: رقم: «١٧»).

لكي تشهدَ بصورةٍ ما على قدرةِ الإنسان، وعلى عَدمه في آنٍ واحد. ولربّما تكون قد حدثت في أسوارها أشياء كثيرةٌ جديرة بأن تُروى أكثر من كلّ ما يُروى على الأرض. ولكن الأحداثَ تجري، والعيونَ التي رأتها قد أغمضت، والتقاليدَ تنطفئُ مع مرورِ السّنين، مثل نارٍ لم تُلتقط البتّة، ويمكنها بعد ذلك أن تخترق سرَّ القرون.

إن قُصير فيرموند - لو - بروسكري الرّيفي الذي وصل إليه مسافرانا، في تلك اللحظة، كان من تلك القصيرات التي كانت الاعتقاداتُ الباطلة تربطُ بها أكثر من غيرها قصصاً مدهشة، ومغامرات عجيبة؛ فمن تلك الأسوارِ المبنيّة من الحصى، والغارقةِ في ملاط قد غدا أكثّر صلابّةً من الحجر، كان المرءُ يتعرّفُ بسهولةٍ أن ذلكَ القصير قد بُني حوالي القرن الخامس أو السادس، ومن بين أبراجه الخمسة، كان ثمة برجٍ واحد لا يزالُ قائماً بكلّ ارتفاعه أما الأبراجُ الأربعة الأخرى، المتداعيةُ قليلاً أو كثيراً، والتي تغطّي بركامها قمةَ الصّخرة؛ فقد كانت متّصلةً فيما بينها بخطوطٍ من المهدّمات التي كانت تدلُّ أيضاً على الحدود القديمة لباحاتها، ضمن سورِ القصر.

كان أمراً شديدَ الصّعوبة أن يدخلَ المرءُ إلى ذلك السّورِ المسدودِ بالحجارة، وبأجزاء صخرية، وشجيراتٍ من كلّ نوع؛ فتعلو بأغصانها الكثيفة الأسوار المنهارة، زاحفةً من نقضٍ إلى نقض، أو تترك أذرعها الطّويلة المرنة.[1]

(١) إذا أخذنا بما يقوله «الشّاهد»، في كتاب «فيكتور هيغو الذي يرويه...» الفصل: /٣٦/؛ فهذه ذكرى لمرور فيكتور هيغو إلى منزل الدّوق دورروان، في لاروش غويّون، في آب: ١٨٢١ وصعودِه إلى لاتور دوغي: «فقد أفادت تلك المهدَّمات فيكتور هيغو في وصف برج فيرموند - لو - بروسكوري، في هان الإيسلنديّ: «إن الملاحظاتِ المخطوطة للشّاهد» تقدّم التفصيل التالي: «إن المبنى المتداعي كان تسلّقُه خطراً. وهذا سببٌ إضافي لكي يقوم بطلُنا بصعوده مُسقِطاً الحجارةَ واحداً فواحداً (أوردَ ذلك ب. ميكيل في: هيغو سائحاً، الصّفحات: ١٣٥ - ١٣٦.

متدليةً حتى الهوّة. وبهذه الضّفائر من الأغصان، إنما كانت تأتي غالباً، كما كان يُقال، أرواحٌ بألوانٍ مزرقة، لتترجَّحَ في ضوء القمر، وهي أرواحٌ خاطئةٌ لأولئك الذين كانوا قد غرقوا عمداً في نهر السّباربو، أو كان يربطُ متشيطنٌ البحيرةِ الغيمةَ التي كان مفروضاً أن تعيده إلى مشرق الشمس. إنها أسرارٌ مرعبة كان يشهدُ عليها غير مرّةٍ صيّادو أسماكِ جسورون، حينما كانوا يجرؤون في الليل، مستفيدين من نوم كلاب البحر[1]، على دفعِ قاربهم حتى صخرة أويلمو التي كانت تتكوّر في القمة، فوق رؤوسهم، مثل عقدٍ محطّم لجسرٍ هائلٍ عملاق.

اجتاز مغامِرانا سورَ القُصيرِ الرّيفي، وليس من دون مشقة، من خلالِ أحد الصّدوع، لأن البابَ القديم كان مزدحماً بالأنقاض. أمّا البرجُ الوحيدُ الذي بقي قائماً، كما قُلنا، فقد كان يقعُ في الطّرفِ القصّي من الصّخرة. وكان هو برجَ القمةِ الذي كانت ترى منه منارةُ مونكولم، كما قال سبياغودري لأوردينر.

توجّها إليه، مع أن العتمةَ كانت تامّةً في تلك اللّحظة. وكان القمرُ محتجباً بصورةٍ كاملة. بسبب غيمةٍ ضخمةٍ سوداء. كانا يهتمّان بتسلّقِ ثغرةِ جدارٍ آخر، لكي يلجا إلى ماكان سابقاً باحةَ القصر الثانية، حين توقف بينينيوس، من دون أيةِ خطوةٍ زيادة. وأمسك فجأة بساعد أوردينر بيدٍ ترتجفُ ارتجافاً شديداً، بحيث أن الشابّ نفسه قد اهتزّ لذلك.

فقال أوردينر مدهوشاً:

---

(١) إن الصّيادين يخشون كلابَ البحر، لأنها تُرعب الأسماك.

– وماذا إذن . . . ؟

أما بينينيوس فقد ضغط على ذراعه بشكلٍ أشدّ أيضاً، من دون أن يجيبَ، وكأنّه يطلب منه أن يسكت.

فكرّر الشّاب:

– ولكن...

وجعله ضغطٌ شديد، يرافقُه تأوُّه كبير لم يكتمَ جيّداً، جعله ينتظر بصبرٍ أن يمرَّ هذا الذُّعرُ الجديد.

وأخيراً، قال سبياغودري بصوتٍ يكتنفهُ الضّيق:

– حسناً، يا سيّدي، ماذا تقول في ذلك؟

فقال أوردينر:

– في ماذا؟

فتابع الآخرُ باللّهجةِ ذاتها:

– أجل، يا سيّدي، هل تندمُ الآن حقاً على صعودِك إلى هنا...؟

– كلّا، في الواقع، يا مرشدي الشّهم، وآمل أن أصعدَ إلى أعلى أيضاً؛ فلماذا تريدُني أن أندم؟

– وكيف، يا سيّدي، ألم ترَ قطّ إذن...؟

– أرى! ماذا؟

فردّد البّوابُ النّزيهُ بلهجةٍ يتصاعدُ فيها الرُّعبُ باستمرار:

- ألم ترَ قَطْ...!

فأجاب أوردينر بلهجةٍ تنمُّ عن نفاذِ الصّبر:

- كلّا، حقاً، لم أرَ شيئاً، ولم أسمع إلّا صوت أسنانك التي كان يجعلُها الخوفُ تصطكُّ بعنف.

- ماذا! هناك، خلف ذلك الجدار، في الظلّ... هاتين العينين المتوقّدتين مثل مذنبَّين.

واللّتان حدَّقتا بنا... أنت، لم ترهما قطّ؟

- الحقيقة، كلّا.

- ألم ترهما قطّ تجولان، وتصعدان، وتنزلان، ثم تختفيان أخيراً بين الأنقاض؟

- أعرف ما تعنيه. فما أهميةُ هذا، من ناحيةٍ أخرى؟

- كيف، يا سيّدي أوردينر. هل تعلم أنه ليس هناك في النّرويج إلّا رجلٌ واحدٌ تلتمع عيناه على هذا النّحو في العتمة...؟

- هيا، ما أهميةُ ذلك أيضاً؟ ومن هو هذا الرّجل الذي له عينا قط؟ هل هو هان؟ إيسلنديُّك الرهيب؟ حبذا، لو كان هنا! فهذا يعفينا من الرّحلة إلى فالدبروغ.

إن هذه الـ «حبّذا» لم تكن تروق لسبياغودري الذي لم يستطع أن يتمالك نفسه ليكشفَ فكرته الخفيّة، من خلال هذا التعجّب غير المعتمّد:

– آه! يا سيدي، كنت قد وعدتني بأن تتركني في قرية سورب، على بعد ميلٍ واحد من المعركة...

فأدرك أوردينر الطّيب والشّهم الأمرَ وابتسم:

– إنك على حقّ، أيها العجوز، فقد لا يكون من الإنصاف أن أُشركَكَ في مخاطري؛ فلا تخشَ إذن شيئاً. فأنت ترى هان الإيسلنديَّ في كلِّ مكان؛ أفلا يمكن أن يكون في هذه الأنقاض قطٌّ برّيٌّ عيناه تلتمعان مثل عينيّ ذلك الرّجل؟

للمرّةِ الخامسة، توصّل سبياغودري إلى الاطمئنان. إمّا لأنّ تفسيرَ أوردينر قد بدا له في الواقع طبيعيّاً، وإما لأن هدوءَ رفيقهِ الشابّ كان يتضّمن شيئاً مُعدِياً.

– آه! يا سيدي، لولاك لكنت متّ عشر مراتٍ من الخوف، وأنا أتسلّقُ هذه الصّخور – والصّحيحُ أنه لولاك لما جرّبت ذلك.

كان القمرُ الذي ظهر ثانية قد جعلهما يريان مدخلَ أعلى البرجين، والذي كانا قد وصلا إلى أسفله. فولجا إليه، وهما يرفعان سياجاً كثيفاً من اللّبلاب، والذي جعل عَظَايات نائمةً وأعشاشاً قديمة لطيور كئيبة تتساقطُ عليهما؛ فالتقط البّواب حصاتين، وصَدَم كلاً منهما بالأخرى، جاعلاً الشّرارات تساقطُ على كومةٍ من الأوراق الميتة، والأغصانِ اليابسة التي التقطها أوردينر. وفي

بضع لحظات، ارتفعت شعلةٌ صافية، فبدّدت العتمة التي كانت تحيط بهما، وأتاحت لهما أن يعاينا البرج من الداخل.

لم يبق من ذلك البرج إلّا السّور الدائري الذي كان جدّ سميكاً، ومغطىً باللبلاب والطّحلب. وكانت سقوفُ تلك الطوابق الأربعة قد انهارت بالتّتالي حتى الطبقة الأرضية، حيث شكلَت كومةً هائلةً من الرّدم. وكان هناك درجٌ ضيّق لا درابزين له، ومحطّمٌ في بضعة مواضع ويلتفّ بشكلٍ لولبيّ على الواجهةِ الداخلية للسّور الذي يؤدّي إلى قمته[1]. وعند أولى فرقعات النّار، طار سربٌ من الأخبال (البوم)، ومن العقبان المنسوريّة طيراناً ثقيلاً، ترافقها صيحاتٌ مدهوشة وكئيبة. وأتت خفافيش ضخمة على فتراتٍ لتمسّ اللّهب بأجنحتها الرّمادية اللّون.

فقال أوردينر:

– هؤلاء هم مضيفون لا يستقبلوننا بكثيرٍ من البهجة، ولكن لا ترتعبْ أكثر.

فتابع سبياغودري، وهو يجلسُ بقرب النّار:

– أنا، يا سيّدي، أنا أخشى بومةً أو خفاشاً! لقد كنتُ أعيشُ مع الجثث. ولم أكن أخشى الخفافيش، مصّاصة الدماء. آه! إني لا أخاف إلا من الأحياء! أنا لست جسوراً! أوافقك الرأي. ولكنّي لستُ متطيّراً – هيا، يا سيّدي. إن

(١) انظر أعلاه رقم: «٦٨» و، وفي رواية: عام ثلاثة وتسعين (رقم: ٣، ٢، ٩، المقطع: ١) وصف لاتورغ، ليس لا تورغ الحي، وإنما لا تورغ الميت.» لقد كان خالياً، وأشبه ما يكون ببوقٍ حجري موضوع على الأرض، وقائماً. ومن أعلاه إلى أسفله، ليس هناك أيُّ حاجز.».

كنت تصدِّق ما أقول، فلنضحكْ من هذه السّيدات ذات الأجنحةِ السّوداء، والأناشيد المبحوحة، ولنفكّر بالعشاء.

لم يكن أوردينر يفكّر سوى بمونكولم.

فقال سبياغودري وهو يسحبُ حقيبة ظهره من تحت معطفه:

– لدّي هنا فعلاً بعضُ المؤن! ولكن إذا كانت شهيّتك تعادلُ شهيّتي، فإن هذا الخبز الأسود وهذا الجبنُ الزَنخ سوف يختفيان في الحال. أرى أننا سنكون مضطرّين لأن نبقى بعيدين إلى حدٍّ كافٍ عن حدودِ تشريع الملك الفرنسي – فيليب – لو – بيل: لن يجرؤ أحد على أن يأكل أكثر من طبقين من الحساء المركّز»[1]. لابّد أن تكون في ذروة هذا البرج أعشاشُ نوارس أو تُدْرج! ولكن، كيف نصل إليها عبر «درجٍ مرتجّ» قد لا يكون قادراً على حمل كائناتٍ هوائية؟

فتابع أوردينر:

– ومع ذلك، فلا بدَّ له حقاً من أن يحملني؛ لأني سأصعدُ بالتأكيد إلى قمّة هذا البرج.

– ماذا! يا سيّدي، لكي تحصل على أعشاش النوارس...؟ لا تقم، من فضلك، بهذا العمل الطائش. فلا ينبغي للمرء أن يقتلَ نفسه لكي يتعشّى بصورةٍ أفضل. وفكّر، زيادةً على ذلك، بأنه من الممكن أن تكون مخطئاً، وأن تقبض على أعشاش أخبال.

---

(١) باللّاتينية، في النّص. (م: ز.ع).

– إن الذي يعيقُني هو أعشاشك فعلاً! ألم تقلْ لي إنه يمكن رؤيةُ برجِ مونكولم الرئيس من أعلى هذا البرج؟

– هذا صحيح، يا سيّدي الشّاب، في الجنوب! أرى جيداً أن الرغبة في تحديد هذه النقطة الهامة للعلمِ الجغرافي قد كانت الرّافعَ إلى هذه الرّحلة المتعبة إلى قصر فيرموند. ولكن، تكرّم بأن تفكّر، أيها السّيد النبيل أوردينر بأن واجبَ العالم الغيور يمكن أن يكون أحياناً في مجابهة التّعب، وليس الخطر إطلاقاً. وإني أتوسّلُ إليك ألّا تجرّب هذا الدّرج المهدّم الذي قد لا يجرؤ غرابٌ على أن يجثم عليه.

لم يكن بينيبوس يهتّم إطلاقاً بأن يظلَّ وحيداً في أسفل البرج. وعندما نهض لكي يمسك بيد أوردينر، سقطت حقيبةُ ظهره التي كانت موضوعةً على حافّةِ ركبتيه، سقطت بين الأحجار، وأصدرت صوتاً واضحاً.

فسأل أوردينر:

– ما الذي يرنُّ في حقيبة ظهرك هكذا؟

فنزع هذا السّؤالُ عن نقطةٍ شديدةِ الحساسيّة بالنسبة لسبياغودري، نزع منه الرّغبة في استبقاء رفيقه الشّاب.

فقال من غير أن يجيبَ على السّؤال:

– هيّا، بما أنك، بالرغم من رجائي، تصرُّ على الصّعود إلى أعلى البرج، فلتحذر صدوعَ الدّرج.

فردّد أوردينر:

– ولكن، ماذا هناك إذن في حقيبة ظهرك لكي تجعلها تُصدر لك ذلك الصّوت المعدنيّ؟.

أزعج هذا الإلحاحُ غير المتحفظ الحارسَ العجوز غاية الإزعاج؛ فلعنَ السّائلَ في أعماق نفسه، وأجاب:

– إيه! أيها السّيد النبيل. كيف يمكنك أن تهتّم بصحنٍ رديء فيه حروفٌ معدنية ترنُّ حين تصطدم بحصاة؟

وسارع ليضيف:

– بما أنّه ليس بمقدوري أن أثنيك عن عزمك، فلا تتأخّرْ في النّزول من جديد. ولتُعنْ بأن تتمسّك باللّبلاب الذي يغطي السّور. ولسوف ترى منارةَ مونكولم بين مرقاتي فريغج، في الجنوب.

ما كان لسبياغودري أن يقول شيئاً أكثر حذقاً مما قاله، لكي يبعدَ عن ذهن الشّاب أيّة فكرةٍ أخرى. أما أوردينر، الذي تخلّص من معطفه؛ فقد اندفع نحو الدّرج الذي تبعه إليه البّواب بعينيه. إلّا أنه لم يعدْ يراه إلّا منزلقاً مثل ظلٍّ مبهم من أعلى نقطة في السّور. الذي لا يُنيره في ذروته شيء تقريباً سوى الضّوء المختلج للموقد، ونور القمر المنعكس وغير المتحرك.

حينذاك، عاد إلى الجلوس، والتقطَ حقيبةَ ظهره، وقال:

– يا عزيزي بينينيوس سبياغودري، في الوقت الذي لا يراك فيه هذا

الوشَقُ الشابّ، وأنت وحدك، أسرع إلى تحطيم الغلاف الحديدي المزعج والذي يمنعك من امتلاك الكنز المخبأ بلا شكّ في هذه العلبة امتلاكاً بالنّظر واللّمس[1]. وحين يصبحُ هذا الكنز محرّراً من هذا السجن، يغدو حمله أقّل ثقلاً، وإخفاؤه أيسر.

كان قد تسلّح بحجرٍ ضخم، وأخذ يتهيأ لتحطيم غطاء الصّندوق حين أوقف البوّابَ، عالمَ الأثريات فجأةً شعاعٌ من النّور. سقط على الخاتم الحديديّ الذي يغلقه، وهتف، وهو يفركُ بشدّةٍ الغطاء الصّدئ:

- وحقّ القدّيس فيلبرود - لو - نوميسمات[2]. إني لستُ مخطئاً؛ فهذه هي شاراتُ غريفنفلد حقاً. وكنتُ على وشك أن أقومَ بحماقةٍ كبيرة بتحطيم هذا الخاتم. وربّما يكون هذا هو النّموذج الوحيدُ المتبقّي من تلك الشّعارات الشّهيرة التي تحطمت عام ١٦٧٦. على يد الجلّاد. يا للشّيطان! عليّ ألّا ألمسَ هذا الغطاء، أيّاً كانت قيمةُ الأغراضِ التي يخبّئها، إلّا إذا كانت، خلّافاً لكلّ احتمال، قطعاً نقدية من تدمر. أو ميدالياتٍ قرطاجيّة؛ فهي بالتأكيد أثمنُ أيضاً. ها أنا إذن المالكُ الوحيدُ للشّعارات الملغاة - ولنخبئ هذا الكنز بعناية - وربّما أجد أيضاً سرّاً معيّناً لفتحِ العلبة من غير أن أرتكبَ عملاً همجيًّا ضدَّ الفن. إنها شعاراتُ غريفنفلد! أوه، أجل. هذه حقاً هي يدُ العدالة، في ميزانِ ميدان المتقاتلين... يا للسّعادة!

لدى كلّ اكتشاف شعاريّ كان يقوم به، وهو يزيل الصّدأ عن العلبة القديمة، كان يُطلقُ صرخة إعجاب أو تعجُّباً مفعماً بالسّرور.

(١) باللّاتينية، في النصّ.

(٢) أي: المسكوكات. (م: ز. ع).

– بواسطة مادّة حالّة، سأفتح القفل، من غير أن أُحطِّم الخاتم. إنها بلا ريب كنوزُ المستشار السّابق – فإذا تعرّفني أحدُهم واعتقلني وقد أغراه الطُّعم المتمثّلُ بأربعة ريالات فلسوف يكون صعباً عليّ أن أفتدي نفسي – وهكذا تكون هذه العلبةُ السّعيدة قد أنقذتني...

ارتفع نظرُه بصورةٍ آليّة، وهو يتكلّمُ على هذا النحو – ثم انتقل فجأة وجهه المضحك بلمحِ البصر من التعبير عن فرحٍ جنوبي إلى التعبير عن رعبٍ غبي، فارتعدت فرائصه بصورةٍ تشنجيّة، وغدت عيناه محدِّقتين، وتجعّد جبينُه، وأصبح فمُه فاغراً، وجمد صوته في حلقومه، مثل ضوء نطفئه.

بمواجهته، وفي الجانب الآخر من الموقد، كان هناك رجلٌ قصيرُ القامة يقفُ منتصباً، ومكتوف اليدين. ومن خلال ملابسه المضَّرجة بالدَّم، وبلطته الحجريّة، ولحيته الصّهباء. ومن خلال نظرته المفترسة المحدّقة به، كان البوّابُ المسكين قد تعرَّف للوهلة الأولى الشخصيةَ المرعبة التي استقبل زيارتها الأخيرة في السّبلادجيست في درونتهايم.

قال الرّجلُ القصيرُ القامة بلهجةٍ مرعبة:

– هذا أنا!

وأضاف بابتسامةٍ مخيفةٍ ساخرة:

– كان يمكن لهذه العلبة أن تنقذك، يا سبياغودري! هل هذا هو طريقُ توكتري؟

حاول منكودُ الحظ أن يلفظ بضع كلمات:

– توكتري!... يا سيّدي المخدوم... كنت ذاهباً إليها. . . .

فردّ الرَّجلُ بصوتٍ راعد:

– كنت ذاهباً إلى فالديروغ.

أما سبياغودري المرتعب، فقد استجمعَ كلَّ قواه بحركةِ نفي من رأسه.

– كنت تقودُ إليَّ عدوّاً. شكراً! لسوف ينقصُ الأحياءُ واحداً. فلا تخشَ شيئاً، أيها المرشدُ المخلص. سوف يلحقُ بك.

أراد الحارسُ المسكين أن يطلق صرخة، فتمكّن بمشقّةٍ أن يُسمِعَ تمتمةً مبهمةً ومشوَّشة.

ولوّح الرّجلُ القصيرُ ببلطته الحجرية من فوق رأسِ البوّاب. وتابع بصوتٍ كان يخرج من صدره وكأنه صوتُ سيلٍ يخرجُ من مغارة.

– لقد خُنتَني.

فقال بينينيوس أخيراً، وقد استطاع بصعوبةٍ أن يتلفّظ بهذه الكلماتِ المتوسّلة:

– كلّا، يا صاحبّ السّمو، كلّا، يا صاحب المعالي...

فأطلق الآخر ما يشبه زمجرةً مكتومة.

– آه! تودّ أن تخدعني أيضاً! لا تأملْ في ذلك بعد الآن – اسمعْ، كنتُ

على سطحِ السّبلادجيست عندما عقدتَ اتفاقك مع ذلك الأحمق! وأنا من سمعتَ صَوته مرّتين ، وأنا أيضاً من سمعتَ صوته في العاصفة على الطريق ، وأنا من التقيتَه في برج فيغلا ، وأنا من قال لك . إلى اللقاء . . . !

أمّا البوابُ المذعورُ فقد جال بنظرةٍ تائهةٍ حوله ، وكأنه يطلبُ النّجدة ، فتابع الرَّجل القصير يقول:

– لم أكن أريدُ أن أتركَ هؤلاء الجنود الذين كانوا يلاحقونك يهربون . وقد كانوا من فوج مونكولم . أما أنت ، فلم يكن بإمكاني أن أخسرك . فأنا ، يا سبياغودري ، الذي رأيتَه ثانيةً في قرية أويلمو . وهو يرتدي قبعةَ اللّبد ، قبّعة عامل المنجم . وأنا من سمعتَ خطواته وصوتَه ، والذي تعرَّفتَ عينيه وأنت تصعدُ إلى تلك الخرائب ، إنّه أنا!

واحسرتاه! لقد زادَ منكودُ الحظّ اقتناعاً؛ فتدحرجَ على الأرض ، عند قدمي قاضيه الرّهيب ، وهو يهتفُ بصوتٍ ممزَّق ومجنون – الرَّحمة...!

أما الرّجلُ القصيرُ القامة؛ فقد كان مكتوفَ اليدين دائماً ، ويسلِّطُ عليه نظرةً دمويةً أكثر استعاراً من لهبِ الموقد ، وقد قالَ له بسخرية:

– اطلبْ من هذه العلبة خلاصَك الذي تنتظرُه منها .

فردّد المحتضرُ سبياغودري:

– العفو ، يا سيّدي...! العفو .

– كنت قد أوصيتُك بأن تكون مخلصاً . أمّا في المستقبل ، فأنا أؤكّدُ لك بأن ستكون صامتاً .

أما البوّابُ الذي استشفّ المعنى الرّهيبَ لكلماته، فقد أطلَق أنيناً طويلاً.

فقال الرّجلُ:

– لا تخشَ شيئاً. لن أفرّقَ بينك وبين كنزك.

عند هذه الكلمات، فكّ حزامه الجلدي، وأدخله في حلقة العلبة، وعلّقه على هذا النّحو في عنق سبياغودري الذي كان يتراخى تحت الثّقل.

فتابع الآخرُ قائلاً:

– هيّا! ما هو الشيّطان الذي ترغب في إعطائه روحَك؟ أسرعْ إلى دعوتِه لكي لا يقبِضَ عليها قبله عفريتٍ آخر لم تكن تأبهُ له.

سقط العجوزُ اليائسُ، وهو غيرُ قادرٍ على أن يتلفَّظ بأيَّة كلمة. سقط على ركبتي الرّجل القصير، وهو يعبّر بألفِ إشارةٍ عن توسُّلاته وذعرِه.

وقال هذا الأخير:

– كلاّ، كلاّ! اسمع، يا سبياغودري المخلص. لا تحزنْ لأنك تركتَ رفيقَك الشابّ على هذا النحو من غير مرشد. فأنا أعدُك بأنه سيذهبُ حيثما تذهب. فاتبعني، فأنت لا تفعلُ شيئاً سوى أن تدلّه على الطّريق – هيا!

عند هذه الكلمات. أمسك بالشّقي بين ساعديه الحديديّين. وحمله خارجَ البرج، مثلما يحملُ نمرٌ حفثاً[1]. وبعد ذلك بلحظةٍ، ارتفعت بين الأنقاض صرخةٌ عظيمة، اختلطت بها قهقهات ضحكةٍ مرعبة.

---

(١) جنس من الثّعابين غير سامّ.

الفصل الثّالث والعشرون

أجل، يمكن أن نُظهرَ لعينِ العاشقِ المخلص المحزونةِ موضوعَ عبادته النائي، ولكن، واحسرتاه! فمشاهدُ الانتظار... والوداعِ...! والأفكارُ... والذّكرياتُ الحلوةُ والمرّةُ... والأحلام التي تسحُر الكائنات التي تحبُّ! من يمكن له أن يُترجمها...؟

الموقّر ماتوران، برترام

ومع ذلك، فإن المغامرَ أوردينر الذي كاد يسقط بسبب صعودِه المحفوفِ بالخطر عشرين مرّة، كان قد وصل إلى أعلى الجدارِ السّميك والدّائريّ، جدار البرج. ولدى وصوله غير المتوقّع، فإن عدداً من البومات السّوداء المئوية السّنين قد هربت بطيرانٍ مائلٍ، بسبب الإزعاج الذي تعرّضت له فجأة في أنقاضها، وأدارت نحوه نظرتها المحدّقة، وسقطت حجارةٌ متدحرجةٌ اصطدمت بقدمه، في الهوّة، وهي تقفز على نواتئ الصّخور، مُحدِثةً أصواتاً مكتومة وبعيدة.

كان يمكن لأوردينر، في أيّةِ لحظةٍ أخرى، أن يدعَ نظره وأحلامَ يقظته

تشرُدُ طويلاً في أعماق الهوّة، والتي يزيدُها الليلُ عمقاً. أما عينُه التي تلاحظ في الأفق كلَّ تلك الظّلال الكبيرة التي يُبيِّضُ قمرٌ ضبابيّ بصعوبةٍ حدودَها المعتمة، فقد كان يمكن لها أن تسعى طويلاً لتمييز الأبخرة فيما بين الصّخور، والجبالَ بين الغيوم. وكان يمكن لخياله أن يبثّ الحياة في كلِّ الأشكال العملاقة، وكلّ الظّواهر العجيبة التي يُضفيها ضوءُ القمر على المرتفعات وعلى الضّباب. كان يمكن له أن يصغي من بعيد إلي الشكوى المشوَّشة، شكوى البحيرةِ والغاباتِ الممتزجة بحفيفِ الأعشاب اليابسة الحادّ والتي كانت الرّيحُ تعذّبها عند قدميه، بين صدوع الأَحجار. وكان يمكن لذهنه أن يمنحَ كلّ هذه الأصوات الميتة التي ترفعها الطبيّعةُ المادّية أثناء نوم الإنسان وصمت الليل، أن يمنحها لغةً. ولكن أصواتاً أخرى كانت تملؤه، مع أن ذلك المشهد كان يفعلُ فعله، بلا علم من الإنسان، على كيانه كلِّه. وما كادت قدمُه تحطُّ على قمة السّور، حتىً استدارت عينهُ نحو جنوب السّماء، واستخّفه فرحُ لا يوصف، وهو يلمح، فيما وراء الزّاوية. المشكّلة بين جبلين، نقطةً مضيئة تشعُّ في الأفق، مثل نجمةٍ حمراء – كانت تلك هي منارةَ مونكولم.

إن أولئك الذين لا يدركون السّعادةَ التي أحسَّ بها الشّابَّ ليسوا مؤهلّين ليتذوّقوا مباهجَ الحياة الحقيقية. لقد انتفضَ قلبُه بكليّته نشوةً، فانتفخَ صدرُه، وأخذ يختلجُ بقوّة، وصار يتنفسُ بصعوبة. كان لا يُبدي حراكاً. وكانت عينُه متوتّرة وهو يتأمَّلُ كوكبَ المواساةِ والرّجاء. وكان يبدو أن ذلك الشّعاع من النّور الذي أتى في قلب الليل من تلك الإقامة التي كانت تحتوي كلَّ غبطته، كان يجلبُ إليه شيئاً من فتاته إيتيل. أه! علينا أَلاّ نشكّ عبر الأزمان والأماكن، أنّ الأرواحَ تتواصلُ أحياناً فيما بينها تواصُلاً خفيّاً. إن العالم يقيم حواجزه بين

كائنين متحابيّن من غير طائل؛ فاعتبارهما يقطنان الحياة المثاليّة، يظهرُ كلٌّ منهما للآخر في الغياب، ويتحّدان في الموت. فماذا بوسعِ التفريقات الجسدّية، والمسافاتِ الطبيّعية أن تفعل في الواقع ضدَّ قلبين مرتبطين برباطٍ لا يُقَهر. بفكرةٍ واحدة ورغبة مشتركة؟ - إن الحبَّ الحقيقيّ يمكن أن يعاني، ولكن ليس أن يموت.

من لم يتوقفْ مئةَ مرَّةٍ خلال ليالٍ ماطرةٍ بطولها تحت نافذةٍ لا يكاد ينيرها شيء؟ من لم يمرّ قطّ، ولم يعاود المرورَ من أمام باب، ويطوف بمتعةٍ حول منزل؟ من لم يَحِدْ فجأة عن طريقه لكي يتبع ذات مساء، في منعطفاتِ شارعٍ مقفر، فستاناً واسعاً، ونقاباً أبيضَ يتعرَّفُه فجأة في العتمة؟ إن الذي لا يعرفُ هذهِ الانفعالاتِ يمكن أن يقول إنهّ لم يحبّ قطّ.

كان أوردينر غارقاً في تأمّلاته، وهو أمام، منارة مونكولم البعيدة، وقد تلا بهجتَه الأولى سرورٌ حزين وسُخريّ، وكان يحتشد في نفسه المضطربةِ شعورٌ مختلف - كان يقولُ في نفسه: أجل، ينبغي على الإنسان أن يتسلّقَ الأعالي طويلاً، وعلى نحوٍ شاقّ، لكي يرى أخيراً نقطة سعادةٍ في الليل الفسيح - إنها هناك إذن... إنها تنامُ وتحلم، وربما تفكرّ بي..؛ ولكن من سيقول لها إن فتاها أوردينر حزينٌ الآن ومتوحدّ، ومعلّق في الظلاّم فوق هوّة...؟ - إن فتاها أوردينر الذي ليس لديه منها سوى خصلة شعرٍ يضعُها في صدرهُ، وضوء مبهم في الأفق...! - ثم همس، وهو يتركُ نظرةً منه تسقطُ على الأشعة المحمرّة للنار الكبيرة المشتعلةِ في البرج، همس قائلاً: - ربّما نُلقي من إحدى نوافذِ سجنها نظرةً غير مكترثةٍ على اللّهب البعيد، لهبِ ذلك الموقد.

فجأةً ، سُمعت صرخةٌ كبيرةٌ وقهقهةٌ طويلة ، وكأنهما تحدثان تحته ، على حافّة الهوّة ، فاستدار بغتةً ، ورأى البرج المقفر من داخله . حينذاك ، اعتراه القلقُ ، على العجوز ، فسارع إلى النّزول . ولكنه ، ما كاد يجتازُ عدداً من درجات السّلّم ، حتى صعد إليه صوتٌ مكتومٌ ، يشبه صوتَ جسمٍ ثقيلٍ ساقطٍ في مياهِ البحيرة العميق .[1]

(١) إنه خروجُ سبياغودري (من الرّواية) وقد أثقلَ «بالصّندوق الحديدي» الثّمين والذي لم يكن أوردينر قطّ ، حتى ذلك الحين ، أكثر قرباً من أن يتمكّن من الاستيلاء عليه .

الفصل الرّابع والعشرون

كان الكونت سانشوديياز ، سيّد سالدانا ،
يذرف دموعاً مريرةً في سجنه .
كان غارقاً في اليأسِ ، ويزفرُ بشكواه من الملك ألفونس
وهو في عزلته . . .
«يا أيتها اللّحظات الحزينةُ التي يذكرّني فيها شعري
الأبيض بعددِ السّنوات التي قضيتُها حتى الآن
في هذا السّجن المرعب» .

أغان إسبانيّة عاطفية

كنت أبذلُ جهوداً لا طائل منها لكي أحمسّ روحه؛
ففي هذه الأرض المتبرّدة ، لم يكن بوسعِ
زهوري أن تزدهر

شيلر، دون كارلوس

– من أنت؟

– ألا ترى ذلك؟ إني رجلٌ قد قذفَ به القدر من أعلى دولابهِ الدّائر، وقد سقط عند قدميك. . . ولكن أنت، أيها الجنديّ المكلّف بحراستي، من أنت. . .؟ ومن أين أخذتَ هذه السِّمات. . .؟[1]

(لوب دوفيغا – القوة الشقية)

ويزيدني غضبُ الأعـادي قسوةً   ويلمّ بي عتْبُ الصّديق فأجزع[2]

أبو الطيب – شاعر عربي

كانت الشّمس تغيبُ، وترسمُ أشعّتُها الأفقيّةُ على ثوب شوماكير الصّوفي الفضفاض، وعلى فستان إيتيل المصنوع من الكريب ظلّاً أسود، هو ظل عوارض نافذتهما. كان كلاهما جالساً قريباً من النافذة العليا القوطيّة الشّكل؛ فالعجوز يجلس على كنبة قوطيّة كبيرة، والفتاة على كرسيّ بلا سواعد، عند قدميه. كان السّجينُ يبدو حالماً في وضعيّته الأثيرة لديه، والكئيبة، وكانت جبهتُه الصّلعاء والمجعّدة تستندُ على يديه. ولم يكن يُرى من وجهه غير لحيته التي تتدلّى بشكلٍ فوضويّ على صدره.

قالت إيتيل التي تبحث عن كافة الوسائل لتسليته:

– يا والدي، لقد حلمت هذه الليلة حلماً عن مستقبل سعيد. . . – فانظر، وارفع عينيك، يا والدي النبيل، انظر إلى هذه السّماء الجميلة.

فأجابَ العجوز:

---

(١) لم يحتفظ، في طبعة راندويل ١٨٣٣ إلاّ بالاقتباس المأخوذ من الأغاني الإسبانية.

(٢) مطابقة مع النص الشعري العربي أجراها مشكوراً الباحث الشّاعر. د. ثائر زين الدين.

– لا أرى السّماء إلاّ من خلال قضبانِ سجني ، كما لا أرى مستقبلك ، يا إيتيل إلاّ من خلال مصابئي .

ثم عادَ رأسُه إلى السّقوطِ بين يديه ، بعد أن رفعه للحظةٍ من الزّمن ، وسكتا كلاهما .

فكرّرت الفتاةُ ، بعد لحظةٍ ، وبصوت خجل:

– يا سيّدي ووالدي ، هل تفكرّ بالسيّد أوردينر؟

فقال العجوزُ وكأنه يسعى لتذكرّ الشّخص الذي يكلّمونه عنه:

– السّيد أوردينر؟ أوه! أعرفُ من تعنين . حسناً؟

– هل ترى أنّه سيأتي بعد قليل ، يا والدي؟ فقد ذهب منذ وقت طويل ، وهذا هو اليوم الرّابع . . .

فهزّ العجوز رأسه بحزنٍ ، وقال:

– أظنّ أننا حين نكونُ قد أُمضينا أربعَ سنوات منذ رحيله ، نكون قد أصبحنا قريبين من عودته ، كما نحن اليوم .

فشحبَ لونُ إيتيل من الهلع ، وقالت:

– يا إلهي! هل تظنُّ أنه لن يعودَ إذن؟

فلم يجب شوماكير بشيء؛ فكرّرت الفتاة سؤالها بلهجةٍ متوسّلةٍ وقلقة . فقال السجّين بغتة:

– ألم يَعِدْ إذن بأنّه سيعود .

فكرّرت إيتيل بتعجّل:

– أجل، بلا شكّ، يا سيدي . . . !

– حسناً، كيف يمكنك أن تعتمدي على رجوعه؟ أليس رجلاً؟ أظنُّ أن النّسر يمكنُه أن يعود إلى جيفته، ولكني لا أُصدّق رجوعَ ربيعَ السّنة التي تنقضي.

حين رأت إيتيل والدها يغرقُ ثانيةً في كأبته، اطمأنّت؛ فقد كان في قلبها كفتاة عذراء، وكطفلة صوتٌ يكذّب على نحوٍ حاسم فلسفةَ العجوز الكئيبة.

فقالت بحزم:

– سوف يعود السّيد أوردينر؛ فهو ليس رجلاً كباقي الرّجال.

– وما الذي تعرفينه عن ذلك، أيتها الفتاة؟

– ما تعرفُه أنتَ عنه، يا سيدّي ووالدي.

فقال العجوزُ:

– أنا لا أعرفُ شيئاً؛ فلقد سمعت أقوالاً من رجل تُعلِنُ عن أعمالِ إله.

ثم أضافَ بضحكةٍ مريرة:

– لقز فكرّتُ في هذا، ورأيتُ أنّها كلماتٌ مفرطة في جمالها بحيث يصعبُ تصديقُها.

– وأنا، يا سيّدي، قد صدّقتُها، تحديداً لأنها كانت جميلة.

– أوه! أيتها الفتاة. لو كنتِ ما ينبغي لك أن تكوني، الكونتيسّة

دوتونغسبرغ، وأميرة فولين، والمحاطة، كما يمكن أن تكوني، ببلاطٍ من الخونةِ الوسيمين والمتدلّهين المغرضين، لكانت سرعةُ تصديقك ذات خطرٍ كبيرٍ عليك.

– يا والدي، وسيّدي، ليس هذا سرعةً في التصديق، إنه ثقة.

– يُلاحظُ بيُسرٍ، يا إيتيل، أن هناك دماً فرنسياً يجري في عروقك.

وقادت هذه الفكرة العجوز، بانتقالٍ غير ملحوظ، إلى ذكرياتٍ معيّنة، فتابعَ بنوعٍ من المجاملة.

– لأن أولئك الذين حطّوا من مقام والدك إلى أبعد من المكانة التي ترعرع فيها، لن يكون باستطاعتهم أن يمنعوكِ من أن تكوني ابنة شارلوت، أميرة تارانت، ومن أن تكون إحدى جدّاتك هي آديل[1] أو إيديل، كونتيسّة الفلاندر، والتي تحملين اسمها.

كانت إيتيل تفكرّ بشيء آخر تماماً.

– يا والدي، إنك تحكمُ على النّبيل أوردينر حكماً ظالماً.

– نبيل، يا ابنتي... ! أي معنىً تعطينه هذه الكلمة؟ لقد صنعتُ نبلاء، فكانوا خسيسين فعلاً.

– أنا لا أعني البتّة أن أقول يا سيّدي إنّه نبيلٌ بمقياسِ النبالة الذي يُمنح منحاً.

(١) كان لا بدّ من أن يردَ في موضعٍ ما في الرّواية الاسمُ الأوّلُ لتلك التي أُهديت إليها ضمناً.

– هل تعلمين أنه سليلُ جارل أو إيرسا[1]

– أنا أجهلُ ذلك ، مثلك يا والدي .

وتابعت . وهي تخفضُ عينيها:

– ربّما يكون ابناً لقنٍّ أو تابع . واحسرتاه! إنهم يرسمون تيجاناً وطيورَ القيثارة على محملِ مرقاة . أعني ، بناءً على ما تقوله ، يا سيّدي المكرّم ، أنه نبيلُ القلب .

كان أوردينر ، من بين كلّ الرّجال الدين رأتهم إيتيل ، الرَّجُلَ الذي تعرفه أكثر أو أقلّ من غيره معاً؛ فقد ظهر في مصيرها تقريباً ، كما تظهر تلك الملائكةُ التي كانت تزور النّاس الأوائل وهي تتلفّع في آن بألوان الضّياء والأسرار الخفيّة . كان وجودُها وحده يكشفُ عن طبيعتها ، وكانت تُعبَدُ لذلك . وهكذا ، فإن أوردينر كان قد جعل إيتيل ترى ما كان يخفيه الناس أكثر من غيره ، وهو قلبُه . كان قد التزم الصّمت حول ما كانوا يفاخرون به بكلّ ارتياح ، الوطن والعائلة . كانت نظرتُه تكفي إيتيل ، وكانت تثق بكلماته . كانت تحبّه وكانت قد منحته حياتَها . ولم تكن تجهل شيئاً عن روحه ، ولا تعرفُ اسمه .

فردّد العجوز:

– نبيلُ القلب! نبيلُ القلب! إن هذه النبالة تفوقُ النّبالةَ التي يمنحُها الملوكُ! إن اللّه هو الذي يعطيها ، وهو يغدقُها أقلّ منهم . . .

وهنا ، رفع السَّجينُ عينيه نحو شعاراته المحطمة ، وهو يضيف:

(١) إنهم سادةُ التّرويج القدماء ، قبل أن يؤسّس غريفنفلد نبالةً نظاميّة ، وكانوا يحملون ألقاب: إيرسا (بارون) ، وجارل (كونت) وهذه الكلمة الأخيرة هي التي شكلّت دون شك الكلمة الإنكليزية: Earle= كونت .

- ولا يستعيدُها أبداً.

فقالت الفتاة:

- وهكذا يا والدي؛ فمن يحتفظُ بإحدى هاتين النّبالتين يجد العزاءَ بيسر، لأنه قد خسر الأخرى.

جعلت هذه الكلمةُ الوالدَ يرتعشُ؛ فقد أعادت إليه شجاعته، فتابعَ بصوتٍ حازم:

- إنك على حقّ، أيتها الفتاة، غير أنك لا تعلمين أن زوالَ الحظوة الذي يحكمُ عليه الناسَ بأنّه متعسّفٌ يكون أحياناً مسوَّغاً في وجداننا الداخلي، تلك هي طبيعُتنا الشّقيّة؛ فحين نكون منكودي الحظّ، ترتفعُ في نفوسنا لكي تؤاخذَنا على خطايانا وأغلاطِنا، جملةٌ من الأصواتِ التي كانت نائمةً في فترةِ الرّخاء.

فقالت إيتيل، وقد تأثّرت تأثراً عميقاً، لأنّها أحسّت، من صوتِ العجوز الذي تبدّل أنه قد ترك سرَّ أحزانِه يُفلت منه. فرفعت عينيها نحوه، وقَبلّت يده الباردة والمجعدة وقالت:

- لا تتكلّم على هذا النحّو، يا والدي.

ثم تابعت برّقة:

- إنك تحكمُ حكماً قاسياً على رجلين نبيلين، السّيد أوردينر، وعليك، أنت. يا والدي المكرَّم.

- إنك تتخذين قرارك بخفةٍ، يا إيتيل! وكأنك لا تعلمين أن الحياةَ أمرٌ خطير.

– فهل أسأتَ التَّصُّرف، يا سيّدي، حين أنصفتُ أوردينر الشّهم؟

فعبس شوماكير عبوساً يدلُّ على الاستياء:

– لا يمكنني أن أوافقك الرأي، يا ابنتي، في أن يكون غريبٌ هو موضعَ إعجابك الذي تتعلّقين به على هذه الصّورة، فلا شكّ أنّك لن تريه بعد الآن أبداً.

فقالت الفتاة التي وقعت هذه الكلماتُ الباردةُ عليها مثل أمرٍ ثقيل:

– أوه! لا تظنّن ذلك؛ فلسوف نراه. أفلم يقمْ برحلته من أجلك! أليس من أجلك سوف يواجه الخطر؟

– أعترف بأنني قد انسقْت خلف تلك الوعود، في البداية، ولكن لا، إنه لن يمضي إلى ذلك الأمر، وهو لن يعودَ إلينا إذن.

– سوف يمضي إليه، يا سيدي، سوف يمضي إليه.

كانت اللهجةُ التي لفظت بها الفتاةُ هذه الكلمات لهجةَ من يتعرَّض لإهانة؛ فقد كانت تشعرُ بأنها قد أُهينت في شخصِ فتاها أوردينر. واحسرتاه! لقد كانت في أعماقِ نفسها شديدةَ الثّقة بما تؤكّده.

فكرّر السّجينُ كلامَه من غير أن يبدو عليه التأثُّر:

– حسناً! إن كان سيقاتل اللّصّ، فلسوف يكرّس نفسه لذلك الخطر، وسيؤولُ الأمرَ إلى النتيجة نفسها. فهو لن يعود.

يا لإيتيل المسكينة. . . ! كم تستطيعُ كلمةٌ تُقالُ بغيرِ اكتراث أن تصدمَ أحياناً وبصورة مؤلمةٍ جرحاً خفيّاً لقلبِ قلقٍ وممزّق! لقد خَفَضت وجهها الشّاحب لكي تحجب عن نظرةِ والدها الباردة الدّمعتين اللتين كانت تنفران بالرغمِ عنها من جفونها المتورّمة.

وهمست:

– آه يا أبي! في اللّحظة التي تتحدّثُ فيها هكذا، ربّما يموتُ هذا الشَّهمُ المنكودُ الحظّ من أجلك!

فهزّ العجوز رأسَه دلالةً على الشّكّ:

– لا أؤمن بذلك أكثر مما أرغب فيه، فضلاً عن هذا، أين يمكنُ أن تكمنَ جريمتي؟ ربّما أكون ناكراً لجميلِ ذلك الشاب، كما كان الكثيرون كذلك نحوي.

كان الرّدّ الوحيدُ إيتيل هو تنهيدة عميقة. أما شوماكير الذي انحنى على مكتبه، فقد واصل تمزيقَ بضع وُريقاتٍ من كتاب «حياة الرجّال المشهورين» لبلوتارك، والذي كان المجلّدُ الذي يحتويه أمامه. وقد تمزّق، من قبل، في عشرين موضعاً، وامتلأ بالملاحظات[1].

بعد لحظةٍ من الزّمن، سُمع صوتُ البابِ الذي انفتح؛ أما شوماكير، فمن غير أن يستدير، صاح بدفاعه المعتاد:

(١) هذه طريقةٌ، مثل أية طريقة أخرى لنفضِ الغبار عن الكتب، وعن الأخلاقِ المثبوثةِ في في الكتب، وللهجومِ على نزعةِ محبّةِ الكتب الإنسانية.

– لا يدخلنّ أحد! دعوني! لا أريدُ لأحدٍ أن يدخل.

فردّ صوتُ البواب قائلاً:

– إنه صاحبُ المعالي، الحاكم.

تقدّمَ، في الحقيقة، نحو شاماكير الذي وقَف جزئياً، وهو يكرِّرُ بصوتٍ خافت: الحاكم! الحاكم! تقدمّ عجوزٌ يرتدي زيّ جنرال كاملاً، ويضعُ حول عنقه قلائدَ الفيل، ودانبردغ، ولا توازون دور (الجزّة الذهبيّة)، وعلى صدره أوسمةُ عددٍ من المراتب الأجنبية، تقدَّم نحو شوماكير. وحيّا باحترام إيتيل التي كانت واقفةً بقرب والدها، وتتفحصّه بقلق وخشيةٍ لعلّه لا يكونُ أمراً غير مفيد، إذا ما ذكرّنا، ببضعِ كلمات، قبل أن نمضي إلى أبعد من هذا، بدواعي تلك الزّيارة، زيارة الجنرال لوفان إلى مونكولم. فإن القارئ لم ينسَ الأخبار المزعجة التي كانت تعذّب الحاكم العجوز، في الفصل العشرين من هذه القصّة الحقيقية. فحين تلقى الجنرال تلك الأخبار، حضرت إلى ذهنه ضرورةُ استجواب شوماكير أوّلاً. غير أنه لا يتمكّن من أن يعزم على القيام بها، من غير إحساسٍ بالنفور منها للغاية. ففكرةُ الذَّهاب لتعذيبِ سجينٍ منكودِ الحظّ سبق له أن أَسْلمَ لكثيرٍ من العذابات، وكان قد رآه شديدَ الاقتدار، وأن يتقصّى أسرار المنكود، حتى وإن كان مذنباً، كانت هذه الفكرة لا تروقُ لطيبةِ نفسه وشهامته. ومع هذا، فقد كانت خدمةُ الملك تتطلّبُ ذلك. فلم يكن يتعيّن عليه أن يغادرَ درونتهايم من غير أن يحمل أضواءً جديدةَ يمكن أن تنبثق من استجواب الصّانع الظّاهريّ للتمرّد، تمرّدِ عمالِ المناجم؛ ففي ذلك المساء الذي سبق رحيله، إنّما رَضخَ الحاكمُ لفكرةِ

رؤية السّجين، بعد حديث طويل وسّريّ مع الكونتيسّة دالفيلد. وحين ذهب إلى القصر، كانت فكرةُ مصالحِ الدّولةَ، والفائدة التي يمكن للعديد من أعدائه الشخصيّين أن يجنيها مما سوف يصفونه بإهماله، وربّما أقوال المستشارة الكبيرة المليئة بالدّهاء، كانت قد اختمرت في رأسه، وأوصلته إلى الصّلابة. كان قد صعد إذن إلى برج ليون دوسليسفيغ الرئيس، وهو يحمل مشاريعَ متشدِّدة. وكان يَعدُ نفسه بأن يكون إلى جانبِ المتآمر شوماكير، وكأنه لم يعرْف قطّ المستشارَ غريفنغلد، وأن يتجرَّدَ عن ذكرياته كلّها، وعن طبعه في النّهاية، وأن يتكلّم كقاضٍ لاينثني مع هذا الزّميلِ القديم، زميل الحظوةِ والقوّة.

ومع هذا، فما إن دخلَ إلى شقة المستشار السّابق حتى أصابَه التأثُّر، حين رأى وجهَ العجوزِ الجليل، والكئيب مع ذلك. أما الوجُه الرَّقيقُ، برغم أَنفَته، وجهُ إيتيلٍ فقد أثار عطفه. فما كان من المظهر الأوّل للسّجينين إلاّ أن بدَّدَ نصفَ تشدُّده.

تقدّم نحو الوزير المخلوع، ومدّ له يدَه لا إرادياً، وهو يقولُ من غيرِ أن يلاحظِ أنّ الآخر لم يردّ على كياسته:

– مرحباً، أيها الكونت غريفنفـ. . .

كانت تلك مفاجأةَ عادةٍ قديمةٍ اعتادها، فاستدركَ على عجلٍ قائلاً:

– يا سيّد شوماكير. . . !

ثم توقّف، وقد أرضاه هذا الجهدُ الذي قام به وأرهقه، فأعطى نفسه استراحة. لقد كان الجنرال يبحثُ في رأسه عن كلماتٍ جدّيةٍ إلى حدّ كافٍ، ويمكنها بصورة لائقة أن تنسجم مع قسوةِ تلك البداية.

وقال شوماكير أخيراً:

– وإذن، فأنت حاكمُ دورنتهايموس؟

أمّا الجنرالُ الذي بوغت قليلاً من أن يجد نفسه موضعَ سؤالٍ على يدِ ذلك الذي كان يستجوبُه منذ قليل، فقد أومأ بالإيجاب.

فتابع السّجين:

– في هذه الحالة، لديّ شكوى أُقدِّمُها إليك.

– شكوى! وما هي؟ ما هي؟

اتّخذ وجهُ الشّهم لوفان تعبيراً ينمُّ عن الاهتمام، وتابع شوماكير بلهجةٍ متبرّمة:

– إن أمراً من نائبِ الملك يوصي بأن أُتركَ حُرّاً وشأني في هذا البرج...!

– أعرفُ هذا الأمر.

– يا سيّدي الحاكم، مع ذلك، فهناك من يسمح لنفسه بمضايقتي، والدَّخولِ إلى سجني فهتفَ الجنرال:

– وماذا إذن! سمِّ لي ذلك الذي يجرؤ...

– أنت، يا سيّدي الحاكم.

جَرَحت هذه الكلماتُ التي نطقَ بها شوماكير بلهجةٍ متعاليةٍ، جرحت الجنرال، فأجاب بصوتٍ ساخطٍ إلى حدٍّ ما:

- أنت تنسى بأن سلطتي لا تعرفُ حدوداً، حين يتعلّق الأمرُ بخدمةِ الملك.

فقال شوماكير:

- إن لم تكن تلك الحدودُ هي حدودَ الاحترامِ المتوجّبِ علينا تجاه الشّقاء. غير أن النّاس لا يعلمون ذلك.

هكذا كان المستشارُ السّابق يتكلّم، وكأنّه يكلّم نفسه، فسمعه الحاكمُ، وقال:

- إذا كان ذلك حقاً! إذا كان ذلك حقاً! لقد أخطأتُ، أيها الكونت دوغريف...

أعني، أيها السّيد شوماكير. كان ينبغي أن أدَعَ لك الغضَبَ، بما أنني أمتلكُ السّلطةَ.

فصمتَ شوماكير للحظةٍ من الزمّن، وتابَعَ متفكرّاً:

- إن في وجهك، وفي صوتِك، يا سيّدي الحاكم شيئاً من رجلٍ قد عرفتهُ قديماً. فمنذ زمنٍ بعيدٍ حقاً، وما من أحد يتذكّر ذلك الزّمن غيري. وكان ذلك في فترةِ ازدهاري - وكان ذلك الشّخص يُدعى لوفان دوكنود. وهو من ماكلينبور. فهل عرفتَ ذلك المجنون؟

فردّ الجنرالُ من غير أن يُبدي تأثرّاً:

- لقد عرفتُه.

– آه، أنت تتذكَّره. كنت أظنُّ أن المرءَ لا يتذكّر الناسَ في زمنِ الشدَّة.

وتابع الحاكمُ قائلاً:

– ألم يكن نقيباً بسيطاً. مع أن الملكَ كان يحبُّه كثيراً، غير أنه لم يكن يفكّر إلاّ بالمسرّات، ولم يكن يُبدي طموحاً. لقد كان عقلاً ميّالاً إلى الشّطط، على نحوٍ فريد. فهل يمكننا أن نتخيَّلَ وجودَ اعتدالٍ في الرّغباتِ لدى محظّيِّ الملك؟

– ولكن هذا أمرٌ يمكن تَخيُّله.

– لقد كنت أُحبُّه، ذلك المدعو لوفان دوكنود. لأنه لم يكن يقلقُني؛ فقد كان صديقاً للملك مثلما هو صديقٌ لشخصٍ آخر. وكأنه لم يكن يحبّه إلاّ لرغبةٍ خاصّةٍ لديه، وليس من أجل حظّهِ الطيّب.

أراد الجنرال أن يقاطعَ شوماكير. غير أن هذا الأخيرَ قد واصل كلامه بشيء من العناد، إمّا لرّوح المخالفةِ لديه، وإمّا لأنَّ الذّكرياتِ التي استيقظت عنده قد راقت له في الحقيقة.

– بما أنك قد عرفتَ ذلك النقيبَ لوفان، يا سيّدي الحاكم، فأنت تعلمُ، دون شكّ بأنه كان له ابنٌ ماتَ وهو لا يزالُ فتىً. ولكن هل تتذكرّ ماذا حَدَث عند ولادةِ ذلك الابن؟

فقال الجنرال، وهو يُخفي عينيه بيده، وبصوتٍ متغيّر:

– إني أتذكرّ أكثر من ذلك أيضاً ما حدث عند موته.

فتابع شوماكير غير المكترث:

- ولكن تلك واقعةٌ معروفةٌ من عددٍ قليلٍ من الأشخاص، وهي يصَفُ لك غرابة تصرُّفاتِ هذا المدعو لوفان كلِّها؛ فقد كان الملكُ يريدُ أن يعّمد الطّفل. فهل تصدِّق بأن لوفان قد رفض؟ وقد صنع فعلاً أكثر من ذلك. اختار عرّاباً لابنه متسوّلاً عجوزاً كان يجرُّ قدميه عند أبوابِ القصر. ولم أتمكن قطّ من أن أفهم الدّافع لمثلِ ذلك العمل الجنونيّ.

فأجاب الجنرال:

- سأقول لك. إن ذلك النّقيب لوفان، حين اختار حامياً لروحِ ابنه، كان يرى بلا شك أن فقيراً هو أكثر اقتداراً لدى الرّبّ من ملك.

ففكرّ شوماكير للحظةٍ من الزّمن، وقال:

- أنت على حقّ.

وأراد الحاكمُ أيضاً أن يُعيد الحديثَ إلى هدفِ زيارته، ولكنّ شوماكير أوقفه.

- تكرُّماً منك. إذا كان صحيحاً أن المدعوّ لوفان الذي يقطن ماكينبور ليس مجهولاً لديك، فدعني أتحدث عنه فمن بين كلِّ الرّجال الذين عرفتُ في أزمنةِ رفعتي، هو الوحيد الذي لا تحملُ لي ذكراه الاشمئزازَ والفظاعة. ولئن كان يدفعُ بالغرابةِ حتى الجنون، فقد كان مع ذلك، من خلالِ صفاته النبيلة، رجلاً قلَّ أمثالهُ حقّاً.

– أنا لا أرى الرأيَ نفسه؛ فإن هذا المدعوّ لوفان لم يكن لديه شيءٌ يزيدُ فيه عن الرّجال الآخرين. وحتى أن هناك العديدين ممن يَفْضُلونه.

تكتّف شوماكير، ورفع عينيه إلى السّماء، وقال:

– أجل، هكذا هم جميعاً في الحقيقة! فلا يمكن أن نثني على رجلٍ جديرٍ بالمديح أمامهم، حتى يسعوا في الحال إلى تسويدِ صفحته. إنهم يسمّمون حتى الرّغبةَ في الثناء العادل. ومع ذلك، فهو شخصٌ نادرٌ بما فيه الكفاية.

– لو كنتَ تعرفني، لما اتهمتني بتسويدِ سُمعةِ الجـ. . . أعني، النقّيب لوفان.

فقال السّجين:

– دعْني! دعني! فبالنّسبة للاستقامة والمروءة، لم يكن هناك قطّ رجلان مثل ذلك المدعو لوفان دون كنود. أمّا القولُ بخلاف ذلك، فمعناه الافتراء عليه، والثناء بلا حدود على ذلك الجنسِ البشريّ المقيت في آن.

فتابع الحاكمُ، وهو يسعى لتهدئةِ غضبِ شوماكير:

– أؤكد لك أنه ليس لديّ ضدّ ذلك المدعو لوفان دوكنود أيّةُ نيَّةٍ غادرة. .

– لا تقلْ هذا؛ فمع أنه كان فاقداً للرّشاد؛ فإن كلَّ الرّجالِ لا يشبهونه إلى حدّ بعيد. إنهم زائفون، وناكرون للجميل، وحاسدون، ومفترون. هل تعلم أن لوفان دوكنود كان يعطي مشافي كوبنهاغِن أكثر من نصفِ دخله. . . ؟[1]

(١) يمكن مقارنة هذا مع حسابات الأسقف ميرييل (البؤساء، الجزء الأوّل، رقم: ١و٢).

- كنت أجهلُ أنّك مطلعٌ على ذلك.

فهتف العجوز بلهجةٍ ظافرة:

- هذا هو الأمر. كان يأملُ في أن يسيء إليه، وهو في أمانٍ تامٍّ، ومن خلال ثقته بأنني أجهلُ الأعمالَ الحسنة، أعمالَ ذلك المسكين لوفان!

- ولكن لا، ولكن لا...

- أتظنُّ بأنني لا أعرفُ أيضاً بأنه أعطى الفوجَ الذي خصّصه له الملكُ إلى ضابطٍ كان قد جرحه، هو، لوفان دوكنود، في مبارزةٍ، لأن الآخرَ، كما كان يقول، أقدمُ منه؟

- كنت أظنّ أن ذلك العملَّ سرّيّ...

- قلْ لي إذن، يا سيّدي حاكم درونتهايموس، هل يصبحُ ذلك العملُ أقلَّ جمالاً لذلك السّبب؟

ولأنّ لوفان كان يُخفي فضائله، هل يكون هذا مبّرراً لإنكارها؟ أوه! كم يتشابهُ الرِّجالُ جميعاً إذن! فهل يجرؤُ أحدٌ على أن يخلطَ بينهم وبين لوفان، وهو الذي لم يستطع إنقاذَ جنديّ كان مقتنعاً بأنه قد تعمّد اغتياله؛ فقدَّم نفقة لأرملةٍ قاتلة!

- وأيّ شخص كان يمكن ألاّ يفعل الشّيء نفسه؟

وهنا انفجر شوماكير قائلاً:

– من؟ أنت! أنا! كلّ الرّجال، يا سيّدي الحاكم! ولأنك ترتدي بزّة الضّابط اللاّمعة، وأوسمةَ الشّرف على صدرك، فهل تؤمن بأنك تستحقها؟ إنك جنرال، ويمكن لسيءّ الحظّ لوفان أن يموت نقيباً؛ فالحقيقة أنه كان مجنوناً، ولم يكن يفكر بالحصول على ترقية.

– إذا كان لم يفكّر بذلك قطّ؛ فإن طيبةَ الملك قد فكرّت به لأجله.

– الطيّبة! قلْ الإنصاف!، ومع ذلك، فإذا أمكننا أن نقول إنّها عدالةُ ملك، فأيّةُ فكافأةٍ جزيلةٍ قد مُنِحَ إذن؟

– إن جلالته قد دفعت للوفان دوكنود أكثر ممّا يستحقُّ فعلاً.

فهتف الوزير العجوز، وهو يصفّق بيديه:

– بشكلٍ ممتاز! فهل تجرحُ حساستيك، أيّها الجنرال النبيل، هذه الحظوةُ السّاميةُ التي يترقّى بموجبها نقيبٌ مخلص، ربّما بعد ثلاثين عاماً من الخدمة، إلى رتبة رائد؟ ولقد كان المَثَلُ الفارسيُّ على حقّ قال إن الشّمسَ الغاربة تغارُ من القمرِ الطّالع.

كان شوماكير ساخطاً إلى حدٍّ كبير، بحيث أن الجنرال قد تمكن بصعوبة من أن يُسمِعَه هذه الكلماتِ:

– إذا قاطعتني باستمرار . . . فلسوف تمنعني من أن أوضحَ لك . . .

فتابعَ الآخرُ:

– كلاّ، كلاّ. كنت أظنُّ، يا سيّدي الجنرال، بأنيّ ألتقطُ للوهلةِ الأولى

بعضَ سماتِ التّشابه بينك وبين الطيّب لوفان، ولكن، هيّا! ليس هناك أيٌّ منها.

– ولكن، اصغِ لي . . .

– أصُغي إليك! لكي تقول لي إن لوفان دوكنود غيرُ جديرٍ بمكافأةٍ بائسة معينة . . .

– أقسمُ لك بأنه ليس . . .

– سوف تصل إلى ذلك بعد قليل. فأنا أخمّن مرادكم، أيها الرّجال، بأن تؤيدّوني حين أقول إنه مثلكم جميعاً، مخادعٌ، ، ومنافقٌ وشرير . . .

– في الحقيقة، لا.

– وما يدريني؟ فلربّما يكون قد خان صديقاً، واضطهدَ محسناً، كما فعلتم جميعاً . . .؟ أو يكون قد سمّمَ والده، أو اغتالَ والدتَه . . .؟

– إنك على ضلال . . . فأنا لا أريدُ . . .

– هل تعلمُ أنّه هو الذي أقنع نائبَ المستشار فيند، وكذلك شيل، وفندينغ، والقاضي الاقطاعي لاسّون الذين حاكموني بعدم إعطاء رأيهم لصالح حكم الإعدام؟ وتريدُ أن أسمعك وأنت تفتري عليه بدم بارد! أجل، هكذا تصرَّف نحوي. ومع ذلك، فلطالما كنتُ أسيءُ إليه أكثَّر مما كنتِ أحْسن، لأني مثلُك خسيسٌ وشريرٌ.

كان لوفان الشهّم يشعرُ، طيلةَ هذا الحديثِ الغريب، بانفعالٍ فريد. وبما أنه قد أصبح محطّ الإهاناتِ الأكثر مباشرة، والثناء الأكثر صدقاً، فهو لم يعدْ

يعرفُ أيّة رباطة جأشٍ يواجهُ بها مجاملات قاسيةٍ إلى تلك الدّرجة ، والكثيرَ من الشتائم المتملّقة . لقد كان مصدوماً وميّالاً إلى التلطُّف . فحيناً ، كان يودُّ أن يغضبَ ، وحيناً ، يودُّ أن يشكرَ شوماكير . وبما أنه حاضرٌ ومجهول؛ فقد كان يحبّ أن يرى شوماكير المخيفَ يدافعُ في شخصه ، وضدّ شخصه عن صديقٍ وعن غائب؛ إلاّ أنه كان يودُّ أن يضع محاميه مرارةً وحدّةً أقلّ في مديحه . غير أن الثّناءات السّاخطةَ التي امتدح بها النقيب لوفان كانت ، في أعماق نفسه ، تؤثّر به أكثر مما كانت تجرحه الشتائم الموجَهةُ إلى حاكم دورنتهايم . وإذ ثبَّتَ نظرتَه العطوفة على المغضوبِ عليه ، فقد اختار أن يدعه يُطلقُ العنانَ لغضبه ، ويعبّر عن اعترافهِ بالجميل . أما هذا الأخيرُ ، فقد هوى مرهقاً على كنبة ، بين يدي ابنته إيتيلٍ ، في النهاية ، بعدَ خطابٍ طويلٍ هجائيّ ضدّ نكرانِ الجميلِ البشريّ ، وهو يقولُ بصوتٍ أليم:

– أيّها النّاسُ ، ماذا فعلتُ لكم إذن حتى تشهرّوا بي؟

لم يكن الجنرال قد تمكّن بعد من أن يصلَ إلى الموضوع الهامّ لنزوله إلى مونكولم . وكان قد رجع إليه كلُّ اشمئزازه من تعذيبِ السّجين ، من خلال استجوابٍ معين ، وأخذ يُضاف إلى رأفته وعطفه سببان قويّان إلى درجة كافية؛ فحالةُ الاضطراب التي وقع فيها شوماكير لم تترك مجالاً للأملِ بأنهّ يمكنُه أن يجيبَ بطريقة مُرضية ، ومن ناحية أخرى ، لم يكن يبدو للوفانَ الواثق ، وهو يواجهُ المسألةَ بحدّ ذاتها ، بأن رجلاً من مثلِ شوماكير يمكن أن يكون متآمراً . . . ومع ذلك ، فكيف يمكنُه أن يرحل عن دورنتهايم من غير أن يستجوبَ شوماكير؟ ومرّة أخرى أيضاً ، تغلّبت الضّرورةُ المزعجة لموقعه كحاكم على كلّ تردُّداته . وقد بدأ على النّحو التّالي ، ملطّفاً بقدر الإمكان نبرة صوته:

– تفضّلْ بتهدئةِ اضطرابك قليلاً، أيها الكونت شوماكير. إن الإلهامَ هو الذي جعل الحاكم الطيِّب يعثرُ على ذلك النعّت، وكأنما للتوفيقِ بين الاحترام المتوجّب للحكم بالتجريدِ من الألقاب، والمراعاة التي يتطلبّها تعاسةُ من أُنزلت مراتبُه، وذلك بأن يجمع بين لقبه النّبالي واسمَه العاميّ، تابع:

– إنه لواجبٌ شاقّ بالنسبة لي أن آتي...

فقاطعه السّجينُ:

– قبل كلِّ شيء، اسمح لي، يا سيّدي الحاكم، أن أكلّمك ثانيةً عن أمرٍ يهمّني أكثر بكثير مما يمكن لسعادتك أن تودّ قوله لي. فقد أكدّت قبل قليل أنهم كانوا قد كافؤوا هذا المجنونَ المدعو لوفان على خدماته، وأرغبُ بشدّةٍ أعرفَ كيف.

– إن جلالته، أيّها السيّد دو غريفنفلد، قد رفّع لوفان إلى رتبة جنرال، ومنذ عشرين عاماً، وهذا المجنونُ يشيخُ بهدوء، مكرَّماِ بذلك المنصبِ العسكريّ، وبُحسن التفاتِ ملكه.

فخفض شوماكير رأسَه، وقال:

– أجل، إن هذا المجنون لوفان الذي قلّما كان يعباُ بأن يشيخَ وهو نقيب، سوف يموتُ جنرالاً. أما العجوزُ شوماكير، الذي كان يحسبُ أنه سيموتُ مستشاراً أكبر، فيشيخُ وهو سجينٌ من سجناء الدّولة.

حين تكلّم السّجينُ على هذا النّحو، غطىّ وجهه بيديه، وأخذت زفراتٌ

طويلةٌ تُفلتُ من صدره العجوز. أما إيتيل التي لم تكن تفهمُ من الحديث إلاّ ما يحُزنُ والدَها، فقد سعت في الحال إلى التسّريةِ عنه.

- يا والدي، انظرْ إلى هناك إذن، في الشّمال. إننا نرى ضوءاً لم ألاحظه في الأمسياتِ السّابقة.

كان الليلُ الذي هبط تماماً، في الحقيقة، يبرزُ في الأفق ضوءاً ضعيفاً وبعيداً، يبدو وكأنّه منطلقٌ من قمّة أحد الجبال القصيّة. غير أن عينَ شوماكير وذهنَه لم يكونا يتوجّهان باستمرار مثل عينِ إيتيل وذهَنها نحو الشّمال؛ فلم يجب أيضاً. وكان الجنرالُ وحده هو الذي دُهِشَ من ملاحظة الفتاة - وقال في نفسه: ربّما يكون هذا ناراً يوقدُها المتمرّدون. وقد ذكرّته هذه الفكرة بهدفِ حضوره إلى هنا؛ فوجّه الكلامَ إلى السّجين، وقال:

- أيها السّيد غريفنغلد، يُسيئني أن أزعجك، ولكن ينبغي أن تَخَضع...

- إنيّ أفهم، يا سيّدي الحاكم، بأنه لا يكفي أن أقضي أيامي في هذا البرج، وأن أعيشَ ذاوياً ومتروكاً، وألاّ يبقى لي إلاّ ذكرياتٌ مريرةٌ عن العظمةِ والاقتدار، فينبغي أيضاً أن تنتهكوا عزلتي لكي تتقصّوا آلامي، وتستمتعوا بسوء حظيّ. وبما أن ذلك الشهّمَ لوفان دوكنود الذي ذكرَّتني به بعضُ السّماتِ الخارجية لشخصك، قد أصبح جنرالاً مثلك، فقد كان أمراً مفرحاً للغاية بالنسبة إليّ لو أَعطوه المنصبَ الذي تشغلُه، لأنّه ليس هو الذي أتى ليزعج منكوداً في سجنه، وأقسمُ على ذلك، يا سيّدي الحاكم.

أثناء مسارِ هذا الحديثِ العريب، كان الجنرالُ غير مرّةٍ على وشكِ أن يعرِّف عن نفسه لكي يوقفَ هذا الحديث. ولكن اللّوم المباشر، لومَ شوماكير، قد نزع منه قدرته على ذلك. وكان ذلك اللّومُ يتناغمُ مع مشاعرِه الدّاخلية، بحيث أوحى له بما يشبهُ شعوراً بالخجل من نفسه. ومع ذلك؛ فقد حاول أن يجيبَ على فرضية شوماكير الثّقيلة الوطأة. إنه لأمرٌ غريب! كان هذان الرّجلان قد غيّرا موقفهما بصورةٍ متبادلة، من خلال اختلافِ طبعهما وحده! فالقاضي قد آل به الأمرُ إلى تبريرِ مسلكه بشكلٍ ما أمام المتهمّ، إذا صحّ القول. وقال الجنرال:

– ولكن إذا ما أجبره الواجبُ على ذلك، فلا تشكّ بأن لوفان دوكنود.

فهتف شوماكير:

– أشكّ في ذلك، أيها الحاكمُ الشهّم. فلا تشكّ أنت نفسك بأنه كان يمكن له أن يرفضَ، بكلّ الغضبِ النّبيل لروحه، العملَ المتمثّلَ في مراقبةِ عذابات سجينٍ عاثرِ الحظ، وفي زيادتها! هيا! فأنا أعرفُه أفضل مما تعرفه؛ فلم يكن ممكناً في أيّةِ حالَ أن يقبل القيامَ بوظائف الجلاّد – والآن، يا سيّدي الجنرال. إلي مُصغٍ إليك. فافعلْ ما تسميّه واجبك. فما الذي يريدُه مني صاحبُ المعالي؟

كان الوزيرُ العجوزُ يحدّقُ بالحاكم بنظرةٍ مفعمة بالأنفة؛ فسقط كلُّ ما كان قد عزم عليه هذا الأخير، واستيقظت لديه كلُّ ضروبِ النّفور والاشمئزاز الأولى، وقد استيقظت بصورةٍ لا تقهر.

وكان يقولُ في نفسه:

– إنه على حقّ؛ فما معنى أن يأتي المرءُ ليزعج منكوداً بناءً على مجردِ الظّنون! فليكلَّفْ شخصٌ آخر غيري بذلك!

كان تأثيرُ هذه الأفكار عليه سريعاً؛ فتقدّم نحو شوماكير الذي اعترته الدّهشةُ، وصافحه، ثم خرج على عجل، وقال:

– أيّها الكونت شوماكير. حافظْ باستمرار على التقّديرِ نفسه للوفان دو كنود.

الفصل الخامس والعشرون

الأسد: هوه!

تيزيه: لقد زأرتَ جيداً، أيّها الأسد!

(شكسبير، الحلم الصيّفي)

يسمونني الذّئب ذا العينين المتوقّدتين، وأنا
أسيرُ في القفارِ المنعزلة

إيدا

تكلّمت ريجين: ها أنت سعيدٌ، يا سيغوردور، ومتألقٌ في انتصارك. وفيما كنت تنظّف سيفك غرامر بالأعشاب، قتلتَ ابني، غير أني كنت السّببَ جزئياً في ذلك. فاجلسْ هناك، وحافظْ على قلبِ فانفير قريباً من النار. فأنا أريدُ أن آكلَ قلبه بعد أن شربتُ دمه.

تكلّمت أنثى النّسر: ها هو سيغوردور. إنّه جالسٌ ومضرّجٌ بالدّم،
إنه يشوي قلبَ فانفير في النّار... فليرسلْ إلى الجحيم هذا
الثّرثارَ ذا الشّعر الأشيب، بأن يقطعَ رأسَه!

نشيدُ فانفير

قال: انهضْ، فإني قاتلُك مثلما قتلتَ ولدي.

ألف ليلة وليلة، اللّيلةُ الثالثة.(1)

إن المسافرَ الذي يعبرُ في أيامنا الجبالَ المغطّاةَ بالثلج والتي تُحاطُ بها بحيرةُ سميازين مثل حزامٍ أبيض، لا يقعُ الآن على أثرٍ مما كان النرويجيّون في القرن السّابع عشر يسموّنه خرائب أربار؛ فلم يستطعْ أحدٌ قطّ أن يعرفَ عن أيّةِ عمارةٍ بشريّة، وعن أيّ نوعٍ من البناء نشأ ذلك الكّل، إن كان يمكنُ إطلاقَ هذه التسمية عليه. وحين يخرج المرءُ من الغابة التي تغطّي القسمَ الجنوبيّ من البحيرة، بعد أن يتسلّق منعطفاً مزروعاً بشقق الجدران، وبقايا الأبراج، يصلُ إلى فتحة مقبّبة تخترقُ خاصرةَ المرتفع. لقد كانت هذه الفتحةُ التي سدّتها اليوم ردومٌ ترابيةٌ، مدخلاً لنوعٍ من الأروقة المحفورةِ في قلب (الصّخر) التي كانت تخترقُ الجبلَ من جهةٍ لأخرى. إن هذا الرّواق الذي تنيرُه إنارةٌ ضعيفةٌ منافذُ مخروطيةٌ جرى إحداثُها في قبّته، من مسافةٍ لأخرى، كان يؤدّي إلى نوعٍ من قاعةٍ مستطيلة وبيضويّة، محفورة جزئياً في الصّخر، وتنتهي إلى عمارةٍ سلّتية. وحول تلك القاعة. كانت تُلاحَظُ، ضمن مشكاياتٍ عميقة، تماثيلُ صوّانية

(1) لا تحتفظ طبعة راندويل (٣٣٨١) إلاّ بالمقدّمة المقتبسة عن شكسبير.

صغيرة مصنوعةٌ بصورةٍ غير متقنة. وكان عددٌ من هذه التماثيلِ الغامضة، والتي سقطت عن قواعدها، ترقدُ بلا نظام على البلاط، مع أنقاضٍ أخرى لا شكل لها، ومغطاة بالأعشاب والطّحالب، وتتلوّى من خلالها العُظّايةُ والعنكبوت، وكلُّ الحشراتِ القبيحة التي تتولّد من التّراب، ومن الخرائب.

لم يكن النّور يدخلُ إلى ذلك المكان إلاّ من خلالِ بابٍ مثلّث الشّكل يقابلُ ثغر الرّواق وكان يمكنُ أن تُطلقَ على ذلك الباب تسميةُ نافذة، مع أنّه يصلُ حنيّ الأرض، لأنّه ينفتحُ على هوّةٍ هائلة؛ ولم يكن أحد يدركُ إلى أينُ أن تؤدّي ثلاثٌ أو أربعٌ من درجاتِ السلّم، وهي معلّقة فوق الهوّة من الخارج، وتحت ذلك المخرج الفريد. (١)

كانت تلك القاعةُ هي الجزءَ الداخليّ لنوعٍ من بُريج عملاق، كان يبدو، من البعيد، وإذا نُظِرَ إليه من ناحية الهوّة، وكأنه إحدى شعافِ الجبل.

---

(١) الرّؤية الأولى، التي لا تزال تقريبيّة للعالَم البيرانيزي (نسبة إلى بيرانيز، المعمار الإيطالي، والنقاش) والذي سوف يتخيّله فيكتور هيغو في عام ١٨٣٩، في قصيدته: آبار الهند (الأشعة والظلال، رقم: ٣١)

يا آبارَ الهند! أيّتُها القبور! أيتها الصّروحُ المزخرفة!
أنت التي لا يَعرِض داخلُها، على النظراتِ المضطربة،
سوى كومةٍ مدوّمة من الدّرجات ومساندِ الأدراج،
أيتّها الزنزاناتُ الباردة، والممراتُ التي تلتمع فيها المصابيحُ...
وركامُ الجدرانِ، والعزفُ، وأقراص الدّرج،
حيث تنهار مصادفةً هاويةٌ من الأدراج!

والفكرةُ هي أن الفنّ – باعتباره لا يكون البتة إلاّ نتيجةَ «تأمّلٍ مسبق وغير متعمَّد» – لا يحيا إلاّ بنوعٍ من التواطؤ مع «المصادفة» التي تدخلُ في نطاقها عمارةُ المواقع الكبرى الطبيعيّة، كما يدخلُ جمالُ الخرائبِ. إنها أشياءٌ مبهمةٌ من حيث أنها تمحو الحدَّ بين الطبيعة والفنّ. وهنا تتفكّك كيانيةُ الموضوع الجماليّ التقليديّة، كما وضعها أفلاطون. تلك هي نزعةُ هيغو «الطبيعية»، لكي يصبحَ «صوتاً من أصواتِ الطبيعة»؛ فالشّاعرُ لا يقلّدُ الواقعَ بل يصنعُ مثله (بول فاليري: أوبالينوس، أو المعمار، ١٢٩١، وبلومبرغ: «سقراط وموضوعهُ المبهم» وجان غودون: زمن التأمّل ٩٦٩١، الصفحات ٦٨، وما يليها).

كان ذلك البُريجُ منعزلاً ، وكما قلنا ، لم يكن أحدٌ يدري إلى أيّ مبنىً ينتمي . إلاّ أنه يلاحظ فوقه ، وعلى هضبةٍ لا يصل إليها أكثر الصّيادين جسارة ، كتلة يمكن للمرء أن يظنّها صخرةً ملتوية ، أو بقايا رواقٍ مقنطرٍ هائل . وذلك بسبب بعدها – إن هذا البُريجَ ، وهذا الرّواق المقنطر المنهارَ كانا معروفين لدى الفلاّحين باسم أطلالِ أربار . ولم نعد نعلمُ مصدرَ الاسم أكثر مما نعلم أصلَ الأثر .

على ذلك الحجر الذي يقعُ وسطَ تلك القاعة الإهليلجيّة الشّكل ، كان يجلسُ رجلٌ قصيرٌ القامة(١) يرتدي جلودَ الحيوانات ، وقد تسنى لنا أن نلتقيه عدداً من المرات في سياقِ كتابنا . إنه يديُر ظهره للضوّء ، أو على الأصحّ ، للغسقِ الباهت الذي يدلفُ إلى البرُيج المعتم ، خلال فترةِ سطوعِ الشمسّ عند الظهيّرة .

إن هذا الضّوءَ ، وهو الضّوءُ الأشدُّ الذي يمكن أن يُنير البرجَ من داخله ، بصورةً طبيعيّة ، لا يكفي لكي يتمكّن المرءُ من أن يميّز طبيعة الشيء الذي ينحني عليه الرّجلُ القصيرُ . إننا نسمعُ بضع أنّاتٍ مكتومة ، ويمكن أن نحكم بأنها تصدر عند ذلك الجسم ، بناءً على الحركاتِ الضعيفة التي يبدو أنه يقومُ بها من وقتٍ لآخر . أحياناً ، يعتدل الرَّجلُ القصير في وضعيّته ، ويرفع إلى شفتيه ضرباً من قدحٍ يبدو شكلهُ شبيهاً بجمجمةٍ بشرية ، وهو مملوءٌ بشرابٍ داخنٍ لا يمكن أن نرى لونه ، وهو يتذوّقهُ برشفاتٍ طويلة .

---

(١) انظر الفصول (٢٢ ، ١٩ ، ٢١ ، ٨ ، ١– إنه أوّلُ مثالٍ في هذه الرّواية لاستخدام زمنِ الحاضر المسمى (زمن الحكاية) . ويرجع تأثير هذا الاستخدام إلى قيمته التوفيقية . وإلى نقلِ الموقفِ الإخباريّ وإلى الانتقال الذي يتيحهُ من القصةِ إلى الخطاب .

في الحال، ينهضُ بصورةٍ مفاجئة.

- أظنُّ أن هناك من يسير في الرّواق، هل وصل مستشارُ المملكتين؟

تعقبُ هذه الكلماتِ قهقهةٌ رهيبة، تنتهي بزمجرةٍ وحشية، فيردّ عليها فجأةً عواءٌ آتٍ من الرّواق.

أستأنف مضيفُ خرائبِ أربار:

- أوه! أوه! ليس هذا رجلاً. إنه عدوّ دائماً. إنه ذئب.

ويخرج، في الحقيقة، ذئبٌ كبيرٌ بصورةٍ مفاجئة من تحت قبّة الرّواق، ويتوقّف للحظةٍ من الزّمن. ثم يقتربُ بشكلٍ منحرفٍ نحو الرّجل، وبطنه على الأرض، ويحدّق به بعينين مضطرمتين، وتقدحان شرراً في العتمة. أمّا هذا الأخير، فيمكثُ واقفاً على الدّوام، ومكتوفَ اليدين، وينظر إليه.

- أه! إنه الذّئبُ العجوز ذو الوبر الرّمادي، أكبرُ ذئاب غابةِ سميازين سنّاً - صباح الخير، أيّها الذئبُ. إن عينيك تلمعان. إنك جائعٌ، ورائحةُ الجثث تجتذبُك - ولسوف تجتذبُ أيضاً الذئاب الجائعةَ بعد قليل - فأهلاً بك، يا ذئبَ سميازين. طالما رغبتُ في لقائك. إنك عجوز إلى درجةٍ لا تستطيعُ معها أن تموت، كما يُقال.

- لن يقولوا ذلك غداً.

أجاب الذئبُ بعواءٍ مرعب، وقام بقفزةٍ فجائيّةٍ إلى الخلف، وانقضّ بوثبةٍ واحدةٍ على الرّجلِ القصير.

أمّا هذا الأخيرُ، فلم يتراجعْ خطوةً واحدة. وبسرعة البرق، قبض بيده على بطنِ الذئب الذي كان منتصباً أمامه، وكان قد ألقى بقائمتيه الأماميتين على كتفيه؛ وباليد اليسرى، حمى وجهة من شدق عدوّه الفاغر، وذلك بأن أمسك حلقومه بقوةٍ كبيرة، بحيث أن الحيوانَ الذي أُجبر على رفعِ رأسه، لم يستطع أن يُطلقَ صرخةَ ألمٍ واحدة.

فقال الرَّجلُ منتصراً:

- يا ذئبَ سميازين، إنك تمزّقُ سترتي، ولكن جلدَكَ سوف يحلُّ محلَّها.

في اللحظة التي كان الرّجلُ يخلطُ هذه الكلمات الظافرة ببعض الكلمات من أُرغةٍ غريبة، جعله جهدٌ تشنجيّ صادرٌ عن الذئبِ المحتضر، جعله يعثرُ بالأحجارِ التي كانت منثورةً في القاعة. فسقط كلاهما، واختلطت زمجراتُ الرّجلِ بعواءاتِ الحيوان.

وإذْ أُجبر الرَّجلُ القصير على إفلاتِ حلقومِ الذئب، أحسّ بأن أسنانَه القاطعة أخذت تنغرزُ في كتفه، عندما اصطدم المتصارعان بكتلةٍ ضخمةٍ بيضاءِ كثيرة الوبر كانت ترقدُ في الجزءِ الأكثر عتمةً من القاعة، وهما يتدحرجان، كلٌّ منهما فوق الآخر. لقد كانت تلك الكتلة دبًّا استيقظَ من نومه الثقيل وهو يدمدمُ. وما كادت العينان الكسولتان، عينا الشخصية الجديدة، تنفتحان بصورةٍ كافية، بحيث أمكن للشخصية أن تتبيّن الصّراع، حتى انقضت بضراوةٍ، ولكن ليس على الرّجل، بل على الذّئب الذي كان يحرزُ الظَّفَر في تلك اللحظة،

وأمسكت به إمساكاً قويّاً بشدقه، ومن منتصف جسمه، فحررت بهذه الصّورة المصارعَ ذا الوجه البشريّ.

أما هذا الأخير، فلم يظهرْ إطلاقاً ممتنّاً لمثلِ تلك الخدمةِ الكبيرة، فنهض مضرَّجاً بدمه تماماً، وانقضّ على الدّب وسدّد له ركلةً شديدةً في بطنه، مثلما يضربُ السّيد كلبه حين يرتكبُ خطأً معيناً.

– فريند! من الذي يناديك؟ وبماذا تتدخّل؟

كانت تلك الكلماتُ تتخلّلها عباراتُ تعجّبٍ حانقةٍ، وصريرُ أسنان.

وأضاف الرّجلُ مزمجراً:

– اذهبْ من هنا!

أما الدّبّ الذي كان قد تلقى ركلةَ الرَّجل، وعضّةَ الذئب في آن، فقد صدرت عنه همهمةٌ شاكية؛ ثم خفضَ رأسَه الثقيل، وأفلت الحيوانُ الجائعُ الذي هاجمَ الرَّجلَ بغضبٍ مسعورٍ جديد.

وفيما كان الصّراعُ يتواصلُ، رجع الدُّبّ الذي خمدت هّمتُه إلى المكان الذي كان ينام فيه وجلس برصانة، تاركاً نظرته غير المكترثة تطوف على العدوّين الغاضبين، والتزم الهدوءَ الأكثرَ وداعةً، وذلك بأن أخذ يمرِّرُ كلاًّ من قائمتيه الأماميّتين بصورةٍ متناوبةٍ على طرفِ خُطمه الأبيض.

إلاّ أن الرَّجلَ القصيرَ، وفي اللحظة التي رجع فيها عميدُ ذئابِ سميازين إلى الهجوم، كان قد أمسك خطمَ الحيوان الدّامي، وتوصّل من خلال جهدٍ

خارقٍ بذلته قوّتهُ ومهارتُه إلى حبسِ شدقِ الحيوان بكامله في يده. فأخذ الذّئبُ يتخبّط باندفاعاتِ غضبٍ وألم؛ وأخذ زبدَ كابٍ يسقطُ من شفتيه المضغوطتين، أما عيناه اللتان كأنّما تورّمتا من الغضب، فقد كانتا تبدوان خارجتين من محجرهما. ومن بين الخصمين، فإن ذلك الذي هرست عظامه الأسنانُ الحادّة ومزّقت لحمه الأظفارُ الملتهبةُ فلم يكن الرّجلَ، بل الحيوانَ المفترس، وذلك الذي كان لعوائه النبرةَ الأكثر وحشيةٍ، والتعبيرَ الأكثرَ إثارةٍ للخوف، فلم يكن الحيوان المتوحّش، بل الرّجل.

وأخيراً، فإن هذا الأخيرَ الذي استجمع كلَّ قواه التي أنهكتها مقاومةٌ الذّئب العجوز الطّويلة؛ فقد ضغط الخطم بيديه الاثنتين، وبقوّة كبيرة، بحيث انبحسَ الدَّمُ من منخري الحيوان وشدقه، فانطفأت عيناه المتوقّدتان، وانغلقتا جزئياً، فترنّح، وهوى بلا حياةٍ عند قدمي قاهره. وكانت الحركةُ الضّعيفة والمتواصلة لذيله، والارتعاشاتُ التشنجيّةُ والمتقطّعة التي كانت تسري في جسده كلّه، كانت تُنبئ وحدَها بأنه لم يمتْ بعدُ تماماً.

وفي الحال، هزَّ الحيوانَ المشرفَ على الموت تشنجٌ أخير، وتوقفت عنده علاماتُ الحياة.

فقال الرّجلُ القصيرُ وهو يدفعُه بقدمه باحتقار:

— ها أنتَ ميت، أيها الذئب صيّاد الأيائل! هل كنت تظنّ أن الشيّخوخة ستمتّد بك أكثر بعد أن التقيتني؟ لن تعدو بعد الآن بخطوات مكتومة على الثلج، وأنت تتبع رائحة الفريسة وآثارها؛ ها أنت نفسك قد أصبحت طيّب المذاق

للذئاب والنّسور. لقد افترستَ العديد من المسافرين التّائهين حول سميازين أثناء حياتك الطويّلة، حياة القتلِ والذّبح. أما الآن، فأنت نفسُك ميت، ولن تأكلَ بشراً بعد الآن، وهذا أمرٌ مؤسف.

تسلّح بحجرٍ قاطع، وجثا على الجسم الحارّ والمختلج، جسم الذئب، وقطع مفاصلَ الأطرافِ. وفصل الرّأسَ عن الكتفين، وشقَّ الجلدَ على طوله كلِّه من ناحية البطن، وفصله مثلما ينزعُ المرءُ سترةً. ولم يعد يظهر للعيان من ذئب سميازين المخيف، في لمح البصر، غيرُ هيكلٍ مجرّد ومضرّج بالدّماء، وألقى بذلك الجلدِ المسلوخ على كتفيه اللتين جرّحتهما عضّاتُ الذّئبِ. مديراً إلى الخارج الجهةَ العاريةَ من الجلد الرّطب والملطّخِ بعروقٍ طويلةٍ من الدَّم.

ودمدم قائلاً بصوتٍ هامس:

– ينبغي حقاً أن يكتسي الإنسانُ بجلدِ الحيوانات، فجلدُ الإنسان أكثر رقّةً من أن يقيه من البرد.

فيما كان يتحدّثُ على هذا النحّو مع نفسه، وهو أكثرُ قباحةً أيضاً تحت غنيمته، كان الدُّبّ الذي ضجرَ بلا شكّ من بطالته، قد اقترب كأنما خلسةً من الشّيء الآخر الرّاقدِ في العتمة، والذي تحدّثنا عنه في مطلع هذا الفصل. وفي الحال، تعالى من ذلك الجزءِ المظلم من القاعةِ صوتُ أسنانٍ مختلط بأنفاسٍ مكروبة ضعيفةٍ وأليمة – فاستدار الرّجل القصير، وصرخ بصوتٍ متوعّد:

– فريند! آه! أيها التّعس فريند! – هنا، تعال إلى هنا!

وما إن التقط حجراً كبيراً حتى رماه على رأسِ الوحشِ الذي دوّخته الصّدمةُ، فابتعد ببطءٍ مكرهاً عن وليمته، وأتى، وهو يلمسُ شفتيه الحمراوين،

ليسقطَ لاهثاً عند قدمي الرّجل القصير الذي كان يرفعُ نحوه رأسه الضخم، ويقوِّسُ ظهره، وكأنه يطلبُ العفوَ عن تطفُّله.

حينئذ، حدث بين الوحشين، لأنه يمكننا حقّاً أن نطلق هذا الاسم على ساكنِ خرائبِ أربار، حدث تبادلٌ للزّمجرات المحمّلة بالمعنى؛ فقد كانت زمجراتُ الرّجلِ تعبرّ عن سلطةِ الغضب، وزمجراتُ الدّبّ عن التوسّلِ والخضوع.

وقال الرُّجلُ أخيراً، وهو يشيرُ بإصبعه المعقوفةِ إلى جثةِ الذئب المسلوخة:

– خذْ، هذه هي طريدتُك؛ فدعْ لي طريدتي.

أما الدّبُّ؛ فبعد أن اشتمّ جسمَ الذئب، هزّ رأسه باستياء، وأدارَ نظرته نحو الرّجل الذي كان يبدو أنّه صاحبه.

فقال هذا الأخيرُ:

– أفهم ما تعني. إن زمناً أكثر من اللاّزم قد مضى على موتِ هذا الشّيء بالنسبة إليك، فيما لا يزالُ الآخر يختلجُ. – إنك مرهفُ الذّوق في ملذّاتك، يا فريند، مثل إنسان: تريدُ أن يكون غذاؤك لا يزال حيّاً في اللحظة التي تمزّقه فيها؛ فأنا لا أتلذّذ إلاّ بما يتألّم، ونحن متشابهان – لأني لستُ إنساناً يا فريند، فأنا فوق هذا الجنسِ البائس[1]. فأنا حيوانٌ شرسٌ مثلك. وأودّ لو أنك تستطيعُ الكلام، يا رفيقي فريند، لكي تقول لي إن كان يعادلُ سروري السّرورُ الذي

(١) كلمة بائس: «Misérable» بالمعنى الذي يحدَّد فيما بعد بدقة، وهو: شرير ومنكود الحظ. ولعلّ هذه هي الكلمة المفتاحية للعمل الرّوائي كلّه؛ «فهي ترجع باستمرار لتصف شخصياته، إمّا لترثي لمصيرها: «البؤساء المساكين»، كما يقول أوردينر، وهو يتكلّم على المتمردّين (الفصل: ٣٤)، وإمّا لكي يستفظعَ سوءَ صنيعها: «بائس؛ أنت تريدُ أن تكون قاتلاً لأخيك؟» هكذا يصيحُ موسويمون بأخيه الجلاّد. (الفصل:٥) (إيف غوان).

يختلج في أحشائك ، حين تلتهمُ أحشاءً بشرية ، ولكن لا ، فأنا لا أودُّ أن أسمعكَ تتكلّمُ خوفاً من أن يذكّرني صوتُك بالصوّتِ البشري ، أجل ، زمجرْ عند قدميّ تلك الزّمجرةَ التي تجعل راعي الماعز التائه يرتعدُ في الجبل . إنّها زمجرةٌ تعجبُني ، وكأنها صوتُ صديق ، لأنها تنبئُه بوجودِ عدوّ . ارفع ، يا فريند ، ارفعْ رأسك نحوي ، والحسْ يديّ بهذا اللّسان الذي شربَ الدَّم البشريّ مرات عديدة – إن لك مثلي أسناناً بيضاء . ومع ذلك؛ فليس الذّئبُ ذنَبك إن لم تكن حمراء مثل جرحٍ جديد ، غير أن الدَّمَ يغسلُ الدّم – ولقد رأيتُ غير مرّة ، من أعماق مغارة سوداء ، فتيات كول وأويلمو يغسلن أقدامَهن الحافيةَ في ماءِ السّيول ، وهنَّ ينشدن بصوتٍ رقيق؛ غير أني أؤثر على تلك الأصواتِ الشجيّة ، وعلى تلك الوجوهِ الصّقيلة شدقَكَ الكثيرَ الوبر ، وصرخاتِك المبحوحةَ ، فهي ترعبُ الإنسان .

حين كان يتكلمُ على ذلك النّحو ، كان جالساً ، وقد ترك يده لمداعبات الوحش الذي يتدحرجُ على ظهره ، عند قدميه ، ويغدقُ عليها بها ، بألفِ طريقةٍ ، مثل كلبٍ صغير يعرضُ كل ألوانِ ظرفه على أريكة صاحبته .

إن الأمر الذي كان أكثرَ غرابةٍ هو الانتباهُ الذّكيّ الذي كان يبدو أنّه يلتقطُ به كلماتِ سيّده ، وكان يبدو أن الكلماتِ الأحاديّة المقطع والغريبة التي كان معلّمه هذا يمزجُ فيما بينها ، كانت مفهومةً لديه ، قبل كلِّ شيء ، وكان يُبدي ذلك الفهمَ بأن ينهضَ فجأة برأسه ، أو بأن يغرغرَ ببعض الأصواتِ المشوّشةِ في داخل حلقه .

وتابع الرَّجل القصيرُ القامة:

– يقولُ الناسُ إنني أهربُ، بيد أنهم هم الذين يهربون مني. إنهم يصنعون بسبب الخوف ما قد أصنعُه انطلاقاً من الحقد... ومع ذلك. فأنتَ تعلمُ، يا فريند، إنه يسرُّني أن ألتقي إنساناً، حين أكونُ جائعاً أو ظامئاً.

وفي الحال، لمح في أعماقِ الرّواق ضوءاً محمّراً يبزغُ، ويزدادُ بالتّدريج، ملوِّناً على نحوٍ ضعيفٍ الجدرانَ القديمة الرّطبة.

– هذا بالضبّط واحدٌ منهم؛ فحين نتكلّم على الجحيم، يُظهِرُ الشيَّطانُ قرنَه.

وأضاف وهو يستديرُ نحو الدّب:

– مهلاً! مهلاً يا فريند، انهضْ!

فانتصبَ الحيوانُ في الحال.

– هيّا! ينبغي حقاً أن أكافئ طاعتك بأن أشبعَ شهيتّك.

وما إن تكلّم الرَّجل على هذا النّحو حتى انعطف نحو ما كان راقداً على الأرض. وسمُع صوتٌ يشبهُ فرقعةَ عظامٍ تحطمّها بلطةٌ؛ إنما لم تكن تختلطُ بها تأوُّهاتٌ أو أنين.

فهمسَ الرّجلُ القصير:

– يبدو أننا قد أصبحنا أكثر من اثنين، نحن الذين نعيشُ في هذه القاعة، قاعة أربار.

– هيا، يا صديقي فريند. أنجزْ وليمتكَ التي بدأتها.

ورمى باتجاه الباب المـثّلثِ الشـكل ما كان قـد نـزعه من الشّيء الممدّد عند قدميه؛ فانـدفع الـدِّبّ نحو تلك الطـريدة اندفاعاً ملهوفاً بحيث أنّ أسرَعَ نظرةٍ ما كان يمكن لها أن تميّز إن كان لتلك المزقةِ، في الحقيقة، شكلُ ساعدٍ بشريّ مغطىً بقطعةِ قماشٍ خضراء تتناسبُ مع لونيّة الزّيّ الذي يرتديه حاملو البنادق في مونكولم.

وقال الرَّجل القصير، وهو يحدّقُ بالضّوء الذي كان يكبرُ أكثر فأكثر -

- ها هم يقتربون، أيّها الرّفيق فريند، فدعني وحدي للحظةٍ من الزّمن... يا هذا... في الخارج!

اندفع الوحشُ المطيعُ باتجاه البابِ المثّلث الشّكل، ونزل الدرّجاتِ الخارجيةَ القهقرى، وتوارى، حاملاً في شدقِه طريدتَه التي تقطرُ دماً، وهو يعوي دلالةً على الرّضى.

وفي اللحظة ذاتها، ظهر رجل طويلٌ إلى حدّ كافٍ، في مخرج الرّواق الذي كانت لا تزالُ أعماقه المتعرجة تعكس ضوءاً غيرَ واضح المعالم. وكان ذلك الرّجل متلفعاً بمعطفٍ طويلٍ بنيّ الـلون، ويحمـلُ مـصباحاً لا صوت له. فوجّه بؤرته المضيئةَ اليمنى باتجاه وجهِ الرّجلِ القصير القامة.

أمّـا هـذا الأخير، فـقد كان يجلسُ باستمرارٍ على حَجَره، فكتفَ يديه، وهتف:

- لا أهـلاً بـك، أنت يـا من تـأتي إلى هـنا مـسوقـاً بفكرةٍ معينةٍ، وليس بالغريزة.

ولكن الغريب كان يبدو أنّه يتأمله باهتمام ، من غير أن يجيب . فتابع وهو يرفعُ رأسه:

– لن يكون لديك بعد ساعةٍ من الزّمن نفحةٌ من الصّوت لكي تفاخر بأنّك قد رأيتني .

أما القادمُ الجديد ، فكأنّ وقْعَ المفاجأة عليه كان أشدَّ من وقعِ الذّعر ، حين طافَ بضوءِ مصباحه على شخصِ الرّجلِ القصير بكليّته .

فاستأنف الرَّجلُ القصيرُ بضحكةٍ تشبه صوتَ جمجمةٍ يجري تحطيمُها .

– حسناً ، ما الذي يدهشُك! إن لي يدين ، ورجلين مثلك ، ما عدا أن أطرافي ليست كأطرافك طعاماً للقطط البرّية والغِرْبان .

فأجاب الغريبُ أخيراً بصوتٍ خفيض ، مع أنّه حازمٌ ، وكأنه يخشى فقط أن يُسمعَ من الخارج .

– اسمع ، أنا لا آتي كعدوّ ، بل كصديق . . .

فقاطعه الآخرُ قائلاً:

– فلماذا إذن لم تتجرّدْ عن شكلكَ كإنسان؟

– إن غرضي هو أن أؤدي لك خدمة ، إن كنتَ أنت من أبحث عنه . . .

– أي أن تحصل على خدمة مني ، أيها الإنسان . إنك تضيع جهودَك عبثاً ، فأنا لا أحسِنُ تقديم الخدمة إلاّ لأولئك الذين سئموا الحياة .

فأجاب الغريبُ:

– من خلال كلامك، أتعرَّفك باعتبارك الرجّل الذي يلزمني: بيد أن قامتك . . . إن هان الإيسلنديّ عملاقٌ، ولا يمكن أن يكون أنت.

– هذه هي المرّة الأولى التي يرتابُ فيها أحدٌ بذلك أمامي.

– ماذا! فهو أنتَ إذن!

وأخذ الغريبُ يقتربُ من الرَّجل القصير، ويقول:

– ولكن، يُقالُ إن هان الإيسلندي ذو قامةٍ هائلة . . . ؟

– أضفْ شهرتي إلى قامتي، ولسوف تراني أطول قامةً من إيكلا.

– حقاً! أجبني، أرجوك؛ هل أنت حقاً هان المولود في كليبستادور، في إيسلندا؟

فقال الرّجل القصير القامة. وهو ينهض:

– أنا لا أجيبُ بالكلام على هذا السّؤال.

أما النّظرة التي رمى بها الغريبَ المتهوّرَ، فقد جعلته يتقهقرُ ثلاثَ خطواتٍ.

وردّ الغريبُ بصوتٍ متوسّلٍ تقريباً، وهو يُلقي على عتبةِ الرّواق نظرةً يرتسمُ فيها النَّدمُ على اجتيازه لها:

– إنّ مصلحتَك وحدها هي التي تقودُني إلى هنا . . .

حين دخل القادمُ الجديدُ إلى القاعة، وكلّ ما فعله هو أنه لمحَ ذلك الذي كان يدنو منه لمحاً، استطاع أن يحتفظ بشيءٍ من رباطة الجأش. ولكن، ما إن نهض مضيفُ أربار، بوجهه الفظّ كوجه النّمر، وأطرافه المربوعة، وكتفيه الدّاميتين اللتين يغطيّهما بصعوبة جلدٌ لا يزال طريًّا، ويديه الكبيرتين المسلحتين بالأظافر، ونظرته الملتهبة، حتى أخذ الغريبُ المغامر يرتعشُ، مثل مسافرٍ جاهل يظنُّ أنه يداعبُ سمكة حنكليس، ويشعر بأن ثعباناً قد لدغه.

فكرّر الوحشُ قائلاً:

– مصالحي! هل أتيتَ إذن لكي تعلمني بأنّ هناك نبعاً يُراد تسميمهُ، أو قريةً يُرادُ حرقُها، أو حاملَ بندقية في مونكولم يُراد ذبحُه . . . ؟

– ربّما – اسمعْ. إن عمالَ مناجم النرّويج يقومون بتمرّد. وأنت تعلم كم من الكوارث يجلبُ التمردّ.

– أجل، القتل، والاغتصاب، وتدنيسُ الحرمات، والحريق، والنّهب . . .

– إني أعرضُ عليك كلَّ ذلك.

فأخذ الرّجل القصيرُ يضحك:

– لستُ بحاجةٍ لأن تعرضه عليّ، لكي آخذه.

وجعل الاستهزاءُ الشرّسُ الذي كان يرافقُ هذه الكلمات، جعل الغريبَ يرتعدُ مجدداً، ومع ذلك، فقد واصل كلامه قائلاً:

– أعرضُ عليك ، باسم عمّال المناجم ، قيادةَ التمرُّد .

مكث الرّجلُ القصيرُ صامتاً للحظةٍ من الزّمن . وفي الحال ، اتّخذت سحنتُه القاتمة تعبيراً ينمُّ عن المكرِ الجهنميّ ، وقال:

– هل تعرضُ عليّ ذلك باسمهم؟

بدا أن هذا السؤال قد بلَبلَ القادمَ الجديد . ولكنه تمالك نفسه بسهولة مرةً أخرى ، لثقته بأن محدّثه يجهلُ من هو .

فسأله هذا الأخير:

– لماذا يتمرّد عمال المناجم؟

– لكي يتحرّروا من أعباء الوصاية الملكية .

فكرّر الرّجل الأخر باللهجةِ السّاخرة ذاتها:

– ألهذا الأمرِ فقط؟

– إنهم يبتغون أيضاً تحريرَ سجينِ مونكولم .

فكرّرّ الرجلُ القصيرُ بنبرةٍ شوّشت الغريب:

– هل هذا هو الهدفُ الوحيدُ لتلك الحركة؟

فتمتم هذه الأخيرُ:

– لا أعرفُ البتّة هدفاً آخر!

كانت هذه الكلماتُ تُلفَظُ بالطريقةِ السّاخرة ذاتها؛ فسارع الغريبُ لكي يبدّدَ الإحراج الذي تسبّبه له، إلى سحبِ صرّةٍ ضخمةٍ من تحت معطفه، وليرمي بها تحت قدميّ الوحش.

- هذه هي أتعابُ عملك القيادي.

فدفع الرّجلُ القصيرُ الصّرة بقدمه.

- لا أريدُها. هل تظنّ إذن أنّني لو كنت أرغبُ في ذهبك، أو في دمك، لانتظرتُ إذناً منك؟

فقام الغريبُ بحركةٍ تنمّ عن الدّهشة، وعن الرّعب إلى حدٍّ ما.

- لقد كانت تلك هديّةً كلفني بها عمّال المناجم الملكيونّ لكي...

-قلت لك إنني لا أرغبُ فيها؛ فالذّهبُ لا يفيدُني في شيء، والناسُ يبيعون فعلاً أرواحهم ولكنهم لا يبيعون حياتهم؛ فتؤخَذُ منهم عنوة.

- سأعلنُ إذن لقادةِ عمال المناجم بأن هان الإيسلندي الرّهيب يكتفي بالقبولِ بقيادتهم..؟

- أنا لا أقبل ذلك.

بدا أن هذه الكلمات التي جرى التلفّظُ بها بصوتٍ مقتضب، قد أثّرت تأثيراً غير مستحبّ على مبعوثِ عمال المناجمِ المتمردين المزعوم.

فقال:

- ماذا؟

فردّد الآخرُ:

- كلاّ!

- أنت ترفضُ المشاركة في حملةٍ تقدّمُ لك الكثيرَ من الفوائد!

- بإمكاني أن أنهبَ المزارع، وأدمّر الضيعَ الصّغيرةَ، وأذبحَ الفلاحين أو الجنودَ بمفردي.

- ولكن، تذكرّ بأنك إذا قبلت عرضَ عمالِ المناجم، يصبحُ الإفلاتُ من العقاب مؤمّناً لك.

فسأله الآخرُ هازئاً:

- هل تعدُني بالإفلاتِ من العقاب، باسم عمِال المناجم أيضاً؟

فأجاب الغريبُ بلجةٍ غامضة:

- لا أخفيك أن ذلك باسم شخصيةٍ مقتدرةٍ تهتمّ بالتمرُّد.

- وهذه الشخصية المقتدرة، هل هي واثقةٌ من أنها لن تُشنَق؟

- لو كنت تعرفُها، لما هززتَ رأسَك هكذا.

- آه! حسناً! ومن هي إذن؟

- هذا ما لا يمكنُني أن أقوله لك.

فنقدم الرّجلُ القصيرُ، وربَتَ على كتفِ الغريب، وقال وهو يضحكُ الضَحكة التشجنّية نفسها:

– هل تريد أن أقولَ لك ذلك ، أنا؟

فأفلتت من الرجل ذي المعطف حركةٌ تنمُّ في آنٍ عن الذّعرِ والكبرياءِ الجريحة؛ فهو لم يكن يتوقّع أن يستجوبَه الوحشُ استجواباً مباغتاً أكثر مما كان يتوقع مزاحَه الوحشيّ.

وتابع هذا الأخير:

– إني أتلاعبُ بك . فأنت لا تعلمُ أني أعرفُ كلَّ شيء . إن هذه الشَّخصيةَ المقتدرة هي المستشار الكبير للدانمرك والنّرويج ، والمستشار الكبير للدانمرك والنّرويج هو أنت .

إنه هو ، في الحقيقة . فما إن وصَلَ إلى خرائبِ أربار والتي تركناه يسافرُ إليها مع موسديمون ، حتى شاءَ ألاّ يفوّض أمرَ الاهتمام بإغواء اللّص إلاّ لنفسه ، وكان ، إلى حدّ بعيد ، لا يظنّ نفسه معروفاً لدى اللّص ومُنتظَراً . وفيما بعد ، فإن الكونت دالفيلد ، وبرغم نباهته كلّها ، واقتداره كلِّه ، لم يستطعْ أن يكتشف الوسيلةَ التي استخدمها هان الإيسلندي ليكون مطّلعاً إطلاّعاً جيّداً على الأمر ، إلى ذلك الحدّ . فهل كان ذلك من جراء خيانةٍ من موسديمون؟ لقد كان موسديمون ، في الحقيقة ، هو الذي أوحى للكونت النبيل بفكرة أن يحضر شخصيّاً إلى اللّص ، ولكن أيّةُ فائدة كان يمكنه أن يجنيها من ذلك الغدر؟ – وهل كان اللصّ قد عَثرَ على أوراقٍ تتّصلُ بمشروعِ المستشار الكبير مع إحدى ضحاياه؟ ولكن فريدريك دالفيلد قد كان ، بالإضافة لموسديمون ، هو الكائنُ الحيُّ الوحيد المطّلع على خطة والده . ومهما يكنْ طائشاً ، فهو لم يكن فاقداً الرّشادَ إلى درجةٍ يعرّضُ فيها سراً كذلك السّرِ للخطر . زدْ على ذلك ، أنه

كان يعسكُر في موقع مونكولم. وكان المستشارُ الكبيرُ يظنّ ذلك، على أيّةِ حال - إن أولئك الذين سيقرؤون تتمة ذلك المشهد من غير أن يكونوا قادرين، أكثر من الكونت دالفيلد، على حلِّ المشكلة، سوف يرون أيّ احتمال كان يمكن بناؤه على تلك الفرضيّة الأخيرة.

إن إحدى الصّفات الأكثر بروزاً عند الكونت دالفيلد، كانت حضورَ الذّهن. فحين سمعَ الرّجلَ القصيرَ القامة يلفظُ اسمَه بتلك الدرجة من الفظاظة، لم يستطع أن يكبح صيحةً تنمُّ عن الدّهشة. غير أن هيئة وجهه الشّاحبة والمتعالية، انتقلت بلمح البصر، من التعبير عن الخشيةِ والدّهشةِ إلى التعبير عن الهدوءِ، ورباطةِ الجأش، فقال:

- حسناً، أجل! أودّ أن أكون صريحاً، فأنا، في الحقيقة، المستشارُ، ولكن، كن صريحاً أيضاً...

فقاطعته قهقهةٌ صادرةٌ عن الآخر:

- هل تمنّعت عن أن أقول لكِ اسمي، وعن أن أقولَ لك اسَمك؟

- قلْ بالصّدق ذاته كيف عرفتَ من أكون؟

- ألم يقلْ لك أحدٌ البتّة أن هان الإيسلندي يرى من خلال الجبال؟

أراد الكونت أن يُصرَّ، فقال:

- فلترَبي صديقاً...-

فقال الرَجلُ القصير بقسوة:

– يدك ، أيها الكونت دالفيلد!

ثم نظر إلى الوزير مواجهةً ، وهتف:

– لوطارت روحانا من جسدينا ، في هذه اللّحظة ، لتردّد الشيطان كما أظنّ قبل أن يقرّر أية واحدة منهما هي روح اللّص .

فعضّ السّيد المتعالي شفتيه ، ولكنه لم يُظهر استياءه ، لأنه قد وجد نفسه بين الخوف من الوحش ، وضرورة أن يصنع منه أداةً له ، فقال:

– لا تستخفّ بما يعود عليك بالنفع ، وأقبل قيادة التمرّد ، وثقْ بعرفاني بالجميل .

– يا مستشار التّرويج . إنك تعتمد على نجاح مشاريعك ، وشأنك شأن تلك المرأة العجوز التي تفكرّ بالفستان الذي ستحيكُه لنفسها من القنّبِ المسروق ، فيما يشوّشُ مخلبُ القط غزلتها .

– فكّرْ مرّةً أخرى أيضاً قبل أن ترفضَ عروضي .

– مرّةً أخرى ، أنا اللّص ، أقول لك: لا ، أيّها المستشار الكبير .

– كنتَ أنتظر ردّاً آخر ، بعد الخدمة السّامية التي أدّيتَها لي قبلاً .

فسأل اللّصّ:

– وأيةُ خدمة؟

فردّ المستشار:

– ألم يُقتَل النقيب ديسبولسن على يدك؟

– هذا ممكن، أيها الكونت دالفيلد. فأنا لا أعرفُه. فمن هو هذا الرجل الذي تحدثُني عنه؟

– ماذا؟ ألا يمكن أن يكون قد وقع بين يديك صدفةً الصندوقُ الحديديّ الذي كان يحملُه.

ظهر أن هذا السّؤال قد ركَّز ذكرياتِ اللّصّ، فقال:

– انتظر، أني أتذكّر في الحقيقة ذلك الرَّجلَ وصندوقهَ الحديديّ. كان في سواحلِ أورشتال الرّملية.

وتابع المستشار:

– على أيَّةِ، إذا تمكنّت من أن تسلّمني هذا الصّندوق الصغير، فإن إقراري بالجميل سيكونُ بلا حدود. قلْ لي، ماذا حَدَث لتلك العلبة، فهي بحوزتك؟

كان الوزيرُ النبيل يُلحّ بشدّة في طلبه، بحيث أن اللّصَّ بدا مذهولاً.

– إن ذلك الصّندوقَ الحديديّ إذن ذو أهميةٍ عالية حقاً، بالنسبة لسعادتك، يا مستشار النّرويج؟

– أجل.

– وماذا ستكون مكافأتي، إذا قلتُ لك أين تجدُه؟

– كلّ ما يمكن أن ترغبَ فيه، يا عزيزي هان الإيسلنديّ.

– وإذن! فلن أقولَ لك.

– هيا، إنّك تضحكُ! تذكرّ الخدمةَ التي ستؤديّها لي.

– أتذكرٌها تماماً.

– سوف أؤمن لك ثروةً هائلةً، وأطلبُ لك العفوَ من الملك.

فقال اللّص:

– اطلبْ مني العفوَ عنك بالأحرى. اصغ إلي، يا مستشارَ الدانمرك والنّرويج الكبير. إن النّمور لا تفترسُ الضِّباع. ولسوف أدُعك تخرج حيًّا من حضرتي، لأنك شرّير، وكلُّ لحظةٍ من لحظاتِ حياتك، وكلّ فكرة من روحك تولّد مصيبةً للبشر وجريمةً بالنسبة إليك. ولكن، لا ترجعْ بعد الآن، لأني سأعلمك أن كراهيتي لا ترحم أحداً، وحتى الأنذال. أمّا عن نقيبك؛ فلا تغترّ بأني قتلته لأجلك. إن زيَّه هو الذي أدانه، مثل ذلك المسكين الآخر الذي لم أذبحه أيضاً لكي أؤدي لك خدمة، أؤكدّ لك ذلك.

كان يمسكُ بذراعِ الكونت النبيل، وهو يتكلّم على هذا النّحو، وكان قد سحبه نحو الجسدِ الرّاقدِ في العتمة. وفي اللحظة التي كان يُنجزُ فيها تأكيداته، وقع نورُ المصباحِ العديمِ الصّوت على ذلك الشيئ؛ فكان عبارة عن جثّة ممزّقة، وترتدي، في الحقيقة، زيَّ ضابط من سلاح البنادق في مونكولم. فاقترب

المستشارُ وشعورٌ بالفظاظة يتملكه. وفي الحال، توقفت نظرتُه عند الوجه الممتقع اللّون، والمضّرج بالدّم، وجهِ الميت. إنّ ذلك الفمَ الأزرق والمفتوحَ جزئياً، وذلك الشّعر المنتفش، وهاتين الوجنتين الداكنتين، وهاتين العينين المطفأتين لم تمنعْه من أن يتعرّفه، فأطلق صرخةً مرعبة.

– يا للسّماء! فريدريك! ابني!

لانشكّن بالأمر. فالقلوبُ التي تبدو في الظّاهر أكثرَ القلوبِ جفافاً، وأكثرَها تحجرّاً، تنطوي على الدّوام، في آخر خباياها على حنانٍ تجهلهُ هي نفسُها، وكأنّه مخبوءٌ بين الأهواء والرّذائل، مثل شاهدٍ خفيّ ومنتقم مقبل. ونحسبُ أنه ماثلٌ هناك لكي يجعل الجريمةَ تعرفُ الألم يوماً. إنه ينتظّر ساعتَه المؤاتيةَ بصمت. فالإنسانُ الفاسدُ يحملُ هذا الحنان في صدره ولا يشعرُ به؛ لأنه ما من شجنٍ من الأشجان العادية على درجةٍ كافيةٍ من القوّة بحيث يخترقُ قشرة الأنانية، والشرّ السّميكة التي تغلّقه، ولكنْ ما إنْ يحضر أحدُ آلامِ الحياة النادرة الحقيقية بصورةٍ غير متوقعة، حتى يغوص في هوّة تلك الرّوح، مثلما يغوصُ السّيفُ، ويمسُّ الأعماقَ. حينئذٍ ينكشفُ الحنانُ المجهولُ أمام المنكود الشرّير، وبصورةٍ تزداد عنفاً بقدر ما كانت مجهولة، وأكثر إيلاماً بقدر ما كانت محسوسةً أقلّ، لأن منخسَ الألم كان لا بدَّ له أن يحرِّك القلبَ بصورةٍ أعمق فعلاً للوصول إلى ذلك. إن الطبيّعةَ تستيقظُ، وتنفلتُ من عقالها، وتسلمُ البائسَ إلى أحزانٍ لم يعهدها، وإلى عذاباتٍ خارقة. فيشعرُ في لحظةٍ واحدة بكلِّ ألوان المعاناة مجتمعةً، والتي استخفّ بها طيلة سنواتٍ عديدة. إن الأوجاعَ الأكثر تعارضاً فيما بينها تمزّقُه في آن. وقلبُه الذي ينيخُ عليه حذرٌ قائم، ينتفضُ وهو

نهبٌ لتنكيلِ اختلاجيّ. يبدو كأنه قد لمح الجحيمَ في حياته، وأنه قد كشف لنفسه شيئاً أكبر من اليأس.

كان الكونت دالفيلد يحبُّ ابنه من غير أن يدري. إننا نقول ابنه لأنه جاهلٌ بخيانة زوجته. ففريدريك، الوارثُ المباشرُ لاسمه، يحمل هذا اللقب في نظره. وإن كان يظنّ أنه في مونكولم دائماً، فقد كان لا يتوقّع أن يلتقيه في بُريج أربار، وأن يعثر عليه ميتاً! ومع ذلك، فقد كان موجوداً هناك، مضرَّجاً بدمه، أكمد اللون. لقد كان هو ذاك، ولا يسعه أن يشكّ بالأمر أن يتصوّر ماذا يعامل في داخله، حينما تغلّل اليقينُ في نفسه، يقينُ محبّته له بصورةٍ مباغتة مع اليقين بأنّه قد فقده. إن كلَّ المشاعر التي تصفها هاتان الصفحتان بصعوبة انقضّت على قلبه معاً، وكأنها قصفاتُ رعد. لقد صعقته المفاجأةُ، والذّعر واليأسُ، إذا صحَّ القول. فارتدَّ إلى الخلف، ولوى ساعديه، وهو يردّدُ بصوتٍ يثيرُ الشفقة: – ابني! ابني!

أخذ اللّصّ يضحك، وكان أمراً فظيعاً أن يسمعَ المرءُ ذلك الضَّحكَ الذي يمتزجُ بأنّاتِ والدٍ أمام جثّةِ ابنه.

– وجدّي إنغولف! بوسعك أن تصرخ، أيّها الكونت دالفيلد، فلن توقظَه.

وفي الحال، تكدَّرَ وجُهه الشّنيعُ، وقال بصوتٍ قائم:

– ابكِ ابنَك، فأنا أثأرُ لابني.

فقاطعه دبيبُ أقدام مسرعةٍ في الرُّواق. وفي اللحظة التي كان يدير فيها رأسَه بدهشة، اندفع أربعةُ رجالٍ طوالُ القامة إلى القاعة، وسيوفُهم مجرَّدةٌ،

وكان يتبعهم رجلٌ خامس، قصيرُ القامة، ربُعها، وهو يحمل مشعلاً بيد، وسيفاً بالأخرى. لقد كان متلفعا بمعطفٍ بنيّ اللون، يشبهُ معطف المستشار الكبير، وصاح:

- يا سيّدي، لقد سمعناك، ونحن نسارعُ إلى نجدتك.

لا شكّ أن القارئ قد تعرَّفَ موسديمون والخدمَ الأربعةَ المسلّحين الذين كانوا يشكلّون أتباعَ الكونت.

عندما ألقت أشعّةُ المشعل نورَها السّاطع في القاعة، توقّفَ القادمون الخمسةُ الجدد مذهولين من الهول؛ فقد كان المشهدُ مرعباً، في الحقيقة. فمن جهة، هناك بقايا الذّئب الدامية، ومن الجهة الأخرى، الجثّةُ المشوّهةُ، جثّة الضّابط الشاب. ثم ذلك الأب الزائغَ العينينَ الذي يصرخُ صرخاتٍ مخيفة، وإلى جانبه، اللّصُّ المرعبُ الذي يدُيرُ نحو المهاجمين وجهة القبيحَ، والذّي ترتسمُ عليه دهشةٌ لا يعتريها الخوف.

حين رأى الكونت ذلك العونَ غيرَ المتوقّع، سيطرت عليه فكرةُ الانتقام، ورمت به من اليأسِ إلى الغضب.

فهتفَ وهو يسحبُ سيفه:

- الموت للّص! لقد اغتال ابني... الموت! الموت!

فقالَ موسديمون، فيما لم يكن المشعلُ الذي يحملهُ يُنيرَ أقلَّ تغيرٍ في وجهه:

- لقد اغتالَ السيّد فريدريك؟

وردّد الكونتُ بحنق:

- الموت! الموت!

وانقضّ السّتةُ جميعاً على اللّص. أمّا هذا الأخيرُ الذي فوجئ بهذا الهجوم المباغت، فقد تقهقرَ باتّجاه الفتحةِ المثلّثة، وهو يزمجرُ زمجرةً ضارية تنمُّ عن الغضب أكثر مما تنمُّ عن الخوف.

كانت ستّةُ سيوفٍ موجّهةً عليه، وكانت نظرتُه المتّقدةُ، وقسماتُ وجهه متوعّدةً أكثر من أيّ واحدٍ من مهاجميه. كان قد أمسك ببلطته الحجرية، ولكنه كان مجبراً على أن يكتفي بالدِّفاع، بسبب عدد مهاجميه فأخذ يجعل بلطته تدورُ في يده بسرعةٍ كبيرة بحيث صارت دائرةُ الدّوران تغطيّه كأنها درع. وبدأ يتطايرُ الكثيرُ من الشرّر من رؤوسِ السيوفِ بصوتٍ واضح، حين تصطدمُ بحدّ البلطة. غير أنّه ما من شفرةٍ استطاعت أن تمسّ جسمه. ومع ذلك، فبما أنه كان متعباً من معركته السّابقة مع الذئب؛ فقد أخذ يتقهقرُ رويداً رويداً، وألفى نفسه بعد قليل مدفوعاً إلى عتبة المخرج المثلث الشّكل.

فصرخ الكونت:

- تشجعّوا يا أصدقائي! ولنلقِ بالوحش في هذه الهوّة.

فردَّ عليه اللّصُّ قائلاً:

- قبل أن أسقط فيها، سوف تسقطُ فيها النجوّم.

ومع ذلك، فقد ضاعفَ المهاجمون من حماستهم وإقدامهم، حين رؤوا

الرَّجـلَ القصيرَ القامة وهو مجبرٌ على نزولِ درجةٍ، من درجاتِ السلّم المعلّق فوق الهوّة.

فتابع المستشارُ الكبيرُ قائلاً:

- حسناً، فلنتقدّم! ينبغي أن يسقط؛ جهدٌ آخر أيضاً! - أيّها الشقيّ! لقد ارتكبتَ جريمتك الأخيرة - فتشجعّوا، أيها الرّفاق.

وفيما كان اللّصّ يواصلُ القيامَ بحركاتٍ مرعبة من بلطته بيده اليمنى، أخذ، من غير أن يردّ، بوقَ القرون المعلّق بحزامه، باليد اليسرى، ورفعه إلى شفتيه، وجعله يطلق عدداً من المرات صوتاً مبحوحاً ومتواصلاً، فردّت عليه فوراً زمجرةٌ آتيةٌ من الهوّة.

بعد بضع لحظات، في اللحظةِ التي كان فيها الكونت وتابعوه يشدِّدون الحصارَ باستمرار على الرّجل القصير، ويتهلّلون لأنهم جعلوه ينزل درجةً ثانية، ظهر الرأسُ الهائلُ لدبّ أبيض في الطّرفِ المكسور من السّلمّ، فتراجع المهاجمون، وقد اعتراهم الذّهول المختلطُ بالرُّعب.

انتهى الدّبّ من تسلُّقِ الدّرج بتثاقل، وهو يواجههم بشدِقه الدّامي، وأسنانهِ القاطعة.

فصاح اللَّص:

- شكراً! يا صديقي الشّجاع فريند.

وإذ أفاد من دهشةِ مهاجميه، رمى بنفسه على ظهرِ الدّب الذي بدأ ينزلُ القهقهرى، مظهراً باستمرار رأسه المتوعّدةَ لأعداءِ صاحبه.

وفي الحال، وما إن أفاقوا من ذهولهم الأوّل، حتى أمكنهم أن يروا الدُّبّ وهو يحملُ اللّص بعيداً عن متناولهم، رؤوه ينزل إلى الهوّة، مثلما صعد منها بلا شكّ، وذلك بأن يتمسّك بجذوع أشجارٍ قديمة. وبنتوءاتٍ صخرية. أرادوا أن يهيلوا قطعاً من الحجارة عليه، ولكن، قبل أن يتمكنوا من أن يرفعوا من التراب إحدى تلك الكتل الصّوانية القديمة التي كانت ترقدُ فيها، منذ زمن بعيدٍ جداً، كان اللّصّ ومطيّتهُ الغريبةُ قد تواريا في إحدى المغائر.

الفصل السّادس والعشرون

كلاّ ، كلاّ ، علينا ألا نضحكَ بعد الآن ، فلاحظْ . إن ما كان يبدو شديدَ الطّرافةِ له أيضاً جانبُه الجدِّي ، والجديّ كثيراً ، مثل كلّ شيء في الكون... صدّقني ، هذه الكلمة ، كلمة صدفة هي تجديف ، فلا شيء يحدثُ تحت الشّمس صدفة؛ ثم ألا ترى هنا الغاية التي حددتها العناية الإلهية؟

إميليا غالوتّي

أجل ، إن سبباً عميقاً غالباً ما يتكشَّف في ما يسميّه البشرُ صدفة؛ ففي الأحداث ، هناك ما يشبه يداً خفيةً تعيّن لها طريقها وهدفها ، إذا صحَّ القول. إن الكتابة تتجدّد عن نزواتِ القدر ، وعن غرائبَ المصير ، وتنطلقُ فجأةً من هذا العماء بروقٌ مرعبةٌ ، أو أشعةٌ رائعةٌ ، وتتواضَعُ الحكمةُ البشريةُ أمام دروسِ القدرِ السّامية .

فإذا ما حدثَ مثلاً ، حين كان فريدريك دالفيلد يبسطُ ، في غرفةِ استقباله الباذخة ، أمام عيونِ نساء كوبنها عن ، بهاءَ ملابسه ، وغرور مرتبته ، وادّعاءاتهِ الكلامية ، إذا حدثَ أن أتى رجلٌ معينٌ مطلعٌ على أمورِ المستقبل لكي يشوّش

تفاهة أفكاره برؤىً خطيرة، وقال له ذاتَ يوم إن ذلك الزيَّ اللامعَ الذي يفاخرُ به سوف يسبّبُ هلاكه، وإن وحشاً ذا وجه بشريّ سوف يشربُ دمه، كما كان يشرب، هو، كمتلذّذ غير مكترث، نبيذَ فرنسا وبوهيميا، وإن شَعرَه الذي لم يكن لديه ما يكفي للعنايةِ به من الخلاصات والعطور، سيكنُس غبارَ مغارةٍ للحيوانات المتوحشة، وإن ذراعَه التي كان يقدّمها بلطفٍ كبير لتستندَ إليها سيدات شارلو تنبرغ اللّطيفات، سوف تُرمى إلى دبٍّ مثل عظمةٍ يحْمور مقضومةٍ جزئياً، كيف كان سيردُّ فريدريك على تلك النبوءات الكئيبة؟ سيردُّ عليها بقهقهة، واستدارةٍ على قدم واحدة. والأكثر إثارةً للرّعب، هو أنه كان يمكنُ لكلّ العقولِ البشريةِ أن توافقَ الأحمقَ على رأيه.

لنعاينْ ذلك المصير من موقع أعلى أيضاً– أفليس سرّاً غريباً أن نرى جريمةَ الكونت والكونتيسّة دالفيلد تقع عليهما كقصاص؟ فلقد حاكا مؤامرةً دنيئة ضدّ ابنة رجلٍ سجين، فنلتقي هذه المنكودةُ صدفةً حامياً يرى من الضروري أنْ يُبعدَ ابنهما الذي كلّفاه بتنفيذِ غرضهما المقيت. وهذا الابن، الذي هو رجاؤهما الوحيد، يُرسَلُ بعيداً عن مسرح الإغواء، وما إن يصلَ إلى مكانِ إقامته بقليل، حتى تجَعله صدفةٌ أخرى انتقاميّةٌ يلاقي الموت. وهكذا، فمن خلالِ قصدهما جرّ فتاةٍ بريئةٍ ومبغوضةٍ إلى العار، دفعا بابنهما المذنبِ والحبيب إلى القبر؛ فمن خلال خطيئتهما، إنّما غدا هذان الحقيران تعيسين.

الفصل السّابع والعشرون

آه! هاهي كونتيسَّتنا الجميلة...! عفواً يا سيدتي،
إن لم أتمكن اليوم من الإفادة من شرفِ زيارتك...
فأنا مشغول؛ ففي مرّةٍ أُخرى، أيتها الكونتيسة،
في مرّةٍ أخرى، أما اليوم، فأنا لن أؤخرك فترةً
أطول هنا.

الأمير لأورسينا

أمر حاكم درونتهايم بأن تُقطَر عربةُ سفره، في اليوم التالي لزيارته إلى مونكولم، عند الصّباح الباكر، آملاً أن ينطلقَ فيما لا تزالُ الكونتيسّة دالفيلد نائمة. غير أننا قلنا سابقاً إن نومَ تلك السّيدة كان خفيفاً.

كان الجنرالُ قد انتهى للتوّ من توقيع التّوصيات الأخيرة التي وجّهها إلى الأسقف، والذي كان ينبغي أن توضعَ مهمةُ الحاكم بين يديه بالوكالة. لقد

نهض، بعد أن ارتدى سترتهِ الطويلة المبطّنة بالفرو، لكي يخرج، عندما أعلن الحاجبُ عن وصولِ المستشارة النبيلة.

لقد بلبلَ هذا الحادثُ الطارئُ العسكريَّ القديمَ الذي اعتاد أن يضحك أمام قصفِ مئة مدفع، ولكن ليس أمام حيلِ امرأة. ومع ذلك، فقد ودّع الكونتيسّة الشريرة وداعاً لطيفاً إلى حدٍّ كافٍ. ولم يدعْ انزعاجَه منها يظهرُ على وجهه إلا حين رآها تنحني على أذنه بهيئةٍ ماكرة تودّ فقط أن تظهر سرّية:

– حسناً، أيها الجنرال، ماذا قال لك؟

– من؟ بوال؟ قال لي إن العربةَ قيد الإعداد...

– إني أكلمك على سجين مونكولم، أيّها الجنرال.

– آه...!

– هل ردّ على استجوابك بطريقةٍ مُرضية؟

فأجاب الحاكمُ الذي يمكن للمرء أن يتوقّع موقفَه المحرج:

– ولكن... أجل، فعلاً... أيتها السيّدة الكونتيسّة،

– هل لديك الإثباتُ بأنّه مشتركٌ في مؤامرة عمال المناجم؟

فأفلت من لوفان ردٌّ ينمّ عن الدّهشة:

– أيتها السّيدة النبيلة، إنّه بريء.

وتوقف عن ذلك الحدّ؛ فقد عبّر للتوّ عن قناعةٍ قلبيةٍ، وليس عن قناعةٍ صادرةٍ عن الفكر.

فردّدت الكونتيسّة بلهجةٍ مذهولةٍ، مع أنها غير مصدّقة:

- إنه بريء!

فقد كانت ترتجفُ، في الحقيقة، من أن يكون شوماكير قد أثبت للجنرال براءته التي كان من المهمّ جداً لمصالح المستشار الكبير أن يسيء إليها.

توفّر للحاكم الوقتُ الكافي للتفكير، فردَّ على إلحاحِ المستشارة الكبيرة بنبرةِ صوتٍ طمأنتها لأنه قد كشف لديها شكاً واضطراباً:

- بريء... - أجل- إذا شئتِ...

- إذا شئت، يا سيدي الجنرال!

وانفجرت المرأةُ الشريرة بالضحك.

فمسَّ ذلك الضّحكُ شعورَ الحاكم، فقال:

- أيتّها الكونتيسّة النبيلة، سوف تسمحين لي بألاّ أعرضَ حديثي مع المستشار الكبير السّابق إلا لنائب الملك.

حينذاك، حيّاها بانحناء، ونزل إلى الباحة التي كانت عربتُه تنتظره فيها، والتي كان سيرُها السّريع يعلن للتوّ لسكان درونتهايم بأن والدهم يبتعدُ عنهم.

كانت الكونتيسة دالفيد تقول في نفسها وهي تدخلُ إلى شققها:

– أجل، اذهبْ، أيها الفارسُ المتجوّل، وليخلّصنا غيابك من حامي أعدائنا، اذهب؛ فإن رحيلك هو علامةٌ على رجوع فتاي فريدريك– وأني أسألك شيئاً. كيف تجرؤ على أن ترسلَ أكثر خيالة كوبنهاغن وسامةً إلى تلك الجبال المرعبة! لحسن الحظّ، لن يكون صعباً علي الآن أن أحصل على استدعائه.

عندما وصلت إلى تلك الفكرة، توجّهت إلى وصيفتها الأثيرة لديها، وقالت:

– يا عزيزتي ليسبيت، سوف توصين لي من برغن على دزّينتين من تلك الأمشاط الصغيرة التي يضعها الأنيقون لدينا في شعرهم، وتسهرين على أن تُغسل بانتظام، وفي كلِّ صباح، بماء الورد، قردةُ عزيزي فريدريك.

فسألت ليسبيت:

– ماذا! يا سيدتي اللّطيفة، هل يمكن للسيّد فريدريك أن يرجع؟

– أجل، فعلاً، ولكي يكون مسروراً بعض الشيء لرؤيتي، ينبغي أن نصنَع له كلَّ ما يريد. أريد أن أرتّبَ له مفاجأةً عند عودته.

يا للأم المسكينة!

الفصل الثّامن والعشرون

... يتبع برنار ضفافَ الأرلنسا راكضاً.
إنه يشبه أسداً يخرجُ من عرينه، باحثاً
عن الصّيادين، وعازماً على التغلّب عليهم
أو على الموت.
لقد مضى الإسبانيُّ المقدامُ، والثابتُ العزم!
وبخطوةٍ سريعة، والرّمحُ الضخمُ في قبضته،
وفيه وضع آماله، إنما يتبع برنار
ضفافَ الأرلنسا.

قصائد إسبانية

المواطن. – لا نتكلّم عنه. إن اسمَه يسقي الموت.
كلارا. – أنا! لن أتلفّظ باسمه...؟ فماذا

تصنعون، أيها الرّجال النّزيهون؟ هل اضطرب
تفكيرُكم؟ وهل ضاع عقلكم؟ لا تنظروا إليّ إذن
بهذه الهيئة القلقةِ والوجلة، ولا تخفضوا
عيونكم إذن برعب...–
المواطن: – ليقنا الرّبُّ من الإصغاء إليكم وقتاً أطول!
فقد ينجم عن ذلك بعضُ المصائب.

غوته، الكونت ديغمون. (1)

كان أوردينر، بعد نزوله من البرج الذي سبق أن لمح منه منارةَ مونكولم، كان قد كلَّ من البحثِ عن مرشده المسكين بينينيوس سبياغودري في كلّ اتّجاه. لقد ناداه طويلاً. وكان الصّدى المرتدُّ عن الخرائب هو الذي يجيبُ وحده. لقد كان مندهشاً، ولكنه ليس مرتعباً من ذلك الاختفاء غير المعقول. ولقد عزاه لرعب هلعيّ يُصيبُ البوّابَ الخوَّاف. وبعد أن لامَ نفسه، انطلاقاً من شهامته، لأنه قد تركه لبضعِ لحظات، قرَّرَ أن يمضي ليلته على صخرةٍ أو يلمو ليُتيحَ له الوقتَ كي يرجع. فتناول حينذاك بعضَ الطّعام، وتلفّع بمعطفه، وتمدَّد بقرب الموقد الذي كان ينطفئ، وطبعَ قبلةً على خصلة من شعرِ إيتيل. ولم يلبث أن أغفى؛ فالمرءُ يمكنه أن ينام وقلبه في قلق، عندما يكونُ ضميرُه مرتاحاً.

عند شروقِ الشمس، كان واقفاً. غير أنه لم يعثر من سبياغودري إلا على خرجه ومعطفه اللّذين تركهما في البرج، وهذا ما كان يبدو علامةً على

(1) عبارات مقتبسة، حذفت عام ١٨٣٣.

هروبٍ متعجّل. حينئذٍ، أصابه القنوطُ من العثور عليه، فوق صخرة أو يلمو على الأَقل، وعزم على الرّحيل من دونه، لأنه كان ينبغي له في اليوم التالي أن يصلَ إلى هان الإيسلندي في فالديروغ (١)

لقد علمنا في الفصول الأولى من هذا الكتاب أن أوردينر قد اعتاد مبكراً على ألوان التّعب، تعبِ حياة الترحّل والمغامرة؛ فبعد أن عبر شمال النرويج عدّة مرّات، لم يعدْ يحتاجُ إلى مرشد الآن، وقد صار يعرفُ أينَ يجدُ اللّص، فوجَّه والحالة هذه، نحو الشمال الغربي، رحلتَه المتوحّدة التي لم يعدْ يرافقُه فيها بينينيوس سبياغودري ليقول له كم تحتوي كلّ هضبة من الصوّان والمعادن المتبلّرة، وأيّ تقليد يرتبطُ بكلّ كوخ. وإن كان هذا التمزُّقُ أو ذاك للتربة ناتجاً عن جريانِ الفيضان، أو عن زلزلةٍ بركانية قديمة.

لقد سار يوماً عبر تلك الجبال التي، بخروجها كالنتوءات، ومن مسافة لأخرى، من السّلسلةِ الرئيسة التي تخترقُ النّرويج على امتداد طولها، تمتدُّ وتنخفض تدريجياً حتى البحر، حيث تغطس؛ بحيث أن كافةَ سواحلِ ذلك البلد لا تُظهِرُ إلا تعاقُباً من الجبال الداخلة في البحر، والخلجان، ولا تظهر المناطق

(١) تدين القصة هنا بالكثير إلى ذكرى الرّحلة إلى درو، بلاشكّ؛ فيومُ الأربعاء، في ١١ تموز، ١٨٢١ تغادرُ عائلةُ فوشيه باريس باتجاه درو. فينطلق فيكتور حينذاك، وقد أُعلمته بذلك رسالةٌ من آديل بالتأكيد، في رحلةٍ جنونية تدشن سلسلة رحلاته ونزهاته. «لقد قطعت الطريق كلّه سيراً على الأقدام، تحت شمسٍ محرقة، وعبر مسالك ليس فيها شيءٌ من الظلّ.». هكذا يكتب إلى فينيي في ٢٠ تموز. «منهوكاً»، ولكن شاعراً بالفخر لاجتياز عشرين فرسخاً على قدميه «إنه سائحٌ دقيق في ملاحظته؛ فقد فتّش من غير طائلٍ عن «أوابدَ درويديّة» وزار في درو الهضبة والخرائبَ، والمقبرة، وبرج البرق. كانوا يعيدون اشتقاق Dreux إلى Drew أو Dreu أي «سنديانة»، فقد كانت درو إذن هي مدينة «السّنديان» أي مدينة الدرويديين، ونتيجةً لذلك، فهي مدينة قوطية، أو سلتية أو اسكندنافية.

الداخلية للأراضي إلاّ تتابعاً من الجبالِ والوديان. إنه ترتيبٌ فريدٌ للتربة، ترتيبٌ قد جعل النرويج تُشبَّه بعظمةِ حوتٍ طويلة.

لم يكن أمراً مريحاً البتة أن يسافرَ المرءُ في ذلك البلد؛ فتارةً، كان لابدّ له أن يسلك السرير الحجري لسيلٍ جفَّ ماؤه، وتارةً أن يجتازَ على جسورٍ مرتّجة مشكّلةٍ من جذوع الأشجار الطُّرقَ نفسها والتي كانت السّيول التي تكونت في اليوم السّابق قد اختارتها كأسرّةٍ لها.

فضلاً عن ذلك، فإن أوردينر كان يسيرُ أحياناً ساعاتٍ كاملة من غير أن يستشعرَ وجودَ الإنسان في تلك الأمكنة غير المزروعة، إلاّ من خلالِ الظهور المتقطّع والمتناوب لمراوحِ طاحونةٍ هوائية في قمة هضبة، أو من خلال ضوضاءِ محلٍّ حدادةٍ بعيد يتلوّى دخانه حسب مشيئة الهواء، مثل ريش قنزعةٍ أسود.

كان يلتقي، على فترات طويلة، فلاحاً يمتطي جواداً قصير القامة، ذاوبر رمادي، ورأس منخفض، وأقلّ توحُّشاً أيضاً من صاحبه. أو بائع فراء جالساً في زحّافته المقطورة إلى رنّتين، ووراء هذه الزّحافة، كان ثمة حبل طويل مربوط، وفيه عقدٌ عديدة مخصصةٌ لإخافةِ الذئاب، وذلك بأن تقفز تلك العقد على حجارةِ الطّريق.

وإذا كان أوردينر حينذاك يسألُ بائعاً عن الطريق إلى مغارة فالديروغ؛ فقد كان يجيبُه البائعُ الجوّالُ بعدمِ اكتراث لمعرفته بأسماءِ ومواقعِ الأمكنة التي كانت مهنته تجعله يمرُّ بها فقط. كان يجيبُه على النّحو التالي:

- تابع سيرك باستمرار إلى الشّمال الغربي، ولسوف تعثُر على قرية

إيرفالين، فتجتاز مجرى سيل دودليساكس، ويمكنك هذه الليلة أن تصل إلى سيرب التي لا تبعدُ عن فالديروغ إلاّ ميلان.

وإذا ما كان أوردينر يوجّهُ السؤالَ نفسَه إلى الفلاّح؛ فإن هذا الأخيرَ، المشبعَ بعمقِ تقاليدِ بلاده، وبحكاياتِ المنزل. كان يهزُّ رأسه عدداً من المرّات، ويوقفُ مطيته الرّمادية، وهو يقول:

– فالديروغ! مغارة فالديروغ. إن الحجارة تغنّي فيها، والعظامُ ترقصُ. ويقطُنها الشيطانُ الإيسلنديّ فليس إلى مغارة فالديروغ تودُّ لطافتك أن تذهب بالتأكيد؟

– بلى، فعلاً.

– فهذا إذن لأن لطافتك قد فقدت والدتها، ولأن النّار قد أحرقَت مزرعتها، ولأن الجارَ قد سرقَ لها خنزيراً سميناً؟

فكرّر الفتى قائلاً:

– كلاّ، في الحقيقة.

– إذن، فأن ساحراً قد ألقى أذىً من السّحر على لطافته.

– أيها الرّجل الطيّب. إني أسألك عن الطريق إلى فالديروغ.

– إني أردّ على هذا الطلب، يا سيدي، فالوداعُ إذن، ولتتوجّه باستمرار إلى الشمال. فأنا أعرفُ جيّداً كيف ستذهب، ولكني أجهلُ كيف ستعود.

أخذ الفلاّح يبتعدُ، وهو يرسمُ إشارة الصّليب.

كان يُضافُ إلى رتابةِ تلك الطريق الكئيبة إزعاجُ مطرٍ ناعم ونافذ كان قد اكتسح السّماء عند منتصف النهار. وأخذ يزيدُ من مصاعبِ الطريق.[1] فما من عصفورٍ كان يجرؤ على الطيّران مخاطراً في الهواء. أما أوردينر الذي تجمّد في معطفه، فلم يكن يرى طائراً يطير فوق رأسه سوى الباز والسّنقر، أو الصّقر الصّياد الذي كان يطير فجأةً من قصبِ أحدِ المستنقعات حاملاً سمكةً بين مخالبه، لدى سماعه لضجّة مرور أوردينر.

كان الليلُ قد هبط، حينما وصل المسافرُ الشّاب إلى تلك الضيعةِ، ضيعة سيرب والتي أراد سبياغودري، إذا كان القارئ يتذكّر مقرّه العام فيها. وذلك بعدأن اجتاز المسافرُ حرش الحور الرّجراج، وأشجار البتولة، والذي كان متكئاً إلى مجرى سيل دودليساكس. ولقد نبَّهت رائحةُ القطران، ودخانُ الفحم الأرضي أوردينر بأنه كان يقتربُ من جماعةِ صيّادي الأسماك. لقد تقدّم نحو أوّلِ كوخ كان الظّلامُ يتيح له تمييزُه. كان مدخلُه المنخفض، والضيّق، مغلقاً، حسب العادة النرويجية، بجلدِ سمكٍ كبير شفاف، يتلوّن في تلك اللحظة بالضوء الأحمر المرتعش لموقدٍ مشتعل؛ فدقّ على الإطارِ الخشبيّ للباب وهو يصيح:

– أنا مسافر!

فأجاب صوتٌ من الدّاخل:

– ادخلْ، ادخل.

---

(١) «لم يبدأ هطولُ المطر في باريس إلا مساء الأحد، في ٢٢ (تموز ١٨٢١) كما يحدّد أوجين هيغو، في رسالةٍ مؤرّخة في ١٠ آب (أوردها ب- ميكبه في «هيغو سائحاً» الصفحة ٧٢.).

وفي اللحظة ذاتها، رفعت يدٌ مسرعةٌ للجميل جلدَ السّمك، وأُدخِل أوردينر إلى الحرمِ المخروطيّ لصيّاد أسماكٍ من سواحل النرويج. لقد كان ضرباً من خيمةٍ دائرية من الخشب والتّراب، تلتمعُ في وسطها نارٌ يتآلف فيها لهبُ الطوّرب الأرجوانيّ مع اللّون الأبيض الفاتح للتنوّب [1].

كان الصيّادُ وزوجته وطفلان يرتديان الأسمال، جالسين بقربِ تلك النّار، وأمام طاولةٍ ملأى بالصحون الخشبية، والأواني الطينيّة. وفي الجهة المقابلة، بين الشِّباكِ والمجاذيف، كانت هناك رنّتان نائمتان ترقدان على سرير من أوراق الأشجار والجلود. أما امتدادُه فيبدو أنه مخصّصٌ لاستقبالِ أصحابِ المنزل في نومهم، والضيّوف الذين قد يروقُ للسّماء أن تأتي بهم إليهم. ولم يكن بوسع المرء، للوهلةِ الأولى، أن يميّز ذلك الترتيبَ الداخليّ للكوخ، لأن دخاناً حامضيّاً، وثقيلاً ينطلق بصعوبة من خلالِ فتحةٍ جرى إحداثُها في قمة المخروط، كان يغطي كلّ تلك الأشياء بحجابٍ سميك ومتحرّك.

وما كاد أورد ينر يجتازُ العتبة، حتى نهضَ الصيادُ وزوجتُه وردا عليه تحيّته بلهجةٍ منفتحةٍ ومرحّبة. إن الفلاحين النرويجيّين يحبّون المسافرين، ربّما بسبب إحساسٍ بالفضول لديهم أو بسبب ميلٍ طبيعي عندهم للضّيافة.

قال الصيّاد:

- يا سيدي، لابدَّ أنك جائعٌ وبردان؛ فهذه هي النّارُ التي تجفف معطفك. وهذا هو الخبز الواسعُ الممتاز لكي تهدّئ شهيتك. إن لطافتك ستتكرّم بعد ذلك

---

(١) نوع من الصّنوبريات. (م: ز.ع)

لتقول لنا من هي. ومن أين تأتي، وأين تذهب. وماهي القصص التي ترويها العجائز في بلادها

فأضافت المرأة:

- أجل، يا سيّدي، ويمكنُك أن تُرفقَ بهذا الخبز الممتاز، كما يقولُ سيّدي وزوجي، قطعةً لذيذةً من السّمك المقدَّد والمملّح والمتبّل بزيت الحوت- فاجلس هنا، أيها الغريب.

وتابع الرّجلُ:

- وإذا كانت لطافتُك لا تحبّ طعام القدّيس أو سوف [1]. فلتتكرّم بأن تصبرَ للحظةِ من الزمن، ولسوف أؤكد لها بأنها ستأكل قطعةً من لحم اليحمورِ الرائع، أو على الأقل صدَر تدْرجٍ ملكيّ. إننا ننتظرُ عودةَ أمهر صيّادٍ موجودٍ في ثلاثِ مناطق. أليس هذا صحيحاً، يا امرأتي، مآز الطيّبة؟

مآز، الاسم الذي كان يطلقُه الصيّادُ على امرأته، هو كلمةٌ نرويجيّة تعني: نورس. ولم يظهر أن هذه المرأة قد اغتاظت إطلاقاً من ذلك. سواء كان ذلك هو اسمها الحقيقي، أو كان لقباً للتودُّد.

فردّت بمغالاة:

- أفضل صيّاد! إني أظن ذلك! إنّه أخي كينيبول الشّهير! فليباركْ الربُّ مطارداته! لقد أتى ليقضي بضعةَ أيام معنا. ويمكنُك، أيها السيّد الغريب، أن تشربَ في فنجانه ذاته عدداً منَ الأقداح من هذه البيرةِ الجيدة؛ فهو مسافرٌ مثلك.

---

(١) شفيع صيّادي الأسماك.

فقال أوردينر وهو يبتسم:

– شكراً جزيلاً ، يا مضيفتي الكريمة ، ولكني سأكونُ مجبراً على الاكتفاء. بسمككم المقدَّد الشهيّ وبقطعةٍ من هذا الخبز. ولن يكون لديّ متّسعٌ من الوقت لأنتظِرَ أخاكِ ، الصيّادَ الشهير . فينبغي أن أنطلقَ من جديد في الحال.

أما الطيّبةُ مآز التي كانت منزعجةً من رحيلِ الغريب السّريع ، ومتأثّرة بلطفِ المديحِ الذي كان يكيلُه لسمكها المقدَّد ، ولشقيقها في آن ، فهتفَت:

– إنك طيّب حقاً ، يا سيّدي ، ولكن كيف! سوف تغادرنا مبكراً جداً؟

– لا بدَّ من ذلك ،

– أتريدُ أن تخاطر في هذه الجبال ، في مثل هذا الوقت ، وفي طقسٍ كهذا!

– هذا في سبيلِ أمرٍ هام.

كانت ردودُ الشابّ تثيرُ فضولَ مضيفية الفطريّ ، بقدر ما كانت تزيدُ من دهشتهما فنهضَ الصّيادُ وقال:

– إنك في منزل كريستوف بولدوس براآل ، صيادٌ من ضيعةَ سورب.

وأضافت المرأة:

– مآز كينيبول ، زوجتهُ وخادمتُه.

حين كان الفلاحون النرويجيّون يريدون أن يسألوا بلطفٍ عن اسم رجلٍ غريب ، كانت عادتهم في أن يقولوا له اسمَهم.

فأجاب أوردينر:

– وأنا، أنا مسافرٌ ليس متأكداً، لا من الاسم الذي يحمله، ولا من الطّريق التي يسلكها.

لم يظهر أن هذا الجواب الفريد قد أرضى الصيّاد براآل، فقال:

– وحقّ تاج غورمون لوفيو، كنت أظنُّ أنه ليس هناك إلاّ رجلٌ واحدٌ في النّرويج ليس متأكداً من اسمه في هذه اللّحظة، وهو البارون النبيل تورفيلك، والذي سيدعى الآن، كما يؤكدّون، الكونت دانيّسكيولد، بسبب زواجه المجيد بابنة المستشار. وهذا، على أيّة حال، أيتها الطيّبة مآز، أحدثُ خبرٍ حملتُه من درونتهايم– وأنا أهنّئكَ، أيها السيّد الغريب، على هذا التّوافق، مع ابنِ نائبِ الملك، الكونت الكبير غولد ينليف.

و أضافت المرأةُ بوجهٍ يتقدُ فضولاً:

– بما أن لطافتك، كما يبدو، لا يمكنُها أن تقولَ لنا شيئاً عما يمسّها، أفلا يمكنُها أن تعلمنا شيئاً عما يجري في هذه اللّحظةِ مثلاً، عن ذلك الزَّواجِ الشهير الذي التَقَط أخبارَه سيّدي وزوجي؟

فكرّر هذا الأخيرُ بلهجةٍ تعبّرُ عن أهمية ما يقول:

– هذا هو أكثرُ الأخبارِ حداثةً؛ فقبل مضيّ شهرٍ من الزّمن، يتزوّجُ ابنُ نائب الملك ابنةَ المستشار الكبير.

فقال أوردينر:

– إني أشكُّ في ذلك:

– أنت تشك في هذا، يا سيّدي. يمكنني أن أُثبتَ لك، أنا، أنَّ الأمرَ مؤكَّد؛ فأنا استقيه من مصدرٍ جيّد. إن ذلك الذي أطلعني عليه قد عرفه من السيّد بويل، الخادم الأثير لدى البارون النبيل تورفيك، أي الكونت النبيل دانيّسكيولد. فهل عكّرت المياه ربّما عاصفةٌ معينة، منذ ستة أيام؟ وهل سيجري فسخُ هذا القرانِ الكبير؟

فأجاب الفتى مبتسماً:

أظنّ ذلك.

– إذا كان الأمرُ كذلك، يا سيّدي، فأنا مخطئ. فلا ينبغي أن نُشعِلَ النار لقلي السّمك، قبل أن تكون الشِّباكُ قد أطبقت عليه. ولكن هذه القطيعة، هل هي مؤكّدة؟ وممن تستقي هذا الخبر؟.

فقال أوردينر:

– من لا أحد، فأنا أرتِّبُ ذلك في رأسي، على هذا النّحو.

لدى سماعِ هذه الكلمات السّاذجة، لم يستطعْ الصّيادُ إلا أن يخلَّ بالكياسة النرويجيّة، فأطلقَ قهقهةً عريضةً وهو يقول:

– عفواً ألف مرة، يا سيدي، غير أنه من اليسير أن يرى المرء أنّك مسافرٌ، في الحقيقة، وغريبٌ بالتأكيد. فهل تتصوّرُ إذن أن الأحداثَ تتبعُ نزواتك، وأن الطّقسَ سوف يتعكرَّ أو يصفو، حسب مشيئتك؟

وهنا، فإن الصيّاد الذي انغمس في القضايا الوطنية، مثل كلّ الفلاحين النرويجيين، أخذ يشرحُ لأوردينر الأسبابَ التي من أجلها لا يمكن لهذا الزّواج أن يخفق؛ فقد كان ضرورياً لمصالح أسرةِ دافيد. ولم يكن نائبُ الملك قادراً على أن يردَّ طلبَ الملك في هذا الزّواج الذي كان يرغبُ فيه. وقد كان هناك من يؤكدُ، إضافةً إلى ذلك، بأن عاطفةً حقيقيةً تجمعُ بين الزوجين المقبلين. وبكلمة واحدة؛ فإن الصيّاد براآل لم يكن يشكّ بأن ذلك القرانَ سيتمُّ. وكان يريدُ أنّ يكون أيضاً واثقاً في اليوم التالي من قتلِ كلبِ البحرِ اللّعين الذي كان يعيثُ فساداً في مستنقعِ ماستر- بيك.

كان أوردينر يشعرُ أنه غير مهيّأ إلا قليلاً لمتابعة حديث سياسيّ مع رجلِ دولةٍ جلفٍ كهذا الرّجل، حين أتى الوصولُ المفاجئ لشخصيةٍ جديدة ليخرِجَه من الورطة.

فهتفت العجوزُ مآز:

- هذا هو، هذا أخي.

ولم يكن يحتاج الأمرّ إطلاقاً لشيء سوى وصولِ أخٍ لها لا نتزاعِها من الإعجاب التأمُّلي الذي كانت تُصغي به إلى كلماتِ زوجها المسهبة.

أما هذا الأخير، فقد مدَّ له يدَه بجدِّية، فيما كان الطّفلان يندفعان اندفاعاً صاخباً إلى عنقِ خالهما، وقد قال:

- أهلاً بك، يا أخي.

ثم استدار نحو أوردينر، وقال:

– يا سيّدي، هذا هو أخونا، الصيّادُ الذّائعُ الصّيت كينيبول، صيّاد جبال كول:

فقال الرَّجلُ الجبليّ، وهو يرفعُ قبعّتَه المصنوعة من جلدِ الدّب:

– أحيّيكم جميعاً من كلّ قلبي. ويا أخي، إني أقوم بصيدٍ سيّء على سواحلكم، كما قد تقومُ بصيدٍ بحريّ سيّء في جبالنا، بلا شكّ. وأظنُّ أنني قد أملأ حقيبتي على الأرجح باصطيادِ صبيانِ الشّيطان، والبنات الماجنات في غابات الملكة ماب [1] الشّديدة الضّباب؛ فيا شقيقتي مآز، أنت أوّلُ نورسٍ أمكنني أن أحيّيه اليوم عن كثب– هيّا، يا أصدقائي! فليحفظكم الربّ بسلام! فمن أجلِ الحصولِ على ذلك الديك الشرير، ديك الخَلَنجْ، إنّما طافَ أوّلُ صيادٍ في درونتهايم في كلِّ فرجاتِ الغابةِ حتى هذه السّاعة، وفي مثل هذا الطقس.

وسحَبَ، وهو يتكلّم على هذا النحوّ، من كيس الصَّيد دجاجةً بيضاء، من دجاجِ الأحراج، ووضعها على الطّاولة، مؤكّداً أن ذلك الحيوانَ النحيل لم يكن يستحقُّ طلقةً واحدةً من بندقيةِ الفتيلة.

وأضاف بصوتٍ لا يكادُ يُسمع:

– ولكنك يا قرينة (بندقية) كينيبول المخلصة، سوف تصطادين في الحال طريدةً أكبر؛ فلئن أصبحتِ لا تُسقطين جلود الشّاموا والعَلَند الآن، فسيكونُ عليك أن تثقبي ستراتِ الفرسان الخضراء، والأرديةَ الحمراءَ المخصّرة.

لقد أدهشت هذه الكلمات التي سُمعت مآز الفضولية، فسألت:

(١) ملكة الجنيّات.

– هيم! وماذا تقولُ إذن، يا أخي الطيّب...؟

– أقول إن هناك دوماً شيطاناً صغيراً يرقصُ تحتَ لسان النّساء.

فهتف صيّادُ الأسماك:

– إنّك على حق، يا أخي كينيبول؛ فبناتُ حواء هؤلاء فضوليات جميعهن مثل أمّهن– ألم تكن تتكلّم على سترات الفرسان الخضراء؟

فردّ الصيّادُ بلهجةٍ تنمُّ عن الانزعاج:

– يا أخي براآل، أنا لا أعهدُ بأسراري إلاّ إلى بندقيّتي ذاتِ الفتيل، لأنيّ واثقٌ بأنّها لن تردّدها. فتابع صيّادُ الأسماك بجسارة:

– يتحدثون في القرية عن تمردٍ بين عمال المناجم، فهل تعرفُ شيئاً ربّما عن ذلك...؟

أمسك الرَّجلُ الجبليّ طاقيّته، وغرزها على عينيه، وهو يرمقُ الرّجلَ الغريبَ بنظرةٍ جانبية، ثم انحنى نحو صيادِ الأسماك، وقال بصوتٍ مقتضبٍ وخفيض:

– السّكوت!

فهزَّ هذا الأخيرُ رأسَه عدداً من المرات، وقال:

– أيها الأخ كينيبول، مهما كان السَّمكُ صامتاً، فلن يقعَ منه في قفّةِ الصّيد عددٌ أقلّ بسبب صمته.

هيمنت لحظةٌ من الصَّمت، وأخذ الأخوان ينظرُ كلٌّ منهما إلى الآخر

نظرةً لها دلالتُها. وكان الأطفالُ يسحبون ريشَ دجاجة الأحراج الموضوعةِ على الطّاولة. وكانت الأمُّ الطيّبةُ تُصغي إلى مالم يُقل. أما أوردينر، فكان يراقَب.

قال الصّيادُ فجأة، وهو يسعى بشكلٍ ملحوظ إلى تغيير الحديث:

– إذا تناولتَ هذا اليوم طعاماً فقيراً؛ فلن يكون الأمرُ كذلك غداً، يا أخي براآل، ويمكنُك أن تصطادَ ملك الأسماك، وأنا أعدك بزيتِ الدبّ لتتبيله.

– زيت الدبّ! هل شوهد دبٌّ في الجوار...؟ يا باتريك وكورلر، يا ابناي، إني أمنعكما من الخروج من هذا الكوخ... دبّ!

– اهدئي، يا أختي، فلن يتعيّن عليك أن تخشي ذلك غداً– أجل، إنه دبٌّ، في الواقع، وقد لمحته على بعدِ ميلين تقريباً من سيرب. وكان يبدو أنّه يحملُ رجلاً، أو حيواناً على الأصحّ. – ولكن لا. من المحتمل أنّه كان راعياً للماعز، وقد اختطفه الدبّ، لأن رعاةَ الماعز يرتدون جلودَ الحيوانات– فضلاً عن ذلك؛ فالبعدُ لم يسمحْ لي بتمييزه... والأمرُ الذي أدهشني هو أنّه كان يحملُ طريدتَه على ظهره، وليس بين أسنانه.

– حقاً، يا أخي؟

– أجل، وكان من المفروضِ أن يكون الحيوانُ ميتاً، لأنّه لم يكن يقومُ بأيةِ حركةٍ ليدافعَ عن نفسه.

فسألَ صيّادُ الأسماكِ بنباهة:

– ولكن، ما الذي كان يسندُه على ظهرِ الدبّ، إذا كان ميتاً؟

– هذا الذي لم أستطعْ فهمه. ومع ذلك، فلسوف يكون آخرَ وجبةٍ

يتناولُها الدُّب. فحين دخلتُ إلى هذه القرية، أخطرتُ ستةَ رفاقٍ طيّبين. وغداً، أيتها الأخت مآز، سأجلب لكِ أجمل فروٍ أبيض قد طافَ يوماً على ثلوج جبلٍ من الجبال.

فقالت المرأة:

– احترس، يا أخي، فقد لاحظتُ أشياءَ غريبة في الحقيقة، فهذا الدبُّ ربّما يكون الشيطان... فقاطعها الرّجلُ الجبليُّ ضاحكاً، وقال:

– هل أنت مجنونة. الشّيطانُ يتحوّل إلى دبّ! إذا تحوّل إلى قطّ أو قرد، فحبذا أن يكون ذلك. وقد شوهدَ هذا الأمر. أمّا إلى دبّ. آه! بحقّ القدّيس إيلدون المعزّم، إنك تثيرين بكلامك هذا شفقةَ طفل، أو عجوزٍ باعتقاداتك الباطلة!

فخفضت المرأةُ المسكينة رأسها، وقالت:

– يا أخي، لقد كنت سيّدي قبل أن يتطلّع إليّ زوجي الموقّر، فاصنعْ كما يوحي لك ملاكك الحارسُ بأن تصنع.

وسأل صيّادُ السّمك الرَّجلَ الجبليّ:

– ولكن، في أيةِ جهةٍ إذن التقيتَ ذلك الدّبّ؟

– في الاتجاه الآتي من سميازين إلى فالديروغ.

فقالت المرأةُ، وهي ترسمُ إشارة الصّليب:

– فالديروغ!

وردّد أوردينر:

– فالديروغ!

فتابع صيّادُ الأسماك:

– ولكن، يا أخي، ليس أنت، كما آمل، من كان يتوجّهُ إلى تلك المغارة، مغارة فالديروغ؟

– أنا! معاذ اللّه! كان الدّبّ.

فقاطعته مآز برعب:

– هل ستذهبُ غداً للبحثِ عنه؟

– كلا، فعلاً. كيف تريدون، يا أصدقائي، أن يجرؤ دبٌّ على أن يتخّذَ من مغارةٍ معتزلاً له حيث...؟

وتوقّف عن الكلام، فرسمَ الثّلاثةُ إشارةَ الصّليب.

فردّ صيّادُ الأسماك:

– أنتَ على حقّ؛ فهناك غريزةٌ تُحذّرُ الحيواناتِ من هذه الأشياء.

فقال أوردينر:

– يا مضيفيَّ الطيّبين. ماهو إذن الشيءُ المرعبُ جداً في مغارةِ فالديروغ هذه؟

فنظر كلٌّ منهم إلى الآخر بدهشةٍ بليدة، وكأنهم لم يكونوا يفهمون سؤالاً كهذا السّؤال.

فأضاف الشّاب:

– هل يقعُ هناك قبرُ الملك فالدير؟

فردّدت المرأة:

– أجل، إنه قبرٌ حجريّ، وهو يغني.

فقال صيّاد الأسماك:

– وليس هذا كلَّ شيء.

فتابعت:

– كلاّ، ففي الليل، رؤوا فيه عظامَ الموتى ترقصُ.

فقال الرَّجلُ الجبليّ:

– وهذا ليس كلّ شيء.

فسكت الجميع وكأنهم لا يجرؤون على مواصلةِ الحديث.

فسأل أوردينر:

– حسناً! فما هو إذن الأمرُ الخارقُ للطبيعة إذن؟

فقال الرّجلُ الجبليّ بلهجةٍ جدّية:

– أيها الشابّ، لا ينبغي أن تتكلمّ بهذه الدرجةِ من الخفّة، عندما ترى ذئباً عجوزاً مثلي يرتعد.

فأجاب الشاب، وهو يبتسم برقة:

– ومع ذلك، فكنت أودّ أن أعرف ما يحدثُ من أمورٍ خارقة في مغارةِ فالديروغ تلك، لأني ذاهبٌ إليها بالتحديد.

جمّدت هذه الكلماتُ المستمعين الثلاثة رعباً.

– إلى فالديروغ! أيتها السّماء! أنت ذاهبٌ إلى فالديروغ؟

فتابع صيّاد الأسماك:

– إنه يقول هذا، وكأنه يقول: أنا ذاهبٌ إلى لوفيغ لأبيع سمكة الغادس، أو إلى فرجةِ رالف لأصطاد الرّنكة!– إلى فالديروغ، أيّها الرّبُّ العظيم!

وكانت المرأة تصيحُ:

– أيها الشابُّ المنكودُ الحظّ، لقد ولدتَ إذن من غيرِ ملاكٍ حارس! وما من قدّيسٍ من قدّيسي السّماء شفيعٌ لك إذن! وا أسفاه! إن هذا أمرٌ صحيح إلى حدٍّ مفرط، بما أنك تبدو غير عارفٍ حتى باسمك.

فقاطعه الرّجل الجبلي:

– وما هو الدّافعُ الذي يمكن أن يقودَ لطافتكَ إذن إلى ذلك المكان المرعب؟

فأجاب أوردينر:

– لديّ أمرٌ أريدُ أن أسأل أحداً عنه.

كانت دهشةُ المضيفين الثلاثة تزيدُ من فضولهم.

وقال له صيّادُ الأسماك:

– اسمعْ، أيها السّيد الغريب. يبدو أنك لا تعرفُ هذه البلاد جيّداً؛ فلطافتُك مخطئةٌ بلا شكّ؛ فربّما لا تريدُ أن تذهبَ إلى فالديروغ.

وأضاف الرَّجل الجبلي:

– زدْ على ذلك أنه إذا كانت لطافتُك تريدُ أن تتحدّثَ إلى كائنٍ بشري، فلن تجدَ فيها أحداً...

وتابعت المرأة:

– إلا الشّيطان.

– الشيطانُ! إيٌّ شيطان؟...

فتابعت قائلة:

– أجل، ذلك الذي يغنيّ له القبرُ، ويرقصُ الموتى.

فقال صيّادُ الأسماك، وهو يخفضُ صوتَه، ويقتربُ من أوردينر:

– أنت لا تعلمُ إذن، يا سيّدي، بأن مغارةَ فالديروغ هي المقرُّ المعتاد لـ...

فأوقفته المرأةُ. وهي تقول:

– يا سيّدي وزوجي، لا تلفظْ ذلك الاسم، إنّه يحملُ الشقاء.

فسأل أوردينر:

– مقرّ من؟

فقال كينيبول:

– مقرّ بعلزبوت مجسّداً.

– في الحقيقة، يا مضيفيّ الشّجعان، أعرفُ ماذا تعنون، فقد أعلموني حقاً بأن فالديروغ يسكنها هان الإيسلندي...

فارتفعت صرخةُ ذعرٍ ثلاثيةٌ في الكوخ– حسناً!– كنت تعلم ذلك... هو ذلك الشيطان! خفضت المَرأة غطاءَ رأسها الخشن مُشهِدةً كلَّ القدّيسين بأنها ليست من تلفّظَ بذلك الاسم.

حين عاد صيّاد الأسماك قليلاً من ذهوله، حدَّق بأوردينر، وكأنَّ في ذلك الشّاب شيئاً لا يمكنُه فهمَه.

– كنت أظنُّ، يا سيّدي المسافر، حين يقدّر لي مستقبلاً أن أعيشَ حياة أطول أيضاً من حياة والدي الذي مات عن عمرٍ مئة وعشرين عاما، بأنه لن يتعيّن علي أبداً أن أدلَّ علَى طريقِ فالديروغ كائناً بشرياً مزوّداً بعقلٍ، ومؤمناً باللّه.

فصاحت مآز:

– بلا شكّ. غير أن لطافته لن تذهبَ إلى تلك المغارة اللّعينة؛ لأنّه لا بدَّ للمرء أن يبتغي عقدَ اتفاقٍ مع الشّيطان، لكي يضَعَ قدمَه فيها!

– سوف أذهبُ، يا مضيفيّ الطيّبين، وأكبرُ خدمةٍ يمكنكم أن تؤدّوها لي هي أن تدلّوني على أقصرِ طريق.

فقال صيّادُ الأسماك:

– إن أقصرَ طريقٍ للذّهابِ إلى حيث تُريدُ أن تذهبَ، هو أن ترمي بنفسك من أعلى الصّخرةِ الأقرب إلى السيلِ الأقرب.

فسأل أوردينر بصوتٍ هادئ:

– هل يعني إذن بلوغ الهدف ذاته أن يؤثر المرءُ موتاً عقيماً على خطرٍ مفيد؟

هزَّ براآل رأسه، فيما كان أخوهُ يحدِّق بالشّاب المغامرِ بنظرةٍ فاحصة. وهتَفَ صيادُ الأسماك فجأة:

– إني أفهم. إنك تريدُ أن تكسبَ الألفَ ريالٍ ذهبيّ التي وَعَد بها المأمورُ الأعلى مقابل رأس شيطانُ إيسلندا.

فابتسمَ أوردينر.

وتابع صيادُ الأسماك بانفعال:

– أيّها السَّيد الشابّ، تخلّ عن هذا المشروع. فأنا فقيرٌ وعجوز. وربّما لا أعطي ما تبقّى لي من الحياة مقابلَ نقودك الألف ريالٍ ملكي، حتى لوبقي لي يومٌ واحد.

كانت عينُ المرأة المتوسلة والمتعاطفة ترقبُ التأثير الذي يمكنُ أن يُحدثه على السّيد الشابُ رجاءُ زوجها. فسارع أوردينر إلى الردّ:

– إنها لمصلحة أكبر تلك التي تجعلني أبحثُ عن ذلك اللّص الذي تسموّنه الشّيطان: إنها لأجلِ آخرين أكثر مما هي لأجلي...

أما الجبليّ الذي لم يكن قد أزاحَ نظرهُ للحظةٍ من الزّمن عن أوردينر، فقد قاطعه قائلاً:

– إنيّ أفهمُك بدوري، وأعلم لماذا تبحثُ عن الشيطانِ الإيسلندي.

فقال الشابّ:

– أريدُ أن أجبره على القتال.

فقال كينيبول:

– هذا هو الأمر. إنّك مكلّفٌ بمصالح كبرى، أليس كذلك؟

– قلت ذلك للتوّ.

فاقترب الرَّجلُ الجبليّ من الشاب بهيئةٍ تدلُّ على التَّفهُّم. وقد سمعه أوردينر يقول له في أذنه بصوتٍ هامسٍ، وقد اعترتّه دهشةٌ متناهية:

– وهذا لأجلِ الكونت شوماكير دوغريفنفلد، أليس هذا صحيحاً؟

فهتف أوردينر:

– أيها الرّجلُ الشهم، وكيف تعرفُ ذلك...؟

وفي حقيقة الأمر، كان من الصّعب بالنسبة إليه أن يفسِّر كيف أن رجلاً جبليّاً نرويجيّاً كان قادراً على معرفةِ سرٍّ لم يبحْ به لأحد، وحتى للجنرال لوفان.

انحنى كينيبول عليه، وتابع باللّهجةِ الغامضةِ نفسها:

– أتمنى لك نجاحاً طيباً، فأنت شابٌ نبيل، لأنك تخدمُ المضطهدين على هذا النّحو.

كانت دهشةُ أوردينر كبيرة بحيث لم يكدْ يجدُ الكلماتِ المناسبة لكي يسأل الرّجل الجبلي عن الطريقة التي علم بها غرضَ رحلته.

وقال كينيبول وهو يضعُ إصبعه على فمه:

– الصّمت. آمل أن تحصل من ساكنِ فالديروغ على ما ترغبُ فيه. إن ساعدي مخلصٌ، مثل ساعدك، لسجين مونكولم.

ثم رفع صوتَه، قبل أن يتمكن أوردينر من الردّ، وتابع قائلاً:

– يا أخي، ويا أختي مآز. استقبلا هذا الشابَّ المحترم وكأنه أخٌ ثالثٌ أيضاً، هيّا، أظن أنَّ العشاءَ جاهز...

– ماذا! لا شكّ أنك قد جعلت لطافته تقرّرُ التّخلي عن مشروعِ زيارة الشّيطان؟

– يا أختي، صليّ لكي لا يحدثَ له سوءٌ البتّة. إنه شابٌ نبيل، وعزيزُ النّفس، هيّا، أيها السّيد الشهّم. تناولْ بعضَ الغذاء، وخذ قسطاً من الراحة معنا. وغداً، سوف أدلّك على طريقك، ولسوف تذهبُ لكي نبحثَ، أنتَ عن شيطانِك، وأنا عن دبيّ.

الفصل التّاسع والعشرون

هناك ضروبٌ من المصائب التي يصبحُ فيها
حتى حضورُ العدّوِّ نفسه أمراً مستحباً.

كالديرون، الأمير كونستان [1]

يا رفيقي، إيه! يا رفيقي، من أيّ
رفيق قد ولدتَ إذن؟ ومن أيِّ
ابن لبني البشر أتيت لكي تجرؤ
هكذا على مهاجمةِ فافنير؟

إيدّا.

ما كاد أوّلُ شعاعٍ للشمس المشرقة يصبغُ بالحمرة أعلى ذروةٍ من ذرى الصّخور التي تحاذي البحرَ، حتى رأى صيادُ أسماكٍ آتٍ قبل الفجر ليُلقي شباكه على مرمى بندقيةٍ من السّاحل، قبالة مغارة فالديروغ، حتى رأى ما يشبهُ شكلاً

(١) عبارة مقتبسة، حذفت عام ١٨٣٣.

متلفّعاً بمعطفٍ أو بكفنٍ ينزلُ بمحاذاة الصّخور ويختفي تحت القبّة الهائلة للمغارة. وإذْ صعقه الذّعر، فقد عهد بمركبه وروحه إلى القدّيس أو سوف، وهرعَ إلى عائلته المرتعبة ليروي لها أنّه قد لمح أحدَ تلك الأشباح التي تسكنُ قصرَ هان الإيسلنديّ، وهي ترجعُ إلى المغارة. عند طلوع النّهار.

هذا الشّبحُ، وحديثُ سهرات الشتاء الطويلة وذعرها، كان أوردينر، الابنَ النبيل لنائبِ ملك النرويج الذي أتى وحيداً، ومجهولاً لكي يخاطرَ بحياته، من أجل تلك التي كان قد منحها قلبه ومستقبله، من أجلِ ابنةِ رجلٍ مُبعَد.

وكانت قد رافقته إلى هدف رحلته هذا توقّعاتٌ حزينةٌ، وتنبّؤاتٌ مشؤومة، وكان قد غادر لتوّه أسرةَ صياد الأسماك، بعد أن ودَّعها. فأخذت الطيِّبةُ مآز تصلّي لأجله، أمام عتبةِ بابها. أما الرّجلُ الجبليّ كينيبول ورفاقُه السّتة الذين دلّوه على الطريق، فقد افترقوا عنه، بعدَ نصف ميلٍ من فالديروغ. وكان هؤلاء الصّيادون الجسورون الذين يذهبون ضاحكين لمواجهةِ دبّ، كانوا يحدّقون بنظرةٍ مرتعبةٍ بالشّعبِ الذي يسلكه المسافرُ المغامر.

دخل الشابُّ إلى مغارة فالديروغ كما يدخلُ المرءُ إلى مرفأ طالما رغب في الدّخول إليه(١). فلقد كان يشعر بفرح سماويّ حين يفكرّ بأنّه سوف يكون

(١) إنه اللّقاء بين أوردينر و «مستحيله» الذي يتمثّل في التزامن بين «حبِ نبيل» و «إخلاصٍ جميل». وتراكب الصّورتين، صورة «الوحش» و «العذاء الأسيرة» تعبّر بشكلٍ كافٍ عن التباس ذلك الحبّ: إنه طريقةٌ للانتحار. وهو أيضاً المعركة بين السّيفِ والبلطةِ الحجرية، معركة غوليفر وغوليات، وهي معركةٌ وحشية، ولكنها ذات قواعد، مثل معركة أوراس، في ثلاثة أوقات، وثلاث حركات»)من كتاب «الله» وقد أوردها بيير ألبوي في: الإبداع الأسطوري عند فيكتور هيغو، طبعة كورتي، ١٩٦٣، الصفحة: ٣٤٤، رقم: ١٣٠)، السّجن الحجري، وهو مكانُ إقامةِ المكرّسة له مسبقاً، السّجن الذي يهربُ منه هذا الأخير، فيكون قد عفا في الوقتِ نفسه عن ضحيّته. ويمكن أن نشبّه هذا الأمر بما سيحدث في «رواية» عمّال البحر. ولكن جيليات، على العكس، يقتلُ الأخطبوط.

برفقةِ موضوعِ حياته، وأنّه ربَّما بعد بضعِ لحظات، سيكون قد أعطى إيتيل دمه كلَّه. وحين أوشك على أن يهاجم لصّاً تهابُه مقاطعةٌ بكاملها، ووحشاً، وربّما شيطاناً، لم تكن تلك الصّورةُ المرعبةُ هي التي تتبدّى لخياله، فهو لم يكن يرى إلا صورةَ العذراء الرّقيقة الأسيرة التي تصلّي من أجله، بلا شكّ أمام هيكل سجنها. ولو كان مخلصاً لأيِّ شيءٍ آخر سواها، لكان يمكن أن يفكّر للحظة من الزّمن بالأخطار التي أتى ساعياً إليها من بعيد، لكي يزدري تلك الأخطار. ولكن هل يجد التفكّر له مكاناً في قلبِ شاب، في اللحظةِ التي يخفقُ فيها بحماسةٍ مضاعفةٍ للإخلاص الجميل، والحبِّ النبيل؟ لقد تقدَّم، مرفوعَ الرأسَ، تحت القبّة الرّنانةِ، والتي كانت أصداؤها الألف تضاعفُ صوتَ خطواته، من غير أن يُنعم النَّظر حتى بالنّوازل، والصّخور البازلتية الموغلة في القدم، والتي كانت تتدلّى فوق رأسه، بين مخاريط الطّحالب واللبلاب، وحزّاز الصّخر. إنّها ألوانٌ من التأليفِ المختلط لأشكالٍ غريبة كانت سرعةُ التّصديق المتطيّرة لدى الريفيين النّرويجيين قد صنعت منها غير مرّةٍ حشداً من الشياطين، ومن مواكبِ الأشباح...

لقد مرّ بعدمِ الاكتراث نفسه بقرب ذلك القبر، قبر الملك فادير والذي كان يرتبط به العديدُ من التقاليد الحداديّة؛ فلم يسمعْ صوتاً آخر غير صفير رياح الشّمالِ الطويل تحت تلك السّراديب الجنائزية.

واصل سيرَه تحت تلك الأروقة المقنطرة المتعرّجة، والتي تنيرُها إنارةً ضعيفةً فجواتٌ مسدودةٌ جزئياً بالأعشاب، وشجيرات الخَلَنج. وكانت قدمُه تصطدمُ غالباً بمهدَّمات لا ندري ما هي. وكانت تتدحرجُ على الصّخر بتجويفاته، فتعرضُ لناظريه، في الظلّ، وكأنها جماجمُ محطمة، أو صفوفٌ طويلةٌ من الأسنان البيضاء، والمجرّدة حتى جذورها.

ولكن لم يرْقَ إلى روحِه أيُّ رعب، بل كان مدهوشاً فقط لأنه لم يكن قد التقى بعد السّاكنَ الرّهيب لتلك المغارة المرعبةِ.

وصل إلى ما يشبهُ قاعةً دائريةً، محفورة طبيعيّاً في خاصرةِ الصّخرة. فإلى ذلك الموضع كانت تؤدي الطريق السردابية التي سلكها. أما حيطانُ القاعةِ فلم تكن تكشف عن أيّةِ فتحةٍ أخرى سوى شقوق عريضة. كان المرء يلمح من خلالها الجبال، والغابات الخارجية.

وإذ فوجئ أوردينر، لأنّه قد طافَ بصورةٍ غير مجدية، في أرجاء المغارة المشؤومة كلِّها. وعلى ذلك النحو؛ فقد بدأ يقنطُ من لقاء اللّص. واسترعى انتباهَه مبنىً ذو شكلٍ غريب، يقع في منتصفِ القاعة السردابية. إنه مكوّنٌ من ثلاثة أحجار طويلة وضخمة، موضوعة على الأرض بصورةٍ منتصبة. وتسندُ حجراً رابعاً، عريضاً ومربّع الشكل، وكأنّها ثلاثُ دعاماتٍ تحملُ سقفاً. وكان يرتفعُ تحت هذا الضربِ من المنصب الثلاثيّ القوائم والعملاق نوعٌ من هيكلٍ تشكّلُه أيضاً قطعةٌ واحدة من الصّوان، ومثقوبة ثقباً دائريّاً في منتصفِ وجهها العلوي. لقد تعرَّف أوردينر فيها على أحد تلك المباني الدرويدية الجبّارة التي غالباً ما كان يلاحظها أثناء أسفاره في النرويج، والتي ربّما تكونُ نماذجُها الأكثر إثارةً للإعجاب، في فرنسا هي أوابدُ لوكمارياكير، والكرنك [1]. إنها مبانٍ غريبةٌ قد شاخت، وقد وضعت على الأرض مثل خيامٍ تُنصَبُ ليومٍ واحد، وتتولدّ صلابتُها من ثقلها وحده.

(١) «لقد قطع لي السّيد لامونيّه وعداً بالذّهاب، في العام القادم إلى بروتانيا... وقد حدّثني كثيراً عن أوابد لوكمارياكير، وعن أحجارِ الكرنك إلخ. ولعلّ رؤيتها برفقة ذلك الصّديق الشهير يضيفُ بلا شكّ جاذبيةً كبيرةً على الرّحلة.» (فيكتور هيغو إلى أدولف ترييوشيه، ٢٣ أيلول ١٨٢٢).

أما الشابُّ الذي انساق خلف أحلام يقظته، فقد اتكأ بصورة آلية على ذللك الهيكل الذي كان بابُه الحجريّ مصقولاً لكثرة ما كان قد تشرّبَ من دماء الضحايا البشرية تشرُّباً عميقاً[1].

ارتعد فجأة؛ فقد طرقَ سمعَه صوتٌ بدا كأنه خارجٌ من الحجر:

– أيها الشابّ، إنّما أتيت إلى هذا المكان بقدمين تلامسان القبر.

فنهض فجأة، وانقضت يدُه على سيفه؛ فيما كان صدىً ضعيف كصوتِ ميت، يردّد بوضوحٍ في أعماقِ المغارة:

– أيها الشابّ، إنما أتيتَ إلى هذا المكان بقدمين تلامسان القبر.

في تلك اللحظة، ارتفع رأسٌ مرعبٌ من الجهة الأخرى من الهيكل الدرويدي، ذو شعرٍ أحمر، وهو يضحك ضحكاً وحشياً، وكرَّر قائلاً:

– أيّها الشّاب، لقد أتيتَ إلى هذا المكان بقدمين تلامسان القبر.

فردّ الشاب من غير اضطراب:

– وبيدٍ تمسك سيفاً.

فخرج الوحشُ خروجاً كاملاً من تحت الهيكل، وأظهر أطرافه المربوعةَ والعصبيّة، وملابَسه الوحشية والمضرَّجة بالدَّم، ويديه المعقوفتين، وبلطتِه الحجرية الثقيلة. وقال بزمجرةِ الحيوانِ الوحشيّ:

(١) إن الأرضَ بكاملها، والتي تبلّت بالدّم، ليست سوى هيكلٍ لا بدَّ أن يُذبَح فيه كلُّ ما يحيا بلا نهاية، وبإفراط، وبلا انقطاع، حتى انقضاء الأشياء، وحتى انطفاءِ الشرّ، وموتِ الموت.» (جوزيف دوميستر، أمسيات سان– بترسبورغ– الحديث السّابع).

– هذا أنا .

– كنت أنتظرُك .

فتابع الشّابُّ المقدام قائلاً:

– كنت أصنعُ أكثرَ من ذلك ، كنت أبحثُ عنك .

فتكتّف اللّصَ وقال:

– هل تعلمُ من أكون؟

– نعم .

– ولستَ خائفاً إطلاقاً؟

– لم يعدْ لديّ خوف .

– كنت تشعرُ إذن بشيء من التخوُّف أثناء مجيئك إلى هنا؟

وأخذ الوحش يهزُّ رأسه بهيئةٍ ظافرة .

– كنت أخشى ألا ألتقيك .

– أنت تتحدّاني . وقدماك قد عثرتا للتوّ بجثث بشريّة!

– ربّما تعثران غداً بجثّتك .

فاستولت رجفةٌ غاضبةٌ على الرّجل القصير . أما أوردينر ، فقد كان لا يُبدي حراكاً ، وهو يحافظُ على موقفه الهادئ والأنوف.

فهمهم اللصّ قائلاً:

– احترس! سوف أنقضُ عليك كما ينقضّ وابلُ البَردَ النّرويجي على مظلّةٍ كبيرة.

– لا أريدُ ترساً آخر ضدّك.

إن المرءَ ليظنّ أن في نظرةِ أوردينر شيئاً يسيطر به على الوحش. أخذ ينتزعُ وبرَ معطفه، مثل نمرٍ يلتهمُ العشب، قبل أن ينقضَّ على فريسته.

وقال:

– إنك تعلمّني ما هي الرأفة.

– وأنت تعلمني ما هو الازدراء.

– أيها الطفل، إنّ صوتَك رقيق، ووجهُك طريّ، مثل صوتِ ووجهِ فتاة. – فأيّةُ ميتةٍ تريدُها مني؟

– ميتتك.

وضحك الرّجلُ القصيرُ، وقال:

– أنت لا تعلم البتة أني شيطان، وأن روحي هي روحُ إنغولف الجزّار.

– أعلم أنّك لصّ، وأنك ترتكبُ القتلَ مقابلَ الذّهب.

فقاطعه الوحش:

– أنت مخطئ، فأنا أقتلُ من أجل الدّم.

– ألم يدفعْ لك آل دالفيد لتقتلَ النقيب ديسبولسن؟

– ما الذي تقولُه لي؟ وما هي هذه الأسماء؟

– ألا تعرفُ النقيب ديسبولسن الذي اغتلتَه في ساحل أورشتال الرمليّ...؟

– هذا ممكن، ولكني نسيتُه، كما سأكون قد نسيتُك بعد ثلاثة أيّام.

– ألا تعرف الكونت دالفيد الذي دفع لك المالَ لقاءَ علبةٍ حديدية صغيرة تنتزعُها من النقيب؟

– دالفيد انتظرْ؛ أجل، أعرفه. لقد شربتُ البارحةَ دمَ ابنه في جمجمة ابني.

فارتعد أوردينر من الهول، وقال:

– ألم تكن مسروراً من أجرك؟

فسأل اللّص:

– أيّ أجر؟

– اسمع: إن مرآك يزعجُني، وينبغي الانتهاءُ من الأمر؛ فقد اختلستَ منذ ثمانية أيام صندوقاً حديديّاً من إحدى ضحاياك، من أحَدِ ضبّاط مونكولم؟

فجعلت هذه الكلمةُ الوحشَ يرتعدُ، وقال بصوتٍ غير واضح:

– أحد ضبّاط مونكولم؟

ثم استأنف وهو يقومُ بحركةٍ تنمُّ عن الدَهشة:

– لعلّك أنت أيضاً أحدُ ضبّاط مونكولم، أنت؟...

فقال أوردينر:

– لا.

– هذا أسوأ!

وتكدّرت ملامحُ اللّص.

فردّد أوردينر مصرّاً على موقفه:

– أين هذه العلبةُ التي اختلستها من النقيب؟

فبدأ أن الرّجل القصير القامة يتفكّر للحظةٍ من الزّمن، وقال:

– وحقّ إنغولف، تلك علبةٌ لعينة من الحديد تشغلُ العديدَ من الأذهان، وأنا أجيبُك بأنهم سيبحثون فترة أقلّ عن تلك العلبة التي تحتوي عظامك، إذا ما قُيضَ لها يوماً أن تجمع في تابوت.

إن هذه الكلمات التي بيّنت لأوردينر أن اللّصَّ يعرفُ العلبة التي كان يُحدّثه عنها، أعادت إليه الأملَ في استعادتها.

– قلْ لي. ماذا فعلتَ بتلك العلبةِ، هل هي بحوزةِ الكونت دالفيد؟

– لا.

– أنت تكذبُ، لأنك تضحك.

- فلتظنّ ما تريد. ماذا يهمّني!

كانت ملامحُ الوحش في الحقيقة قد اتخذت مظهراً هازئاً يوحي بالرّيبة لأوردينر؛ فرأى أنه لم يعد هناك شيءٌ يفعله سوى أن يستثير غضبه. أو أن يخيفه، إذا كان ذلك ممكناً. فقال له، وهو يرفع صوته:

- اسمعني، يجب أن تعطيني هذه العلبة.

فردَّ عليه بضحكةٍ ساخرةٍ عاتية:

فكرّر الشابُّ بصوتٍ مزمجر:

- يجب أن تعطيني إياها:

فردَّ الوحشُ بالضحكة نفسها؛

- هل أنت معتادٌ على أن تُصدِرَ الأوامرَ للجواميس والدّببة؟

- قد أُصدرُ منها للشيطان، في الجحيم.

- هذا ما سيكونُ بوسعك أن تفعله بعد قليل.

فسحب أوردينر سيفه الذي التمع في الظلمة كالبرق، وقال:

- أطعْ!

فتابع الآخر وهو يهزُّ بلطته:

- هيّا. كان الأمرُ متوقفاً عليّ لكي أحطمَّ عظامَك، وأشربَ دمك حين

وصلت. ولكنّي تمالكتُ نفسي، وكان لديَّ فضول لرؤيةِ دوريّ طليق ينقضّ على نسر.

فصاح به أوردينر:

– أيها الحقير، دافعْ عن نفسك.

فدمدم اللّص وهو يصرْ على أسنانه:

– هذه هي المرّةُ الأولى التي يُقال لي ذلك فيها.

وما إن تكلّم على هذا النّحو، حتى وثَبَ فوق الهيكل الصَّواني، وتجمَّع على نفسه، مثل فهدُ ينتظرُ الصّياد من أعلى إحدى الصخور لكي ينقضّ عليه فجأة.

كانت عينُه المحدّقة تتفحّصُ الشّاب من ذلك المكان، وكأنها تفتّش عن الجهة التي يمكن الانقضاضُ عليه منها. ولو انتظر أوردينر النبيل لحظةً واحدة لكان قد قُضي عليه. غير أنه لم يعطِ اللّص الوقت ليفكر، وانقضّ عليه انقضاضاً متهوّراً، وهو يضعُ رأسَ سيفه في وجهه.

حينئذ، بدأت المعركة الأكثر رعباً، والتي يمكن للخيال أن يتصوّرها. كان الرّجلُ القصيرُ، بوقوفه فوق الهيكل مثل تمثالٍ على قاعدته، يبدو كأنه أحد تلك الأصنام المعبودة المرعبةِ في القرون الهمجية، والتي كانت تستقبل في هذا المكان نفسه قرابينَ كافرة، وتقدمات مدنّسة. كانت حركاتُه جدُّ سريعة بحيث أن أوردينر، ومن أية جهةٍ كانت يهاجمه منها، كان يلتقي دوماً وجهَ الوحش وحدَّ بلطته. وكان يمكن له أن يتمزّق تمزيقاً منذ الصّدمات الأولى، لو لم يهده

إلهامُه الموفّقُ إلى لفٍّ معطفه حول ساعده الأيسر، بحيث يضيع معظمُ ضرباتِ عدوِّه الهائج في ذلك التّرس العائم. لقد بذلا، على هذا المنوال، وخلال بضعِ دقائق، جهوداً خارقة، لكي يجرحَ أحدُهما الآخر، ولكن، بلا جدوى. كانت عينا الرّجلِ القصيرِ المتقدتان تخرجان من محجرهما. وإذْ فوجئ بأن من قاتَلَه بتلك الدّرجة من القوّة والجرأة قد كان خصماً جدَّ ضعيف ظاهريّاً، فقد حلَّ عنده غضبٌ قاتمٌ محلَّ ضحكاته السّاخرة الوحشية. وكانَ الجمودُ الشرسُ في قسماتِ وجه الوحش، والهدوءُ المقدامُ في قسماتِ وجه أوردنير يتعارضان خصوصاًمع سرعةِ حركاتهما وحيويةِ هجماتها.

لم يكن يُسمعُ صوتُ آخر سوى قعقعة الأسلحة، وخطوات الشّاب الصاعقة، وتنفُّس المتقاتلين الضّيّق، حين أطلقَ الرَّجلُ القصيرُ القامة زمجرةً مرعبة؛ فقد ولج حدُّ بلطته منذ قليل في ثنياتِ المعطف؛ فتصلّب الوحشُ، وهزَّ ذراعه بغضب، فكان كلُّ ما صنعه هو أنه شبك القبضة والحدَّ داخل القماش الذي كان عند كلِّ جهدٍ جديد، يلتوي أكثر فأكثر من الجوانب.

رأى اللّصُّ المخيف إذن أن نصْلَ الشّاب يضغطُ على صدره، فقال له أوردينر ظافراً:

- اصغ إليّ مرّة أيضاً. هل تريد أن تسلّمني ذلك الصّندوقَ الحديديّ الذي سرقته بجبن؟

التزم الرّجلُ القصيرُ الصمت للحظةٍ من الزّمن، ثم قال في وسطِ زمجرةٍ أطلقها.

- كلاّ، ولتكن ملعوناً!

فردّد أوردينر، من غير أن يتخلّى عن موقفه المنتصر والمتوعّد:

– فكرّ، أيّها الشّقي!

فكرّر اللّص.

– كلا، قلتُ لك كلا.

فخفض الشابُّ النبيلُ سيفَه، وقال:

– حسناً، انزع بلطتك من ثنايا معطفي، حتى يمكننا أن نتابع.

فكان جوابُ الوحش ضحكة ازدراء، وقال:

– أيّها الطّفل، إنك تلعبُ دور الشّهم، وكأني كنت بحاجةٍ لذلك!

وقبل أن يتمكن أوردينر الذي فوجئ من أن يُدير رأسه، كان الوحش قد وضع قدمه على كتف الرّجل الشهم الذي انتصر عليه، وأصبح بقفزةٍ واحدة في القاعة، على بُعد اثني عشر قدماً.

وأصبح بقفزةٍ ثانية فوق أوردينر، وقد تعلّق به بكليّته كما يتشبّث الفهدُ بشدقه ومخالبه بخاصرتي الأسدِ الكبير. كانت أظافرُه تنغرزُ في كتفيّ الشّاب، وركبتاه المليئتان بالعقد تضغطان على وركيه، فيما كان وجهُه القبيح يقدم لعيني أوردينر فماً مضرَّجاً بالدَّم، وأسنانَ حيوانٍ متوحّش مستعد لتمزيقه. لم يعدْ يتكلّم. ولم يكن أيُّ كلامٍ بشريّ يُفلتُ من حلقه المتدليّ. كان خوارٌ مكتومٍ، مختلط بصرخاتٍ مبحوحةٍ ومضطرمة، تعبّر وحدَها عن غضبه.

لقد كان شيئاً أكثر شناعةً من وحشٍ ضارٍ، وأكثر وحشيةً من شيطان. لقد كان إنساناً لم يبق فيه شيء بشريّ.

كان أوردينر قد ترنّح تحت هجوم الرّجل القصير، وكان يمكن أن يسقطَ بسبب تلك الصّدمة غير المتوقعة، لو لم تكن إحدى الركائز العريضة، ركائز الآبدةِ الدّرويديّة موجودة وراءه تسندُه، فمكث، والحالةُ هذه، منقلباً جزئياً على ظَهره، ولاهثاً تحت ثقلِ عدوِّه المزعج. فلنتصوّرْ أن كلَّ ما وصفناه منذ قليل قد حدث في وقتٍ يعادلُ في قصره الوقتَ اللازمَ لكي يستطيعَ المرءُ تخيُّله؛ فتتوفّر لدينا فكرةٌ عما كانت تمثّله من أمرٍ مرعبٍ لحظةَ الصّراعِ تلك. لقد قلنا إن ذلك الشابّ النبيل قد كان يترنَّح، ولكنه لم يرتعدْ، فسارعَ إلى وداعِ فتاته إيتيل بالفكر. وكانت فكرةُ الحبّ تلك أشبه ما تكون بصلاة؛ فقد أعادتْ إليه قواه، فاحتضنَ الوحشَ بساعديه، ثم أمسك بشفرة سيفه، وضغط عمودياً برأسِ سيفه على سلسلة ظهره، فأطلقَ اللّصُّ المصابُ صيحةً مرعبة، وبقفزةٍ فجائيّة منه، زعزعَ أوردينر، وتخلَّصَ من ساعدي خصمه المقدام، وانطلقَ ليسقطَ إلى الوراء، على بعدِ بضعِ خطوات، حاملاً بين أسنانه مِزقةً من المعطف الأخضر الذي كان يعضّ عليه أثناء غَضبه المسعور.

لقد نهض من جديد، مرناً ورشيقاً مثل صغيرِ الشّاموا، وبدأت المعركة للمرّة الثالثة بصورةٍ مخيفة أكثر، وكانت الصدفةُ قد رمت بقربِ المكان الذي كان موجوداً فيه كَومةً من قطعِ الصّخور التي كانت الطّحالبُ والأشواكُ تنمو بينها نموّاً هادئاً منذ قرون. إن رَجلين عاديّين في قوّتهما كان يمكنُ لهما بصعوبة أن يرفعا أصغر هذه الكتل؛ فأخذ اللصُّ واحدةً منها بكلتي يديه، ورفعها من فوق رأسه، وهو يلوّح بها باتجاه أوردينر. كانت نظرته فظيعة في تلك اللحظة. أما الحُجر الذي ألقاه بعنف؛ فقد اخترقَ المسافة اختراقاً ثقيلاً. ولم يكن لدى الشابّ إلاّ مايكفي من الوقت لكي يحيدَ عنه؛ فتحطّمت قطعةُ الصّوان إلى شظايا في أسفلِ الجدار السّردابيّ بصوتٍ مفزع أرجعته طويلاً أصداءُ المغارةِ العميقة.

لم يكد يتسنّى لأوردينر المذهول الوقتُ لكي يستعيدَ رباطةَ جأشه، حتى كانت تترجَّحُ بين يدي اللّصّ كتلةٌ حجريةٌ أخرى. أما أوردينر، الذي تملّكه الغضبُ، لأنه ألفى نفسه عرضةً للرّجم بالحجارة على ذلك النحو الجبان، فاندفع نحو الرّجلِ القصير القامة، رافعاً سيفه، لكي يبدّل المعركة. غير أن الكتلة الهائلة التي انطلقت كالرّعد، التقت، وهي تتدحرجُ في الفضاء الكثيف والمعتم للمغارة، الشّفرةَ السّريعة العطب، والمجرّدة في طريقها، فتساقطت الشفرةُ شظايا وكأنها قطعة من الزّجاج [1]. فملأ الضّحكُ العاتي، ضحكُ الوحش، القبّة، وغدا أوردينر مجرَّداً من السّلاح.

فصاحَ به الوحش:

– ألديك شيء تقولهُ للّه أو الشّيطان قبل أن تموت؟

وكانت عينُه تطلقُ الشرَّر، وكلُّ عضلاته قد تصلّبت من الغضب والفرح، وهرعَ إلى بلطته المتروكة على الأرض في ثنايا المعطف، وهو يرتعشُ بلهفة... – يالإيتيل المسكينة!

وفي الحال، تُسمع زمجرةٌ بعيدةٌ في الخارج، فيتوقّف الوحشُ، وتزدادُ الضوضاء، ويختلطُ صخبٌ يحدثُه بزمجرات شاكيةٍ لدبّ. ويصغي؛ فتتواصلُ الصّرخات الأليمة، فيمسكُ فجأة بلطته ويندفع، ليس أوردينر، وإنما نحو إحدى الفجوات التي تحدّثنا عنها والتي كان الضوء يمرُّ منها. أما أوردينر الذي

(١) مثل سيف سيغموند في: الفالكيري (آلهة القدر الإسكندنافية إلخ...)، يجعلُنا أوردينر نفكّر بسيغفريد الذي يسعى إلى معرفة الخوف، أو بذلك الذي (يمضي بحثاً عن الخوف) في حكاية عزيم. وهل ينبغي أن نذكّر بأن مناخ القصائد الغاغنريّة هو مناخُ «الأشعار القديمة». وفي درونتهايم، صنعوا من تمثال فريا تمثال العدالة الذين يزينُ السّاحة الكبرى (الفصل: ٧ و ١٦)، وفي مقدّمة الفصل: ٢٥، تصدحُ المقدّمة المقتبسة بـ «نشيد فافنير».

بلغت دهشته أقصى حدٍّ لها، لأنه ألفى نفسه منسيّاً، فيتوجّه مثله نحو أحَد تلك الأبواب الطبيعيّة، ويرى، في فسحة مجاورة إلى حدٍّ كاف، دبّاً أبيض يضَايقُه أشدَّ المضايقة سبعةُ صيادين، ويظنُّ أنّه يميّز بينهم حتى ذلك المدعو كينيبول الذي كان كلامُه قد أدهَشَه كثيراً في اليوم السّابق.

يرجع أوردينر، ولكن اللّصّ لم يعدْ في المغارة، ويَسمعُ في الخارج صوتاً يصرخ: فريند! لبّيك! ها أنا ذا!

الفصل الثّلاثون

هذا لأنّه... أترى ذلك يا سيّدي النقيب، منذ أن
ضاعَ ذلك المسكينُ راسك. كلبُكَ الجميل، لاحظتُ،
إذا سمحتَ لي يا سيّدي، أنّه كان ينقُصك شيءٌ ما.

حكايات تحت الخيمة، بوغ - جارغال[1]

كان فوجُ حاملي بنادقِ مونكّولم يسيرُ عبر الشّعابِ الواقعة بين درونتهايم وسكونجن؛ فتارةً يسيرُ بمحاذاة سيل، فنرى رتلَ الحراب الذي يزحفُ في السّيول الجبلية، مثل حيّةٍ طويلةٍ تلتمع حراشفُها في الضَوء، وتارةً، يدورُ بشكلٍ لولبي حول جبلٍ يشبه حينذاك تلك الأرتالَ الظافرة التي تصعدُ حولها كتائبُ برونزية.

---

(١) مقدسة مقتبسة استُبدِلَ بها عام ١٨٣٣ شاهدٌ مأخوذٌ عن ماتوران رينييه: «إن بيير الطفلَ الطيِّب الذي يلعبُ بالنّرد قد خسرَ كلَّ شيء.». وكان النّص الأولُ لبوغ - جارغال قد صدر في الكونسرفاتور ليتريرِ (المحافظ الأدبي) بين ٦-١٧ حزيران ١٨٢٠. وكان هيغو قد أطلَق على كلبِ النّقيب ديلما، اسم: راسموس - كريستيان راسك ١٧٨٧ -١٨٣٢)، وهو لغوّي دانمركي، ومؤلف كتاب: «أصول اللّغة الإيسلندية(١٨١٨)».

الجنود يسيرون، وأسلحتهُم مخفضة، ومعاطفُهم مفتوحةٌ بهيئة تنمُّ عن الانزعاج والضّجر، لأن هؤلاء الرّجال النبلاء لا يحبّون إلّا القتال أو الرّاحة. إن السّخرياتِ الفظّة، والتهكّماتِ القديمة التي كانت بالأمس تلذُ لهم لم تعدْ تُفرِحُهم اليوم. إن الهواء باردٌ والسّماءَ مضبَّة، وينبغي على الأقل، لكي يرتفع ضحك عابرٌ بين الصّفوف، أن تدعَ قيمّةُ مطعم الجنود نفسَها تسقطُ بصورةٍ خرقاء من أعلى حصانها القصير الغّر، أو أن تتدحرجَ مقلاةٌ من الصّفيح، من صخرةٍ إلى صخرةِ حتى أعماقِ الجرف.

فمن أجل أن يتلهّى الملازمُ راندمير، البارون الدانمركّي الشّاب، عن ضجرِ ذلك الطّريق، إنّما دنا من النقيب لوري، العسكريّ المغامر. كان النقيب يسيرُ، وهو مغتمٌ وصامتٌ، بخطوةٍ ثقيلة، ولكنها ثابتة، أمّا الملازمُ، الرّشيقُ والخفيفُ، فقد كان يجعلُ عصىً انتزعها من العلّيق الذي يحيطُ بالطّريق، كان يجعلُها تصفرُ، وقد قال:

– حسناً، أيها النقيب، ماذا بك؟ أنت حزين.

فأجاب الضّابطُ العجوز من غير أن يرفع رأسَه:

– هذا لأن لديّ سبباً لذلك، على ما يظهر.

– هيّا، هيّا، لا تغتّم، انظر إليّ، هل أنا حزين؟ ومع ذلك، فأنا أراهنُ أنه قد يكون لديَّ سببٌ لذلك بقدر ما لديك على الأقلّ.

– أشك بذلك أيّها البارون راندمير. فقد خسرتُ الشيءَ الوحيدَ الذي أملكه، خسرتُ ثروتي كلَّها.

– أيها النقيب لوري . إن لنا الحظَّ العاثر نفسه بالضّبط؛ فمنذ أقلّ من خمسة عشر يوماً، ربح مني الملازم ألبيريك، من خلالِ لعبة نردٍ، قصري الجميل في راندمير وتوابعَه. لقد أفلستُ، فهل تراني أقلَّ مرحاً بسبب ذلك الأمر؟

فأجاب النقيب بصوتٍ حزينٍ فعلاً:

– أيها الملازم، أنت لم تخسرْ سوى قصركِ الجميل، أما أنا فقد خسرتُ كلبي.

عند هذا الرّدّ، بقيت سحنةُ الشّابّ العابثة متردّدةً بين الضّحك والحنان، فقال:

– أيّها النقيب، خفّف عن نفسك. عجباً، وأنا الذي خسرتُ قصري...

فقاطعه الآخر قائلاً:

– ما قيمةُ هذا؟ إنك، من ناحيةٍ أخرى، سوف تكسب قصراً آخر مجدّداً.

– وأنت ستجدُ كلباً آخر.

فهزّ العجوز رأسَه وقال:

– سأجدُ كلباً آخر، ولكني لن أجدَ كلبي دراك المسكين.

وتوقف، وأخذت دمعتان تتدحرجان في عينيه، ثم تسقطان واحدةً فواحدة على وجهه الجامد والقاسي، وتابع يقول:

– لم أحبّ قطّ أحداً غيره. لم أعرفْ أباً ولا أمّاً. فليمنحْهما الرّبُّ

الراحةَ، كما يمنحُ كلبيَ المسكينَ دراك - أيها الملازم راندمير. لقد أنقذ حياتي في حرب بوميرانيا. وقد سميته دراك تكريماً لذلك الأميرال الشهير. هذا الكلبُ الطّيب! إنه لم يتغيّر قطّ نحوي تبعاً لحظّي. وبعد معركة أوولفن، كان الجنرالُ شاك يداعبُه بيده، وهو يقول لي: إن لديك كلباً جميلاً حقاً، أيها الرقيب لوري!
- لأني في تلك الفترة، لم أكن بعد أكثر من رقيب.

فقاطعه البارون الشاب، وهو يحرك عصاه.

- آه! لابّد أنه أمرٌ فريدٌ حقاً أن يكون المرءُ رقيباً.

لم يكن العسكري المغامر العجوز يسمعه، وكأنه كان يتحدّثُ إلى نفسه، وكانت تُسمَعُ بصعوبةٍ بعضُ الكلماتِ المجمجمة تفلت من فمه.

- ذلك المسكين دراك! أيرجعُ مراتٍ عديدة سالماً ومعافى من الثّغورِ والخنادق لكي يغرقَ، مثل قطّ في خليج درونتهايم اللّعين! يا كلبيَ المسكين! يا صديقي الشّهم! لقد كنتَ جديراً بالموتِ مثلي في ساحة القتال.

فصاح الملازم:

- أيها النقيب المقدام، كيف يمكنكَ أن تبقى حزيناً؟ فلربّما نخوضُ القتالَ غداً.

فأجاب النقيبُ العجوزُ باحتقار:

- أجل، ضدَّ أعداء مزهوّين!

– كيف، عمال المناجم اللّصوص هؤلاء،[1] هؤلاء الجبليّون الشّياطين.

– إنهم نحّاتو حجارة، ولصوصٌ قاطعو طرق. أناسٌ لن يكون باستطاعتهم أن يشكّلوا في المعركة رأسَ خنزير، أو زاوية غوستاف آدولف. تلك هي مجموعة حلوة من السّوقة التي تقفُ في وجهِ رجلٍ مثلي، خاض حروب بوميرانيا*، وهولستين، وقام بحملات سكانيا وداليكاريا! رجلٌ حارب تحت إمرةِ الجنرال الظّافر شاك، والكونت الباسل غولدينليف...!

فقاطعه راندمير قائلاً:

– ولكنك لا تعرف أنهم قد أعطوا هذه العصاباتِ زعيماً مرهوباً، وعملاقاً قويّاً ومتوحشّاً، مثل غوليات إنه لصٌّ لا يشربُ إلاّ الدّمَ البشري، وشيطانٌ يحملُ في شخصه الشّيطانَ كلّه...

فقال الآخر:

– ومن هو إذن؟

– إيه، إنّه الشهيرُ هان الإيسلنديّ!

– برّر! أراهنُ أن هذا الجنرال المخيفَ لا يُحسِن تجهيزَ بندقيّةٍ في أربعِ حركات، أو تلقيمَ قربينة (بندقية) على الطّريقة الامبراطورية!

---

(١) مكرّر: اللّصوص كلمةٌ كانت تُستخدَمُ، حسب الأحزاب، لتدلَّ على الفانديين الذين قاموا ضد الجمهورية، عام ١٧٩٣، كما تستخدم لتدُّل على الهاربين من جيش دافو الذي انسحب إلى ما وراء اللوار، بعد سقوط باريس، عام ١٨١٥. أمّا ماريوس، في «البؤساء»، فيكون والده «لصّاً من لصوص اللّوار»: BRIGAND (الكتاب الثالث، القسم الثاني، الفصل الأول).

فانفجر راندمير ضاحكاً، وواصل النقيب قائلاً:

- أجل، اضحكْ! سيكون مفرحاً جدّاً أن تتقاطعَ سيوفٌ جيّدة مع معاولَ خسيسة، ورماحٌ نبيلةٌ مع مشاعبَ للمزابل! هاهم الأعداء اللّائقون! إن كلبي الشّهم دراك ما كان له أن يتنازلَ ليعضّ سيقانهم.

كان النقيبُ يواصلُ إطلاقَ العنانِ لغضبه، حينما قوطعَ بوصولِ ضابطٍ كان يسرعُ نحوهم مبهورَ الأنفاس:

- أيها النقيب لوري! يا عزيزي راندمير!

فقال كلاهما في آن:

- وماذا هناك؟

- يا أصدقائي... لقد جمّدني الرُّعب... إن دالفيلد! الملازم دالفيلد! ابن المستشار الكبير! أنتم تعلمون، يا عزيزي البارون راندمير، هذا المدّعو فريدريك... الأنيق جدّاً... والشّديد الزّهو...!

فردّ البارون الشابّ:

- أجل، الأنيق جدّاً! ومع ذلك، فقد كان لباسي التنكّريّ في آخرِ حفلة راقصةٍ في شارلوتمبور، أرقى ذوقاً من لباسه...! ولكن، ما الذي حدثَ له إذن؟

وكان لوري يقول في الوقت نفسه:

– أعرف عمّ تريد أن تتكلّم. إنه فريدريك دالفيلد، الملازم في السّريّة الثالثة والذي له ضربات مقلوبة غير موفقة*، وهو يؤدي خدمته بإهمال.

– لن نشكو من ذلك بعد الآن، أيّها النقيب لوري.

فقال راندمير:

– وكيف؟

وتابع العجوزُ النّقيب ببرود:

– إنه يخدمُ في موقع فالستروم.

فتابع الآخر:

– بالضبط، لقد استقبل العقيد مراسلاً منذ قليل... هذا المسكين فريدريك!

– ولكن، ماذا في الأمر إذن، أيها النقيب بولار، إنك تخيفني.

وتابع لوري العجوز:

– لابدَّ أن مغرورنَا قد تخلّفَ عن التفقّد، كعادته، وسيكونُ النّقيبُ قد أرسل ابنَ المستشار الكبير إلى السّجن، وهذه هي المصيبةُ التي تجعل وجهك متكدّراً. أنا متأكّد من ذلك!

فربت بولار على كتفه، وقال:

– أيها النقيب لوري، إن الملازم دالفيلد قد التُهم حيّاً.

حدّق كلٌّ من النقيبين بالآخر، أما راندمير، الذي دُهش للحظةٍ من الزّمن؛ فقد أخذ فجأة يقهقه، وهو يقول:

– آه! آه! أيها النقيب بولار، أرى أنك مازحٌ سيّء على الدّوام. غير أني لن أصدّق هذه المزاحة، إني أُعلمكَ بذلك.

وإذْ تكتَّفَ الملازمُ، فقد أطلق العنانَ لكلِّ مرحه، وهو يُقسِمَ بأن الأمر الذي كان يسلّيه أكثر من غيره هو سرعةُ التّصديق التي كان لوري يقابل بها اختلاقات پولار المسلية. وكان يقولُ إن الحكايةَ مثيرةٌ للضحك حقاً، وإنها لفكرةٌ مسَلّيَةٌ تماماً أن يجعلَ فريدريك هذا يُفترَسُ حيّاً وهو الذي كان يُعنى بجلده عنايةً مفعمةً بالحنّو، وجدُّ مضحكة.

وقال بولاد بلهجةٍ جادّة:

– راندمير، إنك مجنون. أقول لك إن دالفيلد قد مات. وقد بلغني ذلك من العقيد، إنّه ميت!

فردّد البارون الذي يضحكُ باستمرار:

– أوه! كم يُحسِنُ لعبَ دوره! كم هو مسلٍّ!

هزَّ بولار كتفيه، واستدار نحو العجوز لوري الذي سأله عن بعضِ التّفاصيل برباطةِ جأش: وأضاف الضّاحكُ الذي لا يتوقّف عن ضحكه:

– حقاً إنه كذلك. ارو لنا إذن على يدِ من قد جرى أكلُ هذا الرّجلِ المسكينَ بتلك الطّريقة. هل كان غداءً لذئبٍ، أو عصرونيةً لجاموس، أوَ عشاءً لدبّ؟

فقال بوالار:

– لقد تلقّى العقيدُ للتّو برقيةً في الطّريق تُعلِمه أولاً بأن حاميةَ فالستروم تنسحبُ باتّجاهنا، أمام فريقٍ ضخمٍ من المتمّردين...

فعبس العجوزُ لوري، وتابع بولار يقول:

– ثم أن الملازم فريدريك دالفيلد الذي ذهب منذ ثلاثة أيام للصّيد في الجبال، من ناحية خرائبِ أربارِ، قد التقى فيها وحشاً حمله إلى مغارته، وافترسه.

هنا، ضاعَفَ الملازم راندمير من صيحاتِ التعجّب الضاحكة، فقال:

– أوه! أوه! كم يؤمن هذا الطّيبُ لوري بحكايات الأطفال! حسناً! حافظ على جدّيتّك، يا عزيزي بولار، فأنت مثيرٌ للضحك بطريقة رائعة. غير أنك لا تقول لنا من هو هذا الوحش، هذا الغول، ومصّاصُ الدّماء هذا الذي حمل الملازم وأكله، وكأنه جديٌ عمرهُ ستة أيّام!

فتمتم بولار بنفاذ صبر:

– لن أقول لك ذلك، ولكني سأقولُه للوري، فهو ليس شخصاً شكّاكاً على نحوٍ جنونّي يا عزيزي لوري. لقد شربَ الوحشُ من دمِ فريدريك، إنّه هان الإيسلندي.

فهتف الضّابط العجوز:

– عقيد اللّصوص!

فتابع راندمير السّاخر:

– حسناً! أيها المقدامُ لوري. هل يحتاجُ المرءُ إلى معرفة التمرين على الطّريقةِ الإمبراطورية، عندما يقوم بتشغيلِ فكّه تشغيلاً جيّداً إلى ذلك الحدّ؟

فقال بولار:

– أيّها البارون راندمير. إن لديك طباعَ دالفيلد ذاتها، فاحترسْ من أن تلقى المصيرَ نفسه.

فهتف الشّاب:

– أؤكد لك أن ما يسلّيني أكثر من غيره هو جدّيُة النقيب بولار الرّابطة الجأش.

فقال هذا الأخيرُ:

– وأنا، ما يفزعُني أكثر من غيره هو المرحُ الذي لا ينضب عند الملازم راندمير.

في تلك اللحظة، اقتربت من متحادثينا الثّلاثة، ثلّةٌ من الضّباط الذّين كان يبدو أنهم يتبادلون الحديث بحماسة. وقد هتف راندمير قائلاً:

– كان ينبغي أن أسلّيهم باختلاقِ بولار.

وأضاف، وهو يتقدّم نحوهم:

– ألا تعلمون أن هذا المسكين فريدريك دالفيلد قد التُهم حيّاً على يدِ الهمجي هان الإيسلندي؟

ولم يستطع أن يكبحَ قهقهةً ضاحكة، حين أنهى هذه الكلمات، ولكنها استُقبلت، أمام دهشتِه الكبيرة، بصرخاتٍ غاضبةٍ تقريباً، صادرةٍ عن الواصلين الجدد.

– كيف! أنت تضحكُ! –لم أكن أظنّ أن راندمير كان عليه أن يردّد بهذه الطريقة خبراً كهذا– أن يضحكَ المرءُ من مصيبةٍ كهذه!

فقال راندمير وقد اعتراه الاضطرابُ:

– ماذا؟ هل يمكنُ لهذا أن يكون صحيحاً؟

فصاحوا به من كلّ جهة:

– حسناً! أنت الذي تردّد لنا ذلك. ألا تصّدقُ كلماتِك؟

– ولكني كنت أظنُ أنها مزاحةٌ من عند بولار...

فتكلّم ضابطٌ عجوزٌ قائلاً:

– كان يمكن لها أن تكون مزاحةً فاسدةَ الذّوق. ولكنها ليست كذلك، لسوء الحظّ. إن البارون فوتاون، عقيدَنا، قد تلقّى منذ قليل هذا الخبرَ المشؤوم.

فردّدت جمهرةٌ من الأصوات:

– إنها مغامرةٌ فظيعة! إنها كارثةٌ مرعبة!

وكان أحدُهم يقول:

– سوف نقاتلُ إذن ذئاباً ودببة ذاتَ وجهٍ بشري!

وكان الآخر يقول:

- سوف نتلقّى طلقات بندقية من غير أن نعرف من أين تنطلق؛ سوف نُقتَلُ واحداً فواحداً مثل طيورِ التُّدْرُجِ العجوز في المطْيَرة.

فصاح بولار بصوتٍ احتفاليّ:

- إن هذه الميتةَ تجعلُ المرءَ يرتعدُ. إن فوجنَا منكودُ الحظ؛ فموتُ ديسبولن، وموتُ هؤلاءِ الجنودِ المساكين الذين عثرنا عليهم في كاسكاديتمور، وموتُ دالفيلد، تلكَ ثلاثُ حوادث مأسوية في غضونِ وقتٍ قصير.

أما البارون الشابّ راندمير الذي بقي صامتاً، فقد خرج من أحلامِ يقظته، وقال:

- هذا أمرٌ لا يُصدّق، هذا الفتى فريدريك الذي كان يرقصُ جيّداً!

وبعد هذا التـأمّلِ العميق. عاد ليغرقَ في الصّمت، فيما كان النقيبُ لوري يؤكّد أنه قد فُجعَ كثيراً بموتِ الملازم الشاب، ولفتَ انتباهَ رامي البندقية الثاني، واسمه توريك بلفاست، بأنَ نحاسَ حمّالتهِ أقلُّ لمعاناً من المعتاد.

الفصل الحادي و الثلاثون

وإذا كان متّفقاً معهم ، مع ذلك؟ وإن لم يكن كلٌّ هذا
إلّا مأساةً مبتذلة؟ وإن لم يكن جديراً بكلّ
ما أودُّ فِعلَه له

ليسنغ[1]

– صه! صه! هناك رجلٌ ينزل من الأعلى ،
بواسطة سلّم...

... ...

– أوه! نعم ، إنه جاسوس .

– لم يكن للسّماء أن تمنحني فضلاً أكبر من
فضلِ القدرةِ على تسليمك... حياتي ، فأنا

(١) اقتباس حُذف عام ١٨٣٣ .

لك، ولكن قل لي، تكرُّماً، لمن ينتمي هذا الجيشُ؟

- إلى كونت برشلونة.

- أي كونت؟

. . . .

- ما هذا؟

- أيّها الجنرال، هذا جاسوسٌ للعدّو.

- من أين تأتي؟

- كنتُ أتياً إلى هنا... بعيداً حقاً عن أن أتصوَّر ما قُدِّر لي أن أجِدَه هنا؛ لم أكن أتوقّعُ ما أراه.

لوب دوفيغا، القوَّة الشقيّة.

هناك شيءٌ مشؤومٌ وموحشٌ في منظرِ ريف منبسط وأجرد، حين تتوارى الشمسُ، ويكون المرءُ وحدَه، وهو يسير مهشِّماً بقدمه أجزاءَ مقطوعةً من القشِّ اليابس، على صوتِ الصّرصار الرّتيب، وحين يرى غيوماً كبيرةً متبدّلةَ الشّكلِ تغيبُ عند الأفق على مهل، وكأنها جثثُ أشباح.

كان ذلك هو الانطباعُ الذي امتزج بأفكار أوردينر الحزينة، في المساء، بعد لقائه غير المجدي مع اللّص الإيسلنديّ. وإذ أصابه الذّهولُ للحظةٍ من الزمن لاختفائه المفاجئ، غير أنه تاه في شُجيرات الخَلَنج، وشردَ طيلة النّهار، في

أراضٍ غير مزروعة وبرّيّة أكثر فأكثر، دون أن يلتقي أثراً لإنسان. وعند غروبِ الشمس، كان يلفى نفسه في حقلٍ واسع لا يبسطُ أمامه، من كلٍّ جانب، غير أفقٍ متساوٍ ودائريّ لا يُعدُّ فيه شيءٌ بمثابة ملجأ للمسافر الشابّ المنهك من التعبِ والحاجة.

وأكثر من ذلك، فيا ليت تلك الآلامَ الجسدية لم تزدْها تفاقماً أحزانُ نفسه. ولكن الأمر قد قُضي! كان قد بلغ نهايةَ رحلته، من غير أن يصلَ إلى هدفها. ولم تتبقّ له حتى الأوهامُ الجنونيةُ، أوهام الأمل التي جرتّه إلى ملاحقة اللّص، والآن، وقد أصبح ما من شيء يساندُ قلبه، فإن ألفَ فكرةٍ مثبّطة للهمة، ولم يكن لها مكانٌ في قلبه بالأمس، قد أتت لتنقضّ عليه. فما الذي ينوي أن يفعله؟ وكيف يرجعُ باتجاهِ شوماكير، من غير أن يحمل إليه خلاصَ إيتيل؟ ومن أيّةِ طبيعةٍ مرعبة كانت تلك المصائب التي يمكن أن يتدراكها الحصولُ على الصّندوق المشؤوم؟ وقرانُه بأولريك دالفيلد! ليته كان قادراً على اختطاف فتاته إيتيل من ذلك الأسْرِ المشين؛ ليته كان يستطيع أن يهربَ معها، وأن يحملَ سعادته إلى منفىً قصيّ...!

تلفّعَ بمعطفه، ورقدَ على الأرض. كانت السّماءُ سوداءَ، وكان يتبدّى ضوءٌ عاصفٌ على فتراتٍ زمنيةٍ في السُّحب. كأنّما من خلالِ قماشٍ حداديّ، ثم ينطفئ وكانت ريحٌ باردةٌ تدور في السّهل، ولم يكن يخطرُ ببالِ الشابّ إلّا قليلاً بأن تلك علاماتٌ لعاصفة عنيفة وشيكة. ومن ناحية أخرى، فعندما تمكّنَ من أن يجدَ ملجأً يهربُ إليه من العاصفة، ويستريحُ من أتعابه، فهل كان يمكنُ أن يجد ملجأً له يهربُ فيه من تعاسته، ويرتاحُ من أفكاره؟

وفي الحال، تناهت إلى سمعه رنَّاتٌ مشوَّشةٌ لأصواتٍ بشرية؛ ففوجئ، ونهض على مرفقه، فلمحَ، على مسافةٍ معينةٍ منه، ما يُشبه ظلالاً تتحرّكُ في العتمة. نَظَر، فلمَعَ ضوءٌ في وسطِ جماعةٍ غامضةِ المعالم، ورأى أوردينر بدهشةٍ يسهلُ تصوّرها، كلَّ واحدةٍ من تلك الأشكالِ الشَبحيّة تغوصُ في الأرض.. واختفى كلّ شيء.

كان أوردينر متجاوزاً لمعتقداتِ عصره وبلده الباطلة، وكان فكرُهُ الجادّ والنّاضج يجهلُ تلك السّذاجاتِ العبثيّة، وضروبَ الرُّعبِ الغريبة التي تعذّب طفولةَ الشعوب، كما تعذِّبُ طفولة البشر. ومع ذلك، فقد كان في ذلك الظّهورِ الغريب شيءٌ خارقٌ للطّبيعة قد أوحى له بأن يرتابَ ارتياباً دينياً بعقله، لأنه ما من أحد يعلمُ إن كانت أرواحُ الموتى ترجع أحياناً إلى الأرض.

نهضَ ورسمَ إشارةَ الصّليب، وتوجّه إلى المكان الذي اختفت فيه الرّؤيا. وكانت قطراتٌ من المطر قد بدأت تهطلُ، وكان معطفُه ينتفخُ مثل شراع، وريشةُ طاقيّتهِ التي تزعجُها الرّيحُ تصفقُ وجهَه.

توقّف فجأة – وجعله برقٌ يُرى أمام خطواته نوعاً من بئرٍ دائريةٍ كان يمكن أن يهوي فيها بلا ريب من غير ضوءِ العاصفةِ الحسن التأثير. فاقتربَ من الهوّة. وكان نورٌ باهتٌ يلتمع فيها على عمق مرعب، وينشرُ لوناً مائلاً إلى الأحمر، على الحواف السّفلى لذلك المخروط الهائل المحفور في أحشاء الأرض. إن هذا الشّعاعَ الذي كان يبدو كأنّه نارٌ سحريّة تشعلُها أقزامُ الحكايات، كان يزيدُ، إذا صحَّ التعبير، من امتدادِ الظّلماتِ الشاسع والتي كانت العينُ مجبرةً على اجتيازها لكي تصل إليه.

أخذ الشابُّ المقدام يُصغي، وقد انحنى على الهوّة، فصعدت إلى أذنه جلبةٌ بعيدةُ الأصوات. فلم يعدْ يشكّ بأن الكائنات التي كانت قد ظهرت بصورة غريبة، واختفت عن ناظريه لم تغرق في الهوّة. وأحسّ برغبةٍ لا تقهر، لأنه كان مكتوباً في مصيره بلا شكّ أن ينزلَ إليها، وراء تلك الكائنات، حتى وإن كان عليه أن يتبعَ أشباحاً في أحدِ أفواه الجحيم. ومن ناحية أخرى، فإن العاصفةَ قد بدأت مسعورةً، وكانت تلك الهوّةُ تقدِّمُ له ملجأ منها. ولكن، كيف النّزولُ إليها؟ وأيّة طريقٍ كان أولئك الذين يريد أن يتبعهم قد سلكوها، إن لم يكونوا أشباحاً؟ وأتى برقٌ ثان لنجدته، وجعله يرى عند قدميه الجهةَ العليا لسلّم يمتدُّ في أعماق البئر. لقد كانت عارضةٌ خشبيةٌ قويةٌ وعمودية تجتازها أفقياً، ومن مسافة إلى أخرى، عوارضُ قصيرة من الحديد مخصّصةٌ لتلقّي أقدامِ وأيدي أولئك الذين يجرؤون على المخاطرة في تلك الهوّة.

لم يتردّد أوردينر، بل تعلّق بالسلّم المخيف بجسارة، وغاصَ في الهوّة دون أن يدري حتى إن كانت ستقودُه إلى القعر، ودون أن يخطرَ بباله أنه قد لا يرى بعد ذلك الشّمس، وبعد قليل، لم يعدْ يميّز، في الظلّمات التي كانت تخفي رأسه، لم يعد يميّزَ السّماء إلّا بفضل البروق المزرقة التي كانت تضيئُها مراراً. وبعد قليل، لم يعدْ المطرُ الغزيرُ الذي كان يطرقُ سطحَ الأرض يصل إليه إلّا كرذاذٍ ناعم وبخاريّ، وسريعاً أخذ إعصارُ الريح الذي كان يندفع في البئر اندفاعاً عنيفاً، أخذ يضيع فوقه بصفير طويل، فنزل، ونزل أيضاً، وبدا بصعوبة أنه قد اقترب من الضّوء السّردابي، فواصل نزوله غير أن يفقدَ عزيمته، متحاشياً فقط أن يُخفضَ نظره إلى الهوّة، خوفاً من أن يهوي فيها بحركةٍ طائشة.

ومع ذلك، فإن الهواءَ الذي غدا نادراً أكثر فأكثر، وجلبةَ الأصوات التي

أصبحت واضحةً أكثر فأكثر، والظلَّ الأرجوانيّ الذي بدأ يلوّنُ الجدارَ الدائريَّ للبئر، قد نبهَّته أخيراً بأنّه لم يكن بعيداً عن القعر. فنزل أيضاً بضعَ درجات، وتمكّن نظرهُ من أن يرى بوضوح، في أسفل السّلّم، مدخلَ سرداب تُنيرُه أضواءٌ مرتعشةٌ وحمراء، فيما كانت تَطرقُ سمعَه كلماتٌ جذبت كلَّ انتباهه.

كان أحدُ الأصواتِ يقولُ بلهجةٍ نافذةِ الصّبر:

– إن كينيبول لم يأتِ.

وردّد الصّوتُ نفسُه بعد لحظةٍ من الصّمت:

– من يمكنُه أن يمنَعه؟

فأجابوه:

– إننا نجهلُ ذلك، أيُّها السّيد آكيت.

وأضاف صوتٌ ثالثٌ قائلاً:

– كان من المفترض أن يسكنَ في منزلِ شقيقته مآزبراآل التي هي من قريةِ سورب.

فاستأنف الصّوت الأوّل قائلاً:

– أنتم ترون أنني، أنا، ألتزمُ بكافةِ تعهُّداتي... وكان عليّ أن أجلبَ هان الإيسلندي زعيماً لكم، وها أنا أجلبُه لكم.

ردّت همهمة كان من الصّعب معناها على تلك الكلمات. أمّا فضولُ

أوردينر الذي أيقظه اسمُ ذلك المدعو كينيبول، والذي كان قد سبّب له الكثيرَ من الدّهشة في اليوم السّابق، فقد تزايدَ لدى ذكر اسم هان الإيسلندي.

وتابع الصّوتُ ذاتُه:

- يا أصدقائي، جوناس ونوربيت. إذا كان كينيبول قد تأخّر، فذلك أمرٌ لا أهميةَ له، لأنَّ عددَنا كافٍ بحيث أننا لم نعدْ نخشى شيئاً؛ فهل عثرتم على شعاراتكم في خرائبِ كراغ؟

فأجابته بضعةُ أصوات:

- أجل، يا سيدي آكيت.

- حسناً! ارفعوا الرّاية؛ فقد حان الوقتُ لذلك! وإليكم الذَّهب. وهذا هو زعيمكم الذي لا يُقهر. تشجّعوا! وسيروا لتحريرِ النّبيل شوماكير، الكونت دوغريفنفلد، المنكود الحظّ!

فردّدت جمهرةٌ من الأصوات:

- عاشَ! عاشَ شوماكير!

وامتدّ اسمُ شوماكير من صدىً إلى صدى، وفي منعرجاتِ القباب السّردابيّة.

أما أوردينر الذي انقاد من أمر غريب إلى أمرٍ غريب، ومن دهشة إلى دهشة؛ فقد كان يُصغي، ولا يكادُ يتنفّس. لم يكن بوسعه أن يصدّقَ أو يفهمَ ما كان يسمعُه؛ فشوماكير يختلط بكينيبول، وبهان الإيسلندي! فماذا

كانت تلك المسرحيةُ الغامضةُ التي كان يستشفُّ أحدَ فصولها، باعتباره مشاهداً مجهولاً عليها؟ فأيّة حياةٍ يجري الدّفاعُ عنها؟ وأيةُ حياةٍ يجري الحكمُ عليها؟

وتابع الصّوتُ ذاتُه:

- أصغوا أنتم ترون صديقَ الكونت دوغريفنفلد النبيل، وكاتمَ أسراره...

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يسمع فيها أوردينر ذلك الصّوت، فتابع قائلاً:

- امنحوني ثقتكم، كما يمنحُني ثقتَه، يا أصدقائي. كلُّ شيء يجري في صالحكم. ولسوف تصلون إلى درونتهايم من غير أن تلتقوا عدوّاً.

فقاطعه أحدُ الأصواتِ قائلاً:

- أيها السّيد آكيت، لنسرْ؛ فإن بيترز قد قال لي إنّه قد رأى في المعابر فوجَ مونكولم بأكمله في طريقه لقتالنا.

فردّ الصَّوتُ الآخرُ بلهجةٍ حاسمة:

- إن الحكومةَ لا تزال تجهلُ تمرُّدكم، وهي مطمئنّةٌ إلى درجةٍ كبيرة، بحيث أن ذلك الذي رفَضَ شكاياتكم العادلة، وهو مضطهِدُهم ومضطهِدُ شوماكير الشّهير والمنكود الحظّ، الجنرال دوكنود قد غادر درونتهايم ليذهب إلى العاصمة، فيحضرَ احتفالاتِ الزّواجِ الشّهير لتلميذه أوردينر غولدينليف بأولريك دالفيلد.

لنتصوّر انفعالَ أوردينر؛ فكيف يسمعُ، في هذه المنطقة الموحشّة المقفرة، وتحت هذه القبّة الخفيّة، أناساً مجهولين يلفظون كلّ الأسماءَ التي كانت تهمّه، وصولاً إلى اسمه الشخصيّ! لقد تنامت في قلبه ريبةٌ مرعبة؛ فهل يكونُ هذا حقيقياً؟ وهل يكونُ ذلك الشَّخصُ الذي سمع للتّو صوتَه عميلاً للكونت دوغريفنفلد، في الحقيقة؟ ماذا؟ شوماكير، ذلك العجوزُ الجليل، والوالدُ النّبيل لفتاته النبيلة إيتيل، يتمرَّدُ على ملكه، ويستأجرُ لصوصاً، ويُشعل حرباً أهلية! وفي سبيلِ ذلك المنافق، ذلك المتمرّد، إنّما جازَفَ، هو، ابنُ نائبِ ملك النّرويج، وتلميذُ الجنرال لوفان، جازَفَ بمستقبله، وعرَّضَ حياته للخطر! ومن أجله، إنّما بَحثَ عن ذلك اللّصِّ الإيسلنديّ، وقاتله، وهو اللّصُّ الذي كان شوماكير يبدو متفاهماً معه، بما أنّه قد وضعه على رأسِ قُطّاع الطّرق هؤلاء! فمن يدري حتى إن كانت تلك العلبةُ، التي كان أوردينر على وَشك أن يضحّي بدمه في سبيلها، لا تحتوي عدداً من تلك الأسرار الشّائنة لتلك المؤامرة البغيضة؟ أو إن كان سجينُ مونكولم الانتقاميّ قد استهتر به على الأصّح؟ ولربّما كان قد اكتشف اسمه، وربّما، وكم كانت تلك الفكرة مؤلمةً بالنسبة للشّاب الشهم. لم يكن يرغبُ، من خلال دفعه إلى تلك الرّحلةِ القاتلة، إلّا إلى مصرعِ ابنِ أحدِ أعدائه...؟

وا أسفاه! حين يكون المرءُ قد حمل الإجلالَ والمحبّةَ زمناً طويلاً لشخصٍ منكودِ الحظّ، وحين يُقسم المرء، في دخيلة أفكاره، على أن يرتبطَ به ارتباطاً لا ينفصمُ في بأسائه، تكون لحظةً مريرةً جدّاً تلك اللّحظة التي يتلقّى فيها نكرانَ الجميل كأجرٍ له. حين يشعرُ المرءُ بخيبةِ أمله في المروءة، وأنه ينبغي التخلّي عن تلك السّعادة الشّديدة النقاء، والكثيرةَ الرأفة، سعادة الإخلاص، يشعرُ أنه قد شاخَ في لحظة واحدة شيخوخة هي الأكثر كآبة، فيغدو شيخاً في تجربته، ويكونُ قد خَسِرَ أجملَ أوهامِ الحياةِ التي ليسَ فيها شيءٌ جميل غير الأوهام.

كانت تلك هي الأفكارُ المكدَّرة التي تتزاحمُ في نفس أوردينر بصورةٍ مشوَّشةٍ. كان الشابّ النبيل يتوقُ إلى الموت في تلك اللّحظةِ المشؤومة. وكان يبدو له أن هناءَ حياته كلَّه يُفلتُ من متناوله. فقد كان هناك فعلاً في تأكيدات ذلك الذي يتكلّم كمبعوث لغريفنفلد، أشياء كانت تبدو له كاذبةً ومشكوكاً بها؛ ولكن، بما أنها لم تكن مخصّصة إلّا لتضليل الرّيفيين التّعساء، فقد أصبح شوماكير في نظره مذنباً أكثر: وذلك المدعو شوماكير كان والد فتاته إيتيل[1]...!

لقد هزّت هذه التأمُّلات قلبَ أوردينر هزاً عنيفاً بحيث اندفعت إليه كلّها في آن، فترنَّح على العوارضِ التي كانت تسندُه، وواصلَ الاستماع: لأن المرءَ ينتظرُ أحياناً بلهفة يصعبُ تفسيرُها، وبنهمٍ مرعب، المصائبَ التي يخشاها أكثر من غيرها.

وتابعَ صوتُ المبعوث يقول:

– أجل، إنكم تحت قيادة الرّهيب هان الإيسلندي. فهل يجرؤون على قتالكم؟ إن قضيّتكم هي قضّيةُ نسائكم وأطفالكم الذين جُرِّدوا بغيرِ استحقاق من ميراثكم، وقضيّة منكودٍ نبيل ملقىً به في سجنٍ مشين. هيا، إن شوماكير والحرّية ينتظراكم. الحربُ على الطّغاة!

فردّد ألفُ صوت:

(١) إن الضربة الكورنيلية*، لا ينبغي أن تموّه اللغز الذي يشكّل «الدّافع القهريّ والخفيّ» والذي يجعل أوردينر فاعلاً. إنه لا يندفع في نهاية الأمر إلّا بسبب «تقزُّزه المريرِ من الحياة» ومعاينته «لكلّ ما تقدِّمه الظّواهرُ من أمورٍ مُريبة وزائفة». (الفصل: ٣٢).

*– أي الصّراع على طريقة بيير كورنْي المسرحي الفرنسي الاتباعي. (م: ز. ع).

- الحرب!

سُمعت في منعطفاتِ السّرداب جلبةُ أسلحةٍ تختلطُ بأصواتٍ مبحوحةٍ لبوقِ الجبال.

صاح أوردينر:

- توقّفوا!

وكان قد نزل على عجلٍ بقيّةَ السّلّم. إن فكرةَ تجنيبِ شوماكير جريمة، وتجنيبِ بلاده الكثير من المصائب كانت قد استحوذت على كيانه استحواذاً قاهراً. غير أنَّه في اللّحظة التي ظهر فيها على عتبة السّرداب، حلَّ الخوفُ من أن يخسرَ الوالدَ وفتاتَه إيتيل، من خلال كلام مفخّم متهوّر، حلَّ محلَّ أيَّ شعورٍ آخر لديه؛ فمكث هناك، شاحباً، وهو يرمقُ بدهشةِ اللّوحةَ الغريبة التي كانتْ تعرضُ لناظره.

كان ذلك أشبهَ ما يكون بساحة فسيحة لمدينةٍ سردابية تضيعُ حدودُها خلفَ جملة من الدّعامات التي تسنُد القباب. وكانت تلك الدّعاماتُ تلتمعُ كأنها ركائزُ ناتئة من البلّور تنطلقُ منها إشعاعاتُ ألف مشعلٍ تحملُه جمهرةٌ من الرّجال المسلّحين تسليحاً غريباً، المنتشرين بشكلٍ مشوَّش في أعماق السّاحة. يحسبُ المرءُ إذ يرى كلَّ تلك النقاط المضيئة، وكلَّ تلك الأشكال المثيرة للرّعب في الظّلمات، أنه يرى أحدَ تلك المحافلِ الخرافية التي تتحدَّثُ عنها الأخبارُ التّاريخية القديمة، أخبار السّحرة والعفاريت التي كانت تحملُ نجوماً بمثابةِ مشاعب، وتُضيءُ الأحراشَ القديمةَ والقصورَ المهدَّمة ليلاً.

وتعالت صرخةٌ طويلة:

– غريب! الموت! الموت!

مئة ساعدٍ كانت قد ارتفعت نحو أوردينر؛ فوضع يدَه على جنبه، مفتّشاً عن سيفه...

يا للشّاب النبيل! وفي اندفاعتهِ النّبيلة، كان قد نسي أنه وحيدٌ وأعزل.

فصاح أحدُ الأصوات:

– انتظروا، انتظروا!

إنه صوتُ ذلك الذي كان أوردينر يرى فيه مبعوثَ شوماكير. لقد كان رجلاً قصيرَ القامة، وسميناً. يرتدي ملابس سوداء. نظرته مرحةٌ وزائفة. وقد تقدَّم نحو أوردينر، وقال له:

– من أنت؟

لم يجب أوردينر؛ فقد كان محاصراً من كلِّ اتجاه، ولم يكن هناك موضعٌ على صدره لا يضغطُ عليه رأسُ سيف، أو سبطانةُ مسدَّس، وسأله الرّجلُ القصيرُ القامةِ وهو يبتسم:

– هل أنت خائف؟

فقال الشابّ ببرود:

– لو كانت يدُك على قلبي بدلاً من هذه السّيوف، لرأيت أنه لا يدقُّ أسرع من قلبك، إذا افترضنا أن لديك قلباً.

فقال الرَّجلُ القصيرُ القامة:

- آه! آه! إنه يدَّعي الاعتداد بالنّفس؟ حسناً، فليمت.

وأدار ظهره.

فردّ عليه أوردينر:

- اقتلُني، هذا كلّ ما أريدُ أن أُدينَ به لك.

فقال عجوزٌ ذو لحيةٍ كثّة. كان يقفُ متكئاً على بندقيته الطّويلة:

- لحظةً واحدة، أيها السَّيد آكيت. إنك الآن في منزلي، ويحقُّ لي وحدي أن أُرسل هذا المسيحيَّ ليروي للموتى ما رآه هنا.

فأخذ السّيدُ آكيت يضحكُ وهو يقول:

- في الواقع، يا سيّد جوناس. افعلْ كما يحلو لك! فلا أهميّةَ عندي أن يُحاكم هذا الجاسوسُ على يدك، شريطةَ أن يُدان.

فاستدارَ العجوزُ نحو أوردينر، وقال:

- هيّا، قلْ لنا من تكون، أنت من كنت تتمنّى بجرأة أن تعرفَ من نكون.

لزم أوردينر الصَّمت. وإذْ كان محاطاً بالأنصار الغريبين لذلك المدعو شوماكير الذي كان يمكن له أن يضحي بدمه لأجله، فهو لم يكن يشعرُ في تلك اللحظة إلّا برغبةٍ لا متناهيةٍ في الموت.

فقال العجوز:

– إن لطافته لا تريدُ أن تجيب؛ فحين يُقبَضُ على الثّعلب، يكفُّ عن الصُّراخ، اقتلوه.

فتابع أكيت قائلاً:

– أيها الشّهم جوناس، ليكن موتُ هذا الرّجل أوّلَ مأثرةٍ لهان الإيسلندي بينكم.

فصاحت جمهرةٌ من الأصوات:

– أجل! أجل!

أما أوردينر الذي دُهش، ولكنه بقي غير هيّابٍ باستمرار، فقد فتَّش بعينيه عن ذلك المدعو هان الإيسلندي الذي كان في الصّباح نفسه قد دافع عن حياتِه ببسالةٍ ضدّه، فرأى بدهشة مضاعفةٍ رجلاً ذا قامةٍ جبّارة يتقدّم نحوه، وهو يرتديً ملابسَ الجبليّين؛ فحدَّق ذلك العملاقُ بنظرةٍ فظيعة في بلادتها بأوردينر، وطلبَ بلطةً، فقال أوردينر بقوة:

– أنت لستَ هان الإيسلندي.

فصرخ آكيت بصوتٍ غاضب:

– فليمتْ! فليمت!

رأى أوردينر أنّه لابدَّ أن يموت، فوضع يده في صدره، لكي يسحب منه

خصلةَ شعرِ فتاتِه إيتيل، ولكي يطبع عليها قبلةً أخيرة، فأسقطت تلك الحركة ورقةً من حزامه.

فقال آكيت:

– ما هذه الورقة؟ يا نوربيت، خذْ هذه الورقة.

كان نوربيت هذا شابّاً يعلو وجهَه الأسودَ تعبيرٌ ينمّ عن شهامة، فالتقط الورقة، وفتحها، وهتف:

– أيها الرّبّ العظيم! إنه إذن مرورِ صديقي المسكين كريستوفورس نيدلام، هذا الرفيق المنكود الحظّ الذي أعدموه، منذ أقلّ من ثمانية أيام، في ساحةِ سكونجن العامّة، بسببِ تزويرِ النّقود.

فقال أكيت بلهجةِ من خابت توقّعاته:

– حسناً! احتفظْ بقطعة الورق هذه؛ فقد كنتُ أظنُّها أكثر أهميّةً. وأنتَ، يا عزيزي هان الإيسلندي، تخلّصْ من رجلك.

أما أوردينر الذي صار محميّاً بأعجوبة، فقد خفض رأسه وخشع، لأنّه كان يتذكّر كم كان يستقبل بازدراء، في دخيلة نفسه، أمنيته المؤثّرة، أمنية المرشد أتاناز موندر، حين كان يقول:

– لتكنْ صدقةُ المحتضرِ نعمةً للمسافر!

فقالت آكيت:

– باه! باه! إنّك تتفوّه بحماقات، أيها الطّيب نوربيت. إن هذا الرّجل جاسوس، ويجب أن يموت.

فكرّر العملاق:

– أعطوني بلطتي.

فصاح نوربيت:

– إنّه لن يموت. فماذا تقول نفسُ صديقي المسكين نيدلام الذي شنقوه بغيرِ استحقاق؟ أؤكّد لكم أنه لن يموت. لأن نيدلام لا يُريدُ أن يموت.

فقال العجوز جوناس:

– إن نوربيت في الحقيقة على صواب. فكيف تريدون أن نقتل هذا الغريب. أيها السّيد آكيت؟

إن لديه إذنَ مرور كريستوفوروس نيدلام.

فكرّر آكيت.

– ولكنه جاسوس. إنّه جاسوس.

أخذ العجوزُ مكانه بقرب الشّاب، أمام أوردينر. وقال كلاهما بلهجةٍ جادّة:

– لديه إذن مرور كريستوفورس نيدلام الذي شنق في سكونجن.

وجد آكيت أنه لابّد من الرّضوخ، لأن الآخرين جميعاً قد بدؤوا يهمسون بقولهم إن ذلك الغريب لا يمكن له أن يموت. لأنه كان يحمل جوازَ مرورِ مزّيف النّقود.

فقال بشكلٍ غير واضح، وغضبٍ كامن:

- فليعشْ إذن. وعلى أية حال؛ فهذا أمرٌ يخصُّكم.

وقال نوربيت ظافراً:

- لن أقتلَه البتّة، حتى لو كان الشّيطان.

ثم استدار نحو أوردينر، وهو يتكلّم على هذا النّحو، وتابع قائلاً:

- اسمعْ، لابدَّ أن تكون أخاً طيّباً، بما أنك تحملُ جوازَ مرور نيدلام، صديقي المسكين. نحن عمال المناجم الملكيون. ونقوم بالتّمرد لكي يخلّصونا من الوصاية. إن السّيد آكيت الذي تراه يقول إننا نمتشقُ السّلاحَ من أجل كونتٍ اسمُه شوماكير. أما أنا، فلا أعرفه. فيا أيّها الغريب، إن قضّيَتنا عادلة، فاسمع، وأجبني كأنك تجيبُ شفيعك القدّيس، هل تريدُ أن تكون من جماعتنا؟

فخطرت فكرةٌ في ذهنِ أوردينر، فأجاب:

- أجل.

قدَّم له نوربيت سيفاً، فتلقّاه صامتاً، وقال له الزّعيمُ الشّاب:

- أيها الأخّ، إذا أردتَ أن تخونَنا، فابدأ بقتلي.

في تلك اللحظة، دوّى صوتُ البوقِ تحت قناطرِ المنجم، وسُمعت أصواتٌ بعيدةٌ تقول:

هذا هو كينيبول!

الفصل الثّاني والثّلاثون

ثمّة أفكارٌ في الرأس تصلُ

حتى السّماء.

قصائد إسبانية

تأتي إلى النفس أحياناً إلهاماتٌ مفاجئة، وإشراقاتٌ مباغتة، لا يمكن لمجلدٍ كاملٍ من الأفكار والتأمُّلات أن يعبّر عن مداها تعبيراً أفضل، أكثر مما يمكن لنورِ ألفِ مشعلٍ أن يحاكي ضوءَ البرقِ الهائلِ والخاطف.

لن نحاول هنا إذن أن نحلّل الدّافعَ القاهرَ والخفيَّ الذي ألقى بابن نائبِ ملكِ النّرويج في وسط جماعةٍ من اللّصوص المتمرّدين من أجل رجلٍ محكوم، وذلك بناءً على اقتراحِ الفتى نوربيت. فلا شكّ أن هذا الدّافع قد كان في آنٍ واحد رغبةً نبيلةً لدى أوردينر لكي يمضي قُدُماً في تلك المغامرة الغامضة بأي ثمنٍ، كما أنها رغبة ممتزجة بتقزّز مريرٍ من الحياة، ويأسٍ مستهتر بالمستقبل، كما كان شكّاً لا ندري ماهو بذنب شوماكير، وهو شكٌّ قد استوحاه من كلٍّ ما تُقدمه

من مريبٍ وزائف الظّواهرُ التي أثّرت بالشابّ، وهو شكٌّ قد استوحاه من غريزةٍ مجهولةٍ لديه للبحثِ عن الحقيقة، وخصوصاً من حبّه لإيتيل، وأخيراً، فقد كان ذلك كشفاً ضمنياً للخير الذي يمكنُ لصديقٍ متبصّرٍ لشوماكير أن يُسديه إليه، من بين أنصاره الذين عميت بصائرُهم.

الفصل الثّالث والثّلاثون

هذا هو الزّعيم؟ إن نظراتِه ترعبُني ،

ولا أجرؤ على التحدُّثِ إليه .

الموقّر ماتوران، برترام.

عند سماع الصّيحاتِ التي كانت تعلنُ عن وصولِ الصّياد كينيبول ، اندفع آكيت على عجلٍ للقائه تاركاً أوردينر مع الزّعيمين الآخرين .

– ها أنتَ أخيراً ، يا عزيزي كينيبول! تعالْ لكي أقدِّمَ إليك زعيمكَ المخيفَ ، هان الأيسلنديّ . أما كينيبول الذي وصلَ شاحباً ، ولاهثاً ، ومنتفشَ الشّعر ، ووجهُه مبلّلٌ بالعرق ، فما إن سمع بذلك الاسم ، حتى تراجَعَ ثلاثَ خطواتٍ ، وقال:

– هان الإيسلنديّ!

فقال آكيت:

– هيا! اطمئن! إنّه آتٍ لمساندتكم ، فلا تروا فيه إلّا صديقاً ، ورفيقاً...

ولكن كينيبول لم يكن يسمعْه، فردَّد:

– هان الإيسلندي هنا؟

فقال آكيت وهو يُغالبُ ابتسامةً مبهمة:

– بلى، وهدؤوا من الرّعبِ الذي يمكنُ لاسمه...

فقاطعه الصّيادُ للمرّةِ الثالثة، وقال:

– ماذا! أنت تؤكّدُ... أن هان الإيسلندي في هذا المنجم!...

استدار آكيت نحو أولئك الذين كانوا يحيطون به، وقال:

– هل صديقُنا الشّهمُ كينيبول مجنون؟

ثم توجّه إلى كينيبول، وقال:

– أرى أن الخوفَ من هان الإيسلندي قد أخَّرك.

فرفع كينيبول يده إلى السّماء وقال:

– وحقّ إيتيلديرا، القدّيسة النروجيّة الشّهيدة، ليس الخوفُ من هان الإيسلندي، يا سيّدي آكيت، بل هان الإيسلنديّ ذاته فعلاً هو الذي منعني من أن أكونَ هنا في وقتٍ أبكر، وأقسم على ذلك.

فأطلقت هذه الكلماتُ همساً ينمُّ عن الدّهشة في صفوفِ جمهورِ الجبليين، وعمالِ المناجم الذين كانوا يحيطون بالمتحادثين، وألقت على جبين آكيت الكدرَ نفسه الذي جعله مظهرُ أوردينر ونجاتُه يتولّدُ عليها، قبل لحظةٍ من الزّمن.

فسأل وهو يخفضُ صوته:

– وكيف! ماذا تقول؟

– أقولُ، أيّها السّيد آكيت أنّه كان يمكنُ لي أن أكون هنا، قبل أوّلِ صيحةٍ من صيحات اليوم، لولا رجلكُ اللعينُ هان الإيسلندي.

– أحقاً! وماذا فعلَ لك إذن؟

– أوه! لا تسألْني عن ذلك؛ أتمنّى فقط أن تبيضَّ لحيتي في يوم واحد، فتصبحَ مثل وبرِ القاقم، إذا ما فوجئتُ في حياتي، إذ أنني لا أزال حَيّاً، وأنا ذاهبٌ لصيّد دبٍّ أبيض.

– هل كنت على وشكِ أن تُفتَرسَ على يد دبّ؟

فهزّ كينيبول كتفيه علامةً على الاحتقار، وقال:

– دبّ! يا لـه من عدّوٍ رهيب! أن يفترسَ دبٌّ كينيبول! من تظنُّني، ياسيد آكيت؟

– آه! عفواً، كنتُ أريدُ أن أعرفَ فقط...

فقاطعه الصّيادُ العجوزُ، وهو يخفِضُ صوتَه:

– لو كنت تعلمُ ما حدثَ لي، يا سيّدي الطيّب، لما ردّدت أمامي البتّة أن هان الإيسلنديّ موجودٌ هنا.

بدا أكيت مجدَّداً في حيرةٍ من أمره للحظةٍ من الزَّمن؛ فأوقف كينيبول

فجأة من ذراعه، وكأنه يخشى أن يقتربَ أكثر من الموضعِ الذي يُلمحُ فيه، في السّاحة السّردابية رأسُ العملاقِ الضّخم، من فوق رؤوسِ عمّال المناجم، وقال بصوتٍ مفخّمٍ إلى حدٍّ ما:

- يا عزيزي كينيبول، احكِ لي، أرجوك، عماسبّب تأخيرك. فأنت تشعرُ أنه يمكنُ لكلِّ شيء أن تكون له أهميةٌ عالية، في اللّحظة التي نحن فيها.

فقال كينيبول، بعد لحظةٍ من التفكير:

- هذا صحيح.

حينذاك، روى لآكيت، نزولاً عند إلحاحه المتكرّر، كيف أنه دَفَع دبّاً أبيض حتى الأماكن المجاورة لمغارة فالديروغ، بمعونةِ رفاقه السّتة، من غير أن يلاحظ، في حمّى الصّيد، أنه قد أصبح قريباً جدّاً من ذلك المكان الرّهيب، وكيف أن أنين الدّب الذي كان في ضيق قد اجتذب رجلاً قصير القامة، وحشاً، وشيطاناً، فانقضّ عليهم، وسلاحُه بلطةٌ حجريةٌ للدّفاع عن الدّبّ. إن ظهور ذلك الرّجل الشيطانيّ الذي لا يمكن أن يكون كائناً آخر غير هان الإيسلندي، جنّي إيسلندا، قد جمَّد الرّجالَ السّبعة جميعاً من الذّعر. وأخيراً، فإن رفاقه المنكودين السّتة قد كانوا ضحيّة وحشين. أما هو، كينيبول، فلم يُدن بنجاته إلّا إلى هروبه العاجل الذي لم يتعرقلْ، بفضلِ رشاقته، وتعبِ هان الإيسلندي، وقبلَ كلّ شيء، بفضلِ حماية شفيع الصّيادين، الطّوباويّ سان سيلفيستر.

وقال، وهو يُنهي قصّته التي لا يزال مملوءاً بذعرها، والتي زخرفها بزخارف بلاغة الجبال كلِّها:

– أنت ترى، يا سيّد أكيت أنني إذا ما وصلتُ متأخراً، فليس أنا من ينبغي إتّهامه، وأنه من غير الممكن أن يكونَ شيطانُ إيسلندا الذي تركتُه هذا الصّباح مع دبِّه، وهو ينقضّ بضراوةٍ على جثثِ رفاقي السِّتة المساكين بين شجيراتِ الخلنج في فالديروغ، أن يكونَ الآن صديقاً في منجم أبسيل – كور هذا، في لقائنا الحالي. إني أؤكد لك أن هذا غير ممكن، فأنا أعرفُه حالياً، هذا الشيطان المجسَّد، لقد رأيته!

أمّا أكيت الذي كان قد أصغى لكلِّ شيء باهتمام؛ فقد تكلَّم وقال بصوتٍ جدّيّ:

– يا صديقي الشّهم كينيبول، حين تتكلّم على هان الإيسلندي، أو على الجحيم، لا تظن أن هناك شيئاً غير ممكن. وقد كنت أعرفُ كلَّ ما قلته لي منذ قليل...

ارتسم على الملامحِ الوحشية، ملامح الصّيادِ العجوز لجبالِ كول، تعبيرٌ ينمُّ عن دهشةٍ قصوى، وعن أكبرِ سرعةٍ ساذجةٍ للتصّديق، فقالَ:

– وكيف؟

فتابع أكيت الذي كان يمكن لملاحظٍ أكثر مهارةً أن يكشفَ على وجهه شيئاً معبِّراً عن الظّفر، وتهكّمياً، وقال:

– كنت أعرف كلَّ شيء. ولكن باستثناء أن تكون أنت بطلَ تلك المغامرةِ الكئيبة. كان هان الإيسلندي قد رواها لي، وهو يتبعُني إلى هذا المكان.

فقال كينيبول، وقد بدأت نظرتُه المثبّتة على آكيت تأخذ مظهراً يدلُّ على الخشية والاحترام:

– حقاً!

واصل أكيت حديثه برباطة الجأشِ ذاتها:

– بلا ريب؛ ولكن كن مطمئناً الآن، فلسوف أقودُك إلى ذلك الرّهيب هان الإيسلنديّ.

فأطلق كينيبول صرخةَ رعبٍ فكرّر أكيت:

– كنْ مطمئناً، ولترَ فيه زعيمك ورفيقك، واحترسْ فقط من أن تذكرّه بشيءٍ مما حدث هذا الصّباح، هل تفهم؟

كان لابدَّ لكينيبول أن يرضَخَ، ولكنه لم يرتضِ، من غير نفورٍ داخليّ شديد، أن يدعَهَم يقدّمونه إلى الشّيطان. فتقدّما نحوَ الجماعة التي كان فيها أوردينر، وجوناس ونورييت.

وقال كينيبول:

– يا عزيزي الطّيب جوناس، يا عزيزي نوربيت، ليكنْ الربُّ في عونكما!

فقال جوناس:

– إننا بحاجةٍ إليه.

في تلك اللّحظة، توقّفت نظرةُ كينيبول عند نظرةِ أوردينر الذي كان يبحثُ عن نظرته، فقال له وهو يقتربُ منه بحماسةٍ، ويمدُّ له يده المجعّدة والقاسية:

– آه! هذا أنت، أيّها الشّابّ، أهلاً بك، يبدو أن جسارتك قد لاقت نجاحاً طيّباً؟

أما أوردينر الذي لم يكن يدركُ أن ذلك الجبليَّ يفهمهُ جيداً كما يظهر، فقد كان يهمُّ بإثارةِ إيضاحٍ معيّن، عندما هتف نوربيت:

– أنت تعرفُ إذن هذا الغريبَ يا كينيبول؟

– وحقّ ملاكي الحارس إني أعرفُه! وأحبُّه وأقدّرُه. إنّه مخلصٌ مثلنا جميعاً للقضية العادلة التي نخدمُها.

ورمق أوردينر بنظرةٍ تفاهم ثانية، وكان أوردينر يتهيّأ للرّد عليها، حين دنا أكيت الذي كان قد مَضى للبحث عن عملاقه، والذي بدا أن كلَّ هؤلاء اللصوص يهربون منه بذعر، حين دنا من الرّجال الأربعة كلّهم، وهو يقول:

– يا صديقي الطّيب الصّياد كينيبول، هذا هو زعيمكم، هان دو كليبستادور الشّهير!

أنعم كينيبول النّظرَ باللّصِّ العملاق. وكان في نظرته قدرٌ من الدّهشةِ أكثر مما فيها من الخوف، فانحنى على أذن أكيت، وقال:

– أيّها السّيد أكيت، إن هان الإيسلندي الذي تركتهُ هذا الصّباح في فالديروغ رجلٌ قصيرُ القامة... فأجابه أكيت بصوتٍ خفيض:

– أنت تنسى، يا كينيبول، أنّه شيطان!

فقال الصّياد السّاذج:

– هذا صحيح، ولا بدَّ أنه قد بدَّل شكله.

واستدار وهو يرتجفُ ليرسمَ خلسةً إشارة الصّليب.

الفصل الرّابع والثّلاثون

القناعُ يقترب؛ إنه أنجيلو بذاته، وهذا المضحكُ
يحسنُ مهنته؛ إنه يشيرُ لي، فلا بدّ أنّه
واثقٌ مما يصنع.

ليسنغ

في غابةٍ معتمة من أشجار السّنديان القديمة، لا يكاد ينفذ إليها غسقُ الصّباحِ، يدنو رجلٌ قصيرٌ من رجلٍ آخر وحيد، وكأنه ينتظره. فيبدأ بينهما الحديثُ التالي، بصوتٍ خفيض:

– فلتتكرم سموّك بأن تغفر لي، إذا ما جعلتُك تنتظر! فإن عدداً من الحوادثِ العارضةَ قد أخّرني.

– وما هي؟

– إن زعيمَ الجبليّين كينيبول لم يصلْ إلى الموعد إلّا عند منتصف اللّيل؛ وبالمقابل، فقد أزعجنا شاهدٌ غير متوقّع.

– ومن هو إذن؟

– إنه رجلٌ قد سقط في المنجم كالمجنون، في وسط مجلسنا الأعلى. وكنت أظنّ في بادئ الأمر أنه جاسوس، وأردت أن آمرَ بذبحه، ولكنه وُجِدَ حاملاً لحمايةِ رجلٍ مشنوق يحترمُه عمالُ المناجم كثيراً، ولا أدري ما اسمه، فوضعوه تحت حمايتهم. وحين أفكر في الأمر، أرى أنه ليس سوى مسافرٍ فضولي، أو عالمٍ أحمق، من غير شكّ. وعلى أيّة حال، فقد اتخذتُ تدابيري بصدده.

– هل يجري كلُّ شيء على ما يُرام، مع ذلك؟

– كلُّ شيء على ما يرام[1]، كما يقول الانكليز، أي بصورة حسنة! إن عمال مناجم غولد برانشتال وفاروير الذين يقودهم الشابُّ نوربيت، والعجوزُ جوناس، وجبليي كول الذين يقودهم كينيبول لا بدّ أن يكونوا زاحفين الآن. وعلى بعد أربعةِ أميالٍ من ليتوال–بلو، فإن رفاقهم الآتين من أوبفالو، ومن سوندموير سوف ينضمّون إليهم. أما أؤلئك الذين يأتون من كونغسبرغ، وجماعة حدّادي سيميازين، والذين أجبروا حاميةَ فالستروم على التّراجع، كما يعلم الكونت النبيل، فينتظرونهم في موضعٍ أبعد ببضعةِ أميال – وأخيراً يا سيّدي العزيز والمبجّل، فإن كلَّ هذه العصابات مجتمعة سوف تتوقّفُ هذه الليلة على بعدِ ميلين من سكونجن، في مضائق بيلبيه – نوار الجبليّة.

– ولكن كيف استقبلوا هان الإيسلندي الخاصّ بك؟

– بتصديقٍ تام.

(١) بالانكليزية في النّص:! «ALL IS WELL»

– ما أصعب ألّا يكون بوسعي أن أثأرَ لابني من ذلك الشّيطان الجهنّمي! وأيّة تعاسةٍ أن يكون قد أفلت منّا!

– يا سيّدي النبيل، استخدم في بادئ الأمر اسم هان الإيسلندي لتثأر من شوماكير، ثم تفكّر في وسيلة للثأر من هان نفسه.

– أن يكون قد ذبح ابني المسكين...! وافقْني الرأي، يا موسديمون بأن هان هذا هو حقاً آثمٌ حقير.

– يا سيّدي الكونت، هدّئ من مرارةِ حسراتك، وفكّر بالقضية الهامة التي تشغلنا!

– أنت على حقّ يا عزيزي، لا ينبغي لي أن أضيع وقتي في بكاء ابني، حين يتعلق الأمر بأن أثأر من عدوّ – كنت تقول إذن... إن المتمرّدين...؟

– سوف يسيرون اليوم طيلة النّهار، وسوف يتوقفون هذا المساء لكي يمضوا الليل في شِعْبِ بيليبيه – نوار، على بُعدِ ميلين من سكونجن.

– كيف؟ سوف تسمح بأن يتوغَّل قريباً من سكونجن تجمُّعٌ على هذه الدّرجةِ من الضّخامة...؟ – يا موسديمون...!

– هذا ظنّ، أيّها الكونت النبيل! فلتتكرمْ سموّك بأن ترسل، في هذه اللحظة بالذات، مبعوثاً إلى العقيد فوتاون الذي لابدَّ لفيلقه أن يكون الآن في سكونجن، ولتعلمْه بأن كلَّ قواتِ المتمردين سوف تعسكر هذه الليلة، من دون حذر، في معبر بيليبيه – نوار الذي يبدو أنه قد أُنشئ خصّيصاً للكمائن.

– إني أفهمُك، ولكن لماذا، يا عزيزي، يجري ترتيبُ كلّ شيء بحيث يكون عددُ المتمرْدين كبيراً إلى هذا الحدّ؟

– بقدر ما يكون التمرُّد هائلاً، يا سيّدي، بقدر ما تكونُ جريمةُ شوماكير وجدارتُك كبيرتين، فضلاً عن أنه من المهمّ أن يخمد هذا التمرُّد بكامله، بضربةٍ واحدة.

– حسناً! ولكن، لماذا يكون مكانُ التوقّف بجوار سكونجن إلى هذه الدّرجة؟

– لأنّ هذا هو الموضعُ الذي يكونُ فيه الدِّفاعُ متعذِّراً في كلِّ الجبال؛ فلن يخرجَ من هناك إلّا أولئك الذين تحدَّدت أسماؤهم للمثول أمام المحكمة.

– هذا رائع! – إن شيئاً ما يقول لي، يا موسديمون، أن أنهي هذه القضية بصورةٍ عاجلة؛ فلئن كان كلُّ شيء مطمئناً في هذه الجهة، فكلُّ شيء مغلقٌ في الجهة الأخرى. أنت تعلمُ أننا قد أُمرنا في كوبنهاغن بالقيام بأبحاثٍ سريّةٍ عن الأوراق التي من المحتمل أن تكون قد وقعت بحوزة ذلك المدعو ديسبولن...؟

– وإذن، يا سيّدي؟

– وإذن، فقد علمت للتّو، وفي هذه اللحظة، بأن ذلك المتآمر كان يرتبطُ بعلاقاتٍ غامضةٍ مع ذلك المنجّم كومبيسولسوم...

– الذي مات مؤخّراً؟

– أجل، وإن السّاحرَ العجوزَ كان قد سلّم عميلَ شوماكير أوراقاً في فترةِ احتضاره...

– اللّعنة! كان يحملُ رسائلَ مني، وعرضاً لخطتنا...!

– لخطّتك، يا موسديمون!

– عذراً ألف مرّة، أيها الكونت النبيل، ولكن لماذا ذهب سموّك لكي يسلّم نفسه لذلك المشعوذ كومبيسولسوم...؟ يا له من عجوزٍ غادر!

– اسمع يا موسديمون، أنا لستُ مثلك كائناً لا اعتقاد لديه، ولا إيمان – وليس من غير مبرّرات صحيحة أن تكون لي دوماً ثقةٌ بالعلم السّحري للعجوز كومبيسولسوم.

– عسى ألّا يكون سموُّك قد ارتاب بإخلاصه بقدر ما وثِقَ بعلمه؛ فضلاً عن ذلك، فعلينا ألّا نتخوّف، يا سيّدي النبيل، لأن ديسبولن قد مات، وضاعت أوراقُه. وبعد مرورِ بضعةِ أيام، لن يجري الحديثُ عن أولئك الذين يمكن أن تفيدَهم هذه الأوراق.

– في كلِّ حال، أيّ اتّهام يمكن أن يصل إليّ؟

– أو إليّ، فأنا محميٌّ من سعادتك.

– أوه، أجل، يا عزيزي، يمكنُك بالتأكيد أن تعتمد عليّ، ولكن لنسرعْ، أرجوك، في إنهاء كلّ هذا: سوف أرسل مبعوثاً إلى العقيد؛ إن رجالي

ينتظرون خلف هذه الأسيجة، وينبغي أن نستأنف المسير في طريق درونتهايم التي غادرها بلا شّك قاطنُ ماكلينبور، هيا! واصل خدمتي جيداً، وبرغم كلّ أمثال كومبيسولسوم، وديسبولن الموجودين على الأرض، اعتمدْ عليّ في الحياة، وفي الموت!

– أرجو سعادَتك أن تثق... يا للشّيطان!

وهنا توغلا كلاهما في الغابة التي أخذت أصواتُهما تتلاشى في منعطفاتها تدريجيّاً، وبعد قليل، لم يعد يُسمعُ إلّا دبيبُ خطى جوادين كانا يبتعدان.

الفصل الخامس والثّلاثون

... اقرعي أيتها الطّبول! إنّهم آتون!

... لقد أدّوا جميعُهم القسمَ، والقسم نفسه جميعاً، على ألّا يدخلوا إلى قشتالة، من غير الكونت السّجين، سيّدهم.

إنهم يحملون تمثاله الحجريّ في عربة، وقد عزموا
على ألّا يرجعوا إلى الوراء إلّا إذا رؤوا التمثال
يستدير بنفسه.
وإشارة إلى ذلك الذي يخطو خطوةً إلى الوراء
ويُنظَرُ إليه على أنه خائن، فقد رفعوا جميعاً يدهم
وأدّوا قسمهم.

. . . .

وهم يسيرون نحو أرلانسون بالسّرعة نفسها التي يمكن أن

تسير بها الثيرانُ التي تجرُّ العربة، وهم لا يتوقفون أكثر
مما تتوقّف الشمس.
تبقى بورغوس قفراء، والنّساء والأطفال قد مكثوا فيها
وحدهم، وهكذا هو الأمر في الجوار.
إنهم يسيرون، وهم يتحدّثون معاً عن الحصان وعن الصّقر،
ويتساءلون عما إذا كان ينبغي تخليصُ قشتالة من الجزية
التي تُدفع لليون
وقبل أن يدخلوا إلى نافار، يصادفون على الحدود...

قصائد إسبانية

يظهر لملاقاتهم ذلك العملاقُ المتينُ البنيةِ والشّجاعُ
وهو قائدُهم الذي يرتفعُ برأسه كلِّه فوق
رفاقه.

لوب دوفيغا، ترويض آروك[1].

فيما كان الحديثُ الذي قرأناه منذ قليل يجري في إحدى الغاباتِ المجاورة لسميازين، خرج المتمرّدون المقسّمون إلى ثلاثة أرتال، من منجم

(١) اقتباس حذف عام ١٨٣٣.

الرّصاص ، منجم أبسيل كور ، من المدخل الرئيس الذي ينفتح بصورةٍ كاملة على مسيلٍ عميق .

أما أوردينر؛ فبرغم رغبته ليكون قريباً من كينيبول ، فقد وُضِع في صفوفِ عصابة نوربيت ، ولم يرَ في بداية الأمر إلّا موكباً طويلاً من المشاعل التي تقاوم نارُها أوّلَ أضواء النّهار؛ فتنعكسُ على البلطاتِ ، والمشاعبِ ، والمعاولِ ، والدّبابيسِ المسلّحة برؤوسٍ حديدية ، والمطارق الضخمة ، والمناكشِ ، والعتلات ، وكافة الأسلحة الغليظة التي يمكن للتمرُّد أن يستعيرها من العملِ . وتختلطُ بها بعضُ الأسلحة النظامية التي كانت تنبئ بأن ذلك التمرّد مؤامرة ، وكذلك البنادقُ ذات الفتيل ، والرّماح ، والسّيوف ، والقربينات ، والبنادقُ الغدّارة . حين طلعت الشمس ، ولم يبق من نور المشاعل إلّا الدّخان ، استطاع أن يلاحظ شكل ذلك الجيش الغريب الذي كان يتقدّم بصورةٍ فوضويّة ، وهو ينشد أناشيد مبحوحة ، ويطلق صرخاتٍ وحشيةً ، شبيهاً بقطيعٍ من الذئابِ الجائعة الذّاهبة للبحث عن جيفة . لقد كانَ مقسَّماً إلى ثلاثِ فرق ، أو ثلاثةِ حشود على الأصّح .

كان يسير أوّلاً جبليّو كول الذين يقودُهم كينيبول والذين كانوا يشبهونه جميعاً ، من حيث لباسُهم المصنوع من جلود الحيوانات ، وحتى ، إلى حدٍّ ما ، من حيث سحنتُهم المخيفة والجسورة ، ثم كان يأتي عمال مناجم نوربيت الشّبان ، وشيوخ جوناس ، بقبعاتهم اللّبدية ، وسراويلهم العريضة ، وسواعدهم العارية تماماً ، ووجوههم السّوداء ، والذين كانوا يديرون إلى الشمس عيوناً بلهاء . وكانت تخفُق فوق هذه العصابات الصّاخبة بلا نظام ، راياتٌ بلونٍ ناريّ ، وكانت تُقرأ عليها شعاراتٌ مختلفة ، من مثل: عاش شوماكير! – لنحرّر محرِّرَنا! – الحرية لعمّال المناجم ، الحرية للكونت دوغريفنفلد! – الموت

لغولدنيليف! الموت للمضطهدين - الموت لدالفيلد - كان يبدو أن المتمردين ينظرون إلى تلك الشعارات على أنها أحمال أكثر مما هي زينة، وكانت تنتقل من يد إلى يد، حين يتعب حاملوا الرايات - أو يريدون أن يخلطوا الصوت المتنافر لبوقهم بنغماتٍ رفاقهم الرتيبة وزعيقهم.

كانت مؤخرة ذلك الجيش الغريب تتكون من ثلاث عربات تجرّها رنّات أو حمير ضخمة مخصصة بلا شك لحمل المؤن. أما المقدمة فتتكون من العملاق الذي أحضرهُ اليت والذي كان يسير وحيداً، وكان مسلحّاً بدبوس وبلطة، وبعيداً عنه، كانت تأتي الصفوف الأولى التي يقودها كينيبول ونوعٌ من الهلع يسير عليها، وكان كينيبول لا يدع العملاق يغيب عن عينيه، وكأنما ليتمكن من اقتفاء زعيمه الشيطاني، في تبدلات شكله المختلفة والتي يروق له أن يحتملها.

كان ذلك السيل من العصاة ينزل على تلك الصورة، بنوع من الضوضاء الشوّشة، ويملأ غابات الصنوبر بصوت بوق الجبال، جبال دورنتهايموس الشمالية، وقد ضخمته بعد قليل العصابات المختلفة، عصابات سوندوموير، وهو يفالو وكونغسبرع، وزمرة حدادي سيميازين والذين كانوا يشكلون تبايناً غريباً مع باقي المتمردين، لقد كانوا رجالاً طويلي القامات، ومتيني البنية، ومسلحين بكلابات ومطارق، وتتألف دروعهم من مآزر جلدية ولا يحملون شعاراً غير صليب عالٍ من الخشب، ويسيرون بهيئة جادة، وحسب الإيقاع، بانتظام ديني أكثر مماً عسكري من غير أي نشيد حربي سوى مزامير وأناشيد الكتاب المقدس ولم يكن لهم زعيم غير حامل صليبهم الذي كان يسير دون أسلحة في مقدمتهم. لم يكن ذلك الكمُّ من المتمردين يلتقي كائناً بشريّاً واحداً في طريقه. وكان راعي الماعز، عند اقترابهم، يدفعُ بقطيعه إلى مغارة، ويهجرُ

الفلاّحُ قريته، لأن ساكنَ السّهول والوديان هو نفسه في كلِّ مكان. إنه يخشى بوقَ قُطّاع الطرق، كما يخشى بوقَ رماة الأسهم.

وهكذا، اجتازوا هضاباً وغابات، تنتشرُ فيها ضيعاتٌ صغيرةٌ نادرة، وسلكوا طرقاً متعرّجة تُرى فيها آثاراً حيواناتٍ وحشية أكثر مما تُرى فيها أقدامُ بشر. وساروا بمحاذاة بحيرات شاطئية، واجتازوا سيولاً ومسيلات، ومستنقعات. ولم يكن أوردينر يعرفُ أيّاً من تلك الأماكن. ولقد التقت نظرتُه ذات يوم فقط، حين رفعها إلى إلى الأعلى نحو الأفق، المظهر البعيد والمزّرق لصخرةٍ كبيرة ملتوية؛ فانحنى نحو أحد رفاقه الغلاظ، رفاق السّفر، وقال له:

- يا صديق، ما هي تلك الصخرة، هناك، في الجنوب، وعلى اليمين؟

فأجابه الآخر:

- إنها لو - كو - دوفوتور، صخرة أويلمو.

فتنهّد أوردينر تنّهداً عميقاً[1]

(١) هناك من لفت النّظر إلى أنه لن يدورَ الحديثُ على أوردينر ولو لمرة واحدة بين نهاية هذا الفصل، ولحظة ظهوره في المحكمة، بعد ذلك بثلاثة أيام. «لا يمكن أن يُفسَّر غيابُ البطل من المرحلة الحاسمة لمغامرته إلاّ من خلال تناقض داخلي في قراره... فالأمرُ الذي اختاره، ليس العقل، بل السّلبية، إنه لا يريدُ أن يسبّب الموتَ لأحد، بل أن يتلقّاه. (إيف غوان).

الفصل السّادس والثّلاثون

ماذا يمكنُ للجريمةِ أن تقول لكي تسحقَ الفضيلة؟

كوتزيبو: أديلايد دوفولفنجن.[1]

القِردَةُ، والببغاواتُ، والأمشاطُ، والشرائطُ، كلُّها كانت معدّةً في منزل الكونتيسّة دالفيلد، لاستقبال الملازم فريدريك. وكانت الكونتيسّةُ قد جلبت بتكاليف كبيرة آخرُ روايةٍ للشهيرة سكوديري وأمرت بتغليفها بتجليدٍ ثمينٍ ذي أقفالٍ من الفضّة المذهّبة المرصّعة، ووُضِعت بين قوارير العطور، وعلبِ اللّواحق، على المزينة الأنيقة ذاتِ القوائم المذهبة والمزخرفة بفسيفساء خشبية، والتي كانت قد أثّثت بها الصّالون الصّغير المقبل لابنها الحبيب فريدريك. وحين استعرضت على هذا النحو الحلقةَ الدّقيقةَ لاهتماماتها الصّغيرة الأموميّة، والتي ألهتها للحظةٍ من الزّمن عن حقدها، خطر في ذهنها أنه لم يعدْ لديها شيء تفعلُه سوى الإساءة إلى شوماكير وإيتيل. فقد أسلمهما رحيلُ الجنرال دوكنود إليها من غيرِ دفاع.

(١) اقتباس حلَّ محله عام ١٨٣٣، استشهادٌ بماتوران رينيه: «يا ابنتي، ليحرسك الرّب، ويتكرّم بمباركتك!».

كانت قد حدثت منذ قليل، في برجِ مونكولم، طائفةٌ من الأمور لم تستطعْ أن تحصل إلّا على معطياتٍ مبهمةٍ جدّاً عنها - فأيُّ قنٍّ أو تابعٍ أو فلّاح هو الذي حصل على محبَّة ابنة المستشار السّابق. إذا ما استندنا إلى الأقوال الشّديدة الالتباس، والشّديدة التشّوش لفريدريك؟ - وأيةُ علاقات كانت تربطُ البارون أوردينر بسجناء مونكولم؟ - وما هي الدّواعي غير المفهومة لغيابِ أوردينر المثير للاستغراب، في لحظةٍ لم تكن المملكتان فيهما منشغلتين إلّا بزواجه المقبل بتلك المدعوّة أولريك دالفيلد، والتي كان يبدو أنه يحتقرُها؟

- وأخيراً، فماذا جرى بين لوفان دوكنود وشوماكير، في اللّقاء الذي رفَضَ الجنرالُ بكثير من الفظاظة أن يُفصح عن مضمونه...؟ - كان ذهن الكونتيسّة حائراً بين التّخمينات، وقد عزمت أخيراً، لكي تُوضِحَ هذه الخفايا كلَّها، أن تجازفَ بالنّزول إلى مونكولم. وقد كان ذلك النُّزولُ نصيحةً قدّمها إليها فضولُها كامرأة، ومصالِحُها كغريمة.

وذات مساء، وفيما كانت إيتيل وحدها في حديقة البرج، قد انتهت من حفر رقم غامضٍ لا ندري ما هو على الركيزة السّوداء لباب النجاة، وقد فعلت ذلك للّمرّة السّادسة، بواسطة ماسة خاتم، وكان هذا البابُ قد شهد فتاها أوردينر، وهو يتوارى، انفتح ذلك الباب، فارتعشت الفتاة؛ فقد كانت تلك هي المرّةَ الأولى التي ينفتحُ فيها ذلك المخرجُ السّريّ، منذ أن أغلق وراءه.

امرأةٌ طويلةُ القامة، وشاحبةُ الوجه، وترتدي ملابسَ بيضاء[1]، كانت واقفةً أمامها، وكانت تقدّم لإيتيل ابتسامةً رقيقة كالعسل المسموم. وكان هناك،

(١) طهارةً غادرة، غير أن «المرأة البيضاء» إنّما ستظهرُ بنقابٍ أسود، إلى جانب إيتيل لكي تحضر محاكمة أوردينر. (الفصل: ٤٣).

خلف نظرتِها الهادئةِ والعطوفة ما يشبهُ تعبيراً عن حقدٍ، وحنقٍ، وإعجابٍ خارج عن إرادتها.

تأمّلتها إيتيل بدهشة، وإلى حدّ ما بخوف؛ فمنذ مرضعتها التي ماتت بين يديها، كانت تلك هي المرّةَ الأولى التي تراها ضمن سورِ مونكولم المعتم.

وقالت الغريبةُ برقّة:

– يا ابنتي، أنت ابنةُ سجينِ مونكولم؟

لم تستطع إيتيل أن تمتنع عن إدارة رأسها؛ فقد كان هناك شيءٌ في داخلها لا يتعاطفُ مع الغريبة، وكان يبدو لها أن هناك سمّاً في النَفَس الذي يرافق ذلك الصّوتَ الرقيق، فأجابت:

– أدعى إيتيل شوماكير، ويقولُ لي والدي إنهم كانوا يسّمونني، وأنا في السّرير، الكونتيسّة تونغسبرغ، وأميرة فولان.

فهتفت المرأة الطّويلةُ القامة بلهجةٍ قويّة، ما لبثت أن تخلّت عنها:

– قال لي والدك ذلك...!

ثم أضافت:

– لقد عانيت الكثير من التّعاسة!

فردّت السّجينة الشّابّة:

– لقد احتضنتني التّعاسةُ منذ ولادتي بين ذراعيها الحديديّتين، ويقول والدي النبيل إنها لن تتركني إلّا عند موتي.

مرّت ابتسامةٌ على شفتيّ الغريبة بلهجةٍ مُشفقة:

– وأنتِ لا تتذمّرين من أولئك الذين ألقوا بحياتك في هذا السّجن. ألا تلعنين صانعي حظّك المنكود؟

– كلّا، خوفاً من أن تجلبَ لعنتُنا عليهم آلاماً تشبهُ تلك الآلام التي يجعلوننا نعانيها. وتابعت المرأةُ البيضاء من غير تأثرٍ:

– هل تعرفين صانعي هذه الآلام التي تشكين منها؟

فكرّت إيتيل للحظةٍ من الزّمن، وقالت:

– لقد جرى كلُّ شيء بمشيئة السّماء.

– الملك...؟ هو الذي أصلّي لأجله صباحاً ومساءً، من غير أن أعرفه.

ولم تفهم إيتيل لماذا عضّت الغريبةُ شفتيها عند ذلك الجواب.

– ألا يسمّي والدك المنكود الحظّ أثناء غضبه أبداً أعداءه الألدّاء، الجنرال أرنسدورف، والأسقف سبوليسون، المستشار دالفيلد...؟

– أجهل عمن تتكلمين.

– وهل تعرفين اسم لوفان دوكنود؟

كانت ذكرى المشهد الذي حدث قبل يومين بين حاكم درونتهايم، وشوماكير، كان لا يزال حديثَ العهدِ إلى درجةٍ كبيرة في ذهنِ إيتيل بحيث لا يمكن لاسم لوفان دوكنود ألّا يؤثّر بها.

فقالت:

- لوفان دو كنود، يبدو لي أن ذلك هو الرّجل الذي يكنُّ له والدي كثيراً من التّقدير، وإلى حدٍّ ما كثيراً من المودّة.

فهتفت السّيدةُ الطويلةُ القامة:

- و كيف؟

فكرّرت الشابّةُ:

- ... أجل. إن لوفان دو كنود هذا هو الذي كان سيّدي و والدي يدافعُ عنه بحماسة، قبل يوم أمس ضدّ حاكم درونتهايم.

فضاعفت هذه الكلماتُ دهشةَ المرأة الأخرى، فقالت:

- ضدّ حاكم درونتهايم! لا تسخري مني، يا ابنتي، إن مصالحكم هي التي تأتي بي إلى هنا، و والدكَ كان يتّخذُ موقفَ الدّفاع عن الجنرال دو كنود، ضدّ حاكم درونتهايم!

- الجنرال! يبدو لي أنه كان يدافعُ عن النقيب... ولكن، أنتِ على حقّ. وتابعت إيتيل:

- كان يبدو أن والدي يحفظُ الكثيرَ من المودّةِ لذلك الجنرال لوفان دو كنود، بحيث أظهر كراهيته لحاكم درونتهايموس.

فقالت المرأةُ الطّويلةُ الشاحبة والتي كان فضولُها يشتعلُ أكثر فأكثر، قالت في نفسها:

– هذا أيضاً سرٌّ غريبٌ غامض .

وقالت:

– يا ابنتي العزيزة ، ما الذي جرى بين والدك وحاكم درونتهايم؟

كان التحقيقُ المتزلّف ، تحقيقُ تلك المجهولة ، يُتعب إيتيل المسكينة التي كانت تحدّق بها .

– هل أنا إذن مجرمةٌ لكي تستجوبيني بهذه الطّريقة؟

عندما سمعت المجهولةُ هذه الكلمة الشّديدةَ البساطة . بدت منذهلة ، وكأنّها كانت تشعر بأن ثمرةَ مهارتها قد أفلتت منها . فكرّرت مع ذلك ، بصوتٍ ينمُّ عن تأثر خفيف:

– ما كان لك أن تكلّميني هكذا . لو كنتِ تعلمين لماذا أتيتُ ، ومن أجل من...

فقالت إيتيل:

– ماذا! هل تأتين من قبله؟ وهل تحملين إليَّ رسالةً منه...؟

وصبغ دمُها كلَّه وجهَها الجميل ، وكان كلُّ قلبها ينتفضُ في صدرها مترعاً باللّهفة والقلق .

وسألت الأخرى:

– ... ممن؟

توقّفت الفتاةُ للحظةٍ من الزّمن عن لفظ الاسم المعشوق؛ فقد رأت في عينِ الغريبة ومضة فرحٍ قاتم، وكأنّها شعاعٌ من الجحيم، فقالت بحزن:

– أنت لا تعلمين عمّن أريد الحديث.

ارتسم التعبيرُ عن توقّعٍ خائب للمرّة الثانية على وجه المرأة الأخرى العطوف، فهتفت:

– يا للشابّة المسكينة! ماذا يمكنني أن أصنعَ لأجلك؟

لم تكن إيتيل تسمعُها؛ فقد كان تفكيرُها خلف جبال الشّمال، وخلف المسافرِ المغامر، وكان رأسها قد انخفض على صدرها، ويداها قد ضُمَّتا، وكأنما من تلقاء ذاتهما.

– هل يأملُ والدُك المنكودُ الحظّ في أن يخرجَ من هذا السّجن؟

أعاد هذا السؤالُ الذي كرّرته المجهولةُ مرّتين، أعاد إيتيل إلى نفسها، فقالت:

– نعم.

وتدحرجت دمعةٌ في عينها، أمّا عينا الغريبة فقد تحرَّكتا عند ذلك الجواب:

– إنه يأملُ ذلك، قولي لي، وكيف؟ بأيّةِ وسيلة...؟ ومتى...؟

– إنه يأملُ الخروجَ من هذا السّجن، لأنه يأملُ أن يخرجَ من الحياة.

هناك أحياناً في بساطةِ نفسٍ رقيقةٍ وشابّة قدرةٌ تستهينُ بحيلِ قلبٍ قد شاخَ في الخبث.

وبدا أن تلك الفكرة قد هزَّت روحَ المرأةِ الطّويلة، لأن تعبيرَ وجهها قد تبدَّل في الحال، وإذْ وضعت يدَها الباردةَ على ذراعِ إيتيل، فقد قالت بلهجةٍ تنمُّ تقريباً عن الصّراحة:

– أصغي إليّ، هل سمعتِ أنّ حياةَ والدك مهدَّدة مجدَّداً بتحقيقٍ قضائي؟ وأنّه مشبوهٌ بتحريكِ تمرُّدٍ في صفوفِ عمّالِ المناجم في الشّمال...؟

هذه الكلمات: تمرُّد وتحقيق، لم تكن تقدّمُ لإيتيل فكرةً واضحة؛ فرفعت عينيها السّوداوين الكبيرتين نحو المجهولة، وقالت:

– ماذا تريدين أن تقولي؟

– إن أباك يتآمرُ على الدّولة، وأن جريمتَه قد اكتُشفت تقريباً، وأن هذه الجريمةَ تستدعي عقوبةَ الإعدام.

فصاحت الطفلةُ المسكينة:

– الموت! جريمة...!

فقالت المرأةُ الغريبةُ بلهجةٍ رصينة:

– جريمة، وموت.

وتابعت إيتيل:

– والدي! والدي النبيل! وا أسفاه! هو الذي يمضي أيّامَه وهو يسمعُني أقرأ الإيدا والإنجيل! هو يتآمر! وماذا فَعَل لكم إذن؟

– لا تنظري إليّ هكذا؛ أكرّر لك أنني بمنأى عن أن أكون عدوَّتك. إن والدك مشبوهٌ بجريمةٍ كبرى، وأنا أخبرُك بذلك. فربّما يكون لي الحقّ بأن تُقرّي لي ببعضِ الجميل، بدلاً مما تُبدينه نحوي من كراهية؟

فتأثّرت إيتيل بهذا العتاب، وقالت:

– أوه! عفواً، أيتها السّيدة النبيلة! فحتى الآن، أيُّ كائنٍ بشريّ رأيناه لم يكن في عدادِ أعدائنا؟

لقد كنتُ مرتابةً بك. وأنت تعذرينني على هذا، أليس كذلك؟

فابتسمت الغريبة، وقالت:

– ماذا! يا ابنتي! ألم تلتقي حتى الآن بصديق؟

فتوهّج خدّا إيتيل بحمرةٍ شديدة، وتردّدت للحظةٍ من الزّمن، ثم قالت:

– أجل... الرّبُّ يعرفُ الحقيقة. لقد وجدنا صديقاً، أيتها السّيدة النبيلة... صديقاً واحداً!

فقالت السّيدة الطويلةُ على عجل:

– واحداً! سمّه لي، من فضلك. أنت لا تدرين كم هو أمرٌ مهمّ... من أجل خلاص والدك... من هو هذا الصّديق؟

فقالت إيتيل:

- أجهلُ ذلك.

فشحب وجهُ المجهولة، وقالت:

- هل تسخرين مني، لأني أريد أن أخدمك؟ فكّري بأنّ الأمر يتعلَّقُ بحياةِ والدك. فقولي من هو هذا الصّديقُ الذي كنتِ تحدّثينني عنه؟

- السّماءُ تدري، أيتها السّيدةُ النّبيلة، إني لا أعرفُ عنه إلّا اسمه الذي هو أوردينر.

قالت إيتيل هذه الكلمات بذلك العناء الذي نحسُّ به حين نلفظُ أمامَ شخصٍ غير مكترث الاسم المقدّس الذي يوقظُ في نفوسنا كلّ ما يحبّ.

فردّدت المجهولةُ بانفعالٍ غريب، فيما كانت يداها تدعكان بشدّةٍ التّطريزَ الأبيضَ لنقابها، وسألت بصوتٍ مضطرب:

- وما هو اسمُ والده؟

فأجابت الشّابةُ:

- لا أدري ماذا يهمُّني من عائلته ومن والده! إن أوردينر هذا، أيتّها السّيدةُ النبيلةُ هو أكثر الرّجالِ شهامةً.

وا أسفاه! كانت اللّهجةُ التي رافقت هذا الكلامَ تفضحُ كلَّ ما يخبّئه قلبُ إيتيل عن فطنةِ الغريبة.

اتخذت الغريبةُ مظهراً هادئاً ومركّباً، وطرحت السّؤال التالي من غير أن تجعل الشّابة تغيبُ عن ناظرها:

- هل سمعت كلاماً عن الزّواج المقبل لابن نائب الملكِ بابنة المستشار الكبير الحاليّ دالفيلد؟

كان لابدَّ لها أن تُعيد طرحَ السّؤال لكي ترجع ذهن إيتيل إلى أفكارٍ لم يكن يبدو أنها تُثيرُ اهتمامها.

فكان كلُّ جوابها هو:

- نعم، حسبما أظنّ.

وبدا أن هدوءَها، ومظهَرها غير المكترث قد فاجأا المجهولة.

- حسناً، وما رأيُك بهذا الزّواج؟

كان من المتعذّر بالنسبة إليها أن تلاحظ أقلَّ تغيرٌّ في عيني إيتيل الكبيرتين، فيما كانت تجيب:

- لا شيء، في الحقيقة، فليكن قرانُها سعيداً!

- إن الكونت غولدينليف والكونت دالفيلد، والديّ الخطيبين، هما عدوّان كبيران لوالدك.

فردّدت إيتيل برقّة:

- ليكن قرانُ ابنيهما سعيداً!

فتابعت المجهولةُ الماكرة:

– تخطر لي فكرة وهي أنه إذا كانت حياةُ والدك مهدَّدةً؛ فيمكنك، بمناسبة هذا الزّواجِ الكبير أن تحصلي على عفوٍ له عن طريق ابن الكونت، نائبِ الملك.

– ليكافئك القّديسون على اهتماماتك كلّها بنا، أيّتها السّيدة النبيلة؛ ولكن كيف يمكنُني إيصالُ التماسي إلى ابن نائبَ الملك؟

لُفظت هذه الكلماتُ بقدرٍ كبيرٍ من حسنِ النيّة، بحيث انتُزعت من الغريبة حركةٌ تدلُّ على الدهشة:

– ماذا! ألا تعرفينه؟

فهتفت إيتيل:

– هذا السّيد المقتدر. أنت تعرفين أن أيّة نظرةٍ من نظراتي لم تخترق سورَ هذه القلعة.

فدمدمت السّيدة الطّويلة بصورةٍ غير مفهومة:

– ولكن، فعلاً، ماذا كان يقولُ لي ذلك المجنونُ لوفان...؟ إنها لا تعرفُه.

ثم قالت، وهي ترفع صوتها:

– ومع ذلك، فهذا غيرُ ممكن. لابدَّ أنك قد رأيتِ ابنَ نائب الملك. لقد أتى إلى هنا.

– هذا ممكن، أيتها السّيدة النبيلة؛ فمن بين كلِّ الرّجال الذين أتوا إلى هنا. لم أرَ قطّ أحداً سواه، فتاي أوردينر...

فقاطعتها المجهولة:

– فتاك أوردينر–

وتابعت، من غير أن يبدو عليها أنها قد لاحظت احمرارَ وجهِ إيتيل:

– هل تعرفين شابّاً ذا وجه نبيل، وقامة أنيقة، ومشيةٍ رصينة ثابتة، ونظرةٍ رقيقة وقاتمة وسحنة نضرةً مثل سُحنة فتاة، شعره كستنائيٌ...

فهتفت إيتيل المسكينة:

– أوه! إنه هو، إنه خطيبي ومحبوبي أوردينر! قولي لي، أيتها السّيدة النبيلةِ، العزيزة، هل تحملين إليّ أخباراً عنه...؟ أين التقيته؟ لقد قال لك إنه يتنازلُ ليحبَّني، أليس كذلك؟ لقد قال لك إنه قد امتلك قلبي بكامله، وا أسفاه! إن سجينةً تعسة لا تمتلك سوى حبّها في العالم... هذا الصّديقُ الشّهمُ، كنت لا أزال أراه، منذ أقلّ من ستة أيام، في هذا المكان نفسه، بمعطفه الأخضر، الذي ينبض تحته قلبٌ كريم، تلك الريشةِ السوداء التي تتمايلُ على جبينه الجميل بكثير من اللّطف...

لم تكمل إيتيل كلامها، فقد رأت السّيدةَ الطويلةَ المجهولة ترتجفُ، ويشحبُ لونُها، ويحمرُّ وجهُها، وتصرخُ بصوتٍ صاعقٍ، عند أذنيها:

– أيتها التعسّة! إنك تحبين أوردينر غولدينليف، خطيبَ أولريك دالفيلد، وابنَ العدّو اللّدود لوالدك، وهو نائبُ ملكِ النرويج.

فوقعت إيتيل مغمىً عليها.

الفصل السّابع والثّلاثون

كوبوليكان: سيروا بكثيرٍ من الحذر بحيث لا تسمعُ الأرضُ
نفسُها دبيبَ خطواتكم... ضاعفوا اهتمامكم،
يا أصدقائي... فإذا وصلنا قبلَ أن يسمَعنا
أحدٌ، أؤكد لكم الانتصارَ.
توكابيل: لقد غطّى الليلُ كلَّ شيء بأشرعته:
إن ظلمةً مرعبةً تلفُّ الأرض، ولا نسمعُ
صوت أيّ حارس، ولم نلمحْ جواسيس...
رينغو: لنتقدّمْ!

. . . .

توبيكال: ماذا أسمعُ؟ هل كُشِفنا؟

لوب دوفيغا، ترويض اروك.

- قلْ لي يا رفيقي القديم غولدون ستيبر، هل تعلم أنَّ ريحَ المساء الشّمالية قد بدأت تُخفِض بقوةٍ أوبارَ طاقيّتي على وجهي؟

كان ذلك هو كينيبول الذي، ما إن أزاحَ إحدى عينيه للحظةٍ من الزّمن عن قائده العملاق، حتى استدار جزئياً نحو أحد الجبليين الذي وضعه مسيرٌ غير منتظمٍ إلى جانبه.

هزَّ هذا الأخيرُ رأسه، وبدَّلَ البيرقَ الذي كان يحملُه من كتفٍ إلى أخرى، وهو يتنهَّدُ تنهيدةً طويلةً تنمُّ عن العياء.

- احمْ! أظنُّ، أيها السّيدُ القائد، أننا في هذه المضائقِ اللّعينة، مضائقَ بيليبه - نوار التي تندفعُ فيها الرّيحُ كالسّيل، لن نشعرَ بالحّر هذه اللّيلة، بقدر ما تشعرُ به شعلةٌ تتراقصُ على الجمر.

- ينبغي أن نوقدَ ناراً كثيرةً توقظُ البوماتِ الشّائخات، في أعالي الصّخور، داخل قصورها المهدَّمة، فأنا لا أحبُّ البوم.

وفي تلك الليلة الرّهيبة التي رأيت فيها الجنيّة أوبفيم، كانت تتّخذُ شكلَ بومة.

فقاطعه غولدون - ستيبر، وهو يشيحُ برأسه:

- وحقّ القدّيس سيلفيستر! إن ملاكَ الرّيح يُعطينا رفرفاتِ أجنحة غاضبة- فإذا صدَّقْتم ما أقول، أيّها القائد كينيبول، فلسوف يجري إشعالُ أشجارِ السّرو كلّها في الجبل. زدْ على ذلك، أنّه سيكونُ منظراً جميلاً أن يستدفئَ جيشٌ بغابة.

– لا سمحَ اللّه ، يا عزيزي غولدون! واليَحَامِرُ والسَّنافر ، وطيورُ التُّدْرِج!
طبخُ الطّريدة أمرٌ رائع ، ولكن لا ينبغي أن نحرقها .

فأخذ العجوز غولدون يضحكُ ويقول:

– يا قائدنا ، أنت على الدّوام الشّيطان كينيبول ذاته حقاً ، ذئبُ اليحامِرِ ، ودبُّ الذئاب ، وجاموسُ الدّببة!

وسأل صوتٌ من بين الصّيادين:

– ألا زلنا بعيدين عن بيلبيه – نوار؟

فأجاب كينيبول:

– يا رفيقي ، سوف ندخلُ إلى المضائق عند دخولِ الليل ، وها نحن ، بعد لحظةٍ من الزّمن ، سنكون في كاتر– كروا .

هيمنت لحظةٌ من الصّمت ، لم تُسمع أثناءَها إلّا جلبةُ خطىً متكاثرةِ العدد ، وأنينُ الرّيحِ الشمالية ، والغناءُ البعيد لعصابةِ الحدّادين الآتين من بحيرة سميازين .

فتابع كينيبول ، بعد أن صفّر لحنَ الصّياد رولون(١):

– أيّها الصّديق غولدون ستيبر ، هل أمضيتَ بضعةَ أيامٍ في درونتهايم؟

(١) رولون ، هو ابنُ زعيم نرويجيّ ، وأوّلُ دوقٍ في نورمانديا ، توفي عام ٩٣١ . إن أعمالَ عنفٍ قد ارتُكبت ضدَّ سكانِ فيغن ، قريباً من درونتهايم أدّت إلى الحكم عليه بالنّفي المؤبّد ، فأقام في روان ، وسيطر على منطقة السّين ، حتى اهتدائه إلى المسيحيّة ، وتحالفه مع الكارولنجيين .

– أجل ، يا قائدنا . فقد كان أخي جورج ستيبر ، صياد السّمك مريضاً ، وقد حللت مكانَه لبعضِ الوقت في كوخه ، لكي لا تموتَ أسرتُه المسكينة جوعاً ، حين يموتُ بسبب المرض .

– إيه! بما أنّك تصلُ من درونتهايم ، هل تسنّت لك الفرصةُ لترى ذلك الكونتَ السَّجين... ستوماشير... غليفينهم... وماذا كان اسمه؟ أخيراً ، ذلك الرّجل الذي نتمرّدُ باسمه على الوصايةِ الملكية ، والّذي لا شكّ أنك تحملُ شعاراتِه المذهبّة على هذه الرّايةِ النّاريّة اللّون؟

فقال غولدون:

– إنها ثقيلةٌ حقاً! تريد أن تتكلّمَ على سجينِ قلعةِ مونكولم الكونت...! فليكن . وكيف تريدُ ، يا قائدَنا الشّجاع ، أن أكونَ قد رأيته؟

وأضاف وهو يُخفض صوته:

– كان يلزمني عينا ذلك الشّيطان الذي يسيرُ أمامنا ، من غير أن يترك وراءَه رائحةَ الكبريت ، مع ذلك ، عينا هان الإيسلنديّ هذا الذي يرى من خلال الجدران ، أو خاتم الجنيّة ماب التي تمرُّ من ثقبِ الأقفال – وفي هذه اللحظة ، ما من أحدٍ بيننا ، وأنا متأكّدٌ من ذلك ، سوى رجلٍ واحدٍ قد رأى الكونت... السّجينَ الذي تحدّثني عنه .

– رجلٌ واحد...؟ آه! السّيد أكيت! ولكن آكيت هذا لم يعدْ بيننا ، فقد تركَنا تلك الليلة لكي يرجع....

– لست أعني البتّةَ السّيد أكيت ، يا قائدنا .

- ومن إذن؟

- ذلك الشابّ ذا المعطفِ الأخضر، والرّيشةَ السّوداء الذي سقَطَ بيننا في تلك الليلة وإذن؟

فقال غولدون، وهو يقتربُ من كينيبول:

- إذن! ذلك الشخص الذي يعرفُ الكونت... ذلك الكونت الشهير، كما أعرفُك، يا قائدنا كينيبول.

نظر كينيبول إلى غولدون، وغَمزَ بعينه اليسرى، وهو يطقُّ بأسنانه، وربَتَ على كتفه، وهو يهتفُ بذلك الهتاف المنتصر الذي يُفلت من كبريائنا، حين نكونُ راضين عن فطنتنا:

- كنت أرتابُ بذلك!

فتابع غولدون ستيبر، وهو يبدّلُ الرّايةَ النّاريةَ اللّون إلى الكتف التي استراحت:

- أجل، يا قائدنا، أؤكّد لك أن الشابّ الأخضر قد رأى الكونت...- لا أدري كيف تسمّيه، ذلك الذي سوف نقاتلُ من أجله...- في برج مونكولم ذاته، والذي لا يبدو أنه يعلّقُ على الدّخولِ إلى ذلك السّجن أقلّ مما نعلّق، أنت وأنا، أهميةً على الدّخولِ إلى بستانٍ ملكيّ.

- وكيف تعرفُ هذا، يا أخي غولدون؟

أمسك الجبليُّ العجوز بذراع كينيبول، ثم فتح جزئياً جلدَ القندس بحذرٍ متشكّكٍ تقريباً، وقال له:

- انظرْ!

فهتف كينيبول:

- وحقّ شفيعي الجزيلِ القداسة، هذا يلمعُ كالماس!

كان ذلك، في الحقيقة، دبّوساً ثميناً من الماس يربطُ حمَّالةَ غولدون ستيبر الرَّديئة الصّنع فاستأنفَ هذا الأخير، وهو يتركُ هدبَ سترته ينزلُ:

- وصحيحٌ أيضاً أن هذا مصنوعٌ من الماس، كما هو صحيحٌ أن القمَرَ على مسيرةِ يومين من الأرض، وأنّ جلدَ حمّالتي مصنوعٌ من جلدِ الجاموسِ الميت.

غير أن تقاطيعَ وجهِ كينيبول كانت قد تكدَّرت، وانتقلت من الدَّهشة إلى القسوة، فخفض عينيه إلى الأرض، وهو يقولُ بنوعٍ من التفخيم الوحشيّ:

- يا غولدون ستيبر، أنت من قرية شول - سو الواقعة في جبال كول. إن والدك ميدبرات ستيبر قد مات عن مئة عام وعامين، من غير أن يكون قد فعل شيئاً يُؤخَذُ عليه، لأنها لا تُعتَبرُ جريمةً غادرة أن يقتل المرءُ ظبياً أو علنداً للملك سهواً - أما أنت، يا غولدون ستيبر، فتحملْ على رأسك الأشيب سبعةً وخمسين سنةً كاملة، وهذا ما لا يُعتبرُ سنّاً للشّباب إلّا بالنسبة للبوم - فيا غولدون ستيبر، يا رفيقنا، من الأفضل، بالنسبة إليك، أن تكون ماساتُ هذا الدّبوس حبات ذرةٍ بيضاء، إن لم تكن قد حصلت عليها بطريقةٍ مشروعة، وبالطريقةِ المشروعة نفسها التي يتلقّى بها التُّدرُجُ الملكي طلقة رصاصٍ من بندقية طويلة.

حين كان الزّعيم الجبلي يتلفّظُ بهذا التحذيرِ الغريب، كانت لهجتُه تحملُ التّهديدَ والعذوبةَ في آن.

فأجاب غولدون من غير انفعال:

– مثلما هو صحيح أن قائدنا كينيبول هو أكثر صيّادي كول جسارةً، وأن هذه الماساتِ هي ماسات، فإني أمتلكُها ملكيةً مشروعة.

فكرّر كينيبول، وهو يبدّل صوته تبديلاً يقعُ في الوسطِ بين الثّقةِ والشّك:

– حقّاً!

فاستأنف غولدون:

– إن الرّبَّ وشفيعي المبارك يعلمان أنّ ذلك قد حدث ذات مساء، وفي اللحظةِ التي كنتُ أقومُ بها بإرشادِ عددٍ من أبناءِ أمّتنا الطيّبة النّرويج إلى مكانِ السبلادجيست في درونتهايم، وكان هؤلاء الأبناء يجلبون جسدَ ضابطٍ وُجد على سواحلِ أورشتال – الرّملية – منذ ثمانية أيام تقريباً من هذا اليوم – تقدّم شابٌّ من قاربي، وقال لي: «إلى مونكولـم!». وكنت قليلاً ما أهتمُّ بذلك، يا قائدنا؛ فالعصفورُ لا يطيرُ بسهولةٍ حول قفص. ومع ذلك، فقد كان للشابّ السّيد مظهرٌ كريمٌ ومزهوّ، وكان يتبعُه خادمٌ يقود جوادين. وقد قفزَ إلى داخل قاربي بشكلٍ متسلّط. فأمسكتُ مجاذيفي – أي مجاذيف أخي.

وكان ملاكي الطّيب هو الذي يريدُ ذلك. وحين وصلنا، رمى إليّ المسافرُ الشّاب، بعد أن تحدّث إلى السّيد الرّقيبِ الذي كان هو الآمر في القلعة بلا شكّ، رمى إليّ كأجرٍ لي والربُّ يسمعُني، يا قائدنا، أجل، بهذا القرطِ

الماسيّ الذي أريتُك إياه منذ قليل، والذي كان ينبغي أن يخصّ أخي جورج، ولا يخصُّني، لولم يكن يوم العمل الذي قمتُ به لصالح جورج قد انتهى في السّاعة التي استخدمني فيها المسافرُ الشّابّ، كان الرّبّ في عونه - هذه هي الحقيقة، أيّها القائد كينيبول.

- حسناً.

أخذت سحنةُ القائد رويداً رويداً تستعيدُ ذلك القدر من الصّفاء الذي كانت تتيحه له طريقته في التعبير القاتمة والقاسية في الحالة الطبيعيّة، فسأل غودون بلهجةٍ ملطّفة:

- وأنت متأكد، يا رفيقنا القديم، بأن ذلك الشّاب هو الشّابَّ ذاته الموجودَ خلفنا الآن مع جماعةِ نوربيت؟

- متأكّد. لن أنساه من بين ألفِ وجه؛ فهو الوجهُ الذي صنَعَ ثروتي. زدْ على ذلك، أنَّ المعطفَ هو نفسه، والرِّيشةَ السّوداء هي ذاتها...

- أصدّقك، يا غولدون.

- ومن الواضح أنه كان ذاهباً لرؤيةِ السّجين الشهير، لأنه، لو لم يكن الأمرُ من أجلِ سرٍّ عظيم، لما كان قد كافأ البتّة على ذلك النحو، صاحِبَ المركب الذي نَقَله، ومن ناحيةٍ أخرى، فالآن وهو موجودٌ بيننا...

- أنتَ على صواب.

- وأتصوَّر، يا قائدنا، أن الشّابَّ ربّما يكونُ موثوقاً فعلاً لدى الكونت

الذي سنحرّره أكثر من السّيد آكيت الذي لا يبدو لي، وأقسمُ على ذلك بروحي، صالحاً إلّا ليموءَ مثلَ قطٍّ برّي.

فقام كينيبول بحركةٍ معبّرةٍ من رأسه:

– يا رفيقنا، لقد قلتُ ما كنتُ أهمُّ بقوله؛ فأنا أميلُ، في كلِّ هذه القضيّة، إلى إطاعة هذا السّيد الشّاب أكثر بكثيرٍ مما أميلُ إلى ذلك، خلف المبعوث آكيت. وليكن القَدّيسُ سيلفيستر، والقدّيس أولاووس في عوني. فإذا كان يقودُنا هذا الشّيطان الإيسلندي، أظنّ، أيها الرّفيق غولدون، أننا ندينُ بذلك لهذا الغرابِ الثّرثار آكيت أقل مما ندينُ به لذلك الغريب.

فسأل غولدون:

– أصحيحٌ هذا، يا قائدنا...

فتح كينيبول فمه ليجيب، حين شَعَر أن أحداً يربّت على كتفه. لقد كان ذلك هو نورييت.

– يا كينيبول، إننا نتعرَّضُ للخيانة! إن غورمون فوستريم يأتي من الجنوب. وفيلقُ رماةِ البنادق بكامله يزحفُ علينا. وفرسانُ سليسفيغ في سبارتو، وثلاثُ سرايا من جنودِ الخيّالة الدانمركيين ينتظرون الخيولَ في قريةِ لوفيغ. وقد رأى غورمون، على طولِ الطريق، عدداً من ستراتِ الفرسان الخضراء يساوي عددَ الشّجيرات الحرجيّة. فلنسرعْ للوصول إلى سكونجن، ولا نتوقفن البتّة، قبل أن ندخلَ إليها؛ فهناك، على الأقلّ، يمكننا أن ندافع عن أنفسنا. ويظنْ غورمون أيضاً أنه قد رأى بنادقَ قصيرةً تلتمعُ من خلال علّيقِ الغابات، وهي تسيرُ بمحاذاة مضائق بيلبيه – نوار.

كان القائدُ الشّابّ شاحباً، ومضطرباً، ومع ذلك، فقد كانت نظرتُه ورنَّةُ صوتِه تُنبئان عن جسارةٍ وتصميم.

وهتف كينيبول:

- غير ممكن!

فقال نوربيت:

- مؤكّدٌ! مؤكّد!

- ولكن السّيد أكيت...

- خائن أو جبان. كن متأكدّاً مما أقول، أيُّها الرّفيق كينيبول... فأينَ هو آكيت هذا...؟

في تلك اللّحظة، دنا جوناس من القائدين. ومن خلال وهنِ العزيمة العميق الذي ارتسمَ على قسماتِ وجهه، كان من السَّهل أن يرى المرءُ أنّه كان مطّلعاً على الخبر المشؤوم.

التقت نظراتُ العجوزين جوناس وكينيبول، وبدأ كلاهما يهزُّ رأسه، كأنما باتفاقٍ مشتركٍ فيما بينهما.

وقال نوربيت المندفع:

- حسناً! يا جوناس! حسناً! يا كينيبول؟

ومع ذلك؛ فقد كان قائدُ عمالِ مناجمِ فاروير العجوز يمرّرُ يده ببطء

على جبينه المتغضّن، وكان يجيبُ بصوتٍ خفيض على نظرةِ القائد القديم الجبليّي كول:

– أجل، هذا صحيحٌ للغاية، وهو مؤكّدٌ للغاية؛ فإن غورمون هو الذي رآهم.

فقال كينيبول:

– إذا كان الأمر كذلك، فما العمل؟

وردّ جوناس:

– ما العمل؟

– أقدّر، أيها الرفيق جوناس، أننا نتصرّف تصرُّفاً حكيماً، إذا ما توقّفنا.

– والأكثر حكمةً أيضاً هو أن نتراجَعَ، يا رفيقَنا كينيبول.

فصاح نوربيت:

– أن نتوقّف! أن نتراجع! يجب أن نتقدَّم!

أدار العجوزان نحو الشّاب نظرةً باردةً ومندهشةً. فقال كينيبول:

– نتقدَّم! ورماةُ بنادقِ مونكولم!

وأضاف جوناس:

– وفرسانُ سليسفيغ المرتزقة!

– والخيّالةُ الدانمركيون!

ضربَ نوربيت الأرض بقدمه، وقال:

– والوصايةُ الملكيّة! وأمي التي تموتُ من الجوعِ والبرد!

فقال عاملُ المنجم جوناس وهو يرتعشُ:

– أيها العفاريت! الوصاية الملكية!

فقال الجبليّ كينيبول:

– وما أهمية ذلك!

وأمسك جوناس كينيبول من يده، وقال:

– يا رفيقَنا الصّياد، لم تتشرّف بأن تكون ربيبَ عاهلنا المجيد كريستيرن الرّابع. و رجاؤنا أن يخلِّصنا الملكُ القديسُ أولاووس، والذي هو في السّماء، من الوصاية!

فقال نوربيت بصوتٍ مرعب:

– اطلبْ هذا المعروف من سيفك.

فأجاب كينيبول:

– إن الكلماتِ الجسورة تكلِّفُ الشّابَّ قليلاً، أيها الرّفيق نوربيت، ولكن فكِّر بأنّنا إذا مَضينا إلى أبعد من ذلك، فإن هذه السّترات الخضراء، سترات الفرسان...

– أفكر بأننا حتى لو رجعنا إلى جبالنا مثل الثّعالب أمام الذّئاب؛ فهم يعرفون أسماءَنا، وتمرُّدنا، أما إذا كان لابدَّ من الموت، فأنا أفضل رصاصةَ بندقيةٍ على حبلِ مشنقة.

فحرَّكَ جوناس رأسَه من الأعلى إلى الأسفل علامةً على التأييد.

– يا للشيطان! الوصاية لإخوتنا، والمشنقة لنا. إن نوربيت قد يكون على صواب.

فقال كينيبول:

– أعطني يدك، أيها الشَّهم نوربيت، فثمّة خطرٌ من الجانبين، ومن الأفضل أن نسير مباشرةً إلى الهوّة، من أن نهوي فيها، ونحن نسيرُ القهقرى.

فصاح جوناس العجوز، وهو يجعلُ تفيحةَ سيفه ترنُّ:

– هيّا! هيّا إذن!

وصافحهم نوربيت بحرارة، وقال:

– أيّها الإخوة، اسمعوا! كونوا جسورين مثلي، وسأكونُ حذراً مثلكم، فعلينا ألّا نتوقّف اليوم إلّا في سكونجن؛ إن حاميتَها ضعيفة، ولسوف نسحقُها، ولنجتز، إن كان لابدَّ من ذلك مضائقَ بيلييه – نوار، ولكن بصمتٍ عميق؛ فينبغي اجتيازُها، حتى وإن كان العدّو يراقبُها.

– أظنُّ أن رماةَ البنادق لم يعودوا موجودين على جسرِ أوردالزْ، قبل سكونجن... ولكن لا أهميّةَ لذلك. الصَّمت!

فردّد كينيبول:

- الصّمت...! فليكن.

وتابع نوربيت:

- والآن، يا جوناس، لنرجع كلانا إلى مركزنا، وربما نكون غداً في درونتهايم، برغم رماة البنادق والفرسان، والخيّالة، والدّثارات الخضراء، الآتية من الجنوب.

افترق القادةُ الثلاثة. وفي الحال، انتقلت كلمةُ السّر: الصّمت! من صفّ إلى صفّ أما عصابةُ المتمّردين تلك التي كانت صاخبةً من قبل، فلم تعدْ، في تلك الصّحارى التي جعلها اقترابُ الليلِ معتمةً، لم تعدْ تشبه إلّا جماعةً من الأشباح الصّامتة التي تتجول بلا ضجةٍ في المعابرِ المتعّرجة لإحدى المقابر.

ومع ذلك، فقد كانت الطّريق التي تسلكُها تضيق من لحظةٍ إلى لحظة، ويبدو أنّها تغوصُ تدريجياً بين سورين من الصّخور التي أخذت تصيرُ وعرةً أكثر فأكثر. وفي اللّحظة التي طلع فيها القمرُ المحمّر في وسط تجمُّعٍ باردٍ للغيوم يبسط حوله أشكاله الغريبة، بحركةٍ عجيبة، انحنى كينيبول على ستيبير، وقال:

- سوف ندخلُ إلى مضيق بيلبيه - نوار، الصّمت!

في الحقيقة، كان قد بدأ يُسمَعُ هديرُ السّيل الذي يحاذي تعرُّجاتِ الطّريقِ كلّها، بين الجبلين، وكان يُرى، في الجنوب، هرمٌ ضخمٌ مستطيلٌ من الصّوان أطلقوا عليه تسميةَ بيلبيه - نوار، يرتسمُ على اكفهرارِ السّماء، وعلى

ثلجِ الجبال المحيطة، فيما كان الأفقُ الغربيّ، المحمَّلُ بالضّباب، محدَّداً بتخومِ غابَة سباربو، وبمدرجٍ طويل من الصّخور، منضِّدٍ، مثل درجِ العمالقة.

إن المتمرّدين الذين كانوا مجبرين على مدّ أرتالهم عبر تلك الطّرق المتعرّجة المخنوقة بين جبلين، قد واصلوا سيرهم. لقد توغلوا في تلك المضائق العميقة، من غير أن يُشعِلوا المشاعلَ، ويُحدثوا جلبةً. كان دبيبُ الخطى ذاتُه لا يُسمَعُ البتَّة وسطَ قرقعةِ الشلّالات التي تصمُّ الآذان، وزئيرُ الرّيحِ العنيفةِ التي تلوي الغاباتِ الدّرويدية، وتجعلُ السُّحبَ الكثيفةَ تدوِّم حول شعَاف الجبال المغطّاة بالجليدِ والثلج. أما ضوءُ القمر الذي كان يضيعُ في أعماق المضيق المعتمة، وغالباً ما يكون محجوباً، فلم يكن ينزلُ حتى رؤوس حرابهم الحديديّة. ولم تكن النّسورُ البيضُ التي تمرُّ على فتراتٍ فوق رؤوسهم تظنُّ أن حشداً كبيراً كذلك الحشد من الرّجال يعكّر في تلك اللحظةِ عُزلَتَها.

وذاتَ مرّةٍ، لمس العجوزُ غولدون ستيبير بعَقبِ بندقيته كتفَ كينيبول، وقال له:

– أيّها القائد! يا قائدَنا! أرى شيئاً يلتمعُ وراء هذه الأجمة من جُنيباتِ البهشيّةِ والوزّال.

فأجابَ القائدُ الجبليّ:

– إني أراه أيضاً، إنّه ماءُ السّيل الذي يعكسُ الغيوم.

وصرفا النظر عن ذلك.

ومرّةً أخرى، استوقف غولدون قائده من ذراعه فجأةً، وقال له:

– انظرْ ، في الأعلى ، أليست تلك التي تلتمعُ ، في ظلٍّ هذه الصّخرة ، بنادق قصيرة؟

فهزَّ كينيبول رأسه ، ثم قال بعد لحظةٍ من الانتباه:

– اطمئن ، يا أخي غولدون ، إنه شعاعٌ من ضوء القمر يسقطُ على شعفةِ جبلٍ جليديّة .

لم يعدْ يتبدّى حولهما أيُّ أمرٍ منذرٍ بالخطر ، أما العصاباتُ المختلفة التي كانت تنتشرُ في انعطافات المضيق باطمئنان ، فقد نسيت ، من غير أن تشعر ، ما كان يشكّلُه من خطرٍ موقَع المكان .

وبعد ساعتين من المسير الذي كان شاقّاً غالباً ، عبر جذوع الأشجار ، وقطعِ الصّوان التي تسدُّ الطّريق ، دخلت الطليعةُ إلى باقةٍ من أشجار السّرو غير متساوِية ، وينتهي بها مضيقُ بيلبيه – نوار ، وتتدلّى فوقها صخورٌ سوداء مغطّاة بالطحّالب .

اقترب غولدون ستيبير من كينيبول ، وهو يؤكّد أنه مبتهجٌ أخيراً لأنّه قد أصبحَ على وشكِ الخروج من تلك المهلكة ، وأنه لابدَّ من أن نشكرَ القدّيسَ سيلفيستر على أنَ بيلبيه – نوار لم يكن قاتلاً .

أخذ كينيبول يضحكُ ، وهو يُقسمُ أنه لم يشاطرْ قطّ أحداً رأيه في مخاوفِ النّساء والعجائز . إذ أنّه ، بالنسبةِ لمعظم الرّجال ، حين يتخطّون الخطر ، يعتبرون أنه لم يكن موجوداً أصلاً ، ويسعون حينئذٍ إلى إثباتِ الشّجاعة التي لم يكن ممكناً إظهارُها ربّما ، من خلالِ عدمِ التّصديق الذي يبدونه .

في تلك اللحظة، لفت انتباهَه ضوءان صغيران مستديران، يُشبهان قطعتي فحمٍ مستعرتين وتتحركان في كثافةِ الحرش الفتيّ.

فقال بصوتٍ خفيض، وهو يحرّكُ ذراعَ غولدون:

– أقسم بخلاص روحي! هاتان بالتأكيد عينان متوقّدتان تخصّان أجملَ قطٍّ برّي قد ماءَ يوماً في دغل.

فردّ عليه العجوزُ ستيبير:

– أنت على حقّ، ولو لم يكن يسيرُ أمامنا، لظننت على الأصّح أنهما العينان اللّعينتان لشيطانِ إيسلـ...

فصاح كينيبول:

– صه!

ثم أمسك قربينته، وتابع قائلاً:

– في الحقيقة، لن يقالَ إن قطعةً جميلةً كهذه قد مرّت بلا عقابٍ، تحت عيني كينيبول.

كانت الطلقةُ قد انطلقت، قبل أن يتمكّن غولدون ستيبير الذي رمى نفسه على ذراعِ الصّياد المتهوّر، من أن يوقفها.

– لم يكن الأنين الحادّ لقطٌ وحشيّ هو الذي ردَّ على انفجار القربينة الصّاخب، بل كان زئيرُ نمرٍ مرعب، تبعته قهقهةٌ بشريةٌ أكثر فظاعة أيضاً.

لم يسمع دويُّ الطلقةِ يتواصل ويتلاشى من صدىً إلى صدىً، في أعماقِ الجبال، لأنّه ما إن التمع ضوءُ القربينة في اللّيل، وما إن انفجر صوتُ البارودِ المميت في السّكون، حتى ارتفع ألفُ صوتٍ هائلٍ وغير متوقّع، فوق المرتفعات، وفي المضائق، وفي الغابات، حتى تدحرجت صيحةٌ: عاش الملك! الهائلة كالرَّعد، على رؤوس المتمرّدين، وعلى جوانبهم، وأمامهم، ووراءهم. وحتى ضَرَبهم الوميضُ القاتلُ لرشَّةٍ رهيبةٍ، انطلقت من كلّ جانب، وأضاءتهم في آن، وجعلتهم يرون، من خلال زوابع الدُّخان الحمراء، كتيبة وراء كلّ صخرة، وجنديّاً وراء كلّ شجرة.

الفصل الثّامن والثّلاثون

إلى السّلاح! إلى السّلاح! أيّها القادة!

أ.هـ[1]: أسير أوشالي.

ليتفضّل القارئ بأن يستعرضَ معنا مجدّداً النهارَ الذي انقضى، وأن ينتقلَ إلى سكونجن حيث دخل فوجُ حاملي البنادق الذي رأيناه أثناء سيره، في الفصل الثلاثين من هذه القصّة الحقيقية فيما كان المتمرّدون[2] يخرجون من منجم الرصاص، منجم أبسيل – كَور.

فبعد أن أعطى البارون فوتاون، العقيدُ في فوج حاملي البنادق، أوامرَه لتأمين سَكَن الجنود الذين كان يقودُهم، كان يهمُّ بعبور عتبةِ الفندق الذي كان مخصّصاً له، بقرب باب المدينة، حين شعر بيدٍ ثقيلةٍ تُوضعَ على كتفه بلا تكلُّف، فاستدار.

كان ذلك رجلاً قصيرَ القامة لا تدعُ قبعتُه الكبيرة المصنوعةُ من السّوحر[3]،

(١) أوجين هيغو– الحرفان الأوّلان قد حذفا عام ١٨٣٣– أما «أسيرُ أوشالي» فقد صدرت، في الدّفعة الأولى لعام ١٨٢٣، من: «اللّوائح الرّومنسيّة» باسم مؤلّفها.

(٢) تمَّ تصحيح الكلمة من «INSURGENT» إلى:َ INSURGE في طبعة: «١٨٣٣».

(٣) نباتٌ مرن تصنعُ منه القبّعات. (م: ز. ع).

والتي تغطّي ملامح وجهه، لا تدع أحداً يلمح لحيته الصّهباء والكثّة. وكان يتلفّع بعناية بثنيات نوعٍ من المعاطف المصنوع من المسح الرّمادي، والذي كان يبدو، من خلال بَقيةٍ مَن غطاءٍ للرأس نراه معلّقاً به، وكأنه رداء ناسك، ولا يدعُ شيئاً يظهر غير يديه المخبئتين في قفازين ضخمين.

فسأل العقيد فجأة:

– أيها الرّجل الطيّب، ماذا تريدُ مني بحقّ الشيطان؟

فردَّ الرّجلُ بتعبيرٍ غريب:

– يا عقيد حاملي بنادق مونكولم، اتبعنْي للحظةٍ من الزّمن، فلدّي إخطارٌ أريدُ أن أبلغكَ إيّاه.

عند هذه الدّعوة الغريبة، بقي البارون للحظةٍ من الزَّمن متفاجئاً وصامتاً.

فردّ الرَّجلُ ذو القفّازين الضخمين:

– إخطارٌ هام.

جعل ذلك الإصرارُ البارون فوتاون يقرّر الموافقة؛ ففي لحظةِ الأزمةِ التي كان البلدُ رازحاً فيها، ما من إخبارٍ ينبغي الاستخفافُ به، فقال له:

– هيّا!

سار الرّجلُ القصيرُ أمامه، وما إن أصبحا خارجَ المدينة، حتى توقّف وقال:

– أيّها العقيد، هل لديك رغبةٌ شديدة في أن تقضي بضربةٍ واحدةٍ على كلِّ المتمرّدين؟

فأخذ العقيد يضحك .

– ولكن ذلك لن يكون بدايةً سيئةً للحملة .

– حسناً! ضع جنودك، منذ اليوم، في كمين، عند مضائق بيلييه – نوار، على بعدِ ميلين من تلك المدينة؛ فالعصاباتُ سوف تعسكر فيها هذه الليلة . وعند أولِ طلَقةِ نار تراها تلتمع، انقضّ عليهم بجماعتك، ولسوف يكون الانتصارُ سهلاً .

– أيها الرَّجلُ الشّهم . إن رأيك جيّد، وإني أشكرك، ولكن كيف تعرفُ ما تقولُه لي؟

– لو كنت تعرفني، أيّها العقيد، لسألتني بالأحرى كيف يمكن ألّا أعرف .

– فمن تكون إذن؟

فخبط الرَّجلُ بقدمه:

– لم آتِ إلى هنا أبداً لكي أقول لك ذلك .

– لا تخشَ شيئاً، أيّاً كنت . إن الخدمة التي تقدِّمها لي ستكون حمايةً لك . ولعلّك كنت في عدادِ المتمرّدين...؟

– رفضتُ أن أكون منهم .

– إذن، فلماذا تتكتّم على اسمك، بما أنك تابعٌ مخلصٌ للملك...؟

– وما يهمّك!

أراد العقيدُ أن يستخلصَ أيضاً بعضَ الإيضاحات من ذلك المعطي للآراء:

فردّد الرَّجل القصيرُ القامة، وقد تغيّر صوتُه تغيُّراً غير عاديّ:

– هان الإيسلندي!

طرح البارون سؤالَه مجدّداً؛ فكانت قهقهةٌ يمكن أن يعتبرَها المرءُ زمجرةً هي كلّ الرّدّ الذي استطاع أن يحصلَ عليه. فحاول طرحَ أسئلةٍ أخرى حول عددِ عمال المناجم، وحول قادتهم؛ فأخرسه الرَّجلُ القصير بقوله:

– أيّها العقيد في سلاح حملةِ بنادق مونكولم، لقد قلتُ كلّ ما كان لدَّي لأقوله؛ فاكمنْ، منذ اليوم في مضيقِ بيلبيه – نوار مع فيلقك بكامله، ولسوف تتمكن من سحقِ هذهِ الجماعة من الرّجالِ كلِّها.

– أنت لا تريدُ أن تكشفَ لي عن هويّتك، وهكذا؛ فأنت تحرمُ نفسَك من اعترافِ الملك بجميلك، ولكن الإنصافَ مع ذلك أن يعبّر لك البارون فوتاون عن امتنانه للخدمةِ التي تُسديها إليه.

ورمى العقيد صرّةَ نقودهِ عند قدميّ الرّجلِ القصيرِ القامة.

فقال هذا الأخيرُ:

– احتفظ بذهبك، أيّها العقيد، فأنا لستْ بحاجة إليه.

وأضاف وهو يعرض كيساً ضخماً معلّقاً في حزامه المصنوع من الحبال:

– إن كان يلزمُك أجرٌ لقتل هؤلاء الرّجال؛ فلسوف يكون لدَّي، أيّها العقيد، ما أعطيكَ إيّاه من الذّهب ثمناً لدمهم.

وقبل أن يرجع العقيد من الدّهشة التي ألقت به فيها كلماتُ ذلك الكائن الغامض التي يتعذّر تعليلُها، كان قد توارى.

رجع البارون فوتاون على أعقابه بتمهّلٍ، وهو يتساءَلُ عما يمكن أن يصدِّقه من أراء ذلك الرّجل. وفي اللحظة التي كانَ يعودُ فيها إلى فندقه، سلّموه رسالةً مختومةً من هيئةِ حربِ المستشار الكبير. وقد كانت، في الواقع، رسالةً من الكونت دالفيلد حيث وجد العقيد، بدهشةٍ يسهلُ تصوّرُها، الإخطار نفسه، والنّصيحة نفسها التي كان قد قدَّمها إليه عندَ أبواب المدينة الشّخص غير المفهوم ذو القبعة السّوحرية والقفّازين الضّخمين.

الفصل التّاسع والثّلاثون

مئة رايةٍ كانت ترفرفُ فوق رؤوسِ الشُّجعان، وتسيلُ
سواقٍ من الدّم من كلِّ جانب، وكان الموتُ يبدو مؤثراً
على الهرب. وكان يمكنُ لشاعرٍ غنائيّ سكسونيّ أن يدعو
تلك «الليلة» احتفالَ السّيوف. إن صيحةَ النّسور التي
تنقضُّ على طريدتها، ودبيبَ الحرب، كان يمكن لها أن تُداعبَ
سمعه أكثر مما تداعبُه الأناشيدُ الفرحةُ لمأدبةِ عرس.

فالترسكوت، إيفانوي.

لن نشرعَ هنا بوصفِ الاضطرابِ المخيف الذي حطَّم الأرتالَ التي كانت مسبقاً غير منظّمة، أرتالَ المتمرّدين، حين أظهر لهم المضيقُ المشؤومُ فجاءة كلِّ قممه التي ينتصبُ فيها ضدَّهم أعداءٌ غير متوقَّعين، وكلَّ كهوفه الزّاخرة بهم. وكان من الصّعب أن نميّز فيما إذا كانت الصّيحةُ الطّويلة التي شكّلتها ألفُ صرخةٍ انطلقت من صفوفهم التي صُعِقت بغتة، فيما إذا كانت صرخةَ يأس ورعب،

أم صرخةَ غضب. كانت النّارُ الرَّهيبةُ التي تقذفها من كلِّ جانب المفارزُ التي كشفت نفسها، مفارز القطعات الملكيّة، كانت تتزايد من لحظةٍ إلى لحظة، وقبل أن تنطلق من خطوطهم طلقةٌ أخرى من البندقية القصيرة غير طلقة كينيبول المشؤومة، لم يكونوا يرون حولهم غيمةٍ خانقةٍ من الدُّخان المضطرم، والذي يطير الموتُ من خلاله بصورةٍ عمياء، وحيث لم يعدْ كلُّ واحد منهم، في عزلته، يتعرَّفُ إلّا نفسه، فيميِّزُ بصعوبةٍ في البعيد، رماةَ البنادق، والفرسانَ، والرّماحين، الذين كانوا يبينون بصورةٍ مشوّشةٍ بمواجهة الصّخور، وعلى تخومِ الأحراش الفتيّة، وكأنهم شياطين في أتون المعركة.

إن كلَّ هذه العصابات التي تبعثرت على هذا النّحو، على امتدادِ ميلٍ تقريباً، وعلى طريقٍ ضيّقةٍ ومتعرّجة، يحيطُ بها من إحدى الجهات سيلٌ عميق، ومن الجهة الأخرى، سورٌ من الصّخور وهذا ما كان ينتزعُ منها أية سهولة لكي تنسحب، فتشبه بذلك تلك الحيّة التي نحطّمها بضربةٍ على ظهرها، حين تكون قد مدّت كلَّ حلقاتها، وتتمرّغ أجزاؤها الحيّة زمناً طويلاً في الرّغوةِ وهي لا تزال تسعى لتتجمّع من جديد.

حين مرّت المفاجأة الأولى، بدا أن اليأس نفسه قد نشّط كلَّ هؤلاء الرّجال المخيفين بطبعهم وغير الهيّابين.

لقد استبَّد بهم الغضبُ لأنهم وجدوا أنفسهم عرضةً للسّحق على ذلك النّحو، من غير دفاع. فأطلقت تلك الجماعة من اللّصوص جلبةً، وكأنّها جسمٌ واحد، جلبةً غطت للحظةٍ من الزمن ضجةَ الأعداء الظّافرين كلها. وحين رآهم هؤلاء من غير قادةٍ، ومن غير نظام، ومن غير أسلحةٍ تقريباً، وهم يتسلّقون،

تحت نيرانٍ رهيبةٍ، صخوراً عموديةً، ويتشبثون بأسنانهم وقبضاتهم بأشواكٍ تنبتُ فوقَ جروف، وهم يلوّحون بمطارقِ ومشاعبِ حديدية، فإن هؤلاء الجنود المسلّحين تسليحاً جيداً، والمنظّمين جيداً، والمتمركزين في أمكنة ثابتة، والذين لم يخسروا رجلاً واحداً من جماعتهم، لم يتمالكوا أنفسهم من القيام بحركةٍ تدلُّ على الذُّعر اللا إرادي.

كان هناك عددٌ من هؤلاء الهمجيين الذين توصّلوا، عدداً من المرات، على جسورٍ من الموتى أحياناً، وبالصعود على أكتافِ رفاقهم أحياناً، وهم ملتصقون بمنعطفات الصخور، وكأنها سلالم حيّة، توصّلوا إلى القمم التي يحتلها المهاجمون، غير أنّهم، ما إن صاحوا: الحريّة! وما إن رفعوا بلطاتهم، ودبابيسَهم المعقَّدة، وما إن أظهروا وجوههم السّوداء التي تزبد بغضبٍ مسعورٍ تشنّجي، حتى قُذِفَ بهم إلى الهوّة، ساحبين معهم أولئك الذين يصادفونهم أثناء سقوطهم، من بين رفاقهم المجازفين، والمعلّقين بشجرةٍ كثيفة، أو المحتضنين لرأسِ صخرة.

كانت جهودُ أولئك المنكودي الحظّ للهرب، وللدّفاع عن أنفسهم بلا طائل؛ فقد كانت كلُّ مخارجِ المضيقِ مُغلقةً، وكلُّ النّقاطِ التي يمكن الوصولُ إليها مزروعةً بالجنود. كانَ معظمُ هؤلاء المتمرّدين التّعساء يقضون، وهم منطرحون على رملِ الطّريق، بعدَ أن حطّموا مناقيرَ النّجارةِ والسّواطيرِ التي يحملونها على قطعةٍ من الصّوان. وكان بعضُهم مكتوفَ اليدينَ، وعيناه تحدّقان بالأرض، ويجلسُ على حجارة. على حافة الطريق. وهناك، كان ينتظرُ، بصمتٍ، وبلا حراك، أن تلقي به رصاصةٌ في السّيل. أما أولئك الذين، من بينهم، قد سلحتّهم بصيرة آكيت ببنادق رديئة، فأخذوا يوجّهون بلا تبصّرٍ بعضَ

الطلقات التائهة نحو قمّة الصّخور ، ونحو فتحة المغائر التي كانت تسقطُ عليهم بلا توقّف أوبالٌ من الرّصاص . وكانت ضجةٌ صاخبة يميّزُ المرءُ فيها صرخاتِ القادة الغاضبة ، وأوامر الضّباط الهادئة تختلطُ بلا توقّفٍ بفرقعة الطّلقات المتقطّعة والمتواترة ، فيما كان بخارٌ دامٍ يتصاعدُ ويتسرَّبُ فوق مكانَ المذبحة ، ملقياً في وجه الجبال أضواء كبيرة مرتعشة ، وفيما كان السّيلُ ، الذي ابيضَّ من الزَّبد يمرُّ مثل عدوٍ بين هاتين الجماعتين من الرّجال المتعادين ، حاملاً معه غنيمته من الجثث .

ولكن ، منذ اللحظة الأولى للعملية ، أو للمذبحة ، كان جبليّو كول الذين يقودُهم الشُّجاعُ والمتهوّرُ كينيبول هم الذين عانوا أكثر من غيرهم . ونحن نتذكّر أنهم كانوا يشكّلون طليعةَ الجيش المتمرّد ، وأنهم قد دلفوا إلى غابةِ الصّنوبر التي ينتهي بها المضيقُ؛ فما إن صلى المزعج كينيبول بندقيته حتى انغلق ذلك الحرشُ المسكونُ فجأة برماةٍ أعداء ، وكأنّما بنوعٍ من السّحر ، انغلق عليهم بدائرةٍ من النّار ، فيما كانت تسحقُهم بلا توقّفٍ ، برشّاتِ بنادقَ مرعبةٍ من قمة مرتَفَعٍ ، على شكل ساحة ، وتطلُّ عليه بضعُ صخورٍ كبيرة منحنية ، كانت تسحَقُهم كتيبةٌ كاملة من فوجِ مونكولم ، مصطفةٌ على شكل مثلث . أما كينيبول الذي اضطرب ، فقد نظر إلى العملاق الغامض؛ فهو لم يعد ينتظرُ خلاصاً إلّا من قدرةٍ تفوق البشر ، كقوّةِ هان الإيسلندي . ولكنه لم يرَ الشيطانَ الهائلَ يبسطُ فجأةً جناحين هائلين ، ويرتفعُ فوق المتحاربين ، وهو يقذفُ اللّهب والصَواعقَ على رماةِ البنادق ، لم يره يعلو فجأة حتى الغيوم . ويقلب جبلاً على المهاجمين ، أو يضربُ الأرض بقدمه فيفتح هوّةً تحت الكتيبة الكامنة . لقد تراجعَ ذلك الهان الإيسلنديّ مثله ، منذ أوّل رشقةٍ

رمتها البنادقُ ، وأتى إليه بوجهٍ مضطربٍ تقريباً ، وطلب منه بندقية ، نظراً لأنه ، كما كان يقولُ بصوتٍ عاديّ إلى حدّ ما ، في لحظةٍ مماثلة ، تكون بلطته غير نافعة ، مثل مغزل امرأةٍ عجوز .

أما كينيبول الذي دُهش ، مع أنه بقي على سذاجته دائماً ، فقد سلّم بندقيّته الخاصّة للعملاق برعبٍ كان يجعله ينسى إلى حدّ ما الخوفَ من طلقات الرّصاص الذي تنهمرُ حوله . وإذ بقي لديه أملٌ دوماً بمعجزةٍ ، فقد توقّع أيضاً أن يرى سلاحَه القاتلَ يصبحُ بين يدي هان الإيسلندي ضخماً كمدفع ، أو أن يتحوَّل إلى تنيّن مجنّحٍ يقذفُ النّار من عينيه ، وشدقه ، ومنخريه؛ فلم يحدثْ شيءٌ من هذا ، ووصلت دهشةُ الصّياد المسكين إلى أوجها حين رأى الشّيطانَ يحشو مثله البندقية بالبارود والرّصاص العاديّ ويسدّدها على طريقته ، ويطلق طلقته بكلّ بساطة ، حتى من غير أن يصوّبها بشكلٍ جيّد مثله . وقد كان كينيبول يمكنه أن يفعل ذلك . لقد نظر إليه بذهولٍ كئيب ، وهو يكرّر تلك العملية الآليّةَ تماماً بضع مرات متتالية ، وإذ اقتنع أخيراً بأنه لابدَّ أن يصرف النظر عن المعجزة ، فقد فكّر كيف يخلّص رفاقه ونفسه من الورطة التي وجدوا أنفسهم فيها ، بوسيلة بشرية . لقد كان رفيقه المسكين القديم غولدون سيتبير قد سقط بجانبه ، وقد أثخنته الجراح . وصار الجبليّون المذعورون كلّهم غير قادرين على الهرب ، لأنهم محاصرون من كلّ جانب ، فأخدوا يتقاربون بعضهم من البعض الآخر ، دون أن يفكروا بالدفاع عن أنفسهم ، ويُحدثون جلبة تدعو للرثاء . لقد أدرك كينيبول ورأى كم كان ذلك التجمّع ، تجمع الرّجال يضمنُ الأمن لطلقات العدو التي كانت كلُّ قذيفةٍ منها تنتزع عشرين قذيفة من عند جماعته؛ فأمر رفاقه التّعساء بأن

يتفرّقوا ، وأن يرتموا في الأحراش الفتية التي تحاذي الطّريق والتي غدت أكثر عرضاً في ذلك الموضع منها في سواه من مضيقٍ يليه ، وأن يختبئوا تحت أشجارِ العليّق ، وأن يردُّوا بأقصى جهدهم على النار التي أصبحت مميتةً أكثر فأكثر ، نارِ رماةِ الكتيبة . إن الجبليين الذين كان معظمُهم مسلّحاً بشكلٍ جيد ، لأنهم كانوا صيّادين جميعاً ، قد نفّذوا أمر قائدهم بامتثالٍ لم يكن له أن يحصلَ عليه ربّما في لحظةٍ أقل حرجاً ، لأن النّاسَ عموماً ، في مواجهةِ الخطر ، يضيعون رشدهم فيطيعون حينذاك بكلّ يسرٍ ذلك الذي يأخذ على عاتقه رباطةَ الجأش ، وحضورَ الذّهن من أجل الجميع .

ومع ذلك ، فإن ذلك التدبيرَ الحكيمَ كان بعيداً عن أن يكون انتصاراً أو خلاصاً؛ فقد كان هناك جبليّون ممدّدون على أرضِ المعركة أكثر ممن بقي منهم واقفاً ، وبرغم المثال الذي ضربه لهم قائدُهم والعملاقُ وتشجيعاتهما ، فإن عدداً منهم كان يتكئ على بندقيته القصيرة ، العديمة الجدوى ، يتمدّدُ بقربِ الجرحى . كان قد اختار بعناد موقفَ استقبالِ الموت ، من غير بذلِ الجهدِ لتجريعه للآخرين . ولعلّ المرءَ يُدهش أن يكون هؤلاء الرّجال قد فقدوا شجاعتهم مبكراً إلى ذلك الحدّ ، مع أنهم قد اعتادوا في كلّ يوم أن يتحدّوا الموت وهم يعدون من قبابٍ جليدية إلى قبابٍ أخرى في مطاردةِ حيوانات مفترسة . إنما علينا ألّا نخطئ التقدير؛ ففي القلوب العاميّة ، تكون الشّجاعةُ محليّة؛ فيمكن أن تضحكَ أمامَ رشّة رصاص ، وأن ترتعدَ في العتمة على حافة جرف ، ويمكن لها أن تجابه كلَّ يوم الحيواناتِ المخيفةَ ، وأن تجتاز جروفاً بقفزةٍ واحدة ، وأن تهربَ أمام طلقةٍ مدفعية . يحدث غالباً أن تكونَ الجسارةُ عادة ليس أكثر ، ولئن كفوّا عن التخوّف من الموت بشكلٍ أو بآخر ، فسوف يهابونه مع ذلك .

أما كينيبول الذي كان محاطاً بأكداسٍ من إخوته المحتضرين؛ فقد بدأ يشعرُ هو نفسهُ باليأس ، مع أنه لم يتلّق بعد إلّا إصابةً خفيفةً في ذراعه اليسرى ، وأنه قد رأى العملاقَ الشّيطانيّ يواصلُ عملَه كفارسٍ ملكيّ بأكثرِ ما يمكن من برودةِ الأعصاب الباعثة على الاطمئنان . وفي الحال ، لمح ظهورَ اضطرابٍ غير عاديّ في الكتيبةِ المشؤومةِ المصطفّة في الأعالي ، ولا يمكن أن يكون سببُ هذا الاضطراب هو الضَّرر اليسيرُ الذي جعلته يعانيه نارُ الجبليين الضّعيفة جدّاً . لقد سمع صرخاتِ استغاثة فظيعة ، ولعناتِ محتضرين ، وكلماتٍ مرعوبة ، ترتفع من تلك المفرزة الظّافرة ، وبعد قليل ، تباطأ رشقُ الرّصاص ، وانقشعَ الدّخانُ ، وتمكَّن من أن يرى بصورةٍ واضحة قطعاً هائلةً من الصّوان تسقطُ على رماةِ بنادق مونكولم ، من أعالي الصّخرةِ المرتفعة التي تهيمن على السّهل الذي كانوا يحاربون فيه ، كانت تلك الشظايا الصّخرية تتتابعُ في سقوطها بسرعةٍ مرعبة ، وكانت تُسمعُ وهي تتحطّم بضجةٍ عظيمة ، كلٌّ منها على الآخرين ، وتقفز ثانيةً فيما بين الجنود الذين كانوا يسرعون ، وقد تقطّعت صفوفُهم ، في النّزول بلا نظام من الأعلى ، ويهربون في كلِّ اتّجاه .

أدار كينيبول رأسه نحو تلك النّجدة غير المتوقعة: ومع ذلك ، فقد كان العملاقُ لا يزالُ موجوداً هناك! وبقي الجبليّ مندهشاً ، لأنّه كان يظنُّ أن هان الإيسلندي قد انطلق في طيرانه أخيراً ، وحطّ في أعلى تلك الصّخرة التي كان يسحقُ العدوَّ منها؛ فرفع عينيه نحو القمّة التي كانت تسقطُ منها الكتلُ الهائلة ، ولم يرَ شيئاً؛ فلم يكن بمقدوره إذن أن يفترضَ أن قسماً من المتمردين قد بلغ هذا المركزَ المخيف ، لأن المرءَ لم يكن يرى البتّةَ أسلحةً تلتمع ، ولأنّه لم يكن يسمعُ صيحاتِ انتصار .

ومع ذلك ، فقد توقّفت نارُ السّهل كليّاً ، وكانت كثافةُ الأشجار تحجبُ حطامَ الكتيبة التي كانت تلمُّ شعثها بلا شكّ في أسفلِ المرتفع ، وحتى أن رشقاتِ الرّماة قد غدت أقلّ شدَّةً . أما كينيبول ، كقائد ماهر ، فقد أفاد من ذلك التقدّم غير المأمول حقاً ، فشجّع رفاقه ، وأراهم من خلال الضّوء الباهت الذي بدأ يصبحُ محمّراً كلّ ذلك المشهد ، مشهدَ المذبحة ، وكومة الجثث المكدّسةِ على السّاحة بين قطع الصّخور التي كانت تواصل السّقوط ، بين الفينة والفينة ، حينذاك ، ردَّ الجبليون بدورهم بصيحاتِ انتصار على تأوّهات أعدائهم . وتشكّلوا ضمن رتل . ومع أنهم كانوا ، على الدَّوام ، متضايقين من الرُّماة المنتشرين في الأدغال اليابسة ، فقد عقدوا العزم على الخروج من ذلك المضيقِ المشؤوم بعنف؛ فقد أصبحوا مفعمين بشجاعةٍ جديدة .

أما الرّتلُ الذي تشكَّل على ذلك النّحو ، فقد كان في طريقه لكي يتزعزع . كان كينيبول قد أعطى الإشارةَ ببوقه ، وسَطَ صخبِ الهتافات: الحريّة! الحرية! لا وصاية بعد الآن! حين سُمِع أمامهم قرعُ الطبول ، وصوتُ البوق الذي يدّق إشارةَ الهجوم . ثم نفذت بقية كتيبة السّاحة التي تضخمت ببضعةِ تعزيزات من الجنود الجدد ، نفذت على مرمى بندقية ، من أحد منعطفات الطَّريق ، وبدأت للجبليين جبهةً مزروعةً بالرّماحِ والحراب ، وتساندُها صفوفٌ عديدةٌ لم تكن العينُ قادرةً على سبر عمقها .

حين وصلت الكتيبةُ هكذا على حين غرّةٍ قبالةَ رتلِ كينيبول ، توقّفت ، وذلك الذي كان يبدو أنه يقودُها لوَّحَ برايةٍ صغيرة بيضاء ، وهو يتقدّم نحو الجبليين يتبعُه نافخُ بوق .

لم يلبل الظهورُ غير المتوقّع لتلك الجماعة كينيبول؛ فهناك نقطةٌ، عند الإحساس بالخطر تصبحُ المفاجأةُ، والخوفُ فيها متعذّرين؛ فعند أولى أصوات البوقِ، وقرعِ الطبْل، كان ثعلبُ كول العجوز، قد أوقف رفاقه، وفي اللّحظة التي انتشرت فيها جبهةُ الكتيبة بانتظام، أعطى الأمرَ بتلقيم كلّ البنادق، ورتَّبَ جبليّيه مثنىً مثنىً لكي يقدِّمَ أقلَّ سطحٍ ممكنٍ لقذائفِ العدو. وتمركزَ هو نفسُه في المقدّمة. بجانب العملاق الذي بدأ يتآلفُ معه إلى حدّ ما، في احتدام المعركة، بعد أن تجرّأ على أن يلاحظَ أن عينيه لم تكونا تماماً متوقّدتين مثل أتونِ محلِّ للحدادة، وأن المخالبَ المزعومةَ ليديه لم تكن بعيدةً بقدرِ ما كان يُقال عن شكلِ الأظافر البشريّة.

وحين رأى كينيبول قائدَ رماة البنادقِ الملكيّين يتقدَّمُ على هذا النّحو لكي يستسلمَ، ونيرانَ الرُّماة تنطفئ تماماً، مع أن صيحاتِ النداء التي كانت تدّوي من كلِّ جهةٍ لا تزالُ تكشفُ عن وجودِهم في الحرش، أوقفَ للحظةٍ من الزّمن تحضيراتِه الدّفاعية.

ومع ذلك، فإن الضّابطَ الذي يحملُ الرايةَ البيضاءَ كان قد وصل إلى منتصفِ المسافةِ التي تفصلُ الرّتلين؛ فتوقّف، والبوقُ الذي كان يرافقُه دقَّ ثلاثَ مراتٍ نغمةَ الإنذار. حينئذٍ، صاح الضّابطُ بصوتٍ قويّ سمعه الجبليّون بوضوح، برغم القرقعةِ المتزايدةِ باستمرار والتي يملأ القتالُ بها مضائقَ الجبل وراءَهم.

– باسم الملك! يُمنَحُ العفوُ الملكيّ أولئك الذين يُلقون أسلحتَهم، ويُسلّمون قادَتَهم إلى عدالةِ جلالته السّامية!

ما إن تلفَّظَ المفاوضُ بهذه الكلماتِ حتى انطلقت طلقةُ بندقيةٍ من حرشٍ مجاور، فترنَّح الضّابطُ المصابُ، وقام ببضعِ خطواتٍ، وهو يرفعُ رايته، وهوى وهو يهتف:

– خيانة!

ولم يعرفْ أحدٌ من أيّةِ يدٍ أتت الطّلقةُ القاتلة.

فردّدت كتيبةُ رماةِ البنادق، وهي ترتعدُ من الغضب:

– خيانة! نذالة!

وقصفت الجبليين رشقةٌ مرعبةٌ من رصاص البنادق.

فردّد الجبليون بدورهم، وقد استبدّ بهم غضبٌ مسعور لمرأى إخوتهم الذين سقطوا حولهم:

– خيانة!

وردّت رشقةٌ عامة على الرّمايات غير المنتظرة، رماياتِ الجنود الملكيين.

فصاح ضباطٌ رماةِ البنادق:

– انقضّوا عليهم! أيها الرّفاق! الموتُ للجبناء! الموت!

فردّد الجبليّون:

– الموت! الموت!

وثبَ المقاتلون من الفريقين ، وقد جرّدوا سيوفهم ، والتقى الرَّتلان فوق جسدِ الضّابطِ المنكود الحظّ تقريباً بصخب مرعبٍ ، هو صخبُ الأسلحة ، وصيحاتُ المتحاربين .

اختلطت الصّفوفُ المخروقةُ ، واصطدمَ القادةُ المتمرّدون ، والضّباطُ الملكيون ، والجنود والجبليون ، كلّهم بلا نظام ، وأمسك بعضُهم بالبعضِ الآخر ، وتعانقوا مثل قطيعين من النّمورِ الجائعة التي تلتحم في صحراء . لقد غدت الأسنّةُ الطويلةُ ، وحرابُ البنادقِ ، والطّبرات الطّويلة غير مجدية . وكانت السّيوفُ ، والبلطاتُ تلتمعُ وحدها فوق رؤوسهم ، ولم يكن العديدُ من المحاربين الذين يتقاتلون مجابهةً ، يمكنُهم حتى أن يستعملوا أسلحةً أخرى سوى الخنجر والأسنان . كان الهياجُ المتعادلُ والغيظ المتماثلُ يحركان الجبليين ورماةَ البنادق؛ وكانت صيحة: خيانة! ثأر! تقذفُ بها كلُّ الأفواه . كان العراكُ قد وصل إلى ذلك الحدِّ الذي تدخلُ فيه الشراسةُ إلى كلّ القلوب والتي يؤثِر المرءُ فيها على حياته موتَ عدوٍّ لا يعرفُه ، الحدُّ الذي يسيرُ المرءُ فيه بعدمِ اكتراث على أكوامٍ من الجرحى ، والجثث ، ويستيقظُ المحتضر من بينها لكي يحاربَ أيضاً بالعضّ ذلك الذي يدوسُه بقدميه .

في تلك اللحظة ، وثبَ رجلٌ قصير القامة ظنّ بعضُ المحاربين . في البداية ، من خلال الدُّخانِ وأبخرةِ الدّم ، ومن خلال ملابسهِ المصنوعةِ من

جلدِ الحيوانات، أنّه حيوانٌ وحشيّ، وثَبَ إلى وسطِ المذبحة، وهو يضحكُ ضحكاتٍ مرعبة، ويصيحُ مولولاً من الفرح. لم يكن أحدٌ يعلم من أين أتى، ولا من أَجلِ أيِّ فريقٍ يقاتِلُ، لأنّ بلطَتَه الحجريَّة لم تكن تنتقي ضحاياها. وكان يشقّ جمجمةَ متّمردٍ كما يفرُ بطنَ جندي. وكان يبدو، مع ذلك، أنه يذبحَ بطيبةِ خاطر عدداً أكبر من رماة بنادق مونكولم.

كان الكلُّ يحيدُ عن طريقه، وكان يعدو في ساحةِ العراك، وكأنّه شبح، وكانت بلطتُه الدّاميةُ تدوّم حوله من غير توقُّفٍ فتجعل مِزقَ اللّحم، والأطرافَ المقطوعة، والعظامَ المحطّمةَ تتطايرُ حوله. كان يصيحُ: الثأر! مثل كلّ الآخرين، ويتلفّظُ بكلماتٍ غريبة يتكرّرُ من بينها غالباً اسمُ جيل. كان ذلك الغريبُ المخيفُ في المذبحة كأنّه في عيد.

وأتى جبليٌّ كانت نظرتُه القاتلةُ قد توقّفت عنده ليسقط عند قدميّ العملاق الذي كان كينيبول قد وضع فيه الكثيرَ من الآمال الخائبة، وهو يصيحُ:

– أنقذني، يا هان الإيسلندي!

فردّد الرّجلُ القصير:

– هان الإيسلنديّ!

ثم تقدَّم نحو العملاق، وقال له:

– هل أنت هان الإيسلندي؟

رفع العملاق بلطته بمثابة ردّ، فتراجعَ الرُّجلُ القصير. أما حدُّ البلطة فقد انغرز، أثناء سقوطه في جمجمة الرّجل التّعس نفسها، وهو الرّجل الذي كان يلتمسُ النجدةَ من العملاق.

فأخذ الرّجلُ المجهولُ يضحك:

– هو! هو! وحقّ إنغولف! كنتُ أظنُّ أن هان الإيسلنديّ أكثرَ مهارةً.

فقال العملاقُ:

– هكذا يخلّصُ هان الإيسلندي ذلك الذي يتوسَّلُ إليه.

– أنتَ على حقّ.

هاجم كلٌّ من البطلين الهائلين الآخر بغضبٍ شديد، والتقت البلطةُ الحديديّةُ بالبلطةِ الحجرية. لقد تصادمتا بعنفٍ بحيث تطاير حدَّاهما مزقاً، وانطلقت معهما ألفُ شرارة.

أمسك الرّجلُ القصيرُ بأسرعِ من الخاطرةِ، دبّوساً ثقيلاً من الخشب تركه محتضرٌ على الأرض. وتحاشى العملاق الذي كان ينحني ليمسك به بين ذراعيه، ووجَّه، بيديه المضمومتين، ضربةً من الدّبوس حانقة، على الجبهة العريضة لخصمه الجبّار.

أطلق العملاقُ صرخةً مخنوقةً وسقط، فداسه الرَّجلُ القصيرُ والظّافرُ بقدمه، وهو يزبدُ من الفرح، وقال:

- كنت تحملُ اسماً ثقيلاً عليك أكثر مما ينبغي.

وهزَّ دبوسَه المنتصر، ومضى للبحث عن ضحايا أخرى.

لم يكن العملاق قد مات، ولكن عنفَ الضّربة قد دوّخه، فسقطَ بلا حياةٍ تقريباً. وأخذ يفتحُ عينيه من جديد، ويقومُ ببعضِ الحركات الضّعيفة، حين لمحه أحدُ رماةِ البنادق في ذلك الجوّ المبلبل، فانقضَّ عليه، وهو يصرخ: لقد قُبِضَ على هان الإيسلنديّ! النّصر!

فردّدت كلُّ الأصوات بنغماتٍ ظافرةٍ أو مكروبة:

- قُبض على هان الإيسلندي!

أما الرّجلُ القصيرُ فقد توارى.

كان الجبليون يشعرون منذ بعض الوقت أنهم ينوؤون تحت وطأة الكثرة، لأن رماةَ الغابة قد انضّموا إلى رماةِ بنادق مونكولم، كما انضّمت إليهم فصائلُ من الرّماحين والفرسان الذين أُسقطوا عن خيولهم، والذين كانوا يصلون بين لحظةٍ وأخرى، من داخل المضائق، حيث أوقَفَ استسلامُ قادة التمرّد الرئيسيين المذبحةَ؛ فالشجاعُ كينيبول الذي جُرح في بدايةِ العملية، قد وقع أسيراً. وقد أوهن أسرُ هان الإيسلندي ما تبقّى من شجاعةِ الجبليين بصورةٍ نهائية - فتوقّفوا عن القتال.

عندما أضاءت أولى إشعاعاتِ الفجر البيضاء القمّةَ الحادّةَ للجليديات التي لا تزالُ مغمورة بالعتمة، لم يعدْ في مضائقِ بيلبيه - نوار إلّا راحة كئيبة، وصمتٌ

مريعٌ مختلطٌ أحياناً بأنّات ضعيفة تتلاعبُ بها ريحُ الصّباح الخفيفة. وأخذت تُسرع نحو تلك المضائق المشؤومة أسرابٌ سوداء من الغربان، من كلّ ناحيةٍ من نواحي السّماء، رجع بعضُ رعاة الماعز المساكين مذعورين من أكواخهم، بعد أن مرّوا على تخومِ الصّخور خلال الغسق، وهم يؤكّدون أنهم قد رؤوا في مضيقِ بيليبيه – نوار، حيواناً ذا وجهٍ بشريّ يشربُ الدّم وهو جالسٌ على أكداسٍ من الموتى(١).

(١) إن الحادثةَ التي تجد لها هنا خاتمةً مؤقتةً تبدو مناسبةً أكثر إذا ما تحدّد موقعُها قياساً إلى أحداث معاصرة؛ فلم تكن المعارضةُ الليبراليةُ قد ظهرت أكثر تصميماً قطّ؛ فنرى، منذ ربيع عام ١٨٢٠، ازدياداً في المظاهرات العامّة (فيجري على صيحات: عاش الميثاق! يسقط المهاجرون» دُفن الطالب لالّومان الذي قُتل في ٣ حزيران ١٨٢٠) ونشهدُ خصوصاً توسُّعَ المؤامرةِ الكاربونارية، وإخفاقها؛ وإعدام العقيد بيرتون، الدعوى ثم التنفيذ، وصيحات: «عاشت الحرية»، صيحات رقباء لاروشيل الأربعة (٢١ أيلول، ١٨٢٢) إلخ. وفي كانون الثاني، ١٨٢٢، يعرضُ هيغو على صديقِ طفولته إدوار دولون المتورّط في مؤامرة بيرتون، أن يخبئه، بالرّغم من تعلّقه الخاصّ بآل بوربون، وانطلاقاً من «استقامة ملكية النّزعة» (إلى السّيدة دولون، قبل الثاني من كانون الثاني، ١٨٢٢). وفي أيلول، من السّنة ذاتها، يبدو أنّه قد تابع، عن كثب، وبرفقة آديل، مناقشات الجلسات المتّصلة بدعوى «الرّقباء الأربعة» (انظر رسالته إلى أديل، في ٤ أيلول ١٨٢٢. إن بلبلة بيليبيه – نوار ليست أيضاً بعيدة عن أن تذكّر بالشؤون الإسبانية؛ فيبدو أن فردينان السّابع قد ترك السّلطة للّيبراليين، منذ أن أقسم اليمين، في التاسع من آذار، ١٨٢٠ لدستور عام ١٨١٢، وبعد أن اعتزل في أرانجويس، أخذ يتآمرُ، في الواقع، ضدَّ وزارته الخاصّة. وفي ربيع، ١٨٢٢، تتدهور انتفاضةٌ استبداديةُ النزعة، بعد قليل، إلى حربٍ أهلية. وفي مدريد، في ٧ تموز، أخضعت الميليشيا الحكومية بالقوّة حرَسَ العاهل الشرّعي الذي تمرّد باسمه... ولسوف يكون ذلك ذريعةً «لحرب إسبانيا» (حرب توبريان: حربي في إسبانيا!». والتي تتقرّر في كانون الأول، في مؤتمر فيرونا «لتحرير» فردينان السّابع، «سجين الليبراليين، شأن لويس السّادس عشر. إن «هان الإيسلندي»، أخيراً، تصدرُ في ٤ شباط لعام ١٨٢٣، قبل شهر واحد، من حادثة مانويل. وأثناء المنازعة حول أرصدة الحرب، كان مانويل يظن أنه يستطيع التذّكيرَ بأنّ التّدخُّلَ الأجنبي كان سبباً في إعدام لويس السادس عشر، فطُرد واستُبعد من الجلسات حتى نهاية دورة المجلس. وفي عام ١٨٢٢، التي كانت أيضاً سنةَ أحداثِ اليونان: مذابح شيو في نيسان. (فالأتراك يحتلّون الجزيرة التي يبلغ تعدادُ سكانها «٨٠٠٠٠» منهم «٢٣٠٠٠» يُذبَحون بالسّيف و ٤٧٠٠٠ يباعون كعبيد (فيظهر الطّاعون)، ويحدث إحراقُ الأسطول التّركي على يد الأميرال كاناريس (١٧ حزيران، ١٨٢٢)، وهو يوم توقيف العقيد بيرتون، في فرنسا، والذي سلّمه خائن).

الفصل الأربعون

من رحاب البحر المنبسطة ، حين «يدفع» الإعصار المنتصر
بعنفٍ إلى صدر غريق .
بقايا المركب الذي يثبُ إليه
منكودُ الحظّ فجأة ، فيغوص ، ويُطوى في اللُّجة .
مثلما يتحطَّمُ الرّجاء الأخير لريمون
عند الصّدمة غير المتوقعة للاسم الذي يدوّي .

ج. لوفيفر، باريزينا[1]

– يا ابنتي ، افتحي هذه النّافذة؛ فهذه الزّجاجيات معتمةٌ فعلاً ، وأودُّ أن أرى النّورَ قليلاً .

– أن ترى النّور ، يا والدي ، إن الليل يقترب بسرعة .

(١) عبارة مقتبسة استبدل بها شاهد من قول برانتوم: فليحترق إذن من يشاء ذلك ، تحت هذه النيران المغطاة .

– لايزال هناك شيءٌ من أشعة الشمس على الهضاب التي تحاذي الخليج؛ فأنا بحاجةٍ لأتنفس هذا الهواء الطلق، من خلال قضبان سجني – إن السّماء شديدة الصّفاء!

– يا والدي، إن عاصفة تأتي من وراء الأفق.

– عاصفة، يا إيتيل! أين ترينها..؟

– لأن السماء صافية، يا والدي، فأنا أنتظر عاصفة.

فنظر العجوز إلى إيتيل نظرة تنمُّ عن الدّهشة:

– لو كنت أفكر بذلك منذ شبابي، لما كنت البتّة هنا.

ثم أضاف بلهجةٍ أقلّ تأثراً:

– إن ما تقولينه صحيح، ولكنه لايناسب عمرك؛ فأنا لا أفهم إطلاقاً كيف يتفق أن يكون عقلك الشّابّ مشابهاً لتجربتي العجوز.

فخفضت إيتيل عينيها، وكأن الاضطراب قد اعتراها بسبب تلك الملاحظة الرّصينة والبسيطة، فضمّت يديها بألم، وهزّت صدرها تنهيدةٌ عميقة.

وقال السجين العجوز:

– إنك شاحبةُ الوجه، منذ بضعة أيام، يا ابنتي، وكأنَّ الحياة لم تدفئ قطّ الدَّم في عروقك، ها أنتِ تقتربين مني، منذ بضعة صباحات بأجفان حمراء متورّمة، وبعينين قد بكتا وسهرتا. وهاهي بضعة نهارات، يا إيتيل، أقضيها في الصّمت، من غير أن يحاول صوتُك أن ينتزعني من التأمُّل الكئيب في حياتي

الماضية. إنك بقربي أكثر حزناً مني. ومع ذلك، فلا تحملين عبء حياة كاملة من العدم والفراغ، مثل والدك، حياة تثقل روحك. إن الشجن يطوّق شبابك، ولكنه لا يستطيع أن يتغلغل إلى قلبك. إن غيوم الصَّباح تتبدّد سريعاً، فأنت، في هذه المرحلة من وجودك التي يختار فيها المرء في أحلامه مستقبلاً مستقلاً عن الحاضر، أيّاً كان. فماذ بك إذن، يا ابنتي! فبفضل هذا الأسر الرّتيب، أنت في منجىً من المصائب غير المتوقعة؛ فأية خطيئة ارتكبت – لا يمكنني الظّنُّ بأنك تحزنين عليّ؛ فلا بدَّ أن تكوني معتادةً على حظّي العاثر الذي يتعذَّر إصلاحه. إن الرّجاء، في الحقيقة، لم يعد موجوداً في أقوالي، غير أن هذا ليس سبباً لكي أقرأ اليأس في عينيك.

كان الصوت القاسي، صوتُ السّجين، وهو يتحدّث على هذا النحو قد أصبح أكثر تعطُّفاً، وصولاً إلى النبرة الأبويّة. أمّا إيتيل، التي كانت صامتة، فقد كانت تقف أمامه، وفجأة استدارت بحركة عصبيّة إلى حدٍّ ما، وهوت على ركبتيها على الحجر، وغطت وجهها بيديها، وكأنها تخنقُ الدّموع والزّفرات التي كانت تنفلت ضاجّة من صدرها.

كان هناك ألمٌ مفرط يُترع قلبَ الفتاة المنكودة الحظّ. فماذا فعلت إذن لتلك الغريبة المشؤومة لتكشف لها السّرّ الذي كان يدمّر حياتها كلها؟ واأسفاه! فمنذ أن أصبح اسم أوردينر فتاها معروفاً لديها بكامله، لم تعد تلك الطفلة المسكينة قادرة على أن تُسلم عينيها للنّوم، ولا روحها للرّاحة. وفي الليل، لم تعدْ تشعر بأيّ عزاء آخر غير عزاء القدرة على البكاء بحرية. لقد قضي الأمر إذن! إنه ليس لها البتّة، ذلك الذي كان يخصُّها من خلال ذكرياتها كلّها، ومن خلال كلّ صلواتها. ذلك الذي كانت تظنُّ أنها زوجته، انطلاقاً من إيمانها بأحلامها. لأن

الأمسية التي ضمّها فيها أوردينر بين ذراعيه بحنانٍ لم تعد ماثلة في فكرها إلا مثل حلم. وفي حقيقة الأمر، فإن ذلك الحلم الرّقيق قد أرجعته كلَّ ليلةٍ من لياليها، منذ ذلك الحين. لقد كان ذلك إذن حناناً أثيماً ذلك الحنان الذي ماتزال تحتفظ به رغماً عنها لذلك الصّديق الغائب! إن فتاها أوردينر كان خطيب فتاة أخرى، أجمل، وأغنى، وأنبل منها؟ لأني، كما كانت تقول في نفسها، كنت فعلاً حمقاء، إذ ظننت، بأنّه قد مضى يبحث عن الموت من أجلي: إن أوردينر، هو ابن نائب ملك، وسيّدٌ مقتدر. أما أنا، فلست أكثر من سجينة مسكينة، لست أكثر من ولدٍ محتقر لرجلٍ مُبعد(1). لقد مضى، هو الطليق! مضى، بلا شكّ، لكي يتزوَّج خطيبته الجميلة، ابنة المستشار، ابنة وزير، وكونت متعجرف...!

– ولكنه قد خدعني إذن، فتاي أوردينر؟ يا إلهي! فمن كان يمكن أن يقول لي إن ذلك الصوت قادر على الخداع؟.. وكانت منكودة الحظّ إيتيل تبكي، وتبكي أيضاً، وترى أمام عينيها فتاها أوردينر، ذلك الذي صنعت منه الإله المجهول لكلِّ كيانها، أوردينر ذاك يزينه ألقُ مرتبته يرافق إلى المذبح زوجة جميلة غريبة ممسكاً بيدها، ويستدير نحو المرأة الأخرى وهو يبتسم تلك الابتسامة التي كانت بهجتها فيما مضى.

ومع ذلك، وفي قلب أساها الذي لاحدَّ له، لم تنسَ للحظة واحدة حنانها البنويّ؛ فقد كانت تلك الفتاة الضعيفة قد بذلت أكثر الجهود بطولية لكي تخفي

---

(1) نحتفظ بالمذكّر الذي صُحّح في طبعة راندويل إلى: «المحتقرة»، فهل هذه غلطة مطبعية، أم هفوة قلم؟ إن كلمة ENFANT (ولد) تفهم أيضاً على أنّها «فرد من الجنس البشري، في سنّ الطّفولة». (ليتريه).

شقاءها عن والدها المنكود الحظّ، لأنّ الأمر الأشدّ إيلاماً في الألم هو أن نقهر اندفاعته، والدُّموع التي نبتلعها هي أكثر مرارة من تلك التي نذرفها، وكان لابدّ من مرور بضعة أيام لكي يلاحظ العجوز الصّامت تغيُّر ابنته إيتيل، وقد انتهى الأمر بالأسئلة العطوفة إلى حدٍّ ما، والتي وجّهها إليها لتوّه بأن تجعل دموعها التي حبستها طويلاً في قلبها تتفجّر فجأة في آخر الأمر.

نظر الوالد لبعض الوقت إلى ابنته وهي تبكي بابتسامة مريرة، وهو يهزُّ رأسه، وقال أخيراً:

– يا إيتيل، أنتِ التي لم تعيشي بين البشر، لماذا تبكين؟

وما كاد يُنهي هذه الكلمات، حتى نهضت الفتاة النبيلة والرقيقة، وكانت قد أوقفت دموعها في عينيها بقدرةٍ لا أدري ماهي، وأخذت تمسحها بمنديلها.

وقال بقوة:

– ياسيدي ووالدي، سامحني، فقد كانت لحظة ضعف.

ثم رفعت نحوه نظرات تسعى جهدها للابتسام، ولكنه ابتسام أكثر ألماً من الدُّموع.

مضت إلى داخل الغرفة لكي تجلب الإيدا، وأتت لتجلس بقرب والدها الصّامت.

وفتحت الكتاب كيفما اتفق، حينئذ هدأت انفعال صوتها، وأخذت تقرأ، غير أن قراءتها غير المجدية كانت تمرُّ من غير أن يُصغى إليها، لا من جهتها، ولا من جهة العجوز.

وقام هذا الأخير بإشارةٍ من يده ، وقال:

– يكفي هذا يا ابنتي ، يكفي .

فأغلقت الكتاب .

وأضاف شوماكير:

– يا إيتيل ، هل تفكّرين أحياناً بأوردينر . . . ؟

اعترى الذُّهول الفتاة ، فارتعدت . فتابع والدها:

– أجل ، بهذا المدعو أوردينر الذي مضى . .

فقاطعته إيتيل قائلة:

– ياسيّدي ووالدي . لماذا ننشغل به؟ أظن ، مثلك ، أنه قد مضى لكي لايرجع ثانية .

– لكي لايرجع ثانية ، يا ابنتي! لايمكنني أن أقول ذلك ، ولا أدري أيُّ حدس يخبرني بأنه على العكس سوف يرجع .

– لم تكن تفكر على هذا النحو ، يا والدي ، حين كنت تكلّمني بكثير من الرّيبة عن ذلك الشّاب .

– هل تكلّمت عليه إذن بارتياب؟

– أجل ، يا والدي ، وإني أتبنّى رأيك في ذلك ، وأظنُّ أنه قد خدعنا .

– قد خدعنا ، يا ابنتي! ولئن كان رأيي فيه على ذلك النّحو ، فقد تصرّفت

كالنّاس الآخرين كافّة والذين يدينون من غير براهين . . فأنا لم أتلقّ من أوردينر هذا سوى ما يشهد على إخلاصه .

– وهل تعرف ، يا والدي الموقّر ، إن كانت تلك الكلمات الودّية لاتحمل أفكاراً غادرة؟

– إن الناس عادة لايجاملون البتّة الشقاء ، وزوال الحظوة؛ لو لم يكن أوردينر مرتبطاً بي لما أتى هكذا إلى سجني ، من غير هدف .

فكرّرت إيتيل بصوتٍ ضعيف:

– هل أنت متأكّد بأنه حين أتى إلى هنا ، لم يكن له أيُّ هدف؟

فسأل العجوز بحماسة:

– وما هو؟

فصمتت إيتيل .

كان المجهود أكبر من أن تحتمله إيتيل ، مجهود أن تواصل إتّهام الذي كانت تدافع عنه ضدّ والدها فيما مضى .

وقد تابع هذا الأخير قائلاً:

– لم أعدْ الكونت دوغريفنفلد ، ولم أعدْ مستشار الدانمرك والنرويج الكبير ، والموزّع المفضّل للنعم الملكية ، والوزير الكلي القدرة . إني سجين دولةٍ بائس ، ومبعد ، ومنبوذ سياسيّ ، ويعدّ من الشّجاعة بمكان أن يتكلم المرء عني من غير كراهية مع هؤلاء الرّجال الذين غمرتهم بالأمجاد والثروات . ويعتبر

إخلاصاً أن يجتاز المرء عتبة هذه الزنزانة، إذا لم يكن سجّاناً أو جلاداً. إنها لبطولة، يا ابنتي، أن يجتاز المرء العتبة، وهو يقول عن نفسه إنّه صديقي - كلا، لن أكون ناكراً للجميل مثل هذا الجنس البشري كلّه. لقد استحق ذلك الشابُّ إقراري بجميله.

حتى وإن لم يتعدَّ ذلك أنه قد أبدى لي وجهاً عطوفاً، وأسمعني صوتاً مواسياً.

كانت إيتيل تصغي بعناء إلى ذلك الكلام الذي كان يمكن أن يبهجها قبل بضعة أيام، حين كان ذلك المدعو أوردينر لايزال فتاها أوردينر في قلبها. وقد استأنف العجوز كلامه بصوت احتفالي بعد أن توقّف للحظةٍ من الزّمن:

- اصغي إليّ، يا ابنتي؛ فما سأقوله لك أمرٌ خطير. إني أحسُّ بالضّنى شيئاً فشيئاً، والحياة تنسحب مني تدريجياً، أجل، يا ابنتي. إن نهايتي تقترب.

فقاطعته إيتيل بأنّةٍ مخنوقة، وقالت:

- يا ربيّ، لاتتكلم هذا، يا والدي، تكرَّماً، ولتُراع ابنتك المسكينة! واأسفاه! هل تريد أن تهجرها أيضاً؟ ماذا سيكون من أمرها، إذا كانت وحيدة في هذا العالم، وحين تفتقر إلى حمايتك..؟

فقال الوالد وهو يهزُّ رأسه:

- حماية مبعد - ومع ذلك؛ فهذا ما فكرت به. أجل، إن سعادتك المقبلة تشغلني أكثر أيضاً من مصائبي الماضية - فاصغي إليَّ إذن، ولاتقاطعيني بعد الآن. إن أوردينر هذا لايستحق أن تحكمي عليه بقسوة، يا ابنتي، وكنت أظنُّ

- حتى الآن أنك لاتنفرين منه البتة إلى هذا الحدّ. إن مظهره صريح ونبيل. وهذا لايدل على شيء، في الحقيقة، ولكن ينبغي أن أقول إنه لا يبدو لي ربّما مفتقراً إلى بعض الفضائل، مع أنه يكفي أن يحمل نفساً بشرية، لكي يحمل في داخله بذرة كلّ العيوب وكلّ الجرائم. فكلّ شعلة تبثُّ دخانها.

توقف العجوز مرّة أخرى أيضاً، وحدّق بابنته، وأضاف:

– حين أتاني هاتف داخلي باقتراب موتي، أخذت أتفكّر به وبك، يا إيتيل، فإذا ما رجع، كما أرجو. فإني أعطيك إياه حامياً وزوجاً.

شحب لون إيتيل، وارتعشت؛ ففي تلك اللحظة التي تبخّر فيها حلمها بالسّعادة إلى الأبد، إنّما أخذ والدها يحاول تحقيقه. وهذه الفكرة الشديدة المرارة: كانت يمكن أن أكون إذن سعيدة! أتت لتُعيد إلى يأسها كلّ عنفه؛ فلبثت لحظة من غير أن تتمكن من الكلام، خوفاً من أن تدع الدّموع المحرقة تفلتُ من عينيها.

كان الوالد ينتظر.

فقالت أخيراً بصوت خامد:

– ماذا! كنت تخصّصه زوجاً لي، ياسيّدي ووالدي، من غير أن تعرف أصله، وعائلته واسمه؟

– لم أكن أخصّصه لك البتّة، يا ابنتي؛ بل أخصّصه لك الآن.

كان لهجة العجوز آمرة إلى حدّ ما، فتنهدت إيتيل.

– . . . أقول إنني أخصّصه لك؛ فبماذا يهّمني أصله؟ لست بحاجة إلى

معرفة عائلته، بما أنني أعرف شخصه. فكّري في الأمر. إنّه مرساةُ الخلاص الوحيدة التي تبقت لك. وأظنُّ لحُسنِ الحظ أنّه لايحمل النفور نفسه الذي تبدينه نحوه.

فرفعت الفتاة المسكينة عينيها إلى السّماء.

– هل تسمعينني، يا إيتيل، إني أكرّر ذلك لك، ماذا يهمُّني من أصله؟ إنه، بلا شكّ من مرتبةٍ مغمورة، لأنهم لايعلمون أولئك الذين يولدون في القصور التَّردُّد إلى السّجون. أجل، ولاتُظهري ندماً متكبّراً، يا ابنتي، فلتنسي أن إيتيل شوماكير لم تعد أميرة فولين، وكونتيسة تونغسبرغ؛ فقد انحدرت إلى أخفض من النقطة التي ارتفع منها والدك. فكوني إذن سعيدة، إذا ماقبل هذا الرّجل يدك، أيًّا كانت عائلته. فإذا كان من أصل متواضع؛ فهذا أفضل، يا ابنتي سوف تكون أيام حياتكما في منجىً من العواصف التي عذّبت والدك. ولسوف تقضيان بهدوء، وبعيداً عن حسد البشر وكراهيتهم. وتحت اسم مجهول، سوف تقضيان حياة غير معروفة لأحد، ومختلفة عن حياتي، لأنها سوف تنتهي على نحو أفضل مما تكون قد بدأته..

كانت إيتيل قد جثت أمام السّجين، فقالت:

– آه، يا والدي...! الرّحمة!

ففتح ذراعيه بدهشة، وقال:

– وماذا تعنين، يا ابنتي؟

– وحقّ السّماء، لاتصوّر لي هذه السعادة؛ فهي لم تصنع لأجلي!

فاستأنف العجوز بقسوة:

- يا إيتيل، لاتستهتري بحياتك كلّها؛ فقد رفضت يد أميرة ذات محتد ملكي[1]. وقد عوقب كبريائي بقسوة؛ فأنت تحتقرين حياة سعادة مغمورة، ولكنها شريفة، فلترتعدي من أن يعاقب كبرياؤك بعقاب محزن مثله.

فهمست إيتيل:

- أرجو من السّماء أن يكون مغموراً وشريفاً!

نهض العجوز، وخطا بضع خطوات في الشقّة بصورةٍ مضطربة، وقال:

- يا ابنتي، إن والدك المسكين هو الذي يرجوك أن تفعلي ذلك، ويأمُرك به، فلاتتركيني قلقاً على مستقبلك عند موتي، عديني بأن تقبلي ذلك الغريب زوجاً لك.

- سوف أطيعك يا والدي دائماً، ولكن لاتأمل في رجوعه. .

- لقد وزنت الاحتمالات، وأظنُّ، بناء على اللّهجة التي كان ذلك المدّعو أوردينر يلفظ بها اسمك. . فقاطعته إيتيل بمرارة:

- أنّه يحبُّني ! أوه! لا، لاتظنُّ ذلك.

فردّ الوالد ببرود:

- أجهل إن كان يحبّك، إذا مااستخدمت تعبيرك كفتاة، غير أنّي أعلم أنه سيرجع.

---

(١) أميرة هولستاين أوغستيبنور. (ملاحظة أدخلت في طبعة عام ١٨٣٣).

– تخلَّ عن هذه الفكرة، يا والدي النبيل. ومن ناحية أخرى؛ فلعلّك لاتودُّ أن يكون صهرك، لو كنت تعرفه.

– إنه سيكون كذلك، يا إيتيل، أيّاً كان اسمه، ومنزلته.

فاستأنفت قائلة:

– حسناً! لو كان ذلك الشّاب الذي رأيت فيه مواسياً، وتريد أن ترى فيه سنداً لابنتك – ياسيّدي ووالدي، لو كان ابن أحد أعدائك الألدّاء، ابن نائب ملك النّرويج، الكونت غولدينليف...؟

تراجع شوماكير خطوتين إلى الوراء، وقال:

– ماذا تقولين، أيّها الرّبُّ العظيم! أوردينر! هذا المدعو أوردينر..! هذا غير ممكن...!

جمّد التعبير الذي لايوصف تعبير الحقد الذي التمع لتوّه في عينيّ العجوز الكامدتين، جمَّد قلب إيتيل المرتعش. وهي التي ندمت من غير طائلٍ على الكلام المتهوّر الذي تلفّظت به منذ قليل.

كانت الضربة قد حدثت، ولبث شوماكير بضع ثوان بلا حراك، وهو مكتوف اليدين. وكان كلُّ جسده يرتعش وكأنه على مشواة حامية، وحدقتا عينيه تخرجان من محجرهما، وتبدو نظرته التي تحدّق بالبلاطات الحجرية كأنّما تريد أن تخترقها. وأخيراً، خرجت من شفتيه الزّرقاوين بعض الكلمات التي تلفظ بها بصوتٍ ضعيف كصوت رجل يحلم.

– أوردينر...! أجل، هذا هو الأمر، أوردينر غولدينليف! – هذا

حسن ، هيا ، يا شوماكير ، أيّها الأحمق العجوز . افتح له ذراعيك إذن . إن هذا الشّاب المستقيم يأتي لكي يطعنك .

وفي الحال ، خبط الأرض بقدمه ، وغدا صوته راعداً .

– لقد أرسلوا لي إذن سلالتهم السّافلة كلّها لكي تهينني في سقوطي ، وفي أسري! كنت قد رأيت من قبل أحد أبناء عائلة دالفيلد ، وقد ابتسمت تقريباً لأحد أبناء غولدنليف!– فيالهم من وحوش! من كان يمكنه أن يقول ذلك عن هذا المدعـو أوردينر ، وإنّه يحمل نفسـاً كنفسه ، واسماً كاسمه! الويل لي! الويل له! .

ثمّ وقع مغشياً عليه على كنبته! وفيما كان صدره المحصور يتنفّس بزفرات طويلة ، كانت المسكينة إيتيل التي تختلج من الرّعب ، تبكي عند قدميه .

فقال بصوتٍ كئيب:

– لاتبكي ، يا ابنتي ، تعالي ، أوه! تعالي إلى قلبي .

وضمّها بين ذراعيه .

لم تكن إيتيل تعلم ما هو تفسير هذه الملاطفة ، في لحظة من لحظات الغضب العارم ، حين واصل كلامه:

– على أيّة حال ، أيتها الفتاة ، لقد كنت أكثر تبصُّراً من والدك العجوز . ولم تُخدَعي قطّ بالحيّة ذات العينين الرّقيقتين والسّامَّتين . تعالي لكي أشكرك على الكراهية التي جعلتني أراها نحو هذا المقيت أوردينر .

فارتعشت من هذا المديح الذي قليلاً ما استحّقته، للأسف، وقالت:

– هدئ نفسك، ياسيّدي ووالدي..

وواصل شوماكير قائلاً:

– عدني بأن تحملي دائماً المشاعر نفسها نحو غولدينليف! اقسمي لي على ذلك.

– إن الرّب يحرِّم القسَم، يا والدي..

فكرّر شوماكير بعنف:

– اقسمي على ذلك، يا ابنتي. أليس صحيحاً أنك ستحافظين دوماً على العاطفة نفسها تجاه أوردينر غولدينليف؟

فلم يصعب عليها أن تجيب قائلة:

– دوماً.

فجذبها العجوز إلى صدره.

– حسناً، يا ابنتي. إني أترك لك، على أيّة حال، كراهيتي لهم، إذا لم أقدرْ أن أورثك الأملاك والأمجاد التي سلبوها مني. اسمعي، لقد انتزعوا من والدك العجوز منزلته ومجده وجرّوه من المشنقة إلى الأصفاد، وكأنّهم يريدون أن يلطخوني بكلّ الأعمال الشائنة، وذلك بأن يجعلوني أحتمل كلَّ أنواع التنكيل. يالهم من حقيرين! فإنما كانوا يدينون لي بالسّلطة التي وجهّوها ضدّي! أوه!

فلتسمعني السّماء والجحيم. وليكونوا جميعاً ملعونين في وجودهم، وملعونين في أجيالهم القادمة!.

صمت للحظة من الزمن، ثم أضاف وهو يعانق ابنته المسكينة التي ذُعرت من هذه اللّعنات:

– ولكن، يا ابنتي إيتيل، أنت التي تمثّلين مجدي الوحيد، وثروتي الوحيدة. قولي لي، كيف كانت غريزتك أكثر حذقاً من غريزتي؟ كيف اكتشفت أن ذلك الغادر يحمل أحد الأسماء الممقوتة المكتوبة في أعماق قلبي بالضّغينة؟ كيف نفذت إلى ذلك السّر؟

أخذت تجمع قواها لتجيب، حين انفتح الباب.

ظهر رجل يلبس رداءً أسود على العتبة، وهو يحمل بيده قضيباً من الأبنوس، وفي عنقه سلسلة فولاذية مصقولة، وكان يحيط به رمّاحون يرتدون ملابس سوداء أيضاً.

فسأله السّجين بخشونةٍ ودهشة:

– وماذا تريد مني؟

أما الرّجل، فمن غير أن يجيبه، أو ينظر إليه، فقد بسط رقّاً طويلاً يتدلّى منه بخيوط حريرية خاتم من الشمع الأخضر، وقرأ بصوتٍ عالٍ:

– «باسم جلالته، عاهلنا الرّحيم وسيّدنا، الملك كريستيرن!

«يُلزم شوماكير، سجين الدّولة في قلعة مونكولم الملكية وابنته، بأن يتبعا حامل هذا الأمر».

فكرّر شوماكير سؤاله:

- وماذا تريد مني؟

أما الرّجل الأسود، الهادئ الأعصاب دائماً؛ فقد استعدَّ لإعادة القراءة، فقال العجوز:

- هذا يكفي.

نهض، حينئذ، وأشار إلى إيتيل، المدهوشة والمذعورة بأن تتبع وإياه ذلك الموكب الكئيب.

الفصل الحادي والأربعون

لقد أعطيت إشارة مفجعةً، فأتى وزير عدل
خسيسٍ ليطرق بابه، ويُخطره بأنه بحاجة إليه.

لوكونت دوميستر

سهرات سان - بطرسبورغ

كان الليل قد حلَّ منذ قليل، وكانتَ ريح باردة تصفر حول لاتور - موديت، وأبواب خرائب فيغلا ترتجف على مُفصَّلاتها، وكأن اليد ذاتها قد هزّتها جميعاً في آن.

كان ساكنو البرج المخيفون، الجلاد وعائلته، قد تجمَّعوا حول الموقد المشتعل في وسط القاعة، في الطّابق الأوّل، والذي كان يُلقي بأضوائه الحمراء المرتعشة على وجوههم الدّاكنة، وملابسهم القرمزية اللّون. كان في قسمات الأطفال شيء متوحّش، مثل ضحكة والدهم، وزائغٌ مثل نظرة والدتهم. كانت عيونهم، شأن عيني بيشلي تستدير نحو أوروجيكس الذي كان جالساً

على مرقاة خشبية، ويبدو كأنّه يتوقّف للاستراحة، وقدماه المغطّاتان بالغبار تُنبئان بأنّه كان آتياً من حملة بعيدة.

– اسمعي، أيّتها المرأة، اسمعوا، أيُّها الأطفال. لم أتغيّب يومين كاملين لكي أحمل إليكم أخباراً سيّئة. فإن لم أصبح قبل مرور شهر من الزَّمن منفّذاً ملكياً للإعدام، فإني أريد ألا أحسن بعد ذلك شدَّ أنشوطة متحركة أو استعمال بلطة. فابتهجوا، ياجراميزي الصّغار؛ فربّما يترك لكم والدكم ميراثاً هو مشنقة كوبنهاغن نفسها.

فسألت بيشلي:

– يانيكول، ماذا هناك إذن؟

فاستأنف نيكول وهو يضحك ضحكته الثّقيلة:

– وأنت، ياغجريّتي العجوز، ابتهجي أيضاً، فيمكنك أن تشتري قلائد من الزّجاج الأزرق لكي تزيّني به عنقك، عنق اللقّلق المخنوق. إن عقد التزامنا ينتهي بعد قليل، ولكن هيّا، بعد مرورشهر، وحين ترينني أوّل جلاد في المملكتين، لن ترفضي أن تكسري جرّة أخرى برفقتي[1] فسأل الأطفال الذي كان البكر منهم يلعب بمنصة تعذيبٍ لاتزال مضرَّجة بالدّم؛ فيما كان الأصغر

(١) حين كانت غجرية تتزوّج، كانت تكتفي، بمثابة احتفال، بكسر وعاء من الطين أمام الرجل الذي تريد أن تصبح قرينته، وتعيش معه كزوجة عدداً من السّنوات يعادل قطع الإناء المكسورة، وبعد ذلك الوقت، يصبح الزّوجان مخيّرين في أن يفترقا، أو في أن يحطّما وعاءً جديداً من الطين، ولا شكَّ أن جلاد درونتهايموس يشير هنا إلى تلك العادة الغريبة.

منهم يتلّهى بنتفِ ريش عصفور صغير حيّ كان قد أخذه من أمّه، من العشّ ذاته، سألوا:

– وماذا هناك إذن؟

– ماذا هناك، يا أطفالي. . ؟ – اقتلْ هذا العصفور، يا هاسبار، إنه يصرخ مثل منشارٍ رديء. ومن ناحيــة أخرى، فلا ينبغي أن يكون الإنسان قاسياً. اقتله – ماذا هناك؟ لا شيء، أمر بسيط فعلاً. إلا أنه يا سيدة بيشلي، قبل مرور ثمانية أيام من الآن، سوف يقع بين يديّ المستشار السابق شوماكير، السّجين في مونكولم. بعد أن رأى وجهي عن قرب في كوبنهاغن، ولصُّ إيسلندا الشهير هان دوكليبستادور، سوف يقعان بين يديّ كلاهما في آن واحد ربّما.

اتّخذت نظرة المرأة الحمراء التائهة تعبيراً ينمُّ عن الدّهشة والفضول، وقالت:

– شوماكير! هان الإيسلندي! وكيف ذلك، يا نيكول؟

هذا كلّ شيء؛ فقد صادفت البارحة صباحاً، على طريق سكونجن، وعلى جسر أوردالز، فيلقَ رماة بنادق مونكولم الذي كان عائداً إلى درونتهايم، وهو يردّد أناشيد الفرح وصيحات النصّر. وحين سألت أحد الجنود الذي تنازل ليجيبني، لأنه كان يجهل، بلا شكّ، لماذا تتلوّن سترتي وعربتي بالأحمر، عرفت أن رماة البنادق كانوا راجعين من مضائق بيلبيه – نوار حيث مزّقوا إرباً عصابات اللصوص، أي عمال المناجم المتمرّدين. وهكذا، فسوف تعلمين، يا بيشلي الغجرية، أن هؤلاء المتمردين كانوا يثورون من أجل شوماكير، وأنهم كانوا تحت قيادة هان الإيسلندي، سوف تعلمين أن هذا التمرد

يشكل بالنسبة لهان الإيسلندي جريمة جيدة للتمرّد على السلطة الملكية، وبالنسبة لشوماكير جريمة جيدة للخيانةالعظمى. وهذا ماسيقود بشكل طبيعيّ هذين السّيدين المحترمين إلى المشنقة أو إلى المقصلة. ولنضفْ إلى هذين الإعدامين الرائعين اللذين لايمكن لهما إلا أن يجلبا لي على الأقل خمسة عشر دوقية ذهبية مقابل كلٍّ منهما، وأن يحرزا لي أكبر مجدٍ في المملكتين. لنضف إليهما تلك الإعدامات لعدد من الآخرين، ولكنها إعدامات أقل أهمية في الحقيقة..

فقاطعته بيشلي:

– ولكن ماذا! هل قُبض على هان الإيسلندي؟

فقال الجلاد:

– لماذا تقاطعين سيدك ومعلّمك، يا امرأة الهلاك؟ أجل، دون شك. إن ذلك الشهير، والذي لايمكن أخذه، هان الإيسلندي، قد قُبض عليه مع عدد من قادة اللصوص الآخرين، وملازميه، والذين سيجلبون لي كذلك اثني عشر ريالاً لكلِّ رأس. من غير أن أُدخل في حسابي بيع الجثث. لقد قبض عليه، كما قلت لك، وقد رأيته يمرُّ بين صفوف الجنود، بما أنّه لابدَّ أن نرضي فضولك إرضاءً تاماً..

اقتربت المرأة والأطفال اقتراباً شديداً من أوروجيكس، وسأل الأطفال:

– ماذا! لقد رأيته، ياوالدي؟

– اسكتوا، أيّها الأطفال. إنكم تصرخون مثل نذلٍ يقول إنه بريء. لقد رأيته. إنه ضرب من عملاق. وقد كان يمشي مكتوف اليدين، ولقد قُيدتا

بالسّلاسل من خلف ظهره، وجبينه معصوب. وذلك بلاشك، لأنّه كان مجروحاً في رأسه. ولكن، فليكن مطمئناً. قبل أن يمرَّ القليل من الوقت سأكون قد شفيته من ذلك الجرح.

بعد أن أرفق بهذه الكلمات الفظيعة حركة فظيعة، تابع الجلاد:

- وفوق ذلك، فقد بدا لي ذلك العملاق المخيف خائر العزم إلى حدٍّ ما. وكان يسير وراءه أربعة من رفاقه، وهم أسرى أيضاً، وجرحى كذلك. وكانوا يسوقونهم مثله إلى درونتهايم حيث سيحاكمون، بالإضافة للمستشار الكبير السابق شوماكير. وذلك على يد محكمةٍ يعقدُ جلستها المأمور الأعلى، ويترأسها المستشار الكبير الحاليّ.

- ياوالدي، كيف كانت وجوه السّجناء الآخرين.

- كان أوّل اثنين منهم عجوزين؛ أحدهما يرتدي قبعة عمّال المناجم اللبّادة، والآخر قبعة الجبليّ. وكان كلاهما يبدوان في حالة يائسة. ومن بين اثنين آخرين، كان هناك عامل منجمٍ شاب يسير مرفوع الرأس وهو يصفّر. أما الآخر... - هل تتذكرين، يا امرأتي بيشلي اللعينة، أولئك المسافرين الذين دخلوا إلى ذلك البرج، منذ عشرة أيام، في ليل تلك العاصفة الهوجاء..؟

فأجابت المرأة:

- كما يتذكر الشيطان سقوطه.

- هل كنت تلاحظين بين هؤلاء الغرباء شابّاً كان يرافق ذلك الطبيب العجوز المجنون الذي يعتمرُ شعراً مستعاراً كبيراً؟ إنه شاب كما أقول لك، يرتدي معطفاً أخضر اللون، ويغطيّ رأسه بطاقيةٍ ذات ريشة سوداء.

– في الحقيقة، أحسب أني لاأزال أراه أمام عيني، وهو يقول لي: أيتها المرأة، لدينا ذهب. .

– حسناً، أيتها العجوز. أقبل لو أنني لم أذبح قطّ إلا ديوك الخلنج[1]، إذا لم يكن السَّجين الرابع هو ذلك الشابّ. لقد كان وجهه في الحقيقة محجوباً عني تماماً بسبب ريشته، وقبعته وشعره ومعطفه. زدْ على ذلك أنه كان يحني رأسه. ولكن كان يرتدي الملابس ذاتها، والسّويقية ذاتها، وله الهيئة ذاتها. . – وإني أقبل أن ابتلع لقمةً واحدةً مشنقة سكونجن الحجريّة، إذا لم يكن الرَّجل نفسه، فماذا تقولين في ذلك، يا بيشلي؟ ألن يكون أمراً طريفاً أن يتلقّى ذلك الغريب مايختصر حياته أيضاً، بعد أن تلقّى مني ما يغيثها، وأن يجرّب مهارتي بعد أن اختبر ضيافتي؟

وسّع الجلاد لبعض الوقت ضحكته العريضة المشؤومة، ثم تابع:

– هيّا، فلتبتهجوا جميعكم إذن، ولنشرب، أجل، يا بيشلي، أعطني قدحاً من هذه البيرة التي تكشط الحلقوم، وكأن المرء يشرب شفرات، ولأفرغها نخب ترقيتي المقبلة – هيا، المجد والصحة للسيّد نيكول أوروجيكس، منفّذ الإعدام الملكي المنتظر!– ولسوف أعترف لك، أيتها الخاطئة العجوز، أنّه قد شقَّ علي أن أذهب إلى ضيعة نوس، لكي أشنق فيها من غير شهرة لصّاً حقيراً يسرق الملفوف والهندباء، ولا أدري من يكون. ومع ذلك، فحين تمعنت في الأمر، فكرت بأن اثنين وثلاثين أسكالينا ليست مبلغاً يمكن ازدراؤه، وأن يديَّ لايحطُّ شأنهما، إذا ما نفّذتا إعداماً بلصوص بسطاء، وبأوغاد آخرين من

(١) ديك الخلنج، طائر ضخم يعيش في الغابات.

تلك الشّاكلة، إلا بعد أن تكونا قد قطعتا رأس الكونت النبيل، المستشارالكبير السابق، وشيطان إيسلندا الشهير - فقبلت، والحالة هذه، بانتظار الحصول على شهادتي كجلاد ملكي، أن أرسل إلى الموت البائس المسكين الذي هو من قرية نوس. وأضاف، وهو يسحب حقيبة من الجلد من خرجه:

- هذه هي الإثنان وثلاثون أسكالينا التي أجلبها إليك، أيتها العجوز.

في تلك اللحظة، سمع صوت البوق على ثلاث فترات مختلفة، خارج البرج.

فصاح أوروجيكس، وهو ينهض:

- يا امرأة، إنهم رماة سهام المأمور الأعلى.

قال هذه الكلمات، ونزل بكلّ سرعة.

وبعد لحظة من الزّمن، عاد إلى الظهور، حاملاً رقّاً كبيراً، بعد أن قطع خاتمه، وقال لامرأته:

- خذي، هذا مايرسله إليّ المأمور الأعلى؛ ففسّري لي هذا، أنت التي تستطيعين قراءة طلاسم الشيطان؛ فربّما تكون هذه هي حروف ترقيتي: إذْ أنّ المحكمة، طالما سيكون لها مستشار كبير كرئيس، وسيكون فيها مستشار كبير كمتّهم؛ فقد يكون من المناسب أن يصبح الجلاد الذي سينفذ قرارها جلاداً ملكياً.

تناولت المرأة الرّق، وبعد أن جالت عليه بعينيها لبعض الوقت، قرأت بصوتٍ عالٍ، فيما كان الأطفال ينظرون إليها نظرة بلهاء وغبية:

«باسم المأمور الأعلى لدرونتهايموس! - يؤمر نيكول أوروجيكس ، جلاد الرّيف ، بالانتقال في الحال إلى درونتهايم ، والتزوُّد ببلطةِ الشّرف ، وسندان المقصلة ، والستائر السّوداء» .

فسأل الجلاد بصوتٍ ينمُّ عن الاستياء:

- هذا كلّ ما هناك؟

فأجابت بيشلي:

هذا كلّ ما هنالك .

فهمس أوروجيكس بصوت غير واضح:

- جلاد الرّيف .

ولبث لحظة من الزّمن ، وهو ينظر إلى الرّق المأموريّ نظرات حاقدة ، وقال أخيراً:

- هيا ، ينبغي أن نمتثل للأمر ونمضي ، ومع ذلك؛ فها هم يطلبون مني بلطة الشرف والسّتائر السّوداء ، - سوف تهتمين ، يا بيشلي ، برفع بقع الصدأ التي أزالت لمعان بلطتي ، وأن تري فيما إذا كانت السّتائر الجوخيّة ليست ملوّثة بالدّم ، في عدد من المواضع . وإجمالاً ، لا ينبغي أن تثبّط عزيمتنا؛ فلعلَّهم لا يريدون أن يمنحوني ترقية إلا باعتبارها أجراً على ذلك التنفيذ الجميل للإعدام . فتبّاً للمحكومين ، لن يشعروا بالرّضى الذي يحققه لهم إعدامهم على يد منفّذٍ ملكيّ للإعدام .

الفصل الثّاني والأربعون

إلفير

ماذا حدث للمسكين سانش . . ؟ إنه لم

يظهر في المدينة .

نونو

سيعرف سانش كيف يختبئ .

لوب دوفيغا، القاضي الأفضل هو الملك.

كان الكونت دالفيلد الذي يسحب وراءه رداءً فضفاضاً أسود مبطّناً بفرو القاقم ، ويغطّي رأسه وكتفيه بشعر مستعار عريض لائق بسيّد ، ويُثقل صدره بعدد من النجوم والأوسمةويمكن للمرء أن يميّز بينها قلائد الأوسمة الملكية ، قلائد الفيل ودانبروغ . وبكلمة واحدة يرتدي الزّيَّ الكامل ، زيّ المستشار الكبير للدانمرك والنّرويج ، كان يتجوّل مهموماً في شقّة الكونتيسة دالفيلد التي بقيت وحدها معه في تلك اللحظة .

– هيا ، إنها الساعة التاسعة ، ولسوف تبدأ جلسة المحكمة ، ولا ينبغي أن نؤخِّرها ، لأنه من الضّروري أن يتخذ القرار في الليل ، لكي ينفَّذ غداً صباحاً ، على أبعد تقدير. وقد أكد لي المأمور الأعلى بأن الجلاد سيكون هنا قبل الفجر – فيا إلفيج! هل أمرت بأن يعدُّوا المركب التي ينبغي أن تنقلني إلى مونكولم؟

فقالت الكونتيسة ، وهي ترفع نفسها قليلاً فوق أريكتها:

– ياسيدي ، إنها تنتظرك منذ نصف ساعة على الأقل.

– ومحفّتي ، هل هي عند الباب؟

– أجل ، ياسيدي.

فأضاف الكونت وهو يضرب جبينه:

– هيا . . ! أنت تقولين إذن ، يا إلفيج إن هناك علاقة غرامية بين أوردينر غولدينليف وابنة شوماكير.

فأوضحت الكونتيسة ، وهم تبتسم من الغضب والاحتقار:

– غرامية جداً ، أقسم لك!

– من كان يمكنه أن يتصوَّر هذا . . ؟ ومع ذلك ، أؤكد لك أنني قد ارتبت بذلك من قبل.

فقالت الكونتيسة:

– وأنا أيضاً. إنّها حيلة لعبها علينا ذلك اللّعين لوفان.

فدمدم المستشار:

– أيّها الأثيم العجوز المالكلينبورجوازي[1]! هيّا، سوف أعهد بك لأرينسدورف – ياليتني أتمكّن من العمل على إقالته! – ولكن، اسمعي، ياإلفيج، هذا خيط من النور.

– وماهو إذن؟

– أنت تعلمين أن الأفراد الذين سنحاكمهم في قصر مونكولم ستّة: شوماكير الذي لن أخشاه بعد الآن، كما آمل، غداً، في مثل هذه السّاعة؛ وذلك الجبليّ الضخم، هان الإيسلندي الزّائف الذي صنعناه، والذي أقسم على أن يقوم بدوره حتى النهاية (وأنت تشعرين كم هذا أمر مهم بالنسبة لي)، بأمل أن يجعله موسديمون الذي تلقى منه مبالغ كبيرة من المال، أن يجعله يهرب – إن موسديمون هذا لديه أفكار شيطانية حقاً! – أما المتّهمون الأربعة الآخرون، منهم: قادة المتمردين الثلاثة، ورجل مجهول ألفى نفسه، ولاندري كيف، في وسط اجتماع أبسيل – كور، وهو الذي جعلته الاحتياطات التي اتّخذها موسديمون يقع بين أيدينا. ويظنّ موسديمون أن هذا الرجل هو جاسوس للوفان دوكنود. وفي الواقع؛ فحين وصل إلى هنا سجيناً، كانت أولى كلماته أنه سأل عن الجنرال، وحين علم بغياب الماكلينبورجوازي (ساكن ماكلينبور)، بدا عليه الوجوم. وفوق هذا، فهو لم يشأ أن يجيب على أيٍّ من الأسئلة التي وجّهها موسديمون إليه.

---

(١) من سكان ماكلينبور (م: ز.ع).

فقاطعته الكونتيسّة:

- يا عزيزي دالفيلد، لماذا لم تستجوبه أنت بنفسك؟

- في الحقيقة، يا إلفيج، كيف كان يمكن أن أفعل ذلك، وسط كلّ تلك المشاغل التي ترهقني منذ وصولي؟ لقد اعتمدت، في هذه المسألة، على موسديمون الذي تهمّه مثلما تهمني. فضلاً عن ذلك، يا عزيزتي؛ فليس لذلك الرَّجل أهمية بحدّ ذاته. إنه متشرّر مسكين، ولن نتمكّن من أن نفيد منه إلا إذا قدّمناه باعتباره عميلاً للوفان دوكنود. وبما أنه قد قبض عليه في صفوف المتمرّدين، فيمكن لهذا أن يثبت أن بين الماكلينبورجوازي وشوماكير تواطؤاً أثيماً سوف يكون كافياً لكي يؤدّي إلى إقالة الجنرال اللعين على الأقل، إن لم يكن إلى توقيفه.

بدت الكونتيسّة متفكّرة للحظة من الزَّمن.

- أنت على حقّ، ياسيّدي. . ولكن تلك العاطفة المشؤومة التي يحملها البارون دوتورفيك لإيتيل شوماكير. .

فرك المستشار جبينه من جديد، ثم هزَّ كتفيه فجأة وقال:

- اسمعي يا إلفيج، لم يعد أحدنا أو الآخر شابّاً أو مبتدئاً في الحياة؛ فلا نعرف البشر، وحين جرى إضعاف شوماكير مرّة ثانية بحكم بالخيانة العظمى، وحين تنزل به على منصَّة الإعدام إدانة شائنة، وحين تتلطّخ سمعة ابنته إلى الأبد، على نحوٍ معلن بخزي والدها كلّه، وبعد أن تنحدر إلى مادون آخر

درجات المجتمع، هل تظنّين، يا إلفيج بأن أوردينر غولدينليف يتذكّر للحظة واحدة ذلك الحبَّ العابر الطفولي، والذي تسمّينه غراماً، اعتماداً على الأقوالَ المهووسة لسجينةٍ شابّة ومجنونة، وأنه يقيم موازنةً ليوم واحد بين ابنة مسربلة بالعار لمجرم يائس، وابنةِ ذائعة الصّيت لمستشار كلّل بالمجد؟ ينبغي أنّ يحكمَ المرء على الناس انطلاقاً من ذاته، يا عزيزتي؛ فأين رأيت أنّ القلب الإنساني مصنوع على ذلك النّحو؟.

– أتمنّى يا دالفيلد أن تكون على صواب أيضاً. ومع هذا، فأنت لن تجد الطلب الذي قدّمته للمأمور لكي تحضر ابنة شوماكير دعوى والدها، وأن تجلس على المنصّة نفسها معي، لن تجده غير مفيد. أليس هذا صحيحاً؟ فأنا متلهفةٌ لدراسة هذه المخلوقة.

فقال المستشار ببرود:

– إن كل ما يمكن أن يهدينا في هذه القضية ثمين، ولكن، قولي لي، هل يعلم أحد أين أوردينر في هذه اللحظة؟

– لا أحد في العالم يعرف أين هو. إنّه التلميذ الخليق بذلك العجوز لوفان، وهو فارس جوّال مثله، وأظن أنه يزور في هذه اللحظة فارد– هوس.

– حسناً، حسناً، إن صاحبنا أولريك سوف يحدِّد مكانه، هيّا، لقد نسيت أنّ المحكمة تنتظرني..

فأوقفت الكونتيسة المستشار الكبير.

– كلمة أيضاً، أيها الكونت– وقد كلّمتك بالأمس بشأنها. غير أن ذهنك كان مشغولاً، ولم أتمكّن من الحصول على جواب لها. أين ابني فريدريك؟

فقال الكونت بلهجة كئيبة ، وهو يرفع يده إلى وجهه:

– فريدريك!

– أجل ، أجبني يا دالفيلد ، ابني فريدريك! إن فوجه قد رجع من درونتهايم بدونه . اقسم لي بأن ابني فريدريك لم يكن في ذلك المضيق المرعب ، مضيق بيلبيه –نوار . لماذا تغيّر وجهك عند اسم فريدريك؟ إني في قلق مميت .

فاستعاد المستشار سحنته الخالية من التأثّر ، وقال:

– هدئي روعك ، يا إلفيج . أقسم لك أنه لم يكن البتّة في ذلك المعبر ، معبر بيلبيه– نوار ، ومن ناحية أخرى ، فقد جرى تعميم قائمة بأسماء الضباط القتلى أو الجرحى في ذلك القتال . .

فقالت الكونتيسّة ، وقد هدأت:

– أجل ، إنك تطمئنني . إن ضابطين فقط قد قتلا ، وهما النقيب لوري ، والبارون الشّاب راندمير الذي قام بحماقات كثيرة مع ابني فريدريك المسكين ، أثناء حفلات كوبنهاغن الراقصة! أوه! لقد قرأت القائمة ، وأعدت قراءتها ، أؤكد لك ذلك ، ولكن ، قل لي . . ياسيّدي . قد بقي ابني اذن في فالستروم؟ .

فأجاب الكونت:

– لقد بقي فيها .

فقالت الأمّ بابتسامة جهدت في أن تجعلها رقيقة:

– حسناً، ياعزيزي دالفيلد، لا أطلب منك سوى فضل واحد، وهو أن ترجع ابني فريدريك بسرعة من ذلك البلد المرعب . .

فتملّص المستشار بمشقةٍ من بين يديها المتوسّلتين، وقال:

– ياكونتيســة، إن المحكمــة تنتظرني، وداعــاً؛ فما تطلبينه مني لايتعلق بي.

وخرج فجأة.

فمكثت الكونتيسّة هناك كئيبةٍ ومتفكّرة، وقالت في نفسها:

– هذا أمرٌ لايتعلق به، ويكفيه أن يقول كلمة واحدة لكي يعيد ابني إليّ – لطالما خطر لي هذا. إن ذلك الرَّجل شرّير حقاً.

الفصل الثّالث والأربعون

أهكذا يعاملون رجلاً يضطلعُ بمهمةٍ أكلِّفهُ بها؟

أهكذا يفقدون الاحترامَ المستحقَّ تجاه العدالة؟

كالديرون، لويس بيريز دوغاليس.

اقتيدت إيتيل المرتجفة، والتي فصلها الحرّاسُ عن والدها، عند خروجهم من برج ليون دو سليسفيغ، اقتيدت، عبر ممرّاتٍ معتمة كانت مجهولةً بالنسبة إليها، حتى ذلك الحين، إلى ضربٍ من زنزانةٍ مظلمةٍ أغلقوها، بعد دخولها إليها. كانت هناك، من جهةِ الزّنزانة المقابلةِ للبابِ فتحةٌ كبيرة محاطةٌ بحاجزٍ مشبّك، يتغلغلُ من خلاله ضوءُ مشاعلٍ وشمعدانات. وكان أمام تلك الفتحة مقعدٌ صغيرٌ تجلس عليه امرأةٌ تضعُ نقاباً، وترتدي ملابسَ سوداء، وقد أشارت لإيتيل بأن تجلسَ بجانبها؛ فأطاعت بصمت، وقد اعتراها الذّهول.

تتجّهُ عيناها إلى ماوراء الفتحةِ المشبكة، فتريان لوحةً عاتمةً وضخمةً أمامها.

في الطّرف الأقصى من قاعةٍ مفروشة بالأسود، وتضيئُها بشكلٍ خفيف مصابيحُ مأتميةٌ معلّقةٌ بالقبّة، تنتصبُ محكمةٌ سوداء مستديرةٌ على شكلِ حدوةِ

حصان، ويشغلُها سبعةُ قضاة يرتدون ألبسةً سوداء، ويضع أحدُهم، وهو الجالسُ في الوسط على مقعدٍ أكثر ارتفاعاً، يضع على صدره سلاسلَ ماسيَّة، وصفائحَ ذهبيّةً تتلألأ. أما القاضي الذي يجلسُ على يمينِ هذا الأخير فيتميّز عن الآخرين بحزامٍ أبيض، ومعطف من فرو القاقم، وهي شاراتُ المأمور الأعلى للرّيف، وعلى يمينِ المحكمة، هناك منصّةٌ مظلّلةٌ بسرادق، ويجلسُ فيها عجوزٌ يرتدي ملابسَ أسقفيةً. وعلى اليسار، منضدةٌ مثقلةٌ بالأوراق، ووراءَها، ينتصبُ واقفاً رجلٌ ذو قامةٍ قصيرة، ويغطي رأسه بطاقيةٍ ضخمةٍ من الشّعرِ المستعار، ويتلفّعُ بثنياتِ رداءٍ طويلٍ أسود.

يلاحظُ المرءَ، قبالة القضاة، مقعداً خشبياً بعددٍ من المسلّحين بالأطبار والذين يحملون المشاعل التي ينشرُ ضوؤُها أشعةً غير واضحة، على رؤوسٍ صاخبةٍ لجمهورٍ من المشاهدين المحتشدين عند الشّباكِ الحديدية التي تفصلُهم عن المَحكمة، وينعكسُ هذا الضّوءُ على غابةٍ من الرّماح، وبنادقِ الفتيلة، والحراب.

كانت إيتيل تلاحظُ ذلك المشهد، وكأنها تحضرُ حلماً في اليقظة؛ ومع ذلك؛ فهي لم تكن البتّة تشعرُ بعدمِ الاكتراث لما سيحدثُ بعد قليلٍ أمام ناظريها. كانت تسمعُ، في داخلها، ما يشبُه صوتاً ضمنيّاً يُخطرها بأنْ تبقى متيقّظةً، لأنّها كانت تقتربُ من إحدى أزماتِ حياتها. كانت قلبُها فريسةً لاضطرابين مختلفين في آنٍ واحد: فهي تودُّ في الحال أن تعرفَ ما الذي يعنيها في المشهد الذي تتأمّله، أو تودّ ألّا تعرفَ ذلك أبداً؛ فمنذ بضعةِ أيام، كانت الفكرةُ التي مفادُها أن فتاها أوردينر قد ضاعَ بالنسبة إليها، توحي لها بالرّغبة غير المؤمّلة في أن تنتهي مرّةً واحدةً من العيش، وأن تتمكن بنظرةٍ واحدة أن تقرأ كتابَ مصيرها بكامله. وهذا هو السّببُ الذي جعلها تعاينُ اللوحةَ الحداديّة بنفورٍ أقلّ مما

تعاينُها بنوعٍ من الفرحِ الملهوفِ والجنائزي، مدركةً أنها أخذت تدخلُ في السّاعةِ الحاسمةِ لمصيرها.

لقد رأت الرئيسَ يقفُ معلناً، باسم الملك، أن «جلسةَ العدالة قد افتُتِحت».

وسمعت الرّجلِ القصيرُ القامة الذي يرتدي الأسود، والجالسُ على يسار المحكمة، سمعته يقرأ بصوتٍ خفيضٍ وسريع، خطاباً طويلاً كان يتردَّدُ فيه مراراً اسمُ والدها مختلطاً بكلمات: تآمر، وتمرُّد المناجم، وخيانة عظمى. حينذاك، تذكّرت أن المرأةَ المجهولةَ المشؤومةَ كانت قد حدّثتها، في حديقةِ البرج، عن الاتّهام الذي يهدّدُ والدَها، فارتعشت حين سمعت الرَّجلَ ذا الرّداءِ الأسود يُنهي خطابَه بكلمةِ: موت التي تلفّظ بها بقوّة.

أُصابها الذُّعر، فاستدارت نحو السّيدةِ التي تضع خماراً والتي كان يوحي لها شعورٌ نحوها بالخوف لا يسعُها تفسيره، فسألت بخجل:

– أين نحن؟ وما كلّ هذا؟

فدعتها حركةٌ من رفيقتها الغامضة إلى الصّمتِ والانتباه. فأرجعت نظرها إلى قاعة المحكمة. أما العجوزُ الموقَّر، ذو الملابسِ الأُسقفيّة، فقد وقَفَ لتوّه. والتقطت إيتيل كلماته التي تلفّظ بها على نحوٍ واضح.

– باسم اللّه الكلّي القدرة والرّحيم – أنا بامفيل – إيلوتير، أُسقف مدينة درونتهايم الملكية، ومقاطعة درونتهايموس الملكية، أُحيّي المحكمةَ الموقّرة التي تُجري المحاكمةَ باسم الملكِ، سيّدنا، بعدَ الرّب.

وأقول – بما أنّني لاحظتُ أن المتّهمين الذين اقتيدوا إلى هذه المحكمة هم

رجالٌ ومسيحيّون وأنهم ليس لديهم بتاتاً من يفوّضونه عنهم، فأنا أعلنُ إلى القضاةِ الموقّرين نيّتي في أن أُعينَهم بنجدتي الضّعيفة، في الوضعِ القاسي الذي شاءتَ السّماءُ أن تضعَهم فيه.

أصلّي إلى الرّب لكي يتكرّم بمنحِ قوّته لضعفنا العاجز، ونورِه لعمانا العميق.

وهكذا فإنني، أنا أسقف هذه الأبرشيةِ الملكية، أحيّي المحكمة الموقّرة والحصيفةَ. بعد أن تحدّث الأسقفُ على ذلك النّحو، من على عرشه الأسقفي. وذهب ليجلس على مقعدٍ خشبي مخصّصٍ للمتهمين، فيما ارتفعت بين الشعب جلبةٌ تنمُّ عن الاستحسان.

نهض الرئيسُ وقال بصوتٍ جافّ:

– يا حَملَة الأطبار، فليهيمنْ الصّمت! – يا سيّدي الأسقف. إن المحكمةَ تشكرُ شخصكم الموقّر باسم المتّهمين – ويا سكّان درونتهايموس، كونوا مصغين لعدالة الملك: إن المحكمة سوف تحكم من غير استئناف. يا رماةَ السّهام، فليؤتَ بالمتّهمين.

هيمن في قاعة المحكمة صمتٌ مفعمٌ بالتّرقب والخوف، إلّا أن كلَّ الرؤوس كانت تهتزّ في الظلّ، وكأنها أمواجٌ قاتمة في بحرٍ عاصف يتهيّأ ليقصفَ فيه.

سمعت إيتيل في الحال جلبةً مكتومةً، وحركةً غير عاديّة تمتدُّ تحتها، في معابرِ القاعة المشؤومة، ثم أن الحاضرين ترصّنوا، وقد سرت فيما بينهم غمغمةٌ تنمُّ عن اللّهفةِ والفضول، ودوّت خطىً متكاثرةٌ، والتمعت أطبارٌ،

وبنادقُ ذاتُ فتيل. وبعد قليل، ولج إلى حرمِ المحكمة ستةِ[1] رجالٍ مصفّدين بالأغلال، ومحاطين بالحراس، وحاسري الرأس. أما إيتيل فلم ترَ إلّا الأوّلَ من هؤلاءِ السُّجناء، وقد كان عجوزاً ذا لحيةٍ بيضاء، ويرتدي سترةً فضفاضةً سوداء، وهو والدُها.

اتكأت خائرةَ القوى على الحاجزِ الحجريّ أمام مقعدها، وكانت الأشياءُ تتدحرج أمام عينيها وكأنها تتدحرج على غيمةٍ مشوّشة، ويبدو لها أن قلبها يختلجُ في أذنها. وقد قالت بصوتٍ ضعيف: يا إلهي، أغِثني!

انحنت المرأةُ ذاتُ الخمار عليها، وجعلتها تستنشقُ أملاحاً توقِظُها من سُباتها.

قالت وهي تستردّ وعيها:

– أيتها السّيدةُ النبيلةُ، تكرّمي بكلمةٍ واحدةٍ من صوتك لكي تقنعيني بأنني لستُ هنا لعبةً لأشباحِ الجحيم.

ولكن المرأة المجهولةَ التي أصمَّت أذنَها عن رجائها، كانت قد أدارت رأسَها نحو المحكمة، أمّا المسكينةُ إيتيل التي استعادت قواها، فقد قبلت أن تفعل مثلها بصمت.

كان الرئيس قد نهض، وقال بصوتٍ بطيء ومفخَّم:

---

(١) هم: أوردينر وشوماكير، وعجوزان أحدُهما كان يعتمر طاقيّة اللّباد الخاصّة بعمالِ المناجم (جوناس)، والآخر يعتمرُ قبعةَ الجبليين.

- أيها السّجناء. إنهم يحضرونكم أمامنا لكي نتمكّن من أن نعاين فيما إذا كنتم مذنبين بتُهمة الخيانة العظمى والتآمر، والتمرُّد المسلّح ضدَّ سلطة الملك، سيّدنا الأعلى. فتأمّلوا الآن في ضمائركم، لأن اتّهاماً بالقدحِ بالذاتِ الملكية من الدّرجة الأولى ينيخُ على رؤوسكم.

في تلك اللحظة، سقط خيطٌ من النّور على وجه أحد المتّهمين السّتة، على وجهِ شابّ كان يُبقي رأسَه محنياً على صدره، وكأنّما ليُخفي ملامحه، تحت الخصلاتِ المتدليّة من شعره الطّويل. ارتعشت إيتيل، وخرج عرقٌ باردٌ من كلِّ أعضائها؛ فقد ظنّت أنها تتعرّفُ:

- ولكن لا، إنه وهمٌ قاس؛ وقد كانت القاعةُ ضعيفةَ الإنارة، والناسُ يتحركون كالظّلال، ولا يكادُ المرءُ يميّزُ فيها صليباً كبيراً للمسيح مصنوعاً من الأبنوس المصقول، وموضوعاً فوق كرسيّ الرّئيس.

ومع ذلك؛ فقد كان ذلك المتّهمُ الشّابُّ متلفّعاً بمعطفٍ يبدو أخضر اللون، من بعيد. أما شعره غير المرتّب، فقد كان فيه بريقٌ كستنائي، والشعّاعُ الأحمرُ الذي كان يرسمُ قسماته... ولكن لا، إن هذا لم يكن موجوداً، ولا يمكن أن يكون كذلك! إنّه وهمٌ مرعب.

كان المتّهمون جالسين على المقعد الذي نزل إليه الأسقف. وكان شوماكير يجلسُ في أحد طرفيه. وكان يفصلُه عن الشّابّ ذي الشّعر الكستنائي أربعة رفاقٍ في الحظّ العاثر، وقد كانوا يرتدون ملابسَ خشنة، وكان المرءُ يلاحظُ فيّ عدادِهم ضرباً من عملاق. أما الأسقفُ، فكان يجلسُ على الطّرف الآخر من المقعد.

رأت إيتيل الرئيسَ يستديرُ نحو والدها، ويقولُ له بصوتٍ صارم:

- أيّها المتهم، قلْ لنا اسمك، ومن تكون؟

فرفع العجوزُ رأسَه الجليل، وأجابَ وهو يحدِّق بالرئيس:

- فيما مضى، كانوا يسّمونني الكونتَ دوغريفنلند وتونغسبرغ، وأمير فولان، وأميرَ سانت أمبير (الامبراطورية المقدّسة)، وفارسَ الوسامِ الملكي، وسام الفيل، وفارسَ الوسام الملكي دو دانبروغ، وفارسَ لا توازون دور (الجزّة الذّهبية) ولا جارّ وتيير، ورئيسَ الوزراء، ومفتشَ الجامعات العام، والمستشارَ الكبيرَ للدانمرك ولـ ...

فقاطعه الرّئيس قائلاً:

- أيّها المتّهم، لا تسألك المحكمةُ عما سُمّيتَ به، وعن الوضعِ الذي كنتَ عليه، بل تسألك عما تُدعى به الآن، ومن تكون.

فاستأنف العجوزُ باندفاع:

- أُدعى الآن جان شوماكير، وعمري تسعة وستون عاماً، ولستُ شيئاً آخر سوى أنني وليُّ نعمتِك السّابق، أيها المستشارُ دالفيلد.

فبدا الرئيسُ مندهشاً.

وأضاف المستشارُ السّابق:

- لقد تعّرفتُك، أيها السّيد الكونت، وبما أنني قد حسبت أن الأمرَ

ليس كذلك من جهتك نحوي؛ فقد سمحت لنفسي أن أذكرّ سموّك بأننا أصدقاء قدماء.

فقال الرئيسُ بنبرةٍ يشعرُ المرءُ بالغضبِ الكامنِ فيها:

– يا شوماكير، وفّر وقتَ المحكمة.

فقاطعه المتّهمُ العجوزُ ثانية، وقال:

– لقد بدَّلنا أدوارنَا، أيّها المستشارُ النبيل؛ فيما مضى كنتُ أنا من يدعوك ببساطة دالفيلد، وكنت تقول لي: أيّها السّيدُ الكونت.

فردّ الرّئيس:

– أيّها المتّهم، إنّك تضرُّ بقضيّتك حين تُذكّر بالحكم الشّائن الذي أصابتك منه الفضيحة.

– إن كان الحكمُ شائناً لشخصٍ ما، أيّها الكونت دالفيلد، فليس لي.

كان العجوزُ قد نهضَ جزئياً، وهو يتلفّظُ بهذه الكلمات بقوة؛ فمدَّ الرئيس يده باتجاهه، وقال:

– اجلسْ، لا تطلقْ الإهاناتِ أمام المحكمة، لا ضدَّ القضاةِ الذين حكموا عليك، ولا ضدَّ الملك الذي منحك هؤلاء القضاة. تذكّر أن جلالتَه قد تكرَّم بمنحكِ العفوَ عن حياتك، واكتفِ هنا بالدفاعِ عن نفسك.

لم يجب شوماكير إلّا من خلالِ هزِّ كتفيه.

فسأله الرّئيس:

– ألديك بعضُ الاعترافاتِ التي تقدّمُها إلى المحكمة، والتي لها صلةٌ بالجريمةِ القصوى التي يتّهمونك بها؟

حين رأى الرئيسُ أن شوماكير يلتزم الصّمت، كرّر سؤاله، فقال المستشار الكبير السّابق:

– هل توجهُ الكلامَ إليّ؟ لقد كنتُ أظنّ، أيها الكونت النبيل دالفيلد، أنك تتكلّمُ مع نفسك. فعن أيةِ جريمةٍ تحدثني؟ هل أعطيتُ يوماً قبلةً إسخريوطيةً لصديق؟ هل سَجَنتُ وأدنتُ ولوّثتُ سمعةَ وليّ نعمتي؟ هل سلبتُ ذلك الذي كنت أدينُ له بكلِّ شيء؟ إني أجهلُ، في الحقيقة، يا سيّدي المستشار الحاليّ، لماذا يأتون بي إلى هنا. هذا، بلا شكّ، لكي يحكموا على مهارتك في قطع الرؤوسِ البريئة. لن أكون مستاءً البتّة، في الواقع، أن أرى إن كنت تُحسنُ تدميري، مثلما تُحسنُ تدميرَ المملكة. أو إن كانت تكفيك فاصلةٌ لكي تتسبّب في موتي، كما كان حرفٌ من حروفِ الأبجديةِ كافياً لك لكي تحرِّضَ على إشعالِ الحربِ ضدّ السّويد(١).

وما إن أنهى هذا التهكُّم المرير، حتى نهض الرَّجلُ الجالسُ أمامَ المنضدةِ، على يسارِ المحكمة، وقال، بعد أن انحنى بشدّة:

---

(١) كانت هناك، في الحقيقة، خلافاتٌ خطيرةٌ جدّاً بين الدانمرك والسّويد، لأن الكونت دالفيلد قد طلب، في إحدى المفاوضات أن تعطي معاهدةٌ بين الدّولتين إلى ملك الدانمرك لقب: **REX GOTHORUM**، وهذا ما كان يبدو أنه يُعطي العاهلَ الدانمركيّ السّيادةَ على قوطيا «**La GOTHIE**» وهي مقاطعةٌ سويدية، فيما كان السّويديّون لا يريدون أن يمنحوه إلّا صفة **REX GOTORUM**، وهي تسميةٌ مبهمةٌ تعادلُ اللّقبَ القديمَ، لقدَ ملكِ القوطيّين. إن حرفَ الـ «**H**» هذا، الذي لا يسبّب حرباً، بل مفاوضاتٍ طويلة، وتهدّد بالمخاطر، هو الذي كان يشيرُ إليه شوماكير، بلا شك.

– سيّدي الرئيس، سادتي القضاة، أطلبُ أن يمنع المتَّهمُ جان شوماكير من الكلام، إن واصَلَ إهانةَ سموِّه على هذا النّحو؛ فهو رئيسُ هذه المحكمة الموقّرة.

فارتفعَ صوتُ الأسقفِ الهادئ قائلاً:

– يا سيّدي أمين السرِّ الخاصّ، لا يمكن أن يُمنعَ متَّهمٌ من الكلام...

فهتف الرئيسُ بتسرُّع:

– أنت على حقّ، يا سيّدي المطران المبجّل. إن ما نقصدُ إليه هو أن نترُكَ للدّفاع أكبرَ قدرٍ من حرّيةِ التّصرّف – وإني أحثُّ المتَّهم أن يلطّفَ من كلامِه فحسب. إن كان يدركُ مصالحَه الحقيقية.

فهزَّ شوماكير رأسه، وقال ببرود:

– يبدو أن الكونت دالفيلد واثقٌ من صنيعه أكثر من عام ١٦٧٧.

فقال الرّئيسُ، وهو يتوجّه في الحال إلى المتّهم المجاور للعجوز، وسأله عن اسمه. وقد كان ذلك المتّهم رجلاً جبليّاً ذا قامةٍ ضخمة، وكان جبينُه ملفوفاً بالضّمادات. فوقف يقول:

– أنا هان، من منطقة كليبستادور في إيسلندا.

سرت غمغمةٌ مذعورة لبعض الوقت بين الجمهور. أما شوماكير، فقد رفع رأسَه الذي كان ساقطاً على صدره، وألقى نظرةً مفاجئة على جاره الرّهيب،

والذي كان المتّهمون الآخرون، شركاؤه، يجلسون بعيداً عنه. فسأله الرَّئيسُ حين تبدَّد الاضطراب:

– ماذا لديك لتقوله للمحكمة، يا هان الإيسلنديّ؟

من بين الحاضرين جميعاً، لم تكن إيتيل هي الأقّل تأثُّراً بحضورِ اللّصّ الشّهير الذي كان يتبدّى لها، منذ زمنٍ طويل، في كلِّ مخاوفها. لقد ركزّت نظرها بنهم مفعم بالخوف على العملاقِ الوحشّي الذي كان فتاها أوردينر قد دخل معه في عِرَاك، ولعلّه كان ضحيّةً له. لقد تغلّبت على تلك الفكرة في داخلها تحت كافّة أشكالها المؤلمة؛ وهكذا، فبما أنها كانت مستغرقةً تماماً في جملة من الانفعالات الممزَّقة، فقد سمعت بصعوبة الرّدّ الذي يوجّهه إلى الرّئيس، وبلغة فظّة ومرتبكة، ذلك المدعو هان الإيسلندي الذي كانت ترى فيه إلى حدٍّ ما قاتلَ فتاها أوردينر. لقد فهمت فقط أن اللّصّ كان يُعلنُ أنّه قائدُ العصاباتِ المتمرّدة.

وسأل الرئيس:

– هل تسلّمت قيادةَ المتمردين بمسعىً شخصيّ منك، أم بتحريضٍ أجنبيّ؟

فأجاب اللّصُ:

– ليس بمسعىً منّي.

– من الذي دفعك إلى هذه الجريمة؟

– رجلٌ كان اسمُه آكيت.

– ومن كان آكيت هذا؟

– عميلاً لشوماكير الذي يدعوه أيضاً كونت دوغريفنفلد.

توجّه الرئيسُ إلى شوماكير.

– أيّها المتهّم، هل تعرف آكيت هذا؟

فأجاب العجوزُ بسرعة:

– لقد سبقتني أيها الكونت دالفيلد، فقد كنتُ أتهيأ لتوجيهِ السّؤالِ ذاتِه إليك.

– أيها المتّهم شوماكير، إن حقدَك لا يُحسِنُ إرشادَك. ولسوف تثمّن المحكمةُ منهجكَ في الدّفاع.

فتكلّم الأسقفُ، وقال، وهو يستديرُ نحو الرَّجلِ القصير، والذي كان يبدو أنّه يقومُ بمهمام كاتبِ المحكمة والمدّعي:

– آكيت هذا، هل هو من بين أبناءِ رعيّتي؟

فأجاب أمينُ السّر:

– كلّا، يا جزيلَ الاحترام.

– لم نتمكّن من القبض عليه؛ فلقد اختفى.

كان يخيّلُ للمرء أن السّيدَ أمينَ السّر الخاص، يركّب صوته تركيباً، وهو يتكلَّمُ على تلك الصّورة.

فقال شوماكير:

– أظنُّ، على الأصّح، أنّه قد تلاشى.

فتابعَ الأسقفُ قائلاً:

– أيها السَّيد أمين السّر، هل تقومون بملاحقةِ آكيت هذا؟ وهل لديكم أوصافُه؟

قبل أن يتمكّن أمينُ السِّر الخاصّ من الرّد، وقف أحد المتّهمين، وكان عاملَ منجمٍ شابّاً ذا وجهٍ شرسٍ ومزهوّ، وقال بصوتٍ قويّ:

– قد يكونُ من السّهل القبضُ عليه؛ فآكيت الحقير هذا، عميلُ شوماكير، رجلٌ ضئيلُ البنية، ذو وجهٍ مفتوحٍ. ولكنه مفتوح مثل فوهةِ الجحيم... – لاحظ، يا سيّدي الأسقف، أن صوتَه يشبه كثيراً صوتَ هذا السّيد الذي يكتب هناك، على تلك المنضدة، والذي تدعوه، يا صاحب الاحترام، كما أظنّ، «أمين السّرّ الخاصّ». وحتى أيضاً، لو كانت هذه القاعة معتمة أقلّ، وكان للسّيد أمين السّر الخاص شعرٌ أقل ليخفي وجهه، لأكّدت تقريباً أن في ملامحه بعضَ التشابه مع ملامحِ الغادرِ آكيت.

فهتف المتّهمان المجاوران لعاملِ المنجم الشابّ:

– إن أخانا يقولُ الحقيقة.

فغمغم شوماكير بتعبيرٍ ظافر:

– حقاً!

ومع ذلك، فقد قام أمينُ السّر بحركةٍ لا إراديّةٍ تدلُّ على الخوف أو على

الغضب الذي كان يحسُّه، لأنهم قد قارنوه بآكيت. أمّا الرئيس نفسهُ والذي كان يبدو مضطرباً، فقد سارع إلى رفعِ صوته وقال:

- أيها المتّهمون، لا تنسوا أنّه لا ينبغي أن تتكلّموا إلّا عندما تسألكم المحكمةُ، ولا تهينوا، على الخصوص، وزراءَ العدالةِ بمقارنات غير لائقة.

فقال الأسقف:

- ومع ذلك، أيها السّيد الرئيس، لا يتعدّى الأمرُ أن يكون مسألةَ أوصاف. فإذا كان المذنبُ آكيت يشبهُ من بعضِ النّواحي أمينَ السّر؛ فقد يكون هذا مفيداً...

فأجاب العملاقُ من دون تردُّد:

- إطلاقاً، يا سيّدي.

فأضافَ الرّئيسُ:

- أنت تلاحِظُ الأمرَ، يا سيدي الأسقف.

فأعلن الأسقفُ بإشارةٍ من رأسه أنّه راضٍ. أما الرئيسُ فقد توجّه إلى متّهمٍ آخر، وتلفّظ بالصّيغةِ المألوفة:

- ما اسمك؟

- فيلفريد كينيبول، من جبال كول.

- هل كنت من بين المتّمردين؟

– أجل، يا سيّدي؛ فالحقيقةُ تُساوي أكثر من الحياة. ولقد قُبض عليّ في مضائق بيليبه – نوار اللّعينة، وكنت قائدَ الجبليين.

– من الذي دفعك إلى جريمةِ العصيان؟

– كان إخوتُنا عمالُ المناجم يشكون من الوصايةِ الملكية. وكان الأمرُ بسيطاً جدّاً، أليس كذلك يا صاحب السّمو؟ فربّما لا يكون لديك سوى كوخٍ من الطّين، وجلدا ثعلبٍ رديئان، وقد لا تغتاظ من أنك تمتلكها. إن الحكومةَ لم تصغِ إلى رجاءاتهم. حينذاك، يا سيّدي، فكّروا بأن يتمرّدوا، ورجونا أن نساعدهم. إن خدمةً صغيرةً كهذه لا يمكن رفضُها بين الإخوة الذين يتلون الدُّعاءاتِ نفسَها، ويكفّون عن العملِ في أعيادِ القدّيسين ذاتِها، هذا كلُّ ما في الأمر.

فقال الرّئيس:

– ألم يوقظْ أحدٌ هذا التمرُّدَ ويشجّعهُ ويوجِّهه؟

– كان ذلك سيّداً اسمُه آكيت، وكان يكلّمنا باستمرارٍ عن تحريرِ كونتٍ سجين في مونكولم والذي كان يقولُ إنّه مبعوثُه. وقد وعدناه بذلك، لأنَّ تحريراً إضافياً لن يكلّفنا شيئاً.

– هذا الكونت، ألم يكن يُدعى شوماكير أو غريفنفلد؟

– بالضّبط، يا صاحبَ اللّطف.

– ألم تره قطّ؟

– كلّا، يا سيّدي، ولكن إذا كان هو ذلك العجوز الذي قال لك للتّو العديد من الأسماء، فلا يسعني أن أفعل شيئاً سوى أن أوافق...

فقاطعه الرّئيس على عجل:

– على ماذا؟

– على أنّ له لحيةً بيضاءَ جميلة حقاً، وهي جميلةٌ تقريباً كلحيةِ والدِ زوجِ شقيقتي مآز التي هي من ضيعةِ سورب الصّغيرة، وقد عاش ذلك الوالد حتى مئة وعشرين عاماً.

كان الظّلّ المنتشرُ في القاعة يمنعُ المرءَ من أن يرى إن كان الرئيسُ قد بدا خائبَ الظّن من ردِّ الرّجلِ الجبليّ السّاذج، فأمرَ رماةَ السّهام بأن ينشروا بعضَ الرّاياتِ النّارية اللّون والموضوعة أمام المحكمة، وقال:

– أيّها المتّهم فيلفريد كينيبول، هل تتعرّفُ هذه الرّايات؟

– أجل، يا صاحبَ اللّطف. لقد أعطانا إياها آكيت باسم الكونت دو شوماكير. وقد عمل الكونت أيضاً على توزيعِ الأسلحة على عمالِ المناجم. لأننا نحن لم نكن بحاجة إليها، نحن الجبليين الذين نعيش من القربينةِ، وحقيبةِ الصّيد، وأنا، يا سيّدي، كما تراني هنا مقيّداً مثل دجاجة شريرةٍ سوف يتمُّ شيُّها، قد أصبتُ غيرَ مرّةٍ، من أعماق ودياننا، نسوراً معمّرةً، حين كانت في أعلى نقطة من طيرانها، وتبدو كأنها قبرّات أو سُمنات.

فقال أمينُ السّرِ الخاصّ ملاحظاً:

- أتسمعون، أيها السّادة القضاة. لقد عملَ المتَّهم شوماكير على توزيعِ الأسلحة والأعلامِ على المتّمردين، عن طريق آكيت.

وكرّر الرئيسُ قائلاً:

- ألم يعدْ لديك شيءٌ تصرِّحُ به يا كينيبول؟

- لا شيء، يا صاحبَ اللّطف، غير أنني لا أستحقُّ الموتَ، فأنا لم أفعلْ شيئاً سوى تقديم المساعدة إلى عمال المناجم، كأخٍ طيّبٍ لهم، وأجرؤ على التأكيد لكم، يا أصحابِ اللّطف أن رصاصَ قربينتي، مع أنني صيّادٌ عتيقٌ، لم يمسّ قطّ بأيّلٍ للملك.

أما الرئيسُ، ومن غير أن يردَّ على هذه المرافعة، فقد استجوب رفيقيّ كينيبول الآخرين. وقد كانا من قادةِ عمالِ المناجم. وقد كرّر الأكبرُ سنّاً منهما، والذي صرّح بأنه يُدعى جوناس، كرّر بعباراتٍ أخرى ما كان قد اعترفَ به كينيبول، أما الآخرُ، الذي كان هو الفتى الذي التقطت عيناه الكثيرَ من التّشابه بين أمين السّر الخاصّ والغادر آكيت، فقد قال إنه يُدْعى نوربيت، واعترفَ بفخرٍ بدوره في التمرّد. ولكنه رفَضَ أن يكشف شيئاً يمسُّ آكيت وشوماكير. وكان يقول إنه قد أقسم اليمين على الصّمت، ولم يعد يتذكّر إلّا ذلك القسم. وقد استجوبه الرئيس بكلِّ ضروبِ الوعيد، وكلِّ ألوان الرّجاء، بلا طائل. فقد ظلّ الفتى العنيد صلباً لا ينثني، ومن ناحيةٍ أخرى، فقد كان يؤكّد أنّه لم يتمرَّد من أجل شوماكير. وإنما فقط لأن والدتَه العجوز جائعةٌ وبردانةٌ. ولم يكن ينكرُ البتّة أنه يستحقُّ الموت ربّما، غير أنه كان يجزمُ بأنهم

يرتكبون تعسُّفاً إذا ما حكموا عليه، لأنهم، حين يقتلونه، فهم يقتلون أيضاً والدتَه المسكينة التي لم تكن تستحقُّ ذلك.

حين توقّف نوربيت عن الكلام، لخّص أمينُ السّرِ الخاصّ بكلماتٍ قليلة التُّهمَ المبهظة التي كانت حتى تلك اللّحظة تُثقِلُ كاهلَ المتّهمين، خصوصاً شوماكير؛ فقرأ بعضاً من الشّعارات التحريضيّة المكتوبة على الرايات، وأبرَزَ ضدَّ المستشار الكبير السّابق إجماع ردود شركائه وصولاً إلى صمتِ ذلك الشّاب نوربيت المرتبطِ بقَسَم متعصّب – وأضاف، في نهاية كلامه، أنه لم يبق غير متّهم واحد لم يُستَجوَب، وأن لدينا أسباباً مقنعةً تجعلُنا نظنّ بأنه عميلٌ سرّيّ للسّلَطات لم يسهرْ، إلّا على نحوٍ سيءٍ جدّاً، على هدوء درونتهايموس. وقد شجّعت هذه السّلطة، إن لم يكن بتواطئها المدان؛ فعلى الأقّل، بإهمالها المشؤوم، اندلاعَ التمرّد الذي سوف يُهلك كلَّ هؤلاء التُّعساء، ويسلّم إلى منصةِ الإعدام شوماكير هذا الذي كان تسامحُ الملك قد أنقذه بكلٍّ سخاء.

أما إيتيل التي هدأت مخاوفُها على أوردينر، من خلال انتقالٍ قاسٍ إلى مخاوفها على والدها، فقد ارتجفت أمام ذلك الكلام المشؤوم، فانهمر من عينيها سيلٌ من الدُّموع، حين رأت والدها يقف وهو يقول بصوتٍ هادئ: أيها المستشار دالفيلد، إني معجبٌ بكلٍّ هذا، فهل فطنتَ إلى استدعاء الجلاد؟

ظنّت المنكودة أنها في تلك اللحظة قد استنفدت آخرَ آلامها، ولكنها كانت مخطئةً في ذلك. كان المتّهم السّادس قد نهض نبيلاً وشامخاً، وكان قد أبعدَ الشَّعرَ الذي يغطّي وجهه، وكان قد أجاب على الأسئلةِ التي وجّهها إليه الرئيسُ بصوتٍ حازمٍ وعالٍ.

– أدعى أوردينر غولدينليف، بارون دوتورفيك وفارسُ دانّبروغ.

فصدرت عن أمين السّر صيحةٌ مدهوشة، وقال:

– ابن نائب الملك!

فردّدت كلُّ الأصوات:

– ابن نائب الملك! وكأنَّ القاعةَ في تلك اللحظة كانت تحتوي ألفَ صدى.

كان الرئيسُ قد تراجع على كرسيّه. أما القضاةُ الذين كانوا حتى ذلك الحين لا يبدون حركةً في المحكمة، فقد انحنى بعضُهم على البعضِ الآخر وهم في هرجٍ ومرج، وكأنهم أشجارٌ يمكن أن تضربها في آنٍ واحد رياحٌ مناوئة.

كان الاضطرابُ أكبرَ أيضاً في قاعة المحكمة؛ فقد كان الحاضرون يصعدون إلى الأفاريز الحجريّة والشّبكات الحديديّة، وكان الجمهورُ بكامله يتكلّمُ وكأنَّه فمٌ واحد. أمّا رجالُ الحرسِ الذين نسوا أن يطلبوا السّكوت، فقد أخذوا يضمّون كلامَهم المفعم بالدهشة إلى الصّخبِ الشّامل.

أيّةُ نفسٍ معتادة على انفعالاتِ الحياة المفاجئة يمكنها أن تتصوَّر ما يجري في نفسِ إيتيل؟ من يمكنه أن يقدّم هذا المزيجَ الغريبَ من الفرح الممزِّق والألم اللذيذ؟ هذا الترقُّب القلق الذي كان في آنٍ شيئاً من الخشيةِ والرّجاء، ومع ذلك، فهو ليس شيئاً منهما؟ لقد كان أمامها من غير أن تكونَ أمامه! كان هو الذي تراه والذي لا يراها! كان حبيبَها أوردينر، فتاها أوردينر، الذي كانت تظنُّه ميتاً، وتعلمُ أنه قد ضاع منها. إنه صديقُها الذي خانها والذي كانت مفتونةً به وكأنها تعشقُ من جديد. لقد كان هناك، أجل، كان هناك. إن حلماً باطلاً

لا يخدعُها؛ أوه! إنه فعلاً هو، أوردينر هذا، وا أسفاه! الذي كانت قد حلمت به أكثر بكثير مما كانت تراه – ولكن هل كان يظهرُ في ذلك الحرم المبجّل، وكأنه ملاكٌ مخلّص، أو مثل جنّيّ مشؤوم؟ هل كان عليها أن تعلّق عليه رجاءَها، أم أن ترتجفَ من أجله؟ – لقد كان ألفُ تخمين يضيّق على تفكيرها، ويخنقُه مثل شعلة تطفئُها التّغذيةُ الزائدة. إن كلَّ الأفكار، وكلَّ الإحساسات التي أشرنا إليها منذ قليل قد جالت في خاطرها، في اللحظة التي تلفّظ بها ابنُ نائبِ ملك النّرويج باسمه. وكان أوَّلَ من تعرّفته. أمّا الآخرون، فلم يكونو قد تعرَّفوه بعد، حين أُغمي عليها.

لقد استعادت وعيها في الحال، وللمرة الثانية، بفضلِ عناية جارتها الغامضة، كانت شاحبة الوجه، ففتحت ثانيةً عينيها التي كانت الدّموعُ قد نضبت فيهما، ووجّهت إلى الشّاب الذي ينتصبُ واقفاً وهادئاً باستمرار، في الضَّوضاء العامة وجّهت إليه بنهم إحدى تلك النّظرات التي تحتضنُ الكيان كلّه. كان الاضطراب قد توقّف في المحكمة، وبين الشّعب الذي كان لا يزالُ اسمَ أوردينر غولدينليف يدوّي في مسمعه. لقد لاحظت بقلقٍ مؤلم أن عضدَه معلقٌ على صدره، وأن يديه مثقلتان بالقيود، ولاحظت أنّ معطَفَه كان ممزَّقاً في بضعةِ مواضع، وأن سيفه الأمين لم يعدْ معلّقاً بحزامه. لم يفلتْ شيء من اهتمامها، لأن عينَ فتاة عاشقة يشبه عينَ أمّ. لقد أحاطت بكلِّ روحها ذلك الذي لم يكن بوسعها أنّ تغطّيه بجسدها كلّه. ولا بدَّ من القول أمام عارِ الحبِّ ومجده، وفي تلك القاعة التي تضمُّ والدَها ومضطهدي والدها، إنّ إيتيل لم تعدْ ترى إلّا رجلاً واحداً.

كان الصّمت قد حلَّ شيئاً فشيئاً، فاستعدَّ الرّئيسُ للبدء باستجواب ابن نائب الملك، وقال له بصوتٍ مرتجف:

– أيّها السّيد البارون...

فردّ أوردينر بصوتٍ حازم:

– لست أدعى البتّة هنا: السّيد البارون. بل أُدعى أوردينر غولدينليف، مثل ذلك الذي كان الكونت دوغريفنفلد، وهو يُدعى الآن جان شوماكير.

فلبث الرّئيسُ لحظةً من الزمن ساكتاً وكأنه منذهل، ثم استأنف قائلاً:

– حسناً إذن! يا أوردينر غولدينليف، لا شكّ أنك قد أُحضرت إلى هنا بمصادفةٍ مؤسفة. ولا بدَّ أن المتمردين قد قبضوا عليك وأنتَ مسافر، وأجبروك على مرافقتهم، وقد أُلقيت نفسك بلا شكّ بين صفوفهم على هذا النّحو.

ونهض أمينُ السِّر على هذا النّحو.

– أيّها القضاة النبلاء، إن اسمَ نائب ملك وحدَه يُعتبر مرافعةً كافيةً لصالحه، فلا يمكن للبارون أوردينر غولدينليف أن يكون متمرّداً. وقد أوضح رئيسُنا الشّهيرُ إيضاحاً تاماً توقيفَه المزعج في صفوفِ المتمرّدين. والخطأُ الوحيدُ لهذا السّجين النّبيلِ هو أنه لم يقلْ اسمَه في وقتٍ أبكر. إننا نطلبُ فوراً أن يُخلى سبيلُه، وأن يُسقَطَ كلُّ اتّهام بحقّه، وأن يُبدى الأسفُ على كونه جالساً على المقعدِ الذي يلوّثُه المجرم شوماكير وشركاؤه، فهتف أوردينر قائلاً:

– وماذا تفعلُ إذن!

فقال الرئيس:

– إن أمينَ السّر الخاصّ يتخلّى عن كلّ ملاحقاتِه لك.

فردّد أوردينر بصوتٍ عالٍ وطنّان:

– إنه على خطأ؛ فينبغي أن أكونَ المتَّهمَ الوحيدَ الذي يُحاكم، والوحيدَ الذي يُدان. وتوقّف لحظةً، ثم أضافَ بلهجةٍ أقلّ صرامة:

– لأني المذنبُ الوحيد.

فهتف الرّئيس:

– المذنب الوحيد!

فسُمع بجلاء انفجارٌ جديدٌ للدهشة في قاعةِ المحكمة، وارتعشت المنكودةُ الحظّ إيتيل؛ فهي لم تكن ترى أن ذلك التّصريحَ، تصريحَ حبيبها، سينقذُ والدها. بل كانت ترى أمام عينيها موتَ فتاها أوردينر.

وقال الرئيسُ مفيداً ربّما من لحظةِ الصَّخَب، لكي يُجمّع أفكاره، ويستعيدَ حضورَ ذهنه:

– يا حَمَلة الأطبار، فليُفرضِ الصَّمت.

واستأنف يقول:

– يا أوردينر غولدينليف، أوضحْ ما تقول.

بقي الشابُّ للحظةٍ من الزّمن حالماً، ثم تنهّد بعناء، وتلفَّظ بهذه الكلمات، بلهجةٍ هادئةٍ وممتثلة:

- أجل، أعلمُ أن موتاً شائناً ينتظرُني، وأعلمُ أن الحياةَ يمكنُ أن تحلو لي وتصبحَ مكلّلةً بالمجدِ، ولكن اللّه يقرأُ في أعماقِ قلبي! اللّه وحده! - سوف أتمّ أوّلَ واجبٍ في وجودي، سوف أضحّي له بدمي، وربّما بشرفي، غير أني أشعرُ أنني سأموتُ من غيرِ ندم، ومن غير حسرة، فلا تُدهشوا من كلماتي، أيّها السّادةُ القضاة؛ ففي النفس، وفي المصائرِ البشرية، أسرارٌ خفيّة لا يمكنكم إدراكها، ولا يُحكم عليها إلّا في السّماء. فأصغوا إليّ إذن، وتصرّفوا نحوي حسب ضمائركم، حين تبرّئون هؤلاء المنكودين، وعلى الخصوص، هذا الذي يستحقُّ الرّثاءَ شوماكير الذي كفَّر، أثناء سجنه، عن جرائمَ أكثر بكثير مما يمكنُ للإنسان أن يرتكبها - أجل، أنا مذنب، أيّها القضاة النبلاء، والمذنبُ الوحيد. إن شوماكير بريء، وهؤلاء التّعساءُ الآخرون ليسوا سوى مضلّلين، أما صانعُ تمرُّد عمالِ المناجم، فهو أنا.

فهتَفَ الرئيسُ، وأمينُ السّر الخاصّ بتعبيرٍ غريب، وفي آنٍ واحد:

- أنت!

- أنا! ولا تقاطعْني ثانية، يا سيّدي، فأنا متعجّلٌ لإنهاء كلامي. لأنني حين أتّهم نفسي، فأنا أبرّئُ هؤلاء المنكودين؛ فأنا من أثارَ عمالَ المناجم باسم شوماكير؛ وأنا من عملَ على توزيعِ الرّايات على المتّمردين، ومن أرسل إليهم، باسمِ سجينِ مونكولم الذّهبَ والأسلحةَ، وكان آكيت عميلي.

وعندما ورد اسم آكيت هذا، قامَ أمينُ السِّرِ الخاصّ بحركةٍ تدلُّ على الذُّهولِ، فتابعَ أوردينر يقول:

- إني أوفِّرُ عليكم الوقتَ، أيّها السّادة؛ فقد قُبِضَ عليّ في صفوفِ عمالِ المناجم والذين كنتُ قد دفعتُهم إلى التّمرد. لقد قمتُ وحدي بكلِّ شيء. فاحكموا الآن؛ فلئن أثبتُّ جريمتي، فقد أثبتُّ أيضاً براءةَ شوماكير، وبراءةَ البؤساء المساكين الذين تظنّون أنهم شركاؤه.

كان الشابُّ يتكلّم على هذا النّحو، وعيناه مرفوعتان إلى السّماء. أما إيتيل التي كانت تقريباً فاقدةً للوعي، فكانت تتنفّسُ بصعوبة. وكان يبدو لها فقط أن أوردينر، من خلال تبرئتِه لساحة والدها، كان يتلفَّظُ باسمها بمرارةٍ شديدة. وكانت أقوالُ الشّابّ تدهشُها وترعبُها من غير أن تتمكّن من فهمها. وفي كلّ ما كان يؤثّر في حواسّها، لم تكن ترى بوضوحٍ إلّا الشقاء.

كان يبدو أن شعوراً من النّوع نفسه يشغلُ ذهنَ الرّئيس. ويتبادرُ إلى الذّهن أنه لا يستطيعُ أن يصدِّق ما كَانت تسمعُه أذناه. ومع ذلك، فقد وجّه كلامَه إلى ابنِ نائبِ الملك، فقال:

- إذا كنت، في الحقيقة، الصّانعَ الوحيدَ، لهذا التمرُّد، فلأيّ هدفٍ أثرتَه؟.

- لا يمكنُني أن أقول ذلك.

فأصابت إيتيل رعدةٌ، عندما سمعت الرئيس يردُّ بصوتٍ ساخطٍ تقريباً:

- ألم يكن بينك وابين ابنةِ شوماكير مغامرةٌ غراميّة؟

ولكن فتاها أوردينر، الذي كان مقيَّداً، كان قد قام بخطوةٍ باتجاه المحكمة، وهتَفَ بلهجةٍ غاضبة:

– أيها المستشارُ دالفيلد، اكتفِ بحياتي التي أسلّمك إياها، واحترمْ فتاةً نبيلةً وبريئة، ولا تحاولْ أن تعرِّضَ بشرفها مرّةً أخرى.

أما إيتيل المسكينة التي كانت تشعرُ بالدّم يصعدُ إلى وجهها، فلم تفهم ماذا كانت تعني تلك الكلمات: «مرّةً أخرى» والتي كان المدافعُ عنها يشدِّد عليها بقوّة. غير أنها اعتماداً على الغضبِ الذي كان يرتسمُ على ملامح الرئيس، كان يمكنُ القولُ إنّها قد فهمتها.

– يا أوردينر غولدينليف، لا تنسَ شخصيّاً الاحترام المتوجّب عليك تجاه عدالة الملك، وضبّاطه الرّفيعي الشأن. وإني أوبّخك باسم المحكمة – أما الآن، فإني أنذرُك مجدَّداً بأن تصرّح لي بالهدفِ الذي ارتكبت الجريمة التي تتهّمُ بها نفسَك من أجله.

– أكرّرُ لك أنني لا أستطيعُ ذلك.

فردّد أمينُ السّرِ الخاصّ قائلاً:

– ألم يكن ذلك من أجل إطلاق سراح شوماكير؟

فلزم أوردينر الصّمت.

وقال الرّئيس:

– لا تكن صامتاً، أيها المتّهم أوردينر؛ فمن المثبتِ أنّك كنت تقيمُ تفاهماتٍ مع شوماكير.

واعترافُك بالذّنب يتّهم سجينَ مونكولم أكثر مما يبرّئُ ساحتَه؛ فغالباً ما كنت تذهبُ إلى مونكولم، ومن المؤكّد أنّك كنت تعلّقُ على تلكَ الزّياراتِ أكثرَ من اهتمامٍ ينمُّ عن فضولٍ عادي. والشّاهدُ هذا القرطُ من الماس.

أخذ الرئيسُ من على المكتب قرطاً من الحبَّات الماسيّة كان موضوعاً عليه، وقال:

– هل تتعرّفُ هذا القرطَ باعتباره كان يخصُّك؟

– أجل – وبأيّةِ مصادفة...؟

– حسناً! إن أَحَدَ المتّمرّدين قد سلّمه، قبل أن يقضي، إلى أمينِ سرّنا الخاصّ، وهو يصرِّحُ بأنّه قد تلقّاه منه كأجر، لأنه قد نقلك من مرفأ درونتهايم إلى قلعة مونكولم. وهكذا، فأنا أسألكم، أيها السَّادةُ القضاة، ألا ينبئ أجرٌ كهذا يُعطى إلى بحّارٍ بسيطٍ بالأهميّة التي كان يعلّقها أوردينر غولدينليف على الوصولِ إلى ذلك السّجن، الذي هو سجن شوماكير؟

فهتفَ المتّهمُ كينيبول:

– إن ما يقولُه صاحبُ اللُّطفِ صحيح؛ فأنا أتعرَّف القرطَ، وتلك هي قصَّةُ أخينا المسكين غولدون ستيير.

فقال الرئيسُ:

– الصّمت، دعوا أوردينر غولدينليف يجيبُ.

فردَّ هذا الأخيرُ بسرعةٍ قائلاً:

– لن أُخفي أنني كنتُ أرغبُ في رؤيةِ شوماكير – غير أن هذا القرطَ لا يعني شيئاً؛ فلا يمكن أن يدخل المرءُ إلى القلعةِ حاملاً حبّاتٍ من الماس . والبحّار الذي قام بنقلي كان يشكو ، أثناء الرّحلة البحرية ، من فاقته ، فرميت إليه بذلك القرط الذي لم يكن بوسعي الاحتفاظُ به معي...

فقاطعه أمينُ السِّر الخاصّ:

– عفواً ، يا صاحبَ اللّطف . إن الأنظمةَ تستثني من هذا التّدبيرِ ابنَ نائبِ الملك ، فكان بوسعي والحالة هذه...

– لم أكن أرغبُ في إعطاءِ اسمي .

فسأل الرّئيسُ:

– ولماذا؟

– هذا ما لا يسعُني أن أقوله .

– إن اتفاقاتك مع شوماكير وابنته تُثبتُ أن هدفَ مؤامراتِك كان إطلاقَ سراحهما .

أما شوماكير الذي لم يكن حتى ذلك الحين قد أعطى إشارةً على اهتمامه إلّا من خلالِ حركاتٍ من كتفه تنمُّ عن الازدراء ، فقد وقف ، وقال:

– إطلاق سراحي! إن هدفَ تلك المؤامرة الجهنّمية قد كان تعريضي للشبّهة ، والقضاء عليّ ، كما هو الهدفُ الآن أيضاً . هل تظنّون أن أوردينر غولدينليف كان يمكنُ أن يعترفَ باشتراكه في الجريمة ، لو لم يكن بين المتمردين .

أوه! أنا أرى أنه قد ورثَ الحقدَ عن والده نحوي. أما عن التفاهُمات التي تفترضونها معي ومع ابنتي. فليعلمْ، هذا المقيتُ غولدينليف بأن ابنتي قد ورثت أيضاً كراهيّتي نحوه، ونحو سلالةِ غولدينليف ودالفيلد.

تنهدَّ أوردينر بعمق، فيما كانت إيتيل تنكرُ بصوتٍ خفيضٍ جدّاً رأيَ والدها؛ وفيما كان هذا الأخيرُ يهوي على مقعده، وهو لا يزالُ يرتعشُ غضباً.

وقال الرّئيسُ:

- إن المحكمةَ سوف تحكمُ.

أما أوردينر الذي كان يخفضُ عينيه بصمتٍ أمام كلماتِ شوماكير، فقد بدا أنه يستيقظُ، فقال:

- أوه! أيّها القضاةُ النّبلاء، اسمعوا، سوف تبحثون في ضمائركم، فلا تنسوا أن أوردينر غولدينليف وحدَه المذنب، وأن شوماكير بريء. أمّا هؤلاء المنكودون الآخرون فقد خَدَعهم آكيت الذي كان عميلي، وقد قمتُ أنا بما تبقّى.

فقاطعه كينيبول:

- إن صاحبَ اللّطفِ يقولُ الحقيقةَ، أيُّها السّادةُ القضاة، لأن صاحبَ اللّطف هو الذي أخذ على عاتقه إحضار هان الإيسلندي إلى هنا. والذي أتمنّى ألّا يحمل اسمهُ السّوءَ لي. وأعلم أن هذا السّيد الشّابَّ هو الذي تجرأ على الذّهابِ ليجده في مغارةِ فالديروغ لكي يعرضَ عليه أن يكون قائدَنا. وقد عهد إليّ بسّرِ مشروعه في ضيعةِ سورب، في منزل شقيقتي براآل. وبالنسبة لما تبقّى،

فإن السّيد الشابّ يقولُ الحقيقةَ؛ فقد خَدَعنا آكيت هذا اللّعين . ومن هنا ينتجُ أننا لا نستحقُّ الموت .

فقال الرئيسُ:

– أيها السّيد أمينُ السِّر الخاصَ . لقد أُغلقت المناقشاتُ؛ فما هي استنتاجاتُك؟

نهض أمينُ السّر ، وحيّا المحكمةَ بضعَ مرات ، ثم مرَّر يده لبعضِ الوقت بين ثنياتِ ياقته ، من غير أن تترك عيناه للحظةٍ من الزّمن عيني الرّئيس . وأخيراً ، تلا الكلماتِ التالية بصوتٍ مكتومٍ وباعثٍ على الغمّ:

– سيّدي الرّئيس ، أيها القُضاة المحترمون! يبقى الاتّهامُ منتصراً؛ فالمتَّهم أوردينر غولدينليف الذي ثَلَم إلى الأبد بهاءَ اسمه المجيد ، لم يُفلح إلّا في أن يُثبت مسؤوليّتَه الجرميّة ، من غير أن يُبرهن على براءَةِ المستشار السّابق شوماكير وشركائه ، هان الإيسلندي وفيلفريد كينيبول وجوناس ونوربيت – وإني أطلبُ من عدالة المحكمة أن يُعلن المتهمون السّتة مذنبين بجريمة الخيانة العظمى ، والقدح بالذّات الملكية من الدَّرجة الأولى .

تعالت من بين الجمهور غمغمةٌ مبهمة ، وكان الرَّئيسُ يهمُّ بأن يعلن الصّيغةَ الختاميّة ، عندما طالَبَ الأسقفُ بلحظةٍ من الانتباه ، فقال:

أيّها القضاة الفقهاء . من المناسب أن يجري الاستماعُ إلى دفاع المتَّهمين في آخرِ الأمر . وأتمنّى أن يكون لديه ناطقٌ باسمه أفضل مما له الآن؛ فأنا عجوزٌ وضعيف . ولم يعدْ لديّ قوّةٌ أخرى غير القوّة التي تأتيني من عند الرَّب – وإني

مندهشٌ من التماسات أمين السِّر الخاص القاسية؛ فلا شيءَ هنا يُثبت جريمةَ موكّلي شوماكير؛ فلا يمكن أن تَثبُت ضدَّه أيّةُ مشاركةٍ مباشرةٍ في تمرُّدِ عمّال المناجم. وبما أن موكّلي الآخر، أوردينر غولدينليف يصرِّحُ بأنّه قد أساءَ استخدامَ اسم شوماكير، وأنّه، إضافةً إلى ذلك، صانعُ تلك الفتنة المدانة الوحيد، فإنه كافّةَ الشُّبهات التي كانت تُحمِّل لشوماكير تتلاشى، ولابدَّ لكم، والحالةُ هذه، أن تبرّئوا ساحته. وإني أتشفَّع لتسامحكم المسيحيّ بالمتهمين الآخرين الذين كانوا مضلَّلين ليس إلّا، شأنَ شاةِ الراعي الصّالح. وحتى بالشابّ أوردينر غولدينليف الذي يتمثّل استحقاقُه، وهو استحقاقٌ كبيرٌ عند الرّبّ على الأقلّ، في أنه قد اعترف بجريمته؛ ففكّروا، أيّها السّادةُ القضاةُ، أنّه لا يزال في تلك السّن التي يمكن للإنسان فيها أن يزلَّ، وحتى أن يسقط، من غير أن يرفض الرّبُّ مساندته، أو إنهاضه من جديد. إن أوردينر غولدينليف يحمل ما لا يكاد يصل إلى ربع ذلك العبء، عبء الوجود الذي ينيخُ بكامله تقريباً على رأسي. فضعوا في ميزانِ أحكامكم شبابَه، وانعدامَ خبرتِه، ولا تسحبوا منه مبكّراً جداً تلك الحياة التي لم يفرغ الرَّبُّ من منحه إياها إلّا منذ قليل.

سكت العجوز، واتّخذ له مكاناً بجانب أوردينر الذي يبتسمُ، فيما أخَذَ القضاةُ ينهضون من على منصّةِ المحكمة، ويعبرون بصمتٍ عتبةَ القاعة المخيفة لمشاوراتهم.

وفيما كان بعضُ الرّجال يقرّرون مصائر ستة أشخاص في ذلك المحرابِ المرعب، كان المتّهمون يجلسون بلا حراك على مقعدهم، بين صفّين من حملةِ الأطبار. أما شوماكير الذي كان رأسُه على صدره، فقد كان يبدو غارقاً في أحلامٍ عميقة، وكان العملاق يجول بنظراته يميناً وشمالاً، وقد ارتسمت عليها

ثقةٌ غبيّة. وكان جوناس وكينيبول يصلّيان بصوتٍ خفيض، فيما كان رفيقهم نوربيت يخبط الأرض بقدمه عى فترات، أو يهزّ قيوده بارتعاشاتٍ عصبية، وكان يجلسُ بينه وبين الأسقف الموقّر الذي كان يتلو مزاميرَ التّوبة، كان يجلسُ أوردينر، مكتوفَ اليدين، وعيناه مرفوعتان إلى السّماء.

كان يُسمع وراءَهم ضجيجُ الجمهور الذي انفجرَ بصورةٍ عنيفةٍ عند خروج القضاة. لقد كان سجينُ مونكولم الشهير، لقد كان شيطان إيسلندا الرهيب، وكان خصوصاً ابن نائب ملك النرويج هم الذين يشغلون الأذهانَ، وكلَّ الأحاديث، وكلَّ النظرات. أمّا الضّجة التي تختلطُ بالعويل والضحكات والصّرخات المبهمة التي كانت تنبعثُ من قاعةِ المحكمة، فقد كانت تنخفض وتتعالى مثل شعلةٍ تتماوج تحت الرّيح.

وهكذا انقضت بضعُ ساعاتٍ من الانتظار، وكانت ساعاتٍ طويلةً إلى الحدّ الذي أدهَشَ كلَّ واحدٍ أن تكونَ ليلةٌ قد احتوتها. ومن وقتٍ آخر، كان المرءُ يُلقي نظرةً باتّجاه الباب، بابِ غرفةِ المشاورات، غير أنّه لم يكن يرى شيئاً فيه غير الجنديّين اللّذين كانا يتجوّلان حاملين حربتيهما اللّامعتين، أمام العتبة المشؤومة، وكأنّهما شبحان صامتان.

وأخيراً، فإنَّ المشاعلَ والمصابيحَ قد بدأت تبهتُ، وأخذت تخترقُ الزّخارفَ الزُّجاجيةَ الضّيقةَ في القاعة، خيوطُ الفجرِ البيضاء، حين انفتح البابُ الرّهيبُ، فحلَّ صمتٌ عميقٌ في الحال، وكأنّما بفعلِ السّحر، محلَّ الضجّةِ التي يُحدثُها الشعبُ كلّها، ولم يعدْ يُسمعُ سوى صوتِ التّنفّسِ المتسارعِ، والحركةِ المبهمةِ المكتومة، حركةِ الجمهور المترقبّة.

أما القضاةُ الذين خرجوا بخطىً وئيدة من غرفةِ المشاورات ، فقد أخذوا أماكنَهم مجدّداً في المحكمة ، والرَّئيسُ في المقدّمة .

انحنى أمينُ السِّر الخاصّ الذي كان قد بدا غارقاً في أفكاره أثناءَ غيابهم ، وقال:

– سيّدي الرئيس ، ماهو القرارُ الذي قرَّرته المحكمةُ التي حكمت بشكلٍ قطعيّ ، باسمِ الملك؟

إننا مستعدّون لسماعه باحترامٍ ورع .

أمـا القاضي ، الجالسُ عن يمـينِ الرَّئيس ، فقد نَهضَ ، وهو يمسكُ رقّاً في يديه ، وقال:

– إن صاحـبَ الفضـل ، رئيسَنـا المجيـد ، الذي تعبَ مـن طولِ هذه الجلسة ، يتكـرَّمُ بأن يكلِّفنا ، نحن المأمورَ الأعلـى لدرونتهايموس ، والرّئيسَ الطبيعـيّ لهذه المحكمة الموقّرة ، بأن نقرأ القرارَ الذي حكمت به باسم الملك ، ولسـوف نؤدي هذا الواجـب المشرف والشاق ، مذكّريـن الحاضرين بالتزامِ الصّمتِ أمامَ عدالةِ المعصومةِ عن الخطأ .

حينـذاك طـرأ عـى صـوتِ المأمـور الأعلـى تغـيّرٌ تفخيمـيّ في نبرتـه ورزين ، وأخذت كلُّ القلوبِ تختلجُ .

– «باسم سيّدنا المبجّل والشّرعي ، السّيد كريستييرن ، الملك! – هذا هو القرارُ الذي نتّخذه ، نحن قضاة محكمة درونتهايموس العليا ، في ضمائرنا ، والذي يتّصلُ بجان شوماكير ، سجينِ الدّولة ، وفيلفريد كينيبول ، القاطنُ في

جبال كول، وجوناس، عامل المناجم الملكي، وهان الذي من كليبستادور في إيسلندا، وأوردينر غولدينليف، بارون دوتورفيك، وفارس دانبروغ؛ وجميعهم متّهمون بجرائم الخيانة العظمى، والقدح بالذّاتِ الملكيّة من الدّرجة الأولى، وهان الإيسلنديّ المشتبهِ به فوق ذلك بالقيام بجرائم قتلٍ، وحرقٍ، وقطعِ طرق.

١ً- جان شوماكير ليس مذنباً.

٢ً- فيلفريد كينيبول، وجوناس، ونوربيت مذنبون، غير أنّ المحكمةَ تعذُرهم، لأنّه قد غُرِّر بهم.

٣ً- هان الإيسلنديّ مذنبٌ بكلّ التّهمِ المنسوبةِ إليه.

٤ً- أوردينر غولدينليف مذنبٌ بالخيانةِ العظمى، وبالقدحِ في الذّاتِ الملكيّة، من الدْرجةِ الأولى».

توقّف القاضي للحظةٍ، وكأنما ليستردَّ أنفاسَه، وكان أوردينر يثّبتُ عليه نظرةً مفعمةً بالفرحِ السّماوي.

وتابع القاضي:

«أما أنت، يا جان شوماكير؛ فإن المحكمةَ تبرّئُ ساحَتك، وتُرجعك إلى سجنك».

«يا كينيبول، وجوناس! إن المحكمةَ تخفضُ الحكمَ الذي استحققتماه إلى السّجن المؤبّد، وإلى غرامةٍ قدرُها ألفُ ريالٍ ملكّي لكلّ منكما».

«يا هان الذي من كليبستادور، القاتلُ ومشعلُ الحرائق، سوف تُساق هذا المساء إلى ساحة أسلحةِ مونكولم، وتشنقُ من عنقك حتى الموت.

«يا أوردينر غولدينليف، الخائنُ، بعد أن تُجرَّدَ من كلِّ ألقابك أمام هذه المحكمة، سوف تُساق هذا المساء إلى المكانِ نفسه، مع مشعلٍ محمولٍ باليد، لكي يُقطَعَ رأسُك، ويحرقَ جسدُك، ولكي تُرمى رفاتُك في الرّيح، ويُعرض رأسُك على السّياج.

«اخرجوا جميعاً، فهذا هو الحكمُ الصّادرُ عن عدالةِ الملك».

وما إن أنهى المأمور الأعلى تلك التّلاوةَ المحزنةَ حتى سُمعت صرخةٌ في القاعة. وقد جمّدت هذه الصّرخةُ الحاضرين أكثر مما جمّدهم الجهازُ الرَّهيبُ، جهازُ الحكم بالموت. وقد جعلت هذه الصّرخة الجبينَ الرائقَ والمتألّق، جبينَ أوردينر المحكوم بالإعدام[1] يشحبُ للحظةٍ من الزّمن.

(١) إنه، إلى حدٍ ما، «الإنسان العبقريّ في مجده» والذي تتحدثُ عنه ملاحظةٌ في كرّاس العام ١٨٢١ بتاريخ ٨ تموز (الطبعة المذكورة سابقاً، الصفحة: ١١٨٤).

الفصل الرّابع والأربعون

أبداً. إن موتاً عاجلاً سوف يحرّرُني
من قيودي، وقد يكونُ بوسعِ الموتِ
البطيء وحده أن يضعَ حدّاً لألمه ...
إن العشّاقَ يعرفون كيف يضحّون بكلّ
شيء، ما عدا الحنان، إنّهم يستغنون عن
كلّ شيء، باستثناء الحبّ. إني كلُّ شيء
بالنسبة لزوجتي، وهي بالنسبة إليّ
أكثرُ من الحياة.... فلعلّي أتخلّى عنها
لكي أسترجع شيئاً بائساً ليس له ثمن
من دونها! آه، يا كورا...!
لا يمكن أن أنتقلَ من بين ذراعيك

إلّا إلى القبر – هيّا، هيّا، يا سيّدتي؛
إن لم تكن هناك وسيلةٌ أخرى لإنقاذي
فأنا أشكرك.

كوتزيبو. «الإسبان في البيرو»[1]

انتهى الأمر إذن: وكلُّ شيء سيتمُّ إنجازُه. أو قد أُنجِزَ على الأصّح. لقد أنقَذَ والدَ تلك التي كان يحبُّها؛ وقد أنقذها شخصيًّا حين حافظ لها على السّند الأبويّ. لقد نجحت المؤامرةُ النبيلة، مؤامرةُ الشّابّ من أجل حياة شوماكير. أما الآن، فما تبقّى ليس شيئاً يُذكَر، لم يبقَ له إلّا أن يموت.

ليحكمْ عليه الآن أولئك الذين ظنّوا أنّه مذنبٌ أو أحمق، ليحكموا على هذا الشّهم أوردينر، مثلما يحكمُ على نفسه بنفسه في أعماقِ روحه، بنوعٍ من النّشوة الطّاهرة. لأنه حين دخل إلى صفوفِ المتمرّدين، كان يفكّر دائماً بأنه إذا لم يتمكّن من أن يمنعَ تنفيذَ جريمةِ شوماكير؛ فقد يمكنُه على الأقلّ أن يمنعَ القصاصَ عليها. وذلك بأن يُنزِلَه على رأسه، وكان يقول في نفسه:

– وا أسفاه! لا شكَّ أن شوماكير مذنبٌ، غير أنَّ طبعه قد خشنَ بسبب الأسر والشقاء، فأصبحت جريمتُه قابلةً للغفران. وهو لا يريدُ إلّا أن يُطلق سراحُه، وهو يحاولُ ذلك، حتى عن طريق التمرّد – ومن ناحيةٍ أخرى؛ فماذا ستكونُ حالُ إيتيل، إذا انتُزِعَ منها والدُها؛ وإذا ما فقدته على منصّةِ الإعدام،

---

(١) اقتباس استُبدل به عام ١٨٣٣ استشهادٌ بنوديه هو: إن الشقاء هو الذي كان يجعلُهم متعادلين».

و إذا ما أتى خزيٌ جديدٌ ليدنّس حياتها. ماذا ستكونُ حالُها من غيرِ سندٍ ومن غير نجدةٍ، وحدها في زنزانة؟ أو تائهةً في عالمٍ من الأعداء؟ كانت هذه الفكرةُ قد جعلته عازماً على القيامِ بتضحيته؛ وكان مهيئاً لها بفرح، لأن أكبرَ سعادةٍ لدى كائنٍ يحبُّ هي أن يضحّي بوجوده، لا أقولُ للوجود، بل مقابلَ ابتسامةٍ، أو في سبيلِ دمعةٍ من الكائنِ المحبوب.

لقد قُبض عليه إذن بين المتمرّدين، وسيقَ أمام القضاة الذين كان يتعيَّنُ عليهم أن يحكموا على شوماكير، وقد ارتكب كذبتَه النّبيلة، وأُدين، ولسوف يموتُ ميتةً قاسية، ويعاني من عقابٍ شائن، ولسوف يترك ذكرى ملوَّثةً. ولكن، ماذا يهمُّ الشّابَّ النبيل؟ لقد أنقَذَ والِدَ فتاته إيتيل.

إنه الآن جالسٌ على الأصفادِ في زنزانةٍ رطبةٍ لا يلجُ النّورُ والهواءُ إليها إلّا بصعوبة، من خلالِ منافذَ معتمة، وقريباً منه غذاء لما تبقّى له من وجوده، خبزٌ أسود، وجرّة ملأى بالماء.

إن طوقاً حديديّاً يُثقلُ عنقَه، وتضغطُ على يديه وقدميه أساورُ وأغلالٌ حديدية، وكلّ ساعةٍ تنقضي تحملُ له من الحياةِ أكثر مما تنتزعُه من الفانين الآخرين – إنه يحلمُ أحلاماً لذيذةً. – إنّ ذكراي ربّما لا تتلاشى معي، على الأقلّ، في أحد تلك القلوب التي تخفقُ بين بني البشر؟ ولربّما تتنازلُ لتذرفَ عليّ دمعةً مقابل دمي؟ ولربّما تكرّس في بعضِ الأحيان حسرةً على ذلك الذي كرّسَ حياتَه لأجلها. ولربّما تُحضِرُ أحياناً، في أحلامِ يقظتها العذريّة، صورةَ صديقها الغامضة؟ ومن ناحيةٍ أخرى، فمن يدري ماذا وراء الموت؟ من يدري

إن كانت الأرواحُ المتحرّرةُ من سجنها المادّي لا تستطيعُ أحياناً أن ترجعَ لتسهر على الأرواح التي تحبُّها، فتعاشرُ بصورةٍ خفيّة تلك الرفيقات الرقيقات اللّواتي لا يزلن أسيرات، وتحمل إليهنّ سرّاً فضيلةً من فضائلِ الملائكة، وشيئاً من فرح السّماء...؟

وكانت أحياناً أفكارٌ مريرة تختلطُ بهذه التأمّلات المواسية. إن الكراهيةَ التي كان قد أبداها شوماكير تجاهه في اللّحظة ذاتها التي ضحّى فيها، كانت تضيّق على صدره. إن الصّرخةَ الممزّقة التي سمعها في الوقت ذاته الذي صدر فيه الحكمُ عليه بالموت، قد هزّته هزّاً عميقاً. لأنه كان الوحيدَ في قاعةِ المحكمة الذي تعرَّف ذلك الصَّوتَ، وأدرك ألمه. وبعد ذلك، ألن يرى إذن فتاته إيتيل؟ هل يمضي لحظاتِه الأخيرة في السّجن ذاته الذي يحتويها من غير أن يتمكّن مرّةً أخرى أن يلمسَ اليدَ الرقيقةَ، ويسمعَ الصّوتَ العذبَ لتلك التي سيموتُ من أجلها؟

وهكذا، فقد كان يسلمُ روحَه لتلك الموجةِ من أحلام اليقظة الحزينة، والتي هي للفكّر مثلما هو النّوم بالنسبة للحياة، حين صَدَم أذنَه بقسوةٍ الصّريرُ المبحوحُ لأقفالٍ قديمةٍ صدئة. وكانت أذنُه إذا صحَّ القول، مصغيةً إلى تناغماتِ الفلك الآخر الذي كان يتهيّأ للطّيران إليه. كان البابُ الثّقيلُ الحديديّ لزنزانته هو الذي ينفتحُ ويصرُّ على مفصّلاته. نهض المحكومُ الشابّ هادئاً وفرحاً تقريباً، لأنه ظنَّ أنه الجلّادُ الذي يأتي لأخذه؛ وكان قد تجرَّد من الوجود كما يتجرَّدُ من المعطف الذي كان يدوسُه بقدميه.

لقد أخطأ في توقّعه؛ فقد كان يظهرُ على عتبةِ زنزانته شكلٌ أبيض ورشيق،

شبيهٌ برؤيةٍ ساطعة؛ فشكّ أوردينر بعينيه، وتساءل فيما إذا لم يكن قد أصبح في السّماء. لقد كانت هي، كانت فتاتَه إيتيل.

كانت الفتاةُ قد ارتمت بين ذراعيه المصفّدتين؛ فأخذت تغطّي يديّ أوردينر بالدّموع التي كانت تمسحُها الضّفائرُ الطّويلةُ السّوداءُ لشعرِها المبعثر، وهي تلثمُ أصفادَ المحكوم، كانت ترضّ شفتيها الطّاهرتين بالأغلالِ المخزية. لم تكن تتكلّم، غير أن قلبَها كلّه كان يبدو مهيئاً لكي يُفلتَ من صدرها عند الكلمات الأولى التي قد تنطلق من خلال شهقاتها.

أما هو، فقد كان يحسُّ بأكثر فرحٍ أحسَّ به منذ ولادته سماويةً. وأخذ يضمَّ إيتيل إلى صدره برقّةٍ، ولم يكن بإمكانِ قوى الأرضِ والجحيم مجتمعةً أن تفكَّ في تلك اللحظةِ الذراعين اللتين تحيطانها. كان شعورُه بموته القريب يمزج بهجته بشيءٍ احتفاليّ، وكان يستحوذُ على حبيبته، وكأنه قد امتلكها إلى الأبد.

لم يسأل فتاتَه إيتيل كيف تمكّنت من الوصولِ إليه. فقد كانت موجودةً هناك، فهل كان يمكنه أن يفكّر بشيءٍ آخر؟ وفضلاً عن ذلك، فهو لم يكن مندهشاً لهذا. لم يكن يتساءلُ كيف استطاعت هذه الفتاةُ الشّابّة، الضّعيفةُ والمعزولةُ، برغمِ الأبوابِ الثلاثيّةِ الحديدية، وصفوفِ الجنودِ الثّلاثية، أن تفتح بابَ سجنها، وسجن حبيبها؛ فقد كان ذلك يبدو له بسيطاً، لأنّه كان يحملُ في ذاته إدراكاً ضمنياً لما يمكن أن يصنَعه الحبُّ.

ماذا يفيدُ الحديثُ بالصّوت حينما يمكنُ للنّاس أن يتكلّموا بروحهم؟

لماذا لا نتركُ الأجسامَ تصغي بصمتٍ إلى لغةِ العقولِ الخفيّة. لقد كان كلاهما ساكتين، لأن هناك انفعالاتٍ لا مجالَ للتعبيرِ عنها إلّا من خلالِ الصّمت.

ومع ذلك، فقد رفعت الفتاةُ أخيراً رأسَها الذي يستندُ إلى القلبِ الصّاخب، قلبِ الشابّ، وقالت:

– يا أوردينر، لقد أتيتُ لأُنقذَك.

وقد تلفّظت بكلماتِ الرّجاء هذه بقلقٍ أليم.

فهزّ أوردينر رأسَه، وهو يبتسمُ، وقال:

– إنقاذي، يا إيتيل! إنّك مخطئة، فالهروبُ غير ممكن.

– واأسفاه! إني أعلمُ ذلك أكثر مما ينبغي، فهذا القصرُ يعجُّ بالجنود، وكلُّ بابٍ من الأبواب التي ينبغي اجتيازُها للوصولِ إلى هنا محروسٌ برماةِ السّهام والسّجانين الذين لا ينامون.

وأضافت بمشقّة:

– غير أنني أحمل إليك وسيلةً أخرى للخلاص.

– هيا، إن رجاءَك غيرُ مجد. فلا تعلّلي نفسك بالأوهام، يا إيتيل؛ فبعد بضعِ ساعاتٍ سوف تبدّدُها ضربةُ بلطةٍ بصورةٍ بالغة القسوة...

– أوه! لا تكملْ، يا أوردينر، إنك لن تموت. أوه! تخلّصْ لأجلي من هذه الفكرة الفظيعة، أو بدلاً من ذلك، أجل، قدّمها إليّ بكلّ فظاعتها، لكي تعطيني القوةَ لإكمالِ خلاصك وتضحيتي.

كان في لهجةِ الفتاة تعبيرٌ لا يمكنُ وصفُه، فنظر إليها أوردينر برقّة، وقال:

- تضحيتُك! ماذا تريدين أن تقولي؟

أخفت وجهها بيديها، وانتحبت، وهي تقولُ بصوتٍ مجمجم:

- يا إلهي!

دام ذلك الوهنُ فترةً وجيزةً؛ فنهضت من جديد، وكانت عيناها تلتمعان، وثغرُها يبتسم، كانت جميلةً مثل ملاك يصعدُ من الجحيمِ إلى السّماء.

- اسمع، يا حبيبي أوردينر، إن منصّة إعدامك تُنصَبُ. ولكي تعيشَ يكفي أن تَعِد بأن تتزوّج أولريك دالفيلد...

- أولريك دالفيلد. هذا الاسم ينطقُ به فمُك، يا حبيبتي إيتيل!

فتابعت بهدوءِ شهيدةٍ تحتملُ آخرَ عذابٍ لها:

- لا تقاطعْني؛ لقد أتيت إلى هنا مبعوثةً من الكونتيسّة دالفيلد، وهم يعدونك بالحصول على عفوٍ من الملك. إذا حصلوا، مقابل ذلك، على يدكَ لابنة المستشار الأكبر. لقد أتيتُ إلى هنا لأطلبَ قَسَماً بالزّواج بأولريك، وبأنَ تعيشَ لأجلها. وقد اختاروني رسولةً لذلك، لأنهم ظنّوا أن صوتي قد يكون له تأثيرٌ عليك.

فقال المحكومُ بصوتٍ جليديّ:

- وداعاً يا إيتيل. حين تخرجين من الزّنزانة، قولي لهم أن يأتوا بالجلّاد.

نهضت، ومكثت للحظةٍ من الزّمن واقفةً أمامه، شاحبةَ الوجه، ومرتجفة، ثم انثنت ركبتاها، وهوت على الحجر على ركبتيها، وهي تضمُّ يديها، وقالت بصوتٍ خامد:

- ماذا صنعتُ له؟

أما أوردينر فقد كان صامتاً، ويحدّقُ بالحجر، فقالت:

- يا سيّدي.

وهي تجرُّ نفسها على ركبتيها وصولاً إليه:

- أنت لا تجيبُني؟ أنت لم تعدْ تريد إذن أن تكلّمني بعد الآن...؟ لم يبقَ لي إلّا أن أموت.

تدحرجت دمعةٌ في عينيّ الشّاب.

- يا إيتيل، ألم تعودي تحبينّني؟

فهتفت الفتاةُ المسكينة، وهي تضمُّ بين ذراعيها ركبة السّجين:

- لم أعدْ أحبّه! أنت تقولُ لي إني لم أعد أحبّك. هل صحيح حقاً أنّك قد استطعت أن تقول ذلك؟

- لم تعودي تحبينني، لأنك تزدرينني.

ندم في اللحظة ذاتها لأنّه قد تلفّظ بتلك الكلماتِ القاسية، ولأنَّ لهجةَ إيتيل كانت ممزّقة حين ألقت بذراعيها المعبودتين حول عنقه، وهي تصرخُ بصوتٍ تخنقه الدّموع:

- سامحني، يا حبيبي أوردينر، سامحني مثلما أسامِحُك. أنا أحتقرُك! يا إلهي العظيم! ألستَ ثروتي، وكبريائي وعبادتي؟ - قلْ لي، هل كان هناك في أقوالي شيء آخر سوى حبّي العميق، وإعجابي المضطرم بك؟ وا أسفاه! لقد آلمني حقاً كلامُك القاسي. وحين كنتُ آتيةً لكي أنقذك، يا حبيبي أوردينر المعبود، ولكي أضحّي بكلّ كياني في سبيل كيانك.

فأجابَ الشّابُّ الذي أصبح أكثر رقةً، وهو يمسحُ دموعَ إيتيل بقبلاته:

- حسناً، ألم يكن عرضُك بأن أفتدي حياتي بالتخلّي عن فتاتي إيتيل بنسيان نذلٍ لعهودي، وبالتضّحية بحبّي، ألم يكن ذلك يعني أنك تُبدين نحوي قدراً أقلّ من التقدير.

وأضاف، وعينُه مثبّتةٌ على إيتيل:

- التضحية بحبّي الذي أسكبُ اليومَ لأجله كلَّ دمي.

وسبق ردُّ إيتيل تأوّهٌ عميق:

- اسمعني أيضاً، يا حبيبي أوردينر، لا تتّهمني بمثلِ هذه السّرعة. فربّما يكون لديّ من القوّة ما لا يتوفّرُ لامرأة مسكينة - فمن أعالي برجنا، نرى أنهم ينصبون في ساحةِ الأسلحة المنصّةَ المخصّصة لَك. يا أوردينر، أنتَ لا تعرفُ ذلك الألم المريع الذي تحدثه رؤيةُ التحضير البطيء لموت ذلك الذي يحملُ حياتنا معه. إن الكونتيسّة دالفيلد التي كنت بجانبها حين سمعت التلفّظ بالحكم المحزنِ عليك، قد أتت لرؤيتي في البرج الذي رجعت إليه مع والدي. وسألتني إن كنتُ أريدُ إنقاذَك، وعرضت عليّ تلك الوسيلةَ البغيضة، يا حبيبي أوردينر؛ فقد كان لا بدَّ من القضاء على مصيري المسكين، وأن أتخلّى عنك، وأن

أخسرك إلى الأبد، وأن أعطي امرأةً أخرى أوردينر هذا، الذي هو بهجةُ إيتيل المتروكة، وأن أسلمك إلى العقاب. لقد كانوا يتركون لي الخيار بين شقائي وموتِك، فلم أتردَّد.

فقبَّل باحترامٍ يدَ ذلك الملاك.

– وأنا لن أتردّد أيضاً، يا إيتيل. لم يكن لك أن تأتي لتعرضي عليَّ الحياة، بالإضافةِ إلى يدِ أولريك دالفيلد. لو كنت تعلمين كيف تجري الأمورُ بحيث أموت.

– ماذا؟ وأيُّ سرٍّ خفيّ...؟

– اسمحي لي أن يكون لي سرٌّ لا تعرفينه، يا حبيبتي إيتيل، أريد أن أموتَ من غير أن تعلمي إن كنت تدينين لي بعرفان الجميل، أم بالكراهية لموتي.

– تريدُ أن تموت! تريدُ إذن أن تموت! يا أللّه! وهذا حقيقيّ! والمنصّة تُنصَبُ في هذه اللّحظة. وما من قدرةٍ بشرية يمكن أن تخلّص حبيبي أوردينر الذي سيقتلونه! قلْ لي، انظر نظرةً إلى عبدتك، إلى رفيقتك. وعدْني، يا حبيبي أوردينر، بأن تصغي إليّ بلا غضب. هل أنت متأكّدٌ حقاً. أجب فتاتَك إيتيل، كما تجيبُ الرَّب، أنك لا تستطيع أن تحيا حياة سعيدة بقرب تلك المرأة، أولريك دالفيلد...؟ هل أنت متأكّدٌ من ذلك، يا أوردينر؟ لا شكّ أنها قد تكون جميلةً، حتى ورقيقةً وفاضلة. وهي أفضلُ من تلك التي تقضي من أجلها – لا تُشحِ بوجهك، يا صديقي العزيز، يا حبيبي أوردينر. إنك أنبلُ وأكثرُ شباباً من أن تصعد إلى منصّةِ الإعدام! حسناً! فقد تذهبُ لتعيشَ معها في مدينةٍ متلألئة بحيث

لا تفكّر من بعد بذلك البرج المشؤوم. وتدع أيامنا تنقضي بهدوء من دون أن تستعلم عنّي. إني موافقةٌ على هذا؛ فلسوف تطرُدني من قلبك، وحتى من ذكرياتي، يا أوردينر. ولكن عشْ، ودعني أعيشُ هنا وحدي، فأنا التي ينبغي أن تموت، وصدّقني، عندما أعرفُ أنك بين ذراعي امرأةٍ أخرى، فلن تكون بحاجةٍ لأن تقلقَ عليّ؛ فلن أتألّم لفترةٍ طويلة.

توقّفت عن الكلام، وأخذ صوتُها يضيعُ بين الدّموع. ومع ذلك، فقد كان يقرأ في نظرتها المحزونة رغبةً مؤلمة في أن تحرزَ النّصرَ القاتل الذي يتعيّن عليها أن تموتَ بسببه.

قال لها أوردينر: – يا إيتيل، لا تكلّميني مجدّداً عن هذا، ولا يخرجن من فيهنا في هذه اللحظة أسماءٌ أخرى غير اسمك واسمي. فكرّرت قائلة:

– هكذا، وا أسفاه! وا أسفاه! تريد أن تموتَ إذن؟

– لا بدَّ من ذلك. سأمضي فرحاً إلى المنصّة من أجلك، ومع أيّة امرأة أخرى، أمضي إلى الهيكل برعب، فلا تكلميني عن هذا الأمر مجدَّداً، فأنتَ تُحزينني وتُهينينني.

كانت تبكي وهي تردّد دوماً: – سوف يموت، يا إلهي! وميتةً شائنة!

فردَّ المحكوم عليها مبتسماً:

– صدّقيني، يا إيتيل، أنّ في موتي خزياً أقّل مما في الحياة التي تعرضينها عليّ.

في تلك اللحظة، لمحت نظرتُه التي انزاحت عن فتاته المحزونة إيتيل،

عجوزاً يرتدي ملابسَ كهنوتية، ويقفُ في الظّل تحت قبّة الباب المنخفضة، فقال له فجأة:

– ماذا تريدُ؟

– يا سيّدي، لقد أتيتُ مع مبعوثةِ الكونتيسّة دالفيلد، وأنت لم تلمحْني، وكنت أنتظر بصمتٍ أن تقع عيناك عليّ.

لم يكن أوردينر، في الحقيقة، قد رأى غير فتاته إيتيل، وحين رأت هذه الأخيرة أوردينر، نسيت مرافقها.

وتابع العجوز:

– أنا الوزيرُ المكلّف...

فقال الشّاب:

– أدرك ذلك، إني مستّعد.

فتقدّم الوزيرُ نحوه، وقال:

– إن الرّبَّ مستعدٌ أيضاً لاستقبالك، يا بنيّ.

وتابع أوردينر قائلاً:

– أيها السّيد الوزير، إن وجهك ليس مجهولاً لديَّ، فقد رأيتُك في مكانٍ ما.

فانحنى الوزير، وقال:

– وأنا أتعرّفُك أيضاً ، يا بنيّ؛ فقد كان ذلك في برجِ فيغلا . ولقد بيَّنا كلانا في ذلك اليوم كم تفتقرُ كلماتُ البشرِ إلى اليقين ، وقد وعدتني بالعفو عن اثني عشر محكوماً منكوداً ، وأنا لم أصدّق البتّة وعدَك؛ لأني لم أستطع أن أخمّن أنّك كنت ما أنت عليه ، ابن نائب الملك . وأنت ، يا سّيدي ، من كنت تعتمدُ على قدرتك ، وعلى منزلتك ، حين قدمت إليّ ذلك بالتأكيد...

فأكملِ أوردينر الفكرةَ التي لم يجرؤْ أتاناز موندر على إكمالها:

– لا يمكننُي اليوم أن أحصلَ على أيٍّ عفو ، وحتى على عفوي الخاص؛ فأنت على حقّ ، يا سيّدي الوزير . لقد كنتُ قليلاً ما أراعي المستقبل ، وإلى حدّ مفرط ، وقد عاقبني على ذلك ، بأن أظهر لي قدرَته التي تفوقُ قدرتي .

فخفض الوزيرُ رأسه وقال:

– إن الرّبّ قويّ!

ثم رفع عينيه الرّفيقتين نحو أوردينر وهو يضيف:

– إن الرّبَّ عطوف .

أما أوردينر الذي كان يبدو منشغلاً ، فقد هتف بعد صمتٍ قصير:

– اسمع ، أيها السّيد الوزير . أريد أن أفي بالوعد الذي قطعتُه لك في برج فيغلا . فحين أموتُ ، امضِ للقاء والدي في برغن ، وهو نائبُ ملكِ النّرويج . وقلْ له إن آخرَ فضلٍ يطلبُه ابنُه منه هو فضلُ إطلاقِ سراحِ محميّيك الإثني عشر ، ولسوف يمنحك ذلك ، أنا متأكد من هذا .

فبلّلت دمعةٌ مفعمةٌ بالحنان وجهَ أتاتاز الجليل، وقال:

- لابدَّ أن تكون روحُك ملأى بأفكارٍ نبيلةٍ لكي تُحسِن في السّاعة نفسها أن ترفض بشجاعة العفوَ الخاصّ بك، ولتلتمسْ بطيبةِ قلبِ العفوَ عن الآخرين، لأني سمعتُ رفضك، ومع أني ألوم الإفراط الخطير للهوى البشريّ، فقد تأثّرتُ به تأثُّراً عميقاً. أما الآن، فأنا أقول في نفسي:

- ما مصدرُ هذه الجريمة[1]؟ وكيف يتّفقُ أن يتلطَّخَ رجلٌ قريبٌ جدّاً من الإنصاف الحقّ بجريمةٍ يُحكَمُ عليه بها؟

- يا أبتِ، لم أقلْ ذلك لهذا الملاك، ولا يمكنني أن أقولَه لك. وثقْ فقط بأن السَّبب في الحكم عليّ ليس جريمةً معيّنة.

- كيف، أفصحْ، يا بنيّ.

فأجاب الشابُّ بحزم:

- لا تضغطْ عليّ، ودعني أحمل إلى القبر سرَّ موتي.

فغمغم الوزير:

- لا يمكن لهذا الشابّ أن يكونَ مذنباً.

حينئذٍ، أخرج من صدره صليباً أسود، ووضعه على نوعٍ من مذبحٍ مصنوعٍ بشكل غير متقن من بلاطةٍ صوّانية تستند إلى جدار السّجن. ووضع

(١) باللّاتينية في النّص (م: ز.ع).

بقرب هذا الصّليب مصباحاً صغيراً مشتعلاً من الحديد، وكان قد جلبه معه، وكتاباً مقدّساً مفتوحاً.

- يا بنيّ، صلّ وتأمّلْ؛ فسوف أعودُ بعدَ بضعِ ساعات.

ثم أضاف وهو يستديرُ نحو إيتيل التي كانت أثناء كلِّ الحديث بين أتاتاز وأوردينر قد لزمت الصّمت، صمتَ التأمّل:

- هيّا، ينبغي أن نترك السّجين؛ فالوقتُ ينقضي...

نهضت مشرقةً وهادئة، وكان هناك شيء إلهيّ يجعل نظرتَها متّقدة، فقالت:

- أيها السّيدُ الوزير، لم يعدْ بإمكاني أن أتبعك؛ فلا بدَّ أن تكون قد جمعت بين إيتيل شوماكير وزوجها أوردينر غولدينليف قبل ذلك.

ونظرت إلى أوردينر، وقالت:

- لو كنت لا زلت مقتدراً وطليقاً، ومكلّلاً بالمجد، يا حبيبي أوردينر لبكيت، وأبعدتُ مصيري المشؤومَ عن مصيرك - أما الآن، فبما أنّك لم تعدْ تخش عدوى شقائي، وبما أنّك، مثلي، أسيرٌ، وذاوٍ، ومضطهد، في هذا الوقت الذي ستموتُ فيه، فإني آتي إليك، آملةً أن تتنازل على الأقلّ، يا أوردينر، يا سيّدي، بأن تسمحَ لتلك التي لم يكن بوسعها أن تكون رفيقةَ حياتك، أن تكون رفيقةَ موتك. أفليس صحيحاً أنك تحبّني بما يكفي لكي لا تشكّ لحظةً واحدة بأنني لن أقضي معك في الوقت نفسه؟

فارتمى المحكوم على قدميها، وقبّل طَرَفَ ثوبها.

فتابعت:

– أما أنت، أيّها العجوز، فسوف تقومُ لنا مقامَ أسرتينا ووالدينا، وسوف تكون هذه الزنزانةُ هيكلنا، وهذا الحجر مذبحنا. هذا هو خاتمي، وها نحن راكعان أمام الرّب وأمامك؛ فباركنا واقرأ الكلماتِ المقدّسة التي ستجمعُ بين إيتيل شوماكير، وبين أوردينر غولدينليف، سيّدها.

كانا قد ركعا معاً أمام الكاهن الذي كان يتأمّلهما بدهشة ممزوجةٍ بالرأفة:

– وكيف يا ابناي! ماذا تفعلان؟

فقالت الفتاة:

– يا أبتِ، إن الوقتَ يضيقُ، والرّبُّ والموتُ ينتظراننا.

يصادفُ المرء في الحياة أحياناً قوىً لا يمكن مقاومتُها، وإراداتٍ يستسلمُ لها فجأةً وكأنّها تمتلكُ شيئاً يفوقُ الإراداتِ البشرية. فرفع الكاهنُ عينيه متنهّداً، وقال:

– ليسامحْني السّيد، إذا كان تنازلي مذنباً! إنكما متحابّان، ولم يعدْ لديكما إلّا وقتٌ قصيرٌ جدّاً ليحبّ كلّ منكما الآخر على الأرض. فأنا لا أظنّ أنني أُخِلّ بواجباتنا المقدّسة إذا جعلت حبّكما مشروعاً.

تمَّ الاحتفالُ الرّقيقُ والمخيف؛ فنهضا كلاهما من تحت مباركةِ الكاهنِ الأخيرة: لقد أصبحا زوجين.

كان وجهُ المحكوم يشعُّ بفرحٍ أليم؛ فيتصوّرُ أنّه قد بدأ يشعرُ بمرارةِ الموت؛ في تلك اللحظة التي يجرّب فيها غبطةَ الحياة. وكانت قسماتُ وجهِ رفيقته ساميةً، سموَّ العظمة والبساطة لقد كانت لا تزالُ متواضعةً مثل عذراء شابة، وفخورةً تقريباً مثل زوجةٍ شابّة، فقالت:

– اصغ إليّ يا أوردينر؛ أليس صحيحاً أننا الآن سعيدان بأن نموت. طالما أن الحياة لم تستطع أن تجمع بيننا؟ أنت لا تعرف، يا صديقي، ماذا سأفعل: – سوف أجلسُ عند نوافذِ البرج بحيث أراك وأنت تصعدُ إلى منصَّةِ الإعدام، لكي تطيرَ روحانا معاً في السّماء فإذا قضيت قبل أن تسقط البلطة، فإني سأنتظرك، لأننا زوجان، يا حبيبي أوردينر الذي أعبده، وسوف يكون التّابوتُ هو سريرُ الزّوجية المخصّص لنا.

ضمّها إلى صدره المترع بالحزن، ولم يستطع أن يلفظَ إلّا هذه الكلماتِ التي كانت فكرةَ وجودهِ كلّه:

– يا إيتيل، أنتِ لي إذن...؟

وقال صوتُ المرشد المفعمُ بالحنان:

– يا ابناي، ليودّع كلٌّ منكما الآخر، فقد حان الوقت.

فهتفت إيتيل:

– وا أسفاه!

ورجعت إليها كلُّ قوّتها، قوّةِ الملاك، فجثت أمام المحكوم وقالت:

– وداعاً! يا حبيبي أوردينر ، يا سيّدي ، أعطني بركتك .

نفّذ السّجين هذه الأمنيةَ المؤثّرة ، ثم استدار ليحيّي الموقّر أتاناز موندر ، فكان العجوز أيضاً راكعاً أمامه .

وسأله مدهوشاً:

– وماذا تنتظر ، يا أبتِ؟

فنظر إليه العجوز نظرةً متواضعةً ورقيقةً ، وقال:– بركتك ، يا بني[1] .

فأجاب أوردينر قائلاً بلجهةٍ مفعمة بالتأثّر والجلال:

– فلتباركك السّماء ، ولتجلبْ لك كلَّ غبطةٍ تستدعيها صلواتُك لإخوتك الناس الآخرين .

وفي الحال – سُمعت القبّةُ الرّمسيّةُ آخرَ وداع ، وآخرَ القبلات ، وانغلقت في الحال الأقفالُ القاسيةُ من جديد على نحوٍ صاخب ، وفرَّقَ البابُ الحديديّ الزّوجين الشابّين اللذين سوف يموتان بعد أن تواعدا في الأبدية .

---

(١) «منذ عام ١٨٢٢ ، أصبح انقلابُ عظمةِ المؤسّسةِ إلى تواضعِ مسيحيّ ، وإلى رحمةٍ فاعلة ، فكرةً رئيسة لدى هيغو .» (ج. سيباشير ، بصدد: البؤساء ، الأرقام: ١ ، ٤ و ١٠ ، في كتاب: «الأساقفة وأعضاء المؤتمر» أوروبا ، شباط ، آذار ، ١٨٦٢ ، الصفحة: ٨٩) ، ويمكن للمشهد أن يقرأ ، في الحقيقة ، باعتباره مخططاً أوليّاً للمباركة التي يطلبُها الأسقفُ ميريل ، من عضوِ المؤتمر المحتضر .» .

الفصل الخامس والأربعون

أعطي لمن يسلمني لوي بيريز، ميتاً أو حيّاً
مئتي ريال

كالديرون، لوي بيريز دوغاليس

تعلّمت أن أصفّق بيدي، وأن أطلق صيحات
الظّفر حين كانت ألسنة النّار تُحرق القصور
كنت أغمس يدي بدمِ أعدائي، وكنت أستخدم
ذلك الدَّم لأزين به وجهي.

فالتر سكوت، هارولد المقدام[1]

حياتي شجرةٌ ميتة، ولا تستأهل أن أحافظ عليها.

كونزيبو، موت رولا

– أيها البارون فوتاون، عقيد حملة القربينات في مونكولم؛ من هو، من

(١) استشهاد مستمدٌّ من عرض أعدَّه أبيل لقصيدة فالتر سكوت، العدد: التاسع عشر من مجلّة «المحافظ الأدبي» (٩١ آب، ١٢٨٠)، وهي مقدّمة حذفت كلاحقتها عام: ١٨٣٣.

بين الجنود الذين قاتلوا تحت أوامرك في بيلبيه - نوار. من هو الذي أسر هان الإيسلنديّ؟ سمّه للمحكمة لكي يتلّقى الألف ريال ملكيّ التي وعد بها مقابل هذا الأسر.

هكذا يتكلّم رئيس المحكمة مع عقيد سلاح القربينات. إن المحكمة في حالة انعقاد، لأنّه تبعاً للعادة القديمة المعمول بها في النّرويج؛ فإن القضاة الذين يلفظون أحكامهم القطعية ينبغي أن يمكثوا في مقاعدهم إلى أن ينفّذ الحكم الذي أصدروه. كان العملاق أمامهم، وقد أتوا به منذ قليل، حاملاً في عنقه الحبل الذي ينبغي أن يحمله بدوره، بعد بضع ساعات.

ينهض العقيد الجالس بقرب منضدة أمين السِّر الخاص، ويحيي المحكمة والأسقف الذي صعد من جديد إلى سدّته.

- أيّها السّادة القضاة، إن الجنديَّ الذي قبض على هان الإيسلندي موجود في حرم المحكمة هذا، وهو يُدعى توريك بلفاست، ويعمل رامي قربينة ثانٍ في فيلقي.

ويردّد الرّئيس قائلاً:

- فليأت إذن لكي يستلم المكافأة الموعودة.

يتقدّم جنديّ شابّ يرتدي زيّ رماة بنادق مونكولم.

فيسأله الرئيس:

- هل أنت توريك بلفاست؟

- أجل، يا صاحب السّعادة.

- أنت من أسرت هان الإيسلندي؟

- أجل، بمعونة القدّيس بعلزبوت، إن كان هذا يروق لسمّوك.

وتُجلب إلى المنضدة حقيبة ثقيلة.

فيضيف الرّئيس، وهو يشير إلى العملاق المقيّد:

- هل تتعرّف هذا الرّجل على أنه هان الإيسلندي؟

- كنت أعرف الوجه اللّطيف للمليحة كاتي على نحوٍ أفضل مما أعرف وجه هان الإيسلندي، غير أنّي أؤكّد، قسماً بمجد القديس بيلفيغور، بأنه اذا كان هان الإيسلندي موجوداً في مكان ما، فهو يتخّذ شكل هذا الشيطان الضخم.

ويتابع الرّئيس قائلاً:

- اقترب، ياتوريك بلفاست، إليك الريّالات الألف التي وعد بها المأمور الأعلى.

كان الجندي يتقدّم على عجل نحو المحكمة، حين ارتفع بين الجمهور صوت يقول:

- يارامي القريبنة المونكولمي، ليس أنت من قبض على هان الإيسلندي!

فهتف الجندي، وهو يستدير:

- وحق كلّ الشيّاطين الطّوباويين . إني لا أمتلك سوى غليوني ، والدقيقة التي أتكلم فيها ، غير أني أعد بإعطاء عشرة آلاف ريال ذهبيّ لذلك الذي قال هذا منذ قليل إذن! إذا أمكنه أن يثبت ما قاله!

وإذْ تكتفّ الجندي ، فقد أخذ يجول بنظرته الواثقة على الحضور وقال:

- حسناً! فليظهر نفسه ذلك الذي تكلّم للتوّ!

فقال الرّجل القصير القامة الذي كان يشق الزّحام لكي يلجَ إلي حرم المحكمة:

- إنّه أنا!

كان ذلك الشخص الجديد متلفّعاً بحصير من الأسل ، ووبر العجل البحريّ ، وهو رداء يلبسه الغروئندلانديّون ، ويتدلّى حوله مثل السّقف المخروطي لكوخ . كانت لحيته السّوداء ، والشّعر الكثيف الذي يغطي حاجبيه باللّون نفسه ، كانت تخفي وجهه الذي كان كلّ مانميّزه فيه شنيعاً ، ولم يكن يُرى ساعداه ويداه .

فقال الجنديُّ مقهقهاً:

- آه! هذا أنت؟ ومن هو إذن ، حسب رأيك ، يا مولاي الوسيم ، ذلك الذي كان له شرف القبض على هذا العملاق الشيطاني؟

فهزّ الرّجل القصير القامة رأسه ، وقال بنوعٍ من الابتسامة الخبيثة:

- إنّه أنا .

في تلك اللحظة، ظنّ البارون فوتان أنه يتعرّف في ذلك الرّجل الغريب الكائن الغامض الذي كان قد أخطره في سكونجن بوصول المتمرّدين؛ وتعرّف فيه المستشار دالفيلد على مضيف خرائب أربار. أما أمين السّر الخاص، فقد تعرّف فيه فلاحاً من أويلمو كان يرتدي حصيراً مماثلاً، وقد دلّه بشكل جيد على المكان الذي يعتزل فيه هان الإيسلندي. ولكن، بما أنهم كانوا منفصلين كلٌّ عن الآخر، فلم يكن بوسعهم أن يوصل كلٌّ منهم انطباعه الخاطف إلى الآخر، والذي لابدَّ أنّه امحى سريعاً من جراء الاختلافات في الملابس، وفي السّمات التي لاحظوها بعد ذلك.

فردّ الجنديُّ بلهجةٍ تهكمية:

– حقاً! هذا أنت!

– من غير لباسِ الفقمة، فقمة غروئنلاندا الثُّنائية القوائم، ومن النَّظرة التي ترميني بها كان يَمكن أن أميل إلى أن أتعرَّف فيك قزماً مضحكاً آخر، قد سعى كذلك إلى التّشاجر معي في السّبلادجيست؛ منذ ما يقرب من خمسة عشر يوماً. وكان ذلك في اليوم الذي جلبوا فيه جثّة عامل المنجم جيل ستادت. .

فقاطعه الرّجل القصير، وهو يرتعد، فأكد الجنديّ بعدم اكتراث:

– أجل، جيل ستادت، المغرم الذي صدّته فتاة كانت عشيقة أحد رفاقنا والذي مات من أجلها كالأحمق.

فقال الرّجل القصير بصوتٍ مكتوم:

– ألم يكن هناك أيضاً، في السّبلادجيست، جسد ضابط من فيلقك؟

– بالضبط ، سوف أتذكّر كلَّ حياتي ذلك النهار؛ فلقد نسيت الانسحاب إلى السّبلادجيست ، وكدت أفقد رتبتي في القلعة . فقد كان ذلك الضابط هو ديسبولسِن . .

وقف أمين السِّر الخاصّ لدى سماعه لهذا الاسم وقال:

– إن هذين الشخصين يستغلان صبرَ المحكمة . وإننا نرجو السيد الرئيس بأن يقصّر هذا الحديث غير المناسب ، وغير المفيد .

فقال توريك بلفاست:

– وشرف ابنتي كاتي ، أنا لاأطلب خيراً من هذا ، شريطة أن تمنحني لطافتكم الرِّيالات الألف مقابل رأس هان ، لأني أنا الذي أسرتُه .

فصرخ الرَّجل القصير قائلاً:

– إنك تكذب!

فأخذ الجنديُّ يفتّش عن سيفه الذي يحمله إلى جانبه ، وقال:

– إنك سعيد حقاً ، أيها الطّريف ، بأن نكون أمام العدالة التي ينبغي لجنديّ في حضرتها أن يكون مجرَّداً من السّلاح مثل ديكٍ عجوز ، حتى وإن كان رامي قربينة من مونكولم .

فقال الرّجل القصير ببرود:

– إن الأجر يعود لي ، لأنه بدوني ، ما كان يمكن الحصول على هان الإيسلندي .

أما الجنديُّ الغاضب فقد أقسم أنّه هو الذي قبض على هان الإيسلندي، حين بدأ يفتح عينيه، بعد أن سقط في ساحة المعركة.

فقال خصمه:

- حسناً، من الممكن أن تكون أنت من قبضت عليه، ولكن أنا الذي طرحته أرضاً، وبدوني، ما كان يمكن لك أن تأتي به كأسير، فالرّيالات الألف إذن من نصيبي.

فردَّ الجنديُّ قائلاً:

- هذا خطأ، ليس أنت من طرحه أرضاً، بل شبحٌ يرتدي جلود الحيوانات.

- إنّه أنا.

- كلا! كلا.

أمر الرَّئيس الفريقين بالسّكوت، ثم سأل من جديد العقيد فوتاون إن كان توريك بلفاست حقاً هو الذي أحضر هان الإيسلندي أسيراً، وبناءً على ردّ العقيد الإيجابي أعلن أنَّ المكافأة تخصُّ الجنديّ.

فصرَّ الرَّجل القصير القامة على أسنانه، ومدَّ رامي القربينة يديه بجشع ليستلم الكيس، فصرخ الرَّجل القصير قائلاً:

- لحظة واحدة! ياسيّدي الرئيس، حسب منشور المأمور الأعلى؛ فإن هذا المبلغ لايخصُّ إلا ذلك الذي يسلّم هان الإيسلندي.

فقال القضاة:

– وإذن!

فاستدار الرَّجل نحو العملاق وقال:

– هذا الرّجل ليس هان الإيسلندي .

فسرت في المحكمة همهمةٌ مفعمةٌ بالدهشة ، وأخذ الرئيس وأمين السِّر الخاص يتململون في مقاعدهم .

وكرّر الرّجل القصير قائلاً:

– كلا ، إن النقود لاتخصُّ رامي القربينة اللّعين الذي من مونكولم ، لأنّ هذا الرّجل ليس البتّة هان الإيسلندي .

فقال الرّئيس:

– ياحملة الأطبار ، فليؤتَ بهذا المسعور ، لقد فقد عقله .

فرفع الأسقفُ صوته قائلاً:

– ليسمح لي الرَّئيس الموقّر بأن ألفت نظره إلى أنه يمكن ، اذا ما رفضنا أن نسمع هذا الرّجل ، أن نحطّم خشبة الخلاص تحت قدميّ المحكوم الحاضر هذا . وأطلب ، على العكس ، أن تستمرَّ المجابهة .

فقال الرئيس:

– أيّها الأسقف المبجّل ، سوف تستجيب المحكمة لطلبك .

وتوجّه إلى العملاق قائلاً:

– لقد أعلنت أنّك هان الإيسلندي؛ فهل تؤكّد أمام الموت إعلانك هذا؟

فردّ المحكوم قائلاً:

– أؤكّده. أنا هان الإيسلندي.

– هل تسمع، أيّها السّيد الأسقف؟

كان الرّجل القصير يصرخ في الوقت نفسه الذي يصرخ فيه الرئيس.

– إنك تكذب، أيها الرّجل الجبليّ الآتي من كول! إنك تكذب! لاتصرّ على أن تحمل اسماً يسحقك، وتذكّر أنه طالما كان شؤماً عليك.

فكرّر العملاق، وعينه تحدّق بأمين السّر الخاصّ:

– أنا هان الذي من كليبستادور، في إيسلندا.

فاقترب الرّجل القصير من جنديّ مونكولم الذي أخذ، شأنه شأن الحاضرين، يراقب ذلك المشهد بفضول.

– أيها الرّجل الجبليّ الذي من كول. يقال إن هان الإيسلندي يشرب دماً بشرياً، فإذا كنت هو، فاشربْ – فها هو أمامك.

وما إن تلفّظ بهذه الكلمات، حتى أبعد معطفه المصنوع من الحصير، وغرز خنجراً في قلب رامي القربينه، وألقى بالجثّة عند قدميّ العملاق.

تعالت صيحة فزعٍ ورعب، وتراجع الجنود الذين كانوا يحرسون

العملاق. أما الرَّجل القصير الذي كان سريعاً كالرّعد؛ فقد انقضّ على الرّجل الجبليّ المكشوف، وبطعنة خنجر جديدة، جعله يهوي على جسدِ الجنديّ. حينذاك، تجرّد من حصيرة الأَسَلِ التي يلبسها، ومن شعره المستعار، ولحيته السّوداء، وكشف عن أطرافه المتوتِّرة، والمغطّاة بشكلٍ مقزٍّز بجلود الحيوانات، وعن وجهٍ قد نشر رعباً بين الحضور، أكثر مما نشره الخنجرُ الدّامي الذي كان يرفع نصله المقزّز، بعد جريمتي قتل.

- أنتم، ياأيّها القضاة، أين هان الإيسلندي؟

فصاح الرئيس مذعوراً:

- أيّها الحراس، فليُقبض على هذا الوحش.

فرمى خنجره في القاعة، وقال:

- إنه لايفيدني، طالما لم يعدْ هناك جنودٌ من مونكولم.

ما إن تكلّم على هذا النّحو حتى سلّم نفسه من غير مقاومةٍ إلى حاملي الأطبار، وإلى رماة السّهام الذين كانوا يحيطون به، ويتهيّئون لمحاصرته، وكأنهم يُحاصرون مدينة، فرُبط الوحش بالسّلاسل إلى مقعد المتهمين، وحملت محفّة الضّحيتين اللتين كانت إحداهما، وهي الرَّجل الجبليّ، لاتزال تتنفّس.

من غير الممكن أن نصف الحركات المختلفة، حركاتِ الرّعب، والدّهشة، والغضب التي كانت تعبّر عن اضطراب الشّعب، والحراس والقضاة من خلال ذلك المشهد المرعب؛ فما إن أخذ اللّصُّ مكانه، وهو هادىء، وبارد

الأعصاب، على المقعد المشؤوم، حتى فرض الشعور بالفضول الصَّمت على كلِّ انطباعٍ آخر، وأعاد الانتباه الهدوء إلى نصابه.

ونهض الأسقف الموقَّر، وقال:

- أيّها السّادة القضاة. . .

فقاطعه اللّصّ قائلاً:

- يا أسقف درونتهايم، أنا هان الإيسلندي، فلاتكلِّف نفسك عناءَ الدّفاع عنّي.

ونهض أمين السِّر الخاص وقال:

- أيّها الرئيس النّبيل. .

فقطع الوحش عليه الكلام قائلاً:

- يا أمين السّر الخاص، أنا هان الإيسلندي[1]، فلا تُشغل نفسك باتّهامي.

حينذاك، طاف، وقدماه غارقتان بالدّم، طاف بعينه الرهيبة والجريئة على المحكمة، وعلى رُماة السّهام، وعلى الجمهور، حتى ليخيّل للمرء أن كلَّ هؤلاء الرّجال كانوا يرتعدون رُعباً، تحت نظرة ذلك الرّجل المجرّد من السّلاح، والوحيد، والمقيّد.

(١) نحن هنا في صميم قضية شانماتيو: «الرّجل الذي تبحث عنه، ليس هو، بل أنا. أنا جان فالجان. (البؤساء: ١، ٧، ١١)، وهان هوجان، مثل جان فالجان.

- اسمعوا، أيّها القضاة، ولاتنتظروا مني كلاماً يطول. فأنا وحش كليبستادور، وأمي هي إيسلندا العجوز، جزيرة البراكين. وفي الماضي، لم تكن تشكّل إلا جبلاً، غير أنها سُحقت تحت يد عملاق استند إلى قمتها، وهو يهبط من السّماء. ولست بحاجة لأحدّثكم عني. فأنا سليل إنغولف الجزّار، وأحمل روحه في ذاتي. وقد ارتكبت من أعمال القتل، وأشعلت من الحرائق أكثر مما تلفّظتم جميعاً بأحكام جائرة في حياتكم. لديّ أسرار مشتركة مع المستشار دالفيلد - وقد أشرب كلَّ الدّم الذي يجري في عروقكم بتلذذ، ؛ فمن طبيعي أن أكره بني البشر، ومهمتي هي الإضرار بهم. أيها العقيد، قائد حاملي القربينات في مونكولم. أنا من أخطرك بمرور عمال المناجم من بيلييه - نوار، متيقناً بأنك ستقتل عدداً كبيراً من الرّجال في تلك المضائق. وأنا من قام بسحق كتيبة من فوجك بقطع كبيرة من الصخور، فقد كنت أثأر لابني - والآن، أيّها القضاة، لقد مات ابني، وأتيت إلى هنا بحثاً عن الموت. إن روح إنغولف ترهقني، لأني أحملها وحدي. ولن أتمكن من نقلها إلى أيّ وريث آخر. لقد تعبتُ من الحياة، لأنه لم يعد ممكناً أن تكون المثل والدّرس الذي يقدمه خلف معين. لقد شربت مايكفي من الدّم، ولم أعد ظامئاً - أما الآن، فها أنا ذا، يمكنكم أن تشربوا دمي. -

سكت، فكرّرت كلُّ الأصوات بشكل مكتوم كلَّ كلمة من كلماته المرعبة.

قال له الأسقف:

- يابنيّ، بأيّ قصد ارتكبت إذن كثيراً من الجرائم؟

أخذ اللّصّ يضحك، وقال:

– الحقيقة أنني أقسم لك، أيّها الأسقف المبجّل، أن ذلك لم يكن، كما هو شأن أخيك، أسقف بيرغلوم، بقصد أن أغتني[1]، فكان ثمة شيء في داخلي، يدفعني إلى ذلك.

فردّ العجوز القدّيس بتواضع:

– إن الرّب لايتمثل دائماً في كلّ رؤساء كهنته. أنت تريد أن تُهينني، وأودُّ أن أتمكّن من الدّفاع عنك.

– أنتَ تضيع وقتك، أيها الموقّر، فاذهب لتسأل زميلك الآخر، أسقف سكالو، في إيسلندا. وحق إنغولف، سيكون أمراً غريباً أن يهتّم أسقفٌ بحياتي، أحدهما بقربِ مهدي، والآخر، بقرب لحدي – أيُّها الأسقف، إنك عجوز مجنون.

– يابنيّ، هل تؤمن بالرّب؟

– ولمَ لا؟ أريد أن يكون هناك ربٌّ لكي يمكن للمرء أن يجدّف.

– توقف، أيها التّعس! فلسوف تموت، وأنت لاتقبل قدميّ المسيح!

فهزّ هان الإيسلندي كتفيه.

– إذا فعلت ذلك، فسيكون على طريقة ذلك الشّرطيّ، شرطيّ رول، الذي أسقط الملكَ، وهو يقبّل قدمه.

(١) يؤكد بعض مدوّني الأخبار أن أسقفاً لبرغلوم قد اشتهر في عام ١٥٢٥، بأعمال لصوصية متنوعة؛ فقد كان يستأجر، كما يقولون، قراصنةً يعيثون فساداً في النّرويج، ومع ذلك، فهذه الواقعة تدعو كثيراً إلى الشّك.

فعاد الأسقف إلى الجلوس، وقد اغتمَّ كثيراً.

فتابع هان الإيسلندي يقول:

- هيّا، أيّها القضاة، ماذا تنتظرون؟ لو كنت مكانكم، وكنتم في مكاني، لما جعلتكم تنتظرون الحكم عليكم بالموت زمناً طويلاً.

انسحبت المحكمة، وبعد مشاورة قصيرة، رجعت إلى الجلسة، وقرأ الرئيس بصوتٍ عالٍ حكماً يحكم على هان الإيسلندي، حسب صياغاته، بأن يشنق من عنقه إلى أن يحدث الموت.

فقال اللّص:

- هذا أمرٌ حسن. أيها المستشار دالفيلد. إني أعرف عنك مايكفي لأجعلك تحصل على حكم مماثل.

ولكن عشْ، بما أنك تسيء إلى بني البشر - هيا، إني متأكّد الآن من أنني لن أذهب البتّة إلى النيسيتيم Nysthiem[1].

أمر أمين السّر الخاص الحرّاس الذين جلبوه بأن يضعوه في برج ليون دوسليسفيغ، فيما كانوا يعدّون له زنزانةً ينتظر فيها تنفيذ الإعدام. وذلك في مركز رُماة القربينات في مونكولم.

فردّ الوحش بزمجرةٍ فرحة:

- في مركزِ رماة القربينات في مونكولم!.

(١) حسب الاعتقادات الشعبيّة، النيسيتيم Nysthiem هو جحيم أولئك الذين يموتون بسبب المرض أو الشيخوخة.

الفصل السّادس والأربعون

ومع ذلك، فقد استولى الموريسكيّون على جثّةِ
بونس دوليون، والتي كانت قد بقيت بقربِ
المنهل، بعد أن شوّهتها الشمس، وقد
حملوها إلى غرناطة.

ا.هـ [1]«أسير أوشالي».

تولّدُ نزواتُ القدر من الأسباب التي يلحظها المرء
أقلّ من غيرها، ظروفاً هامّة، أو تعرقل سير الأشياء.

البارون ديكستين[2]

ومع ذلك، فقبل فجر ذلك اليوم، الذي كنّا قد بكرنا فيه، وفي السّاعة

(١) ا. هـ. أي: أوجين هيغو، انظر أعلاه، الملاحظة رقم: ٣٥١.

(٢) اقتباس حذف عام ٣٣٨١، وهيغو يكتب: ديكستين: «k بدلاً من: kc».

ذاتها التي كان يلفظ فيها الحكم بحقّ أوردينر، في مونكولم، كان أوغليبيغلاب، حارس السّبلادجيست الجديد، والملازم السّابق، وخلف بينينيوس سبياغودري الحالي، كان قد أيقظه فجأة، من على سريره الحقير، دويٌّ باب المبنى، تحت ضربات عنيفة، فنهض على مضضٍ، وأمسك بمصباحه النحاسيّ الذي كان ضوؤه الضّعيف يؤذي عينيه الغافيتين، ومضى ليفتح الباب لأولئك الذين كانوا ينتزعونه باكراً جدّاً من نومه.

كان أولئك الناس هم صيّادي أسماك، من بحيرة سباربو، وكانوا يجلبون على محفّةٍ، مغطّاة بالأسل، والطحالب، وحشائش وحلِ المستنقعات، جثّة عثروا عليها في مياه البحيرة.

وضعوا حملهم داخل المبنى المأتميّ، فأعطاهم أوغليبيغلاب إيصالاً بالميت، لكي يكون بوسعهم أن يطالبوا بأجرهم.

وحين بقي وحده في السّبلادجيسيت، بدأ ينزع ثياب الجثّة التي كانت لافتةً للنّظر من حيث طولها ونحولها. وأوّل شيء تبدّى لعينيه، عندما رفع النّقاب الذي كانت الجثة مغطّاة به، كان قبّعة شعر مستعار ضخمة.

فقال في نفسه:

– في الحقيقة، إن هذا الشّعر المستعار ذا الشكل الأجنبيّ قد مرَّ من قبل بين يديّ، وقد كان لذلك الشابّ الفرنسيّ الأنيق..

وتابع كلامه وهو يواصل عملياته:

– ولكن هذه هي الجزمة الطّويلة، جزمة الحوذيّ المسكين كرامنير الذي

داسته خيوله و . . – يا للشيّطان ، هل هذا يعني؟ – وهذا اللبّاس الأسود الكامل للأستاذ سينغرامتاكس ، ذلك العالم العجوز الذي غرق مؤخراً – فما هو إذن هذا القادم الجديد الذي يجيئني مع أسلاب معارفي القدماء؟

طاف بمصباحه على وجه الميت ، ولكن ، بلا جدوى؛ فسماته التي كانت قد تفككت ، قد فقدت شيئاً من شكلها ومن لونها . لقد فتّش في جيوب الرّداء ، وسحب منها بعض الرّقق المبتلّة بالماء ، والملوّثة بالوحل ، فنشّفها بقوة بمئزره الجلدي ، وتوصّل إلى أن يقرأ على أحدها هذه الكلمات التي لاتتمّة لها ، والتي مُحيت جزئياً : – «روديك ، ساكسون النّحويّ . أرنغريم ، مطران أولوم– في النّرويج ، ليس هناك سوى كونتيّتين هما : لارفيغ ويارلسبيرغ ، وبارونيّة واحدة . . . – لايجد المرء مناجم للفضّة إلا في كونغسبرغ ، وللمغناطيس والأسبيست إلا في سوندموير ، وللجُمشت إلا في غولدبرانشتال ، ولحجارة أليمان والعقيق واليشبْ إلا في جزر فاروير – وفي نوكاييفا ، في زمن المجاعة ، يأكل الرجال نساءهم وأولادهم – كما يقول تورمودوس تورفيوس ، وإيسليف ، مطران سكالوف ، أوّل مؤرخ إيسلندي– فقد لعب عطارد مع القمر بالنّرد ، وكسب منه الجزء الثاني والسّبعين من اليوم – مالستروم : الهوّة – وهيروندو هيرودو – وشيشرون ، حمّص : مجد – فرود العالم – وكان أودان يستشير رأي ميمير ، الحكيم (محمد ويمامته سيروتوريوس وظبيته) . بقدر ما تكون التربة أكثر . . تحتوي مقداراً أقلّ من الجبس . . » .

فهتف وهو يدعُ الرّقّ يفلت من يده .

– لايمكنني أن أصدّق عيني ، هذه كتابة معلّمي السّابق بينينيوس سبياغودري . . . !

حينئذ، عاين الجثّة من جديد، فتعرَّف اليدين الطّويلتين، والشّعر القليل والعادات الجسدية[1] لمنكود الحظّ كلّها.

ففكّر، وهو يحرّك الرأس:

– ليس خطأ أن يكونوا قد رموه بتهمة التّدنيس، وبأنّه مستحضر للموتى[2] فلقد اختطفه الشيطان لكي يغرقه في نهر السَباربو. فما أعزب أمرنا! ومن كان يمكنه أن يظنَّ يوماً أن الدكتور سبياغودري، بعد أن قام بحراسة الآخرين زمناً طويلاً في هذا النّزل، نزِل الموتى، سيأتي يوماً من بعيد ليحرس فيه نفسه بنفسه!.

كان اللابونيّ الفيلسوف القصير القامة يرفع الجسد ليضعه على إحدى تلك الطّبقات الصّوانية السّت، حين لاحظ أن شيئاً ثقيلاً كان مربوطاً برباط جلدي إلى عنق المنكود سبياغودري، فهمس قائلاً:

– هذا بلا شك هو الحجر الذي دفعه به الشيطان إلى البحيرة.

كان مخطئاً في ذلك: فقد كان هذا علبة حديدية صغيرة؛ فما إن نظر إليها عن كثبٍ، بعد أن مسحها بعناية، حتى لاحظ قفلاً عليه ثقب للمفتاح، فقال في نفسه:

---

(١) مصطلح طبّي هو: البنية، المظهر العام للجسم، وعلى نحوٍ أعمّ: الهيئة التي تنجم عن الوقفةِ، والسّير، والمواقف. (ليتّريه).

(٢) إن كلمة: NECROMANCIE= استحضار الموتى تحلُّ محلَّ كلمة: NECROMAN= مستحضر الموتى.

– لابدَّ أن هناك سحراً شيطانياً في هذه العلبة؛ فقد كان هذا الرّجل مدنّساً وساحراً؛ فلنذهب ونضع هذه العلبة عند الأسقف؛ فلربّما تحتوي شيطاناً.

حينئذ، نزعها من الجثّة التي وضعها في قاعة العرض، وخرج بسرعة كليّة لكي يتجّه إلى قصر الأبرشية، وهو يغمغم في الطريق، ببعض الصّلوات ضدّ العلبة المخيفة التي يحملها.

الفصل السّابع والأربعون

هل هو إنسانٌ أم روحٌ جهنّميّة من يتكلّمُ هكذا؟
ما هي إذن الرُّوحُ المؤذيةُ التي تعذّبك؟ أرني
العدوَّ الشّرسَ الذي يسكنُ قلبك.

الموقّر ماتوران، برترام.

إن هان الإيسلندي وشوماكير موجودان في القاعة نفسها، في برج سليسفيغ. المستشارُ السّابق الذي برّئت ساحتُه يتجوّل بخطىً وئيدة، وعيناه مغرورقتان بدموعٍ مريرة. أمّا اللّصُّ المحكومُ فيضحكُ من قيوده، ورجالُ الحرسِ يحيطون به.

يراقب كلٌّ من السجينين الآخر طويلاً، وعلى نحوٍ صامت؛ فيخيّلُ للمرء أن كلاًّ منهما يشعرُ بالآخر، ويسأل المستشارُ السّابقُ اللّصَّ أخيراً، فيقول:

– من أنت؟

فيردُّ الآخر:

– سأقولُ لك اسمي لكي أجعلك تهربُ . أنا هان الإيسلنديّ .

ويتقدَّمُ شوماكير نحوه ويقول:

– أمسك يدي .

– هل تريدُ أن التهمها .

فاستأنف شوماكير قائلاً:

– يا هان الإيسلندي ، إني أحبُّك لأنَك تكرهُ بني البشر .

– هذا هو السّببُ في أنني أكرهُك .

– اسمع ، إني أكرهُ الناسَ مثلك ، لأني قدّمتُ لهم الخيرَ فبادلوني بالشّر .

– إنك لا تكرهُهم مثلما أكرهُهم أنا . لأنهم قدّموا لي الخيرَ فرددتُ عليهم بالشَّر .

ارتعد شوماكير من نظرةِ الوحش؛ فقد حاول عبثاً أن ينتصر على طبيعته ، ولكن روحَه لم تتمكّن من التعاطف مع روحِ ذلك الوحش .

وهتف:

– أجل ، إنّي أمقتُ النّاسَ لأنّهم مخادعون ، وناكرون للجميل ، وقساة ، وأُدين لهم بشقاءِ حياتي كلّه .

– هذا أفضل! – فأنا أدينُ لهم بكلِّ سعادةِ حياتي .

– أيّة سعادة؟

– سعادة أن أشعرَ باللّحم المختلج يرتعدُ تحت أسناني، والدَّمَ الداخنَ يدفّئ حلقي الظّامئ، ولذّةَ تحطيم الكائنات الحيّة على نتوءات الصّخور، وسماعَ صرخة الضحيّة وهي تمتزجُ بصوتِ الأطراف المتقصّفة... تلك هي الملذّات التي جلبها إليَّ بنو البشر.

تراجع شوماكير برعب أمام الوحش الذي كان قد اقتربَ منه مزهوّاً تقريباً بأنه يشبههُ، وإذ اعتراه الخجل، فقد غطى وجهه الجليل بيديه، لأنّ عينيه كانتا مليئتين بدموع الغضب، ولكن ليس من الجنس البشريّ، بل من نفسه. وكان قلبُه النبيل والكبير قد بدأ يرتعبُ من الكراهية التي يحملُها للنّاس منذ زمنٍ طويل، حين رآها تحدّث ثانية في قلبِ هان الإيسلنديّ، وكأنّما بواسطةِ مرآةٍ مرعبة.

فقال له الوحشُ وهو يضحك:

– حسناً! يا عدوَّ البشر، هل تجرؤ على أن تفخر بأنك تشبهُني؟

ارتعد العجوز وقال:

– يا ألله! إني أؤثرُ أن أحبَّ الناس على أن أكرههم مثلك.

وأتى رجالُ الحرسِ ليأخذوا الوحش، ويقتادوه إلى زنزانةٍ مأمونةٍ أكثر. أما شوماكير الذي كان يتفكّر في أموره، فقد بقي وحدَه في البرج، إنّما لم يبقَ فيه، بعد ذلك، عدوّاً لبني البشر.

الفصل الثّامن والأربعون

ما إن يهيئُ الجلّادُ بعنايةٍ احتفالَه القاتل
حتى يراه المرءُ بقربِ سندان الإعدام الذي يغطيّه بقماشٍ أسود
وبضربةٍ واثقةٍ تتأمّل الرّجاء ،
وبعد أن يكون قد زيّن بلطتَه بنصلٍ جديد ،
ينظرُ إن كان يترجَّحُ بين وثاقٍ مزدوج ،
أما هيغو ، فيرى بعينٍ هادئة مجيء وفاته .

ج. لوفيغر، باريزينا[1].

(١): – في ١٩ شباط لعام ١٨٢٣ ، أي بعد عشرة أيام من نشر «هان» تقدم دوريةُ لوريفيي ، تحت عنوانِ ناقدٍ من جهة التحرير ، مقالةً لهيغو مخصّصةً لعرض «قاتل الأب» لجول لوفيغر ، وفيها يصف هيغو الرّومنسية – من غير أن يسمّيها – باعتبارها ظاهرةً فريدة ، قد وُلدت من ظاهرةٍ سياسية أُخرى ، هي الثورة الفرنسية: «في فرنسا ، اليوم ، معركةٌ بين رأيٍ أدبيّ لا يزالُ مقتدراً أكثر مما ينبغي ، وعبقريةِ هذا القرن» «لم تنشر بقية المقالة قط... في اليوم نفسه ، يرفض هيغو عرضاً بأن يقرأ عملاً جديداً في جمعيةِ الآداب الجيدة – وكان جول لوفيغر ، في عام ١٨٢٠ قد اجتذبَ هيغو لكي يأتي ويرى كيف تُقطَعُ قبضتُه «قاتل والده» ، ثم يُقطعُ رأسُه في غريف (هيغو كما رواه...) (الفصل: ٥٢ – ويُحدِّد تاريخُ الحادثة بعام ١٨٥٢ ، فيما هو في الواقع ، في ٦ كانون الأول ، ١٨٢٠ ، وكان يتعلق الأمرُ بإعدامِ بيير مارتان .

. . . . حين يترصَّدُني الشّرير ،

هل تجعلُني ، يا سيّدي ، أقعُ بين يديه؟

فهو الذي قد قطع طُرقَكَ من تحت قدمي .

لا تعاقبْني ، لأن جريمتي هي جريمتُه .

الكونت. أ. دوفيبيني، السّجن.

كانت السّاعةُ المشؤومةُ قد حانت ، والشمسُ لم تعد تُبدي أكثرَ من نصف قرصها في الأفق وقد تضاعفت مراكزُ الحراسة في قلعةِ مونكولم بكاملها . فأمام كلِّ باب ، كان يتجوّل رجالُ الحرسِ الصّامتون والمخيفون . أمّا ضوضاءُ المدينة ، فكانت تصلُ أكثر صخباً ، وأعلى ضجةً ، إلى أبراجِ القلعة المعتمة ، والتي كانت ، هي أيضاً ، تحت تأثيرِ اضطرابٍ غير مألوف . كان يُسمعُ في كلِّ الباحاتِ القرعُ المأتميُّ للطّبول المستورةِ بأغطيةٍ حداديّة ، وكان مدفعُ البرجِ الأدنى يدوّي على فترات ، وجرسُ البرج الثقيل يترجّح ببطء بدقّاتٍ خفيضةٍ وطويلة ، ومن كافةِ مواضع المرفأ ، كانت تتقاطرُ زوارقُ محمّلةٌ بالنّاس نحوَ الصّخرةِ الرّهيبة .

كانت تنتصبُ ، داخل ساحةِ أسلحةِ القصر ، في وسطِ مربّعٍ من الجنود ، منصّةُ إعدامٍ مغلّفةٌ بالأسود ، وحولَها كانَ جمهورٌ نافذُ الصّبر قدْ أخذ يتجمّع ويتضخّم ، وعلى منصّة الإعدام ، كان يتجوّل رجلٌ يرتدي لباساً صوفياً أحمر اللّون؛ فتارةً يتكئ على بلطةٍ يمسكُ بها في يده ، ويحرّك تارةً سنداناً خشبيّاً ، وحصيراً كان ممدوداً على المنصّةِ المأتمية . وقريباً من ذلك المكان ، كانت قد

أُعدّت محرقةٌ تشتعلُ أمامها بعضُ المشاعلِ التي تغتذي بالراتينج. وبين منصّةِ الإعدام والمحرقة، كانوا قد غرزوا وتداً قد علّقت عليه لافتةٌ تقول: أوردينر غولدينليف، خائن – وكان يلمحُ من ساحةِ الأسلحة علمٌ أسود يرفرفُ في أعلى برج سليسفيغ.

في تلك اللّحظة، ظهر أمام المحكمة المجتمعة في قاعة الجلسات باستمرار، ظهر المحكومُ أوردينر، وكان الأسقفُ وحده غائباً، وكانت وكالتُه كمحام للدّفاع قد توقفت.

كان ابنُ نائب الملك يرتدي ملابس سوداء، ويحمل في عنقه قلادةَ دانبروغ. كان وجهُه شاحباً، ولكنه أنوف. كان بمفرده، لأنهم قد جلبوه لينفّذوا به العقابَ، قبل أن يعودَ المرشدُ أتاناز موندر إلى زنزانته.

كان أوردينر قد استوعبَ داخلياً تضحيته؛ ومع ذلك، فإن زوجَ إيتيل كان لا يزالُ يفكّر بالحياة بشيء من المرارة: وربما كان يرغبُ في أن يكون بمقدوره أن يختار لليلة عرسه ليلةً أخرى غير ليلةِ القبر. ولقد أصبح الآن واقفاً أمام نهايةِ كلِّ صلاةٍ وكلِّ حلم، ويشعرُ أنه قويٌّ بالقوة التي يمنحُها الرَّبُّ والحبّ.

أمّا الجمهورُ الذي كان أكثرَ تأثُّراً من المحكوم، فقد كان يتأمَّلُه باهتمام مفعمٍ باللّهفة؛ فبريقُ منزلته، وفظاعةُ مصيرِه كانا يوقظان كلَّ ضروبِ الحَسَد، وكلَّ ألوانِ الرأفة. وكان كلُّ شخصٍ يحضرُ قصاصَه من غير أن يتبين جريمته. ففي دخيلةِ البشر شعورٌ غريب يدفعُهم إلى مشهدِ التّعذيب، مثلما يدفعهم إلى الملذّات. إنهم يسعون، باندفاع مرعب، إلى التقاطِ فكرةِ التّدمير في الملامح المتفككة لذلك الذي سيموت، وكأنّ كشفاً معيّناً من السّماء ومن الجحيم لابدّ

أن يتبدّى في عينيّ البائس، وكأنما ليروا أيّة ظلالٍ يلقي بها جناحُ الموت الذي يحوِّمُ فوق رأسٍ بشريّ، وكأنما ليعاينوا ما يتبقّى من الإنسان حين يكون الرّجاءُ قد تركه. إن ذلك الكائنَ المفعمَ بالقوّةِ والصّحة، الذي يتحرَّكُ ويتنفسُ ويحيا، والذي، في لحظةٍ معينةٍ، سيكفّ عن أن يتحرّكَ، ويتنفَّسَ، ويحيا، والمحاطَ بكائناتٍ تشبُهه، والتي لم يصنع لها شيئاً، والتي ترثي له جميعاً، ولا ينجدُه أيُّ واحدٍ منها. هذا المنكودُ الذي يموتُ من غير أن يكون محتضراً، الذي ينحني في آن أمام قوةٍ ماديّة وتحت سلطةٍ غير منظورة. وهذه الحياةُ التي لم يستطعْ المجتمعُ أن يعطيها، والتي يأخذُها بواسطة جهاز، وكلّ هذا الاحتفالُ المهيبُ، احتفالُ القتلِ القضائي، تهزُّ المخيّلاتِ هزّاً عنيفاً. وبما أننا جميعاً محكومون بالموت مع وقفٍ للتنفيذ غير محدّد، فيعتبرُ بالنسبة إلينا موضوعاً لفضولٍ غريب ومؤلم أن يعرفَ منكودٌ بالتحديد في أيةِ ساعةٍ ينبغي أن يُرفعَ وقفُ التّنفيذِ لديه[1].

نحن نعرف أن أوردينر، قبل أن يذهبَ إلى منصّة الإعدام، كان لا بدَّ أن يؤتى به إلى المحكمة، لكي يُجرّدَ من ألقابه ومن شاراتِ مجده؛ فما إن أفسحت الحركةُ التي أثارها وصولُه إلى الاجتماع المجالَ للصّمت، حتى طلب الرئيسُ أن يُجلبَ إليه كتابُ الشّعارات، شعاراتِ المملكتين، وأنظمةُ وسامِ دانبروغ.

حينذاك، وبعد أن دعا المحكوم ليجثو بركبةٍ واحدةٍ، أوصى الحاضرين بالسّكوت والاحترام، وفتح كتابَ فرسان دانبروغ، وبدأ يقرأ بصوتٍ عالٍ وقاس:

(١) انظر: نهاية: «اليوم الأخير لمحكوم بالإعدام» (١٨٩٢)، الفصل: ٤٨. إن فكرة «القتل القضائي» يمكن أن يكون قد أوحى بها جول لوفيغر، في كتابه: «تأمّلات منفيّ حول حكم الإعدام، ١٨١٩، يتكلم على الجلاد، كما على قاتلٍ قانوني.»

«نحن كريستيين، بفضلِ ورحمةِ الكلّي القدرة، ملك الدانمرك والنّرويج، والفاندال والقوطيين، ودوق سليسفيغ وهولستين وستورماري وديتمارس، وكونت أولدينبور وديلمنريست، نحيطُ علماً بأنّه، بناءً على اقتراحِ مستشارنا الأعلى، الكونت دوغريفنفلد (وقد مرَّ صوتُ الرِّئيسُ هنا بسرعةٍ كبيرةٍ على هذا الاسم الذي سُمع بصعوبة) وبعد أن وضعنا الرَّتبةَ الملكية، رتبةَ دانبروغ التي أسّسها جدُّنا الشهير القدّيس فالديمار، وبناءً على أننا قد اعتبرنا أن هذه الرّتبةَ الجليلة قد أُنشِئت لذكرى رايةِ دانبروغ المرسلة من السّماء إلى مملكتنا المباركة، فإنّه يُعتَبرُ افتراءً على الإنشاء الإلهيّ لهذا الوسام، إذا استطاع أحدُ الفرسان أن يسيءَ للشّرف، ولشرائع الكنيسة والدّولة المقدّسة، من غير أن يعاقب.

ونحن نأمر، ونحن جاثون أمام اللّه، بأن أيّ إنسان، بين فرسان هذه الرّتبة، يسلمُ روحه للشيطان عند قيامه بأية معصيةٍ أو خيانة، بعد أن يكون قد وجّه إليه اللّوم قاضٍ علناً، تُنزع منه إلى الأبد مرتبةُ الفارس في رتبةِ دانبروغ الملكية.

وأغلق الرَّئيسُ الكتاب مجدّداً، وهو يقول:

يا أوردينر غولدينليف، لقد جعلت من نفسك مذنباً بالخيانة العظمى. وهي جريمةٌ سوف يُقطَعُ رأسُك بسببها، ويُحرقُ جسدُك، ويُلقى برُفاتك في الرّيح. يا أوردينر غولدينليف، لقد جعلت نفسك غير أهلٍ لتحمل مرتبةً بين فرسان دانبروغ. وإني أدعوك إلى التّصاغر، لأني سأجرّدك علناً من مراتبك، باسم الملك.

مدّ الرئيسُ يده نحو الكتاب، كتابِ الشّعارات، وأخذ يتهيّأ للتلفّظ بالعبارة القاتلة ضدّ أوردينر الهادئ والذي لا يُبدي أيةَ حركة، عندما انفتحَ بابٌ جانبيّ عن يمينِ المحكمة، فظهر حاجبٌ أسقفيّ معلناً وصول الموقّر، مطران درونتهايموس.

لقد كان هو، في الواقع؛ فدخل على عجلٍ إلى القاعة، يرافقُه كاهنٌ آخر كان يسنُده، وصاح بقوةٍ بدت أنّها لم تعدْ تتناسبُ مع عمره!

– توقّف! فلتتبارك السّماء! إني أصلُ في الوقتِ المناسب.

ضاعف المجتمعون انتباههم متوقّعين حدثاً جديداً، واستدار الرَّئيسُ نحو المطران وقال بانزعاج:

– سوف تسمحُ لي يا صاحبَ التبجيل بأن ألفتَ نظركم إلى أن وجودكم غير مجد هنا؛ فالمحكمةُ ستجرّدُ المحكومَ من مراتبه، وهو قريبٌ من لحظةِ تنفيذِ الحكم...

فقال المطران:

– احذرْ من أن تمسّ ذلك الذي يُعتبرُ طاهراً لدى السّيد، هذا المحكومُ بريء.

ما من شيء يمكن أن يقارنَ بصيحة الدّهشة التي دوّت في قاعة المحكمة، اللّهم إلّا من صرخة الذّعر التي أطلقها كلٌّ من الرئيس وأمين السّر الخاصّ.

وتابع المطرانُ، قبل أن يتسنّى الوقتُ للرئيس لكي يستعيدَ برودةَ أعصابه:

- أجل، ارتجفوا أيها القضاة! ارتجفوا! لأنكم كنتم على وشك أن تهرقوا دماً بريئاً.

كان الشابّ يخشى أن تكون حيلتَه النبيلة قد كُشفت، وأنهم قد وجدوا أدلّةً على تجريمِ شوماكير.

وقال الرئيس:

- يا سيّدي المطران، كأن الجريمةَ في هذه القضيةِ تريد أن تُفلتَ منّا، بأن تنتقلَ من رأسٍ إلى رأس؛ فلا تثقْ ببعضِ المظاهرِ الباطلة؛ فإذا كان أوردينر غولدينليف بريئاً؛ فمن يكون المذنبُ إذن حينذاك؟

فأجاب المطران:

- سوف تعرفُ فضيلتُك ذلك.

ثم قال، وهو يعرضُ على المحكمة علبةً حديديّةً صغيرة، كان يحملُها خادمٌ وراءه:

- أيّها السّادةُ النبلاء، لقد حكمتم وأنتم في العتمة؛ ففي هذه العلبة النّورُ العجائبيُّ الذي لا بدَّ أن يبدّدها.

بدا الرّئيس وأمين السّر الخاصّ مدهوشين في الوقت نفسه لمرأى العلبة الغامضة، فتابع المطرانُ قائلاً:

- أيّها القضاةُ النبلاء، أصغوا إليّ، اليوم، وفي اللحظة التي كنا راجعين فيها إلى قصرنا، قصر المطرانية، لكي نستريحَ من متاعب الليل،

ونصلّي من أجل المحكومين، تسلّمنا هذه العلبة الحديدية المختومة؛ فقد كان حارسُ السّبلادجيست، كما قيل لنا، قد جلبها هذا الصّباح إلى قصرنا، لكي تسلِّم إلينا، وهو يؤكدّ أنها كانت تحتوي بلا شكّ سرّاً شيطانيا خفيّاً، نظراً لأنه قد وجدها على جسدِ المدنّس بينينيوس سبياغودري الذي انتُشِلت جثّته من نهر السّباربو.

تضاعف اهتمامُ أوردينر، وكان الحاضرون جميعاً يلتزمون الصّمتَ بخشوع، وكان الرئيسُ وأمينُ السّر الخاصّ يحنيان رأسيهما مثل محكومين، حتى ليخيّل للمرء أنهما قد نسيا كلاهما دهاءهما وجرأتهما، فثمة لحظة في حياة الشّرير تذهبُ عنه قدرتُه فيها.

وتابع المطرانُ قائلاً:

- بعد أن باركنا هذه العلبة، كسرنا خاتَمها الذي كان يحملُ، كما يمكنكُم أيضاً أن تروا، الشّعارات القديمةَ الملغاة، شعارات غريفنفلد؛ فقد وجدنا فيها فعلاً سرّاً شيطانياً - ولسوف تحكمون على ذلك، أيّها السّادة الموقّرون. فأعيرونا انتباهكم التّام، لأن الأمر يدورُ هنا على دمِ البشر والسّيد يزنُ كلَّ قطرةٍ منه.

حينذاك، فتح العلبةَ المخيفةَ، وسحبَ منها رقّاً كانت الشهادةُ التالية مكتوبةً على ظهره:

«أنا الدكتور، بلاكسام كومبيسولسوم، أصرّح، في لحظةِ موتي، أنني قد سلّمت النقيب ديسبولن، المفوّض في كوبنهاغن، عن الكونت السّابق دوغريفنفلد المستندَ التّالي: الذي كتب بكامله بيد توريياف موسديمون، خادم المستشار الكونت دالفيلد، لكي يستخدمه النقيبُ المذكورُ أعلاه بالشّكل الذي

يروق له – وأرجو اللّه أن يغفر لي جرائمي – في كوبنهاغن، اليوم الحادي عشر من كانون الثاني لعام ألف وستمئة وتسعة وتسعين.

كومبيسولسوم.»

كان أمينُ السّر الخاصّ يرتجفُ ارتجافاً تشنّجياً، وقد أرادَ أن يتكلَّم، ولكنه لم يستطعْ ذلك. ومع هذا، فقد سلّم المطرانُ الرّقَّ إلى الرئيس الذي كان شاحباً ومضطرباً.

وهتف هذا الأخيرُ، وهو يفتحُ الرّقّ:

– ماذا أرى؟ مذكرة موجّهة إلى الكونت دالفيلد حول وسيلةِ التخلُّصِ قضائياً من شوماكير...! – أقسمُ لك، أيها المطرانُ الموقّر...

وسقط الرّقّ من يدِ الرئيس.

فتابع المطران قائلاً:

– اقرأ، اقرأ، يا سيّدي. لا أشكُّ بأن خادمَك غير الجدير قد أساءَ استخدامَ اسمك، كما أساءَ استخدامَ اسمِ المنكودِ شوماكير. فانظرْ فقط ماذا سبَّبَ حقدُك القليلُ الرّحمةِ لسلفكَ الذي سَقط.

لقد دبّر أحدُ المتملّقين لك دماره باسمك، آملاً بلا شكّ أن يفخر بذلك لدى فضيلتك. ما إن بيَّن للرئيسَ أن شكوكه كمطران يعرفُ محتوى العلبة بكامله، لا تقعُ تبعاتُها عليه، حتى أنعشته هذه الكلماتُ، فتنفّس أوردينر الصّعداء أيضاً. وأخذ يستشفّ أن براءة والد فتاته إيتيل سوف تنجلي في الوقتِ نفسه الذي تنجلي فيه براءتُه الخاصّة. وبدأ يُحسّ بدهشةٍ عميقة من ذلك القدرِ الغريب الذي

قاده إلى ملاحقة لصٍّ مخيفٍ للعثور على تلك العلبة التي كان مرشدُه السّابقُ بينينيوس سبياغودري يحملُها معه، بحيث كان تتبعه فيما كان يبحثُ عنها. وكان يتأمل أيضاً في الدّرس الخطير، درس الأحداث التي، بعد أن أوصلته إلى الهلاك، عن طريق تلك العلبة المشؤومة، قد أنقذته بواسطتها.

أمّا الرئيسُ الذي استرجع برودة أعصابه، فقد قرأ حينئذٍ، وأماراتُ الغضب باديةٌ في صوته، ويشاركه فيها كلُّ الحاضرين، قرأ حاشيةً طويلة يوضح فيها موسديمون بالتفصيل المخطّط المقيت الذي رأيناه يتبعُه في سياقِ هذه القصّة. لقد أراد أمينُ السّر الخاصّ غير مرّة أن ينهض ليدافع عن نفسه، ولكن الضّوضاء العامة كانت في كلِّ مرّةٍ تدفعُه إلى كرسيّه، وأخيراً، انتهت القراءة البغيضة، وسط همهمةٍ تنمُّ عن الرّعب.

قال الرئيسُ وهو يشيرُ بإصبعه إلى أمين السّر الخاصّ:

– يا حاملي الأطبار، فليلقَ القبضُ على هذا الرّجل!

نزل التّعس عن كرسيّه، وقد فقد قوّتَه وقدرته على الكلام، وألقي به على مقعد العار، بين صراخ الدّهماء السّاخر.

قال المطرانُ:

– أيّها السّادةُ القضاة، ارتعدوا وابتهجوا. إن الحقيقةَ التي وصلت للتّو إلى ضمائركم، سوف تؤكّد لكم أيضاً بما سيعلمكم به مرشدُ سجونِ هذه المدينة الملكية، أخونا الموقّر أتاناز موندر الحاضر هنا.

كان أتاناز موندر، في الحقيقة، هو الذي يرافقُ المطران. فانحنى أمام راعيه، وأمام المحكمة، ثم أوضح فكرَتَه على النّحو التالي، بعد أن تلقّى إشارةً من الرئيس:

- ما سأقوله لكم هو الحقيقة، ولتعاقبْني السّماء إذا ما تلفّظت هنا بكلمةٍ واحدة، بقصدٍ آخر غير العمل الحسن! بناءً على ما رأيتهُ هذا الصّباح، في زنزانةِ ابن نائبِ الملك. كنت قد تصوّرتُ في دخيلةِ نفسي أن هذا الشّابّ لم يكن مَذنباً البتّة، مع أنكم، يا أصحابَ السّيادة، قد حكمتم عليه انطلاقاً من اعترافاته. وهكذا، فقد استدعيتُ، منذ بضعِ ساعات، لكي أقدّم المعونةَ الرّوحية الأخيرة للجبليّ المنكود الذي قُتِل بقسوةٍ بالغة أمامكم، والذي كنتم قد حكمتم عليه باعتباره هان الإيسلندي. وإليكم ما قاله لي ذلك المحتضرُ: «أنا لستُ هان الإيسلندي إطلاقاً، ولقد عوقبت حقاً لأنّني اتّخذتَ هذا الاسم. إن الذي دفع لي لكي ألعبَ هذا الدّورَ هو أمينُ السّر الخاص للمستشاريّة العليا، ويُدعى موسديمون. وقد حاكَ مؤامرةَ هذا التّمرد كلّه تحت اسمِ آكيت. وأظنّ أنّه هو المذنبُ الوحيدُ في كلّ هذا». حينذاك، طَلَب بركتي، وأوصى بأن آتي، على جناحِ السّرعة لانقلَ كلماته الأخيرة إلى المحكمة - واللّه شهيدٌ على ما أقول- عَلّني أستطيعُ أن أُنقذَ دمَ بريء، وألّا أتسبَّبَ في أن يهرقَ دمُ مذنب.

وصمت، وهو يحيّي من جديدٍ مطرانَه والقضاة.

فقال المطران للرئيس:

- ترى فضيلتك، يا سيدي، أن أحدَ رعاياي لم يلتقطْ خطأ الكثيرَ من التّشابه بين آكيت، وأمين سرّك الخاصّ.

فسأل الرئيس المتهم الجديد:

- يا توريا ف موسديمون، ما الحججُ التي لديك لكي تُدافَع عن نفسك؟

فرفع موسديمون نحو سيّدِه نظرةً أرعبته، فرجعت إليه ثقتُه التّامّةُ، فأجابَ بعدَ لحظةٍ من الصمت:

- لا شيء، يا سيّدي.

فاستأنفَ الرئيسُ بصوتٍ تبدّلت نبرتُه وضعيف:

- أنت تعترف إذن بأنك مذنبٌ بالجرم المنسوب إليك؟ وتعترفُ بأنّك مدبّرُ مؤامرةٍ حيكت في آنٍ واحد ضدَّ الدّولة وضَدَّ فردٍ اسمه شوماكير؟

فأجاب موسديمون:

- أجل، يا سيّدي.

فنهض المطرانُ وقال:

- يا سيّدي الرئيس، بما أنه لم يبقَ أيُّ شكٍّ في هذه القضية؛ فهل تسأل فضيلتُك المتَّهمَ إن كان له شركاء؟

فردّد موسديمون:

- شركاء!

بدا أنه يتفكّرُ للحظةٍ من الزّمن، وارتسمَ انزعاجٌ على جبين الرّئيس، فقال موسديمون أخيراً:

– لا ، يا سيّدي المطران .

وجّه الرئيسُ إليه نظرةً تنمُّ عن الانفراج ، فالتقت نظرتَهَ . فردّد موسديمون بقوةٍ أكبر:

– كلّا ، لم يكن لي شركاء البتّة؛ فقد قمتُ بتدبيرِ كلّ تلك المؤامرة لارتباطي بسيّدي الذي كان يجهلُها ، ولكي أدمّرَ عدوَّه شوماكير .

والتقت أيضاً نظراتُ المتّهم والرّئيس .

فاستأنف المطرانُ قائلاً:

– لابدَّ أن تتكوّنَ لدى فضيلتك قناعةٌ بأن البارون أوردينر لا يمكن أن يكون مذنباً ، طالما لم يكن لموسديمون شركاءُ البتّة .

– لم يكن كذلك ، أيّها المطران الموقَّرُ ، كيف يمكن له أن يكون قد أقرَّ بأنّه مجرم؟

– أيها السّيد الرئيس ، كيف أصرَّ ذلك الجبليّ على أن يقول عن نفسه إنّه هان الإيسلنديّ ، مجازفاً بحياته؟ إن الربَّ وحدَه يعلمُ ما تنطوي عليه القلوب .

بدا أوردينر يتكلّم ، فقال:

– أيها السّادة القضاة ، بوسعي أن أبيّن لكم الأمر ، الآن وقد أصبح المذنبُ الحقيقيُّ مكشوفاً . أجل ، لقد اتّهمت نفسي زوراً ، لكي أُنقذَ المستشارَ السّابق شوماكير الذي كان يمكن لموته أن يتركَ ابنتَه من غير حامٍ لها .

فعضّ الرئيس على شفتيه . وقال المطران:

- إننا نطلبُ من المحكمة أن تعلنَ براءةَ موكلنا أوردينر.

فردّ الرئيس بحركة تدلُّ على الموافقة. وبناءً على طلبِ المأمور الأعلى، تمَّ الانتهاءُ من معاينةِ العلبةِ المخيفة التي لم تعدْ تحتوي غيرَ شهادةِ براءة شوماكير وألقابه مختلطةً ببعضِ الرّسائل المبعوثة من سجين مونكولم إلى النقيب ديسبولن، وهي رسائلُ مريرةَ، من غير أن تكون آثمةً، ولا يمكنُ أن تُخيفَ أحداً سوى المستشار دالفيلد.

وفي الحال، خرجت المحكمةُ من القاعة، وبعدَ مداولةٍ قصيرة، وفيما كان المجتمعون الفضوليّون في ساحةِ الأسلحة ينتظرون بلهفة عنيدة أن يُدان ابنُ نائبِ الملك، وفيما كان الجلّادُ يتجوّل بغيرِ اكتراث على منصّة الإعدام، تلفّظ الرّئيسُ بصوتٍ خامدٍ إلى حدّ ما، بالقرار الذي يحكمُ بالموت على توريياف موسديمون، ويبرّئُ ساحةَ أوردينر غولدينليف، ويُرجعُ إليه كافّةَ أوصافهِ المشرّفةِ، ألقاباً وامتيازات.

الفصل التاسع والأربعون

ماهي إذن الفكرة المرعبةُ التي

تملؤه بالفرح[1] ؟

من "مقاطع".

بكم تبيعني مداعبتك ، أيّها المضحكُ!

إنني لا أعطي مقابلها ، في الحقيقة ، فلساً يونانياً .

القدّيس ميخائيل للشيطان "تمثيلية أسرار دينية".

كان كلُّ ما تبقّي من فيلق رماة القربينات في مونكولم قد دخل إلى قلعته القديمة . وهي بناءٌ منعزلٌ في وسطِ باحةٍ كبيرة مربّعة ، داخل أسوار القلعة . وعندما حلَّ الظلامُ ، أرتجوا ، حسب العادة ، أبوابَ ذلك المبنى الذي كان يأوي إليه كافّةُ الجنود ، با ستثناء الحراس المنتشرين في الأبراج ، وفصيلة الحراسة المتمركزة أمام السّجن العسكري الذي يستندُ إلى الثكنة . كان ذلك السّجنُ الأكثرَ أماناً ، والأفضلَ توفيراً للمراقبة من كافّة سجون مونكولم يضمُّ المدانين اللّذين يتعيّن شنقُهما في اليوم التالي صباحاً ، وهما هان الإيسلنديّ ، وموسديمون .

(١) اقتباس حذف عام: ١٨٣٣ .

إن هان الإيسلنديّ موجودٌ بمفرده في زنزانته. إنه متمدّدٌ على الأرض، وموثقٌ، ويستندُ برأسه إلى حجر: ويأتي إليه ضوءٌ ضعيف، من خلال فتحةٍ مربّعةِ الزّوايا ومشبّكة. وقد أحدثت في البابِ السّميك المصنوعِ من خشب السّنديان، والذي يفصل زنزانته عن الزنزانة المجاورة. التي يسمعُ فيها حرّاسه يضحكون ويجدّفون، على صوتِ الزّجاجات التي يفرغونها، وأحجار النّرد التي يدحرجونها على طبل. ويتحرّك الوحشُ بصمتٍ في الظّل. ساعداه يتضيّقان ويتباعدان، وركبتاه تتصلّبان وتنبسطان، وأسنانُه تعضُّ قيوده.

يرفع صوتَه فجأةً وينادي، فيحضرُ حارسُ الكوة إلى الفتحةِ المشبكة، ويقولُ اللّص:

- ماذا تريد؟

ينهض هان الإيسلندي ويقول:

- يا رفيقي، إني بارد، وسريري الحجريّ قاسٍ ورطب، فاعطني حزمةً من القشّ لكي أنام، وقليلاً من النّار لكي أتدفأ.

فيستدرك حارسُ الكوّة قائلاً:

- من الإنصاف أن نؤمّن للرّجلِ المسكين الذي سيشنقُ على الأقلّ ما يُريحُه، حتى وإن كان هان الإيسلندي. سوف أجلبُ لك ماتطلبه مني...
- هل معك نقود؟

فأجاب اللصّ:

- كلا.

– ماذا! أنت، أشهرُ لصٍّ في التّرويج. ليس لديك في خَرجك بعضُ الدّوقيات الذهبيات اللّعينة؟

فأجاب اللّص:

– كلا.

– بعض الريّالات الصغيرة الملكية؟

– كلا، قلتُ لك!

– ولا حتى بضعةُ أسكالينات بائسة؟

– كلاّ، كلاّ، لاشيء. لاشيء لأشتري به جلدَ فأرة أو روحَ إنسان.

فيهزّ حارسُ الكوّة رأسه، ويقول:

– هذا مختلف؛ فأنت مخطئٌ في شكواك. إنّ زنزانتَك ليست باردةً شأن تلك التي ستنامُ فيها غداً، من غير أن تلحظَ قسوةَ السّرير، أقسم لك على ذلك.

ما إن قال هذه الكلماتِ حتى انسحب حاملاً لعنةَ الوحش الذي واصل التحرّك في أغلاله التي كانت حلقاتُها تُحدِث أصواتاً ضعيفةً على فتراتٍ، وكأنّها قد تحطّمت ببطء تحت شدٍّ عنيفٍ ومتواتر.

انفتح بابُ خشبِ السّنديان؛ فدخَلَ رجلٌ طويلُ القامة، يرتدي لباساً صوفياً سميكاً (صرج) ويحملُ مصباحاً خافتَ الصّوت إلى الزّنزانة، ويرافقُه حارسُ الكوّة الذي كان قد ردّ التماسَ السّجين، فكفَّ هذا الأخيرُ عن القيامِ بأيّةِ حركة.

وقال الرّجلُ الذي يرتدي لباساً أحمر:

– يا هان الإيسلندي، أنا نيكول أوروجيكس، جلاّد درونتهايموس. سوف يتعيّن عليَّ غداً، عند طلوع الفجر، أن أتشرّف بشنقِ سموِّك من العنق بمشنقةٍ جميلةٍ جديدة، في ساحة درونتهايم العامة.

فردّ اللّص:

– هل أنت متأكّدٌ حقاً من شنقي؟

فشرع الجلاد يضحكُ وهو يقولُ:

– أودُّ أن تكون متأكداً من الصّعود رأساً إلى السّماء عن طريق سلّم يعقوب، مثلما أنت متأكّدٌ من الصّعود غداً إلى المشنقة عن طريقِ نيكول أورجيكس.

فقال الوحشُ وهو ينظرُ نظرةً خبيثة:

– في الحقيقة؟

– أكرّر لك، أيها السيّد اللصّ أني جلاّدُ المنطقة.

فردّ اللّصّ:

– لو لم أكن على ما أنا عليه، لوددتُ أن أكون إياك.

فردّ الجلاّد:

– لن أقول لك الكلامَ نفسَه.

ثم قال، وهو يفركُ يديه بطريقةٍ تدلُّ على الادّعاء والتأثّر بالإطراء:

– يا صديقي ، أنت على حق . فيا لمهنتنا من مهنةٍ جميلة... آه...! إن يدي تعرف ما يزنُ رأسُ إنسان .

فسأله اللّصّ:

– هل شربتَ أحياناً من دمِ بني البشر؟

– كلا ، ولكنني غالباً ما تساءلتُ عن ذلك .

– هل التهمت أحيَاناً أحشاءَ طفلٍ صغيرٍ لا يزالُ حيّاً؟

– كلا ، ولكنّي جعلتُ عظاماً تصيحُ تحت ألواحِ منصّة التّعذيب المعدنية ، ولويت أطرافاً بين قضبانِ الدّولاب؛ وشرمتُ مناشيرَ فولاذيةً فوق الجماجم التي كنت أنتزعُ منها شعرَها؛ وعذّبت بالكماشاتِ لحماً بشريّاً مختلجاً بملاقط محمّرة أمام نارٍ مستعرة ، وأحرقت الدّم في أوردةٍ مفتوحةٍ قليلاً ، بأن سكبتُ فيها جداولَ من الرّصاصِ المصهورِ والزّيت المغليّ .

فقال اللّصّ متفكراً:

– بالإجمال ، مع أنّك هان الإيسلنديّ ، أظنُّ أنه قد طار أيضاً من بين يديّ عددٌ أكبر من الأرواح مما طار من بين يديك ، بصرفِ النظر عن الرّوح التي ستسلمُها غداً .

– هذا ، إذا افترضنا أنّ لديَّ روحاً – فهل تظنّ ، يا جلاّد درونتهايموس ، أنك يمكن أن تجعل روح إنغولف تخرجُ من جسد هان الإيسلنديّ ، من غير أن يحمل روحك .

فبدأ ردُّ الجلاد بقهقهةٍ ، وقال:

– ها! حقّاً! سنرى ذلك غداً .

فقال اللّصّ:

– سنرى ذلك .

وقال الجلاّد:

–هيّا ، أنا لم آتِ إلى هنا لكي أتحدَّث معك عن روحك ، وإنما عن جسدك فقط ، اصغِ إليّ!

– إن جثّتك تخصُّني قانونياً بعد الموت . ومع ذلك ، فإن القانونَ يتركُ لك الحقّ في بيعي إياها ، فقلْ لي إذن ، ماذا تريدُ منها؟

فقال اللّصّ:

– ماذا أُريدُ من جثتي؟

– أجل ، وكنْ حيَّ الضّمير .

فتوجّه هان الإيسلندي إلى حارس الكوة قائلاً:

– قلْ لي ، يا رفيقي ، بكم تبيعُني حزمةَ قشٍّ وقليلاً من النّارْ؟

فلبث حارسُ متفكرّاً للحظةٍ من الزّمن ، وأجاب:

– بدوقيتين ذهبيّتين .

فقال اللّصّ للجلادّ:

- حسناً! تعطيني دوقيّتين ذهبيّتين مقابل جثّتي.

فهتف الجلادّ:

- دوقيّتين ذهبيتين. إن هذا سعرٌ غالٍ إلى حدٍّ مرعب. دوقيّتان ذهبيّتان مقابل جثةٍ، لعينة! كلاّ، بالتّأكيد لن أعطي هذا السّعرَ مقابلها.

فردّ الوحشُ بهدوء:

- وإذن، فلن تحصل عليها!

- سوف تُرمى إلى المقذرة، بدلاً من أن تزيّن المتحفَ الملكيَّ في كوبنهاغن، أو حجرةَ الأشياء النادرة في برغن.

- وماذا يهمُّني؟

- بعد موتك بوقتٍ طويل، قد يأتي النّاسُ ليعاينوا هيكَلك العظميّ، وهم يقولون: هل هذه هي بقايا هان الإيسلنديّ الشّهير! وقد يلمّعون عظامَك بعناية، ويربطونها بأوتادٍ من النّحاس، ويضعونها تحتَ قفصٍ كبير زجاجيّ، ويُعنون كلَّ صباحٍ بنزعِ الغبارِ عنها. وبدلاً من هذه الألوانِ من التكريم. فكّر بما ينتظرُك، إن لم تشأ أن تبيعني جثّتك، سوف تُترَكُ لكي تتعفَّنَ في رُكامِ الجثث، أو تكونَ في آنٍ مرتعاً للدّود وفريسةً للنّسور.

- حسناً، سأصبحُ شبيهاً بالأحياء الذين يقرضُهم الصّغار، ويلتهمُهم الكبارُ.

فردّد الجلادُ بصوتٍ غير واضح:

– دوقيّتان ذهبيّتان! أيُّ ثمنٍ باهظ تطلب! إذا لم تعتدلْ في سعرك، ياعزيزي هان الإيسلنديّ، فلن نستطيعَ أنّ نتعاملَ معاً.

– هذا هو أوَّلُ بيعٍ وربّما آخر بيعٍ أقومُ به في حياتي؛ فأنا حريصٌ على القيامِ بصفقةٍ مربحة.

– فـكّر بأنـني أستطيـعُ أن أجعـلك تنـدمُ على عنـادك؛ فغـداً سـتكون تحت سلطتي.

– أتظنُّ ذلك؟

جرى التلفُّظُ بهذه الكلمات بلهجةٍ أفلتت من الجلاّد.

– أجل، وهناك طريقةٌ لشدّ العقدةِ المتحركة... إلا أنك إذا أصبحتَ متعقّلاً، فسوف أشنُقك بطريقةٍ أفضل.

فأجاب الوحشُ بلهجةٍ ساخرة:

– قلّما يهمّني ما ستفعلُ بعنقي غداً.

– هيّا، ألا يمكنك أن تكتفي بدوقيتين ملكيّتين؟ ماذا ستفعل بهما؟

فقال اللّصّ وهو يشيرُ إلى حارس الكوّة:

– توجّه إلى رفيقك. إنه يطلبُ مني دوقيّتين ذهبيّتين، مقابلَ قليلٍ من القشِّ والنّار.

فقال الجلاّد معنّفاً حارسَ الكوّةِ بانزعاج:

– وكذلك، بحقّ منشار القدّيس يوسف! إنه لأمرٌ مثيرٌ للغضب أن يدفع المرءُ ثمناً للنّار والقش بوزنةٍ من الذّهب. دوقيّتان!

فردَّ حارسُ الكوّة بحدّة:

– إني طيّبٌ حقاً لأني لم أطلبْ أربعَ دوقيّات، فأنت بخيلٌ حقاً، أيها الجلاد نيكول، لأنك ترفض أن تعطي هذا السّجين المسكين دوقيّتين مقابل جثّته التي يمكنك أن تبيعها على الأقلّ بعشرين دوقيةً لعالمٍ أو لطبيب.

فقال الجلاّد:

– لم أدفعْ ثمناً لجثةٍ أكثر من خمسة عشر أسكالينا.

فأجابَ حارسُ الكوّة بسرعة:

– ثمناً لجثةِ لصٍّ رديء أو يهوديّ بائس، هذا ممكن. غير أن كلَّ إنسانٍ يعلمُ أنّك ستجني ما تريدُه من جثّةِ هان الإيسلندي.

فهزّ هان الإيسلندي رأسه.

وقال أوروجيكس بغتة:

– بماذا تتدخّل. فهل أهتمّ، أنا، بما تنهبُه، وبالملابس والحلي التي تسرقها من سجنائك، وبالماء القذر الذي تسكبه في حسائهم، وبالعذاباتِ التي تجعلُهم يعانونها لكي تسحب النّقودَ منهم؟ – كلاّ، لن أعطي دوقيّتين ذهبيتين.

فردّ حارسُ الكوّةِ العنيد قائلاً:

– لا قشّ ولا نار بأقلّ من دوقيّتين ذهبيّتين .

فردّد اللّص بثبات:

– لا جثّة بأقلّ من دوقيتين ذهبيّتين .

أمّا الجلاّد فقد خبط الأرض ، بعدَ لحظةٍ من الصّمت:

– هيّا! إن الوقتَ يستعجلني؛ فأنا مدعوٌّ إلى مكانٍ آخر .

– وسحب من سترته كيساً جلدياً فتحه بتؤدة ، وكأنّما على مضض ، وقال:

– خذْ ، يا شيطان إيسلندا اللّعين . هذه دوقيّتاك الاثنتان؛ فمن المؤكّد أن الشّيطانَ لن يعطي مقابل روحك ما أعطيه مقابل جسدك .

استلم اللّص القطعتين الذهبيّتين؛ فقدم حارسُ الكوّة يده في الحال لكي يستعيدهما .

– لحظةً يا رفيقي ، اعطني أوّلاً ما طلبتُه منك .

خرج حارسُ الكوّة ، وعاد بعد لحظةٍ من الزّمن ، حاملاً حزمةً من القشّ الغضّ ، وموقداً مستعراً وضَعَه بقرب المحكوم .

فقال اللّصّ وهو يسلّمه الدّوقيتين:

– صدقت ، سوف أتدفأ هذه الليلة .

وأضاف بصوتٍ مخيف:

– كلمة أخرى أيضاً. ألا تجاورُ الزّنزانة ثكنَة حاملي القربينات في مونكولم؟

فردّ حارسُ الكوّة سريعاً:

– هذا صحيح.

– من أين تأتي الرّيحُ؟

– من الشّرق، كما أظنّ.

فردّد اللّصّ:

– هذا جيّد.

فسأل حارسُ الكوّة:

– إلى أين تريدُ أن تصل، يا رفيقي؟

فأجاب اللّصُّ قائلاً:

– إلى لا شيء.

فقال الجلاّد:

– وداعاً، يا رفيقي، إلى الغد، إلى الغد مبكّراً.

فردّد اللّص:

– أجل، إلى الغد.

ومنع صوتُ البابِ الثّقيل الذي كان ينغلقُ مجدّداً، منع الجلاّدَ ورفيقه من سماعِ الضّحكِ الهازئ والوحشيّ والسّاخر الذي كان يرافقُ هذه الكلمات.

الفصل الخمسون

لاشيء أعمى سوى اقتدار السرّ الذي يجهلُ
الهدفَ، مع أنَه يعرفُ حقَّ المعرفة كيف
يعلّل مُقاصدِهَ، ويرتّبُ وسائِله.

البارون ويكستين (١٧٩)

هل كنت تأمُل بأن تنتهي بميتةً أخرى؟

ألكس سوميه، شاوول.

لنلقِ الآن نظرةً على الزنّزانة الأخرى في السّجن العسكريّ المستندِ إلى ثكنةِ حاملي القربينات، والذي يضمُّ أحَدَ معارفنا القدماء، وهو تورياف موسديمون.

ربما نكون قد دُهِشنا حين سمعنا موسديمون هذا، الماكر للغاية، والجبَان أشدَّ الجبن، وهو يسلّم بكثيرٍ من حسنِ النيّة سرَّ جريمته إلى المحكمة التي أدانته، ويُخفي بكثيرٍ من النبل القسط الذي أسهم به فيها حاميه النّاكرُ للجميل، المستشارُ دالفيلد؛ ومع ذلك فلنطمئن؛ فموسديمون لم يتبْ البتة. وكانت تلك النيّةُ الحسنةُ أكبرَ دليل يقدِّمه في حياته على مهارته، فحين لاحظ أن مؤامرته الجهنميّة التي كشفت بتلك الطريقة المباغتة، وثمَّ إثباتُها بشكلٍ لا يُدحَض، أُصيب للحظةٍ من الزمَن بالذّهول والرّعب. وما إن زال ذلك الانطباع الأوّل حتى أشعره سدادُ رأيه البالغ بأنه لم يعد يتعيّن عليه إلاّ أن يخلّص نفسه، بعد عجزه عن القضاء على ضحاياه المعيّنين.

(١٧٩): اقتباسَ حذف عام: ١٨٣٣

وعَرَض له قراران يمكنُ اتخاذُهما ؛ فإمّا أوأن يُحيل عن نفسه كلَّ أمرٍ يتعلق بالكونت دالفيلد ، الذي تخلىّ عنه بنذالةٍ بالغة يتحمّل تبعة كلّ الجريمة التي كان يشتركُ فيها مع الكونت. كان يمكنُ لفكرٍ عاميّ أن ينقضّ على القرار الأوَل ، ولكن موسديمون يختارُ الثاني منهما ؛ فقد كان المستشارُ هو المستشار. أضفْ إلى ذلك أنه لم يكن هناك شيء يعرّضه للشبهة مباشرة في تلك الأوراق التي تدمغ أمينَ سرّه الخاصّ. ثم أنّه كان قد تبادل مع موسديمون بعضَ نظراتِ التفاهم فيما بينهما. ولم يكن يلزمُ أكثر من ذلك ليجعلَ هذا الأخير عازماً على تعريضِ نفسه للإدانة. لثقته بأن الكونت دالفيلد سوف يسهّلُ هروبَه إقراراً بجميله لقاءَ خدماته السّابقة أقلَ مما يسهّله لحاجته إلى خدماته المقبلة.

كان يتجولّ إذن في سَجنه الذي كان ينُيره بصعوبةٍ مصباحٌ ضريحيّ، من غير أن يرتاب بأن بابه ينفتح أثناء الليل. كان يُعاين شكلَ تلكَ الزنْزانةِ الحجرية القديمة التي بناها ملوكٌ وثنيّون قدماء، مبدياً دهشته فقط لأن لها أرضيةً خشبيةً. كانت خطواته تُدوّي عليها بعمق، وكأنها تغطيّ فجوةً سردابيّة. كان يلاحظُ حلقةً ضخمةً حديديّةً مثبتةً في غَلَقَ القبّة القوطيّة التّقوُس، والتي كانت تتدلىّ منها بقيّة من حبلٍ قديم مقطوع. وكان الوقتُ ينقضي وهو يصغي بفراغِ صبرٍ إلى ساعةِ البرج وهي تدقُّ السّاعات ببطء، ساحبةً رنينَها الضريحي في صمت الليل.

وأخيراً، سُمعت حركةُ أقدامٍ خارج الزنزانة، فأخَذ قلبُه يدقُّ مفعماً بالرّجاء. وصرخ الغلَقُ الضّخمُ، وتحركت الأقفالُ، وسقطت السّلاسل، وحين انفتح الباب، تألّق جبينَه فرحاً.

كان ذلك هو الشخص الذي يرتدي ملابَس قرمزيّة والذي رأيناه منذ قليل في زنزانة هان. وكان يحملُ تحت إبطه لفيفةً من حبال القنَّب. وكان يرافقُه أربعةُ رماةٍ للأطبار يرتدون ملابسَ سوداء، وسلاحُهم السّيوفُ والحراب.

كان موسديمون لا يزال يرتدي لباسَ القضُاة، وقبعةَ الشّعر المستعار، فبدت هذه الملابُس مثيرةً لدهشة الرّجل الأحمر. فحيّاه وكأنّه معتادٌ على إبداءِ احترامه له، وسأل السّجين وهو يتردّدُ قليلاً:

- ياسيّدي ، هل لنا عملٌ معك ، ياصاحبَ اللّطف؟

فأجاب موسديمون سريعاً ، وقد تأكدّ له من هذه البدايةِ المهذّبة أمله بالهرب .

ولم يلاحظ البتةَ اللّونَ القاني لملابس ذلك الذي كان يتكلمّ .

وقال الرَّجلُ ، وهو يحدّق بالرّقّ الذي كان قد بسطه :

- أنت تُدعى توريياف موسديمون ؟

- بالضبّط . أنتم تأتون ، ياأصدقائي ، من جهةِ المستشار الأعلى؟

- أجل ، ياصاحب اللّطف .

- لا تنسوا ، بعد أن تنهوا مهّمتكم أن تُعبّروا لمعاليه عن كلٍّ اعترافي . بجميله .

فرفع الرّجلُ ذو الملابس الحمراء نحوه نظرةً مدهوشةً ، وقال :

- اعتراف . . كَ بجميله ... !

- أجل ، بلا شكّ ، يا أصدقائي ، لأنه سيكونُ متعذراً عليَّ ربمّا أن أعبّر له بنفسي عن ذلك فوراً .

فردّ الرَّجل بجوابٍ ساخر :

- ربمّا .

وتابع موسديمون يقول

- وأنتم تشعرون أنه لا ينبغي لي أن أبدو ناكراً للجميل مقابل خدمةٍ كهذه .

فصرخ الآخرُ ، وهو يضحكُ ضحكاً ثقيلاً :

- وحقٍّ صليبِ اللّصّ الطيّب ، يُخيّل إلى المرء ، حين يسمعُك أنّ المستشارَ يصنعُ للطافتك شيئاً آخر .

- بلا شكّ ، إنّه لا يردُّ لي بعد ، في هذه اللحظة ، سوى حقّي حصراً . . !

- حصراً ، فليكنْ! ولكنك في نهاية ، الأمر موافق على أن هذا عدل . هذا هو أولُ اعترافٍ أسمعهُ من هذا النّوع ، منذ ستة وعشرين عاماً أمارسُ فيها عملي . هيّا ، ياسيّدي . إنّ الوقت يمضي في الكلام . هل أنت جاهزٌ؟

فقال موسديمون فرحاً ، وهو يقوم بخطوةٍ نحو الباب .

- أنا جاهز .

وصرخ الرّجلُ الأحمر ، وهو يخفضُ رأسه لكي يضعَ لفيفةً من الحبالِ على الأرض :

- انتظروا ، انتظروا لحظة .

وتوقّف موسديمون ، وقال :

- ولماذا إذن كلّ هذا الحبل ؟

- إنك ، يا صاحبَ اللّطف ، على حق إذ تطرحُ عليَّ هذا السؤال ، فلديّ ههنا . في الواقع ، أكثر مما يلزمني فعلاً . غير أني كنت أظنُّ ، في بداية هذه الدعوى ، أنّه سيكون لديَّ محكومون أكبر عدداً .

كان الرَّجلُ يحلُّ عقدَ لفيفةِ الحبال وهو يتكلَّم على هذا النَحو ؛ فقال موسديمون :

- هيا ، لنسرعْ .

- إنَك ، ياصاحبَ اللّطف متعجّلٌ حقاً ... أليس لديك أيضاً شيء ترجوه ... (١٨٠) .

- لا شيء آخر ، سوى ذلك الرّجاء الذي وجهتُه إليك قبل قليل لكي تشكر معاليه نيابةً عني .

وأضاف موسويمون :

- من أجل الرّب ، لنسرعْ ؛ فأنا متلهفّ للخروج من هنا ، فهل لدينا طريقٌ طويلةٌ نسلكها ؟

فردّد الرَّجل ذو الملابس القرمزيةِ وهو ينتصبُ ويقيسُ بضعة أنواع من الحبالِ المبسوطة :

---

(١٨٠) : تلاعبٌ لفظيّ يقومُ على الاختلاط بين معيني كلمة : « PRiER » وهما : صلّى ، ورجا .

(م : ز .ع).

- طريق ! إن الطّريق التي بقي علينا أن نسلكها لن تتعبكم يا صاحب اللّطف لأننا سوف ننهي كلَّ شيء من غيرِ أن نَضَع قدمنَا خارج هذا المكان .

فارتعش موسديمون وقال :

- وماذا تريدُ أن تقول؟

فسأله الرَّجل الآخر :

- وماذا تريدُ أن تقولَ أنت؟

فقال موسديمون ، وقد اعتراه الشَحوبُ كأنّه يلمحُ ضوءاً مأتمياً :

- من أنت؟

- أنا الجلاّد

فارتجف التعّسُ مثل ورقةٍ يابسةٍ تهزُّهاالرّيحُ ، وقال بصوتٍ خامد :

- ألم تأتِ لكي تجعلني أهرب؟

فانفجر الجلاّد مقهقهاً ، وهو يقول :

- سيحدثُ ذلك حقاً ! لكي أجعلك تهربُ إلى موطنِ الأرواح الذي أؤكدّ لك أنه لن يتمكّن أحدٌ من استعادتك منه .

كان موسديمون قد جثا ووجهُه على الأرض : - الرّحمة ! أشفقْ عليّ... الرّحمة ... !

فقال الجلادُ ببرود :

- الحقيقة أن هذه هي المرّة الأولى التي يُطلَبُ منّي أمرٌ كهذا فيها - هل تظنّني الملك؟

كان منكودُ الخطّ يزحف على ركبتيه ، ويمرّغُ رداءَه في الغبار ، ويخبطُ الأرضَ الخشبيّة بجبينه الذي كان متألقاً من قبل ، ويعانقُ قدميّ الجلادّ بصرخاتٍ مكتومةٍ ونحيب مخنوق .

فقال الجلاّدُ بسرعة :

- هيا ! اهدأ! لم أرَ البتّة حتى الآن الرّداءَ الأسود يتصاغرُ أمام سترتي الحمراء.

ودفع المتوسِّلَ بقدمه، وقال:

- يارفيقي، صلّ إلى الربّ والقديّسين، فإنهم سيُصغون إليك أفضلَ منيّ.

بقي موسديمون جاثياً - ووجُهه مخبأ بين يديه، وهو يبكي بمرارة. ومع ذلك فإن الجلاّد، الذي رفع نفسه على رأس قدميه، كان قد مرّر الحبل في حلقة القبّة، وتركه يتدلىّ إلى أن وصل إلى الأرضيّة، ثم أعاقه بدورةٍ مضاعفة. ثمّ هيّأ أنشوطةً متحرّكة في الطرَفِ الذي كان يلمُس الأرض. وقال للمحكوم عندما انتهت تلك التحضيراتُ المنذرة:

- لقد انتهيت. فهل انتهيتَ من الحياة كذلك؟

فقال موسديمون، وهو ينهض:

- كلاّ، كلاّ، هذا غيرُ ممكن! إنك ترتكبُ مغالطةً رهيبةً. إن المستشار دالفيلد ليس سافلاً البتَّة إلى هذه الدّرجة ... فأنا ضروريّ له للغاية ... ومن غير الممكن أن يكون قد أرسلك من أجلي، فدعني أهرب. ولترتجفْ من التعرّضِ لغضبِ المستشار ...

فأجابه الجلاّدُ

- ألم تصرّح لنا بأنك تورياف موسديمون؟

ظلّ السّجينُ للحظةٍ من الزّمن صامتاً، ثم قال فجأة:

- كلاّ، أنا لا أدعى موسديمون إطلاقاً. إنني أدعى تورياف أوروجيكس.

فهتف الجلاّدُ:

- أوروجيكس ! أوروجيكس!

ونزع على عجل الشعر المستعار الذي كان يغطي وجهَ المحكوم، وأطلق صرخةً:

- أخي !

فأجاب المحكومُ بدهشةٍ يختلطُ فيها الخجلُ بالفرح :

- أخوك ، فهل تكونُ ... ؟

- نيكول أوروجيكس ، جلاّدُ درونتهايموس في خدمتك يا أخي توريّاف . (١٨١) .

ارتمى المحكومُ على عنقِ منفّذ الإعدام ، وهو يدعوه : أخي ، أخي الحبيب . ولكن هذا التّعارفَ الأخوتي لم يكن بوسعه أن يشرحَ صدرَ ذلك الذي كان يمكُن أن يكون شاهداً عليه . كان توريّاف يغدقَ على نيكول ألفَ مداعبةٍ متصنّعة ، ترافقها ابتسامةٌ متكلّفة وخائفة . وكان نيكول يردُّ عليها بنظراتٍ قاتمةٍ ومتضايقة ، حتى ليخيّل للمرء أنه يرى نمراً يلاطفُ فيلاً في اللحظة التي تسحق فيها قدمُ الوحشِ الثقيلة بطنه اللاهث .

- أيّة سعادة ، يا أخي نيكول ... إني مسرورٌ فعلاً برؤيتك ثانية .

- وأنا مستاءٌ لذلك ، من أجلك ، يا أخي توريّاف .

تظاهر المحكومُ بأنّه لم يسمعْ شيئاً أبداً ، وأخذ يتابعُ بصوتٍ مرتجف :

- لديك زوجة وأطفال ، بلا شكّ ، ولسوف تأخذني لرؤية أختي اللّطيفة ، ولأعانقَ أبناءَ أخي الظّرفاء ...

---

(١٨١) : - إن مشهد التعّارف هذا الميلو درامي (المثير) إلى درجة « عالية » في وضوحها ، يحتوي أيضاً على فلسفة العمل الأدبي ّكلها ، والذي تظهرُ مشاهدُ العنف فيه علاقةً وثيقةً بين الشخصيات التي تتعارض فيها (إيف غوان) . إن علاقة القربى بين المجرم والجلاّد ترمزّ إلى المجابهة بين الوحش والبطل في الفصل التاسع والعشرين . وهي تدشّن أيضاً ، في أعمال هيغو ، موضوعَ قتل الأخ - « إن والدي يستخفُّ بـ « هان الإيسلندي » ، ومع ذلك ، فثمة مشهد يحبّه ولا يزدريه حتى الآن ، وهو ذلك المشهدُ الذي يشنقُ فيه الجلادُ شقيقه . » (مقتطفات غير منشورة من يوميّات آديل هيغو (١٨٥٥؟) ؛ منزل ڤيكور هيغو . a . ٨٩١٢) .

- يا إشارة صليبِ الشّيطان!

- أريد أن أكـون والدهـم الثّـاني ... اسـمع ، ياأخي ، أنا مـقـتـدرٌ، ولدي اعتبار ...

فردّ الأخ بلهجةٍ مخيفة :

- أعلم أنه كـان لديك ... ! والآن ، لا تفكرْ بعد إلاّ بالاعـتـبار الذي عـرفت كيف توفّره لنفسك لدي القدّيسين.

تلاشى كلُّ رجاءٍ عن جبين المحكوم ، فقال :

- ياالله ! مامعنى هذا ، ياعزيزي نيكول؟ لقد أُنْقذتُ ، طالما وجدتك - ففكّر أن البطنَ ذاته قد حملنا كلينا ، وأن الثديَ نفَسه قد أَطعمنا ، وأن الألعابَ نفسَها قد ملأت علينا طفولتنا. تذكّر ، يانيكول أنك أخي.

فأجاب المخيف نيكول :

- حتى هذه السّاعة ، لم تكن قد تذكرتَ ذلك.

- كلاّ ، لا يمكنُ أن أموتَ بيدِ أخي ... !

- إنه خطؤك ، ياتورياف - أنت من قطعتَ مسارَ مهنتي ، ومن منعتني من أن أصبح منفداً للإعدام في كوبنهاغن ، ومن رماني ، باعتباري جلاّداً للرّيف ، في هذا البلد التعّس. لو لم تكن قد تصرّفت على هذا النحو كأخٍ سيء ، لما شكوتَ مما يغـيظُك اليـوم ، ولما كنت في درونتـهـايموس ، ولكان هناك شـخصٌ آخـر يقـوم بعمليّتك - لقد تكلمنا ، ياأخي ، بما فيه الكفاية عن هذا الأمر. ولا بدَّ من الموت.

إن الموتَ كـريه ، بالنّسـبـة للشـرّير ، وبالإحـسـاسِ ذاتهِ الذي يجـعـله جميلاً بالنسبة لرجل الخير ؛ فكلاهما سيتركان مالديهما من أمورٍ بشريةَ ، غير أن الصّالح يتخلّصُ من جسده كما يتخلّصُ من سجن. أما الشرّير فيُنتَزعُ منه كما يُنتَزعُ من قلعة. وفي اللّحظةِ الأخيرةَ ينكشفُ الجحيم للنفّس الضّالة التي حلمت بالعدم ، فتقرعُ بقلقٍ بابَ الموتِ المظلم ، إنما ليس الفراغ هو الذي يردَّ عليها.

ويتدحرجُ المحكوم على الأرضيّةً، وذراعاه يتلويان ، وهو يطلق عويلاً أكثر إيلاماً من نَواحِ هالك أبديّ- يارحمة الرّب ! يا ملائكةَ السّماء القدّيسين . إن كنتم موجودين ، ارأفوابي . يانيكول ، ياحبيبي نيكول ، باسم والدتنا المشتركة . أوه ! دعْني أعيش .

فعرض الجلادّ الرقّ الذي يحمله .

وتمتم السّجينُ اليائسُ قائلاً :

- هذا الأمرُ لا يخصنّي . وهو يتعلّق بشخصٍ اسمه موسديمون، وليس أنا . أنا تورياف أوروجيكس .

فقال نيكول وهو يهزُّ كتفيه :

- تريد أن تضحك . أعلم جيداً أنه يعينك .

وأضاف بقسوة :

- زدْ على ذلك أنك لم تكن بالأمس ، بالنسبة لأخيك ، تورياف أوروجيكس . وأنت لست اليوم، بالنسبة إليه، إلاّ تورياف موسديمون .

فردّ التعس قائلاً :

- ياأخي ، ياأخي ! حسناً ! انتظرْ حتىِ الغد! فمن غير الممكن أن يكونَ المستشارُ الأعلى قد أعطى الأمرَ بموتي . إنه سوءُ فهم مرعب، فالكونت دالفيلد يحبّني كثيراً . إني أتوسّل ، ياعزيزي نيكول ، أن تمنحني الحياة! ... فلسوف أستعيدُ في الحالِ حُظوتي ، وأُعيدُ إليك كلَّ الخدمات فقاطعه الجلاّد قائلاً :

- لم يعدْ بإمكانك أن تسدي لي سوى خدمةٍ واحدة، ياتورياف؛ فقد خسرتُ الآن الإعدامين اللذين كنت أعتمدُ عليهما أكثر من غيرهما، إعدامَ المستشار السّابق شوماكير، وإعدامَ ابن نائبِ الملك . إن سوءَ الحظّ يطالعنُي دوماً . ولم يبقَ لي إلاّهان الإيسلنديّ وأنت . أما إعدامك، باعتباره ليلياً وسريّاً، فلسوف يعودَ علي باثنتي عشرة دوقيّةً من الذهب، فدعني أقومُ به إذن بهدوء . هذه هي

الخدمةُ الوحيدةُ التي أنتظرها منك.

فقال المحكومُ بألم:

- ياألله ! ...

- ستكون هذه هي الخدمة الأولى والأخيرة، في الحقيقة، ولكن، بالمقابل، أعدك بأنّك لن تتألمّ البتّة، فلسوف أشنقك كأخ - فارضخْ.

نهض موسديمون، وكان منخراه متورّمين من الغضب، وشفتاه الخضراوان ترتجفان، وأسنانُه تصطكّ، وفمه يزبدُ من اليأس.

- أيّها الشيطان ! ... حتى لو أنقذتُ دالفيد، ولو قبّلتُ أخي، فلسوف يقتلونني. ولا بدّ أن أموتَ ليلاً في زنزانةٍ مظلمة، من غير أن يسمعَ العالمُ لَعَناتي، ومن غير أن يتمكّن صوتي من أن يزمجرَ عليهم من أولِ المملكةِ إلى آخرِها، من غير أن تستطيعَ يدي أن تمزّقَ ستارَ كلِّ جرائمهم ! ومن أجلِ الوصولِ إلى هذه الميتة، سأكون قد دنّست حياتي كلّها! وتابع يقولُ، وهو يتوجّه إلى أخيه:

- تريدُ إذن أن تكون قاتلاً لأخيك؟

فأجاب نيكول الباردُ الطّبع:

إني جلاّد.

فصرخ المحكومُ:

- لا !

وارتمى برعونةٍ على الجلاّد، وكانت عيناه تقدحان شرراً، وتسفحان الدّموع، مثل ثورٍ محاصرٍ.

وقال:

- كلاّ، لن أموتَ هكذا! ولن أكون قد عشت مثل ثعبانٍ هائلٍ، لكي أموتَ مثل الدودّة البائسةِ التي نسحقُها ! سوف أتركُ حيّاتي في عضتّي الأخيرة، ولكنها ستكونُ مميتة.

حين تكلّم على هذا النّحو، احتضن كعدوّ ذلك الذي كان يعانقه منذ قليل كأخ. وكان موسديمون الملاطفُ يبدو، في تلك اللحظة، ما كان عليه أساساً. كان اليأسُ قد حرّك أعماقَ نفسه، كما تتحرك الثمالة. وبعد أن زَحَفَ كالنمرّ. أخذ ينتصبُ مثله، وغدا من الصعب على المرء أن يقرّرَ أيّ الأخوين أكثرَ إثارةً للرّعب من الآخر، في تلك اللّحظة التي أخذا يتصارعان فيها؛ أحدهُما بالشّراسة البلهاء لحيوانٍ متوحّش، والآخر بالغضبِ الماكر لشيطان (١٨٢).

غير أن حاملي الأطبارِ الأربعة الذين كانوا حتى ذلك الوقت لا يُبدون أيَّ تأثُّر. لم يبقوا جامدين، بل مدّوا يدَ المساعدة للجلاّد. وبعدَ قليل، أجبر موسديمون الذي لم تعدْ لديه قوّة أخرى غير غضبه، على أن يُرخي قبضتَه. فراح يرتمي على بطنه. منبطحاً على الجدار، ومُطلِقاً عويلاً مجمجماً، ومثلّما أظافرَه على الحجر.

- أموتُ! يا شياطينَ الجحيم!... أموتُ من غير أن تخرقَ صيحاتي هذه القباب، ومن غير أن يقلبَ ساعداي هذه الجدران!...

أمسكوا به، من غير أن يُبدي مقاومة؛ فكان مجهودُه الذي لا جدوى منه قد أنهكه. وجرّدوه من ردائه لكي يوثقوه. فسقطت في تلك اللحظة علبة مختومةُ من ملابسه.

فقال الجلاّد:

- ما هذا؟

أخذ يلتمعُ في عينِ المحكوم الزائفة أملٌ جهنّمي، وهمس:

- كيف نسيتُ هذا؟

وأضاف بصوتٍ وديّ تقريباً:

---

(١٨٢): انظر: أوجين هيغو، «نزال الهوة» (في الملحق رقم: !).

- اسمع، يا أخي نيكول ، هذه الأوراق تخصُّ المستشارُ الأعلى ، فعدْني بأن تسلّمها إليه ، واصنع ما تشاءُ بعد ذلك .

- بما أنّك هادىء الآن ، فإني أعدكُ بأن ألبي آخر رغبةٍ لديك، مع أنك قد تصرّفتَ نحوي منذ قليل كأخٍ سيء . إن هذه الأوراقَ سوفَ تُسلَّم إلى المستشار، أقسمُ بأوروجيكس

فكرّر المحكومْ، وهو يبتسمُ للجلاد الذي لم يكن، بطبعة، يفهُم الابتساماتِ إلاّ قليلاً :

- اطلب أن تسلّمها إليه بنفسك؛ فالسّرورُ الذي سوف تجلبهُ هذه الأوراق له ربّما تجعلُك تحصلُ على تكريمٍ معيّن .

فقال أوروجيكس :

- حقّاً ، ياأخي! ربّما شهادةُ منفّذ ملكّي للإعدام، أليس كذلك؟ حسناً، فلنفترقْ كأصدقاء طيّبين . وإني أسامحُك على غرزاتِ الأصابع التي هاجمتني بها . وسامحني على طوقِ الحبالِ الذي ستتلقّاه مني .

فأجاب موسديمون :

- كان المستشارُ قد وعدني بطوقٍ آخر .

حينئذٍ ، جلبَه حَمَلَةُ الأطبارِ موثقاً إلى وسط الزنزانة؛ فمرّر الجلادُ العقدةُ القاتلةَ حول عنقه، وقال :

- تورياف ، هل أنت مستعدّ؟

فقال المحكوم الذي كان رعبُه قد عاد إليه :

- ثانيةٍ واحدة! ثانية واحدة ! تكرَّماً يا أخي ، لا تسحبْ الحبل . قبل أن أقولَ لك .

فردّ الجلادّ:

- لن أكون بحاجة لشدّ الحبل .

وبعد دقيقة، كرّر سؤاله :

- هل أنت مستعدّ؟

- لحظة أخرى أيضاً : وا أسفاه ! لابدَّ من الموت إذن!

- يا تورياف ، ليس لدي وقتٌ للانتظار .

كان أوروجيكس ، وهو يتكلّم هكذا، يدعو حملةَ الأطبار إلى الابتعاد عن المحكوم .

- كلمةٌ أخرى يا أخي! لا تنسَ أن تسلّمَ العلبةَ إلى الكونت دالفيلد .

فردّ الأخ :

- كن مطمئناً .

وأضاف للمرّة الثّالثة :

-هيّا ، هل أنت مستعدّ؟

كان المنكود يفتح فمه يلتمس ربّما دقيقةَ حياةٍ أيضاً ، حين انحنى الجلاّد وأدار زراً نحاسياً كان يخرجُ من الأرضية - فانزلقت الأرضيةُ تحت المعذّب، واختفى في الفتحةِ القلاّبةِ المربّعة، مع صوتِ الحبل المكتوم الذي كان يمتدُ بشكلٍ مفاجىء مترافقاً باهتزازاتٍ مرعبة، تسببُّها جزئياً آخرُ اختلاجاتِ المحتضر. ولم يعدْ يُرى إلاّ الحبل الذي يهتزّ في الفتحةِ المعتمة، والتي كانت تتصاعدُ منها ريحٌ رطبةٌ، وضوضاءٌ تشبهُ خريرَ الماء الجاري .

تقهقرَ حملةُ الأطبار أنفسُهم مذهولين من الرُّعب، فاقترب الجلادّ من الهوّة، وأمسك بيده الحبلَ الذي كان لا يزالُ يهتزُّ ، وتعلّق فوق الهوّة، مستنداً بقدميه إلى كتفي المعذَّب ، فانبسطَ الحبلُ المميتُ بصوتٍ مبحوحٍ ، وظلَّ بلا حركة. وكانت تأتي من الفتحةِ زفرةٌ مخنوقةٌ .

قال الجلاّد ، وهو يصعدُ مجدَّداً إلى الزنّزانة :

- هذا حسن، وداعاً ، ياأخي .

وسحب خنجراً من حزامه، وقال :

- اذهبْ لإطعام أسماكِ الخليج، وليكن جسدُك فريسةَ الماء، فيما تكون روُحك فريسةَ النّار.

عندما قال هذه الكلمات، قطع الحبل الممدود. أما ما تبقى معلّقاً في الحلقة الحديدية فقد رجع ليسوطَ القبَّة، فيما كان يُسمع الماءُ العميقُ والمعتمُ وهو يرتدُّ بسبب سقطةِ الجسم، ثم يواصلُ مسيره تحت الأرض، باتجاه الخليج.

أعاد الجلاّد إغلاقَ الفتحةِ القلاّبة كما فتحها.

وفي اللحظة التي كان ينتصبُ فيها رأى أن الزنزانة قد امتلأت بالدُّخان، فسأل حملةَ الأطبار:

- ماهذا إذن؟ ومن أين يأتي هذا الدُّخان؟

كان يجهلون ذلك مثله، ولقد فوجئوا، ففتحوا بابَ الزّنزانة، فكانت ممرّاتُ السّجنِ أيضاً غارقةً في دخانٍ كثيفٍ ومثير للغثيان. وقادهم منفذٌ سرّي. وقد اعتراهم الخوف، إلى باحةٍ مربعةِ الشّكل حيث كان ينتظرُهم مشهدٌ مرعب.

كان هناك حريقٌ هائل، يزيدُه اشتعالاً عنفُ الرّيح الشّرقية، وهو يلتهمُ السِّجنَ العسكريّ، وثكنَةَ حملةِ القربينات. كان اللَّهبُ الذي يندفعُ على شكلِ زوابعَ دائرية يزحفُ حول الجدران الحجريّة، ويكلّلُ السّقوفَ المستعرة، ويخرجُ من النوافذ التي يلتهمُها وكأنه يخرجُ من فم. وكانت أبراجُ مونكولم السّوداء تحمرُّ حيناً بإضاءةٍ مخيفة، وتختفي حيناً آخر تحت سحبٍ كثيفةٍ من الدُّخان.

لقد أخبرهم حارسُ إحدى الكوى، والذي كان هارباً إلى الباحة، أخبرهم، بكلمات قليلة أنّ النّار قد انطلقت، أثناءَ نومِ حرّاسِ هان الإيسلندي، من زنزانةِ الوحشِ الذي كانوا قد أعطوه عن طيشٍ وتهوّرٍ منهم قشّاً وناراً.

وهتف أوروجيكس، حين سمع هذه الحكاية:

- إن حظي عاثر حقاً؛ فها هو هان الإيسلندي قد أفلتَ مني بلا شك، ولا بدَّ أن المسكين قد احترق! ولن أحصلَ على جثّته التي دفعتُ دوقيتين ثمناً لها!

ومع ذلك، فإن رماةَ القربينات في مونكولم، والذين استيقظوا مذعورين بسببِ ذلك الموتِ المحيق بهم، قد أخذوا يحتشدون جماعاتٍ عند الباب الكبير. وكانت المتاريسُ المشؤومة تعيقُ هروبهم، وكانت تُسمَعُ من الخارج جلبتُهم المفعمةُ بالقلق والضيّق، ويرُوْن وهم يلوون سواعدهم عند النوافذ المشتعلة، أو يلقون بأنفسهم على بلاطات الباحة، متحاشين الموت على باحةٍ أخرى. كان اللُهب الظّافرُ يحتضنِ المبنى بأكمله، قبل أن يتسنّى الوقتُ لبقية الحامية لكي تهرعَ إليهم. كانت كلُّ نجدةٍ قد أصبحت غيرَ مجدية. وكان المبنى، لحسن الحظّ، معزولاً، فاكتفوا بتحطيم الباب الرئيسي بضربات البلطات. غير أن الوقت كان قد فات، لأنه في اللحظة التي كان ينفتحُ فيها ذلك البابُ، انهار بقرقعةٍ عظيمة هيكلُ سطحِ الثكنة المشتعل على الجنود االمنكودي الحظّ، ساحباً معه، في سقوطه، الرّدومَ والطوابقَ المحترقة. واختفى المبنى بكامله حينذاك في زوبعةٍ من الغبار الملتهب، والدُّخان المستعر، حيث كانت تخمدُ بعضَ الصرخات الضعيفة.

في اليوم التالي، لم يعدْ في الباحة قائماً سوى أربعةِ جدران عالية، وهي لا تزال سوداء وساخنةً أيضاً، وتحيطُ بكومةٍ رهيبةٍ من الرُّدوم الداخنةِ، والتي كانت مستمرّة في أن يلتهم بعضها البعض الآخر. وكأنها حيواناتٌ في سيرك. وحين تبرّدت كلُّ تلك الأنقاض قليلاً، جرى الحفرُ في أعماقها: فإذا بكومةٍ من العظام المبيضة، والجثث المشوَّهة مع ثلاثين جندياً، معظمُهم كان كسيحاً ترقُد تحت طبقة من الحجارةِ والدّعامات، والانعالِ الحديدية التي لوتها النارُ. كان ذلك كلّ ما تبقى من فيلق مونكولم الجميل.

حين وصلوا، وهم يحرّكون أنقاض السجن، إلى الزنزانةِ المشؤومةِ التي انطلق الحريقُ منها؛ والتي كان يسكنُها هان الإيسلندي، وجدوا فيها بقايا جسمٍ

بشريّ راقدةٍ بقربِ موقدٍ حديدي، وعلى سلاسلَ مقطوعة. وقد لاحظوا فقط أنه كانت هناك جمجمتان بين ذلك الرّماد، مع أنّه لا وجود إلاّ لجثّةٍ واحدة (١٨٣).

(١٨٣) : تذكّر هذه الخاتمةُ. بخاتمات برترام وفرنكشتين، وبروايةِ ماري شيلي التي ترجمت عام ١٨٢١. إن المخلوقَ الخيميائي الذي أعطاه الدكتور فرنكشتين الحياة يظهرُ في الخاتمة «كبائس» مذنبٍ، ومثيرٍ للشّفقة. ومجرمٍ ومنبوذ« مثل آدم، لم أكن مرتبطاً ظاهرياً بأي كائن حيّ، ولكن الربّ كان قد صنع منه مخلوقاً كاملاً. أما أنا فقد كنتَ تعساً، ومتروكاً، ووحيداً، وغالباً ما كنت أفكر أني أشبهُ الشيطّان أكثر»، فما من افتداء له، غير أن المحرقة التي يذبح نفسه طوعاً عليها، في أقاصي اللّيلِ القطبي، ولكونه مذنباً إلى أقصى الحدود، وبائساً عن عزمٍ وتصميمٍ تجعلهُ شبيهاً بهان».

الفصل الحادي والخمسون

صلاح الدين: أحسنت ، يا إبراهيم ! ... أنت فعلاً
رسولُ السّعادة، وإني أشكرُك على خبرك السّار .
المـمـلـوك : حسناً ؟ هذا كلّ ما هنالك؟
صلاح الدين: وماذا تنتظر؟
المـمـلـوك: ليس هناك أكثر من هذا لرسولِ السَّعادة .
ليسنغ ، ناتان الحكيم .

وهكذا ، فإن كلُّ الكبائر قد استلمت أجرها!
إد . جيرو:
الأطفال في الغابة : قصيدة غنائية . » .

يتمشّى الكونت دالفيلد بخطواتٍ واسعةٍ في شقّته، وهو شاحبٌ ومنهك، ويدعكُ بين يديه علبةَ رسائل انتهى للتوّمن تصفُّحها بسرعة، ويخبط بقدمهِ الرّخامَ الصّقيل، والسّجاجيدَ الذهبيّة السّجف.

في الطّرف الآخر من الشقة، ينتصبُ نيكول أوروجيكس مع أنّه في وضعيّة تدلُّ على الخضوعِ المفعمِ بالتوقير. وهو يلبسُ رداءَه الأرجوانيّ المخزي ، ويمسكُ بيده قبعتّه اللبّدية.

ويتمتمُ المستشارُ، وهو يصرُّ على أسنانه غيظاً:
- ياموسديمون ، لقد أدّيت لي خدمة.

فرفع الجلاّد نظرته البلهاء بخجلٍ وقال :

- هل أنت مسرورٌ يا صاحبَ المعالي ... ؟

فقال المستشار ، وهو يشيحُ بوجهه بغتةً :

- وماذا تريدُ أنت ... ؟

أما الجلاّد الذي أصبح مزهواً بأنّه قد استلفت نَظَر المستشار ، فقد ابتسم مفعماً بالأمل ، وقال :

- ما أريدُه ، ياصاحبَ المعالي؟ مركزَ منفّذ للإعدام في كوبنهاغن ، إذا كانت معاليك تتنازلُ بأن تدفعَ بهذه الحظوةِ السّامية ثمنَ الأخبارِ السّارةِ التي أحملُها إليها . !

فنادى المستشارُ على حامليَ الأطبار اللذين يحرسان باب شقته ، قائلاً :

- فليقبض على هذا الطريّف الذي تبلغُ به الوقاحةُ أن يزدريني .

فسحب الحارسان نيكول الذي اعترته الدهشةُ والذَهول ، والذي خاطر بكلمةٍ أخرى :

- ياسيّدي ...

واستأنف المستشار وهو يدفع الباب بعنف :

- أنت لم تعدْ جلاّداً لدرونتهايموس ! وأنا أُلغي إجازتَك .

وأمسك المستشارُ الرّسائلَ من جديد ، فقرأها ، وأعادَ قراءتَها بغضب ، منتشياً ، إذا صحَّ القولُ من عاره . لأن هذه الرّسائلَ هي المراسلاتُ السّابقةُ بين الكونتيتسة وموسديمون . إنها كتابةُ إلفيج . ويرى فيها أن أولريك ليست ابنته ، وربما يكون فريدريك الذي أسف عليه كثيراً ليس ابنَه . إن الكونت المنكود الحظّ يعاقَبُ بالغطرسة ذاتها التي سببّت كلَّ جرائمه . وإنه لأمرٌ قليل الأهمية أن يكون قد

---

(١٨٤) : اقتباس حُذف عام ١٨٣٣ .

شهد انتقامه يفلتُ من يده، فهاهو يرى كلّ أحلامه الطّموحة تتلاشى، وماضيه يُفتَضحُ، ومستقبَلهُ يموت. لقد أراد أن يقضي على أعدائه، ولم يُفلح إلاّ في خسارةِ اعتباره، ومستشارهِ، وحتى حقوقهِ كزوجٍ وكوالد.

إنه يريدُ على الأقل أن يرى مرّةً أخرى أيضاً تلك التعسّةَ التي خانته، فيجتازُ القاعاتِ الكبيرة بخطواتٍ سريعة، وهو يهزّ الرّسائل بين يديه، وكأنه يمسكُ بالصاعقة، ويفتحُ بابَ إلفيج، بغضبٍ ويدخل...

كانت تلك الزوجةُ المذنبةُ قد علمت للتوّ، وبصورةٍ مفاجئةٍ، بالموتِ الرهيب لابنها فريدريك من العقيد ڤوثاون.

كانت الأمُّ المسكينة قد جنَّت.

* * *

خاتمة

ما كنت قد قلته مزاحاً، أخذتموه على محملِ الجدّ.

قصائد إسبانية

الملك الفونس لبرنار.

كانت الأحداثُ التي رويناها منذ قليل تشغلُ، منذ خمسة عشر يوماً، كلَّ الأحاديث في درونتهايم ودرونتهايموس. وكان يُحكمُ عليها حسبَ الوجوهَ المختلفة التي تعرضُها تلك الأحداثُ على الملأ. إن دهماءَ المدينةِ التي كانت تنتظرُ بلا جدوى مشهداً لستّةِ إعدامات متعاقبةٍ، بدأت تفقدُ الأملَ من تلك المسرّة، والنسّاءُ العجائز الكفيفات جزئياً كنّ لاَزلن يروين أيضاً أنهنّ قد رأين، في ليلةِ حريق الثكنة المؤسِف، هان الإيسلنديّ وهو يطيرُ في اللّهب، ضاحكاً من الحريق، ودافعاً بقدمه السّقفَ الملتهبَ سقف المبنى، فوق حَمَلَةِ القربْينات في مونكولم، عندما ظهر أوردنير ثانيةً في برج ليون دوسليسقيغ، بعد غيابٍ كان يبدو طويلاً جداً بالنسبة لإيتيل» وكان يرافقهُ الجنرال لوقان دوكنود، والمرشدُ أتاناز موندر.

في تلك اللحظة، كان شوماكير يتنزّه في الحديقة، متكئاً على ابنته، وقد وجد الزّوجان الشّابان عناءً كبيراً لئلاً يرتمي كلٌّ منهما بين ذراعي الاخر. وكان لابدَّ أيضاً من الاكتفاء بالنظر. صافَحَ شوماكير أوردنير بمودّة، وحيّا الغريبين بترحاب.

قال السّجينُ العجوز:

- أيّها الشّابّ ، لتبارك السماءُ عودتك!

فأجاب أوردنير :

- ياسيّدي ، لقد وصلت ، ورأيت والدي للتوّ في برغن، ورجعت لكي أعانق والدي في درونتهايم .

فسأله العجوزُ بدهشة :

- ماذا تريدُ أن تقول ؟

- أن تعطيني ابنتك، أيّها السيّد النبيل .

فهتف السّجين ، وهو يستديرُ نحو إيتيل التي احمرّ وجهها ، وأخذت ترتجفُ :

- أجل ، ياسيّدي ، إني أحبُّ ابنتَك إيتيل ، وقد كرّست حياتي لها . إنّها لي

فظهر الغمَّ على جبينِ شوماكير ، وقال :

- إنك شابٌ نبيلٌ ولائق ، يابنيّ. مع أن والدك قد أساء إليّ كثيراً . فأنا أغفرُ له ذلك إكراماً لك . وإني أنظرُ بطيبةِ خاطر إلى هذا الاقتران، غير أن هناك عائقاً...

فسأل أوردنير وقد تملكه القلقُ تقريباً :

- وما هو ياسيّدي؟

- أنت تحبُّ ابنتي . ولكن هل أنت متأكدٌ من أنها تحبّك ... ؟

فنظر الحبيبان كلٌّ منهما إلى الآخر، وقد أسكتتهما الدَّهشةُ .

فتابع الوالد قائلاً :

- أجل ، وأنا مستاءُ لذلك ، لأني أحبُّك شخصيّاً، وكنت أودّ أن أدعوك ابني ، ولكن ابنتي هي التي لن تقبل . فقد صرَّحت لي مؤخراً بنفورها منك . . ومنذ رحيلك ، وهي تسكتُ حين أكلّمها عنك، وتبدو وكأنها تتجنّبُ التّفكير بك، وكأنّه يزعجُها . فلتتخلّ إذن عن حبّك يا أوردنير، وامضِ ؛ فالمرء يشفى من الحبّ كما يشفى من الكراهية .

فقال أوردنير مندهشاً :

- سيّدي ...

وقالت إيتيل وهي تضمُّ يديها :

- والدي ... !

فقاطعها العجوزُ قائلاً :

- هذا الزّواج يسرّني يا ابنتي. فكوني مطمئنةً ، ولكنه لا يروقُ لك . وأنا لا أريدُ أن أعذّب قلبك، يا إيتيل ؛ فقد تغيرتُ حقاً ، منذ خمسة عشر يوماً . فهيّا . لن أضغَط على نفورك تجاه أوردنير . إنك حرّة ...

كان أتاناز موندر يبتسم ويقولُ :

- إنها ليست كذلك .

وأضافت إيتيل وقد أتتها الجسارة :

- إنك مخطئ يا والدي النبيل ؛ فأنا لا أكره أوردنير .

فهتف الوالد :

- كيف ؟

فكرّرت إيتيل :

-أنا ...

وتوقّفت عن الكلام ، فجثا أوردنير ، أمام العجوز وقال :

- إنها زوجتي ، يا أبي ، فسامْحني كما سامَحَني والدي الآخر من قبل ، وباركْ ابنيك .

أما شوماكير الذي كان مندهشاً بدوره ، فقد باركَ الزّوجين الشّابين اللذين انحنيا أمامه، وقال :

- طالما كرهتُ في حياتي كلَّ تلك الفرص التي تُتاح لي حالياً لكي أبارك من غيرِ معاينة، ولكن الآن ، أوضحا لي ...

أوضحا له كل شيء، فصار يبكي حناناً، وعرفاناً بالجميل، ومحبّة.

- كنت أظنُّ أنني حكيم. ولكني عجوز، ولم أفهمْ قلبَ فتاة!

وكانت إيتيل تقول بفرحٍ طفولي:

- أنا أُدعى إذن أوردنير غولدينليف؟

فردّد العجوز شوماكير:

- يا أوردنير غولدينليف. أنت أفضلُ مني. لأنني في فترةِ ازدهاري، لم يكن لي بالتأكيد أن أُنزل من مرتبتي لأقترنَ بابنةٍ مسكينةٍ ومجرّدةٍ من منزلتها، ابنةِ رجل مغضوبٍ عليه ومنكود.

أمسك الجنرال يد السّجين، وسلّمه لفيفةً من الرُّقاقات، وقال:

- أيها السّيد الكونت، لا تتكلمّ عن هذا النحو. هذه هي ألقابُك التي كان الملك قد أرسلها مسبقاً عن طريقِ ديسبولسن. وقد أضاف إليها جلالتُه منذ قليل هبةَ العفو عنك، وإطلاقِ سراحك. ذلك هو مهرُ الكونيتسّة دو دانيّسكيولد، ابنتك.

فردّدت إيتيل:

- العفو ... والحرّية!

فأضاف الوالد:

- الكونتيسّة دانيسكّيولد!

فتابع الجنرال:

- أجل، أيها الكونت. إنك تستعيدُ كافَّة أوصافِك المشرِّفة، وتُعاد إليك كلُّ ممتلكاتك.

فسأل شوماكير المغتبط:

- ولمن أدينُ بكلّ ذلك؟

فأجاب أوردنير:

- إلى الجنرال لوڤان دوكنود.

- لوڤـان دوكنـود ! كنت أقـولُ ذلك لك، أيّهـا الجنرال الحـاكم. إن لوڤـان دوكنـود هـو أفضلُ الرّجال، ولكن لماذا لم يأتِ بنفسه ليحملَ إلـيَّ سعـادتي؟ أين هو؟

دلَّ أوردنير بدهشةٍ على الجنرال الذي كان يبتسم ويبكي:

- هذا هو!

كان تعرُّف كلٍّ من هذين الرّفيقين القديمين للآخر، وهما رفيقا عهدِ الاقتدارِ والشّباب، كان مشهداً مؤثراً؛ فقد أخذ قلبُ شوماكير ينشرحُ أخيراً. فحين عرف هان الإيسلندي، كفَّ عن كراهيةِ البشر. أما حين عرف أوردنير ولوڤان، فقد أخذ يحبُّ بني البشر.

وبعد قليل، أعلنت حفلاتٌ جميلة ورقيقة الاحتفاءَ بأبهةٍ بالقران الكئيب الذي تمَّ في الزّنزانة. فبدأت الحياة تبتسمُ للزّوجين الشابيّن اللذين عرفا كيف يبتسمان بمواجهة الموت. لقد رآهما الكونت دالفيلد سعيدين، وكان ذلك هو أقصى عقابٍ له.

حصلَ أتاناز موندر أيضاً على ما يسرُّه أيضاً؛ فنال العفوَ عن محكوميه الأربعةَ عشر، وأضاف إليهم أوردنير العفوَ عن رفاقه القدامى، في زمنِ الخطّ العاثر، وهما كينيبول وجوناس ونوربيت الذين رجعوا أحراراً وسعداء ليعلنوا لعمال المناجم الذين هدأ تمرُّدهم بأن الملكَ يحررُّهم من الوصاية.

لم يتمتّع شوماكير طويلاً باقتران إيتيل وأوردنير؛ فالحرّية والسّعادة قد هزّتا بشدّة روحَه؛ فمضى ليتمتّع بسعادة أخرى، وبحريّة أخرى. فمات في السّنة ١٦٩٩ نفسها. وجاء هذا الحزنُ ليصيبَ ولديه، كما ليعرّفهم بأنّه ما من بهجةٍ كاملةٍ على الأرض؛ فُدفن في كنيسة ڤير، وهي أرضٌ كان صهره يمتلكها في منطقة جوتلان. وقد حفظ له قبرُه كلَّ الألقاب التي كانت فترةُ السِّجن قد انتزعتها منه.

أمّا زواجُ إيتيل وأوردنير فقد وُلدت منه عائلةٌ يحملُ أعضاؤها لقبَ الكونت دانيسكيولد.

ملفّ (هان الإيسلنديّ).

سيرة فيكتور هيغو

١٧٩ - زواج مدني بين ليوبولد هيغو، المقرّر لدى المجلس الحربي، وصوفيا تربيوشيه . وفي السّنة نفسها، يتمُّ زواجٌ بين بيير فوشيه، حميّ فيكتورهيغو، وآنّ فيكتوار آسولين وهو زواجٌ يباركه سراً كاهنٌ متمرّدٌ على الكنيسة .

١٧٩٨ - ولادة أبيل هيغو .

١٨٠٠ - ولادة أوجين هيغو .

١٨٠٢- ٢٦ شباط ، ولادة ڤيكتور - ماري هيغو ، في بيزانسون

١٨٠٣- ولادة أديل فوشيه .

١٨٠٩ - صوفيا تقيمُ مع الصّبيان في الفويّانتين حيث تؤوي سراً لا وري الملاحَق، وهو (العراب) المدني لڤيكتور .

١٨١١ - في مدريد . ليوبولد يطلبُ الطَلاق .

١٨١٢ - صوفيا ترجع إلى الفويانتين مع أوجين وڤيكتور، ولا وري الذي يتورطّ في مؤامرةِ الجنرال ماليّه ، ويُعَدم رمياً بالرّصاص

١٨١٥ - أوجين وڤيكتور في مدرسة كوردييه الداخلية .

١٨١٥ - تنويه تشجيعيّ (لڤيكتور) في المسابقة السّنوية للأكاديمية الفرنسية .

١٨١٨ - التفريقُ القانونيّ بين الزوجين هيغو .

١٨١٩ -٢٦ شباط ، بدايةُ علاقةِ بين فيكتورهيغو وأديل فوشيه .

١١ كانون الأول - الدفعة الأولى من مجلة الكونسرفاتور ليترير (المحافظ الأدبي) .
١٨٢٠ - كانون الثاني : بدايةُ المراسلاتِ السرّية بين ڤيكتورِ وأديل (رسائل إلى الخطيبة) .
آذار : ڤيكتور يحصل من لويس الثامن عشر على مكافأةٍ قدرها خمسمئة فرنكاً مقابل قصيدته الغنائية : موت الدّوق دوبيّري . وتُنسبُ إلى شاتوبريان الكلمة الشهيرة عن « الطفل السّامي» .
٢٦ نيسان : أهل كلّ من الشّابين يمنعون ولديهما من أن يلتقيا أو أن يتكاتبا .
أيـــار : ڤيكتور يحصل على التسمية : « البارع في مباريات الشعر» ، التي تقيمُها أكاديمية تولوز ، ويصدر النصّ الأول لمسرحية بوغ - جارغال ، في مجلّة الكونسرڤاتور ليتيرير .
١٨٢١ - آذار : استئنافُ المراسلات مع آديل التي ترسلُ خصلةً شعر إلى ڤيكتور .
٣١ آذار - الدّفعة الأخيرة من « الكونسرڤاتور ليتيرير» ، آذار ، نيسان ، أو أيار - بدايةِ العمل في روايةٍ « هان الإيسلندي» . ٢٧ حزيران - وفاة السّيدة هيغو . ٣٠ حزيران : ڤيكتور يتوصّل إلى رؤية آديل : « يرى أنها لم تكن تعرفُ شيئاً ؛ فيأخذان بالبكاء معاً ، وتتمُّ خطوبتُهما . » تموز - رحلة من باريس إلى درو ، سيراً على الأقدام للانضمام إلى عائلة فوشيه ، أيلول : الزواج الثاني للجنرال هيغو . تشرين الأوّل : انقطاع العمل برواية : هان . ٢٩ تشرين الثاني : يدنّسَ أوجين خصلةَ شعر أديل .
١٨٢٢ - ڤيكتور يرسل إلى أديل مخطوطة روايته ؛ فتحثّه على إنهائها ، وترغمُه تقريباً على أن يطلبَ من والدها موافقته على زواجهما . فيوافق الجنرال بشرط أن يكلفّ ڤيكتور بأن يجدَ لنفسه وظيفة معُينة . استئناف العمل ب«هان » نيسان - أيّار : إقامة متقطعةّ في منزل آل فوشيه ، في جانيتيي . ٨ حزيران - نشر « قصائد غنائية ، وأشعار مختلفة ٤ أيلول - ڤيكتور يُعطى

بصورةٍ نهائية منحةً ملكية قدرُها ١٠٠٠ فرنكاً . ١٢ تشرين الأول – زواج ڤيكتور وأديل ، في كنيسة سان – سولبيس . عند وجبة المساء ، وأثناء الليل ، يُصاب أوجين بنوبة جنونٍ صريحة . نهاية كانون الأوّل : نقل أوجين إلى ڤال – دو – غراس ، وفي « شهر كانون الأوّل من رواية» هان الإيسلندي » مقابل فرنكٍ واحد لكلّ نسخة . أي ألف فرنكاً مقابل طبعةٍ عددُها ألفُ نسخة . وقد حُرّر عقدٌ بذلك ... » .

١٨٢٣ – كانون الثاني : الطّبعة الثانية للقصائد الغنائية . في ٤ شباط : بيع رواية : « هان الإيسلندي» . ٩ أيّار – الاتفاق على « طبعة » ثانية لهان (عند لو كوانت ودوري)، أُعلِنَ عنها في ١٦ تموز .

١٨٢٤ – ولادة ليوبولدين .

١٨٢٥ – رحلةٍ « شعرية وتصويرية »، في جبالِ الألب، بمناسبة تتويجِ الملك شارل العاشر في رانس .

١٨٢٦ – بوغ جارغال (النّصّ الثاني) ، ولادة شارل هيغو، وقصائد غنائية وموشّحات .

١٨٢٧ – كرومويل . (مسرحية) .

١٨٢٨– وفاة الجنرال هيغو ، ولادة فرانسوا – ڤيكتور .

١٨٢٩ – الشّرقيات (شعر) ، و « اليوم الأخير لمحكوم بالإعدام » (قصّة) . ومنع مسرحية : « ماريون دولورم» .

١٨٣٠ – هرناني ، وولادة أديل هيغو .

١٨٣١ – رواية « نوتردام الباريسيّة – ١٤٨٢ – و « أوراق الخريف» (شعر) .

١٨٣٢ – منع مسرحية « الملك يلهو» . الإقامة في بلاس روايال (بلاس ديڤوج) .

١٨٣٣ – مسرحية « لوكريس بورجيا» . ١٩ – ٢٠ شباط : « ليلة بيضاء» بين ڤيكتور هيغو وجولييت دروييه . (انظر : البؤساء ، القسم الخامس، الفصل

السادس). ومسرحية « ماري تودور».
١٨٣٤ - الأدب والفلسفة مجتمعان (دراسة) و : كلود غو « قصّة».
١٨٣٥ - أناشيد الغسق (شعر).
١٨٣٧ - وفاة أوجين هيغو في شارانتون.
١٨٣٨ - روي بلاس (مسرحية).
١٨٤٠ - الأشعّة والظّلال (شعر) . الرّحلة إلى الرّين.
١٨٤١ - انتخاب هيغو في الأكاديمية الفرنسية (١٧ صوتاً ضد ١٥).
١٨٤٢ - الرّين.
١٨٤٣ - زواج ليوبولدين وشارل ڤاكري . مسرحية : البورغراف ٤ أيلول - غرق الزّوجين ڤاكري في ڤيلوكييه.
١٨٤٥ - هيغو من أعيان فرنسا ١٧ تشرين الثاني : بداية : جان تريجان . وهي روايةُ سوف ينقطعُ العملُ بكتابتها في عام ١٨٤٨ ، « بسبب الثورة» والتي ستصبحُ « البؤس» ثم « البؤساء».
١٨٤٦ - ٧ تمور - ١٠ تشرين الثاني - ست وثلاثون قصيدة محدَّدة التاريخ ، ولسوف يجدُ العديد منها مكاناً في ديوان « التأمّلات (١٨٥٦) . ١٩ تشرين الثاني - العمل الذي تبقىّ لي أن أعمله يتبدّى لذهني وكأنّه بحر ».
١٨٤٨ - حزيران ، نائب باريس في الجمعية التأسيسية صدور الحدَثَ ، وهي صحيفةُ « عشيرة هيغو». أيلول : « خطاب من أجل إلغاء حكم الإعدام».
١٨٤٩ - هيغو نائباً لباريس في الجمعية التشريعية . خطاب : حول البؤس وضدَّ الرجعية الإكليروسية في إيطاليا ...
١٨٥٠ - خطاب ضدَّ قانون فالو.
١٨٥١ - إدانة صحيفة الحدث وولدي ڤيكتور هيغو . ٢ كانون الأول - هيغو يُطلق نداءً للتمرّد. فتبحثُ عنه الشرّطه ، ويمضي إلى بروكسيل حاملاً جوازَ سفرٍ

باسم لانقان « عامل طباعة كتابة : «تاريخ جريمة » (انظر عام ١٨٧٧) .
١٨٥٢ - نابوليون الصّغير . الأولّ من آب : الذَهاب من بروكسيل إلى جيرسيه .
١٨٥٣ - القصاص (شعر) . وبدايةُ جلسات « الطّاولات الناطقة » .
١٨٥٤ - كانون الثاني : ٢٨٨ بيتاً من « نهاية الشيطان » (انظر عام ١٨٨٦) ، أيّار : اتفاق على نشر « التأمّلات ، عند إيتزيل .
١٨٥٥ - الطرّد من جيرسيه ، والإقامة في غير نيزي .
١٨٥٦ - التأملات (شعر) .
١٨٥٧ - ١٨٥٩ : الثورة (نشر عام ١٨٨١ في « رياح الفكر الأربعة » .) ، قفا الصفحة ، (تبعثرت بعد عام ١٨٧٠) . « الرأفة السّامية » ١٨٧٩ ؛ «الحمار » (١٨٨٠) .
١٨٥٩ - أسطورة القرون (ملحمة شعرية)
١٨٦٠ - ١٨٦٢ - إنهاء رواية : « البؤساء » .
١٨٦٣ - أديل تهرب إلى لندن ، ثم إلى كندا خلف الملازم يبنسون ، ولسوف تَفقُدُ في هذه الملاحقة عقلها .
١٨٦٤ - وليام شكسبير . (دراسة) .
١٨٦٥ - أغاني الطرّق والغابات . (شعر) .
١٨٦٦ - عمال البحر . (رواية) .
١٨٦٨ - موت السيّدة ڤيكتور هيغو . الدَّفن في ڤيلّوكييه .
١٨٦٩ - الرّجل الذي يضحك (رواية) . تأسيس « النداء » على يدِ أبناء هيغو .
١٨٧٠ - إعلان الجمهورية ، عودة ڤيكتور هيغو إلى باريس .
١٨٧١ - نائب باريس في الجمعية المسماة« جمعية بوردو » . واستقالته منها . موت شارل هيغو . دفنه في باريس في ١٨ آذار . إقامة في بروكسيل . ٢٧ - ٢٨ - اعتداءُ لصوص رجعيين على مكانِ إقامة هيغو في بروكسيل . الذّهاب إلى اللّوكسمبور .

١٨٧٢ - إدخال أديل إلى مصحّ سان - مانديه . « السَّنة الرَهيبة» . ١٨ آب : العودة إلى غيرنيز يه« إلى يتوفيل غوتييه» : « أوه ! أيُّ صوت مخيف تُحدِثه في الغسق / أشجار السّنديان التي تُقتلع من أجل محرقة هرقل ... » .
١٨٧٣ - تموز . الرّجوع إلى باريس ، كانون الأول : موت فرانسوا - ڤيكتور .
١٨٧٤ -عام ثلاثة وتسعين (رواية) . و « أبنائي» .
١٨٧٥ - أفعال وأقوال (قبل المنفى ») .
١٨٧٦ - عضو في مجلس شيوخ السّين . ويطرحُ للنقاش مشروعُ قانون يتضمّن عفواً عن رجال الكومونة (الثورة العمالية الفرنسية) .
١٨٧٧ - أسطورة القرون (« السّلسلة الجديدة»)، الفنَ في أن يكون المرءُ جداً .
« تاريخ جريمة » ، (أنظر عام : ١٨٥١) : « إن هذا الكتاب أكثر من راهن . إنه ملحّ ، وأنا أنشره . » . ويخشى حدوثُ انقلاب (ماك ماهون) .
١٨٧٨ : كتاب « البابا » . احتقان دماغي .
١٨٨٠ : أديان ودين .
١٨٨١ - رياحُ الفكر الأربعة . ٣١ آب : « الرّب ، الأيّام ، أعطي كلَّ مخطوطاتي إلى المكتبة الوطنية . » .
١٨٨٣ - موت جولييت درويّه ، صدور السّلسلة التكميلية لـ « أسطورة القرون» .
١٨٨٥ - موت ڤيكتور هيغو في ٢٢ أيّار .
١٨٨٦ - نهاية الشيطان (انظر عام ١٨٥٤) تدشنّ سلسلة : المنشورات بعد الموت .
١٨٩١ - اللّه .
١٨٩٣ - القيثارة كلّها .
١٩٠١ - الغُمْر الأخير . الخ .

ملحقات

١ - « مبارزة الهوّة» (أوجين هيغو).

كان الأسلوبُ « الشّمالي » حقلَ اختصاصِ الإخوة هيغو إلى حدٍ ما، إذا اكتفينا بالحكمِ على ذلك استناداً إلى أوّلِ مأساةٍ وضع ڤيكتور خطوطَها الأولى، عام ١٨١٧ وهي « آتيلي أو السّكندناڤيون» وإلى « الأغنية النرّويجيّة» التي نشرها أبيل تحت عنوان : «بيردون لورو»، وإلى مبارزة الهوّة هذه التي عرضها أوجين على قراء الكونسرڤاتور ليترير، في شباط للعام ١٨٢٠ .

يشتمل عملُ أوجين على عددٍ من الصّفحات، وإننا نجهلُ كلَّ شيء عن مأساة : سبارتاكوس» التي كان يشتغل فيها. إن « مبارزة الهوّة يمكنُ أن تُعتَبر بحقّ أوّلَ نصٍّ للمعركةِ التي تجري فوق هوّةٍ سوف نلتقيها في « بوغ - جارغال».

(الكونسرڤاتوار ليترير من ٦ أيار - ١٧ حزيران ١٨٢٠). ونجدُ فيها أيضاً الجمجمةَ والدُّبَّ الموجودَيْن في « هان». ويمكن خصوصاً أن تُعدَّ تعبيراً لا يكادُ يكون مُقَنَّعاً لضربٍ من العقدة القايينيّة، آخذين بالاعتبار الكراهية الأخويّة تماماً التي يحملُها دانمركيٌّ وساكسوني ، كلّ منهما للآخر، فيها.

كان أوجين منذ زمن طويل يُبدي علاماتِ « عتَهٍ مبكرّ»، وقد نُقِل إلى ڤال - دوغراس ، في نهاية كانون الأوّل للعام ١٨٢٢ . وكان لابدَّ ، في نهايةِ الأمر ، من إدخاله ، في شهر أيار ١٨٣٢ ، ليقيمَ في مؤسّسةِ الدكتور إيسكيرول. وفي الثالث والعشرين من هذا الشهر ، يكون بوسع ڤيكتور أن يتبيّن أن تلك الإقامة تضرُّ به أكثر مما تفيدُه». « ويبدو أنهم لم يخفوا على أوجين بشكلٍ كافٍ أنه كان بين المجانين وهكذا ، فقد كان متأثراً جداً من تلك الفكرة ... والأكثر خطورة هو الوحدة والبطالة اللتين استسلم لهما بصورةٍ كاملة ، في ذلك المصحّ. وقد بينّت لي بعضُ

الكلمات التي أفلتت منه أنه كان يمقت ذلك السّجن، من خلال الهياج الذي كان يُصيبُ عقله. وقد قال لي بصوتٍ خفيض إنهم كانوا يغتالون نساءً في الأقبية، وأنه كان يسمعُ صراخهن. (ڤيكتور هيغو إلى والده، في ٢٤ أيار، ١٨٣٢)، وقد مات أوجين في شارنتون في ٢٠ شباط ١٨٣٧ تاركاً لڤيكتور لقبه كڤيكونت.

مبارزة الهُوَّة
(شعرٌ غاليّ إيرلندي)(١٨٥)

قال الدانمراكيّ: سوف أدركُك، سأضربُك بسيفي، وسوف تقدّمُ لي جمجمتَك في المآدب.

فأجاب السّكسوني: إن كلابي جائعة، وهي تطلبُ دمًا. ولن تكون هذه هي المرّة الأولى التي سيقدَّم لها الطعامُ قبل ابن أجدادك.

يقولُ ذلك، ويضحك ساخراً مثل غرابٍ ينعق لمرأى جثَة. فقال الدانمركيّ: انتظرني فقط: وها هو يطوفُ على حافَة الهوة، باحثًا عن ممرّله، فيجيبه السّسكونيّ الثابتُ دائمًا، والواقفُ بين أسلحته: إن المكانَ الذي انتظرُك فيه، سوف تنتظرُ فيه النّسور.

ولكن الهوّةَ التي تفصل بينهما واسعةٌ وعميقة. إنها مزروعةٌ بالصَخور، ويتدحرجُ فيها سيلٌ كأنه الرّعد؛ فيبحثُ الدانمركيّ عن ممرّله بلا جدوى، فيزمجرُ غاضبًا، ومع ذلك، تتوقّفُ الجيوشُ لمرأى المعركةِ الدائرةِ بين الهمجيين، وتصمتُ الأبواقُ. وكانت جيوش القتال تضربُ الأرض بقدمها. والدّم يقطرُ على طولِ الحراب.

---

(١٨٥) - تُرجمت هذه القطعةُ من كتاب: قلّما هو معروفٌ في فرنسا، وقد نُشر في ستوكهولم في عام ١٨٠٥، على يدِ الأستاذ العالم ب-ميرنير، وكان عنوانه: Exquisitiones philosophicae.

كانت هناك شجرةُ تنوَب، وهي شجرةُ تنوبٍ قديمةٌ قد اقتلعتها العواصفُ. وكانت أرواحُ الليّل قد دحرجتها من أعلى الجبل لكي تنزل باتجاه البحار، ولكي تقودَ إلى المناطق القصيّة الأبطالَ وأولادَهم. غير أن شجرة التنوّب قد توقّفت على حافة الهوّة، عارفةً بأنها لن ترى أبدًا معركةً أكثر رعبًا من تلك التي ستكونُ شاهدةً عليها.

يتقدّم الدانمركيّ بسرعة. وهو محنيّ الظّهر تحت حمله. أما السّاكسونيّ الذي. امتشقَ سيفَه، فيتهيئا للاندفاع إلى الجسر الذي يعدّهُ له؛ فيتوقّفَ الدانمركيُّ فجأةً، وتسقطُ شجرةُ التنوّب محدثةً دويًا على الحافتين.

لقد التقيا في وسطِ جسرٍ هشّ. أمسك كلٌّ منهما بالآخر، وقبض كلٌّ منهما على الآخر، وأخذا يتدافعان، القدمُ تدفُع القدم، والصَّدرُ يُدفع الصّدر، وكلٌّ منهما يريدُ أن ينتزعَ الآخرَ من مكانه، ويُلقي به إلى الهوّة، كلاهما ثابتان، حتى ليخيّل أنّهما لا يتعاركان إلاّ بالعيون.

فجأة، تُسمَعُ صرخةٌ، وهي صرخةٌ رهيبة، لقد انتَزَعَ السّاكسونيّ عدوَّه من مكانه، وهو يُمسكُ به بين يديه، من فوق رأسه، ويرجّحُه وهو يزمجرُ منتصرًا، ولسوف يُلقي به في الهوّة.

حينذاك شوهد الرُّعاةُ الذين كانوا قد هربوا خوفًا من المعركة، وهم يتقدّمون في أعالي الصَخور، وسُمعت ذئابُ تعوي في وحشةِ الغابات. ولوحظت بوضوحٍ في الفضاء الأشباحُ التي تحملُها الرِّياحُ التي كانت تنحني على حافّة الغيوم.

ولكن الدانمركيّ أمسك قاهرِه بإحدى يديه من شعرِه الأحمر، وباليد الأخرى. أخذ يضربه بالخنجر في وجهه، فتتحول صرخاتَ الفرحِ إلى صيحاتِ استغاثة، ويرتدُّ رأسُ السّكسوني إلى الوراء، ويترنحّ، وتزلُّ قدمه، فلسوف يهويان.

أخيراً، صاح بالمغلوب: اعفُ عنيّ: فردّ عليه الدانمركيّ: ارجع إلى الأرض، فيتقدّم السّكسوني، وقد أعماه الدّم، ويسير بخطوةٍ وئيدةٍ معلّقةٍ فوق الهوّة، وهو يمسك باستمرار عدوَّه الذي يقود خطاه بين ذراعيه.

لقد اجتازَ الهوّة أخيراً، ووضَعَ قدمَه على الأرض، فأُنقذا. وفجأةً يغيظُه الألم، فيستديرُ، ويريُد أن يلقي بعدوّه في الحفرة، فيصيحُ الدانمركيَ: مت. ويضربه. أما السّكسوني المضروبُ فيترنح، ويسقط، ويجرّ الدانمركي معه.

إنهما يتدحرجان. يتدحرجان من صخرةٍ إلى صخرة، ويسارع الجميعُ، الشعراءُ الغنائيون، والقادةُ والجنودُ إلى حافةِ الهوّة. ويرونهما وهما يمسكُ كُلٌّ منهما بالآخر، ويضربُ كُلٌّ منهما الآخر. ويتقاتلان أيضاً. وفجأة، يصلانِ إلى موضع يكون فيه الصَخرُ عمودياً، فيختفيان، ويُسمع جسماهما وهما يتحطّمان على صخرةٍ تتقدّمُ على شكلِ مصطبةٍ فوق السّيل.

يمكثان لبعض الوقت بلا حركة، وشيئاً فشيئاً تَرَى الجثتان وهما تستعيدان الحياة، وتبحثُ كلّ منهما عن الأخرى بطعنات الخناجر. توقفا! هكذا كان يردّد الشيّوخ. الشيوخ الذين ينبغي أن يكون مرآهم قادراً على إرجاع السّيوف التي جُرّدت إلى أغمادها: فكان صراخهُم بلا جدوى. إنهما ينهضان مجدّدًا، ويضرب كلٌّ منهما الآخر، ويتدحرجان. وفجأة، يحدثُ أمرٌ مرعب! يخرج دبٌّ ضخم من تحت الجليد، وينقضّ على المحاربَيْن، وتحت صرخاتِ الجيش بكامله، يسحبهُماوهو يزمجرُ إلى مغارته.

٢- من فيكتور هيغو إلى أديل فوشيه.

(١٦ شباط، ١٨٢٢)

نجد فيما يلي نصّ الرّسالة التي يقدّم فيها هيغو كشفاً بأعماله نصف السّنوية، رداً على التأنيبات التي يوحي بها والدا أديل: «كان يقال لي إنه يُخشى ألاّ

يكونَ لديك ميلٌ إلى العمل ... ولستُ أظنُّ ذلك ... ومع هذا، فهاهي ستّة أشهر قد مضت يُحتمل ألاّ تكون قد أضعتها. إنّما كان يمكنُ بلا شكّ أن تكون قد استخدمتها بشكلٍ أفضل (أديل إلى ڤيكتور، ١٥ شباط ١٨٢٢).

(السبت ١٦ شباط، ١٨٢٢)

لستُ مستاءً، يا صديقتي العزيزة، من رسالتك التي سرّتني كثيرًا، شأنَ كلّ الرَسائل التي تكتبينها لي بلهجةٍ مفعمةٍ بالحنان والصّدق. فكيف يمكنك الظّن بأنني أراك بنفور، وأنت تظهرين لي قلبكِ على المكشوف، أنا الشخص الذي لا يرغبُ في شيء عدا عن أن يكون مؤتمنًا على أفكارك؟ فكوني إذن على قناعةٍ تامّة بأنه يمكنك، بل أقول أكثر من هذا، أنه يتوجّب عليك أن تقولي لي كلّ شيء. وربّما يكون أمرًا يفتقرُ إلى النبل من جهتي أن أطلب منك أن تكلميني دومًا عن مودّتك، وليس عن قلقك أبدًا. إن قَلَقَك، من جهةٍ أخرى، يتولدّ من مودّتك. فكيف يمكنُ لهذا القلق ألاّ يروق لي؟ فحين تسألينني، كيف أستخدمُ وقتي، فأنت تفعلين، مثلما أفعلُ حين أكون في مكانك، أو ما كان يمكن لي حتى أن أفعله، بالأحرى. فأنا أتوسّلُ إليك ألاّ تهينينني باستخدام الكثير من الحذر والحيطة لكي تصلي إلى سؤالٍ على هذه الدّرجة من البساطة، وهو سؤالُ رقيق بالنسبة لي حتى. لأنه يثُبت لي أنك تهتمين بأعمالي. أليس لك حق بكلّ ثقتي، كما لي حقّ بثقتك؟ وأودُّ أن تسأليني كلَّ مساء عما صنعتُه في النّهار، لكي أحصلَ على ثناءٍ فيك، حين أكون قد استخدمت ذلك النّهار جيدًا، وعقابًا حين أكونُ قد أضعته، وأنا متأكد من أنني سأخسرُ القليل من ذلك.

يا صديقتي العزيزة، أنا مبتهجٌ بأن أرى أنك لستِ غير مكترثةٍ بما يشغلني. وقد كنت أخشى ذلك حتى الآن. وهذا هو الدافعُ الوحيد الذي أمكن له أن يجعلني ألتزمُ الصَّمتَ معك، حول هذا الموضوع. كيف! إن أصدقائي العاديين قد يعرفون الأعمال التي تشغل أيامي، وأنت، ياحبيبتي أديل، يا زوجتي، ويا عبقريتي

الملهمة، أنتِ التي أعتبرُك كلَّ شيء بالنسبة لي. لا تعرفين! لماذا لم تحدّثيني عن ذلك من قبل؟ لماذا تركتِني أظنُّ لزمنٍ طويل بأن استخدامَ وقتي، وطبيعة اهتماماتي لم تكن تهُمك في شيء؟

من المؤكدّ أنني سوف أحدِّثُ والدَك بسرورٍ عن كلّ ذلك. طالما أن علاقَةَ الثّقة هذه تُلاقي قبولاً لديك. فإذا كنت لم أفعلْ ذلك حتى الآن، يا أديل، فلأنني لستُ معتاداً البتّة على الحديث أولاً عن أعمالي الأدبية. ولست معتاداً البتة على أن ألتمس من الآخرين الاهتمام بما أصنع. وهذا احتشامٌ لا يمكن أن يفوتك فهُمه؛ فحين تعيشين معي، وحين تأخذين مكانَك في الفلك الذي أنا فيه، سوف يدهشكِ، يا صديقتي العزيزة، أن تجدي في شخصي ڤيكتوراً آخر أيضاً لم تكوني تعرفينه، وهو ذلك الذي حدثتُك عنه ذات مرّةٍ بنفور، لأني أفضلُ أكثر ألاَ أكون، بالنسبة إليك، إلاّ ڤيكتور الذي تعرفينه، عبدكِ وزوجَك. فكوني متأكّدة دائماً، يا حبيبتي أديل، أن أحَدَهما لن يضرَّ بالآخر. وبهذا اليقين وحدَه، إنّما يمكنني الموافقةُ على أن أسمحَ بوجودِ هذا الشّخصِ الثاني الذي تجهلينه في نفسي.

لن أُفصَح بوضوحٍ أكبر، لأنّه إذا كان لا بدَّ لي أن أتجرّد من كلِّ كبرياء، فسيكون ذلك معك بالتأكيد. ومع هذا، فلكي أقولَ لكِ كلَّ شيء. فأنا لم يفتْني أن ألاحظَ أن منزلك، من بين جميع المنازل التي زرتها، قد كان الوحيدَ الذي أبدى لي عدمَ اكتراثٍ فيما يخصُّ مشاغلي. وأنت تعلمينني اليوم أن مردَّ ذلك هو التحفّظ من جانب والديك. وإني أدركُ هذا تمامَ الإدراك، وإني ممتنٌّ لهما على ذلك. إنك تُلفتين انتباهي إلى أن ستةَ أشهر قد انقضت، وتضيفين أن هذه الشّهور السّتة كان يمكن لها دون شكّ أن تُستَخدمَ استخداماً أفضل مما استُخدمت. ولا يمكنني الظّنُّ بأنّ هذه هي الفكرة التي أردتِ التعبيرَ عنها لأني أعرفُ أنَك جدُّ منصفة بحيث لا يمكن أن تدينيني على هذا النّحو من غير معرفة الوقائع.

أضيف كلمةً أخرى قبل أن أصلَ إلى ما شغلني هذه الأشهر السِّتة بالتّفصيل. سوف أحدثك، يا حبيبتي أديل، عن أعمالٍ بدأتُها، وعن مؤلّفاتٍ وضعتُ خطوطَها الأولى وعن مشاريع هي، باختصار، مشاريع لم تتكلّل بالنجاح بعد. ويمكنني أن أتكلّم عليها بصفاء سريرة معك، لأنّك مفعمةٌ بالتسامح، وأنا واثق أن حبّك لي لن يقلّ بعد إخفاق عما كان عليه بعد نجاحٍ باهر. غير أنك تدركين أن جعلَ والديك يعلقّان آمالاً على مؤلّفاتٍ لا تزالُ في طورِ الولادة هو أمرٌ كان يمكن أن يُعدَّ غروراً. وهذا الاعتبارُ، إذا ما أُضيفَ إلى الاعتبار الذي ذكرتُه لك أعلاه، سوف يوضحُ لك صمتي. أما الآن، فها أنا أصلُ إلى الوقائع.

في شهر أيار الماضي، جعلتني الحاجةُ إلى الإفصاحِ عن بعض الأفكار التي كانت تلحُّ على ذهني، ولا يُقرّها شعرنا الفرنسيّ، جعلتني أشرعُ في كتابة نوعٍ من الرّواية، النثرية - كانت روحي مفعمةً بالحبّ والألم والشباب. ولم تعودي لي. ولم أكن أجرؤ على أن أبوحَ بأسرارها لأيّ مخلوقٍ حيّ؛ فاخترت مؤتمناً على السرّ صامتاً، هو الورق. وكنت أعلم، فضلاً عن ذلك أن هذا المؤلّف يمكن أن يجلب لي شيئاً. غير أن هذا الاعتبار لم يكن إلاّ اعتباراً ثانوياً. حين بدأتُ كتابي. كنت أسعى لأودعَ في مكانٍ ما اهتزازاتِ قلبي الصّاخبة، قلبي البكر والملتهب، ومرارة حسراتي، وانعدامَ اليقين في آمالي. كنت أريد أن أصورَ فتاةً تُحقّقُ المثل الأعلى للمخيّلاتِ الغضّة والشّاعرية، فتاة كما كانت طفولتي تحلمُ بها، وكما كانت يفاعتي قد التقتها، طاهرةً، وأبيّة، وملائكية. فأنتِ، ياحبيبتي أديل، من كنت أريدُ أن أصورّها لكي أواسي نفسي مواساةً حزينة، من خلال رسم صورة تلك التي خسرتُها، والتي لم تعد تظهرُ في حياتي إلاّ في مستقبلٍ بعيد. كنت أريدُ أن أضعَ بقربِ تلك الفتاة شاباً، ليس كما أنا، بل كما أودّ أن أكون. إن هذين المخلوقينِ يهيمنان على تطورٍ حدثٍ نصفه تاريخي، ونصفه ابتكار. ويُبرزُ، بحدّ ذاته، خاتمةً أخلاقيةً عظيمة، هي أساسُ هذا التأليف. وحول هذين اللاّعبين الرئيسيين،

رتَّبت عدداً من الشّخصيّات الأخرى. مخصّصة لتنويع المشاهد، وتحريك دواليب الماكنة. وكانت تلك الشخصيّات تصنّف على مختلف المستويات، حسب درجة أهميتها. كانت تلك الرّواية مسرحيةً طويلة، مشاهدُها لوحات، ينوبُ الوصفُ فيها عن زخارفِ المكان، والملابس. فضلاً عن هذا، فإن الشّخصيّات كافّةً تصفُ فيها نفسها بنفسها. وتلك فكرةٌ كانت قد أوحت بها إليّ تآليفُ ڤالترسكوت، وأردت أن أجرّبها، لما فيه فائدةُ أدبنا.

لقد أمضيتُ الكثيرَ من الوقت في تجميعِ مواد تاريخيّة وجغرافيّة، من أجل هذه الرّواية، ووقتاً أطولَ أيضاً لإنضاجِ تصوّرها. وفي ترتيبِ كتلها. والتوّفيق بين تفاصيلها. وقد استخدمت لهذا التأليف كلّ ما أمتلكه من كفاءات قليلة، بحيث أنّني، عندما كتبتُ السّطرَ الأوّل منه، كنت أعرفُ السّطرَ الأخير مسبقاً.

ماكدت أبدأ بها حتى أتت مصيبةٌ فظيعةٌ لتبعثر كلّ أفكاري، وتدمّر كلّ مشاريعي. فنسيت ذلك الكتاب. حتى وصلتُ إلى درو، فسنحت لي الفرصة لأتحدث عنه إلى والدك، ليس باعتباره محاولةً أدبية كبيرة، بل باعتباره مضاربةً مربحة. فقد كان ذلك كلّ ما يريدهُ والدُك. وحين عدتُ إلى باريس، انتزعتُ نفسي من ذلك الفتور، ورجعَ إليّ الأملُ بأن أكون لك. فعملتُ بمثابرةٍ في كتابي، حتى شهر تشرين الأوّل الماضي، وأنهيتُ الفصلَ الخامسَ عشر.

في تلك الفترة، عرض لفكري فجأةً موضوعٌ كبيرٌ لمأساة، وقد تحدثتُ عنه مع سوميه الذي نصحني بأن أفكرّ فيه حالاً. فبدأت ذلك العمل، في الوقت الذي كُلِّفتُ فيه بإعداد تقريرٍ أكاديمي كنتُ قد حدثتك عنه في ذلك الحين، فشغلني حتى نهاية شهر تشرين الثاني. وفي كانون الأول المنصرم، أعددت قصيدة غنائية عن الطاعون، وكانت قد طلبته مني أكاديميةُ مباريات الشّعرِ لإحدى حفلاتها العامة. وأخيراً؛ ففي الأوّل من كانون الثاني، كنت أريد أن أرجع إلى العمل في مأساتي، عندما أتى الصّديق نفسه والذي حدثتكِ عنه أعلاه ليعرض عليّ أن أستمدّ ملهاةً من

رواية كينيلوورث الرّائعة والتي قرأتِها. وبما أنّ هذا الكتاب يمكن أن يجلبَ بضعة آلاف من الفرنكات، فقد قبلتُ أن أساهم فيه، وفي اللحظة التي أكلمك فيها، أنهيت منه الفصلين الأولّين. ولو كان سوميه أقلّ انشغالاً مما هو عليه بمأساته كليتمنيسترا، لأمكن لملهاتنا التي أُعدُّ ثلاثة فصول منها، ويُعدُّ هو اثنين، أن تكون قد انتهت بعد شهر. ولجرى تمثيلُها بعد ستة أشهر. ولكنها ستبقى مغفلةً من أسماء مؤلّفيها. وأنا لم أوافق على تأليفِ هذا الكتاب، ياصديقتي، إلاّ من أجلك، ولكي أثبت لأهلك بأن الآداب صالحةٌ لشيءٍ مفيد.

وداعًا، فأنا على عجلةٍ من أمري، ومن الآن فصاعدًا، ياحبيبتي المعبودة أديل، توقعّي من زوجك الثّقةَ الكاملةَ؛ فلسوف أُريك مؤلّفاتي، إن كان ذلك يهمُّك. وسوف أكلّمك عن مشاريعي، وأحدّثُك عن الأحزان التي يَسبّبُها إخوتي لي. إن الأنانيةَ ونكرانَ الجميل شيئان محزنان. وداعًا. ولا تخشي أبدًا أن تكوني غيرَ متحفَظة؛ فأسئلتُك سوف تسرُّني دومًا. إني أحبُّك أكثر مما أَحبَّ أيُّ إنسانٍ يومًا. فتكرّمي بأن تسمحي لي بأن أقبّلك.

إذا لم تتمكّني من قراءةِ هذا الخطّ الرديء، فلتفكرّي بأنني على عجلةٍ من أمري حقًا؛ فالساعةُ هي السّابعة وربعًا، ولم أرتدِ ملابسي بعد. وداعًا، وداعًا.

٣- ڤيكتور هيغو، وشارل نوديه وألفونس راب.

من: (ڤيكتور هيغو، كما يرويه شاهد على حياته، الفصل: الأربعون):

«السيّد ألفونس راب».

كان ڤيكتور هيغو قد عاد إلى العمل في «هان الإيسلنديّ»، فأنجزه في الشّهرين الأولّين اللذين أعقبا زواجَه، وباعَ الطبّعةَ الأولى بألفِ فرنك إلى مركيزٍ مُفلس أصبح يعمل كُتُبيًا. وقد اشترى هذا المركيز، السيّد برسان، وفي الوقت

ذاته، الطّبعة الثانية (القصائد الغنائية) التي نشرت، تلك المرّة، بشكل لائق أكثر، فاستبدلت بوعائها الزَجاجي قيثارة (أي بحلتّها القديمة حلّة جديدة: م: ز.ع).

أفترض أن الكُتُبيَّ النبيلَ كان يؤثر الأشعارَ على النثر، لأنّه لم يتعاملْ مع «هان الإيسلندي» كما تعامَلَ مع «القصائد الغنائية»؛ ولربّما كان يقدّر، على العكس، من ذلك، أن الأشعارَ تحتاجُ إلى إثارةِ المشترين بمظهرها الخارجيَ الجميل، وأن النَّثر يؤخذُ لذاته. وأيًّا كانت فكرتُه، فإن «هان الإيسلندي» قد اكتفت بورقٍ سميكٍ رماديّ، ومطبوعٍ برؤوس المسامير. وقد صدرت في أربعة مجلَّداتٍ صغيرةً، من غيرِ اسمِ المؤلّف، تبعًا للمثال الذي كان قد قدّمه كلٌّ من رينيه وڤيرتر، وآدولفا، ورحلة حول غرفتي، إلخ ... والتي لم تكن تحملُ الطبّعةُ الأولى منها أسماءَ شاتوبريان، وغوته، وبنجامان كونستان، وكزاڤييه دوميستر، إلخ ...

أما الصُّحفُ التي كانت في غالبيَتها جدَّ متعاطفة مع «القصائد الغنائية»، فقد كانت أقلَّ تعاطفًا بكثير مع هان الإيسلندي. وقد بدأ يجري الانقسامُ إلى معسكرين. معسكرِ الاتّباعيينِ ومعسكرِ الرومنسيين[1]. وكان هؤلاء الأخيرون هم الأقلَّ عددًا، في الصّحف خصوصًا. وكان هناك الكثيرُ من الغضب، وما يعادلُه من الدّهشة. وإني أجدُ، في عددٍ قديمٍ من صحيفة لاكو تيدين (اليومية) مقالةً للسيّد شارل نودييه، يصفُ فيها جيدًا اللحظةَ الأدبية، وانطباعَ السّرورِ والقلقِ العنيف الذي كانت تحدثُه الأعمالُ الجديدةُ على العقولِ غير الميّالةِ إلى الإيذاء، وإني أقتطعُ منَها بعضَ المقاطع:

«يواصل الاتبّاعيون هيمنتَهم باسم أرسطو على الأدبِ الأوروبي»، غير أنّهم يهيمنون عليه شأن هؤلاء الملوك المخلوعينِ الذين لم يحتفظوا من اقتدارهم إلاّ على

---

(١) - لقد جرى نفيُ هذا التّضاد باسم «عبقرية هذا القرن» و «الثورة الفرنسية» في العرض الذي قدّمه هيغو لمسرحية «قتل الأب» لجول لوفيڤر. (لوريڤي، ١٩ شباط ١٨٢٣). انظر. الملاحظة رقم/ ١٦٥/.

حقوقٍ غير معترفٍ بها، وعلى جهازٍ لا جدوى منه للقبِ لا سلطةَ له. إن ميدانَ هذه الحقوق لم يعد سوى صحراء، نتاجاتُها الذابلةُ والذاويةُ لا تشهدُ، وهي تولدُ منها، إلاّ على الفقرِ القاحل لأرض «مستنفدة» وطبيعة منهوكة. فإن تشرع الآداب بإقامةِ آبدةٍ جديرة بالأجيال اللاحقة، فإن ذلك سيكونُ على أرضيةٍ أخرى. فإذا ما ارتفعت موهبةٌ ما مفرطةٌ بالآمال الغنيّة، فإنما يكونُ ذلك تحت رايةٍ أخرى. إن الاتّباعيين على حقّ، في الصّحف، وفي الأكّاديميّات، وفي المنتديات الأدبية، وفي الصّالونات. إن النّاسَ يُقرّون بالأوّلين. ولكن الآخرين هم الذين يقرؤون، والكتابُ الأكثر تميّزًا الذي يمكن أن يخرجَ اليوم من المدرسةِ الجيّدة لن يقتسمَ للحظةٍ واحدة الانتشارَ الذي لا يمكنُ مقاومتُه للأحلامِ المفرطةِ في غرابتها غالبًا، والتي تزحزُ بها المدرسة الرّديئة. ما الذي ينبغي أن نستنتجُه من ذلك. إن لم يكن أن حالةَ المجتمع قد تغيّرت، وأن حاجاته أيضًا قد تغيرّت أيضًا، وأن نظامَ الأشياء هذا لا يمكنُ إصلاحُه، كما لا يمكن تحاشيه، وأنه، إذا لم نأخذ الأدبَ كما هو، فإننا ندخلُ في مجازفةٍ كبرى هي ألاّ يعود لدينا أدبٌ إطلاقًا؟ ... إن إحدى صفاتٍ هذا الأدب الجيّد، ولعلّها ليست الصّفةَ التي تجعله مزدرىً في عيونِ شعبٍ محبٍّ لوطنه، هي تلك الملاحظةُ الدقيقةُ للطّباع، والأماكن التي تنقلُ تعاليمَ التّاريخ إلى تخييلاتِ الخيالِ ذاتها...

لقد غدا الموقرّ ما توران شهيداً في هذه المدرسة، من خلال حكاياتٍ تدورُ على المسوخ، من أمثال ميلموت(٢) ومونتوريو... وكان يُظَنّ أن المؤلّفَ قد استنفَدَ من خلال توفيقاتِه الفظيعة كلّ ضروبِ الهول التي يمكن أن يُرعبَ بها الفكر ذلك الشعرُ، شعرُ محكَمة الجنايات، وعاصمةِ الجحيم الذي أطلق عليه بشكلٍ موفقّ إلى حدٍ كافٍ تسمية «النوّع الّهوَسيّ» والذي سيحتفظ بهذه التسمية ربّما، مع أنّها قد

(٢) - سيقول هيغو، فيما بعد، إنه لم يقرأ قطّ رواية ما توران المخيفة: ميلموت أو: «الرّجل الهائم». مقتطف لم يُنشَر من يوميات أديل هيغو [١٨٥٥؟]، (منزل ڤيكتور هيغو ٨٩١٢. a).

فُرضت عليه فرضاً على يدٍ ناقدٍ لا تأثير له، ومع ذلك، فقد وُجد في ذلك الجيلِ الجديد من الشعّراء، والذي صَنَع في فرنسا نجاحَ النوع الرّومنسيّ، وُجد منافسٌ لذلك الرّوائي الإنكليزي الكئيب الذي لم يوفّق إلى حدٍ كافٍ في تخطيّه، من حيث المبالغة المرعبة، مبالغة الوسائل، والذي كان متعجّلاً، مثلما يكون المرءُ في مثل سنّه، في صرف كلّ إمكاناتِ خياله، والذي بدا حريصاً أكثر، بصورةٍ مباغتةٍ، على إظهارِ مزايا الملكَاتِ التي حبته بها الطبيعةُ والدراسةُ أكثر من حرصه على توفيرها بمهارةٍ من أجل شهرته.

إن هناك محاولات، بين النّاس الذين أُعدّوا إعداداً معيّناً، تجعلُ المجدَ هدفاً لها، مثلما كانت هناك محاولاتٌ تطمحُ إلى السّعادة واللّذة، إن العقولَ المبكرة النّضج، والحساسيات العميقة لا تحسب المستقبل، بل تلتهمه التهاماً؛ فأهواء روحٍ شابّة ومقتدرة لا تعرف الغد بتاتاً، وهي تظنّ أن بوسعها أن تشبع كلّ الطمّوحات، وكلّ الآمال، من خلال الشّهرة، ومن خلال مسرّات يومٍ واحد. لقد كانت «هان الإيسلندي» نتيجةَ توفيقٍ مماثل، إذا سميّنا توفيقاً الغريزة اللاّ إراديّة لعبقريةٍ أصيلةٍ تخضعُ، من غير أن تدري، لاندفاعٍ غريب عن مصالحها الحقيقيّة، غير أن مسارَها الإبداعيّ الجميلّ والواسع يمكن أن يسوّغ كلّ ما وعَدَت به من خيرٍ الخطيئةُ الموفقةُ لانطلاقها، وتفتدي كلّ ما خوّفَت منه.

يحقّ لعددٍ صغيرٍ جداً من الناس أن يبدؤوا بأخطاء مماثلة، وألاّ يدعوا أخطاءً أخرى يتناولها النَقد، إلاّ تلك التي ارتُكبت طوعاً. لن أحلَل «هان الإيسلندي» أو، على الأصحّ، سأعطي عنها فكرةً حقيقيةً أكثر مما يمكن أن يصنَعه التّحليلُ الأكثر دقّة، فأقول: «إن هان الإيسلنديّ» هي من تلك المؤلّفات التي لا يمكن أن نجرّدها عن الإجماليّ العام لتنفيذها، من غير أن نقعَ في تصويرٍ مشوّهٍ مجحفٍ بقدر ما هو سهل. فلنتصورّْ مؤلّفاً محكوماً بإرادته الخاصَة بأن يبحثَ بعناءٍ في كلّ ضروبِ العجز الأخلاقي في الحياة، وفي كلّ فظاعات المجتمع، وكلّ البشاعاتِ

الفائقة، وكافة ضروب الانحطاط، وكافّة الاستثناءات القبيحة، في الحالة الطبيعيّة، والحالة المتمدّنة، لكي يختارَ من هذه النّفايات البشعة بعضَ التشوُّهات المقزّزة التي أضفت اللغّات البشريّة عليها أسماءً للتوّ، كالمشرحة، ومنصّةِ الإعدام، والمشنقة، وآكلِ لحوم البشر، والجلاّد، ولا أدري بعد أيّ شيء لم يُسمَّ أيضاً، لأنّه يعلّقُ على هذه الحالاتِ الأخيرة طموحاتٍ مقيتةً، ومباهجَ غير مفهومة. . ولماذا تظنُّ موهبةٌ كهذه أنها مجبرةٌ على اللّجوء إلى زخرفاتٍ مماثلةٍ كان من اليسير عليها إلى حدٍّ كبير أن تستغني عنها!

«لقد أعطت المعرفةُ التفصيليّةُ للأماكن والدّراسات الجيدة جداً في إعدادها، أعطت مؤلّف «هان الإيسلنديّ» إلى درجةٍ معينة، ذلك الصّدقَ الطريّفَ في اللّون المحلّي، والذي يميّزُ مؤلّف ڤاڤيرلي، أقول، إلى درجةٍ معينة، لأني كنتُ أرغب في أن يكونَ في لوحاتهِ التّصويرية بعضٌ من المؤثّرات التي كان من اليسير جداً أن يستمدّها من القياس غير المعتاد للأيامَ ومن غرابةِ الفصولِ القطبية، لأن سماءَ خطوطِ العرض القريبةِ من القطب التي صوّرها مألوفةٌ لديّ أكثر منه ربّما. ونتعرّف، فضلاً عن ذلك، في «هان الإيسلندي» قراءةً جيدةً للإيدا وللتاريخ، وكثيراً من اتّساع المعرفة، وكثيراً من الفكر، وحتى ذلك الذي يتولّد من السّعادة والذي نسمّيه بالمرح، وحتى ذلك الذي يأتي من الخبرة، والذي لم يتسنَّ الوقتُ للمؤلّف أن يكون مديناً به للتردُّد على المجتمعِ الراقي، وعلى الملاحظة. ونجد في هذه الرّواية أخيراً أسلوباً حيّاً ومشوّقاً، ومفعماً بالقوّة، وبما هو أكثر إثارةً للدّهشة، برهافةِ الذَوق، ورقّة الشّعور اللذين هما من مكتسباتِ الحياة، واللذين يتباينان هنا، بالصّورة الأكثر إدهاشاً مع الألعاب الهمجيةِ لخيالٍ مريض. ومع ذلك، فليست كلُّ هذه الصّفات هي التي ستصنعُ انتشارَ هان الإيسلنديّ، والتي ستُجبرُ مينوس، عالمَ المكتبة الصّارم على الإقرار بالتوزّيعِ الحقيقيّ والمشروع لإثني عشر ألف نسخة من هذه الرّواية التي يريدُ الجميع أن يقرأها، بل هي نواقصُها».

لم يكن مؤلّف هان الإيسلندي يعرف السَّيد شارل نودييه إلا اسماً؛ فمضى ليشكره وصعد ثلاثةَ طوابق في شارع بروڤانس، وقرع الباب، فأتت فتاةٌ شابة باسمةَ الوجه لتفتح له:

- السّيد شارل نودييه؟

- لقد خرج والدي، أيّها السّيد.

- هل يمكن أن أكتبَ كلمة؟

فيما كانت الفتاةُ تبحث عن ورقٍ للكتابة، كان ڤيكتور هيغو ينظرُ إلى غرفةِ الانتظار التي كانت في الوقت ذاته غرفة الطّعام، والتي كان أثاثُها المؤلَّف من كراسي من القشّ، ومن منضدة، وصوانٍ للسّفرة من خشب الجوز، يبرز مظهرها البورجوازيّ ذا النّقاء الفلمنديّ.

وفي اليوم التّالي، هرع السّيد نودييه إلى منزل ڤيكتور هيغو الذي يقطن في المجلس الحربي، وكان الملك قد منحه، من تلقاء ذاته، منحةً ثانية مقدارُها ألفا فرنك على حساب وزارة الداخلية. وإذ أصبح غنيًّا، فقد أراد أن يسكن في منزلٍ له، وانتقل للتوّ إلى شارع ڤوجيرار، رقم: ٩٠، فأحسّ كلٌّ من الرّوائيّ وناقدهُ بأنهما صديقان حين التقيا. وكان قد جرى اتفاقٌ في الحال على أن يأتي السّيد نودييه للاحتفالِ بالبيت الجديد، وأن يصطحب زوجته وابنته. أمّا السّيدة نودييه التي لم تكن قد التقت قطّ السّيدة نودييه التي لم تكن قد التقت قطّ السّيدة ڤيكتور هيغو، فقد قبلت الدّعوةَ بالبساطةِ الذّكية التي كانت تتصفُ بها في كلّ شيء، فأتت هي وابنتها من غير أن تتمنّع خلافاً لعادتها، فكانت بين النّساء الثّلاث بدايةُ مودّةٍ استمرّت مدى الحياة.

أما السّيد ميري[٣]. فقد كان من بينَ المدافعين النادرين عن «هان الإيسلندي» وهو أحدُ أكثرهم شجاعةً في ذلك. وقد قدَّمت «الدَفاترُ الشّاملة» التي كان محررّها الرّئيس. إلى الرّواية دعمها المضاعف، فوصفتها بالقوّة والموهبة. وكان للسّيد ميري معاون هو السّيد الفونس راب. وكان مرسيليًا مثله، وعلى حظّ كبير جداً من الوسامة، ولكن مرضاً فظيعاً قدشوّه وجهه، فقد تآكلت أجفانه، ومنخراه وشفتاه، ولم يعد لديه لحية، وأصبحت أسنانُه كالفحم، ولم يحتفظ إلاّ بشعره الذي كانت خصلاتُه الشقراء تتموّج على كتفيه. وبعينٍ واحدةٍ كانت نظرتها الأبيّةُ، التي تضاف إلى ابتسامةٍ حازمة وصريحة، تلقي ومضةَ جمالٍ على ذلك القناع المنفرّ. كان قد أنشأ في مرسيليا صحيفةً معارضة هي: الفوسيين، ثم أتى إلى باريس، حيث كان يعمل في دورية كورييه فرانسيه (البريد الفرنسي) وفي التّابليت أو ينفرسيل (الدّفاتر الشّاملة). وقد جعلته حلقاتٌ مسلسلةٌ قام فيها بمساندة «هان الإيسلندي»[٤] بقوّة، جعلته يرتبطُ بعلاقات مع المؤلّف الذي أصبح يحمل له في الحال وداً أبويًا؛ فقد كان يكبرهُ بعشرين عاماً. أما هو، فقد راق لڤيكتور هيغو بطبعه العنيد والحازم. وغالباً ما كانا يلتقيان خصوصاً في منزل السّيد راب. لأنّه كان يتحاشى الخروج، بسبب شكله. ومع ذلك، فقد كان ڤيكتور هيغو يحصلُ أحياناً على موافقته على المجيء إلى بيته.

---

(٣) - جوزيف ميري (١٧٩٨-١٨٦٥) معروف خصوصاً بالاشتراك مع بارتيلمي في:
« لاڤيليلياد» (١٨٢٦)، وفي «لاكور پيبربيد» (١٨٢٧). وفي: «نابوليون في مصر». وفي «فيميزيس» (١٨٣٢)، وهي هجائياتٌ شعرية للاتجاه «الليبرالي - البونا برتي»، وقد اشترك في تحرير ليڤينمان (الَحدَث)، وهي صحيفةٌ «جماعية هيغو»، في عهد الجمهورية الثانية. ولسوف يساندُ شارل هيغو في مبارزته مع شارل ڤينيو (٦ تشرين الثاني ١٨٥٠)، وحول «اللوآئح الشاملة» (حزيران ١٨٢٢- آذار ١٨٢٤). والبريد الفرنسي (كورييه فرائسيه)، انظر: كتاب: إيڤون كينبيلر: «مينييه والتّاريخ الفلسفيّ في القرن التاسع عشر، فلا ماريون، ١٩٧٣ - الصفحات: ٦٦-٧٥». وانظر أيضاً الملاحظة التي تدور على لوكوانتر ودوراي» أدناه الملحق رقم / ٤/ .

(٤) - لم تنشرْ، لا اللّوائح الشّاملة، ولا البريد الفرنسي دراسةً متسلسلةً مكرَّسةً لهان الإيسلنديّ. ===

حتى أنه ذات مرّة، جعله يقرّر القبول، فيتناول العشاء في منزله، فقد كان السيّد راب يرغب في معرفة السيّد لامونيّة.

قال السيد ڤيكتور هيغو:

- حسناً! سأدعوك إلى العشاء، وسوف تأتي لتناوله معنا.

قال السيّد راب:

- فليكن.

=== ويمكن أن نقرأ بالمقابل في الدّفعة / ٣٣/ من «اللوائح الشّاملة» ١٧ حزيران، ١٨٢٣، مقالةً بعنوان «من جهة اليسار، من جهة اليمين، ومن الوسيط، في جمهورية الآداب». ويُحسَبُ للنزعة الملكية» تفدُّمها في «النّوع الغنائي» لأن هذا النّوع مصنوع بكاملة من الحماسة والحميّة والخيال: «فالذّكريات تمارسُ فيه قدرةً كبيرة، وانسجامُ الكلام ليس من بين جماليات القصيدة الغنائية الأقلّ شأناً، وهكذا، فإن الجانب الأيمن للأدب يمكنه أن يفخر بأنه قد أعطى العصر الحالي أحَدَ أولِ الشعراء الغنائيين في لغتنا، وهو السيّد ألفونس دو لا مارتين. أما السّادة هيغو الأكثر تفاوتاً فيما بينهم إلى حدٍّ كبير، والأقلّ جاذبية، فقد حصلوا من النّثر الغنائيّ على جماليَات ذات مستوى رفيعٍ جداً. أما «رواية الخيال»، «فالمجدُ فيها من حقّ الحزب الملكي بلا منازع». «وهي تبينُ للأرض بأكملها العبقريةَ الأكثرَ تألقاً ربّما في عصرنا: فما الذي يمكن أن تقارنَه، في الحقيقة، بكتاب «العبقرية المسيحيّة» وكتابه «الشهداء»... ÷ لاشيء، بلا شكَ، اللّهم إلاّ رواية ڤالترسكوت... إنها لملاحظةٌ فريدة أن تكونَ الطريقة الرومنسيّة التي تبدو أنها إصلاحٌ، وثورةٌ في الأدب، أن يتبنّاها الكتّاب الملكيّو النزعة بصورةٍ أكثر عمومية... لقد كان لمدام دوستال خصوصاً الفضلُ الفريدُ في أنها جمعت بين فكر التجّديد في الفلسفة، وفي السّياسة، وفكرِ التجديد في الأدب. إن العديد من الشبان الذين هم أمل الأدب الحالي النبيل، ويؤمنون بآراء مدام دوستال السياسية، يستقبلون أيضاً هذه النظريات الأدبّية، ويتذوّقون كتابات مدرستها، ويبدو لي حتى أننا، حول هذه النقطة، نسيرُ نحو ثورة. وبانتظار ذلك، فالاغتناءُ يجري من الجهة اليمنى بما نجهله. أما السّيد شارل نودييه، فهو، إذ يبالغ في تلاوين النّوع الرّومنسي؛ فقد بلغ أحياناً قممه الرّفيعة، وعرف كيف يعمّم نجاحاتِها فيما بيننا. وقد استمدَّ السّادةُ هيغو من هذا النّوع جماليّاتٍ رائعةً، في النّثر والشّعر (المقالة الموقعة: س... «مسّجل في الإدارة، من الجهة اليمنى، وفي الزنزاناتِ الفردية لشرطته»).

يمكن الرّجوعُ إلى ل. د. ڤيكلاڤيك: ألفونس راب في المعمعمةِ السياسيّة والأدبية لعهدِ إعادة الملكية، نيزيه، ١٩٦٣.

ولكن كلمةً وردت أثناء الحديث أعلمته بأن السيّدة ڤيكتور هيغو كانت حاملاً، فلم يقلْ شيئًا، غير أنه في يومِ العشاء، كتب أنه مريض، وخلال بضعةِ أشهر، لم يعدْ إلى الظهور في شارع ڤوجيرار، وحين عاتبه السيّد ڤيكتور هيغو على أنه لم يعدْ يأتي لرؤيته، وألحّ على معرفة السبّب، أجابَ المشوّهُ المسكين:

- إن زوجتك حامل.

٤- عقد للنّشر في عهد إعادة الملكيّة.

إن العقدَ المتّصلَ بالطبّعةِ الأصليّة لهان (برسان وشركاه، شباط ١٨٢٣) لم يصلنا، وسوف نجدُ هنا الاتّفاقَ الموقّع في ٩ أيّار، ١٨٢٣، بين ڤيكتور هيغو والسّيدّين لوكوانت ودوراي، على طبعةٍ ثانية (المطبعة الوطنية، المخطوطات: n. a. Fr. 24794. F.10) أمّا عدمُ تحفّظٍ أحدِ الصّحفيين الذي أعلن عن صدور «الطبعة الثانية لهان الإيسلندي» (١١أيار ١٩٢٣) فهو أَساسٌ في الحربِ الكلاميةِ التي دارت بين ڤيكتور هيغو وناشره الأولّ؛ فقد كان هذا الأخيرُ يظنُّ أنَ عليه أنَ يخبر الجمهور «بأنّه قد تبقى لديه أكثر من خمسمائة نسخة من الطَبعة مخزونة». فاحتجّ هيغو مذكرًا بأن بيرسان قد أفلس قبل شهرين من ذلك التاريخ من غير أن يدفعَ له استحقاقه. فبرّأ مَدينُه نفسه في ٢٣ أيار مستمداً حجّته من «الوضع المؤسف الذي تجد نفسها فيه تجارةُ الكتب، والتي تُعاني كلْ يوم من خسائر جديدة، وتشهدُ ظهورَ إفلاساتٍ عديدة». إن هذا المناخ، مناخَ المضاربة، يرتبطُ، في ذلك العهد، باحترافِ مهنة الكتابة، وهو مناخ القصة التي كتبها بلزاك عن مغامرات «رجلٍ عظيمٍ من ريف باريس». من القسم الثاني من «أوهام ضائعة». ولنوضح أنه، خلال اجتماع الدائنين حول إفلاس بيرسان، في نهاية تشرين الثاني لعام ١٨٢٥، قام ڤيكتور هيغو بإبراء بيرسان من دينه، ودافع عن قضيّته بشهامة.

أما عن ناشريه الجدد، فليس أمرًا عديمَ الأهمية أن نلاحظَ أنهّم كانوا يتهيئون لنشر تاريخ الثورة الفرنسيّة لتيير، في تموز ١٨٢٣، وهو عمل يناسبُ الظرّف

القائم، وذو نَفَس ليبراليّ، ومكرّس تماماً «لتبعات الثورة». ومن بين مؤلّفي المجموعات، نذكر: كونديّاك (الأعمال الكاملة، «في ستة عشر مجلداً، بقطع الثّماني أوراق، ومطبوعة على ورق «جميل» جداً») وهناك، خصوصاً، فيليكس بودان، معاون تيير، وألفونس راب (موجز تاريخ إسبانيا). وتتمدّد عموماً بداياتُ الصّداقة بين هيغو وألفونس راب بتاريخ نشر «هان»؛ فراب، حسب الشّاهد الذي روى حياة ڤيكتور هيغو (الفصل الأربعون). لا بدّ أنه قد سانَدَ الرّوايةَ مساندةً قويّة، في دراسةٍ مسلسلة نُشِرت في الكورييه فرانسيه اللّيبرالية جداً، أو في «اللّوائح الشاملة (تابليت يونيڤرسيل). ويجدرُ بنا أن نفكرّ بالطّريقةِ التي حرص بها على ألاّ يتضامن، لدى أبيل هيغو، مع الهجمات التي كان ڤيكتور هدفاً لها في الصّحافة الليبراليّة (رسالة الأوّل من كانون الأوّل، ١٨٢٢، والتي أوردها ج. مارسان، في طبعة لكتاب: ألبوم (مجموعة) رجلٍ متشائم. «الصفحات: ٢٢-٢٣». وفي الأول من تشرين الأول ١٨٢٣، تشهد أيضاً رسالةٌ من الجنرال هيغو إلى ألفونس راب على علاقاتِ عائلة هيغو مع ذلك الممثل الذائع الصّيت للمعارضة الليبراليّة (رئيس الدّير ب. ديبوا، سيرة ڤيكتور هيغو وأعماله، الصفحة: ١٥٣)، ذلك هو السّياق الذي يجدر أن يقوَّم من خلاله «الإعلان» عن الطبّعة الثانية المزيدة بقصيدتين غنائيتين جديدتين» لأشعار ڤيكتور هيغو الغنائية. وهي طبعة لا نعرفُ منها في الواقع إلاّ النّسخ التي عرضت للبيع على يد بيرسان في ٣١ كانون الأوّل ١٨٢٢. وذلك في الفهرس الموجود في نهاية الطبعة الثانية لهان. وهكذا نرى المدافعَ عن «حقائقِ العرش والمذبح» يعرّض نفسَه للشبهة، بتردّده إلى الأوساطِ اللّيبراليّة، في لحظة إنجازِ روايته. ولن يفوتَ البعض أيضاً أن يقرّب موقفَه من موقفِ إدوار ديلون (انظر، الملاحظة رقم: ١٤٧). ومن المحتمل أن يكون مؤلّف هان قد وجد في «هذا النّوعِ من الرّوايةِ النثّرية» مناسبةً «للإفصاح» في الحقيقة، عن بعض الأفكار التي «كانت تضغطُ على ذهنه، والتي لم يكن شعرُنا الفرنسيّ يستقبلُها».

بين الموقعين أدناه، السّيد ڤيكتور هيغو، المقيم في باريس، شارع دوشرش - ميدي، رقم ٣٩، من جهة.

والسّيدين لوكوانت وديراي، المكتبيّين المقيمين أيضاً في باريس، شارع ديزوغوستان رقم ٤٩، من جهةٍ أخرى.

يبيع السيّد هيغو إلى السّيدين لوكوانت وديراي طبعةً ثانيةً مسحوبةً على ألف نسخة من روايته المعنونة بـ «هان الإيسلندي»، بالإضافة إلى ثلاثين نسخة للصّحف، وخمس وعشرين نسخة مقابل كل ثلاث عشرة نسخةٍ وللإدارة، وللمؤلّف عشرين نسخة، وهذا ما يجعل العدد يصل إلى ألفٍ ومئة نسخة تقريباً. إن البيع الحاليّ يجري مقابل مبلغ فرنك وعشرين سنتيماً لكلٍّ نسخة مباعة. وتجري التّسويةُ على النحوِ التالي: السّيدان لوكوانت ودوراي يأخذان مئة نسخة، ويبيعانهما، وعند تسليم المئة الثانية، يسلّمون السّيد ڤيكتور هيغو مبلغ مئة وعشرين فرنكاً، وهكذا دواليك، حتى نهاية الطبعة.

أما نسخُ المئة الزائدة عن الألف، والتي لا تستخدمُ في الطرّق التي أشرنا إليها، فيُدفع ثمنُها إلى السّيد هيغو بناءً على السّعر المتّفق عليه، وهو فرنك وعشرين سينتماً للنسخة الواحدة. سوف يوقّع السّيد هيغو كلَّ عناوين الجزء الأوّل من كتابه، وكلُّ نسخةٍ لا تحملُ ختمه تُعتَبرُ مزورّة، ويحتفظ لنفسه بالحق في ملاحقة من يمتلكها.

يقبل السيدان لوكوانت ودوراي الشرّوطَ المذكورةَ أعلاه، ويلتزمان بالامتثال لها. على نسختين، في باريس، هذا اليوم، التاسع من أيّار، ألف وثمانمائة وثلاث وعشرون.

٥- ڤيكتور هيغو، قارئ لڤالترسكوت

هنا المقالةُ الثالثة التي كرّسها ڤيكتور هيغو لڤالتر سكوت؛ فالمقالةُ الأولى كانت تعالج: «ضابط الصّدفة وخطيبة لاميرمور» (الكونسر ڤاتور ليترير، ٢٥ كانون

الأوّل، ١٨١٩) والثانية تعالج: «إيڤانو» (المرجع السّابق، ٢٠ أيار، ١٨٢٠) وقد صدرت في تموز ١٨٢٣، في العدد الأول من لاميزفرانسيز. (ربّة الشعر الفرنسيّة)، وكانت هذه المقالةُ، بخلافِ المقالتين الأولين، هي مقالةُ شخصٍ متمرّس قد نشر أوّلَ روايةٍ له. ولسوف يراجع نُصَّ المقالة لكي ينشرَها عام ١٨٣٤ في كتاب «الأدب والفلسفة مجتمعان». (انظر: الطبّعة النّقدية التي أثبتها. أ. ر. ف، جيمس. كلينكسييك، ١٩٧٦، المجلّد الثاني، الصّفحات ٢٦-٤٧).

كانتان ديروار

أو

الاسكتلندي في بلاط لويس الحادي عشر

للسّير ڤالترسكوت

(مقتطف).

مترجمٌ عن اللّغة الإنكليزية، على يدِ مترجمِ الرّوايات
التاريخية، روايات السيّد ڤالترسكوت، مع هذه العبارة المقتبسة

الحربُ هي وطني
وسرجي هو منزلي
وفي كلِّ فصلٍ،
القتالُ هو حياتي

(موشّحٌ فرنسيٌّ قديم).

من المؤكّد أن هناك شيئاً غير مألوف ورائعاً في موهبة هذا الرّجل الذي يتصرّف بقارئه، كما تتصرّف الرّيح بورقة، فيطوفُ بها على هواه، في كلّ

الأماكن، وفي كلّ الأوقات» ويكشفُ له باستخفافٍ عن أكثر خفايا القلب سرّية، مثلما يكشفُ عن أكثر ظواهر الطبيّعة خفاءً، وأكثر صفحات التّاريخ غموضاً. هذا الرّجل الذي يهيمنُ خيالُه على المخيّلات كافّةً، ويلبسُ بالصّدق المدهش نفسه أسمالَ المتسوّل ورداءَ الملك، فيتخذُ كلَّ التّصرّفات، ويعتمدُ كلَّ الملابس، ويتكلّم كلَّ اللّغات، ويترك لسيماءِ القرون ما وضعته حكمةُ الربّ من ثابتٍ وأبديّ في ملامحها، وما ألقت به حماقاتُ البشر فيها من متغيّر وعارض: لا يقسرُ، كما يفعلُ بعضُ الروائيين الجهلة، شخصيّات الأيام الماضية التي تتجمّل بخضابنا، وأن تفركَ نفسها بطلائنا البرّاق، بل يجبرُ القرّاء المعاصرين بقدرته السّحرية على أن يستعيدوا، لبضع ساعات، على الأقلّ، روحَ الأزمنة القديمة التي ازدُريت اليوم كثيراً، مثل حكيمٍ ومرشد حاذق، يدعو أبناءه العاقّين إلى الرّجوع إلى منزل آبائهم. ويريد السّاحرُ الماهرُ أن يكون مع ذلك دقيقاً قبل كلّ شيء؛ فهو لا يُنكر على ريشته أيّةَ حقيقة. ولا حتّى تلك الحقيقة التي تنشأ من تصوير الخطأ الذي هو وليدُ البشر الذي نظنّه خالداً. هذا إذا كان مزاجُه المتقلّب والمتغيّر لا يطمئن على استمراره الأبديّ. إن عدداً قليلاً من المؤرّخين أهلٌ للثقة كهذا الرّوائي. ويحسُّ المرءُ أنه قد كان يريدُ أن تكون صوره لوحات، ولوحاتُه صوراً. إنّه يصوّر لنا سابقينا، بأهوائهم ورذائلهم، وجرائمهم. ولكنه يصوّرهم بحيث يجعلُ عدمَ ثبات الاعتقادات الباطلة، وكفر الاستيهام يبرز لديهم على نحوٍ أفضل خلودَ الدّين، وقدسيّةَ المعتقدات. إننا نحبُّ، فضلاً عن ذلك، أن نتعرّف أسلافنا بأحكامهم المسبقة التي غالباً ما تكون جدّ نبيلة، وجدّ سليمة، كما نتعرّفهم من خلال قنزعات قبّعاتهم الجميلة، ودروعهم الجيّدة. كان ذلك الرّجل قلّما يعرفُ العبقرية الشعبيّة؛ فقد كان يحاولُ تجديدَ شباب اللوثر، وإعادة تمليط ملكية شارلمان المطلقة. إن ڤالترسكوت يفهمُ رسالتَه كشاعر، أفضل مما كان ذلك العملاق الأعمى يفهم رسالته كمؤسّس فلنسارعْ إلى قطع هذا التقريب العرضي بين رجلين لهما عالما شهرةٍ مختلفان. ولنكتفِ بالتفكّر بهذا الرّجل الفريد ڤالترسكوت الذي

عرف كيف يخترف من منابع الطبيعة والحقيقة نوعـًا غير معروف، وهو جديد، لأنه يجعل ُنفسه قديمـًا بقدر ما يشاء. وتوفّق ُتأليفاتُه بين صحةَ الوقائع الدّقيقة، وعظمة التّاريخ الجليلة، ومغزى الرّواية الملحّ. إنه عبقريةٌ مقتدرةٌ وعجيبة، وهو يتكهّن بالماضي. إنّه ريشةٌ حقيقيةٌ ترسمُ صورةً صادقةً بناءً على ظلٍّ مشوّشٍ ويجبرُنا على أن نتعرَّف حتى ما لم نره. إنّه فكرٌ مرنٌ ومتين يصطبغ بالطّابع الخاصّ لكلّ قرن، ولكلِّ بلد. وكأنّه شمعٌ طريّ. وهو يحتفظ ُبذلك الطّابع من أجل الأجيال المقبلة. وكأنه برونز راسخ.

لعلّنا قد أسرفنا في التّقدير، غير أنّه يبدو لنا أن عدداً قليلاً من الكتّاب قد أحَسنَ تأديةَ ما تتطلّبُه منه واجباتُ الرّوائيّ بخصوص فنّه وعصره، مثلما أدّاها ڤالترسكوت. لأنه قد يكون خطأ مدانـًا تقريبـًا عند الأديب أن يظنّ نفسَه فوق المصلحة العامة، والحاجات الوطنيّة، وأن يُعفي فكره من كلّ عملٍ يدورُ على معاصريه، وأن يعزل حياته الأنانية عن الحياة الكبيرة لجسم المجتمع؛ فمن الذي يكرّس نفسه إذن، إن لم يكن الشّاعر؟ أيّ صوتٍ يرتفعُ في العاصفة، إن لم يكن صوتَ القيثارة التي تستطيع ُتهدئتَها؟ ومن الذي يتصدّى لأحقاد الفوضى، ولا زدراءات الاستبداد، إن لم يكن ذلك الذي كانت الحكمةُ القديمةَ تُسنُد إليه المقدرةَ على مصالحة الشّعوب والملوك، والذي أعطته الحكمةُ الحديثةُ القدرةَ على التّفريق فيما بينهم؟

إن ڤالترسكوت لا يكرّس البتّة إذن موهبتَه لملاطفاتٍ تتكلّفُ الرّقة، ولدسائس غراميةٍ خسيسة، ومغامراتٍ قذرة؛ فلقد أحسّ، بغريزة مجده التي تحذّره، بأنّ جيلاً قد كتب للتوّ بدمه ودموعه الصفحةً الأكثرَ غرابةً في التواريخ البشريّة كافة، كان يفتقرُ لشيءٍ آخر إضافيّ. إنّ الأزمنةَ التي سبقت مباشرةً، وأعقبت مباشرةً ثورتنا المتشنّجة، كانت من تلك العهود، عهودِ انحطاط القوى التي يعانيها المحمومُ قبل نوباته وبعدها. حينئذٍ. كان تلتهمُ بنهمٍ الكتب الأفظع

تسطحًا، والأكثرَ غباءً في كفرها، والأكثر تشوهًا في فحشها، على يدِ مجتمعٍ مريضٍ قد رمت أذواقُه الفاسدةُ، وملكاتُه المخدّرةُ كلَّ طعامٍ لذيدٍ وصحّي. وهذا ما يفسّر تلك الانتصاراتِ المخجلة التي كان يمنحها حينذاك عاميّو الصّالونات، وشرفاء الحوانيت لكتّابٍ حمقى، أو ماجنين سوف نأنفُ من تسميتهم، وهم الذين آلَ بهم الأمرُ اليوم إلى أن يتسولوا تصفيقَ الخَدَم، وضحكَ الموسات. إن الشعبيَّةَ الآن لم تعدْ توزّعُها الدّهماء. بل تأتي من المنبعِ الوحيدِ الذي يمكن أن يطبعَها بطابعِ الخلودِ والشّمول، وتأييد ذلك العددِ القليل من أصحابِ الأذهانِ المرهفة، والنّفوسِ المتحمّسة، والعقولِ الجادّة التي تمثّل معنويًا الشّعوبَ المتمدّنة. وهذه الشعبيةُ هي التي حصل عليها سكوت، حين اقتبس من حوليّات الأمم تآليفَ يُعدُّها من أجل الأمم كلِّها، وحين استمدَّ كتبًا قد كتبت لكلِّ القرون، من تاريخِ مفاخر القرون. ما من روائيٍّ قد أخفى أكثر منه تعليمًا أكثر تحت سحرٍ أكبر وحقيقة أكبر، تحت التخييل. ثمّة مزجٌ واضحٌ للعيان بين وحيه الشّعري، وكلِّ وحيٍ شعريّ. ويمكن أن تُعتبر رواياتُ سكوت الملحميّة مرحلةً انتقاليةً بين الأدبِ الرّاهن والملاحمِ الكبرى التي يعدُنا بها عصرُنا الشّعريّ، ولسوف يقدّمها لنا(*).

(*) - لقد قدَم لنا حتى الآن، في الواقع: «الشّهداء» لأن هؤلاء الشعراء وحدهم هم الذين ينكرون عليه الإكليل الملحمّي، ويودّون أن يزينوا بها ملحمة هنري (هنريادا) القاحلة؛ تلك الصحّيفة المكتوبة شعراً تحاشى فيها ڤولتير الشّعر بعنايه، كما نتحاشى صديقًا نريدُ أن نخاصمَه(١).

(١) - ملاحظة حذفُت من كتاب: الأدب والفلسفة مجتمعان، حيث يتضمنُ النَّصَّ ما يلي: «ثمّة امتزاجٌ ظاهرٌ للعيان بين الشكل الخاصّ بالنّص، وكافةِ الأشكال الأدبيةِ. أشكالِ الماضي والمستقبل. ويمكنَنا أن نعتبرَ رواياتِ سكوت الملحميّة مرحلةً انتقاليةً من الأدب الحاليّ إلى الرّواياتِ الضخمة، وإلى الملاحم الشّعرية أو النثرية التي يعدُنا بها عصرُنا الشعَري، ولسوف يعطينا إياها.

بعد أن بيّنا كيف يسعى سكوت إلى تحسينِ عصره، لنحاولْ أن نظهر كيف يطمحُ إلى إتقان فنّه، بتقريبه من الطّبيعة؛ فماذا ينبغي أن تكون، في الواقع، غايةُ الرّوائي؟ هي أن يعبّر، من خلال حكايةٍ مثيرةٍ للاهتمام، عن حقيقةٍ مفيدة. فبعد أن يختارَ الروائيُّ هذه الحقيقة الأساسيّة ويبتكرَ هذا الحدثَ التأويليّ، ألا يتعيّنُ عليه أن يبحثَ، بغيةَ التّفصيل فيها، عن أسلوبٍ لتنفيذ ذلك يجعلُ روايتَه شبيهةً بالحياة، وعن محاكاةٍ تماثل النموذج؟ والحياة! أليست مسرحيةً غريبةً يمتَزج فيها الحسنُ والشيءُ، الجميلُ والقبيحُ، والأعلى والأدنى، وهذا قانونٌ لا تنتهي قوتُّه إلاّ خارجَ الخليقة. هل ينبغي، والحالةُ هذه، أن يكتفي المرءُ، شأن الفلمنديّين، بلوحات قاتمة، أو شأن الصّينيينّ بلوحاتٍ مضيئة بكاملها. في حين أن الطَّبيعة تُظهر في كلٍّ مكانٍ صراعَ الظلِّ والنّور؟ وهكذا، فإن الرّوائيين، قبل ڤالترسكوت، كانوا قد تبنّوا عموماً طريقتين في التأليف متعاكستين، وكلاهما فاسدتان، لأنَهما بالتّحديد متعاكستان؛ فكان الأوّلون منهم يعطون مؤلَّفهم، شكلَ حكايةٍ مقسّمةٍ على نحوٍ تعسَّفي إلى فصول، من غير أن يخمّنَ المرءُ السّببَ في ذلك، أو حتى لإراحة ذهن القارئ وحسب، كما يعترفُ بكلِّ سذاجةِ العنوان: DESCANO (راحة) الذي وضعه مؤلّفٌ إسبانيّ(*) قديم في مقدمة فصوله. أما الآخرون، فكانوا يبسطون حكايتهم من خلال سلسلةٍ من الرّسائل التي يفترضون أن مختلف الأبطال في الرّواية قد كتبوها. أما في القصّ، فإن الشّخصيّاتِ تختفي، ويظهر دوماً المؤلّف، وفي الرّسائل، يحتجبُ المؤلّفُ لكي لا يُظهر البتَة إلاّ شخصيّاته.

(*) - هو ماركوس أو بريغون الذي له أفضالُ كبرى إلى حدٍّ كاف على لوساج، مع أنّه لا يدين له، كما يؤكدّ ڤولتير، بروايته البارعة جيل بلاس. ولقد جرى تناولُ هذه الادّعاءاتِ مجدّدًا، في أيّامنا، على يدِ العالم لورينتيه. وقد تصدّى لتلك الادّعاءاتِ بنجاحٍ وموهبةِ الكونت فرانسوا دونوفشاتو. وقد استمدّ لوساج من أوبريغون بعضَ الأفكار التي، إن لم تكن مضحكةً، فهي على الأقلّ طريفة. ولكن بتهذيبٍ فظاظةِ القاصَ القشتالي، وغالباً ما نَزَع منه صراحتَه اللاذعة، وأصالتَه الفريدة.

إن الرّوائي القاص َلا يمكنُه أن يفسحَ في المجال للحوار الطبّيعيَ، وللحدَث الحقيقيّ، وينبغي أن يستبدل بهما حركةً أسلوبيّةً رتيبةً معينة، أشبه ما تكون بقالبٍ تتخذُ فيه الحوادثُ الأكثر اختلافًا الشّكلَ نفسه. وتحت هذه الحركة، تتلاشى الإبداعاتُ الأكثر رقيًا، والابتكاراتُ الأكثر عمقًا، مثلما تتسطّحُ نتواءاتُ حقلٍ تحت المحدلة: إن كلُّ شخصيّةٍ تصلُ بدورها مع رسالتها. على طريقة أولئك الممثلين الجوّالين الذين يظهرون بالتّتابع، لأنّه ليس بوسعهم أن يظهروا إلاّ الواحد منهم عقبَ الآخر، ولا يُسمح لهم بالكلام على المسرح، فيحملون فوق رؤوسهم لافتةً كبيرة يقرأُ الجمهورُ عليها دورَهم. ويمكنُ أيضًا أن نشبّه هذه النّتاجات الرّسائليّة بتلكَ الأحاديث المثابرة، أحاديثِ الصُّمِ البكم الذين يكتبُ بعضهُم إلى البعضِ الآخر، بصورةٍ متبادلة، ما يريدون قوله، بحيث يُلزمُهم غضبُهم أوفرحُهم أن تكون الرّيشة بيدهم باستمرار، وأن يكون ظرفُ أدوات الكتابة في جيبهم. وأنا أتساءل، والحالة هذه إلامَ يؤول ما يناسبُ عتابًا رقيقًا، إذا ما نُقل إلى البريد؟ ثم ألا يضيقُ المجالُ قليلاً بانفجارِ الأهواءِ الجامحِ بين المقدّمة الإلزامية، وعبارة المجاملة اللّتين تشكلان مقدّمةَ ومؤخّرة أيةِ رسالةٍ كتبها إنسانٌ حسنُ التّهذيب؟ هل نظنُّ أن موكبَ المجاملات، ومتاعَ الكياسات يسرّعان تقدُّمَ التّشويق، ويحثّان سير الحدث؟ ألا ينبغي، أخيرًا، أن نفترض وجودَ عيبٍ جذريّ، ولا يمكن تخطيّه، في مثل هذا النّوع من التأليف الذي استطاعَ أحيانًا أن يجعلَ بلاغةَ روسّو الحارّة تبرد؟

لنفترضْ، والحالة هذه، أنّه، بدلاً من الرّواية الحكائية التي يظهر فيها أن المؤلّفَ قد فكرّ بكلّ شيء، باستثناءِ التشويق، حين تبنّى الاستخدامَ العبثي لاستباق كلِّ فصل بموجزٍ غالبًا ما يكون مفصّلاً، وهو أشبهُ ما يكونُ بقصّةٍ في القصّة. لنفترضْ أنه، بدلاً من الرواية الرّسائلية التي يمنع شكلُها ذاتُه كلَّ احتدادٍ وكلَّ سرعة، لنفترض أن ذهنًا مبدعًا يحلُّ الرّواية المسرحية التي يجري فيها الحدَثُ الخيالي من خلال لوحاتٍ حقيقيّةٍ ومتنوّعة، مثلما تجري الحوادثُ الواقعيةُ في

الحياة، والتي لا تعرفْ أيَّ تقسيمٍ غير تقسيم المشاهد المختلفة المطلوب تفصيلُها، والتي هي، أخيراً، مسرحيةٌ طويلةٌ تقومُ فيها اللّوحاتُ الوصفيّةُ مقامَ زخارفِ المكان والملابس، ويمكن للشخصيّات أن ترسُمَ من خلالها ذاتها، وأن تمثّلَ، من خلال تصادماتها المختلفة والمتعدِّدة، كلَّ أشكالِ فكرةِ الكتابِ الوحيدة، ولسوف تجدون في هذا النّوعِ الجديد ميزاتِ النوّعين السّابقين مجتمعة، من غير سيّئاتها.

وحين تصبحُ تحت تصرُّفك وسائلُ المسرحيةِ التصويرية والسّحرية، إذا صحَّ القولُ، يمكنُك أن تتركَ خلفَ المسرح، تلك التفاصيل الألفَ العديمة النفّع والعابرة، والتي يتعيّنُ على القاصّ البسيط أن يعرضها مطوّلاً، إذا شاء أن يكون واضحًا، فيضطرٌّ لمتابعةِ ممثلي حدثه خطوةً خطوة، وكأنّهم أطفالٌ تحت الوصاية الدّقيقة. ويمكنُك أن تفيدَ من هذه السِّمات العميقة والمفاجئة، والتي هي أكثر خصبًا بالتأمّلات من صفحاتٍ بكاملها، وهي السّماتُ التي تبرزُها حركةُ مسرحٍ معيّن، ولكنّ سرعةَ القصّةِ تستبعدُها.

هذا هو النّوع الذي قدَّم السّير ڤالترسكوت عنه العديدَ من النّماذج الممتازة: ولعلّه لم يقبلْ صراحةً كلَّ شروطِ هذا الإبداع بعد. غير أنّه إذا كان لم يبلغْ حتى الآن هدفه دائمًا، فقد شقّ الطريق إلى ذلك، على الأقلّ. ولقد انقضّت عليه بسببِ ذلك ضروبٌ من النقّد التي لم تخمدْ، أثناء مسيرته الإبداعية، فلابدَّ لذلك الذي يستصلحُ مستنقعًا من أن يقبل سماعَ الضّفادع، وهي تنقّ حوله...[2].

* * *

(١) - ملاحظة حذفت من كتاب: الأدب والفلسفة مجتمعان، حيث يتضمن النص مايلي: «ثمة امتزاج ظاهر للعيان بين الشكل الخاص بالنص، وكافة الأشكال الأدبية، أشكال الماضي والمستقبل. ويمكننا أن نعتبر روايات سكوت الملحمية مرحلة انتقالية من الأدب الحالي إلى الروايات الضخمة، وإلى الملاحم الشعرية أو النثرية التي يعدنا بها عصرنا الشعري، ولسوف يعطينا إياها.

(٢) - مقطع أُعيدت كتابتُه بأكمله في عام ١٨٣٤. وقد تمّ إغناؤه بهذه العبارات المنذرة: «بعد الرّواية التّصويرية، بل النثرية، تبقى رواية ڤالترسكوت روايةً أخرى ينبغي إبداعُها. وهي أجملُ، وأكثر كمالاً أيضًا حسب رأينا. إنّها الرّواية التي تجمعُ بين المسرحية والملحمة؛ فهي تصويريةٌ، ولكنّها شعريّة، وواقعيةٌ، ولكنها مثاليّة، وحقيقيةٌ ولكنها عظيمة. وهي التي تدمج سكوت بهوميروس.

٦- مقدمة عام ١٨٣٣ (طبعة راندويل).

إن هان الإيسلندي كتابٌ من تأليف شابٍّ صغيرِ السّن، وصغيرِ السِّنّ جداً. يشعر المرءُ، وهو يقرؤه أن الصَبيَّ الذي يبلغ ثمانية عشر عاماً، والذي كان يكتب «هان الايسلندي» بصورة محمومة، عام ١٨٢١، لم تكن لدية أيّةُ خبرةٍ بالأشياء، وأيَّةُ خبرةٍ بالناس، وأيّةُ خبرةٍ بالأفكار، وأنه كان يسعى ليخمّن كلَّ ذلك تخميناً.

في أيِّ مؤلَّف من مؤلّفات الفكر، مسرحيةً كان أم قصيدةً أم رواية، تدخلُ مقوّماتٌ ثلاث: ما أحسَّ به المؤلّف، وما لاحظه، وما تكهّن به.

وفي الرّواية خصوصاً، ولكي تكون جيّدة، يجب أن تكون هناك أمورٌ كثيرة محسوسة، والكثير من الأمورِ الملاحظَة والأمور التي يجري تخمينُها تشتّق بصورةٍ منطقية، وببساطة، ومن غير قطع مع الأمور الملاحَظة والمحسوسة.

وإذا ما طبقنا هذا القانون على هان الإيسلنديّ، نبرزُ بسهولةٍ، ما يشكّل، قبلَ كلِّ شيء، عيبَ هذا الكتاب.

ليس في «هان الإيسلندي» إلاّ شيءٌ واحدٌ محسوسٌ، هو حبُّ الفتى. وإلاّ شيء ملاحَظٌ، هو حبُّ الفتاة. أما البقيةُ كلّها فقد خُمِّنت تخميناً. أي ابتكرت ابتكاراً. لأن اليفاعة التي لا تمتلكُ وقائعَ، ولا تجربة، ولا نماذجَ وراءها، لا تتكهَّن إلاَّ تخيُّلاً. وهكذا، فإنَّ هان الإيسلنديّ، إذا ما سلّمنا أنها تستحقُّ عناءَ التصنيف ليست سوى روايةٍ خيالية.

عندما ينقضي الفصلُ الأوّل، وحين ينحني الجبين، وحين يشعرُ المرءُ بالحاجة إلى أن يصنعَ شيئاً آخر غير القصص المثيرة لكي يخيف العجائز والأطفال الصّغار، وحين يكون المرءُ قد استهلك، باحتكاكه مع الحياة، فظاظات فتوّته، يقرُّ بأن كلَّ ابتكارٍ، وكلَّ إبداعٍ، وكلَّ حدسٍ فنيّ ينبغي أن يكون أساسَه الدّراسةُ والملاحظةُ، والتأمّلُ الجدّي، والتصويرُ اليقظُ والمتواصلُ لكلِّ شيءٍ عن الطبيعة، والنقدُ

الضميري للذات، والإلهامُ الذي يتحرّرُ، حسب هذه الشّروط الجديدة، فلا يخسرُ فيها شيئًا، بل يكسبُ نَفَسًا أوسع، وأجنحةً أقوى.

إن الشاعرَ، حينئذٍ يعرفُ تمامًا إلى أين يسير. إن كلْ أحلام يقظَته الحائرة، أحلامِ سنيه الأولى تتبلور، إذا صحّ القولَ وتصبحُ فكرًا. وهذه المرحلةُ الثانية من الحياة تكون، بالنسبة للفنان عادةً، مرحلةَ الأعمالِ الكبرى. إنّه لا يزالُ شابًا، وقد أصبح ناضجًا. إنّها الفترةُ الثّمينة، والنقطةُ الوسطى، ونقطةُ الأوج، والسّاعةُ الحارّةُ والمشعّة، ساعةُ الظّهيرة، واللّحظةُ التي يكون فيها أقلُّ قدرٍ من الظّل، وأكبرُ قدرٍ ممكنٍ من الضّوء.

هناك فنانون رفيعو الشأن، ويمكثون في تلك القمّة كلَّ حياتهم؛ فلقد ترك شكسبير وميشيل أنجلو على بعضِ أعمالهم طابع فتوّتهم. أما أثرُ شيخوختهم، فلم يتركوه على أيٍّ منها.

ولكي نرجع إلى الرّواية التي ننشر هنا طبعةً جديدةً لها، بما فيها من حدثٍ متقطّع ولاهث، ومن شخصيّاتٍ متخشّبةٍ، وبما فيها من ضروب الارتباك الوحشيّ، ومن مسارٍ متعالٍ وأخرق، ومن حالاتِ التأمّلِ الحالم السّاذجة، وبألوانها المتجاورة من كلِّ نوع، بلا مراعاةٍ للعين، وبأسلوبها الفجّ، الصّارم واللاّذع، من غير تفريقاتٍ لونية، وبراعات، وبالإفراطاتِ العديدة من كلِّ نوع، والتي ترتكبها من غير علمٍ منها، في الطّريق، فإن هذا الكتاب يمثّل، بصورةٍ حسنة، تلك الفترة من الحياة التي كُتبت فيها، وتلك الحالة النفسيّة الخاصة، وحالةَ الخيار والقلب، في فترة اليفاعة، حين يكون المرءُ عاشقًا في أولٍ حبٍّ له، وحين يحوّل إلى عوائق هائلة وشاعرية تلك الموانع البورجوازية للحياة، حين يكون الرأسُ مليئًا بالنّزوات المتطلّقة البطولية التي تكبرُ أمام عينيك. وحين يكون المرءُ قد غدا رجلاً في جانبين أو ثلاث، ولا يزال طفلاً في عشرين جانبًا آخر. وحين يكون المرء قد قرأ دوكراي - دومينيل، في الحادية عشرة من العمر، وأوغست لافونتين،

في الثالثة عشرة، وشكسبير، في السّادسة عشرة. وهذا سلّمٌ غريب وسريعٌ قد جعلك تمرّ فجأة، في ميولك العاطفية، من التافه إلى العاطفيّ، ومن العاطفيّ إلى السّامي (١).

وذلك لأن هذا الكتاب، حسب رأينا، والذي هو عمل ساذجٌ قبل كلّ شيء، يمثّل بأمانةٍ العمرَ الذي أنتجه، إنّما نقدّمه من جديد إلى جمهور عام ١٩٣٣، كما صُنع في عام ١٨٢١.

ومن جهةٍ أخرى، فيما أنّ المؤلّفَ، مع أنه يشغلُ مكاناً صغيراً في الأدب، قد خضع للقانون المشترك بين كلّ الكتاب، كبارهم وصغارهم، وهو أن يشهدَ

---

(١) - أوغست لافونتين (١٧٥٨ - ١٨٣١)، هو الممثّل الرئيس في ألمانيا للرّواية العائلية العاطفية. أما فرانسوا - غليوم دوكراي - دومينيل (١٧٦١ - ١٨١٩)، فهو، على الخصوص مؤلّف: ڤيكتور أو طفل الغابة (الذي طبع ٣٧ مرّة، خلال القرن التاسع عشر) «كانت السّيدة تيناردييه على درجةٍ كافية تماماً من الذّكاء بحيث تقرأ تلك الأنواع من الكتب» (البؤساء، الكتاب الأول، الفصل الثاني، رقم: ٢)، وكان المؤلفان كلاهما واردين في فهرس الرجّل الطيّب روايّول، مؤجّر الكتب الذي كانت تتردّد عليه السّيدة هيغو وأبناؤها، في عهد الإمبراطورية: «كان الصّغار هيغو يرقدون على الأرض، على بطونهم، ويقرؤون، في تلك الفوضى المختلطة، ما كان يقعُ تحت أيديهم: دوكريه - دومينيل، وڤولتير، وأسفار الكابتن كوك، وروسّو، وريتيف دولا بروتون، وديدرو، والمعاصرات الحاصلات على الجوائز. وكانوا يقرؤون في الوقت نفسه الرّوايات الباهتة والعاطفية. وأعمالَ الفلاسفة، وكتبَ العلم، والمؤلّفات الفاسقة ...» (روايّول الرّجل الطيب ...) (مجلّة التاريخ الأدبي لفرنسا ١٩٦٢، الصّفحة ٥٧٦:

LA REVUE d´HISTOIRE LIT TE RAIRE DE LA FRANCE.

أما عن شكسبير، فيقرّ هيغو عام ١٨٦٨ بأنّه «لم يعرفْ بعمقٍ المسرح الإنكليزي، إلاّ في وقتٍ متأخّرٍ جداً». وخصوصاً من خلال الترجمةِ التي قدّمها عنه فرانسوا - ڤيكتور. إن سبعة عباراتٍ توجيهية قد اقتُبست مع ذلك عن شكسبير الذي كان غيزوعام ١٨٢١ قد وضع مقدّمةً لترجمته التي أنجزها لوتورنور، وقد روجعت في تلك المناسبة.

ارتفاعَ شأنِ مؤلّفاتِهِ الأولى على حسابِ مؤلّفاته الأخيرة، وأن يسمعَ من يصرّحُ بأنّه كان أبعدَ بكثير من أن يحتفظَ بالقليلِ الذي كانت تَعدُّبه بداياتُه. فمن غير أن يعارضَ الاعتراضاتِ التي قد تكون مشبوهةً إذا أتت على لسانه بنقدٍ ربّما يكون مُنصفًا وراسخًا، يظنّ أنه يتعيّنُ عليه أن يُعيد طبعَ مؤلّفاته الأولى كما كتبها، بلا قيدٍ ولا شرط، لكي يجعل القراء قادرين على أن يقرّروا، فيما يخصُّه إن كانت خطواتٍ إلى الأمام أم خطواتٍ إلى الوراء تلك التي تفصلُ «هان الإيسلندي» عن نوتر دام الباريسيّة.

پاريس، أيّار، ١٨٣٣

* * *

مـراجـع

١- طبعات:

انظر مقالة: ف. ميشو - نشرة هُواة الكتاب في ٢ شباط ١٩٣٤، الصفحة: ٩١--٩٤.

هان الإيسلندي، برسان وشركاه، التي أعلن عن صدورها في ٨ شباط ١٩٢٣.

هان الإيسلنديَ «الطبّعة الثانية» لوكوانت وديراي، وقد أعلن عنها في ٢٦تموز، ١٨٢٣.

هان الإيسلندي، شارل غوسلان وهيكتور بوسّانج. أعلن عن صدورها في ٧ شباط ١٨٢٩.

[إنها زيٌّ جديد «للطبعة الثانية» تحت شعار «غوسلان»].

هان الإيسلندي، مؤلّفات ڤيكتور هيغو، الرّواية، ٤، أوجين راندويل، وقد أُعلِن عن صدورها في الأول من حزيران، ١٨٣٣.

نحن نعيد نشرَ نصّ «الطّبعة الثانية»: «فالطبّعةُ الجديدةُ التي روجعت جيداً هي الطبعةُ الوحيدةُ التي أقرّها. مؤلّف «هان الإيسلندي»، العلم الأبيض، ٢١ أيار، ١٨٢٣.

ترجمة:

هان الإيسلندي: «Hans of iceland»، ترجمة انكليزية مغفلة، لندن، ج. روبنس وشركاه، ١٨٢٥، طبعة شهيرة برسومها الأربعة التي نفّذها جورج كرويكشانك: «إن تأثيرها لم يكن مستحبّاً، ولكنّها مخيفة».

(ڤيكتور هيغو إلى السيّدة ڤيكتور هيغو، ٢٤ أيّار، ١٨٢٥).

اقتباسات:

هان الإيسلنديّ: ميلودراما (مشجاة) في ثلاثة فصول، وثماني لوحات ذات إخراج ضخم، للسّادة بالمير وأوكتو ورامو، وموسيقا م. أدريان. ج. ن. باربا، ١٨٣٢. (مثّلت للمرّة الأولى في مسرح لاميغو - كوميك، في ٢٥ كانون الثاني، ١٨٢٣).

هان الإيسلندي: مشجاة في ثلاثة فصول، وتسع لوحات، لجيرار دونير ڤال (١٨٢٩)، وهي مخطوطة نشرتها جيزيل ماري. في: أعمال لم تنشر لجيرار دونيرڤال، ميركور دوفرانس، ١٩٣٩.

إن مخطوطة هان الإيسلندي لم تصل إلينا، فقد ضاعت، بلا شكّ، أثناء فترة إفلاس ناشرها الأوّل.

٢ - «أمضيت الكثير من الوقت في جمعِ مواد تاريخيّة وجغرافية من أجل هذه الرّواية» (من ڤيكتور هيغو إلى أديل فوشيه، في ١٦ شباط، ١٨٢٢).

پول- هنري- مالّيه: -تاريخ الدانمرك، الطبعة الثالثة، جنيڤ، ١٧٨٧-١٧٨٨، تُعيدُ هذه الطّبعة، في مجلّديها الأوّلين نشر: مدخل إلى تاريخ الدانمرك، (١٧٥٥)، روائع أساطير وأشعار السّلتيين والسّكندناڤيين القدماء خصوصاً) ١٧٥٦.

جوهان-كريستيان فابريسيوس، رحلة إلى النرّويج، بالإضافة إلى ملاحظاتٍ حول التاريخ الطبّيعي والاقتصاد، باريس، لوڤرو، السّنة العاشرة (١٨٠٢).

٣ - دراسات:

سير ڤيه إيتيين؛ مصادر «بوغ-جارغال» (مع إضافة لبعض مصادر «هان الإيسلندي» بروكسيل، ١٩٢٣.

س. بييس: «أصل الطّابع المحلّي السّكندناڤي في هان الإيسلندي لڤيكتور هيغو». «مجلّة الأدب المقارن» ١٩٢٩، الصّفحة: ٢٦١- ٢٨٥.

(انظر: «الملاحظة الإضافية» ل. س. إيتيين. ص: ٧٤٥- ٧٤٦. لويس بارتو: «هل قرأتم هان الإيسلندي؟» روڤو دو باري، ١٥ حزيران، ١٩٣٢. الصّفحات: ٧٢١-٧٤٦.

جان - برتران باريّر، «من الهوسيّ إلى السُّخريّ»، الخيال المبدع عند ڤيكتور هيغو، المجلّد الأول، كورتي، ١٩٤٩، الصّفحات (٥١-٧٩).

شارل - روبير ماتوران، برترام، أو قصر ألدوبران، طبعةٌ مشروحة ومسبوقة بمدخل عن «ماتوران والرومنسيين الفرنسيين»، لمارسيل. أ. روف. كورتي. ١٩٥٥.

پيير-ميكيل، هيغو سائحاً(١٨١٩-١٨٢٤). لا بالاتينا، ١٩٥٨.

م. لاروتيس، «ج. دوميستر وف. هيغو: الجلاّد في هان الإيسلندي».

مجلة التاريخ الأدبي في فرنسا:

REVUE DE L´ Histoire LittERAIRE EN FRANCE. ١٩٦٢،

الصّفحات: ٥٧٢-٥٧٥.

جورج بيرويه، هيغو روائيـاً، دو نويل، ١٩٦٤.

جان غودون، «من كرّاسـات ڤيكتور هيغو (١٨٢٠-١٨٢١) المتضمّن في «ڤيكتـور هيغـو، الأعـمـال الكاملة، طبعـة متسلسلة تاريخيـاً، تحت إدارة جـان ماسّان، المجلّد الأولّ، ١٩٦٧، الصفحة ١١٦١، ١١٨٦.

برنار لويّـو، «صيف عام ١٨٢١» المرجع السّابق، المجلد: ٢، الصّفحـات ١-١٤.

إيڤ غـوان: تقـديم هان الإيسلندي، المرجع السّـابق، المجلد الثـاني، ص: ٥٥-٨٤.

* اللقّاءات والتّيارات الأدبيّة الفرنسية السّكندناڤية: المكتبة الشّمالية، ٤، مـينار ١٩٧٢ (ريـجيس بوايّيـه، «موضـوع راينار لو بروك في الآداب الفـرنسيـة» الصـفـحـة: ٤١-٥٤، پيـيـر رونو، الأزمنة السّكندناڤيـة القـديمة، في أعـمـال شاتوبريان»، الصّفحات: ٥٥-٧٤).

* آني ّأوبر سفيلد، «الخيرّون والشّرير». ، مجلة العلوم الإنسانية، نيسان- حزيران، ١٩٧٦، الصّفحات: ١٩٣-٢٠٣.

هنري ميشوينك، كتابة هيغو، غالّيمار، ١٩٧٧ («هان الإيسلندي»)، المجلّد الثاني، الصفحات، ٤٨-٥١).

٤ - السّيرة:

آبيـه پيير ديبـوا، سيـرة ومؤلّفـات ڤـيكتـور هيـغـو، من ١٨٠٢-١٨٢٥، شامبيـون، ١٩١٣ أوبير جوان، ڤيكتور هيغو (١٨٠٢-١٨٤٣)، فلاماريون، ١٩٨٠.

* * *

الفهرس

الصفحة

مقدمة: روبير لوير	٥
مقدمة المؤلف: ڤيكتور هيغو	٢٧
ملاحظة	٢٩
هان الإيسلندي	٣٩
الفصل الأول	٣٩
الفصل الثاني	٥٦
الفصل الثالث	٦٠
الفصل الرابع	٦٩
الفصل الخامس	٧٤
الفصل السادس	١٠١
الفصل السابع	١١٢
الفصل الثامن	١٢٧
الفصل التاسع	١٤١
الفصل العاشر	١٦٤

	الصفحة
الفصل الحادي عشر	١٧٤
الفصل الثاني عشر	١٨٥
الفصل الثالث عشر	٢٣٢
الفصل الرابع عشر	٢٤٣
الفصل الخامس عشر	٢٥٣
الفصل السادس عشر	٢٦١
الفصل السابع عشر	٢٧٤
الفصل الثامن عشر	٢٧٧
الفصل التاسع عشر	٢٨٧
الفصل العشرون	٣٠٣
الفصل الحادي والعشرون	٣٠٨
الفصل الثاني والعشرون	٣١٤
الفصل الثالث والعشرون	٣٤١
الفصل الرابع والعشرون	٣٤٥
الفصل الخامس والعشرون	٣٦٩
الفصل السادس والعشرون	٣٩٩
الفصل السابع والعشرون	٤٠١
الفصل الثامن والعشرون	٤٠٥

الصفحة

الفصل التاسع والعشرون	٤٢٩
الفصل الثلاثون	٤٤٥
الفصل الحادي والثلاثون	٤٥٧
الفصل الثاني والثلاثون	٤٧٤
الفصل الثالث والثلاثون	٤٧٦
الفصل الرابع والثلاثون	٤٨٣
الفصل الخامس والثلاثون	٤٨٩
الفصل السادس والثلاثون	٤٩٤
الفصل السابع والثلاثون	٥٠٧
الفصل الثامن والثلاثون	٥٢٥
الفصل التاسع والثلاثون	٥٣٠
الفصل الأربعون	٥٤٥
الفصل الحادي والأربعون	٥٦١
الفصل الثاني والأربعون	٥٦٦
الفصل الثالث والأربعون	٥٧٦
الفصل الرابع والأربعون	٦١٠
الفصل الخامس والأربعون	٦٢٨
الفصل السادس والأربعون	٦٤٢

الصفحة

الفصل السابع والأربعون ٦٤٧

الفصل الثامن والأربعون ٦٥٠

الفصل التاسع والأربعون ٦٦٤

الفصل الخمسون ٦٧٥

الفصل الحادي والخمسون ٦٩١

خاتمة ٦٩٤

ملف هان الإيسلندي ٦٩٩

ملحقات ٧٠٥

مبارزة الهوة ٧٠٧

مراجع ٧٣٦

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

زياد العودة

- من السويداء - سورية - ١٩٤٦.
- متخرج من قسم اللغة الفرنسية - جامعة دمشق ١٩٦٧.
  دبلوم عامة في التربية من الجامعة نفسها ١٩٦٨.
- مدرس للغة الفرنسية بين الأعوام: ١٩٦٨-٢٠٠٥.
- منشط تربوي (١٩٩٤-٢٠٠٥) ومشترك في تأليف كتب لمعاهد تدريس اللغة الفرنسية.
- عضو اتحاد الكتاب العرب - جمعية الترجمة (١٩٩٤).
- أنجز ترجمات عن الفرنسية.
- أعد دراسات ومحاضرات في النقد الأدبي (العربي والفرنسي) وأبحاثاً في تجارب الترجمة.

❖ **من ترجماته:**

- أسطورة دون جوان، لمؤلفه: جان روسيه.
- أسطورة أوديب، لمؤلفته: كوليت استيه.
- مالرو : لمؤلفه : بول غايار.
- مورياك: لمؤلفه: أندريه سياي.
- الثورة الفرنسية، لمؤلفيه: دوني رشيه وفرانسوا فوريه.
- أزمة مفهوم الأدب في فرنسا في القرن العشرين، لمؤلفه: ألبير ليونار.
- كولومبا (الأعمال القصصية الكاملة) لمؤلفها: بروسبير ميريميه.
- كارمن (الأعمال القصصية الكاملة) لمؤلفها: بروسبير ميريميه.

* بيـن روايـات فيكتـور هوغو التي كتبهـا على مدى خمسيـن عاماً، «هان الإيسلنـدي» هـي أولاهـا. وقد أنجزها هوغـو الشاب وهو فـي الحادية والعشريـن مـن عمـره. وتنعكـس فيها نزعتـه المحافظة فـي بداياته، وتأييـده للحكـم الملكـي، والقيـم التقليديـة، مـع شـيء مـن الـرّوح الانتقاديـة، ولكنهـا أيضـاً روايـة الإخلاص، والتمسّـك بالتطلعات الإنسانية السّامية.

* إن موضوع دخيلة الإنسان تتقدم عند هوغو على مظهره، حتى وإن كان مسخاً مرعباً على شاكلة مبغض البشر هان الإيسلندي، وهذا الموضوع ينبثـق مجـدّداً فـي روايـات أخـرى لهوغـو، ويجـري تناولـه مـن زوايا ومناظير مختلفة.

* إنهـا روايـة متفائلـة ومشرقـة برغـم كل شـيء، ولا تتخللهـا واقعية مصطبغـة بظلالٍ مأساويـة، كما في روايات هوغـو العظيمة اللاحقة. ولكنهـا تمثّـل تلـك الفتـرة مـن الحيـاة التي كُتبـت فيها، وهـي رواية خياليـة بامتيـاز، كما يقـول النقـاد، والتجربة الروائيـة فيها في طور التكويـن والاكتمـال، غير أنهـا أيضاً نتاج خارق «للطفـل السّامي» كما كان يقول عنه شاتوبريان.

* إن وزارة الثقافة، على غرار المشاريع التي قدّمتها في السنوات الأخيرة، تقـدم هذه الروايـة للقارئ العربي، في إطار الأعمـال الروائية الكاملة لهوغـو، وتأمـل أن يسهـم ذلـك فـي إغنـاء المكتبـة العربيـة بأعمـال المبدعين في الآداب العالمية.

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ٤١٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ٨٢٠ ل.س